السِّيرةُ العسكريّةُ لأمير المُؤمِنينَ عَلي عليه السلام

الشيخ علي حسن غلوم

دار الولاء
www.daralwalaa.com

السِّيرةُ العسكريّةُ
لأمير المُؤمِنينَ عَلي عليه السلام

الشيخ علي حسن غلوم

السِّيرةُ العسكريّةُ
لأمير المُؤمِنينَ عَلي عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الكتاب

١. **مقدمة المؤلف** ١١
٢. **تعريف بشخصية الإمام** ١٥
٣. نسبه الشريف ١٧
٤. مولده ١٧
٥. والداه ١٨
٦. كنيته ٢٠
٧. ألقابه ٢٠
٨. زوجاته ٢١
٩. أولاده ٢٢
١٠. صفته في أخلاقه ٢٣
١١. **الشجاعة في اللغة والدين والتاريخ** ٢٥
١٢. الشجاعة في اللغة ٢٧
١٣. مرادفات وكلمات ذات معنى مقارب ٢٩
١٤. الفتوة ٣٣
١٥. الشجاعة في القرآن والسنة ٣٤
١٦. الإمام يتحدث عن الشجاعة ٣٥
١٧. الشجاعة في كلمات العلماء ٣٨
١٨. الشجاعة في الشعر العربي ٤٠
١٩. الشجاعة في الأمثال العربية ٥١
٢٠. من أخبار الشجعان ٥٢
٢١. الجبن في الأدب العربي ٦٠

٢٢. **شجاعة بني هاشم** ٦٥
٢٣. شجاعة رسول الله ٦٩
٢٤. شجاعة عبدالمطلب بن هاشم ٧٢
٢٥. شجاعة أبيطالب بن عبدالمطلب ٧٩
٢٦. شجاعة حمزة بن عبدالمطلب ٨٢
٢٧. شجاعة صفية بنت عبدالمطلب ٨٧
٢٨. شجاعة أم هانئ بنت أبي طالب ٨٨
٢٩. **الإمام عليه السلام يتحدث عن شجاعته** ٩١
٣٠. تمهيد ٩٣
٣١. لماذا نمتدح الشجاع ٩٤
٣٢. نماذج من كلمات الإمام ٩٦
٣٣. الإمام يبين أسباب انتصاراته ١٠٤
٣٤. **قالوا في شجاعته عليه السلام** ١١١
٣٥. النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ١١٣
٣٦. الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ١١٤
٣٧. عمرو بن معديكرب ١١٤
٣٨. عبيدالله بن عمر ١١٤
٣٩. عمرو بن العاص ١١٥
٤٠. جابر بن عمير الأنصاري ١١٧
٤١. خفاف بن عبدالله الطائي ١١٨
٤٢. عبدالله بن عباس ١٢٠
٤٣. بشر بن المعتمر المعتزلي ١٢٢
٤٤. العلامة الإسكافي ١٢٢
٤٥. الشريف الرضي ١٢٣
٤٦. الشيخ المفيد ١٢٤
٤٧. ابن عبدالبر الأندلسي ١٢٧

٤٨. الراغب الأصفهاني ١٢٧
٤٩. القاضي عياض ١٢٨
٥٠. ابن شهراشوب ١٢٨
٥١. ابن الجوزي ١٣٢
٥٢. ابن أبي الحديد المعتزلي ١٣٣
٥٣. الملك الغساني ١٣٩
٥٤. أحمد الحافي الشافعي ١٤٠
٥٥. توماس كارليل ١٤١
٥٦. محمد رشيد رضا ١٤١
٥٧. محسن الأمين العاملي ١٤٢
٥٨. عباس العقاد ١٤٧
٥٩. العربي التباني ١٤٩
٦٠. طه العفيفي ١٥١
٦١. عبدالفتاح عبدالمقصود ١٥١
٦٢. خالد محمد خالد ١٥٦
٦٣. العلامة فضل الله ١٦٣
٦٤. نصري سلهب ١٦٤
٦٥. **نفاثة الجاحظ** ١٧١
٦٦. المورد الأول ١٧٣
٦٧. المورد الثاني ١٧٤
٦٨. المورد الثالث ١٧٦
٦٩. المورد الرابع ١٧٦
٧٠. المورد الخامس ١٧٧
٧١. المورد السادس ١٧٧
٧٢. المورد السابع ١٨١
٧٣. المورد الثامن ١٨٢

٧٤. المورد التاسع ١٨٢
٧٥. المورد العاشر ١٨٢
٧٦. المورد الحادي عشر ١٨٦
٧٧. **شعراء يتغنون بشجاعته** ١٨٧
٧٨. السيد الحميري ١٩٠
٧٩. أبوتمام الطائي ١٩٢
٨٠. علي بن حماد البصري ١٩٣
٨١. علي بن فخرالدين الإربلي ١٩٥
٨٢. كاظم الأزري ١٩٦
٨٣. هاشم الكعبي ١٩٩
٨٤. عبدالمطلب المصري ٢٠١
٨٥. السيد رضا الهندي ٢٠٤
٨٦. محمد عبدالحافظ ٢٠٥
٨٧. **بطولاته في العهد النبوي** ٢٢٣
٨٨. بدء الدعوة ٢٢٥
٨٩. الحصار في شعب أبي طالب ٢٢٦
٩٠. على أبواب الهجرة إلى المدينة ٢٢٩
٩١. المفاجأة الكبرى ٢٣٠
٩٢. هنبثة ابن تيمية ٢٣١
٩٣. علي يلتحق بالنبي ٢٣٦
٩٤ معركة بدر الكبرى ٢٣٦
٩٥. معركة أحد ٢٥٢
٩٦. غزوة بني النضير ٢٧٢
٩٧. غزوة الأحزاب (الخندق) ٢٧٤
٩٨. غزوة بني قريظة ٢٨٩
٩٩. غزوة المريسيع (بني المصطلق) ٢٩٠

١٠٠. غزوة خيبر ٢٩٠
١٠١. غزوة ذات السلاسل ٣٠٩
١٠٢. فتح مكة ٣١٠
١٠٣. حنين والطائف ٣٢٨
١٠٤. نحو أرض طئ ٣٤٢
١٠٥. غزوة تبوك ٣٤٤
١٠٦. سريَّة اليمن ٣٥٧
١٠٧. **بطولاته في عهد ما بعد النبي** ٣٥٩
١٠٨. مقدمة ٣٦١
١٠٩. الإمام حاكماً ٣٦٥
١١٠. حرب الجمل ٣٧٢
١١١. حرب صفين ٣٩٨
١١٢. بعد التحكيم ٤٣٤
١١٣. معركة النهروان ٤٤٦
١١٤. استمرار الغارات ٤٦١
١١٥. المشهد الإداري ٤٦٩
١١٦. استشهاد الإمام ٤٧٠
١١٧. **مصادر الكتاب** ٤٧٥

مقدمة

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحُصي نعماءه العادّون، ولايؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعد الهمم، ولا يناله غَوْص الفِطن، الذي ليس لصفته حدٌّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطَر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور مَيَدان أرضه.

والصلاة والسلام على عبده ونبيه محمد بن عبدالله، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيّشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل، الذي أورى قبس القابس، وأضاء الطريق للخابط، وهدى القلوب، وأقام موضحات الأعلام، ونـيّرات الأحكام.

ثم الصلاة والسلام على عترته خير العتر، التي نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال وثمـرة لا تُنال، طاهـرة مطهّرة، طيبة مكرّمة، اصطفاها بارؤها فعظمها، وانتجبها فأكرمها.

وبعد، فإن شخصية أمير المؤمنين ومولى الموحدين وإمام المتقين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ لجديرة بالدراسة والبحث من نواحيها المختلفة، فلقد كان المثل الأعلى في التقوى والإخلاص والعبادة والأخلاق الفاضلة والعمل الصالح والتضحية والإيثار والجهاد في سبيل الله والصلابة في الإيمان، ولم يُشبع الباحثون هذه العناصر من شخصيته الفريدة في التاريخ بالبحث والتحقيق، وكان التركيز الأكبر منصباً على الجانب العقدي ومسألة الإمامة والخلافة، الأمر الذي يستدعي بذل المزيد من الجهود في إطار دراسة وتحليل شخصية بطل الإسلام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وشجاعة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هي من السمات البارزة في شخصيته، والتي اعترف بها الموافق والمعارض، وزخرت بها الكتب، وتغنّى بها الشعراء، وضُرب بها المثل، إلا أنها امتزجت بالعناصر الأخرى المكونة لشخصيته... فكانت شجاعته في الحق، والانتصار للمظلوم، وإغاثة الملهوف، والدفاع عن المستضعفين، ونشر الدين، وبسط العدل، ورد البدع والأباطيل... شجاعة امتزجت بالحلم، فلم تدفعه للطغيان، وتوشّحت بالعدل، فلم يظلم بها أحداً، وتقمّصت العفو، فلم يفكّر بالانتقام، وتقوّمت بالتقوى، فلم يُعمل سيفه إلا لله وحده.

قال الكاتب المصري الشيخ خالد محمد خالد في ذلك: إن كون طبيعة المقاتل في أعماقه، لما يزيده شرفاً، ورفعة، وكمالاً. ذلك أن طبيعة المقاتل فيه قد بلغت من الاستقامة، ومن العدالة، ومن الشرف، المدى الذي أفاءه عليها القرآن، والرسول والإسلام. فهي عند الإمام لا تمثل عدواناً ولا تشكل بهتاناً ولا تنطلق وقوداً لأغراض الدنيا، وأطماع النفس. وهي بهذا، ولهذا، تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة. كما أن البطولة عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة، والرجولة عنده ليست اندفاعاً عرمرماً تزجيه طاقاته الجبارة، إنما هي التزام يكاد يكون مطلقاً لمنهج الرسـول الذي

آمن به، والدين الذي حمل رايته. وهكذا نرى البطل والمسلم يلتقون في شخصية الإمام علي أصدق لقاء. أجل لم ينفصم البطل، عن الرجل، عن المسلم، في حياة عليٍّ أبداً. فإذا رأيناه يبارز خصماً مثلاً، فليس البطل المتمكن هو وحده الذي يبارز، بل إن رجولة الرجل، وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها[١].

عُرف الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بشجاعته في صغره، كما عُرف بها شاباً، ثم كهلاً، لم يغيّره العمر، ولم تؤثّر فيه متغيرات الزمان، ولم تُزلزل أقدامه أشد المعارك ضراوة... حارب في معركة الجمل... وقد جاوز الستين من عمره المبارك، بنفس تلك البسالة التي زلزلت أقدام فرسان الشرك في بدر وأحد والخندق، وأعمل سيفه قَدّاً وقَطّاً في صِفِّين، في معركة الخميس وليلة الهرير، كما عهده المسلمون من قبل في خيبر وحنين... وهو يؤكد أنه قاتل الماضين على التنزيل، وها هو اليوم يقاتلهم على التأويل!

لم يكن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولئك المقاتلين الذين يستلذون بسفك الدماء ـ حاشاه ـ بل كان يبذل كل ما في وسعه لإنهاء الخصومة سلمياً وبما يحقق الهدف المقدس في نفسه، فإذا أبى الآخرون إلا القتال، كان ابن أبي طالب فارس المعركة الذي لم يعرف ـ في أي منها ـ طعم الهزيمة أبداً.

قال الأديب اللبناني المعاصر جورج جرداق: إذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يحارب المتآمرين به، فإنه لا يفعل إلا بعد أن يراعي كل جوانب الحنان في نفسه وقلبه، وبعد أن يستشير كل روابط الإخاء البشري في نفوس مقاتليه وقلوبهم.

وهو إن فعل في خاتمة الأمر فإنما يفعل مكرهاً لا مختاراً، حزيناً باكياً لا فرحاً ضاحكاً، فإذا شعوره بالنصر بعد القتال آلم وأوجع من شعور مناوئيه بالهزيمة. وإذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يترك المعتدين عليه، بعد موته، بين يدي أنصاره وبنيه يقاتلونهم ويقتصّون منهم لضلالٍ مشوا به وإليه، فإن الرأفة بالإنسان ـ وهي لديه وراء كل قانون ـ تحمله حملاً على أن يخاطب أنصاره وبنيه بهذا القول العظيم: لاتقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه[٢].

وقد جاء هذا الكتاب ـ بدايةً ـ استجابة لطلب المؤمن الصالح المرحوم الحاج السيد خلف البهبهاني، الذي سألني أكثر من مرة قبل وفاته إن كنت أحيط علماً بكتاب يختص بشجاعة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإذ لم أجد ـ وفق اطلاعي ومراجعتي ـ كتاباً في هذا الباب يكون متوفراً ومتناولاً في الأيدي أو على رفوف المكتبات، فقد توكلت على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعقدت العزم لتدوين كتاب خاص بذلك، يكون مرجعاً لكل من يريد الاطلاع على بطولاته عَلَيْهِ السَّلَامُ وشجاعته وفتوته، وقد انتشرت أخبارها في كتب التفسير والحديث والسيرة والتاريخ والكلام، إلا أنها ليست مركزة في بحث واحد ممنهج وفق التسلسل الزمني للأحداث، أو ضمن منهجية أخرى بحيث توصل القارئ إلى الهدف المطلوب.

وصدر الكتاب قبل عشر سنوات تقريباً بعنوان «لا فتى إلا علي»، ولكن بعد توفيق الله وإتمام كتاب «السيرة العسكرية

---

(١) خالد: في رحاب علي.

(٢) جرداق: روائع نهج البلاغة ـ ص ٥٧.

لسيد المرسلين محمد ﷺ» الذي صدر بمنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَ بإخراجٍ وطبعةٍ مميزة مزوّدة بالخرائط والصور والرسوم والمخططات التوضيحية، والتعليقات المثرية للموضوعات المطروحة مع تراجم مختصرة لكثير من الشخصيات، فقد ارتأيت أن أقوم بمثل هذا الجهد التطويري لكتاب «لا فتى إلا علي» ليخرج بنفس الصورة البهية التي ظهر فيها كتاب «السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد ﷺ» مع إضافة الكثير من العناوين والتفاصيل في ثنايا الكتاب، وتعديل الأخطاء وتشكيل الأبيات الشعرية، وتمييز الآيات القرآنية من حيث لون الخط، وغير ذلك مما سيتلمّسه القاريء بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَ، علاوة على تغيير اسم الكتاب إلى العنوان الحالي: «السيرة العسكرية لأمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ» ليكون متناغماً مع عنوان الكتاب الخاص بسيرة النبي ﷺ العسكرية.

وقد اعتمدت في تدوين الكتاب على نقل ما دوّنه الآخرون مع تعليقات بسيطة وتوضيحات ضرورية، دون استغراق في التحليل والمقارنة بين النصوص، لئلا يخرج الكتاب عن هدفه العام، وتجنباً للملل الذي قد يصيب القارئ المتشوق للاطلاع على هذا الموضوع.

ولابد أن أشير هنا إلى أنني تصرفت في بعض النصوص التي اعتمدت عليها اختصاراً، كما أنني حرصت على أن أضمّن الكتاب بحوثاً لغوية وأدبية ونفسية تتكامل من خلالها عناصر الكتاب، وتثري القارئ معرفياً.

وأنتهز الفرصة لتقديم الشكر مجدداً للدكتور السيد حسين طاهر الذي ساهم ببحث علمي نفسي قيّم سنورده في الفصل الخاص بحديث الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ حول شجاعته.

مقدَّماً... أعتذر للقارئ الكريم عن أي خطأ أو تقصير، كما أسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَ أن يتقبل هذا العمل بأحسن القبول، وأن يعفو لي زلاتي وتقصيري، وأن يجعل هذا العمل شفيعاً لي ولأهلي وإخواني المؤمنين، لاسيما ملهمي لتصنيف هذا الكتاب ومن ساهم في طباعته، إنه سميع مجيب.

علي حسن غلوم علي - الكويت

٢٤ رمضان ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م

تعريف
بشخصية الإمام

تعريف بشخصية الإمام

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب، سيد الوصيين وأول أئمة المسلمين وخلفاء الله في العالمين بعد سيد المرسلين محمد ﷺ.

نسبه الشريف:

علي بن أبي طالب[١] بن عبد المطلب[٢] بن هاشم[٣] بن عبد مناف[٤] بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

مولده:

ولد يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب على قول الأكثر، وفي الفصول المهمة ليلة الأحد الثالث والعشرين منه، وفي رواية يوم الأحد سابع شعبان بعد عام الفيل بثلاثين سنة[٥]، وقبل النبوة بعشر سنوات[٦]، وقبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة.

كانت ولادته بمكة المكرمة في الكعبة المشرفة كما في الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، ومروج الذهب للمسعودي، والسيرة الحلبية حيث جاء: (**وفي سنة ثلاثين من مولده ﷺ، ولد علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه» في الكعبة**)[٧].

وفي الإرشاد: (**ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله سواه، إكراماً من الله جلّ اسمه له بذلك وإجلالاً لمحله في التعظيم**)[٨]. وفي ذلك قال السيد الحميري[٩]:

ولدته في حرم الإله وأمنه ... والبيت حيث فناؤه والمسجد

بيضاء طاهرة الثياب كريمة ... طابت وطاب وليدها والمولد

---

(١) واسمه عمران أو عبدمناف.

(٢) واسمه شيبة الحمد.

(٣) واسمه عمرو.

(٤) واسمه المغيرة.

(٥) وقيل بتسع وعشرين سنة.

(٦) وقيل ١٢ سنة.

(٧) الحلبي: السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٤٩٨.

(٨) المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ٥.

(٩) الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٢٤.

في ليلة غابت نحوس نجومها ... وبدت مع القمر المنير الأسعد
ما لُفَّ في خرق القوابل مثله ... إلا ابن آمنة النبي محمد

وروي أنه لما وُلد سمته أمه حيدرة باسم أبيها أسد بن هاشم، لأن حيدرة من أسماء الأسد، فلما جاء أبوه سماه علياً وقال:

سميته بعلي كي يدوم له ... عن العار وفخر العز أدومه

وقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم خيبر :

أنا الذي سمتني أمي حيدره ... كليث غابات شديد قسوره

وفي ذلك قال العلامة محسن الأمين[١]:

فسمَّتك بنتُ الليثِ أمُّك حيدرا ... فما أخطأت فيك الفراسة والحزرُ
عليٌّ به سمّاك أكرم والد ... رجاء لأن يعلو لك الصيت والذِّكرُ

والداه:

أبوه هو سيد مكة ورئيسها، وحامي النبي والمدافع عنه، وقد آمن به إلا أنه كتم إيمانه ليتمكن من الدفاع عنه ويواجه أعداءه من أزلام قريش الذين كانوا يتربصون به الدوائر، أملاً في أن يجرّدوه من هذه القوة التي كان يحامي بها عن ابن أخيه محمد بن عبدالله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وأمه هي السيدة **فاطمة بنت أسد**. قال أبوالفرج الأصفهاني في الأغاني: (**هي أول هاشمية تزوجها هاشمي، وهي أم سائر ولد أبي طالب**)[٢].

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف، أي أنها ابنة عم زوجها، فزوجها أبوطالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف. ولدت في مكة المكرمة وتوفيت في المدينة المنورة في السنة الرابعة من الهجرة، ودفنت في البقيع بالقرب من مراقد الأئمة الحسن المجتبى وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق عَلَيْهِمَ السَّلَامُ.

وكانت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بمنزلة الأم، ربي في حجرها وكان شاكراً لبرها، وكان يسميها أمي، وكانت تفضّله على أولادها في البِر. كان أولادها يصبحون شعثاً رمصاً[٣]، ويُصبح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كحيلاً دهيناً.

كانت بمحل عظيم من الإيمان، سبقت إلى الإسلام وهاجرت إلى المدينة، ولما توفيت كفّنها رسول الله في قميصه، وأمر من يحفر قبرها.

---

(١) الأمين : أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٢٤.
(٢) الأمين : أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٢٥. وسنورد شيئاً من أخبار أبي طالب في فصل شجاعة بني هاشم.
(٣) الشعث: تفرق الشعر . الرمص : لزوق العينين، والمقصود أنها كانت ترعى النبي بدء ثم تبدأ برعاية أبنائها.

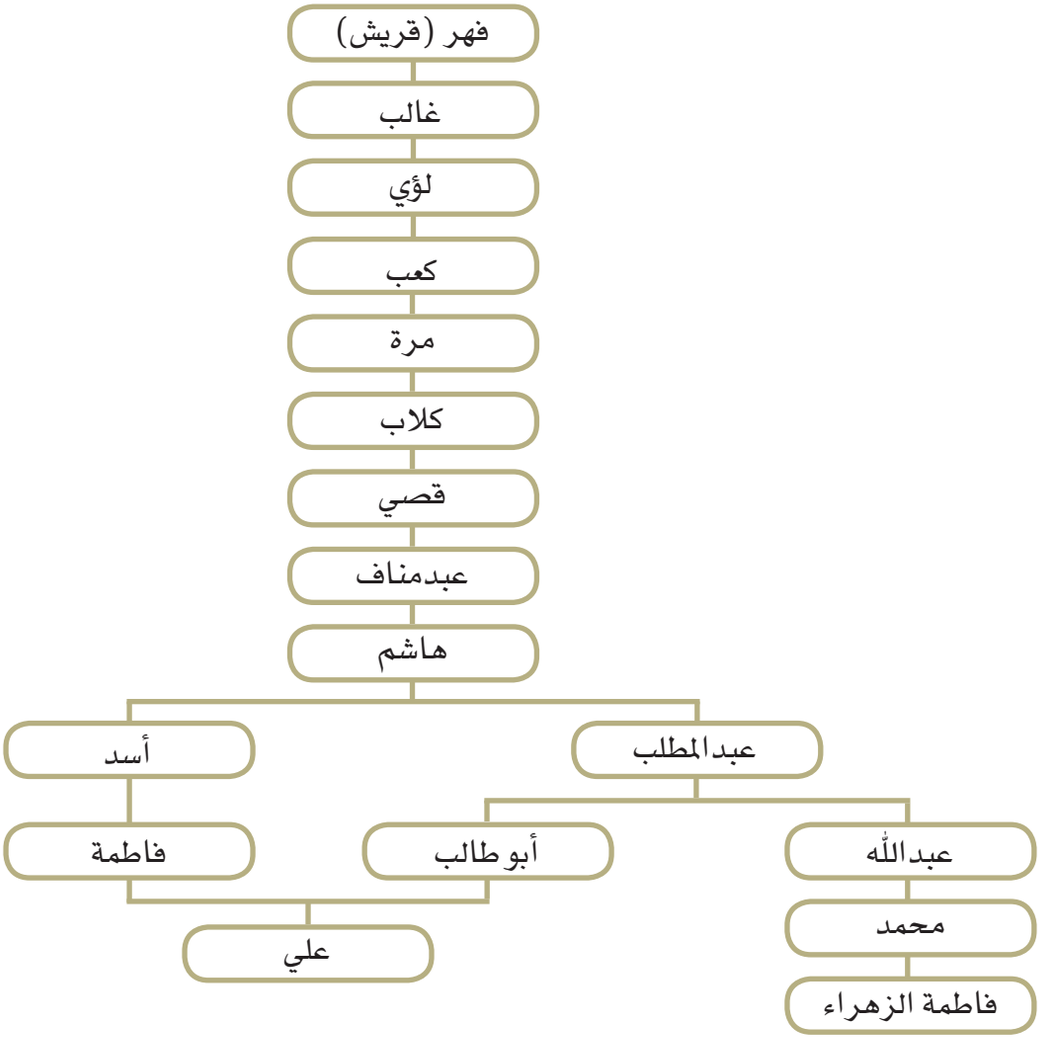

وفي الخبر أنهم لما بلغوا لحدها حفره بيده واضطجع فيه وقال: **اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجّتها، ووسّع عليها مدخلها.**

فقيل: **يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد قبلها؟!**

فقال: **ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة**[١]**، واضطجعتُ في قبرها ليوسعه الله عليها وتأمن ضغطة القبر، إنها كانت من أحسن خَلْق الله صُنعاً إليّ بعد أبي طالب**[٢].

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: **لما ماتت فاطمة بنت أسد كفنها رسول الله ﷺ في قميصه وصلى عليها وكبّر عليها سبعين تكبيرة، ونزل في قبرها فجعل يومي في نواحي القبر كأنه يوسعه ويسوّي عليها وخرج من قبرها وعيناه تذرفان، وجثا في قبرها.**

(١) أو قال: هو أمان لها يوم القيامة، أو قال: ليدرأ عنها هوام الأرض.

(٢) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ج ٩، ص ٢٥٧، ومقاتل الطالبيين للأصفهاني، ص ٥، والاستيعاب لابن عبدالبر، ج ٤، ص ١٨٩١.

فقال له عمر بن الخطاب: **يا رسول الله، رأيتك فعلت على هذه المرأة شيئاً لم تفعله على أحد؟!**

فقال له: **إن هذه المرأة كانت أمي بعد أمي التي ولدتني، إن أبا طالب كان يصنع الصنيع وتكون له المأدبة، وكان يجمعنا على طعامه، فكانت هذه المرأة تفضّل منه كله نصيبنا فأعود فيه**[١].

۞ كنيته:

يكنى أبا الحسن وأبا الحسين، وكان الحسن في حياة رسول الله ﷺ يدعوه أباالحسين، والحسين يدعوه أبا الحسن، ويدعوان رسول الله ﷺ أباهما، فلما توفي النبي دعوا علياً أباهما. وكان يكنى أيضاً بأبي تراب، كنّاه به النبي ﷺ، ففي الاستيعاب بسنده: **قيل لسهل بن سعد أن أمير المدينة يريد أن يبعث إليك لتسبّ علياً عند المنبر!**

قال: **كيف أقول؟**

قال: **تقول أبا تراب.**

فقال: **والله ما سماه بذلك إلا رسول الله ﷺ.**

قال: **وكيف ذلك يا أبا العباس؟**

قال: **دخل على فاطمة ثم خرج من عندها فاضطجع في صحن المسجد، فدخل رسول الله ﷺ على فاطمة، فقال: أين ابن عمك؟ قالت: هو ذاك مضطجع في المسجد. فوجده قد سقط رداؤه عن ظهره، وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول: اجلس أباتراب. فوالله ما سماه به إلا رسول الله ﷺ، والله ما كان اسمٌ أحب إليه منه**[٢].

وروى النسائي في الخصائص بسنده عن عمار بن ياسر قال: (**كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع... ثم غشينا النوم فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في ظل سور من النخل وفي دقعاء من التراب، فنمنا فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله، وقد تربنا من تلك الدقعاء التي نمنا عليها، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي: ما لك يا أبا تراب؟ لما يرى عليه من التراب**)[٣].

وقيل أنه كناه بذلك لما رآه ساجداً معفراً وجهه في التراب، أو كان يعفّر خديه وهو ساجد، فكان إذا رآه والتراب بوجهه يقول: (**يا أبا تراب، افعل كذا**)[٤]. وكانت هذه الكنية أحب كناه إليه، لكون النبي ﷺ كنّاه بها.

۞ ألقابه:

المرتضى وحيدر وأمير المؤمنين والأنزع البطين والوصي، وكان يعرف بذلك عند أوليائه وأعدائه، ويدل على ذلك

---

(١) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٠٨.

(٢) ابن عبدالبر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ج ٣. ص ١١١٨.

(٣) النسائي: تهذيب خصائص أمير المؤمنين. ص ٨٦ - ٨٧.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار، ج٣٥، ص ٦١. وقد عرضت الموضوع في كتابي «السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد».

ما قاله شاب من بني ضبة في حرب الجمل من معسكر الناكثين[١]:

نحن بني ضبة أعداء علي ... ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي
وفارس الخيل على عهد النبي ... ما أنا عن فضل عليّ بالعمي
لكنني أنعي ابن عفان التقي ... إن الوليّ يطالب ثأر الولي

وكان يلقب يعسوب المؤمنين ويعسوب الدين، ويروى أن النبي ﷺ قال في شأنه: (**وهو يعسوب الدين**)[٢].

◎ زوجاته:

١. فاطمة الزهراء: أول زوجاته فاطمة الزهراء سيدة النساء عليها السلام بنت رسول الله سيد المرسلين ﷺ، لم يتزوج عليها حتى توفيت عنده.

٢. **أمامة بنت أبي العاص بن الربيع**، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ.

٣. أم البنين فاطمة بنت حرام - أو حزام - بن دارم الكلبية.

٤. ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلية التميمية الدرامية.

٥. أسماء بنت عميس الخثعمية كانت زوجة أخيه جعفر بن أبي طالب، فلما استشهد تزوجها الخليفة أبو بكر، فتوفي عنها ثم تزوجها أمير المؤمنين.

٦. أم حبيب بنت ربيعة التغلبية واسمها الصهباء، من السبي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر.

٧. خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفية، وقيل خولة بنت أياس.

٨. أم سعد أو سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية.

٩. محياة - أو مخبأة - بنت امرئ القيس بن عدي الكلبية.

قال العلامة السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة: (فمما جاء في وصيتها ما روي أن علياً عليه السلام وجده عند رأسها بعد ما توفيت وهي رقعة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصت به فاطمة بنت رسول الله ﷺ أوصت وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. يا علي، حنّطني وغسّلني وكفنّي وصلّ علي، وادفني بالليل، ولا تُعلم أحداً. واستودعك الله واقرأ على ولدي السلام إلى يوم القيامة». وذكر جماعة أنها لما مرضت دعت أم أيمن وأسماء بنت عميس وعلياً عليه السلام وأوصت إلى علي بثلاث وصايا، الأول أن يتزوج بأمامة بنت أختها زينب لحبها أولادها، وقالت إنها تكون لولدي مثلي، وفي رواية قالت بنت أختي وتحني على ولدي. وأمامة هذه هي بنت أبي العاص بن الربيع وهي التي روي أن رسول الله ﷺ كان يحملها في الصلاة. وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ فلما توفيت الزهراء عليها السلام تزوج أمير المؤمنين عليه السلام أمامة كما أوصته، ومن أجل ذلك قال: «أربعة ليس إلى فراقهن سبيل. وعَدَّ منهن أمامة. قال: أوصت بها فاطمة»).

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٢٥.

(٢) الصدوق: الخصال، ص ٤٠٢. و اليعسوب: ذكر النحل وأميرها.

أولاده :

عدّهم المسعودي في مروج الذهب خمسة وعشرين، وفي الإرشاد للمفيد أنهم سبعة وعشرون، ما بين ذكر وأنثى، ثم قال: (**وفي الشيعة من يذكر أن فاطمة عليها السلام أسقطت بعد النبي صلى الله عليه وآله ذكراً كان سماه رسول الله صلى الله عليه وآله . وهو حمل . مُحسناً، فعلى قول هذه الطائفة هم ثمانية وعشرون**)[1].

وقال العلامة محسن الأمين: (**والذي وصل إلينا من كلام المؤرخين والنسابين وغيرهم يقتضي أنهم ثلاثة وثلاثون، ويمكن كون هذه الزيادة من عد الاسم واللقب اثنين مع أنهما واحد، وهم:**

١ . ٤. الحسن، الحسين، زينب الكبرى، زينب الصغرى المكناة أم كلثوم، قال المفيد أمهم فاطمة البتول سيدة نساء العالمين بنت سيد المرسلين وخاتم النبيين.

٥. أم كلثوم الكبرى ، ذكرها ابن الأثير مع زينب الكبرى

وقال المسعودي الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى أمهم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ويمكن الجمع بين قول المفيد زينب الصغرى المكناة أم كلثوم وقول ابن الأثير والمسعودي أنها أم كلثوم الكبرى بأنها زينب الصغرى بالنسبة إلى زينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى بالنسبة إلى أم كلثوم الصغرى الآتية التي هي من غير فاطمة.

٦. محمد الأوسط، أمه أمامة بنت أبي العاص، لم يذكره المفيد ولا المسعودي.

٧ . ١٠. العباس، جعفر، عبدالله، عثمان . الشهداء بكربلاء . أمهم أم البنين الكلابية. وقال المسعودي أمهم أم البنين بنت حزام الوحيدية ولم يذكر معهم عثمان.

١١. محمد الأكبر المكنى بأبي القاسم المعروف بابن الحنفية، أمه خولة الحنفية.

١٢. ١٣. محمد الأصغر المكنى بأبي بكر، وبعضهم عد أبا بكر ومحمداً الأصغر اثنين، والظاهر أنهما واحد، عبدالله أو عبيد الله الشهيدين بكربلاء، أمهما ليلى بنت مسعود النهشيلة.

١٤. يحيى، أمه أسماء بنت عميس.

١٦.١٥ عمر، رقية، توأمان أمهما أم حبيب الصهباء بنت ربيعة التغلبية، وعمر عمّر خمساً وثمانين سنة.

١٧ . ١٩. أم الحسن، رملة، أم كلثوم الصغرى، أمهم أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفية، واقتصر المفيد والمسعودي على أم الحسن ورملة ولم يصفاها بالكبرى.

٢٠. بنت ماتت صغيرة، أمها مخبأة الكلبية، ولم يذكرها المفيد والمسعودي.

٢١ . ٢٣. أم هاني، ميمونة، زينب الصغرى، في عمدة الطالب أمهم أم ولد، وكانت زينب الصغرى تحت محمد بن عقيل بن أبي طالب.

٢٤. رملة الصغرى، ولم يذكرها المفيد ولا المسعودي.

---

(١) المفيد : الإرشاد، ج ١. ص ٣٥٥.

٢٥. رقية الصغرى، ولم يذكرها المسعودي.

٢٦ . ٢٩. فاطمة، أمامة، خديجة، أم الكرام، وقال المسعودي أن أم الكرام هي فاطمة.

٣٠. أم سلمة

٣١. أم أبيها، ذكرها المسعودي.

٣٢. جمانة المكناة أم جعفر

٣٣. نفيسة

لأمهات شتى)[١].

صفته في أخلاقه:

روى ابن عبدالبر في الاستيعاب أنه قال معاوية لضرار الصدائي: يا ضرار، صف لي علياً.

قال: اعفني يا أمير المؤمنين.

قال: لتصفنّه.

قال: أما إذ لا بد من وصفه، فكان . والله . بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العَبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبؤنا إذا استنبأناه، ونحن . والله . مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبةً له. يُعظم أهل الدين، ويقرّب المساكين، لايطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف وأشهد أنه لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرّي غيري، إليّ تعرضت ؟! أم إليّ تشوقت ؟! هيهات، هيهات، قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرُكِ قصير، وخطرك قليل، آهٍ من قلة الزاد وبُعدِ السفر ووحشة الطريق.

فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه ياضرار؟

قال: حزنُ من ذُبح ولدها وهو في حجرها[٢].

كما روى أنه سئل الحسن البصري عنه عليه السلام فقال: (كان علي . والله . سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، وربّانيّ هذه الأمة وذا فضلها وذا سابقتها وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يكن بالنومة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولابالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياض موثقة)[٣].

---

(١) الأمين : أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

(٢) ابن عبدالبر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٣، ص ١١٠٧ – ١١٠٨.

(٣) ابن عبدالبر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٣، ص ١١١٠.

الشجاعة
في اللغة والدين والتاريخ

الشجاعة في اللغة والدين والتاريخ

جمع أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ صفات الإيمان والتقوى والإنسانية والشهامة والتسليم في مقابل الحق والكرم والعفاف ومحاسن الأخلاق وحسن المعاشرة والإنصاف، فكان جديراً أن ينال الوسام الذي اشتهر به: لافتى إلا علي.

۞ الشجاعة في اللغة:

قال الزبيدي في تاج العروس في مادة شجع[١]:

- **الشجاع**: الشديد القلب عند البأس...
- **شجاع**: خاص بالرجال ولا توصف به المرأة...
- **الشجعة من النساء**: الجريئة على الرجال في كلامها وسلاطتها.
- وقال شمر في كتاب الحيّات: **الشجاع**: ضرب من الحيَّات لطيف دقيق وهو- زعموا - أجرؤها .
- الجمع: **شجعان**، بالكسر والضم، الأول عن اللحياني، وقال ابن دريد: الكسر أكثر.
- ومن المجاز: **الشجاع**: الصفر الذي يكون في البطن، وفي الصحاح: وتزعم العرب أن الرجل إذا طال جوعه، تعرضت له في بطنه حية، يسمونها **الشجاع** والصفر، قال أبوخراش الهذلي يخاطب امرأته[٢]:

أَرُدُّ شُجاعَ البَطنِ لو تَعْلَمينَهُ ... وأُوثِرُ غَيْرِي من عِيالِكِ بالطُّعْمِ

- وقال الأزهري: قال الأصمعي: **شجاع البطن**، شدة الجوع ، وأنشد بيت أبي خراش أيضاً.
- **الشجع**، محرّكة، في الإبل: سرعة نقل القوائم، كما في الصحاح، وأنشد لسويد بن أبي كاهل:

فَرَكِبْناها عَلَى مَجْهُولِها ... بِصِلابِ الأَرْضِ فيهِنَّ شَجَعْ

أي بصلاب القوائم، يقال: جَملٌ شَجِع القوائم، ككتف، وناقة **شجعاء**، وشَجْعَة، كفرحة، قال ابن بري: لم يصف سويد في البيت إبلاً، وإنما وصف خيلاً... والذي ذكره الأصمعي في تفسير **الشجع** في هذا البيت أنه المضاء والجراءة.

- **الأشجع** من الرجال، **كالشجاع**: من فيه خفة كالهوج لقوته، ويسمى به الأسد، كما في الصحاح، وهو قول الليث...

---

(١) مع الاختصار.

(٢) ديوان الهذليين- ج ٢- ص ١٢٨ ، وفيه : قد تعلمينه.

وقد قيل: إن **الأشجع** من الرجال: الذي كأن به جنوناً. قال: وهذا خطأ، ولو كان كذلك ما مدح به الشعراء.

ـ **الأشجع**: الطويل، وهو البيِّن **الشَّجَع**، محركة، أي الطول، عن ابن دريد، وامرأة **شجعاء** بيّنة **الشجع** كذلك.

ـ **الأشاجع** ـ كذا وجِد بخط الجوهري ـ وفي بعض نسخ الصحاح: **الأشاجيع**: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف، وفي التهذيب: هي رؤوس الأصابع، بدل أصول، الواحد **أشجع**، كأحمد، ومنه قول لبيد: «يدخلها حتى يواري **أشجعه**». قال الجوهري: وناس يزعمون أنه **إشجع**، مثل إصبع، ولم يعرفه أبو الغوث، وقيل: **الأشجع** في اليد والرجل : العصب الممدود فوق السلامى[١] من بين الرسغ إلى أصول الأصابع فوق ظهر الكف، وقيل: هو العظم الذي يصل الإصبع بالرسغ، لكل إصبع أشجع.

ـ **شَجَعَه**، كمنعه: غلبه **بالشجاعة**، يقال: **شاجعته فشجعته** فهو **مشجوع** مغلوب **بالشجاعة**.

ـ **الشُّجعة**، بالضم، عن ابن عباد، ويُفتح: الجبان الضعيف العاجز الضاوي الذي لا فؤاد له. الفتح عن اللحياني.

ـ **الشَّجعة**، بالفتح: الفصيل تضعه أمه كالمخبل[٢].

ـ **الشُّجُع**، بضمتين: عروق الشجر، عن ابن عباد. وأيضاً: لجُم كانت في الجاهلية تتخذ من الخشب.

ـ قال: **والشَّجِع**، ككتِف: المجنون من الجِمال، أي الذي يعتريه جنون.

ـ **الشجعه**، بهاء: المرأة الجريئة السليطة على الرجال، الجسورة في كلامها وسلاطتها.

ـ **المشجع**، كمجمل، أي على صيغة اسم المفعول: المنتهي جنوناً، عن ابن عباد، قال: ومنه أخذ **الشجاع**.

ـ وفي الصحاح: **شجَّعه تشجيعاً**: قوى قلبه وجرّأه، أو قال له: إنك أنت **شجاع**.

ـ **تشجَّع** الرجل: تكلف **الشجاعة** وأظهرها من نفسه وليس به، يقال: **تشجعوا** فحملوا عليهم.

ـ ومما يستدرك عليه: اللبؤة **الشجعاء**: هي الجريئة.

ـ **الأشجع**: المجنون.

ـ وقوائم **شجعات**: سريعة خفيفة، قال: (على **شجعات** لا شحاب ولا عصل).

ـ **الشَّجَع**، محركة: المضاء والجرأة.

ـ **الشجعة**، بالفتح: الطويل المضطرب، وأيضاً الزمن، وفي المثل: «أعمى يقود **شجعة**»، ويقال للحية: **أشجع**... جمعه: **أشاجع**، وقيل: هو جمع **أشجعة**، و**أشجعة**: جمع ـ **شجاع**، وهو الحية.

ـ **الأشجع**: الجسيم، وقيل: الشاب[٣].

---

(١) السلامى: عظام صغار توجد على طول الإصبع.

(٢) المخبل: المجنون.

(٣) الزبيدي : تاج العروس ـ ج ١١ ـ ص ٢٣٤ – ٢٣٧.

۞ مرادفات وكلمات ذات معنى مقارب:

ـ الأحمَس: الشجاع، ونجدة حمساء: شديدة، والحماسة: المنع والمحاربة.

ـ الأحوس: الجرئ الذي لا يهوله شئ.

ـ الأشْوَس: الجرئ على القتال الشديد، وقد شَوِس شوساً، ويكون الشَّوَس في سوء الخلُق أيضاً.

ـ الإقدام: الشجاعة.

ـ ألقى جِروتَه: ربط جأشه وصبر على الأمر.

ـ الأيهم: الجرئ الذي لا يستطاع دفعه، والأنثى يهماء.

ـ البسالة: الشجاعة... والباسل: الشجاع، والجمع بسلاء و بسل، وقد بسُل، بالضم، بسالة و بسالاً، فهو باسل أي بطل.

ـ البَطالة بالفتح: بمعنى الشجاعة. و البطل: الشجاع، والجمع أبطال، ولا يكسّر على غير ذلك، والأنثى بطلة، والجمع بطلات. سمي بذلك لأن جراحته تبطل فلا يكترث لها، ولا تُبطِل نجادته، وقال ابن جني: هو الذي تبطل عنده دماء الأقران لشجاعته.

ـ البؤسى: من البؤس، قال ذلك ابن دريد، وقال غيره: هي البؤسى والبأساء: ضد النعمى والنعماء، وأما في الشجاعة والشدة فيقال: البأس. ويقال رجل بئيس: أي شجاع وقد بَؤُس بآسة.

ـ البُهمة: الفارس الذي لا يُدرى من أين يؤتى له من شدة بأسه.

ـ التَّدَهكُم: الاقتحام في الأمر الشديد.

ـ التَّقَزُّم: اقتحام الأمور بشدة.

ـ الثَّبت: الفارس الذي لا يُصرع، ويقال أيضاً: ثبيت، ورجل ثَبْتُ الفَدَر: إذا كان ثابتاً في قتال أو كلام.

ـ الجُرأة: الشجاعة، وقد يترك همزه فيقال: الجُرَة مثل الكرة، كما قالوا للمرأة مرة. والجرئ: شجاع بيِّن الجُرأة والجراءة.

ـ جَسْر و جَسُور: ماض شجاع، والأنثى جَسْرَة وجَسور.

ـ الجَهْوَر: الجرئ المُقدِم.

ـ الحبس: الشجاعة.

ـ حَرِب و محراب و مِحرَب: أي جرئ وصاحب حرب.

ـ الحَرِج: الذي لا يكاد يبرح القتال ولا ينهزم.

ـ الحَلبَس و الحلابس و الحُلَبِس: الشجاع.

- الحُمارِس: الجرئ المُقدِم.

- الحماسة: الشجاعة.

- الحنطبة: الشجاعة... وهي لفظة قد يصحفها بعض المحدثين، فيقول: حنظب، وهو غلط.

- الخَلِيس و الخَلاس: الشجاع.

- الدِّلهاث: الجرئ المُقدِم.

- الدَّلَهْمَس: الجرئ على الليل.

- الدُّماحِس: الجرئ المُقدِم.

- الذمر: الشجاع، والجمع أذمار، والاسم الذمارة.

- ذو مَصْدَق: أي صادق الحملة.

- الرابط الجأش: الذي يربط نفسه عن الفرار يكفّها بجرأته وشجاعته، ويقال ربيط الجأش أيضاً.

- الرُّماحِس و الحُمارِس: الشجاع الجرئ.

- الزَّمِيع: الذي إذا همّ بأمر مضى في قتال أو غيره، والاسم الزمَاع.

- السَّبْت: الجرئ الماضي.

- السَّبَنْتِي: الجرئ من كل شئ.

- السَّحْتَب: الجرئ المُقدِم.

- السكسكة: الشجاعة نقله الصاغاني عن ابن الأعرابي.

- السَّلْفَع: الجرئ، وامرأة سلفع: جريئة على الليل.

- السَّلهَب: الجرئ المُقدِم.

- السَّندري و السَّرندي: الجرئ من كل شئ.

- الصِّلهَام: الجرئ المُقدِم.

- الصِّمَة: الشجاع. الصِّمْصامة: الجرئ الشجاع الذي إذا هم بأمر مضى.

- الصَّمَيَان: المنقض على الشئ، وقد انصمى: انقض.

- الصِّهميم: الشجاع الجاف السئ الخلُق.

- الصيهم: الذي يركب رأسه لا يثنيه شئ عما يريد، أو الشجاع الجاف السئ الخلُق.

- الضُّبارِم: الشجاع، الشديد، اشتق من الأسد لأنه يقال له ضُبارم.
- الضَّمضَم و الضُّماضِم: الجرئ الماضي.
- الضَّنَن: الشجاع.
- طُحَمة و طَحْمَة: شديد العراك.
- طَيْثارة: لا يبالي على من أقدم، وكذلك الأسد.
- العَرِس: الذي لا يبرح القتال، ويقال الحَرِس أيضاً.
- العَرِك و المُعارِك: الشديد العلاج والبطش في الحرب.
- العُشارِم و العُشارِب: الذي يغشى الحرب بنفسه وينغمس فيها.
- العُفْر: الشجاع، الجَلِد.
- العِكْر: الشديد القتال.
- العُلَّج: الشديد قتالاً أو نِطاحاً.
- العِمِّيت: الجرئ الظريف.
- العنتر: الشجاع. و العنترة: الشَّجاعة في الحرب.
- الغشمشم: الذي يركب رأسه لا يثنيه شئ عما يريد ويهوى.
- الغَلِث: الشديد القتال اللزوم لمن طالب، هو من قولهم غلثت بالشئ غلثاً: لزمته، وغلِث الذئب بغنم فلان يَفرسُها.
- الفاتِك: الجرئ الصدر ، والجمع فُتَّاك ، وقد فتك يفتُك فَتكاً و فُتكاً و فِتكاً وفُتوكاً و فتاكة.
- الفِرناس و الفُرانِس: الماضي الشديد.
- القُداحِس: الشجاع الجرئ.
- قِنْدَأو و سِنْدَأو: جرئ مُقدم.
- الكَمِيش: الشجاع.
- اللبج: الشجاعة، حكاه الزمخشري.
- اللبح: قال ابن الأعرابي: اللبح الشجاعة وبه سمي الرجل لبحاً.
- الليث: الذي لا يهوله شئ، بيِّن الليوثة.
- الليَس: الشجاعة والشدة. وهو أَلْيَس، أي شجاع بيّن الليس، من قوم ليَس، ويقال: لوس، ويقال للشجاع: هو

أهيس أليس، وكان في الأصل: أهوس ألوس، فلما إزدوج الكلام قلبوا الواو ياء، فقالوا أهيس.

ـ المُتتايع: الشجاع و الذي يرمي نفسه في الهلكة سريعاً.

ـ المِخَش: الجرئ على الليل.

ـ المِخشَف: الجرئ على الليل.

ـ المِدْرَة: الذي يقدّم في اليد عند القتال.

ـ المرير: الشديد القلب.

ـ المشَيَّع: الشجاع.

ـ مِصْدَم: صاحب حرب.

ـ مَعَّاس : مِقدام، وقد مَعَس في الحرب و تمعَّس أي حمل، و المِعاس: المِراس، وأصله من المعْس وهو الدلك.

ـ المِغوار: ذو الغارات بيِّن الغِوار.

ـ مُقدِم و مِقدام و قَدَم: شجاع. وقُدُم: مقتحم للأمور.

ـ المُكالِب: الجرئ.

ـ المِلحَس: الشجاع، كأنه يلحس من لقيه أي يأكله.

ـ المِلذَم: الشجاع.

ـ النجدة: الشجاعة، تقول منه : نجُد الرجل، بالضم، فهو نَجْد ونجيد، وجمع نَجْد ونَجِد أنجاد مثل يقظ وأيقاظ وجمع نجيد نجد و نجداء. ابن سيده: ورجل نَجْد ونَجُد ونَجِد ونجيد شجاع ماض فيما يعجز عنه غيره، وقيل: هو الشديد البأس، وقيل: هو السريع الإجابة إلى ما دعي إليه خيراً كان أو شراً، والجمع أنجاد. وفي حديث علي عَلَيْهِ السَّلَام: (**أما بنو هاشم فأنجاد أمجاد**) أي أشداء شجعان، وقيل أنجاد جمع الجمع، كأنه جمع نجداً على نجاد أو نجود ثم نجد ثم أنجاد... و النجيد : الشجاع.

ـ النعَّار: الخرَّاج في الحروب والنهّاض.

ـ النَّهيك و النَّهوك : الشجاع ، لأنه ينهك عدوّه ، أي يبالغ فيه ، ويقال : نهكه المرض أي بالغ فيه.

ـ هَوَّاس و هوَّاسة: شجاع، ويقال: الهَوْس أي الطَّوف بالليل في جرأة، ومنه أسدٌ هوَّاس.

ـ واقِعَة: شجاع[1].

(١) اعتمدنا فيما سبق على ثلاثة مصادر هي: المخصص لابن سيده، تاج العروس للزبيدي، لسان العرب لابن منظور.

۞ الفتوَّة:

ومن المناسب أن نأتي على شرح مبسط وسريع لمعنى الفتى والفتوة في اللغة والاصطلاح الديني، لمناسبة ذلك وعنوان «لا فتى إلا علي» الذي صدّرت به الكلام في هذا الفصل.

قال الزبيدي: (**الفتى**: الشاب، يكون اسماً وصفة. وفي المصباح: **الفتى** في الأصل يقال للشاب الحديث، ثم استعير للعبد وإن كان شيخاً ـ مجازاً ـ لتسميته باسم ما كان عليه... وقال الراغب: ويكنّى **بالفتى والفتاة** عن العبد والأمة؛ ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾[١]. **والفتى** أيضاً: السخي الكريم، وهو من **الفتوة**، يقال: **فتى** بين **الفتوة**؛ نقله الجوهري... **والفتوة**، بالضم والتشديد....: الكرم والسخاء، هذا لغةً؛ وفي عرف أهل التحقيق: أن يُؤثِر الخلق على نفسه بالدنيا والآخرة. وصاحب **الفتوّة**، يقال له: **الفتى**، ومنه: **لا فتى** إلا علي؛ وقول الشاعر:

فإنَّ فَتَى الفِتيانِ مَنْ راحَ واغتَدَى ... لِضُرِّ عَدُوٍّ أو لِنَفْعِ صَدِيق

وعُبِّر عنها في الشريعة بمكارم الأخلاق. ولم يجئ لفظ **الفتوة** في الكتاب والسنة، وإنما جاء في كلام السلف، وأقدم من تكلم فيها جعفر الصادق، ثم الفضيل، ثم الإمام أحمد وسهل والجنيد، ولهم في التعبير عنها ألفاظ مختلفة والمآل واحد. ويقال: هو **فتى** بين **الفتوة**. وقد **تفتّى** و **تفاتى**؛ نقله الجوهري. و **فتوتُهم أفتوهم**: غلبتُهم فيها، أي في **الفتوة**)[٢].

تعليق: قد ورد في بعض الأخبار ما يدل على أن مصطلح الفتوة ورد في كلام أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد روي عنه أنه قال: (**العفة أفضل الفتوة**)، وعنه: (**ما تزيّن الإنسان بزينة أجمل من الفتوة**)، وعنه: (**بُعد المرء عن الدنيّة فتوة**)، وعنه: (**نظام الفتوة: احتمالُ عثرات الإخوان، وحسنُ تعهد الجيران**).

وروي أنه قد تحدث بعضهم حول الفتوة في مجلس الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: (**وما الفتوة ؟! لعلكم تظنون أنها بالفسوق والفجور، كلا، إنما الفتوة طعامٌ موضوع، ونائلٌ مبذول، وبِشرٌ مقبول، وعفافٌ معروف، وأذى مكفوف. وأما تلك فشطارةُ فسق**)[٣].

وقد تناول العلامة المجلسي الفتوة ببحثٍ ضمن حديثه حول المروءة فقال: (**والمروءة بالهمز وقد يشدد الواو بتخفيف الهمزة: هي الإنسانية، وهي صفات إذا كانت في الإنسان يحق أن يسمى إنساناً، أو يحق للإنسان من حيث إنه إنسان أن يأتي بها، فهو مشتق من المرء، فهي من أمهات الصفات الكمالية. قال في المصباح: المروءة آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات. انتهى. وقريب منه معنى الفتوة... ويرجع أكثر ما يندرج فيه إلى البذل والسخاء، وحسن المعاشرة، وكثرة النفع للعباد، والإتيان بما يعظم عند الناس من ذلك**)[٤].

---

(١) سورة يوسف:٣٠.

(٢) الزبيدي: تاج العروس ـ ج ٢٠ ـ ص ٣٧ – ٣٩.

(٣) الريشهري: ميزان الحكمة ـ ج ٣ ـ ص ٢٠٠٦، ٢٣٧٠ – ٢٣٧١. والشطارة: إعياء الرجل أهله لؤماً وخبثاً، وترك موافقتهم.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار ـ ج ٦٧ ـ ص ٣٧٣ – ٣٧٤.

وقال ابن أبي الحديد: (**الفتوة التي أحسن ما قيل فيها: أن لا تستحسن من نفسك ما تستقبحه من غيرك**)[١].

أما العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي فقد تحدث عن الفتوة ضمن تفسيره لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾[٢]: (**فتية، جمع فتى، وهو الشاب الحدث، ولكنها تطلق أحياناً على الأشخاص الكبار والمسنين الذين يملكون روحية شابة، وقد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة والمدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة والشهامة والتسليم في مقابل الحق. والشاهد على هذا الكلام ما نقل عن الإمام الصادق في أصحاب الكهف إذ قال: أما علمت أن أصحاب الكهف كانوا كلهم كهولاً ، فسماهم الله فتية بإيمانهم. بعد ذلك أضاف الإمام الصادق في معنى الفتوة قوله** عَلَيْهِ السَّلَام: «**من آمن بالله واتقى فهو الفتى**»)[٣].

تعليق: وقد جمع الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَام كل هذه الصفات، من الإيمان والتقوى والإنسانية والشهامة والتسليم في مقابل الحق والكرم والعفاف ومحاسن الأخلاق وحسن المعاشرة والإنصاف، فكان جديراً أن ينال وسام السماء إذ جاء نداؤها ـ كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات ـ بقول: (**لافتى إلا علي**)[٤].

۞ الشجاعة في القرآن والسنة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ، وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ، كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ، فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ، وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ، وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ

---

(١) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١ ـ ص ٢٩.

(٢) سورة الكهف:١٣.

(٣) مكارم : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ـ ج ٩ ـ ص ٢٠٦.

(٤) الأميني: الغدير ـ ج٢ ـ ص ٦٠.

وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ، وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[١].

عن النبي الأكرم ﷺ: في وصيته لعلي عليه السلام: (... وآفة الشجاعة البغي)[٢].

الإمام يتحدث عن الشجاعة:

تحدث أمير المؤمنين عليه السلام عن الشجاعة، وهو خير من يصفها لحكمته وبلاغته وشجاعته، فقال:

* قدر الرجل على قدر همته، وصدقه على قدر مروءته، وشجاعته على قدر أنَفته، وعفته على قدر غيرته[٣].

* بقية السيف أنمى عدداً، وأكثر ولداً[٤].

قال ابن أبي الحديد معلقاً على هذه الحكمة: (قال شيخنا أبو عثمان: ليته لمّا ذكر الحكم ذكر العلة! ثم قال: قد وجدنا مصداق قوله في أولاده وأولاد الزبير وبني المهلب وأمثالهم ممن أسرع القتل فيهم. وأُتي زياد بامرأة من الخوارج فقال لها: أما والله لأحصدنكم حصداً، ولأفنينّكم عَدّاً. فقالت: كلا إن القتل ليزرعنا. فلمّا همّ بقتلها تستّرت بثوبها، فقال: اهتكوا سترها لحاها الله[٥]! فقالت: إن الله لا يهتك ستر أوليائه، ولكن التي هُتك سترها على يد ابنها: سُميّة. فقال: عجّلوا قتلها أبعدها الله. فقُتلت)[٦].

كانت سمية مولاة للحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب، وكان يطؤها بملك اليمين فولدت له نافعاً ثم نفيعاً الذي عُرف لاحقاً باسم أبي بكرة، فانتفى منه لكونه رآه أسود، ثم وهبها لزوجته، فزوّجتها عبدًا لها رومياً يقال له عبيد. ولما أتى أبوسفيان الطائف سكر، فطلب بغياً، فواقع سمية، وولدت بعد ذلك زياداً، ووافق ذلك عام الهجرة النبوية. لذا قيل زياد بن أبيه، وزياد بن سمية لجهالة الأب. كان كاتباً لأبي موسى الأشعري زمن إمرته على البصرة، ثم ولاه الإمام علي على فارس بناء على مشورة عبدالله بن عباس، ثم استماله معاوية حيث ادعاه أخاً له بناء على مواقعة أبي سفيان لسمية، وقال: «نزل من ظهر أبي». وولاه معاوية على الكوفة والبصرة. كان زياد فاتكاً بخصومه كالحجاج، قال الحسن البصري: «بلغ الحسن بن علي أن زياداً يتتبع شيعة علي بالبصرة، فيقتلهم، فدعا عليه». توفي في الكوفة عام ٥٣ هـ بسبب الطاعون.

(١) سورة الأنفال:٤٥-٦٥.

(٢) الصدوق: التوحيد. ص ٣٧٦.

(٣) الرضي: نهج البلاغة. الحكمة ٤٧. ص ٤٧٧.

(٤) الرضي: نهج البلاغة. الحكمة ٨٤. ص ٤٨٢. وروي «أبقى» بدلاً من «أنمى».

(٥) لحاه الله: قبحه ولعنه.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١٨. ص ٢٣٥.

* جُبلت الشجاعة على ثلاث طبائع، لكل واحدة منهن فضيلة ليست للأخرى: السخاء بالنفس، والأَنَفة من الذل، وطلب الذكر، فإن تكاملت في الشجاع كان البطل الذي لا يقام لسبيله، والموسوم بالإقدام في عصره، وإن تفاضلت فيه بعضها على بعض كانت شجاعته في ذلك الذي تفاضلت فيه أكثر وأشد إقداماً [١].

* لو تميزت الأشياء كان الكذب مع الجبن، والصدق مع الشجاعة، والراحة مع اليأس، والتعب مع الطمع، والحرمان مع الحرص، والذل مع الدَّين[٢].

* أشجع الناس من غلب الجهل بالحلم[٣].

* رأي الشيخ أحب إليّ من جَلَد الغلام. وروي: من مشهد الغلام[٤].

قال ابن أبي الحديد[٥]: (إنما قال كذلك لأن الشيخ كثير التجربة، فيبلغ من العدو برأيه ما لا يبلغ بشجاعته الغلام الحدث غير المجرب، لأنه قد يغرر بنفسه فيهلك ويهلك أصحابه، ولا ريب أن الرأي مقدم على الشجاعة، ولذلك قال أبوالطيب :

الـرّأيُ قَـبـلَ شَـجاعةِ الشّـجْعانِ ... هُـوَ أوّلٌ وَهـيَ المَـحَـلُّ الـثّـاني
فـإذا هـمَـا اجْـتَـمَـعَـا لـنَـفْـسٍ مَـرّةٍ ... بَـلَـغَـتْ مِـنَ الـعَـلْـيـاءِ كـلّ مـكـانِ
وَلَـرُبّمـا طَـعَـنَ الـفَـتـى أقْـرَانَـهُ ... بـالـرّأيِ قَـبْـلَ تَـطَـاعُـنِ الأقـرانِ
لَـوْلا الـعُـقـولُ لـكـانَ أدنَـى ضَـيـغَـمٍ ... أدنَـى إلى شَـرَفٍ مِـنَ الإنْـسَـانِ
وَلَـمـا تَـفَـاضَـلَـتِ الـنّـفُـوسُ وَدَبّـرَتْ ... أيـدي الـكُـمـاةِ عَـوَالِيَ المُـرّانِ

ومن وصايا أبرويز إلى ابنه شيرويه: لا تستعمل على جيشك غلاماً غمراً ترفاً، قد كثر إعجابه بنفسه، وقلّت تجاربه في غيره، ولا هرماً كبيراً مدبراً قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السن من جسمه، وعليك بالكهول ذوي الرأي. وقال لقيط بن يعمر الأيادي في هذا المعنى:

وَقَـلِّـدُوا أَمْـرَكُـمْ لِلّهِ دَرُّكُـمُ ... رَحْـبَ الـذِّرَاعِ بِـأَمْـرِ الْـحَـرْبِ مُضْطَلِعَا
لاَ مُـتْـرَفًا إِنْ رَخَـاءُ الْـعَـيْـشِ سَـاعَـدَهُ ... وَلاَ إِذَا عَـضَّ مَـكْـرُوهٌ بِـهِ خَـشَـعَا
مَـا زَالَ يَـحْـلُـبُ دَرَّ الـدَّهْـرِ أَشْـطُـرَهُ ... يَـكُـون مـتَّـبَـعـاً طَـوراً ومـتَّـبِـعـا

---

(١) الريشهري: ميزان الحكمة. ج ٢ – ص ١٤١٢.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ٢٠. ص ٣٢٧.
(٣) الريشهري: ميزان الحكمة. ج ٢ – ص ١٤١٣.
(٤) الرضي: نهج البلاغة. الحكمة ٨٦. ص ٤٨٢.
(٥) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١٨. ص ٢٣٧ – ٢٣٩. الشزر: فتل الحبل مما يلي اليسار. والقحم: الشيخ الكبير السن الهرم. والضرع: الرجل الضعيف.

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ مسْتَحْكِمَ الرَّأيِ لاَ قَمْحًا وَلاَ ضرَعَا).

* العدل أفضل من الشجاعة، لأن الناس لو استعملوا العدل عموماً في جميعهم لاستغنوا عن الشجاعة[١].

* السخي شجاع القلب، والبخيل شجاع الوجه[٢].

* ما السيف الصارم في كف الشجاع بأعزّ له من الصدق[٣].

* السخي شجاع القلب، والبخيل شجاع الوجه[٤].

* أشجع الناس أثبتهم عقلاً في بداهة الخوف[٥].

* ما أشجعَ البرئ، وأجبن المريب[٦].

* وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته.... فافسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع، وتحرض الناكل إن شاء الله[٧].

* العجز آفة، والصبر شجاعة، والزهد ثروة، والورع جُنّة، ونعم القرين الرضا.

قال ابن أبي الحديد معلقاً على هذا الخبر: (... قد تقدم قولنا في الصبر. وكان يقال: الصبر مر، لا يتجرعه إلا حُر. وكان يقال: إن للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالاً كأعمار الناس وآجالهم، فاصبروا لزمان السوء حتى يفنى عمره، ويأتي أجله. وكان يقال: إذا تضيفتك نازلة فأقرها الصبر عليها. وأكرم مثواها لديك بالتوكل والاحتساب لترحل عنك، وقد أبقت عليك أكثر مما سلبت منك، ولا تنسها عند رخائك، فإن تذكرك لها أوقات الرخاء يبعد السوء عن فعلك، وينفي القساوة عن قلبك ويوزعك حمد الله وتقواه)[٨].

* ونُسب إلى الإمام عليه السلام قوله في شأن بني همدان الذين نصروه في مواقف عديدة، لاسيما في حرب صفين[٩]:

ناديتُ هَمدانَ والأبوابُ مُطبَقَه وَمثلُ هَمدانَ سَنّى فَتحة البَاب

كالهِنْدوانيِّ لَم تَفلُل مَضَارِبَه وَجهٌ جَميلٌ وقَلبٌ غَير وَجّاب

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٢٠ ـ الحكمة ٨١٦ ـ ص ٣٣٣.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٢٠ ـ الحكمة ٣٢٣ ـ ص ٢٩٠.

(٣) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٢٠ ـ الحكمة ٣٨٧ ـ ص ٢٩٦.

(٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٢٠ ـ الحكمة ٣٢٣ ـ ص ٢٩٠.

(٥) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٢٠ ـ الحكمة ٤٨٠ ـ ص ٣٠٤.

(٦) الواسطي : عيون الحكم والمواعظ ـ ص ٤٨٠.

(٧) الرضي : نهج البلاغة ـ الكتاب ٥٣ ـ ص ٤٣١. وهو من كتاب الإمام علي لمالك الأشتر لما ولاه على مصر.

(٨) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١٨ ـ الحكمة ٣٨٧ ـ ص ٩٠ ـ ٩٢.

(٩) ابن عبدربه : العقد الفريد ـ ج ١ ـ ص ٣٧ . الهندواني: صفة للسيف المصنوع بالهند . تفلل: تثلم . مضرب السيف: حده.

الشجاعة في كلمات العلماء:

* الشريف المرتضى: (الشجاعة: قوة في القلب يتمكن معها تحمل الحرب ومكاره الحرب في حالة لا يؤمن بنفيها على النفس أو على بعض أطرافه)[1].

* المحقق النراقي: (الشجاعة بنفسها ملكة يقتدر بها على خوض الأهوال، ومعاركة الأبطال، وتلزمها جرأة وقوة قلب، وقد لا تكون لأحد هذه الملكة، فلا جرأة له ولا قوة قلب، ولكن يخوض المعارك لصفة نفسانية أخرى، كغيرة، أو حمية، أو حب شخص، أو بغضه، أو حفظ مال، ونحو ذلك)[2].

* العلامة الطباطبائي: (اعلم أن إصلاح أخلاق النفس وملكاتها في جانبي العلم والعمل، واكتساب الأخلاق الفاضلة، وإزالة الأخلاق الرذيلة، إنما هو بتكرار الأعمال الصالحة المناسبة لها ومزاولتها، والمداومة عليها، حتى تثبت في النفس من الموارد الجزئية علوم جزئية وتتراكم وتنتقش في النفس انتقاشاً متعذر الزوال أو متعسرها. مثلاً: إذا أراد الإنسان إزالة صفة الجبن واقتناء ملكة الشجاعة كان عليه أن يكرر الورود في الشدائد والمهاول التي تزلزل القلوب وتقلقل الأحشاء، وكلما ورد في مورد منها وشاهد أنه كان يمكنه الورود فيه وأدرك لذة الإقدام وشناعة الفرار والتحذر، انتقشت نفسه بذلك انتقاشاً بعد انتقاش حتى تثبت فيها ملكة الشجاعة، وحصول هذه الملكة العلمية وإن لم يكن في نفسه بالاختيار لكنه بالمقدمات الموصلة إليه - كما عرفت - اختياري كسبي. إذا عرفت ما ذكرناه علمت أن الطريق إلى تهذيب الأخلاق واكتساب الفاضلة منها أحد مسلكين، المسلك الأول: تهذيبها بالغايات الصالحة الدنيوية، والعلوم والآراء المحمودة عند الناس، كما يقال: إن العفة وقناعة الإنسان بما عنده والكف عما عند الناس توجب العزة والعظمة في أعين الناس والجاه عند العامة، وإن الشَّرَه يوجب الخصاصة والفقر، وإن الطمع

علي بن الحسين بن موسى المنتهي نسبه إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام لُقِّب بالمرتضى وذي المجدين وعلم الهدي (٣٥٥ هـ - ٤٣٦ هـ)، كان نقيب الطالبيين، ومن علماء الإمامية ومن الأدباء، له أكثر من ٨٠ مؤلفاً. تتلمذ على يد الشيخ المفيد، وتتلمذ على يديه الشيخ محمد بن الحسن الطوسي الملقب بشيخ الطائفة.

أحمد بن محمد مهدي الصفائي النراقي نسبة إلى نراق، من قرى آراك في إيران (١١٨٥ - ١٢٤٥ هـ). عالم وفقيه إمامي وشاعر. تتلمذ على يد والده وعدد من كبار الفقهاء، وتتلمذ على يديه عدد من العلماء من بينهم العلامة الشيخ مرتضى الأنصاري مجدد علم أصول الفقه. له عدة مؤلفات.

السيد محمد حسين الطباطبائي (١٣٢١- ١٤٠٢ هـ) من أبرز مفسري القرآن وفلاسفة ومفكري الإمامية في القرن العشرين. اشتهر بتفسيره «الميزان»، وله عدة مؤلفات في الفلسفة والتاريخ. تتلمذ على يد عدد من العلماء من بينهم الميرزا النائيني، وتتلمذ على يديه عدد من المفكرين كالشهيد مرتضى المطهري، والمرجع الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، والفقيه السيد محمد حسين الطهراني، والسيد المجاهد موسى الصدر.

(١) المرتضى: رسائل المرتضى. ج ٢. ص ٢٧٤.

(٢) النراقي: مستند الشيعة. ج ١٨. ص ٨٨.

يوجب ذلة النفس المنيعة، وإن العلم يوجب إقبال العامة والعزة والوجاهة والأنس عند الخاصة، وإن العلم بصر يتقي به الإنسان كل مكروه، ويدرك كل محبوب، وإن الجهل عمى، وإن العلم يحفظك وأنت تحفظ المال وإن الشجاعة ثبات يمنع النفس عن التلون والحمد من الناس على أي تقدير سواء غلب الإنسان أو غلب عليه بخلاف الجبن والتهور، وإن العدالة راحة النفس عن الهمم المؤذية، وهي الحياة بعد الموت ببقاء الاسم وحسن الذكر وجميل الثناء والمحبة في القلوب. وهذا هو المسلك المعهود الذي رتب عليه علم الأخلاق، والمأثور من بحث الأقدمين من يونان وغيرهم فيه. ولم يستعمل القرآن هذا المسلك الذي بناؤه على انتخاب الممدوح عند عامة الناس عن المذموم عندهم، والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه. نعم ربما جرى عليه كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يرجع بالحقيقة إلى ثواب أخروي أو عقاب أخروي كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[١]. دعا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى العزم و الثبات، وعلَّله بقوله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ﴾، وكقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ﴾[٢]، دعا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى الصبر وعلَّله بأن تركه وإيجاد النزاع يوجب الفشل وذهاب الريح وجرأة العدو، و قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٣]، دعا إلى الصبر والعفو، وعلَّله بالعزم والإعظام. المسلك الثاني: الغايات الأخروية، و قد كثر ذكرها في كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٤]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥]، و قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٧]، وأمثالها كثيرة على اختلاف فنونها. و يلحق بهذا القسم نوع آخر من الآيات كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ﴾[٨] فإن الآية دعت إلى ترك الأسى والفرح بأن الذى أصابكم ما كان ليخطئكم، وما أخطأكم ما كان ليصيبكم، لاستناد الحوادث إلى قضاء مقضي وقدر مقدَّر، فالأسى والفرح لغو لا ينبغى صدوره من مؤمن يؤمن بالله الذى بيده أزمّة الأمور كما يشير إليه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[٩] فهذا القسم من الآيات أيضاً نظير القسم السابق الذى يتسبب فيه إلى إصلاح الأخلاق بالغايات الشريفة الأخروية، وهي كمالات حقيقية غير ظنية يتسبب فيه إلى إصلاح الأخلاق بالمبادىء السابقة الحقيقية من القدر والقضاء والتخلّق بأخلاق الله والتذكر بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا ونحو ذلك)[١٠].

(١) سورة البقرة: ١٥٠.
(٢) سورة الأنفال: ٤٦.
(٣) سورة الشورى: ٤٣.
(٤) سورة التوبة: ١١١.
(٥) سورة الزمر: ١٠.
(٦) سورة إبراهيم: ٢٢.
(٧) سورة البقرة: ٢٥٧.
(٨) سورة الحديد: ٢٢.
(٩) سورة التغابن: ١١.
(١٠) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن. ج١. ص ٣٥٥-٣٥٦.

* **ابن أبي الحديد المعتزلي:** عن شيخه أبي عثمان أنه قال: (وإن كان الفخر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان، فمَن كحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب؟! وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال: أكيس، وكان لا يرضى أن يقول: شجاع، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات، فتقول: شجاع، فإذا كان فوق ذلك قالت: بطل، فإذا كان فوق ذلك قالت: بهمة، فإذا كان فوق ذلك قالت: أكيس. وقال العجاج[١]: أكيس عن حوبائه سخي[٢])[٣].

أبوحامد عز الدين عبدالحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد (٥٨٦ هـ. ٦٥٦ هـ) شافعيّ الفقه والأصول، معتزليّ الكلام. كان عالماً شهيراً ذا رأي في ميدان التّاريخ، والأدب، والكلام. تسنّم في بغداد مكانةً مرموقةً. وكانت له علاقات وثيقة بوزير المستعصم العباسي: ابن العلقميّ العالم. وأصبح في عداد كتّاب ديوان دار الخلافة بفضله. ألف عدة كتب من بينها: شرح نهج البلاغة، انتقاد المستصفى.

وقال ابن أبي الحديد[٤]: (السخاء من باب الشجاعة، والشجاعة من باب السخاء، لأن الشجاعة إنفاق العمر وبذله فكانت سخاء، والسخاء إقدام على إتلاف ما هو عديل المهجة فكان شجاعة. أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء:

كَمْ بَينَ قَومٍ إنَّما نَفَقاتُهُم ... مَالٌ وقَومٍ يُنفِقونَ نفُوسَا).

* **الجاحظ:** (الأسباب المشجعة قد تكون من الغضب والشراب والهوج والغيرة والحمية، وقد تكون من قوة النفخ وحب الأحدوثة، وربما كان طبعاً كطبع الرحيم والسخي والبخيل والجزوع والصبور، وربما كان للدين، ولكن لا يبلغ الرجل للدين ما لم يشيّعه بعض ما تقدم، لأن الدين مجتلَب مكتسب ولا يكاد يبلغ الطبيعة)[٥].

أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ (١٥٩هـ. ٢٥٥ هـ)، أحد كبار الأدباء العرب في زمانه. ونسبت إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة. له كتب في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان وغيرها، ومن أشهرها: البيان والتبيين وكتاب الحيوان والبخلاء.

الشجاعة في الشعر العربي:

الشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع وعدم احتياجه إلى رقي في العقل أو تعمق في العلم أو تقدم في المدنية. ولكن أوّليته عند العرب مجهولة، فلم يقع في سماع التاريخ إلا وهو محكم مقصَّد. وليس مما يسوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة في شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس، وإنما اختلفت عليه العصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت مناحيه.

---

(١) عبدالله بن رؤبة بن لبيد السعدي التيمي، شاعر مخضرم توفي نحو عام ٩٠ هـ.

(٢) الأكيس: الشجاع الذي لا يهاب المعركة. والحوباء: النفس. أي أنه شجاع جاد بنفسه في ساحة المعركة.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١٥. ص ٢٤٧.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ٣. ص ٢٦٣.

(٥) اللحام: أروع ماقيل في الشجاعة والجبن والهمم والآمال من محاضرات الأدباء. ص ٧- ٨.

والمظنون أن العرب خَطَوا من المُرسَل إلى السجع، ومن السجع إلى الرجَز، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد، فنبغوا فيه ولم يدانيهم فيه أحد، وبات فخرهم على الأمم، حتى جاء القرآن الكريم يتحدى هذا الإرث الجاهلي بلسان عربي مبين، لا هو من الشعر ولا النثر، فعجزت العرب بكل طاقاتها الأدبية أن تتحداه، ثم انتصر الإسلام في الميدان، وأصبح الشعر من وسائل الانتصار لدين التوحيد ورموزه، ونشر الدين ومعارفه، وتهذّب بأدب الإسلام في بعض نماذجه، بل وتبلورت صور من الشعر وأساليبه في العصر الإسلامي لاسيما مع التلاقح الحضاري الذي فرض نفسه على أثر الفتوحات الإسلامية الكبرى، وكان للصراعات السياسية والمذهبية دور بارز في نمو هذه الثروة الشعرية التي تزخر بها المكتبة الإسلامية اليوم، باعتبار الشعر أحد أهم الوسائل الإعلامية التي أتيحت، وما زالت، عند العرب[١].

وسنقتصر في هذا الفصل على نماذج من شعر العرب الجاهليين في الحماسة، على أن نقدم نماذج من شعر الحماسة والحرب في العصر الإسلامي من خلال وصف بطولات أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وشجاعته في فصل لاحق بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الملقب بالنابغة، توفي نحو ١٨ قبل الهجرة، شاعر جاهلي. اجتمعت كلمة النقاد على أنه أحد شعراء الطبقة الأولى إن لم يكن رأس هذه الطبقة بعد امرئ القيس، كانت تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فيفد عليه الشعراء يعرضون عليه شعرهم. لقب بالنابغة لأنه نبغ في الشعر أي أبدع فيه دفعة واحدة.

* **النابغة الذبياني:** كان بنو عامر قد بعثوا إلى حصن بن حذيفة الفزاري الذبياني وابنه عيينة أن يقطعوا حلف ما بينهم وبين بني أسد ويلحقونهم ببني كنانة على أن تحالف بنو عامر بني ذبيان، ولذا قال في بداية القصيدة: «خالوا» منّ المخالاة، وهي المتاركة والمقاطعة. فهمّ عيينة بذلك، فقالت بنو ذبيان: أخرجوا من فيكم من الحلفاء، ونخرج من فينا.. فأبوا، فأنشد النابغة محذراً زرعة بن عمر العامري القصيدة التي ننقلها هنا[٢]:

قالتْ بنو عامرٍ: خالوا بني أسدٍ، ... يا بؤسَ للجَهْلِ، ضَرّاراً لأقوامِ
يأبى البلاءُ، فلا نبغي بهمْ بدلاً، ... و لا نريدُ خلاءً بعدَ إحكامِ
فصالحُونا جَميعاً، إنْ بَدا لكُمُ، ... و لا تقولوا لنا أمثالها، عامِ
إني لأخشَى عليكمْ أن يكونَ لكُمْ، ... من أجلِ بَغضائِهِمْ، يومٌ كأيّامِ
تَبدو كَواكِبُهُ، والشّمسُ طالعةٌ، ... لا النورُ نورٌ، ولا الإظلامُ إظلامُ
أو تَزْجُرُوا مُكْفَهِراً لا كِفاءَ له، ... كاللّيْلِ يخلِطُ أصراماً بأصْرامِ
مستحقبي حلقِ الماذيّ، يقدمهم ... سشمُّ العرانينِ، ضرابونَ للهامِ
لهمْ لواءٌ بكفّيْ ماجدٍ بطلٍ، ... لا يَقطَعُ الخَرْقَ إلاّ طَرْفُهُ سامِ

(١) الزيات: تاريخ الأدب العربي. ص ٢٥ بتصرف.
(٢) الذبياني: ديوان النابغة الذبياني.

يَهدي كتائبَ خُضرا، ليس يَعصِمها ... إلاّ ابتدارٌ، إلى موتٍ، بإلجامِ
كم غادرَتْ خَيلُنا منكم، بُمعترِكٍ، ... للخامعاتِ، أكفاً بعدَ أقدامِ
يا ربّ ذاتِ خليلٍ قد فجعنَ به، ... ومُؤتَمينَ، وكانوا غَيرَ أيتامِ
والخَيلُ تَعْلَمُ أنّا، في تجاوُلِها ... عندَ الطعانِ، أولو بؤسى وإنعامِ
و لّوا، وكبشهمُ يكبو لجبهتِه، ... عندَ الكُماةِ صَريعاً، جوفُهُ دامِ

* **طَرَفة بن العبد:** معلقة طرفة بن العبد من أهم المعلَّقات الشعرية في الشعر الجاهلي، وتأتي أهميتها من أنَّها تُمَثِّل على وجه الدِّقة حياةَ صاحبها الشخصيَّة، وتجربته الخاصَّة، فتتمثَّل فيها قمَّة من قمم الصِّدق الفني والموضوعي، كما أنَّها من ناحية أخرى مثَّلَت حياةَ إنسان الجاهلية، ورؤيتَه، وتصوُّرَه للكون والحياة والإنسان، وحملَت في مضامينها أشجانَه وهمومه، وقضاياه التي شكلت هواجسه، وأسئلته الكبرى التي ظلَّت تُخايله وتمثِّل موقفه من الحياة والموت.

طَرَفَةُ بن العبد بن سفيان من بني بكر بن وائل، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولد في إقليم البحرين التاريخي عام ٥٤٣م، وقال الشعر صغيراً وأجاد فيه، وهو مصنف بين شعراء المعلقات. عاش طفولة مهملة لاهية راح يضرب في البلاد حتى بلغ أطراف جزيرة العرب واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أمر بقتله لشعر هجاه به. مات شاباً دون الثلاثين من عمره سنة ٥٦٩م.

إذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَىً خِلْتُ أنَّني ... عُنِيْتُ فَلَمْ أكْسَلْ وَلَمْ أتَبَلَّدِ
أحَلْتُ عَلَيْهَا بالقَطِيْعِ فَأجْذَمَتْ ... وَقَدْ خَبَّ آلُ الأمْعَزِ المُتَوَقِّدِ
فَذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وَلِيْدَةُ مَجْلِسٍ ... تُرِي رَبَّهَا أذْيَالَ سَحْلٍ مُمَدَّدِ
فَإن تَبغِني في حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَني ... وَإنْ تَلْتَمِسْني في الحَوَانِيْتِ تَصْطَدِ
وَإنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَمِيْعُ تُلاَقِني ... إلَى ذِرْوَةِ البَيْتِ الشَّرِيْفِ المُصَمَّدِ

إلى أن يقول:

أَلاَ أَيُّهَا اللائِمي أَشْهَدُ الوَغَى ... وَأَنْ أَنْهَلِ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي
فَإنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي ... فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

ثم يقول:

وإنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا ... وَإنْ يأْتِكَ الأَعْدَاءُ بِالجَهْدِ أَجْهَدِ
وَإنْ يَقْذِفُوا بِالقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ ... بِكَأسِ حِيَاضِ المَوْتِ قَبْلَ التَّهَدُّدِ

ويضيف:

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذي تَعْرِفُونَهُ ... خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ
فَآلَيْتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحي بِطَانَةً ... لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ
حُسَامٍ إِذَا مَا قُمْتُ مُنْتَصِراً بِهِ ... كَفَى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءُ لَيْسَ بِمِعْضَدِ
أَخِي ثِقَةٍ لا يَنْثَنِي عَنْ ضَرِيبَةٍ ... إِذَا قِيلَ مَهْلاً قَالَ حَاجِزُهُ قَدِي
إِذَا ابْتَدَرَ القَوْمُ السِّلاحَ وَجَدْتَنِي ... مَنِيعاً إِذَا بَلَّتْ بِقَائِمَهِ يَدِي

ويقول[1]:

فَلَوْ كُنْتُ وَغْلاً فِي الرِّجَالِ لَضَرَّنِي ... عَدَاوَةُ ذِي الأَصْحَابِ وَالمُتَوَحِّدِ
وَلَكِنْ نَفَى عَنِّي الرِّجَالَ جَرَاءَتِي ... عَلَيْهِمْ وَإِقْدَامِي وَصِدْقِي وَمَحْتِدِي
وَيَوْمٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ عِنْدَ عِرَاكِهِ ... حِفَاظاً عَلَى عَوْرَاتِهِ وَالتَّهَدُّدِ
عَلَى مَوْطِنٍ يَخْشَى الفَتَى عِنْدَهُ الرَّدَى ... مَتَى تَعْتَرِكْ فِيهِ الفَرَائِصُ تُرْعَدِ

* **عمرو بن معديكرب الزبيدي:** يتحدث عمرو في قصيدته الآتية عن أنّ جمال الإنسان ليس بما يلبسه من ثياب، وإنما في معدن الإنسان وقيمه وسلوكه وحسبه ونسبه، وأنه قد أعد لمصائب الدهر درعاً سابغة وفرساً سريعاً وسيفاً يقطع الخصم قطعاً، وأن من عادته أن يستعدّ لمواجهة الخصم، وأنه على موعدٍ مع مواجهة قبيلتي كعب ونهد، وهم قوم من الأشداء.. كما وتحدث عمرو عن أصحابه الذين قُتلوا في تلك المواقع وأنه دفنهم بيديه، ويذكر أنه لم يكن خائفاً ولا قليل الصبر عند فقدهم، لم يجزع ولم يخف الموت لشجاعته.. ولأن البكاء لا يردّ ميتاً.. ثمّ إنه بقوته وشجاعته يعوّض فقدانهم، لأنه مستعدٌ دائماً لقتال الأعداء[2].

أبو ثور عمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجي. شاعر وفارس. كان طويل القامة وقوي البنية. أسلم على عهد النبي ثم ارتد بعد وفاته، ثم رجع إلى الإسلام. اشتهر بالشجاعة والفروسية حتى لُقبَّ بفارس العرب، وكان له سيف اسمه الصمصامة، وقد شارك في معارك الفتح الإسلامي في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب في الشام والعراق، وشهد معركة اليرموك والقادسية. كثرت جراحه في معركة نهاوند فمات متأثراً بها سنة ٢١ هـ .

لَيْسَ الْجَمَالُ بِمِئْزَرٍ ... فَاعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

---

(١) طرفة : ديوان طرفة. ص ٢٤ – ٢٩ . الأمعز: المكان الكثير الحصى . المتوقد : الملتهب الساطع عليه نور الشمس. الجلى: المصيبة والنازلة. الكشح: الخصر والجانب . العضب: السيف القاطع. المهند: صفة للسيف المصنوع في الهند. الضريبة: ما يضرب بالسيف . قدي: حسبي. الوغل: الضعيف. المحتد: الأصل. الفرائص: جمع فريصة وهي اللحمة في أعلى الكتف أو الفخذ.

(٢) اللحام : أروع ماقيل في الشجاعة والجبن والهمم والآمال من محاضرات الأدباء. ص ٣١ – ٣٢. الحدثان: نوازل الدهر وشدائده. السابغة: الدرع. العداء: صفة للفرس السريع . العلندي: صفة للفرس الشديد. شطب السيف: طرائقه. تنمروا: بدوا كالنمور في القوة. يفحصن: يضربن بأرجلهن . المعزاء: الأرض الصلبة الشديدة. ليس: حبيبة الشاعر. الكبش: الرئيس السيد المقدام. هلعت: فزعت . الزند: الضيق.

إنَّ الْجَمالَ مَعادِنٌ ... وَمَناقِبٌ أوْرَثْنَ مَجْدَ
أعْدَدْتُ لِلْحَدَثانِ سابِغَةً ... وَعَدَّءً عَلَنْدَى
نَهْداً وَذا شُطَبٍ يَقُدُّ ... الْبَيْضَ وَالأَبْدانَ قَدَّ
وعَلِمْتُ أنِّي يَوْمَ ذاكَ ... مُنازِلٌ كَعْباً وَنَهْدَا
قَوْمٌ إذا لَبِسُوا الْحَدِيدَ ... تَنَمَّرُوا حَلَقاً وَقِدَّا
كُلُّ امْرِئٍ يَجْرِي إلى ... يَوْمِ الْهِياجِ بِما اسْتَعَدَّا
لَمَّا رَأيْتُ نِساءَنا ... يَفْحَصْنَ بِالْمَعْزاءِ شَدَّا
وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّها ... بَدْرُ السَّماءِ إذا تَبَدَّى
وَبَدَتْ مَحاسِنُها الَّتي ... تَخْفَى وَكانَ الأَمْرُ جِدَّا
نازَلْتُ كَبْشَهُمُ وَلَمْ ... أرَ مِنْ نِزالِ الْكَبْشِ بُدَّا
هُمْ يَنْذُرُونَ دَمِي وَأنْذُرُ ... إنْ لَقِيتُ بِأنْ اشُدَّا
كَمْ مِنْ أخٍ لِي صالِحٍ ... بَوَّأتُهُ بِيَدَيَّ لَحْدَا
مَا إنْ جَزِعْتُ وَلاَ هَلِعْتُ ... وَلاَ يَرُدُّ بُكايَ زَنْدَا
أَلْبَسْتُهُ أثْوابَهُ ... وَخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدَا
أغْنِي غَناءَ الذَّاهِبِينَ ... أُعَدُّ لِلأَعْداءِ عَدَّا
ذَهَبَ الَّذِينَ أحِبُّهُمْ ... وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدَا

همام بن غالب بن صعصعة الدارمي (٣٨هـ - ١١٤هـ) سمي الفرزدق لضخامة وجهه ومعناها الرغيف، ولد الفرزدق في كاظمة لبني تميم وعاش في البصرة، اشتهر بشعر المدح والفخر والهجاء. يعد من شعراء الطبقة الأولى في العهد الإسلامي.

* **الفرزدق:** قال الفرزدق شعراً أغضب معاوية وزياد بن أبيه، وصار مطلوباً، قال الفرزدق: (فطُلبت أشد طلب حتى جعل من كان يؤويني يخرجني من عنده، فضاقت على الأرض، فبينا أنا ملفف رأسي في كسائي على ظهر الطريق إذ مر بي الذى جاء في طلبي، فلما كان الليل أتيت بعض أخوالى من بنى ضبة وعندهم عرس، ولم أكن طعمت قبل ذلك طعاماً فقلت آتيهم فأصيب من الطعام. قال: فبينا أنا قاعد إذ نظرت إلى هادي فرس[1] وصدر رمح قد جاوز باب الدار داخلاً إلينا، فقاموا إلى حائط قصب فرفعوه فخرجت منه وألقوا الحائط فعاد مكانه، ثم قالوا: ما رأيناه. وبحثوا ساعة ثم خرجوا فلما أصبحنا جاؤني فقالوا: اخرج إلى الحجاز عن جوار زياد لا يظفر بك، فلو ظفر بك البارحة أهلكتنا.

(١) هادي الشيء: أوّله.

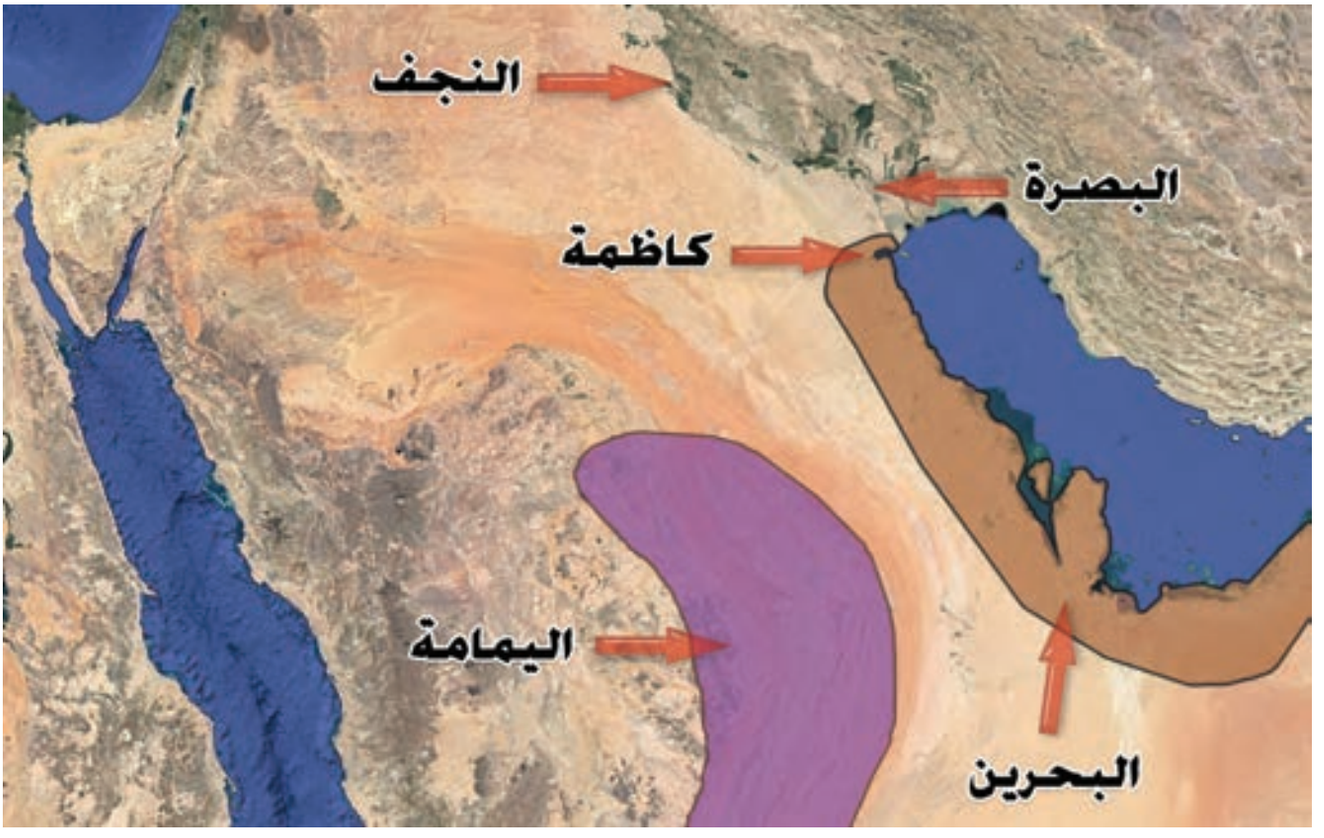

وجمعوا ثمن راحلتين وكلموا لي مقاعساً [١] أحد بني تيم الله بن ثعلبة، وكان دليلاً يسافر للتجار، قال: فخرجنا إلى «بانقيا»[٢] حتى انتهينا إلى بعض القصور التى تُنزَل، فلم يفتح لنا الباب، فألقينا رحالنا إلى جنب الحائط والليلة مقمرة فقلت: يا مقاعس، أرأيت إن بعث زياد بعد ما نصبح إلى «العتيق» رجالاً، أيقدرون علينا؟ قال نعم، يرصدوننا. ولم يكونوا جاوزوا العتيق، وهو خندق كان للعجم. قال فقلت ما تقول العرب؟ قال: يقولون أمهله يوماً وليلة ثم خذه فارتحل. فقال: إنى أخاف السباع. فقلت: السباع أهون من زياد! فارتحلنا لا نرى شيئاً إلا خلّفناه، ولزمَنا شخصٌ لا يفارقنا، فقلت: يا مقاعس، أترى هذا الشخص؟ لم نمرر بشيء إلا جاوزناه غيره، فإنه يسايرنا منذ الليلة. قال: هذا السبع. قال: فكأنه فهم كلامنا، فتقدم حتى ربض على متن الطريق، فلما رأينا ذلك نزلنا فشددنا أيدي ناقتينا بثنايين، وأخذت قوسي. وقال مقاعس: يا ثعلب، أتدري ممن فررنا إليك؟ من زياد. فأحصب بذنبه حتى غشينا غبارَه وغشي ناقتينا. قال: فقلت: أرميه. فقال: لا تهجّه، فإنه إذا أصبح ذهَب. قال: فجعل يرعد ويبرق ويزأر، ومقاعس يتوعده. حتى انشق الصبح فلما رآه ولى وأنشأ الفرزدق يقول[٣]:

مَـا كُـنـتُ أحْـسـبُـنـي جَـبـانـاً قَـبْـلَ مَـا ... لاقَـيْـتُ لَـيْـلَـةَ جَـانـبِ الأنْـهَـارِ

لَـيْـثـاً، كَـأنّ عـلـى يَـدَيْـهِ رِحَـالَـةً، ... جَـسِـدَ الـبَـرَاثـنِ مُـؤجَـدَ الأظْـفَـارِ

(١) اسم الرجل مقاعس.
(٢) من أسماء مدينة النجف الأشرف.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص ١٨٣-١٨٤. مخرِّم: من خرَّم أي شق. والسفار: جمع مسافر.

لَمّا سَمِعْتُ لَهُ زَمَازِمَ أجْهَشَتْ ... نَفْسِي إليّ وَقُلْتُ أيْنَ فِرَاري
وَرَبَطْتُ جِرْوَتَها وَقلتُ لها اصْبِري ... وَشَدَدْتُ في ضَيْقِ المَقامِ إزَاري
فَلأنْتَ أهْوَنُ مِنْ زِيادٍ جَانِباً ... فَاذْهَبْ إلَيْكَ مُخَرِّمَ السُّفّارِ

جحدر بن مالك، المشهور بجحدر اللص، رجلٌ من بني حنيفة القاطنين في أرض اليمامة، أحد شعراء الدولة الأموية، كان لَسِناً فاتكاً شاعراً.

* **جحدر بن مالك:** سمع الحجاج بن يوسف الثقفي بشجاعته، فاستدعاه، وقيل، بل قبض عليه لكثرة غاراته وفتكه، وقال له: (**إنا قاذفوك في قبة**[1] **فيها أسد، فإن قتلك كفانا مؤونتك، وإن قتلته خلّيناك ووصلناك**). فتلقاه جحدر بالسيف فضرب هامته ففلقها، وسقط الأسد كأنه خيمة قوّضتها الريح[2]، وأنشد قائلاً[3]:

يا جُمَلِ إنَّكَ لَو رَأيْتَ بَسَالَتِي ... في يَومِ هَيْجٍ مُردِفٍ وعَجَاجِ
وتَقدُّمِي لِلَيْثِ أرسُفُ نَحوَه ... عَنّي أكَابِرُه عَنِ الإخْرَاجِ
جَهْمٌ كَأنَّ جَبِينَهُ لَمّا بَدَا ... طَبَقُ الرَّحَا مُتَفَجِّرُ الأثْبَاجِ
يَرْنُو بِنَاظِرَتَيْنِ يَحسَبُ فيهما ... مِن ظَنّ خَالَهُما شُعَاعَ سِرَاجِ
شَثْنٌ بَرَاثِنُه كَأنَّ نُيُوبَه ... زُرْقُ المَعَاوِلِ أو شَبَاةُ زِجَاجِ
وكَأنَّمَا خِيطَت عَلَيه عَبَاءةٌ ... بَرْقَاءُ أو خَلَقٌ مِنَ الدِّيبَاجِ
قِرنَانِ مُحتَضِرَانِ قَد رَبَّتهُما ... أمُّ المَنِيَّةِ غَيرِ ذَاتِ نِتَاجِ
وعَلِمتُ أنّي إنْ أبَيْتُ نِزَالَه ... إنِّي مِنَ الحَجَّاجِ لَستُ بِنَاجِ
فَمَشَيتُ أرفُلُ في الحَدِيدِ مُكبَّلاً ... بِالمَوتِ نَفْسِي عِندَ ذاكَ أنَاجِي
والنَاسُ مِنهُم شَامِتٌ وعِصَابةٌ ... عَبَرَاتُهُم لي بِالحُلُوقِ شَوَاجِي
فَفَلَقْتُ هَامَتَهُ فَخرَّ كَأنَّه ... أُطُمٌ تَقَوَّضَ مَائِلَ الأبْرَاجِ
ثُمَّ انْثَنَيْتُ وفي قَمِيصِي شَاهِدٌ ... مِمَّا جَرَى مِن شَاخِبِ الأوْدَاجِ
أيْقَنْتُ أنّي ذو حِفَاظٍ مَاجِدٍ ... مِن نَسْلِ أمْلاكٍ ذَوِي أتْوَاجِ
فَلَئِنْ قُذِفْتُ إلى المَنِيَّةِ عَامِدًا ... إنِّي لِخَيرِكَ بَعدَ ذاكَ لَرَاجِ

---

(١) القبة: غرفة.. وقيل أنه أنزله في حفرة بعد أن جوّع الأسد لثلاثة أيام.

(٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد. ص ٦٠ - ٦١.

(٣) مجلة المنار. ج٤. ص ٦٤. هيج: ريح شديدة. مردف: متتالي ومتعاقب. أرسف: أمشي في القيود رويداً. عجاج: غبار. جهم: عبوس. أثباج: جمع ثَبَج: وسط الشيء، وكذلك ما بين الكاهل إلى الظهر. شثن: خشن. براثن: جمع بُرثن: مخلب السبع. شباة زجاج: حد طرف الزجاج. الأبرق: ما اجتمع فيه سواد وبياض. أرفل: أسير مثقلاً بالحديد. أطم: حصن. الأوداج: عروق في الرقبة.

* **أبو تمام :** أغار الروم في أيام الخليفة المعتصم بالله بن هارون الرشيد على بلدة زِبَطْرَة المسلمة وعاثوا فيها فساداً، واعتدى رومي من أهل عمّورية على امرأة عربية مسلمة فصاحت مستنجدة بالمعتصم فسخر منها الرومي، ووصل ذلك إلى المعتصم فأقسم أن ينصرها، وغزا بلاد الروم وفتح عمّورية، وكان المنجمون نصحوا المعتصم بالانتظار حتى ينضج التين والعنب لأنه لن يستطيع فتح عمّورية قبل ذلك، لكنه لم يستمع لنصيحتهم، وغزاها وانتصر، فأنشد أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في ذلك بائيته هذه [١].

حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (١٨٨هـ. ٢٣١هـ)، أحد أمراء البيان، ولد بمدينة جاسم بسورية. كان أسمر، طويلاً، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. رحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها. في شعره قوة وجزالة. له تصانيف، منها فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل.

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

بيضُ الصَّفائحِ لا سودُ الصَّحائفِ ... في مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

والعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْمَاحِ لامِعَةً ... بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

أَيْنَ الرِّوايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومِنْ كَذِبِ

تَخَرُّصاً وأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ ولا غَرَبِ

عَجائِباً زَعَمُوا الأَيَّامَ مُجْفِلَةً ... عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ

وخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ... إِذا بَدا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذو الذَّنَبِ

وصَيَّرُوا الأَبْرَجَ العُلْيَا مُرَتَّبَةً ... مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

يَقْضُونَ بالأَمْرِ عَنْهَا وهي غافِلَةٌ ... ما دارَ في فَلَكٍ منها وفي قُطُبِ

لو بَيَّنَتْ قَطُّ أَمْراً قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... لم تُخْفِ ما حَلَّ بالأَوْثانِ والصُّلُبِ

فَتْحُ الفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ ... نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ ... وتَبْرُزُ الأَرْضُ في أَثْوَابِهَا القُشُبِ

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ ... ثُ مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الإِسْلامِ في صَعَدٍ ... وَالمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ في صَبَبِ

أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَنْ تُفْتَدَى جَعَلُوا ... فِدَاءَهَا كُلَّ أُمٍّ مِنْهُمُ وأَبِ

---

(١) ديوان أبي تمام. ج ١. ص ٤٥ . الصفائح: جمع صفيحة: الحديدة العريضة ، ويقال للسيف العريض كذلك. ويعني بشهب الأرماح أسنتها، ويعني بالسبعة الشهب الطوالع التي أرفعها زحل وأدناها القمر. الشرى: موضع كثير الأُسْد.

إلى أن قال:

إنَّ الأُسُـــودَ أسـودَ الغيلِ همَّتُها ... يوم الكريهةِ في المسلوب لا السَّلبِ
وَلَّى ، وَقَـدْ أَلجَـمَ الخطـيُّ مَنْطِقَهُ ... بِسَكْتَةٍ تَحْتَها الأَحْشَاءُ في صخَبِ
أَحْذَى قَرَابينه صَرْفَ الرَّدَى ومَضى ... يَحْتَثُّ أَنْجى مَطَاياهُ من الهَرَبِ
مـوكِّـلاً بـيـفـاعِ الأرضِ يُشرفهُ ... مِنْ خِفّةِ الخَوْفِ لا مِنْ خِفَّةِ الطرَبِ
إنْ يَعْدُ مِنْ حَرهَا عَدْوَ الظَّليم، فَقَدْ ... أوسعتَ جاحمها مِنْ كثرةِ الحطبِ
تِسْعُونَ أَلْفاً كآسادِ الشَّرَى نَضِجَتْ ... جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التينِ والعِنَبِ
يا رُبَّ حوباءَ لَمَّا اجتثَّ دابرهمْ ... طابَتْ ولَوْ ضُمِخَتْ بالمِسْكِ لم تَطِبِ
ومُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ ... حيَّ الرِّضا مِنْ رداهمْ ميِّتَ الغضبِ
والحَـرْبُ قائمَةٌ في مأْزِقٍ لَجِجٍ ... تجثُو القيامُ بهِ صُغراً على الرُّكبِ
كَمْ نيلَ تحتَ سناها من سنا قمرٍ ... وتَحْتَ عارِضِها مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ
كَمْ كان في قطعِ أسبابِ الرِّقابِ بها ... إلى المخدَّرةِ العذراءِ مِنَ سببِ
كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِي مُصْلَتَةً ... تهتزُّ مِنْ قُضُبٍ تهتزُّ في كُثُبِ
بيضٌ، إذا انتُضيتْ من حُجبها، رجعتْ ... أحقُّ بالبيضِ أتراباً مِنَ الحُجُبِ

* **أبو الطيب المتنبي:** كان المتنبي فارس كلمة، وصاحب سيف، وقد مجّد السيف في شعره، وتفنن في عرضه. وشبّه نفسه بالسيف في الشعر، انطلاقاً من كونه صاحب عزيمة ترفض الهزيمة، ومن حيث أن السيف هو رمز القوة والصلابة والإرادة، والاستقامة في القوام، كما الاستقامة في الوصول إلى الهدف.

هو أحمدُ بن الحسين الجعفي أبو الطيب الكندي الكوفي (٣٠٣هـ. ٣٥٤هـ). نظم أول أشعاره وعمره ٩ سنوات، وأشتهر بحدة الذكاء، فكان من أعظم الشعراء، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره. بقي شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وأفضل شعره في الحكمة وفلسفة الحياة ووصف المعارك.

ومن أشعاره في هذا الباب[1]:

حتى رَجَعْتُ وَأَقْلامي قَوَائِلُ لي ... أَلْمَجْدُ للسّيفِ لَيسَ المَجدُ للقَلَمِ
أُكْتُبْ بِنَا أَبَداً بَعدَ الكِتابِ بِهِ ... فإنّمَا نحنُ للأَسْيَافِ كالخَدَمِ
أَسْمَعْتَني وَدَوَائي ما أَشَرْتَ بِهِ ... فإنْ غَفَلْتُ فَدائي قِلّةُ الفَهَمِ
مَنِ اقتَضَى بسِوَى الهِنديّ حاجَتَهُ ... أجابَ كلَّ سُؤالٍ عَن هَلٍ بِلَمِ

(١) شرح ديوان المتنبي. ج ١. ص ٣٥٧.

وقال[١]:

أرَى كُلَّنَا يَبْغي الحَيَاةَ لنَفْسِه ... حَريصاً عَلَيها مُسْتَهاماً بها صَبّا
فحُبُّ الجَبَانِ النّفْسَ أوْرَدَهُ البَقَا ... وَحُبُّ الشّجاعِ الحرْبَ أوْرَدهُ الحرْبَا
وَيخْتَلِفُ الرّزْقانِ والفِعْلُ وَاحِدٌ ... إلى أنْ تَرَى إحسانَ هذا لِذا ذَنْبَا
فأضْحَتْ كأنّ السّورَ من فوْقِ بدئه ... إلى الأرْضِ قد شَقَّ الكواكبَ والتُّربَا
تَصُدّ الرّياحُ الهُوجُ عَنْهَا مَخافَةً ... وَتَفْزَعُ فيها الطّيرُ أن تَلقُطَ الحَبّا
وَتَرْدي الجِيادُ الجُرْدُ فوْق جبالها ... وَقد نَدَفَ الصِّنّبرُ في طُرْقِها العُطْبَا
كَفَى عَجَباً أنْ يَعجَبَ النّاسُ أنّهُ ... بَنى مَرْعَشاً؛ تَبّاً لآرائِهِمْ تَبّا

وقال في شجاعة سيف الدولة الحمداني[٢]:

وَقَفْتَ وَما في المَوْتِ شكٌّ لِوَاقِفٍ ... كأنّكَ في جَفنِ الرّدَى وهْوَ نائِمُ
تَمُرّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هَزيمَةً ... وَوَجْهُكَ وَضّاحٌ وَثَغْرُكَ باسِمُ
تجاوَزْتَ مِقدارَ الشّجاعَةِ والنُّهَى ... إلى قَوْلِ قَوْمٍ أنتَ بالغَيْبِ عالِمُ
ضَمَمْتَ جَناحَيهِمْ على القلبِ ضَمّةً ... تَمُوتُ الخَوَافي تحتَها وَالقَوَادِمُ
بِضَرْبٍ أتَى الهاماتِ وَالنّصرُ غائبٌ ... وَصَارَ إلى اللّبّاتِ وَالنّصرُ قَادِمُ
حَقَرْتَ الرُّدَيْنِيّاتِ حتى طَرَحتَها ... وَحتى كأنّ السّيفَ للرّمحِ شاتِمُ
وَمَنْ طَلَبَ الفَتْحَ الجَليلَ فإنّمَا ... مَفاتيحُهُ البِيضُ الخِفافُ الصّوَارِمُ
نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الأُحَيْدِبِ كُلّهِ ... كمَا نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدّراهِمُ
تدوسُ بكَ الخيلُ الوكورَ على الذُّرَى ... وَقد كَثُرَتْ حَوْلَ الوُكورِ المَطاعِمُ
تَظُنّ فِراخُ الفُتْخِ أنّكَ زُرْتَهَا ... بأُمّاتِها وَهْيَ العِتاقُ الصّلادِمُ
إذا زَلِقَتْ مَشْيَتَها ببُطونِهَا ... كمَا تَتَمَشّى في الصّعيدِ الأراقِمُ
أفي كُلّ يَوْمٍ ذا الدُّمُسْتُقُ مُقدِمٌ ... قَفَاهُ على الإقْدامِ للوَجْهِ لائِمُ
أيُنكِرُ رِيحَ اللّيثِ حتى يَذُوقَهُ ... وَقد عَرَفَتْ ريحَ اللّيوثِ البَهَائِمُ

---

(١) شرح ديوان المتنبي. ج ١. ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) شرح ديوان المتنبي. ج ١. ص ٢٧٦-٢٧٧. سيف الدولة الحمداني: أمير حلب، علي بن حمدان، فارس شجاع دافع عن الحدود الشمالية لدولة الإسلام من غزوات الروم. عاش في القرن الرابع الهجري. كلمى: جرحى. الخوافي: ما خفي من ريش الطير، بخلاف القوادم وهي الريش الظاهر. الهام: أعلى الرأس. الردينيات: صفة للرماح نسبة إلى ردينة، امرأة كانت تصنع الرماح. الأحيدب: تصغير أحدب، وهو التل. الأراقم: الحيات.

وَقد فَجَعَتْهُ بابْنِه وَابنِ صِهْرِه ... وَبالصِّهْرِ حَمْلاتُ الأمير الغَوَاشِمُ
مضَى يَشكُرُ الأصْحَابَ في فوْته الظُّبَى ... لَمَا شَغَلَتْهَا هامُهُمْ وَالمَعاصِمُ
وَيَفْهَمُ صَوْتَ المَشرَفيّة فيهم ... على أنّ أصْواتَ السّيوف أعَاجِمُ
يُسَرّ بمَا أعْطاكَ لا عَنْ جَهَالَةٍ ... وَلكنّ مَغْنُوماً نَجَا منكَ غانمُ
وَلَسْتَ مَليكاً هازماً لنَظيره ... وَلَكنّكَ التّوْحيدُ للشّرْك هَازِمُ
تَشَرّفُ عَدْنانٌ بِهِ لا رَبيعَةٌ ... وَتَفْتَخِرُ الدّنْيا بِهِ لا العَوَاصِمُ

وقال في مدح بدر بن عمار[1]:

لأَبي الحُسَينِ جَدىً يَضيقُ وِعائُهُ ... عَنهُ وَلَو كانَ الوِعاءُ الأَزمُنا
وَشَجاعَةٌ أَغناهُ عَنها ذِكرُها ... وَنَهى الجَبانَ حَديثُها أَن يَجبُنا
نيطَت حَمائِلُهُ بِعاتِقِ محرَبٍ ... ما كَرَّ قَطُّ وَهَل يَكُرُّ وَما انثَنى
فَكَأَنَّهُ وَالطَعنُ مِن قُدّامِهِ ... مُتَخَوِّفٌ مِن خَلفِهِ أَن يُطعَنا
نَفَتِ التَوَهُّمَ عَنهُ حِدَّةُ ذِهنِهِ ... فَقَضى عَلى غَيبِ الأُمورُ تَيَقُّنا
يَتَفَزَّعُ الجَبّارُ مِن بَغَتاتِهِ ... فَيَظَلُّ في خَلَواتِهِ مُتَكَفِّنا
أَمضى إِرادَتَهُ فَسَوفَ لَهُ قَدٌ ... وَاستَقرَبَ الأَقصى فَثَمَّ لَهُ هُنا
يَجِدُ الحَديدَ عَلى بَضاضَةِ جِلدِهِ ... ثَوباً أَخَفَّ مِنَ الحَريرِ وَأَليَنا
وَأَمَرُّ مِن فَقدِ الأَحِبَّةِ عِندَهُ ... فَقدُ السُيوفِ الفاقِداتِ الأَجفُنا
لا يَستَكِنُّ الرُعبُ بَينَ ضُلوعِهِ ... يَوماً وَلا الإِحسانُ أَن لا يُحسِنا

* **أبوفراس الحمداني:** قصيدة خيال العامرية تعد أطول آثاره الشعرية على الإطلاق ـ أكثر من مائتي بيت ـ كما تعد أيضا نموذجاً يحمل كل خصائص شعر أبي فراس وأنغامه الأساسية التي تتردد في كثير من قصائده.

وينتصب من خلال أبياتها شخص الفارس المقاتل متجسداً متهيئاً للحرب والنزال مدرَّعاً ثائراً،

الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي الرَّبَعي المعروف بأبي فراس الحمداني (٣٢٠-٣٥٧ هـ). ترعرع في كنف ابن عمه سيف الدولة في حلب، بعد موت والده باكراً، فشب فارساً شاعراً. حارب الروم، وشارك في أوقات السلم في مجالس الأدب. وقع أسيراً بيد الروم سنة ٣٤٧ هـ ولم يمكث فيه طويلاً، فقيل أنه استطاع الهرب، وقيل أن سيف الدولة افتداه بمال.

(١) شرح ديوان المتنبي ـ ج ١ ـ ص ١١٩-١٢٠. بدر بن عمار: أمير طبرية كان يضرب به المثل في الشجاعة وعلو الهمة ، وقد صارع أسداً فصرعه. المحرب: الشجاع المقدام الذي لايُقهر. البضاضة مثل الغضاضة، يقال: غضٌّ بض، أي طري ليّن. الإحسان الأول في البيت الأخير مصدر أحسنت الشيء إذا حذقته وعلمته، والإحسان الثاني: ضد الإساءة. يقول: هو لا يحسن أن لا يحسن، أي لا يعرف ترك الإحسان حتى إذا رام أن لا يحسن لم يمكنه.

ولا ينسى أن يؤكد عفته وشرفه وحرصه على التصون والعفاف[١]:

نَفَى الْهَمَّ عَنِّي هِمَّةٌ عَدَوِيَّةٌ ... وَقَلْبٌ عَلى ما شِئْتُ مِنْهُ مُظاهِرُ
وَأَسْمَرُ مِمَّا يُنْبِتُ الْخَطُّ ذابِلٌ ... وَأَبْيَضُ مِمَّا تَطْبَعُ الْهِنْدُ باتِرُ
وَنَفْسٌ لَها في كُلِّ أَرْضٍ لُبانَةٌ ... وَفي كُلِّ حَيٍّ أُسْرَةٌ وَمَعاشِرُ
وَقَلْبٌ يُقِرُّ الْحَرْبَ، وَهُوَ مُحارِبٌ ... وَعَزْمٌ يُقيمُ الْجِسْمَ وَهُوَ مُسافِرُ

إلى أن قال ممتدحاً آباءه وعشيرته:

وَعَمِّي الَّذي سُلَّتْ بِنَجْدٍ سُيوفُهُ ... فَرَوَّعَ بِالْغَوْرَيْنِ مَنْ هُوَ غائِرُ
تَناصَرَتِ الْأَحْياءُ في كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا مِنَ اللهِ ناصِرُ
فَلَمْ يُبْقِ غَمْراً طَعْنُهُ الْغَمْرُ فيهِمُ ... وَلَمْ يُبْقِ وِتْراً ضَرْبُهُ الْمُتَواتِرُ
وَساقَ إِلى ابْنِ الدَّيْدَوانِ كَتيبَةً ... لَها لَجَبٌ مِنْ دُونِها وَزَماجِرُ
جَلاها وَقَدْ ضاقَ الْخِناقُ بِضَرْبَةٍ ... لَها مِنْ يَدَيْهِ في الْمُلوكِ نَظائِرُ
بِحَيْثُ الْحُسامُ الْهِنْدُوانِيُّ خاطِبٌ ... بَليغٌ وَهامَاتُ الْمُلوكِ مَنابِرُ

الشجاعة في الأمثال العربية:

الأمثال هي أقوال لها مكانة أدبية رفيعة لدى كل الشعوب والأمم. ومنها العرب. باعتبار أنها تمثل حكمتها وخلاصة تجاربها. وإذا كان الشعر هو ديوان العرب، فالأمثال تأتي بعده في الأهمية. يدل على هذا أن العلماء الذين دوَّنوا الأدب الجاهلي في العصور الإسلامية جعلوا من بين اهتماماتهم جمع الأمثال وتدوينها، وممن اهتم بذلك: عُبَيْد بن شَرِيَّة «ت نحو ٦٧هـ» والميَداني «ت ٥١٨هـ» الذي ألف أشهر كتاب في هذا الموضوع، وهو كتابه المسمى مَجْمع الأمثال.

والمَثَل، مفرد الأمثال، يدل في اللغة على معنى المِثْل والنَّظير. أما في الاصطلاح الأدبي، فهو: قولٌ موجزٌ سائرٌ صائبُ المعنى، تُشبَّه به حالة لاحقة بحالة سابقة.

وللمثل مضرب ومورد، فضرب المثل يعني إطلاقه أو استخدامه في الحالات اليومية المتجددة التي تشبه الحالة الأولى. ويشبه مورد المثل الحالة الأصلية التي قيل فيها ابتداءً. وليس من الضروري أن يكون لكل مثل مورد أو قصة كما يعتقد بعض الناس. فهناك أمثال كثيرة لا ترتبط بحادثة معينة، مثل تلك الأمثال المأخوذة من أبيات الشعر صدرًا أو عجزاً، أو التي أصلها حِكم، أو التي على وزن «أَفْعَلُ مِنْ ...» كقولهم: أجود من حاتم.

وقد عرّف العرب القدامى الأمثال وحددوا للمثل شروطًا، وهي أنه يجب أن يجتمع فيه إيجاز اللفظ وإصابة المعنى

(١) ديوان أبي فراس الحمداني. ص ٧٦. الذابل: صفة للرمح. الخط: القطيف، وكانت جزء من البحرين التاريخية، وكانت تُقوَّم فيها الرماح. اللبانة: الحاجة.

وحسن التشبيه وجودة الكناية. وقد أكدوا كثيراً على شرط السيرورة والشيوع مشيرين إلى أهمية المثل التعليمية وإلى دوره وجانبه النفعي. وقد ارتبطت الأمثال بالاستدلال واستخلاص الحكمة والعظة.

ولإدراك العرب جماليات المثل وأثره على الناس فقد اهتموا به اهتماماً بالغاً، ولاسيما وقد جاء ذكر الأمثال في القرآن الكريم كثيراً، مما حدا بالمفسرين والباحثين واللغويين إلى المبادرة لجمع وتصنيف الأمثال القرآنية والأمثال النبوية منذ بدايات التدوين والتأليف حولها. وقد تنبه المؤلفون العرب إلى غيرها من الأمثال العربية القديمة في الجاهلية والعصور الإسلامية وإلى الأمثال الشعرية وغيرها. وأخذت الشجاعة حيزاً من الأمثال العربية، ونحن بدورنا نذكر جملة منها للفائدة:

* **ابن الحرب:** هو الشجاع الذي تعوّد الحروب وألفها.

* **أبوعروة السبَّاع:** يضرب به المثل في جهارة الصوت وشدته، ففي الأسطورة أنه كان يصيح بالسبُع وقد احتمل الشاة فيخليها ويسقط فيموت، فيُشق بطنه فيوجد فؤاده قد انخلع.

* **أجرأ من الأسد ، أجرأ من ذي لبَد ، أجرأ من قسورة ، أجرأ من الليث ، أجرأ من ليثٍ بخفّان**[١].

* **أجرأ من ذباب:** وذلك أن الذباب يقع على أنف الملك وتاجه وعلى أنف الأسد وجفنه ويُطرد فيرجع.

* **أجرأ من فارس خَصاف:** وخصاف اسم فرس كان لا يُجارى، وصاحبه من أجبن الناس، فبينما هو جالس ذات يوم إذ سقط سهم بين يديه فارتد في الأرض ثم اهتز، فقال: ما هذا إلا لأمر. فنظر فإذا السهم في ظهر يربوع، فقال: لا المرء في شئ ولا اليربوع. فأرسلها مثلاً ثم تقدم فكان من أشد الناس بأساً.

* **أشجع من الأيهمين:** أي السيل والجمل الهائج.

* **أشجع من ديك**

* **أشجع من عنترة**

* **أفرس من مُلاعب الأسنَّة:** وهو عامر بن مالك العامري فارس قيس وأحد أبطال العرب في الجاهلية، سمي ملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه [٢]:

يُلاعِبُ أطْرافَ الأسِنّةِ عامِرُ ... وَصارَ لَهُ حَظُّ الكَتِيبَةِ أجْمَعُ

من أخبار الشجعان:

تختزن الأمم في ذاكرتها قصص أبطالها وشجعانها الذين سطروا الملاحم دفاعاً عن الديار والأعراض والقيم والمبادئ والممتلكات، أو تحقيقاً للمكاسب العامة والخاصة، فتستلهم منها العبر، وتشحن بها النفوس، وتثير بها همم

(١) خفان: أرض كانت كثيرة الأسد قرب الكوفة.

(٢) عبدالرحيم: الجرأة والشجاعة عند العرب. ص ١٥١ - ١٦٥.

أبنائها. وهي تتداول هذه القصص ـ التي قد تغدو أساطير عبر الزمان ـ وتعتبرها تراثاً مقدساً وإرثاً حضارياً يُعنى به كتابةً وحفظاً، كما قد تتمثل بصورة قصائد شعرية ونصوص أدبية أو فنية.

وللعرب الجاهليين في تاريخهم وقصصهم وأساطيرهم عدد من الأبطال الذين خُلّدت أسماؤهم، ونُقلت في شجاعتهم المواقف والأخبار والأشعار، وضُرب بهم المثل. وسنستعرض بعضاً من تلك الأسماء:

* **عنترة بن شداد:** أشهر فرسان العرب في الجاهلية، عنترة بن شداد بن عمرو العبسي، ويعد من شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد، وأمه حبشية اسمها زبيبة. كان من أحسن العرب شيمة، ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة، وكان مغرماً بابنة عمه عبلة، فقلّ أن تخلو قصيدة من ذكرها.

اجتمع عنترة في شبابه بامرئ القيس الشاعر، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلاً، قتله الأسد الرهيص أو جبار بن عمرو الطائي عام ٢٢ قبل الهجرة. له ديوان شعر مطبوع، وبه يضرب المثل فيقال: أشجع من عنترة. ومن شعره في وصف شجاعته[١]:

خُلِقْتُ لِلْحَرْبِ أحميها إذا بَرَدَتْ ... وأصطلي نارها في شدَّة اللهب
بصَارِمٍ حَيثُما جرَّدْتُهُ سَجَدَتْ ... له جبابرةُ الأعجام والعرب
وقدْ طَلَبْتُ منَ العَلْياءِ منزلةً ... بصارمي لا بأُمِّي لا ولا بأبي
فمنْ أجابَ نجا ممَّا يحاذره ... ومَنْ أبى طَعمَ الْحَربِ والحَرَب

وقال[٢]:

سَكَتُّ فَغَرَّ أعْوَانِيَ السُّكُوتُ ... وَظَنُّوني لأَهْلِي قَدْ نَسِيتُ
وَكَيفَ أَنَامُ عَن سَادَاتِ قَوْمٍ ... أنَا في فَضْلِ نِعْمَتِهِم رُبِيتُ
وَإنْ دَارَتْ بِهِم خَيلُ الأعَادِي ... وَنَادَوني أَجَبتُ مَتَى دُعِيتُ
بِسَيفٍ حَدُّه يُزجِي المَنَايَا ... وَرُمْحٍ صَدرُهُ الحَتْفُ المُمِيتُ
خُلِقْتُ مِنَ الحَدِيدِ أشَدُّ قَلْباً ... وَقَد بَلِيَ الحَدِيدُ ومَا بُلِيتُ
وإنِّي قَد شَرِبْتُ دَمَ الأعَادِي ... بِأقْحَافِ الرُّؤوسِ ومَا رُوِيتُ
وَفِي الحَرْبِ العَوانِ وُلِدتُ طِفلاً ... ومِنْ لَبَنِ المَقَامِعِ قَد سُقِيتُ
فَمَا لِلرُّمْحِ في جِسْمِي نَصِيبٌ ... ولا لِلسَّيْفِ في أعْضَايَ قُوتُ
وَلِي بَيْتٌ عَلا فَلَكَ الثُّرَيَّا ... تَخِرُّ لِعُظْمِ هَيْبَتِهِ البُيُوتُ

(١) عبدالرحيم: الجرأة والشجاعة عند العرب ـ ص ٥١.
(٢) عبدالرحيم: الجرأة والشجاعة عند العرب ـ ص ٥٤.

ومن أشعاره[١]:

إذا قَنِعَ الفَتَى بِذَميمِ عَيْشٍ ... وَكانَ وَراءَ سَجْفٍ كالبَنات

وَلمْ يَهْجُمْ على أُسْدِ المَنايا ... وَلَمْ يَطْعَنْ صُدُورَ الصَّافِنات

ولم يَقرِ الضُّيوفَ إذا أتَوهُ ... وَلَمْ يُرْوِ السُّيُوفَ مِنَ الكُماة

ولمْ يَبْلغْ بِضَرْبِ الهَامِ مَجْداً ... ولمْ يكُ صَابراً في النَّائِبَات

فَقُلْ لِلنَّاعِيَاتِ إذَا بَكَتْهُ ... ألَا فَاقْصِرْنَ نَدْبَ النَّادِبَات

ولا تَنْدِبْنَ إلاَّ لَيْثَ غَابٍ ... شُجَاعاً في الحُروبِ الثَّائِرات

دَعُوني في القِتَالِ أمُتْ عَزِيزاً ... فَمَوْتُ العِزِّ خَيرٌ مِن حَيَاتي

لَعَمْري مَا الفخارُ بِكسْبِ مالٍ ... ولا يُدْعى الغَنيُّ مِنَ السُّرَاة

سَتَذكُرُني المَعامِعُ كُلَّ وَقْتٍ ... عَلَى طُولِ الحَياةِ إلى المَمات

فَذاكَ الذِّكْرُ يبْقَى لَيْسَ يَفْنى ... مَدَى الأيَّامِ في مَاضٍ وآتِ

وإنِّي اليَومَ أحْمِي عِرْضَ قَوْمِي ... وأنْصُرُ آلَ عَبْسَ عَلى العُدَاة

وآخُذُ مَالَنا مِنْهُمْ بِحَرْبٍ ... تَخِرُّ لها مُتُونُ الرَّاسِيَات

وأتْرُكُ كلَّ نائِحَةٍ تُنادي ... عَلَيهِم بالتَّفَرُّقِ والشَّتَات

* **الحارث الشيباني**: من أشجع الفرسان في الجاهلية الحارث بن ذهل الشيباني، وقيل هو الحارث بن سعد، وكان يكنى بفارس الشهباء، له مع عمرو بن معدي كرب صولات وجولات.

وفي الخبر أنه دخل يوماً على الخليفة عمر بن الخطاب، فقال له عمر: **يا عمرو، أخبرني عن أشجع من لقيت، وأجبن من لقيت، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، خرجت مرة أريد الغارة، فبينا أنا أسير إذا أنا بفرس مشدود، ورمح مركوز، وإذا رجل جالس، وإذا هو كأعظم ما يكون من الرجال خَلقاً، وهو مُحتبٍ بسيف، فقلت له: خذ حذرك، فإني قاتلك.**

فقال: ومن أنت؟

قلت: أنا عمرو بن معدي كرب.

فشهق شهقة فمات، فهذا أجبن من رأيت يا أمير المؤمنين. وخرجت يوماً آخر، حتى انتهيت إلى حي، فإذا أنا بفرس مشدود، ورمح مركوز، وإذا صاحبه في وهدة يقضي حاجة، فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك، قال: من أنت؟

قلت: أنا عمرو بن معدي كرب.

(١) عبدالرحيم: الجرأة والشجاعة عند العرب. ص ٥٥.

قال: يا أبا ثور، ما أنصفتني. أنت على ظهر فرسك، وأنا في بئر، فأعطني عهداً أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي، وآخذ حذري.

فأعطيته عهداً أن لا أقتله حتى يركب فرسه، ويأخذ حذره، فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احتبى بسيفه، وجلس، فقلت له: ما هذا؟

فقال: ما أنا براكب فرسي، ولا بمقاتلك، فإن نكثتَ عهداً فأنت أعلم، فتركته ومضيت.

فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت. ثم إني خرجت يوماً آخر إلى موضع كنت أقطع فيه، فلم أر أحداً، فأجريت فرسي يميناً وشمالاً فإذا أنا بفارس، فلما دنا مني إذا هو غلام حين بقل وجهه[١]، من أجمل من رأيت من الفتيان، وأحسنهم، فإذا هو قد أقبل من نحو اليمامة، فلما قرب مني سلّم، فرددت عليه، وقلت: مَن الفتى؟

قال: أنا الحارث بن سعد فارس الشهباء.

فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك.

قال: بل الويل لك، مَن أنت؟

قلت: أنا عمرو بن معدي كرب.

قال: الحقير الذليل، والله ما يمنعني مِن قتلك إلا استصغارك.

قال: وتصاغرَت نفسي إليَّ وعَظُم عندي ما استقبلني به، فقلت له: خذ حذرك فوالله ما ينصرف إلا أحدُنا.

قال: اغرب ثكلتك أمك، فإني من أهل بيتٍ ما نكلنا عن فارس قط.

فقلت: هو الذي تسمع، فاختر لنفسك.

فقال: إما أن تطرد لي، وإما أن أطرد لك[٢].

فاغتَمْتُها منه، فقلت: اطرد لي فاطرد، وحملت عليه حتى إذا قلت أني قد وضعت الرمح بين كتفيه، إذا هو قد صار حزاماً لفرسه[٣]، ثم اتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو خذها إليك واحدة، فوالله لولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك.

فتصاغرَت إلي نفسي وكان الموت والله يا أمير المؤمنين أحب إلي مما رأيت، فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدُنا.

فقال: اختر لنفسك.

فقلت: اطرد لي.

---

(١) حين بقل وجهه: قد نبت شعر وجهه.
(٢) أي إما أن تُقبل علي مهاجماً أو أقبل عليك.
(٣) أي التف مائلاً منحنياً على جانب فرسه.

فاطَّرَد، وظننت أني قد تمكنت منه، واتبعته حتى إذا ظننت أني قد وضعت الرمح بين كتفيه، فإذا هو قد صار لبباً لفرسه[١]، ثم اتبعني فقرع رأسي بالقناة، وقال يا عمرو: خذها إليك اثنتين.

فتصاغرَت إلي نفسي، فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدنا.

فقال: اختر لنفسك.

فقلت: اطرد لي.

فاطرد، حتى إذا قلت وضعت الرمح بين كتفيه وثب عن فرسه، فإذا هو على الأرض فأخطأتُه ومضيت، فاستوى على فرسه، فاتّبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال : يا عمرو، خذها إليك ثلاثاً، ولولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك.

فقلت له: اقتلني أحب إلي مما أرى بنفسي، وأن تسمع فتيان العرب بهذا.

فقال لي: يا عمرو إنما العفو ثلاث، وإني إن استمكنت منك الرابعة قتلتك، وأنشأ يقول:

وَكِـــدْتُ أَغْـلاظًـا مِـنَ الأَيْمَـانِ ... إِنْ عُـدْتَ يَـا عَـمْـرُو إِلَى الطِّعَانِ
لَـتُـوجَـرَنَّ لَـهَـبَ الـسِّـنَـانِ ... أَوْلا، فَـلَسْتُ مِـنْ بَـنِـي شَـيْـبَـانِ

فلما قال هذا كرهت الموت، وهبته هيبة شديدة، وقلت له: إن لي إليك حاجة.

قال: وما هي؟

قلت: أكون لك صاحباً، ورضيت بذلك يا أمير المؤمنين.

قال: لستَ من أصحابي.

فكان ذلك أشد علي وأعظم مما صنع، فلم أزل أطلب إليه، حتى قال: ويحك، وهل تدري أين أريد؟

قلت: لا.

قال: أريد الموت عياناً.

فقلت رضيت بالموت معك.

قال: امض بنا.

فسرنا جميعاً يومنا حتى جنَّنا الليل، وذهب شطرُه، قال: فوردنا على حي من أحياء العرب، فقال: يا عمرو، في هذا الحي الموت، ثم أومأ إلى قبة في الحي، فقال: وفي تلك القبة الموت الأحمر، فإما أن تمسك على فرسي فآتي بحاجتي، وإما أن أمسك عليك فرسك فتنزل فتأتيني بحاجتي.

فقلت: لا بل انزل أنت، فأنت أعرف بموضع حاجتك.

---

(١) اللَّبَبُ : ما يُشَدُّ في صدر الدابّة ليمنع تأَخُّر الرحل والسَّرج.

فرمى إلي بعنان الفرس، فنزل ورضيت والله يا أمير المؤمنين أن أكون له سائساً. ثم مضى حتى دخل القبة، فاستخرج جارية لم تر عيناي مثلها قط حسناً وجمالاً، فحملها على ناقة، ثم قال لي: يا عمرو.

قلت: لبيك.

قال: إما أن تحميني وأقود أنا، وإما أن أحميك وتقود أنت.

قلت: لا بل تحميني أنت وأقود أنا.

فرمى إلي بزمام الناقة، ثم سرنا بين يديه وهو خلفنا حتى إذا أصبحنا، قال لي: يا عمرو.

قلت لبيك، ما تشاء؟

قال: التفت فانظر هل ترى أحداً.

قال: فالتفتّ، فقلت: أرى جِمالاً.

فقال: أغذ السير، ثم قال: يا عمرو.

قلت: لبيك.

قال: انظر فإن كان القوم قليلاً فالجلَد والقوة، وهو الموت، وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء.

قال: فالتفت، فقلت: هم أربعة أو خمسة.

قال: أغذ السير.

ففعلت، وسمع وقع الخيل عن قر ، فقال لي: يا عمرو.

قلت: لبيك.

قال: كن عن يمين الطريق، وقف وحول وجوه دوابنا إلى الطريق.

ففعلت، ووقفت عن يمين الراحلة، ووقف هو عن يسارها، ودنا القوم منا فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ كبير، وهو أبو الجارية، وأخواها غلامان شابان، فسلموا فرددنا السلام، ووقفوا عن يسار الطريق، فقال الشيخ: خل عن الجارية يا بن أخي.

فقال: ما كنت لأخليها ولا لهذا أخذتها.

فقال لأصغر ابنيه: اخرج إليه.

فخرج وهو يجر رمحه، وحمل عليه الحارث وهو يقول:

مِنْ دُونِ مَا تَرْجُوهُ خَضْبُ الذَّابِلِ ... مِنْ فَارِسٍ مُسْتَلْئِمٍ مُقَاتِلِ

يُـنْـمَـى إِلَى شَـيْـبَـانَ خَـيْرُ وَائِـلٍ مَـا كَـانَ سَـيْرِي نَـحْـوَهَـا بِـبَـاطِـلِ

ثم شد عليه ، فطعنه طعنة دق منها صُلبَه فسقط ميتاً [١]، فقال الشيخ لابنه الآخر: اخرج إليه يا بني، فلا خير في الحياة على الذل.

فخرج إليه وأقبل الحارث يقول:

لَـقَـدْ رَأَيْـتَ كَـيْـفَ كَـانَـتْ طَـعْـنَـتِـي وَالـطَّـعْـنُ لِـلْـقِـرْنِ شَـدِيـدًا نُـهْـمَـتِـي
وَالْمَـوْتُ خَـيْرٌ مِـنْ فِـرَاقِ خُـلَّـتِـي فَـقَـتْـلَـتِـي الْـيَـوْمَ وَلا مَـذَلَّـتِـي

ثم شد عليه فطعنه طعنة سقط منها ميتاً، فقال له الشيخ: خل عن الظعينة[٢] يابن أخي، فإني لست كمن رأيت.

قال: ما كنت لأخليها ولا لهذا قصدت.

فقال له الشيخ: اختر يابن أخي، فإن شئت طاردتك، وإن شئت نازلتك.

قال: فاغتنمها الفتى فنزل، ونزل الشيخ وهو يقول:

مَـا أَرْتَجِـي بَـعْـدَ فَـنَـاءِ عُـمْـرِي سَـأَجْـعَـلُ الـسِّـنِـينَ مِـثْـلَ الشَّـهْـرِ
شَـيْـخٌ يُـحَـامِـي دُونَ بِـيضِ الْخِـدْرِ إِنِ اسْـتَـبَـاحَ الْـبِـيضُ قَـصْـمَ الـظَّـهْـرِ
سَوْفَ تَرَى كَيْفَ يَكُونُ صَبْرِي

فأقبل الحارث، وهو يقول:

بَـعْـدَ ارْتِحَـالِـي وَطُـولِ سَـفَـرِي وَقَـدْ ظَـفِـرْتُ وَشَـفَـيْـتُ صَـدْرِي
وَالْمَـوْتُ خَـيْرٌ مِـنْ لِـبَـاسِ الْـغَـدْرِ وَالْـعَـارُ أَهْـدِيـهِ لِحَـيِّ بَـكْـرِ

ثم دنا ، فقال له الشيخ : يابن أخي إن شئت ضربتك، وإن بقيت منك قوة ضربتني، وإن شئت فاضربني، فإن بقيت في قوة ضربتك.

فاغتنمها الفتى، قال: هات، أنا أبدأ أوّلاً.

فرفع الحارث السيف فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ضربه ضربة قدَّ منها معاه[٣]، ووقعت ضربة الحارث في رأسه، فسقطا ميتين، فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس، وأربعة أسياف، ثم أقبلت إلى الناقة فعقدت

(١) الصُّلْبُ: فَقار الظهر.
(٢) الظَّعِينَةُ : المرأة في الهودج.
(٣) معاه: أحشاءه.

أعنّة الأفراس بعضها إلى بعض، وجعلت أقود، فقالت لي الجارية: يا عمرو إلى أين؟ ولست لي بصاحب، ولست كمن رأيت، ولو كنت لي صاحباً لسلكت سبيلهم.

فقلت: اسكتي.

قالت: فإن كنت صادقاً فأعطني سيفاً أو رمحاً فإن غلبتني فأنا لك، وإن غلبتك قتلتك.

فقلت لها: ما أنا بمعطيك ذاك وقد عرفت أصلك، وجرأة قومك وشجاعتهم، فرمت بنفسها عن البعير، ثم أقبلت إلي وهي تقول:

أَبَعْدَ مَا شَيْخِي وَبَعْدَ إِخْوَتِي أَطْلُبُ عَيْشًا بَعْدَهُمْ فِي لَذَّتِي

هَلا تَكُونُ قَبْلَ ذَاكَ مِيتَتِي

ثم أهوت إلى الرمح وكادت تنتزعه من يدي، فلما رأيت ذلك منها خفت إن هي ظفرت بي أن تقتلني، فقتلتها، فهذا أشد من رأيته قط يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: صدقت يا عمرو [١].

* **ربيعة بن مُكدَّم**: أحد فرسان مُضَر المعدودين في الجاهلية، ربيعة بن مكدم بن عامر بن حرثان الكناني، «٨٥ ـ ٦٢ ق. هـ»، وله أخبار في شجاعته منها أنه حمى نساء قومه بعد مقتله! فقد روي أنه خرج في جمع منهن، فلقيهم نبيشة بن حبيب السلمي غازياً، فتقدم ربيعة فقاتل نبيشة ومن معه طويلاً، فأصابه سهم، فعاد إلى النساء وأمه فيهن، فشدت على جرحه عصّابة، فكرّ راجعاً يقاتل والدم ينزف منه، فهابه القوم، فاختار عَقَبة واتكأ على رمحه وهو على متن فرسه، ومات على تلك الحال، والأعداء يتصورون أنه حي، فلم يتجرأ أحد على التقدم إليه، ثم رموا فرَسه بسهم فقمصت[٢]، وانقلب منها ميتاً، ولم ينل أعداؤه مبتغاهم. ويقال في المثل العربي: «**أشجع من ربيعة بن مُكدَّم**».

* **عامر بن الطفيل**: فارس بني عامر بن صعصعة، وابن عم الشاعر لبيد. أحد فتّاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية، ولد بنجد سنة ٧٠ قبل الهجرة، وفقد إحدى عينيه في معركة، وكان عقيماً فلم يعقّب. كان يأمر منادياً في سوق عكاظ ينادي: هل من راجل فنحمله؟ أو من جائع فنطعمه؟ أو من خائف فنؤمّنه؟ خاض ابن الطفيل معارك كثيرة وأدرك الإسلام شيخاً، فوفد على النبي ﷺ وهو في المدينة المنورة بعد فتح مكة، يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة وأن يجعله وليّ الأمر من بعده! فردّه النبي فعاد حنقاً وسمعه أحدهم يقول: (**لأملأنها خيلاً جرداً ورجالاً مُرداً، ولأربطنّ بكل نخلة فرساً**). فقال رسول الله ﷺ: (**اللهم اكفني عامراً**)[٣] فمات في طريقه قبل أن يبلغ قومه. له ديوان شعر.

---

(١) ابن الجوزي: ذم الهوى، ح ٥٧٨.

(٢) قمصت: نفرت وضربت الأرض برجليها.

(٣) البيهقي: دلائل النبوة – ج ٥ – ص٣٢١ .

* **عتيبة بن الحارث:** هو عتيبة بن الحارث بن شهاب التميمي، فارس بني تميم في الجاهلية، كان يلقب «سمّ الفرسان» و «صياد الفوارس»، قال ابن أبي الحديد: (**كانوا يعدّون أبطال الجاهلية ثلاثة: عامر بن الطفيل، بسطام بن قيس، عتيبة بن الحارث**). وقد قتله ذؤاب بن ربيعة بن عبيد. قال الشاعر فيه[١]:

إنْ يَقتُلوكَ فَقَد ثَلَلْتَ عُروشَهُم ... بِعُتَيْبَةَ بنِ الحَارِثِ بنِ شِهَابِ
فَأشَدُّهُم بَأساً عَلى أعدَائِهِ ... وأعَزُّهُم فَقْداً عَلى الأصحَابِ

الجبن في الأدب العربي:

الجبن ضد الشجاعة، ويناسب المقام أن نتعرض للجبن في الحكمة والأدب والتاريخ من خلال النصوص التالية:

* **الإمام علي** عليه السلام : البخل عار، والجبن منقصة، والفقر يخرس الفطن عن حاجته، والمُقِل غريب في بلدته[٢].

* **ابن المقفع:** واعلم أن الجبنَ مقتلةٌ، وأن الحرص محرمةٌ. فانظر في ما رأيتَ أو سمعتَ: أمن قتلَ في القتالِ مقبلاً أكثر أم من قتلَ مدبراً؟ وانظر أمن يطلبُ إليكَ بالإجمالِ والتكرم أحق أن تسخو نفسكَ له بطلبتهِ أم من يطلبُ إليكَ بالشرهِ والزيغ[٣]؟

عبدالله ابن المقفع واسمه روزبه پور دادويه (١٠٦. ١٤٢هـ). فارسي، كان مانوياً لكنه اعتنق الإسلام وعُدّ لاحقاً من الزنادقة. نقل من اللغة البهلوية إلى العربية الكتاب الشهير «كليلة ودمنة». وله كتب أخرى.

* **الشاعر الجاهلي قُراد بن حَنَش الغطَفاني (ت١٣ ق.هـ)**[٤]:

وأنتُم سَمَاءٌ يَعجَبُ النَّاسُ رِزْأَهَا ... بِآبِدَةٍ تَنحى شَدِيدَ وَئِيدَهَا
تُقَطِّعُ أَطنَابَ البُيوتِ بِحاصِبٍ ... وأكذَبُ شَيءٍ بَرقُهَا ورُعودُهَا
فَيُولِمُهَا خَيلاً بَهاءً وشَارَةً ... إذا لاقَت الأعْدَاءَ لَولا صُدُودُهَا

* **الشاعر الجاهلي منصور بن مسجاح الضبي**[٥]:

لَقَد كَانَ فيكُم لَو وَفَيتُم لِجارِكُم ... لِحىً وَرِقَابٌ عَردَةٌ وَمَناخِرُ
مِنَ الصُّهبِ أثنَاءٌ وَجَذعاً كَأنَّها ... عَذَارَى عَلَيْهَا شَارَةٌ ومَعَاجِرُ

---

(١) الزركلي: الأعلام – ج ٤ – ص٢٠١.
(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١٨ . ص ٨٧.
(٣) ابن المقفع: الأدب الكبير – ص ٢٦.
(٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٦ . ص ١٠٥. الحاصب: الريح تجئ بالحصباء.
(٥) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٦ . ص ١١٣. لا يعرف تاريخ مولد هذا الشاعر ولا وفاته. عردة: غلاظ. الإبل الصهب ، والصهبة: حمرة يعلوها بياض. وأثناء: جمع ثنى، وهو من الإبل ما يلقى ثنيته، وذلك في السنة الثالثة. والجذع: جمع جذعة، وهو ما قبل الثنى. والمعجر: ثوب أقصر من الرداء تلبسه المرأة.

* **الشاعر الجاهلي يزيد بن قنافة العدَوي:** قال يهجو حاتماً الطائي[١]:

لَعَمري وَما عَمري عَلَيَّ بِهَيِّنٍ ... لَبِئْسَ الفَتَى المَدعُوّ باللَّيلِ حَاتِمُ
غَدَاة أَتَى كالثَّوْرِ أحْرَجَ فَاتَّقَى ... بِجَبْهَتِهِ أقتَالُهُ وَهُوَ قَائِمُ
كَأَنَّ بِصَحرَاءِ المَرِيطِ نَعَامَةٌ ... تُبَادِرُهَا جُنَحَ الظَّلامِ نَعَائِمُ
أَعَارَتْكَ رِجْلَيْهَا وَهَا فِي لُبِّهَا ... وَقَد جَرَّدَت بِيضَ المُتُونِ صَوَارِمُ

* **الشاعر عوف القوافي:** يصف قوماً بأنهم يتصوَّنون، فلا يبتذلون في الحروب، فأمهاتهم تثكلهم تحت الأعلام إذا خفقت، والرماح إذا أشرعت، على أنهم يكثرون في المآدب، ويتزاحمون على الذبائح[٢]!

وَمَا أُمُّكُم تَحتَ الخَوافِقِ وَالقَنَا ... بِثَكلَى وَلا زَهراءَ مِن نِسوَةِ زُهرِ
أَلَستُم أَقَلَّ النَاسِ عِندَ لِوائِهِم ... وَأَكثَرَهُم عِندَ الذَبيحَةِ وَالقِدرِ

عوف. ويقال له عويف. بن معاوية بن عقبة من فزارة، توفي نحو ١٠٠ هـ، من أشراف قومه في الكوفة، وسمي بعوف القوافي لبيت شاعر قاله.

* **ومن أخبار الجبناء:** ما رواه **ابن قتيبة**، قال: قَدِم الحجاج على الوليد بن عبد الملك، وعليه درع وعمامة سوداء، وقوس عربية وكنانة، فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد، وهي تحته[٣] يومئذ: **مَن هذا الأعرابي المستلئم[٤] في الصلاح عندك على خلوة، وأنت في غُلالة[٥]؟**

فأرسل إليها الوليد: **إنه الحَجّاج.**

فأعادت عليه الرسول: **والله لئن يخلو بك مَلَك الموت أحب إلي من أن يخلو بك الحجاج!**

عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ـ ٢٧٦ هـ). أديب فقيه ومحدث ومؤرخ. يعتقد أنه ولد في بغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدِّينور «وتقع بالقرب من همَدان في إيران»، وأخذ العلم في بغداد على يد مشاهير علمائها، فأخذ الحديث عن إسحاق بن راهويه، من أصحاب الإمام الشافعي، وأخذ اللغة والنحو والقراءات على أبي حاتم السجستاني. له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار، وأدب الكاتب وغيرها.

فضحك وأخبر الحجاج بقولها وهو يمازحه، فقال الحجاج: **يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تُطلعها على سرك، ومكايدة عدوك.**

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٦. ص ١٠٥. لا يعرف تاريخ ولادة الشاعر ووفاته ولكنه كان معاصراً لحاتم الطائي. غداة أتى كالثور ، يعني حاتماً، وأخرج: ضيَّق عليه، والأقتال: الأقران والأعداء. هافي: هفا الطّائر: حرّك جناحيه.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ٦. ص ١٠٥ – ١١١. قوله «ولا زهراء»: أي ليست هي بكريمة في نفسها.

(٣) تحته: أي زوجته.

(٤) استلأم الجندي: لبس لأمتَه، أي درعه وأدوات الحرب.

(٥) غلالة: لباس رقيق، تعني أن الحجاج في وضع قتال دون زوجها .

فلما انصرف الحجاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: **يا أمير المؤمنين، حاجتي إليك اليوم أن تأمره غداً أن يأتيني مستلئماً.**

ففعل ذلك، وأتاها الحجاج فحجَبتْه ثم أدخلته، ولم تأذن له في القعود، فلم يزل قائماً، ثم قالت: **إيه يا حجاج! أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث؟! أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النطاقين أول مولود في الإسلام، وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره، فإن كنَّ ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالقبول منك! وإن كن ينفرجن عن مثله، فهو غير قابل لقولك. أما والله لو نفض نساء أمير المؤمنين الطيب من غدائرهن[١] فبعنه في أُعطية أهل الشام حين كنت في أضيق من القَرْن، قد أظلتك الرماح، وأثخنك الكفاح، وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، فأنجاك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إياه، قاتل الله القائل حين ينظر إليك وسِنانُ غزالةَ[٢] بين كتفيك:**

أسـدٌ علـيَّ وفـي الحُـرُوبِ نَعـامَـةٌ ... رَبـداءُ تَـنـفُـرُ مِـن صَـفِـيرِ الصَّـافِـرِ

هَـلاَّ بَـرَزْتَ إلى غَـزَالَـةَ في الـوَغَـا ... أمْ كـانَ قَـلـبُـكَ في جَـنـاحَـيْ طـائِـرِ؟

ثم قالت لجواريها : أخرجنه ، فأخرِج[٣].

(١) الغدائر: جمع غديرة، وهي الذؤابة المضفورة من شعر المرأة.

(٢) في نص آخر: (وسنان غزلة الحرورية)، وهي امرأة من الخوارج زوجة شبيب الخارجي، هجمت على الحجاج بسنانها وكادت أن تقتله.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار - ج١ - ص ٧٢.

ومن طريف حكايات الجبناء ما ذكره ابن قتيبة أيضاً في الكتاب المذكور، قال: كان بالبصرة شيخ من بني نهشل يقال له عروة بن مرثد ويكنى أبا الأغرّ، ينزل ببني أخت له في سكة بني مازن، وبنو أخته من قريش، فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان وخرج النساء يصلين في مسجدهم، فلم يبق في الدار إلا الإماء، فدخل كلب يعتسّ[١]، فرأى بيتاً فدخله وانصفق الباب فسمع الحركة بعض الإماء فظنوا أن لصاً دخل الدار، فذهبت إحداهنّ إلى أبي الأغر فأخبرته، فقال أبو الأغر: **ما يبتغي اللص؟**

ثم أخذ عصاه وجاء. فوقف على باب البيت وقال: **إيه يا فلان، أما واللّه إنك بي لعارف، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن؟ شربت حامضاً خبيثاً**[٢] **حتى إذا دارت القروح في رأسك منّتك نفسك الأماني وقلت: أطرُقُ ديار بني عمرو والرجال خلوف والنساء يصلين في مسجدهم فأسرقهم. سوءةً لك، واللّه ما يفعل هذا ولد الأحرار، وأيم الله لتخرجن أو لأهتفنّ هتفة مشؤومة يلتقي فيهم الحيّان عمرو وحنظلة وتجيء سعدٌ بعدد الحصى ويسيل عليك الرجال مَن هم هنا ومَن هم هنا، ولئن فعلت لتكوننّ أشأم مولود.**

فلما رأى أنه لا يجيبه أحد أخذ باللين فقال: **اخرج بأبي وأمي، أنت مستور، إني والله ما أراك تعرفني، ولو عرفتني لقنعت بقولي واطمأننت إليّ. أنا ـ فديتك ـ أبو الأغر النّهشلي، وأنا خال القوم وجلدة بين أعينهم، لا يعصونني، ولن تضارّ الليلة فاخرج فأنت في ذمتي وعندي قوصرتان**[٣] **أهداهما إليّ ابن أختي البارّ الوَصول، فخذ إحداهما، فانتبذهم حلالاً من اللّه ورسوله.**

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق[٤] وإذا سكَت وثبَ يريغ المخرج، فتهاتف أبو الأغرّ ثم تضاحك وقال: **يا ألأم الناس وأوضعهم، لا أرى إلا أني لك الليلة في واد وأنت لي في واد، أقلّب السوداء والبيضاء فتصيخ**[٥] **وتطرق، وإذا سكتّ عنك وثبْتَ تريد المخرج، واللّه لتخرجنّ أو لألجنّ عليك البيت.**

فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء فقالت: **أعرابي مجنون، والله ما أرى في البيت شيئاً.**

فدفعت الباب فخرج الكلب شدّاً[٦]، وحاد عنه أبو الأغر ساقطاً على قفاه، ثم قال: **يا الله ما رأيت كالليلة! واللّه ما أراه إلا كلباً، أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه**[٧].

---

(١) تعسس: تحرك ليلاً.

(٢) يقصد الخمرة.

(٣) القوصرة: وعاء من القصب يرفع فيه التمر.

(٤) أي إذا سمع الكلب كلام هذا الرجل أطرق برأسه وسكت ولم يتحرك.

(٥) تصيخ: تستمع.

(٦) شداً: هرباً وبسرعة.

(٧) ابن قتيبة: عيون الأخبار – ج١ – ص ٧١.

شجاعة بني هاشم

شجاعة بني هاشم

عُـرف بنو هاشـم بالشجاعة والبطولة كما عُرفوا بمحاسن أخرى كالجود وإغاثـة الملهوف وإباء الضيم. وقد روى أبوالفـرج الأصفهـاني في مقاتل الطالبيين عن معاوية أنه قال في شأن علي بـن الحسين بن علي بن أبي طالب والملقب بعلي الأكبر: (**وفيه شجاعة بني هاشم**)[١].

وروي عـن أمـير المؤمنين علي عليه السلام: (**وكان رسـول الله صلى الله عليه وآله إذا احمرَّ البأس، وأحجم الناس، قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حر الأسنة والسيوف**)[٢].

وعن الزبير بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام أنه قال[٣]:

يَـا أيُّـهـا الـسَّـائِـلُ عَـن مَجـدِنـا ... أرْبَـعْ تُـنـبَـأ أيُّـهـا الـسَّـائِـلُ

فَـيـنـا مُـنـاخُ الـضَّـيـفِ والمـجْـتَـدِيـنَ ... مِـنّـا، وفِـيـنَـا الحُـكـمُ الـفـاضِـلُ

ونَـحـنُ مَـأوَى كُـلِّ ذي خَـلّـةٍ ... كُـلٌّ حَـداهُ الـزَّمَـنُ المـاحِـلُ

ومَـلـجـأُ الخـائِـفِ إنْ ألـقَـحَـتْ ... حَـربٌ بِـأطـرافِ الـقَـنـا نَـازِلُ

ونـحـنُ إنْ جَـاءتْ تَـهُـزُّ الـقَـنَـا، ... يَـتـبـعُـهـا الجَـنّـانُ والحَـائِـلُ

بِـكَـرٍّ رَدَدْنـا جَـمْـعَـهـا خَـائِـبـاً ... وقَـدَحُـهـا مِـن سَـهـمِـهِ نـاصِـلُ

وكان آل قصي قد منعوا **عبدالله بن الزِّبَعْرَى السهمي** يوماً من أن يحضر أمراً يخصهم في دار الندوة، فأسلمه بنو سهم لبني قصي خوفاً من هجاء الزبير بن عبد المطلب، لأنه كان شاعراً مفلقاً، شديد العارضة. فأراد بنو قصي أن يقطعوا منه لسانه، وأسلموه لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس، غير أن حمزة بن عبد المطلب أجاره وكساه، فأمسكوا حتى يقدم

عبد الله بن الزبعرى بن عدي بن قيس القرشي السهمي (ت ١٥ هـ) ولا يعرف تاريخ مولده على التحديد وقيل أنه كان يكبر النبي بعشر سنين على الأقل. والزبعرى: الرجل الشكس الخلق. كان شاعر قريش في الجاهلية، وحارب المسلمين بشعره وبسيفه حتى فُتحت مكة، فهرب إلى نجران، فهجاه حسان بن ثابت، فلما بلغه ذلك قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلم.

(١) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين. ص ٥٢.

(٢) الرضي: نهج البلاغة. ج ٣. ص ١٠. الكتاب رقم ٩.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف. ص ١٦. الماحل: المجدِب. الجنّان: المتستر. ناصل: خرج من نصله.

الزبيرُ بن عبد المطلب من اليمن، فلما قدم الزبيرُ وأُخبِر، قال[١]:

ولولا الحُبْشُ، لمْ يلْبَسْ رجالٌ ... ثيابَ أعِزَّةٍ، حتى يموتوا
ثيابُهم شمالٌ، أوْ عَباءٌ، ... بها دَنَسٌ، كما دَنِسَ الحَمِيْتُ
ولكنَّا خُلِقْنا إذ خُلِقْنا، ... لنا الحَبَرَاتُ، والمِسْكُ الفَتِيْتُ
وكأسٌ لو تُبينُ لهم كلاماً ... لَقالَتْ: إنَّما لهم سُبِيْتُ
تُبينُ لنا القَذَى إنْ كان فيها ... رصينُ الحلمِ يشربُها هَبِيتُ
أهْنَت لشُربِها نَفسي ومَالي ... فآبَوا حَامدينَ بما رُزِيْتُ
ويَقْطَعُ نَخْوَةَ المُخْتَال عنَّا، ... رِقاقُ الحَدِّ ضَرْبَتُه صُمُوتُ
بِكَفٍّ مُجذِّبٍ، لا عيبَ فيه ... إذا يلقَى الكَتيبَةَ يَستَميتُ
ولَولا نَحنُ لَم يَلبَسْ رِجالٌ ... ثِيابَ عِزَّةٍ حَتى يَمُوتوا
وإنَّا نُطْعِمُ الأضيافَ قِدماً ... إذا ما هَزَّ من سَنَةٍ مقيتُ
وغيَّرَ بَطنَ مكَّةَ كل يومٍ ... عَباهِلَةٌ كأنهم اللصُوتُ
إذا ما أُوْقِدَتْ نارٌ لحربٍ ... تَهزُّ الناسَ جَمْحَتُها، صَليتُ
نُقيمُ لِواءنا فيها كأنَّا ... أسودٌ في العرينِ لها نَبيتُ

وقال أيضاً[٢]:

تَرمي بنو عبدِ مَنافٍ، إذا ... أُظْلَمُ، مِنْ حَوْلِيَ بالجَنْدَلِ
لا أسدٌ تُسْلِمُني، لاَ، وَلاَ ... تَيْمٌ، ولا زُهْرةُ، لِلْنَّيْطَلِ
ولا بنو الحارثِ إنْ مَرَّ بي ... يومٌ من الأيَّامِ لاَ يَنْجَلِي
يَا أيُّها الشَّاتِمُ قَوْمي ولا ... حَقَّ له عندهمُ، أقْبِلِ
إنِّي لهمْ جَارٌ لَئِنْ أنتَ لمْ ... تُقْصِر عَن الباطلِ أو تَعْدِلِ

وقال بعض الطالبيين[٣]:

وَإنّا لَتُصبِحُ أسيافُنا ... إذا مَا انْتَضَينَ لِيومِ سُفُوكِ

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف. ص ١٧. الحميت: الزق الصغير يُتخذ للسمن. الحبرات: جمع الحَبَرَة: ثوب من قطن أو كتّان مخطّط كان يصنَع باليمن. الهبيت: الجبان الذاهل. عباهلة: ملوك مثبتون على ملكهم. جمحتها: ارتفاعها. صليت: ألقيت في النار.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف. ص ١٨. النيطل: الموت أو المصيبة.

(٣) الأمين: أعيان الشيعة - ج٨ - ص ٣١٦.

مَـنَـابِـرُهُـنَّ بُـطُـونُ الأَكُـفِ وَأَغـمَـادُهُـنَّ رؤوسُ المُلُوكِ

وسنقتصر في هذا المقام على بعض الأخبار الدالة على شجاعة طائفة من بني هاشم ممن سبق أو عاصر أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

شجاعة رسول الله:

محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف ﷺ، ابن عم علي ومربّيه، جمَع خير خصال الأولين والآخرين، فهو سيد الخلق وأشرفهم، وخاتم المرسلين وسيدهم، قال العلامة محسن الأمين: (**كان النبي ﷺ أحكم الناس وأحلمهم وأشجعهم وأعدلهم وأعطفهم وأسخاهم، لا يثبت عنده دينار ولا درهم، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط مِن يسير ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله، ثم يعود إلى قوت عامه فيُؤثِر منه، حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء...**)[١].

وقال الشيخ عباس القمي حول الشجاعة والنجدة في شخصية النبي الأكرم: فكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرّ الكُماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يُدبِر. سأل رجل البراء وقال: **أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟**

قال: **لكن رسول الله ﷺ لم يفر. ثم قال: لقد رأيته ﷺ على بغلته البيضاء وأبوسفيان آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب.**

قيل: فما رؤي يومئذ أحد كان أشد منه. قلت: المراد بأبي سفيان هنا: أبوسفيان بن الحرث[٢] بن عبدالمطلب... وذكر مسلم عن العباس قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين وطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفّها إرادة أن لا تسرع، وأبوسفيان آخذ بركابه[٣].

ومن يقرأ سيرة سيد الأنبياء والمرسلين يجدها زاخرة بصور الشجاعة والبطولة، كيف وقد صدع بالحق أمام المشركين بأجمعهم لم تأخذه في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لومة لائم، ولم يداهن ولم يساوم، ولم يفر من موقف قط، بل كان يجاهر بصلاته عند البيت الحرام متحدياً بذلك طغيانهم وعتوهم، ويتحمل أذاهم بالقول والفعل، حتى أصيب مرات عديدة بجراحات متفرقة جراء رميه بالحجارة في مكة والطائف. أما في الحروب فقد ثبت في كل المواقف، لاسيما في أشدها بأساً حيث هرب الناس وبقي هو مع علي وقلة من أصحابه، كما في معركتي أحد وحنين. نقل ابن أبي الحديد عن شيخه كلاماً في معرض رده على الجاحظ، جاء فيه: (**ألم يعلم أبوعثمان أن رسول الله ﷺ كان أشجع البشر، وأنه خاض الحروب، وثبت في المواقف التي طاشت فيها الألباب، وبلغت القلوب الحناجر، فمنها يوم أحد، ووقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم، ولم يبق معه إلا أربعة: علي والزبير وطلحة وأبو دجانة... ولو لم يدل على ثباته حين**

(١) الأمين: أعيان الشيعة. ج ١. ص ٢٢١.
(٢) وقيل: الحارث.
(٣) القمي: كحل البصر في سيرة سيد البشر. ص ٨٨ - ٨٩.

انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[١]، فكونه ﷺ في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون، هاربين، دليل على أنه ثبت ولم يفر. وثبت يوم حنين في تسعة من أهله ورهطه الأدنين، وقد فر المسلمون كلهم والنفر التسعة محدقون به والعباس آخذ بحكمة بغلته، وعلي بين يديه مصلت سيفه، والباقون حول بغلة رسول الله ﷺ يمنة ويسرة، وقد انهزم المهاجرون والأنصار، وكلما فروا أقدم هو ﷺ وصمم مستقدماً، يلقى السيوف والنبال بنحره وصدره، ثم أخذ كفاً من البطحاء، وحصب المشركين، وقال شاهت الوجوه. والخبر المشهور عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أشجع البشر: كنا إذا اشتد البأس، وحمي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ ولُذنا به)[٢].

وعن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[٣].

وجاء في خبر عن البراء بن عازب وهو أكثر تفصيلاً مما رواه عنه الشيخ القمي في الصفحة السابقة أن رجلاً قال له: هل كنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة؟

قال: أشهد على النبي ﷺ أنه ما ولّى، ولكن انطلق أخفّاء من الناس[٤]، وحشر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة، فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد[٥] فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود بغلته. فنزل رسول الله ﷺ فاستنصر ودعا وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب، اللهم أنزل نصرك.

قال: والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع الذي يحاذي به[٦].

قال النووي شارحاً خبر ثبات النبي ﷺ يوم حنين:

من المناسب أن ننبه إلى أن النبي لم يقاتل في أية معركة، لتعارض حمله السيف للقتال مع كونه رحمة للعالمين، ولأن العرب عُرفوا بالثأر لقتلاهم، ولو قتل النبي منهم أحداً بشكل مباشر لكان من الصعب بالنسبة إليهم أن يرضخوا لحكمه ويؤمنوا برسالته. وكان الإمام علي بمثابة اليد اليمنى لرسول الله، فتحمّل لاحقاً تبعات قتله لصناديد قريش والعرب حنقاً وحقداً، وقد قالت السيدة الزهراء في هذا الشأن: (حتى استنقذكم الله برسوله بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُني ببُهَم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، أو نجَمَ قرنُ الشيطان أو فغرت فاغرةٌ من المشركين، قذَفَ أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخَها بأخْمُصه، ويطفئ عاديةَ لهبِها بسيفه، مكدوداً في ذات الله). ولذا لا نجد أحداً قتله النبي في ساحة معركة، وهو الشجاع لا ريب. أما قول الإمام علي: (كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتَّقيْنا برسولِ الله) فلا يعني أنه كان يُقاتل معهم، بل كان المسلمون يقتربون من موقع رسول الله لينالوا شعوراً بالطمأنينة في تلك المواطن العصيبة.

(١) سورة آل عمران: ١٥٣.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١٣. ص ٢٧٨ - ٢٧٩.
(٣) المتقي الهندي: كنز العمال. ح ٢٩٨٧٤.
(٤) أخفاء: جمع خفيف، للدلالة على سرعة الهروب.
(٥) رجل من جراد: أعداد كثيرة (سرب) من جراد.
(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١٣. ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

(قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في موطن الحرب وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه أيضاً يكون معتمَداً يرجع المسلمون إليه وتطمئن قلوبهم به وبمكانه، وإنما فعل هذا عمداً وإلا فقد كانت له ﷺ أفراس معروفة. ومما ذكره في هذا الحديث من شجاعته ﷺ تقدُّمه يُركض بغلته إلى جمع المشركين وقد فر الناس عنه، وفي الرواية الأخرى أنه نزل إلى الأرض حين غَشوه [١]، وهذه مبالغة في الثبات والشجاعة والصبر، وقيل فعل ذلك مواساة لمن كان نازلاً على الأرض من المسلمين. وقد أخبرت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بشجاعته ﷺ في جميع المواطن، وفي صحيح مسلم قال: إن الشجاع منا الذي يحاذي به، وإنهم كانوا يتقون به... قوله: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به»، احمرار البأس كناية عن شدة الحرب، واستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة، أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر، كما في الرواية السابقة «حمي الوطيس»، وفيه بيان شجاعته ﷺ وعظم وثوقه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) [٢].

وفي شجاعته قال البوصيري [٣]:

طَارَتْ قُلُوبُ العِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا ... فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ البَهْمِ وَالبُهُمِ
وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نَصْرَتُهُ ... إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ
وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ ... بِهِ، وَلاَ مِنْ عَدُوٍّ غَيْرَ مُنْقَصِمِ
أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ ... كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأَشْبَالِ فِي أَجَمِ

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ومصادر أخرى عن أبي عبيدة، قال: (وفد **مالك بن عوف** بن سعيد بن ربيعة بن يربوع بن واثلة بن دهمان بن نصر بن معاوية، وهو رئيس هوازن يوم حنين [٤]، بعد إسلامه إلى النبي ﷺ، فأنشده [٥]:

مالك بن عوف النصري (ت٢٠هـ)، قائد هوازن وثقيف يوم حنين ضد المسلمين. كان فارساً وشاعراً مخضرماً، ويعدُّ بين الفرسان الجرارين، ولم يكن الرجل لِيُنعتَ بالجرار حتى يقود ألف مقاتل.

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلا سَمِعْتُ بِوَاحِدٍ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ كَمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ لِمُجْتَدٍ ... وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ حَدَّدَتْ أَنْيَابَهَا ... بِالسَّمْهَرِيِّ، وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ... وَسَطَ الأَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

---

(١) غشوه: التفوا حوله.
(٢) النووي: شرح مسلم - ج ١٢ - ص ١١٤ - ١٢١.
(٣) القمي: كحل البصر في سيرة سيد البشر. ص ٨٩. تجم: تخاف.
(٤) سنأتي على تفصيل الخبر حين الحديث عن المعركتين في فصل لاحق.
(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق - ج١ - ص ١١٦. اجتذى: استجدى وطلب حاجة. السمهري: الرمح صليب العود. الأباءة: أَجَمَة القَصَب، والأجمة: الشجر الكثيف الملتف. الخادر: الأسد الداخل في خدره، أي في عرينه.

شجاعة عبدالمطلب بن هاشم:

هو جد رسول الله ﷺ كما هو جد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام، ولد بيثرب نحو عام ٤٨٠م، واسمه شيبة الحَمْد، سُمّي بذلك لأنه ولد وفي رأسه الشيب، وإنما عُرف بعبدالمطلب لأنه تربّى عند أخواله من بني عدي بن النجار في يثرب، على إثر وفاة والده هاشم في غزة بأرض فلسطين، فأمه هي سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية [١]. وهكذا بقي عبدالمطلب في يثرب إلى أن صار غلاماً، ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف فأخذه عائداً إلى مكة، فلما احتمله وأردفه على بعيره ودخل مكة بهذه الهيئة قالت قريش: هذا عبدٌ ابتاعه المطلب، فسمي بعد ذلك بعبدالمطلب. كفل عبدُ المطلب النبيَّ ﷺ بعد موت أبيه عبدالله، ونال شرف تربيته بعد موت أمه آمنة بنت وهب الزهرية. ومات عبد المطلب وعمر رسول الله ثمان سنين، أي نحو عام ٥٧٨م ودفن في مقبرة قريش بمكة والمعروف باسم مقبرة الحجون ومقبرة المَعلاة.

كان عبدالمطلب جسيماً وسيماً أبيض فصيحاً، ما رآه أحد إلا أحبه، وكان قاضي العرب وسيد قريش وشريفها وحليمها، قال محمد طاهر الكردي المكي: **(كان يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وكان إذا دخل شهر رمضان يصعد على جبل حراء ويتعبد فيه جميع الشهر، وأطعم المساكين، ولقد كان يحث على مكارم الأخلاق، وقد حرّم الخمر ونكاح المحارم والزنا ووأد البنات وهو دفنهن أحياء، وكان يأمر أولاده بترك البغي والظلم. وكان يقال له الفيّاض لجوده وكرمه، وكان يطعم الناس بالسهل والجبل، ويطعم الوحوش في رؤوس الجبال، وهو الذي حفر بئر زمزم وأخرجه بعد أن دُرس موضعُه وعُفي أثره، فهداه الله إلى مكانه)** [٢].

ومما يدل على شجاعته موقفه في حادثة هجوم أبرهة الحبشي بالفيلة والجنود على مكة المكرمة لهدم بيت الله الحرام، إذ جاء في بعض مصادر التاريخ أنه لما سمع أهل مكة أنه قد نزل بهم صاحب الفيل، جمعوا أموالهم وأهليهم ودوابهم وهموا بالخروج من مكة

استعرت الفوضى السياسية في مملكة حميَر في اليمن وسقطت نهائياً عام ٥٢٥ م، وكان للبيزنطيين دور في مساعدة (كالب) المسيحي، ملك مملكة أكسوم الحبشية، في احتلال اليمن، وذلك بذريعة المجازر التي ارتكبها الملك اليهودي (ذو نواس واسمه يوسف أسأر) بحق المسيحيين في جنوب الجزيرة العربية، ومن بينها ما جرى لأصحاب الأخدود الوارد ذكرهم في القرآن وكانوا من أهل نجران، بينما كان الغرض الحقيقي مواجهة الفرس الذين بات سلطانهم يمتد في الجهة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية. وبرز في هذه الفترة القائد الأكسومي (الحبشي) أبرهة، ويقال له أيضاً أبرهة الأشرم (Abramus آبراموس وتعني إبراهيم) وكان مسيحياً أيضاً، فأعلن نفسه ملكاً على حميَر بعد أن قتل الحاكم الحميري المعيَّن من قبل الغزاة (شميفع أشوع). ذُكر أبرهة في المصادر البيزنطية والسريانية ونصوص خط المسند، واشتهر ببناء كنيسة في صنعاء (القليس) أرادها بديلاً عن الكعبة المشرفة، وبحملته العسكرية نحو مكة المكرمة في نفس العام الذي ولد فيه النبي ﷺ حوالي ٥٧٠م. انتهى حكم أبرهة بالغزو الساساني الفارسي لليمن عام ٥٧٥م.

(١) ومن هنا كان يقال أن أخوال النبي من بني النجار، فهم أخوال جده. وفي الخبر الذي رواه ابن كثير في الجزء الثالث من «البداية والنهاية» عن أبي بكر في حديث الهجرة قال: (فقدِمنا ليلاً فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أنزل على بني النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك»).

(٢) الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم. ج ١. ص ٦٠ - ٦١.

(إلى اليمين) الموقع المفترض لكنيسة القَليس في صنعاء، وقد سميت الحارة هناك قديماً باسمها «غرقة القليس» ويلاحظ طبيعة البناء شبه الدائري للكَنيسة والمشابه لنمط بناء بعض الكنائس في مملكة أكسوم (الحبشة: أثيوبيا) كالكنيسة التي تظهر في الصورة (إلى اليسار).

هاربين من أصحاب الفيل، فلما نظر إليهم عبدالمطلب قال لهم: **يا قوم أيجمل منكم هذا الامر؟! وإنه لعارٌ عليكم خروجكم عن كعبتكم.**

قالوا له: **إن الملك أقسم بمعبوده أن لابد له من ذلك أن يهدم الكعبة، ويرمي أحجارها في البحر، ويذبح أطفالها، ويرمّل نسائها، ويقتل رجالها، فاتركنا نخرج قبل أن يحل بنا الويل.**

فقال لهم عبد المطلب: **إن الكعبة لا يَصلُون إليها، لأن لها مانعاً يمنعهم عنها، وصادّاً يصدّهم عنها، فإن أنتم التجأتم إليها واعتصمتم بها فهو خير لكم.**

فلم تطمئن القلوب إلى كلامه، وغلب عليهم الخوف والجزع، وخرجوا هاربين يطلبون الشعاب، ومنهم من طلب الجبال، ومنهم من ركب البحر. فعند ذلك قالوا لعبد المطلب: **ما يمنعك أن تهرب مع الناس؟**

قال: **أستحيي من الله أن أهرب عن بيته وحرمه، فوالله لا برحت من مكاني ولا نأيت عن بيت ربي حتى يحكم الله بما يشاء.**

ذكر الأزرقي في تاريخ مكة أن أبرهة بنى القَليس بحجارة قصر بلقيس الذي بمأرب، فوضع الرجال نسقاً يناول بعضهم بعضاً الحجارة، والآلة، حتى نقل ما كان في قصر بلقيس مما احتاج إليه من حجر، أو رخام، أو آلة للبناء وجد في بنائه، وإنه كان مربعاً مستوي التربيع، وجعل طوله في السماء ستين ذراعاً وكبسه من داخله عشرة أذرع في السماء، وكان يصعد عليه بدرج الرخام، وحوله سور بينه وبين القليس مائتا ذراع، مطيف به من كل جانب، وجعل بين ذلك كله بحجارة تسميها أهل اليمن: «الجروب» منقوشة، مطابقة، لا يدخل بين أطباقها الإبرة، مطبقة به، وجعل طول ما بنى به من الجروب عشرين ذراعاً في السماء، ثم فصل ما بين حجارة الجروب بحجارة مثلثة، تشبه الشُّرَف، مداخلة بعضها ببعض، حجراً أخضر، وحجراً أحمر، وحجراً أبيض، وحجراً أصفر، وحجراً أسود. وهذا التربيع لا يتوافق مع الموقع شبه الدائري الشكل الظاهر في الصورة، والله أعلم.

ولم يبق يومئذ بمكة إلا عبد المطلب وأقاربه وهم غير آمنين على أنفسهم، فلما نظر عبد المطلب إلى الكعبة خالية وديارها خاوية قال: **اللهم أنت أنيس المستوحشين ولا وحشة معك، فالبيت بيتك، والحرم حرمك، والدار دارك، ونحن جيرانك تمنع عنه ما تشاء ، وربُّ الدار أولى بالدار.**

وصلت جحافل الغزاة إلى أطراف مكة، فوجدوا فيها لعبد المطلب ثمانين ناقة حمراء، فأخذها القوم وتقاسموها، وسبق بعض الرعاة فأخبر عبد المطلب بذلك، فقال: **الحمد لله، هي مال الله، وضيافة لأهل بيته وزواره وحجاجه، فإن سلَّمها فهي له، وإن ردها إلينا فهي إحسانه، وهي عارية عندنا** [١].

ثم إن عبدالمطلب لبس قميصه، وتردّى برداء لؤي ، وتحزّم بمنطقة الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتنكّب قوس إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ [٢]، واستوى على مطيّته وعزم على الخروج، فقام إليه أقاربه وقالوا له: **أين تريد؟!**

قال: **إلى هذا الرجل الظالم الذي أخذ مال الله** عَزَّوَجَلَّ، **وتعرض لحرم الله.**

قالوا: **ما كنا بالذي نُطلق سبيلك حتى تمضي إليه، لأن هذا مثل البحر من دخله غرق، وأنت اعتصمت برب الكعبة، واعتصمنا معك، ورضينا لأنفسنا ما رضيت لنفسك، أما الخروج من الحرم إلى شر الأمم فما نسمح لك بذلك.**

قال: **يا قوم إني أعلم من فضل ربي ما لا تعلمون، فخلّوا سبيلي فإني سأرجع إليكم عن قريب.**

فخلَّوا سبيله، فمرّت به مطيته كالريح، فلما أشرف على القوم نظروا إليه من بعيد فإذا هو كالبدر إذا بدا، والصبح إذا أسفر، فلما عاينوه من قريب بهتوا فيه فجاؤوه وقد حبس الله أيديهم عنه[٣]، فقالوا له: **من أنت أيها الرجل الجميل الطلعة، المليح الغُرَّة ؟ من أنت يا ذا النور الساطع، والضياء اللامع؟ فإن كنت من هذه البلدة نسألك أن ترد عن قربنا، شفقةً منا عليك.**

فقال لهم: **إني أريد الملك.**

فقالوا له: **إنَّ ملكنا قد أقسم بمعبوده أن لا يترك من قومك أحداً.**

فقال لهم عبد المطلب: **إني قد أتيته قاصداً.**

فعند ذلك تصارخت القوم وقال بعضهم لبعض: **ما رأينا مثل هذا الرجل في الجمال و الكمال إلا أنه ناقص العقل، نحن نقول: إن ملكنا قد أقسم بمعبوده أن لا يترك أحداً من أهل هذه البلدة، وهو يقول: لابد لي منه!**

فخلوا سبيله، فمضى قاصداً إلى الملك، فأوصلوا خبره إلى الملك، وقالوا: **أيها الملك قد قدِم علينا رجل صفته كذا وكذا من أهل مكة ولم يفزع ولم يجزع.**

فقال الملك: **عليَّ به، فوحقِّ ما أعتقده من ديني لو سألني أهل الأرض ما قبلت فيه سؤالاً.**

---

(١) لاحظ هذا الجود والإيمان وتوطين النفس على أن ما بيده إنما هو لله حقيقة، وما هو إلا مؤتمن عليها ينفقها على الزوار والحجاج.

(٢) لؤي من أجداد عبدالمطلب. والمنطقة: الحزام. وتنكب القوس: ألقاه على عاتقه.

(٣) كناية عن عدم التعرض له بسوء.

فعند ذلك أقبلوا إلى عبدالمطلب ليأتوا به، فقال لهم عبد المطلب: **إني قادم إلى الملك بنفسي.**

فأمر الملك قومه أن يشهروا السلاح، ويجرّدوا السيوف، وجعل الملك على رأسه تاجاً، وشدَّ عمامته على جبينه، وأمر سيَّاس الفيل أن يحضروه فأحضروه، وكان فيهم فيل يُقال له المذموم ، وكان قد ركبوا على رأسه قرنين من حديد لو نطح جبلاً راسياً بهما لألقاه[١]، وكانوا قد علقوا على خرطومه سيفين هنديين وعلَّموه الحرب، ووقف سيّاسه من ورائه، فقال لهم الملك: **إذا رأيتموني قد أشرت لكم عند دخول هذا المكي فأطلقوه عليه حتى يدوسه بكلكله**[٢].

فدخل عليهم عبد المطلب وهم صفوف ينظرون ما يأمرهم الملك في عبد المطلب وهم باهتون، وهو لا يلتفت إلى أحد منهم حتى جاوز أصحاب الفيل، فأمرهم الملك بإطلاق الفيل فأطلقوه، فلما قرب من عبد المطلب برك الفيل إلى الأرض وجثا على ركبتيه وسكن ارتجاجه، وكان قبل ذلك إن أحضره سيّاسه على القتال تحمرّ عيناه، ويضرب بخرطومه وفيه سيفان، فلما قرب من عبد المطلب سكن ولم يفعل شيئاً !

فتعجب الملك وأصحابه من ذلك، وألقى الله في قلبه الجزع والفزع، وارتعدت فرائصه، ورقّ قلبه، فأقبل على عبد المطلب حتى أجلسه بجانبه، ورحب به، والتفت إلى الأسود بن مقصود[٣]، وقال: **أي شئ يطلب هذا الرجل المكي فأقضي حاجته؟**

---

(١) في العبارة مبالغة بغرض توضيح الصورة.

(٢) الكلكل: الصدر.

(٣) كان دليلهم إلى مكة.

وقد كان الملك يحلف على هلاكه قبل ذلك ! ثم قال له الملك: **من أنت وما اسمك؟ فما رأيت أجمل منك وجهاً، ولا أحسن منك بهجة، ولك عندي ما سألت، ولو سألتني الرجوع عن بلدك لفعلت.**

فقال له عبد المطلب: **لا أسألك في شئ من ذلك إلا أن قومك أغاروا علينا، وأخذوا لي ثمانين ناقة، وكنت قد أعددتها للحجاج الذين يقصدوننا من جميع النواحي، فإن رأيت أن تردّها عليّ فافعل.**

فأمر الملك رجاله بإحضارهن. ثم قال الملك: **هل لك من حاجة غيرها فاسألني فيها؟**

فقال عبد المطلب: **أيها الملك ما أريد غير هذه.**

فقال له الملك: **فلِمَ لا تسألني في بلدك، فإني أقسمت لأهدمنَّ كعبتكم، وأقتل رجالكم، لكن لعظم قدرك عندنا لو سألتني فيها قبلت سؤالك.**

فقال عبد المطلب: **لا أسألك في شئ من ذلك.**

قال: **ولم ذلك ؟**

قال: **إن لها مانعاً يمنعها غيري.**

فقال الملك: **اعلم يا عبد المطلب إني أخرج على أثرك بجنودي ورجالي، فنُخرب الكعبة ونواحيها، وأقتل سكانها.**

فقال له عبد المطلب: **إن قدرت فافعل.**

فانصرف عبد المطلب ومرّ على الفيل المذموم، فلما نظر الفيل إلى عبد المطلب سجد له، فقام الوزراء والحجّاب يلومون الملك في أمر عبد المطلب كيف خلى سبيله. فقال لهم الملك: **ويحكم لا تلوموني، ألم تروا كيف سجد له الفيل بين يديه؟ والله لقد وقع لهذا الرجل في قلبي هيبة عظيمة، ولكن أشيروا عليّ بما يكون من هذا الأمر.**

فقالوا: **لابد لنا أن نسير إلى مكة فنخربها، ونرمي أحجارها في بحر جدة.**

فعند ذلك أمر الملك بالجموع والجيوش أن تزحف إلى مكة، ولما وصل عبدالمطلب بالنوق إلى مكة خرج إليه أقاربه وبنو عمه يهنئونه بالسلامة، وقد كانوا آيسوا منه، فلما نظروا إليه فرحوا به وجعلوا يتعلقون به ويقبّلون يديه، وقالوا: **الحمد لله الذي حماك وحفظك بهذا النور الحسن.**

ثم سألوه عن الجيش فأخبرهم بقصته و خبر الفيل ، فقالوا له : **ما الذي تأمرنا به؟**

فقال : يا قوم أخرجوا إلى جبل ابي قبيس حتى ينفذ الله حكمه و مشيته.

فخرج القوم بأولادهم و نسائهم و دوابهم، و خرج عبد المطلب و بنو عمه و إخوته و أقاربه، و أخرج مفاتيح الكعبة إلى جبل أبي قبيس، و جعل يسير بهم إلى الصفا ، و يدعو و يبكي و يتوسل بنور محمد ﷺ، و جعل يقول :**يا رب إليك المهرب، وأنت المطلب، أسألك بالكعبة العلياء ذات الحج والموقف العظيم المقرّب، يا رب، إرمِ الأعادي بسهام العطب حتى يكونوا كالحصيد المنقلب.** ثم رجع وأتى إلى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ، فَامْنَعْ حِلاَلَكْ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ عَدْوًا مِحَالَكْ
إِنْ كُنتَ تاركَهُم وكَعبَتَنا فَأَمُرْ مَا بَدَا لَكْ
جَرُّوا جَمِيعَ بِلادِهِم وَالْفِيلَ كَيْ يَسْبُوا عِيَالَكْ
عَمَدوا حِمالَكَ بِكَيدِهِم جَهلاً وَمَا رَاقَبُوا جَلالَكْ
فَانصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ وعَابِدِيهَ الْيَومَ آلَكْ

وقال أيضاً شعراً:

يَا رَبِّ لا أرجُو لَهُم سِواكَا يا رَبِّ فامْنَعْ مِنهُم حِمَاكا
إنَّ عَدُوَّ البَيتِ مَن عَاداكَا امنَعْهُم أنْ يُخرِبُوا قُراكا

وإذا بهاتف يُسمع صوته ولا يُرى شخصه وهو يقول: **قد أجبت دعوتك، وبلغت مسرتك إكراماً للنور الذي في وجهك.**

فنظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، ثم قال لمن معه وهم على جبل أبي قبيس وقد نشروا شعورهم وهم يبتهلون بالدعاء ويستبشرون بالإجابة، ثم قال: **أبشروا فإني رأيت النور الذي في وجهي قد علا، وإنما كان ذلك كاشفاً لما طرقكم.**

ففرح القوم وتضرّعوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فبينما هم كذلك إذا أشرفت عليهم غبرة القوم، وتقاربت الصفوف، ولاح لهم بريق الأسنّة، ثم انكشف الغبار عن الفيل فنظروا إليه كأنه الجبل العظيم، وقد ألبسوه الحديد، وزيّنوه بزينة، فاشتد قلقهم، وانهملت عبراتهم، وتضرع عبدالمطلب ودعا، فوالله ما أتم عبدالمطلب دعاءه وتضرعه حتى وقف الفيل مكانه، فصرخت عليه الفيّالة، وزجرته الساسة، فلم يلتفت إليهم، فوقفت الجيوش ودهشوا، فقال الأسود بن مقصود وهو على الساقة: **ما الخبر؟**

قالوا: **إن الفيل قد وقف.**

فقال للساسة: **اضربوه.**

فضربوه فما حال ولا زال، فتعجبوا من ذلك، ثم أمرهم أن يعطفوا رأسه ففعلوا فهرول راجعاً، فأمر بردّه فردّوه فوقف، فقال الأسود: **سحروا فيلكم.** ثم بعث إلى الملك وأعلمه بذلك، فقال له: **أشر علينا.**

فبعث أبرهة إلى ابن مقصود فقال: **ليس من جرَّب كمن لا يجرِّب، ابعث للقوم رسولاً واطلب الصلح، ولا تخبرهم بأمر الفيل لئلا يكون طريقاً لطمعهم فيكم، واطلب منهم رجالاً بعدد مَن قُتل منا، ويقومون لنا بما أفسدوا من كنيستنا** [1]**، فإذا فعلوا ذلك رجعنا عنهم.**

(١) قيل أن سبب هجوم أبرهة على مكة أن بعض العرب من اهل مكة أحرقوا كنيسة بالحبشة خطأ ومات عدد من رجالها بسبب ذلك ، فقرر الانتقام، وقيل غير ذلك .

فلما دخل رسول أبرهة على الأسود وكان اسمه حناطة الحميري، وكان يهزم الجيوش وحده[١]، وكان له خلقة هائلة فقال له الأسود: **هل لك أن تكون أنت الرسول إليهم؟ فعسى أن يكون الصلح على يديك.**

فقال حناطة: **ها أنا سائر إليهم، فإن صالحونا وإلا رجعت برؤوسهم.**

ثم سار وهو معجب بنفسه فسأل عن سيد قريش، فقالوا: **هو الشيبة النجار.**

وكان عبد المطلب قد رآه وعلم أنه رسول من القوم، فلما نظر حناطة إلى عبدالمطلب دُهش وحار، فقال له عبدالمطلب: **ما الذي أتى بك؟**

قال: **يا مولاي إن أبرهة قد عرف فضلكم، ووهب لكم الحرم والبيت، وقد أرسل إليك أن تقوم بدية من قتل له، أو تسلّم من رجالك بعددهم، ثم تقوم له بثمن ما عُدم من الكنيسة، فإذا فعلتم هذا رجع عنكم.**

فقال عبد المطلب: **أيؤخذ البرئ بالسقيم، ونحن من شيمتنا الأمانة والصيانة، ونقبض أيدينا عن المظالم، ونصرف جوارحنا عن المآثم؟! فبلِّغ صاحبك عنّا ذلك، وأما هذا البيت فقد سبق مني القول فيه: إن له رباً يمنع عنه، فوالله ما كبُر عليَّ ما جمعتموه من الرجال، فإن أراد صاحبك المسير فليسر، وإن أراد المقام فليقم.**

فلما سمع حناطة كلامه غضب وأراد أن يقتل عبد المطلب، فظهر لعبد المطلب ما في وجهه[٢]، فلم يمهله دون أن قبض على محزمه ومراق بطنه وشاله وضرب به الأرض، وقال: **وعزة ربي لولا أنك رسول لأهلكتك قبل أن تأتي صاحبك.**

رجع حناطة إلى الأسود وأعلمه بما كان من أمره، ثم قال: **هؤلاء قوم قد غلت دماؤهم، والرأي عندي أن تراسل القوم بعد هذا، واعلم أن مكة خليَّة من أهلها، فأسرِع إلى الغنيمة.**

فأمر الجيوش بالزحف فساروا نحو الحرم، فلما قربوا منه جاءهم أمر الله من حيث لا يشعرون، وإذا هم بأفواج من الطير كالسحابة المترادفة يتبع بعضها بعضاً، و هي كأمثال الخطاطيف، يحمل كل طير ثلاثة أحجار: أحدها في منقاره، واثنين بين رجليه كالعدس، وكبيرها كالحمص، وقد تعالت الطيور، وارتفعت وامتدت فوق العسكر، وانتشرت بطولهم وعرضهم، فلما نظر القوم إلى ذلك خافوا وقالوا: **ما هذه الطيور التي لم نر مثلها قبل هذا اليوم؟**

فقال الأسود: **ما عليكم بأس، لأنها طير تحمل رزقها لفراخها.** ثم قال: **عليّ بقوسي ونبلي حتى أردّها عنكم.** فأخذ قوسه و أراد الرمي فتصارخت الطيور مستأذنة لربها في هلاك القوم، فما أتمت صراخها حتى فُتحت أبواب السماء، وإذا بالنداء: **أيها الطيور المطيعة لربها افعلوا ما أمرتم به، فقد اشتد غضب الجبار على الكفار.**

فتحت الطيور أفواهها، وكان أول حصاة وقعت على رأس حناطة فنزلت من البيضة [٣] إلى الرأس إلى الحلقوم، ونزلت إلى الصدر، وخرجت من دبره، ونزلت إلى الأرض وغاصت فانقلب صريعاً، فتناثر القوم يميناً وشمالاً والطيور

(١) مبالغة في العبارة للدلالة على قوته وشجاعته.
(٢) أي تبيّن لعبدالمطلب نية حناطة في الاعتداء عليه .
(٣) البيضة: غطاء للرأس يستخدم في الحروب كهيئة الخوذة.

تتبعهم لا تحول ولا تزول عن الرجل حتى ترميه بالحصاة على رأسه، فتخرج من دبره ولا يردها درقة ولا حديد [١]. وإن أبرهة لما نظر إلى الطير وفِعْلها علم أنه قد أحيط بهم، فولّى هارباً على وجهه، وأما الأسْود فإنه لما نظر إلى ما نزل بقومه والحصى تتساقط عليهم وهم يقعون على وجوههم، فإذا بطير قد ألقى حجراً فوقع في فيه حتى خرج من دبره، وأتاه آخر فضربه في هامته فطلع من قفاه، فخر صريعاً[٢]. وهكذا أهلك الله المعتدين، وحفظ بيته الكريم، وخلّد هذه الحادثة في سورة كريمة هي سورة الفيل.

۞ شجاعة أبي طالب بن عبدالمطلب:

هو عم النبي الأكرم ﷺ ووالد الإمام علي عليه السلام، واسمه عمران أو عبدمناف[٣] «٥٤٠ م - ٦١٩ م» حامي النبي، والمدافع عن الإسلام، وصاحب المواقف البطولية والشجاعة في الدفاع عن ابن أخيه محمد وعن رسالة السماء، والذود عنهما بكل ما أوتي من قوة، مواجهاً عتاة قريش، ومصارعاً الباطل الذي نهض لوأد رسالة النبي الأكرم محمد ﷺ. أمه: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران المخزومية. كان أبو طالب الأخ الشقيق الوحيد لعبد الله والد النبي محمد، وقد عهد إليه والده عبد المطلب بكفالة محمد ﷺ بعد وفاته، فكان خير كفيل، هو وزوجه السيدة فاطمة بنت أسد.

خلف أبو طالب أباه عبد المطلب الذي كان أحد سادة قريش في المكانة والوجاهة، ومع البعثة النبوية الشريفة، آمن أبو طالب بنبوة ابن أخيه محمد ﷺ، إلا أنه لم ير جدوى من إعلان ذلك على الملأ، إذ لن يترتب على ذلك سوى إضعاف موقفه في نصرته. وهكذا كتم أبوطالب إيمانه ليضمن استدامة قريش على طاعته، والانقياد لسيادته، وليتمكن من خلا ذلك من نصرة النبي والدفاع عنه.

فكان مثله كمثل أصحاب الكهف، وكمؤمن آل فرعون، في كتمان الإيمان. وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: (**إن جبرئيل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن ربك يقرؤك السلام، ويقول لك: إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرتين، وإن أبا طالب أسر الايمان وأظهر الشرك، فآتاه الله أجره مرتين، وما خرج من الدنيا حتى أتته البشارة من الله بالجنة**)[٤]. كما روى الشيخ الصدوق عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال في حديث: (**إن أبا طالب كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه**)[٥].

ولأبي طالب أشعار تؤكد إيمانه، ومنها مخاطباً أخاه حمزة، وكان يُكنى أبا يعلى، يطالبه فيه بالجهر بالإيمان واتباع النبي ونصرته والصبر في هذا الطريق ومواجهة قريش جهاراً [٦]:

---

(١) الدرقة = الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار. ج ١٥. ص ٦٦ – ٧٤. هكذا جاءت الرواية مفصلة ولا نستطيع إثبات كل ما جاء فيها، ولا يخفى دور القصاصين في وضع الكثير من التفاصيل الإضافية على القصص، والله أعلم بحقيقة الحال. وقد تناولت دور القصاصين في الفصل الأول من كتابي «ميثولوجيا الخضر» فراجع.

(٣) مما يدل على الاسم الثاني الخبر المروي في وسائل الشيعة للحر العاملي برقم ٢١٤٣٩ عن أمير المؤمنين قال: (كان والله أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب مؤمنا مسلماً، يكتم إيمانه....).

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢١٤٣٨.

(٥) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢١٤٤٠.

(٦) الشاكري: شيخ البطحاء أبو طالب – ص ٥٦-٥٧، نقلاً عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ٣١٥.

فصبراً أبا يَعلى على دينِ أحمدٍ ... وكن مُظهِراً للدِّينِ وُفِّقتَ صابِرا
وحُطْ مَن أتَى بالحقِّ من عندِ رَبِّه ... بِصدْقٍ وعَزْمٍ لا تَكُنْ حَمْزُ كافِرا
فَقَد سَرَّني إذْ قُلتَ: إنَّكَ مُؤمِنٌ ... فَكُنْ لِرَسولِ اللهِ في اللهِ ناصِرا
ونَادِ قُريشاً بِالذي قَد أتَيْتَهُ ... جِهاراً وَقُلْ: مَا كَانَ أحمَدُ سَاحِرا

ومن شعره المشهور الذي يعلن فيه إيمانه، ويذكر شجاعته في طريق الحق[١]:

أنتَ النبيُّ محمدُ ... قَرْمٌ أغرُّ مُسَوَّدُ
لمسوَّدينَ أكارمٍ ... طابوا وطابَ المَوْلِدُ
نعمَ الأرومةُ أصلُها ... عَمْرُو الخِضَمُّ الأوحَدُ
هشَمَ الرَّبيكَةَ في الجفانِ ... وعيشُ مكَّةَ أنكَدُ
فَجَرتْ بذلكَ سُنَّةٌ ... فيها الخَبيزةُ تُثْرَدُ
ولنا السقايةُ للحَجيجِ ... بها يُماثُ العُنجُدُ
والمأزمانِ وما حَوتْ ... عَرفاتُها والمسجِدُ
أنَّى تُضامُ ولم أمُتْ ... وأنا الشجاعُ العِرْبِدُ
وبطاحُ مكةَ لا يُرى ... فيها نَجيعٌ أسْوَدُ
وبنو أبيكَ كأنَّهُمْ ... أُسْدُ العرينِ تَوقَّدُ
ولقد عَهِدتُكَ صادقاً ... في القَوْلِ لا تَتَزَيَّدُ
ما زلتَ تنطقُ بالصَّوابِ ... وأنتَ طفلٌ أمْرَدُ

ومن شعره أيضاً قوله يخاطب محمداً ﷺ، ويسكن جأشه، ويأمره بإظهار الدعوة[٢]:

لا يَمنَعَنَّكَ من حَقٍّ تَقومُ بِهِ ... أيدٍ تَصولُ وَلا سَلقٌ بَأصواتِ
فَإنَّ كَفَّكَ كَفّي إن مُنيتَ بِهِم ... وَدونَ نَفسِكَ نَفسي في المُلِمّاتِ

وذات مرة هدد أبو طالب قريشاً بقوله[٣]:

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١٤ ـ ص ٧٧. الخضم: الكثير العطاء. الربيكة: طعام يعمل من تمر وأقط وسمن. الخبيزة: الخبز، يقال: ثردت الخبز أثرده، وهو أن تفته ثم تبله بمرق. تميث الشيء في الماء : ذاب فيه. العنجد: الزبيب، العربد: الحية، وهو كناية عن الشجاعة.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ـ ج ١٤ ـ ص ٧٦ – ٧٨ .

(٣) الشاكري : شيخ البطحاء ـ ص ٦٩ – ٧٠. نثّ: سال. المنصل: السيف. عوارد: أشداء. الصياقل: جميع الصَّيقَلُ: الصَّقَّال ، من يجلو السُّيوف ويشحذها. الأكايل: الفرائس التي تؤكل.

وَلَـــولا حَـــذَاري أنْ أجِـــيءَ بِسُبَّةٍ ... تَـنُـثُّ عَـلَـى أشـيَـاخِـنـا فِي المَحَـافِـلِ
لَـداسَـتْـكُـم مِـنّـا رِجَـــالٌ أعِـــزَّةٌ ... إذا جَـــرَّدوا أيمَـانَـهُـم بـالمنَـاصِـلِ
رِجَـــالٌ كِـــرامٌ غَـيـرَ مَـيـلٍ عَـــوارِدُ ... كَـمـثْـلِ السُّـيُـوفِ فِي أكُـفِّ الصَّـيَـاقِـلِ
وَضَـــرْبٌ تَـرى الـفِـتـيَـانَ فِـيـهِ كَـأنَّـهُـم ... ضَـوارِي أسُـودٍ عِـنـدَ لَحْـمِ الأكَـايِـلِ
رَدَدنَـــاهُـــم حَـتَّـى تَـبَـدَّدَ جَـمْـعُـهُـم ... وَنَـــدفَـــعُ عَـنـا كُـــلَّ بـــاغٍ وجَـاهِـلِ

وقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى أنه لما رأت قريش ظهور الإسلام وجلوس المسلمين حول الكعبة، سقط في أيديهم، فمشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه، فقالوا: أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا، وقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا. وجاءوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا: **قد جئناك بفتى قريش جمالاً ونسباً ونهادةً [1] وشعراً، ندفعه إليك، فيكون لك نصره وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبّة.**

قال أبو طالب: **والله ما أنصفتموني! تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه! ما هذا بالنصف. تسومونني سوم العرير [2] الذليل.**

قالوا: **فأرسل إليه فلنعطه النَّصَف.**

فأرسل إليه أبو طالب فجاء رسول الله ﷺ، فقال : **يا ابن أخي هؤلاء عمومتك وأشراف قومك، وقد أرادوا ينصفونك.**

فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا أسمع**».

قالوا: **تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك.**

قال أبو طالب: **قد أنصفك القوم فاقبل منهم.**

فقال رسول الله ﷺ: **أرأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم؟**

فقال أبو جهل: **إن هذه لكلمة مربحة، نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها.**

قال: **قولوا : لا إله إلا الله.**

فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد، ويقال المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط، وقالوا: **لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن يُغتال محمد.**

---

(١) نهادة: عظماً.

(٢) العرير من الرجال: الغريب.

فلما كان مساء تلك الليلة فُقِد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب ثم قال: **ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قُتل.**

فقال الفتيان: **نفعل.**

فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: **يا زيد، أحسست ابن أخي؟**

قال: **نعم، كنت معه آنفاً.**

فقال أبو طالب: **لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه.**

فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون فأخبره الخبر، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال: **يا ابن أخي، أين كنت؟ أكنت في خير؟**

قال: **نعم.**

قال: **ادخل بيتك.**

فدخل رسول الله ﷺ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيده، فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيّون، فقال: **يا معشر قريش، هل تدرون ما هممت به؟**

قالوا: **لا.**

فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: **اكشفوا عما في أيديكم.**

فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة، فقال: **والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم.**

فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو جهل[1].

شجاعة حمزة بن عبدالمطلب:

عم رسول الله، أسد الله وأسد رسوله، سيد الشهداء الذي عُرف بشجاعته في الجاهلية والإسلام، وقد روى ابن إسحاق أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله، ومولاةٌ **لعبد الله بن جدعان** في مسكنٍ لها تسمع ذلك

عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، هو أحد سادات قريش، وسيد جميع كنانة في حرب الفجار ضد قيس عيلان، وكان معروفاً عنه الكرم والجود. وهو ابن عم والد الخليفة أبي بكر. قيل: كان في بدء أمره فقيراً وشريراً أبغضه الناس وأبعدوه، ولكنه وجد كنزاً فانصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى - ح ٥٠٠.

منه، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدث معهم، وكان أعزّ فتى في قريش وأشد شكيمة. فلما مرّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم ابن هشام ! وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

فاحتمل حمزة رضي الله عنه الغضب، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجة منكرة، ثم قال: **أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول ؟ فرُدّ ذلك عليّ إن استطعت.**

فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: **دعوا أباعمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً**[1].

وحافظ حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، واشتدَّ ذلك على قريش كثيراً. وكان من شجاعته أنه إذا خرج للقتال في الحرب **أعلمَ بريشة نعامة على رأسه أو صدره**، ليكون بمثابة الإشارة للأعداء للتقدم نحوه ومطالبته الأقران من أبطال العدو ليبارزهم ويقاتلهم، وهذا ما كان منه في معركتي بدر الكبرى وأحُد التي استشهد فيها.

كان من عادة العرب في القتال أن يُعلِم أبطالُهم بطريقةٍ ما ليمتازوا عن سواهم، كنوع من إظهار القوة ودعوة الأكفاء لقتالهم، و كان أربعة من أصحاب رسول الله يُعلِمون في الزحوف: حمزة بن عبدالمطلب مُعلم يوم بدر بريشة نعامة، وكان علي بن أبي طالب مُعلماً بصوفة بيضاء، وكان الزبير بن العوام مُعلماً بعصابة صفراء، وكان أبو دجانة الأنصاري يُعلم بعصابة حمراء.

ولم تكن معركة بدر الكبرى هي المواجهة الأولى بين المسلمين وأعدائهم، بل كانت سرية سيدنا حمزة بن عبدالمطلب أوّل لواء عُقد، وقد أمّره النبي ﷺ على ثلاثين رجلاً من المهاجرين بعثهم إلى سواحل البحر الأحمر حيث الطرق التجارية التي تمر فيها قوافل قريش التجارية، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، فتواجهوا مع قافلة قريش وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل من أهل مكة، فاصطفّوا للقتال، ولكنهم تفرقوا لاحقاً استجابةً لوساطة قام بها مجديّ بن عمرو الذي كان حليفاً للمسلمين ولمشركي قريش في آن واحد، فانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة، وتوجّه أبو جهل وأصحابه إلى مكة.

وفي معركة بدر الكبرى نادى منادي المشركين قائلاً: **يا محمد، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا.**

فقال لهم رسول الله ﷺ: **يا بني هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله.**

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك - ج٢ - ص ٧٣.

فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، فمشوا إليهم، فقال عتبة: **تكلّموا نعرفكم**. وكان عليهم البيض[١] فأنكروهم. **فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم.**

فقال حمزة: **أنا حمزة بن عبدالمطلب، أسد الله وأسد رسوله.**

فقال عتبة: **كفء كريم. وأنا أسد الحلفاء. مَن هذان معك؟**

قال: **علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب.**

فقال: **كفآن كريمان.** ثم قال عتبة لابنه: **قم يا وليد.**

فقام الوليد، وقام إليه علي، وكانا أصغر النفر، فاختلفا ضربتين، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام. ثم قام عتبة وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين، فقتله حمزة رضي الله عنه. ثم قام شيبة و قام إليه عبيدة وهو يومئذ أسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فضرب شيبة رِجل عبيدة بذباب السيف[٢]، فأصاب عضلة ساقه فقطعها، وكرّ حمزة وعلي على شيبة فقتلاه[٣].

وفي معركة أُحُد، لما استشار النبي صلى الله عليه وآله أصحابه حول الخروج للقتال، كان حمزة من المتحمسين الراغبين في أن يقع القتال بعيداً عن المدينة وفي ساحة مفتوحة كما كان الأمر في بدر الكبرى، لا بين أزقة المدينة: (**وقال رجال من أهل السن وأهل النية، منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، في غيرهم من الأوس والخزرج: إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدوُّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنتَ يوم بدر في ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا**)[٤].

وكان من قوله أيضاً: (**والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة. وكان يُقال: كان حمزة يوم الجمعة صائماً، ويوم السبت صائماً، فلاقاهم وهو صائم**)[٥].

ولما وقع القتال بين الطرفين، كان حمزة بن عبد المطلب يَفري المشركين فرياً بسيفه نظَر صفوان بن أمية إلى حمزة يومئذ وهو يَهُدّ الناس، فقال: **مَن هذا؟**

قالوا: **حمزة بن عبد المطلب.**

فقال: **ما رأيتُ كاليوم رجلاً أسرع في قومه.**

وكان يومئذ مُعلِماً بريشة نسر[٦].

---

(١) البيض: جمع بيضة وهي الخوذة العسكرية.
(٢) ذباب السيف: حد طرفه الذي بين شفرتيه.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١٤- ص ١٢٩-١٣٠.
(٤) الواقدي: المغازي - ج ١- ص ٧٩.
(٥) الواقدي: المغازي - ج ١- ص ٨٠.
(٦) الواقدي: المغازي - ج ١- ص ١٠٩.

وقد روى وحشي قاتل حمزة بن عبدالمطلب خبر ما جرى له مع حمزة في أُحُد، قال: (**أما محمد فقد علمتُ أني لا أقدر عليه، وأن أصحابه لن يُسلموه، وأما حمزة فوالله لو وجدته نائماً ما أيقظته من هيبته، وأما علي فألتمسه. قال وحشي: فكنتُ يوم أُحُد ألتمسه، فبينا أنا في طلبه طلع عليٌّ، فطلع رجل حذر مرس كثير الالتفات، فقلتُ ما هذا بصاحبي الذي ألتمس، إذ رأيت حمزة يفري الناس فرياً، فكمنت له إلى صخرة وهو مُكبِس**[١] **له كتيت**[٢] **فاعترض له سباع ابن أم نيار، وكانت أمُّه ختَّانة بمكة، مولاة لشريف بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي... فاحتمله حتى إذا برقت قدماه**[٣] **رمَى به فبرك عليه فشحطه شحط الشاة، ثم أقبل عليَّ مكبّاً حين رآني فلما بلغ المسيل، وطئ على جُرف، فزلّت قدمه، فهززْتُ حربتي حتى رضيت منها، فأضرب بها في خاصرته حتى خرجَت من مثانته، وكرَّ عليه طائفةٌ من أصحابه فأسمعهم يقولون: أبا عمارة. فلا يُجيب. فقلت: قد والله مات الرجل، و ذكرْتُ هنداً وما لقيت على أبيها وعمها وأخيها. وانكشف عنه أصحابُه حين أيقنوا بموته، ولا يروني، فأكرّ عليه فشققتُ بطنَه، فاستخرجتُ كبدَه، فجئت بها إلى هند بنت عتبة فقلت: ماذا لي إن قتلتُ قاتلَ أبيك؟ قالت: سَلْني**[٤]**. فقلت: هذه كبد حمزة! فمضغَتْها، ثم لفظَتها، فلا أدري لم تسغْها أو قذَرتها. فنزَعت ثيابَها وحليَّها فأعطتنيه ثم قالت: إذا جئتَ مكة فلك عشرة دنانير. ثم قالت: أرني مصرعَه، فأريتها مصرعه فقطعت مذاكيرَه، وجدَعت أنفَه وقطعت أذنَيه، ثم جعلت ذلك مَسكتين ومعضدين وخدَمتين**[٥] **حتى قدمت بذلك مكة، وقدمت بكبده أيضاً معها**).

وفي خبر آخر: (**و كان في ساقيها خدَمتان من جزع ظفار، ومَسكتان من ورق**[٦] **وخواتيم من ورق كنَّ في أصابع رجليها، فأعطتني بكل ذلك**)[٧].

لم يكتفِ أبوسفيان بفعلة زوجته فقد نظر **الحُلَيس بن علقمة** إلى أبي سفيان وهو على فرس وبيده رمح يجأ به[٨] في شدق حمزة وهو يقول: **ذُق عَقَق**.

فاستهجن الحليس فعلته ونادى: **يا معشر بني كنانة، انظروا إلى من يزعم أنه سيد قريش، ما يصنع بابن عمه الذي قد صار لحماً.**

فقال أبو سفيان: **صدقت، إنما كانت مني زلَّة، اكتمها عليَّ**[٩].

الحليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقح الكناني كان سيد قبائل الأحابيش المحالفة لقريش، ورئيسهم يوم أُحُد. وهو ممن أرسلته قريش إلى رسول الله قبل صلح الحديبية فرجع إليهم وقال: (والذي نفس الحليس بيده لتخلّن بين محمد وما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد). لا يُعلم تاريخ وفاته.

---

(١) مكبس: مهاجم.
(٢) كتيت: صوت الأنفاس في الصدر.
(٣) أي ضعفتا.
(٤) أي اطلب ما شئت.
(٥) المسكة والخدمة: نوعان من الخلخال.
(٦) ورق: فضة.
(٧) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١٥ - ص ١٢-١٣.
(٨) وجأه باليد أو بالسكين أو بشيء: ضربه في أي موضع كان.
(٩) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٢٠- ص ٩٧.

وبعد انتهاء المعركة، جعل رسول الله ﷺ يقول: **ما فعل عمي؟ ما فعل عمي حمزة؟**

فخرج الحارث بن الصمة فأبطأ، فخرج علي بن أبي طالب.... حتى انتهى إلى الحارث ووجد حمزة مقتولاً، فأخبر النبي ﷺ فخرج النبي ﷺ يمشي حتى وقف عليه، فقال: **ما وقفتُ موقفاً قط أغيظ إليَّ من هذا الموقف!**

فطلعت صفية فقال رسول الله ﷺ: **يا زبير، أغْنِ عني أمك، وحمزة يحفر له.**

فقال: **يا أمّه، إن في الناس تكشّفاً، فارجعي.**

فقالت: **ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله ﷺ.**

فلما رأت رسول الله ﷺ قالت: **يا رسول الله، أين ابن أمي حمزة؟**

قال رسول الله ﷺ: **هو في الناس.**

قالت: **لا أرجع حتى أنظر إليه.**

قال الزبير: **فجعلت أطِدُها** [١] **إلى الأرض حتى دُفن حمزة**[٢].

وفي خبر آخر: (**أن صفية لما جاءت، حالت الأنصار بينها و بين رسول الله ﷺ فقال: دعوها، فجلست عنده، فجعلت إذا بكت يبكي رسول الله ﷺ، وإذا نَشَجت ينشج رسول الله ﷺ و جعلت فاطمة عَلَيْهَاالسَّلَامُ تبكي، فلما بكت بكى رسول الله ﷺ، ثم قال: لن أصاب بمثل حمزة أبداً. ثم قال ﷺ لصفية وفاطمة: أبشرا، أتاني جبرائيل عَلَيْهِالسَّلَامُ فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله**)[٣].

ومع مغادرة قريش لساحة المعركة نزل المسلمون بحثاً عن الجرحى والشهداء. وأمر النبي ﷺ بجمع جثامين الشهداء: (**فكان كلما أُتيَ بشهيد وُضع إلى جنب حمزة بن عبد المطلب، فصلى عليه وعلى الشهداء، حتى صلى عليه سبعين مرة، لأن الشهداء سبعون. ويقال كان يؤتى بتسعة وحمزة عاشرهم، فيُصلّي عليهم، ثم يُرفع التسعة وحمزة مكانه، ويؤتى بتسعة آخرين فيوضعون إلى جنب فيصلي عليهم، حتى فعل ذلك سبع مرات. ويُقال كبَّر عليهم تسعاً وسبعاً وخمساً**)[٤].

ومن قول سيدنا حمزة يصف شجاعته[٥]:

لَيسَ عِندي إلا سِلاحٌ ووَرْدٌ ... قَارحٌ مِن بَناتِ ذي العُقَّالِ

---

(١) أطدها: أثبتها.

(٢) الواقدي: المغازي - ج١- ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١٥- ص ١٧.

(٤) الواقدي: المغازي - ج١- ص ١١٧.

(٥) الوَرْدُ من الخيل: ما بين الكُميت «الكميت: ما كان لونه بين الأَسود والأَحمر» والأَشقر. القَارِحُ من ذي الحافر : ما استتمَّ الخامسةَ وسقطت سِنُّهُ التي تلي الرَّبَاعِيَةَ ونَبَتَ مكانَها نابُه. الجُرْشُعُ : العظيم الصدر ، وقيل الطويل.

أَتَّقِي دُونَهُ المَنَايَا بِنَفْسِي ... وَهُوَ دُونِي يَغْشَى صُدورَ العَوالي
جُرشُعٌ ما أشَابَت الحَربُ مِنه ... حِينَ تَحمِي أبطالُها لا أبَالي
فَإذا ما هَلَكْتُ كانَ تُراثِي ... وسِجالاً مَحمُودةً مِن سِجَالي

شجاعة صفية بنت عبدالمطلب:

عمة رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام، وأم الصحابي الزبير بن العوام. ولدت عام الفيل، أي سنة ٥٧٠ م، قبل الهجرة بثلاثة وخمسين عاماً. وأمها هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زُهرة، ابنة عم السيدة آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، والسيدة صفية شقيقة سيدنا حمزة بن عبد المطلب لأبيه وأمه. أسلمت مع ولدها الزبير قبل الهجرة، وكانت من أوائل المهاجرات إلى المدينة المنورة. وعاشت فيها حتى توفيت سنة ٢٠ هـ، ودفنت في البقيع.

وقد سجل لها التاريخ أكثر من موقف يدل على شجاعتها ورباطة جأشها وصلابتها في الإيمان، من ذلك ما رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية عن ابن عباس حول استشهاد أخيها حمزة[١]، قال: أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسُجّي ببُردة ثم صلى عليه، فكبّر سبع تكبيرات، ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة، فصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة. قال ابن إسحاق: وقد أقبلت - فيما بلغني - صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: **إلقها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها.**

فقال لها: **يا أمَّه، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي.**

قالت: **ولم ؟ وقد بلغني أن قد مُثّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.**

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، قال: **خلِّ سبيلها.**

فأتته، فنظرت إليه، فصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدُفن[٢].

وروى ابن إسحاق عنها أبيات من الشعر في رثاء أخيها حمزة[٣]:

أسَائِلَةٌ أصحابَ أُحدٍ مَخافَةً ... بَناتُ أبِي مِن أعْجَمٍ وخَبِيرِ
فَقالَ الخبيرُ : إنَّ حَمزَةَ قَد ثَوَى ... وَزِيرَ رَسولِ اللهِ خَيرَ وَزِيرِ
دَعَاهُ إلَهُ الحَقِّ ذو العَرشِ دَعوةً ... إلَى جَنّةٍ يَحيا بِهَا وَسُرورِ
فَذلِكَ ما كُنّا نَرجَى ونَرتَجِي ... لِحَمزَةَ يَومَ الحَشرِ خَيرَ مَصِيرِ

---

(١) وقد استعرضت بعض الروايات في ذلك في الصفحة السابقة.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية - ج ٣ - ص ٦١١ - ٦١٢.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية - ج ٣ - ص ٦٦٥. شلوي: أعضائي أو قطع اللحم من جسدي بعد وفاتي.

فَـوالله لا أنسَـاكَ مَـا هَـبَّت الصَّبا ... بُـكاءً وحُـزناً مَحضَـري ومَسـيري
عَـلى أسَـدِ الله الـذي كـانَ مَـدرَها ... يَـذودُ عَـن الإسـلام كُـلَّ كَـفورِ
فيَاليتَ شِلوي عِندَ ذَاكَ وأعظُمي ... لَـدى أضْـبُـعٍ تَـعتـادُني ونُسـورِ
أقُـولُ وقَـد أعلَـى النَّعْيُ عَشيرَتي ... جَـزى اللهُ خَـيراً مِـن أخٍ ونَصـيرَ

وقـال ابـن إسحاق في أحداث غزوة الأحزاب ـ الخندق ـ حيث خرج المسلمون لمواجهة أحزاب المشركين على الضفة الأخرى من الخندق، وقد خُليت المدينة إلا من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة وقليل من الرجال: كانت صفية بنت عبـد المطلـب في فارع، حصن حسـان بن ثابت[١]. قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه، مـع النساء والصبيان. قالت صفيـة: فمـرَّ بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصـن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عـدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانـا آت. قالـت: فقلـت: **يا حسان، إن هـذا اليهودي كما ترى يطيـف بالحصن، وإني والله ما آمنـه أن يدل على عورتنا مَن وراءنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله.**

قـال: **يغفـر الله لـك يا ابنة عبد المطلـب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا !** قالـت: فلما قال لي ذلك، ولم أرَ عنده شيئاً، احتجزت[٢]، ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته. قالت: فلما فرغت منه، رجعت إلى الحصن، فقلت: **يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سَلْبِه إلا أنه رجل.**

قال: **ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب**[٣].

۞ شجاعة أم هانيء بنت أبي طالب:

واسمهـا فاختـة أو هنـد بنـت أبـي طالـب بـن عبدالمطلـب بن هاشم، فهي بنت عـم رسول الله ﷺ وأخت الإمام علي عليه السلام.

تزوجها **هبيرة بن أبـي وهب المخزومي** وكانت في مكة تدفع عن النبـي ﷺ أذى المشركين قبل الهجرة، وتَنصُـره، وكان يصـل فيهـا رحمـه؛ فـكان يزورهـا ويطمئن عليها.

كانت تُعرَف بلقب: «مجيرة الضعفاء». أسلمت ـ أو لعلها أظهرت إسلامها ـ يوم فتح مكة، بينما فَرَّ زوجها

كان هبيرة بن أبي وهب المخزومي ممن يؤذي رسول الله قبل الهجرة، وفي فتح مكة هرب إلى اليمن أو نجران على التحديد، فمات هناك كافراً. وقد ولدت أم هانيء له ثلاثة بنين: هانيء، وجَعدة، ويوسف، وقيل أربعة بنين رابعهم عمر. وكان جَعدة من أنصار أمير المؤمنين علي، استقر في الكوفة وكان فارساً شجاعاً فقيهاً، ولما دخل الإمام علي الكوفة بعد انصرافه من حرب الجمل نزل على جعدة، وفي نهج البلاغة في الخطبة ١٨٢: (خطبنا عليّ عليه السلام وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة). ولما ضرب ابنُ ملجم الإمامَ قدَّم جعدةَ ليصلِّي بالناس الغداة. وكان والياً على خراسان من قِبَله.

(١) أي الحصن الذي كان حسان مسؤولاً عنه.
(٢) احتجزت: ربطت وسطها بالتكة وشبهها.
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ـ ج ٣ ـ ص ٧١١.

هبيرة هارباً. فلما بلغه إسلامها قال أبياتاً منها[١]:

وعــاذَلَــةٌ هــبَّتْ بـلـيـلٍ تـلـومُـنـي	وتـعـذُلُـنـي بـالـلـيـلِ، ضـلَّ ضـلالُـهـا
وتـزعُـمُ أنّي إنْ أطـعـتُ عشيرتي	سَـأردَى، وهَـل يُـردِيـنَ إلا زَوالُـهـا؟
فـإنْ كـنـتِ قـد تـابَـعْـتِ ديـنَ مُحَـمَّـد	وقـطَّـعَـتِ الأرحَـامَ مـنـكِ حِـبـالُـهـا
فـكـوني عـلَـى أعـلَـى سَـحـيـقٍ بـهَـضـبـةٍ	مُـلْـمَـلَـمَـةٍ غَـبـراءَ يُـبْـسٍ بِـلالُـهـا

أدرج علماء المسلمين اسمها في قائمة رواة الحديث عن النبي ﷺ كالشيخ الطوسي، فقد ذكرها في جملة أسماء النساء اللاتي روين عن النبي ﷺ، و كالزركلي في «الأعلام»، و قد ذكر أن عدد الأحاديث الشريفة التي روتها ستة وأربعين حديثاً. حدث عنها : ابنها جعدة، ومولاها أبو صالح باذام، وكريب مولى ابن عباس، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح، وعروة بن الزبير، وآخرون. من بين رواياتها حديث الغدير، كما روى عنها ابنها جعدة قصة هجرة النبي ﷺ و مبيت أخيها أمير المؤمنين عليه السلام في فراش النبي. تُوفيت سنة خمسين هجرية أو بعدها.

قال ابن أبي الحديد: (**وروى أهل الحديث أن أم هانيء كانت يوم الفتح[٢] في بيتها ، فدخل عليها هبيرة بن أبي وهب بعلُها، ورجلٌ من بني عمه هاربين من علي عليه السلام، وهو يتبعهما وبيده السيف، فقامت أم هانيء في وجهه دونهما، وقالت: ما تريده منهما؟ ولم تكن رأته من ثماني سنين، فدفع في صدرها، فلم تزل عن موضعها[٣]، وقالت: أتدخل يا علي بيتي وتهتك حرمتي وتقتل بَعلي ولا تستحيي مني بعد ثماني سنين؟ فقال: إن رسول الله ﷺ أهدر دمهما، فلا بد أن أقتلهما. فقبَضت على يده التي فيها السيف فدخلا بيتاً ثم خرجا منه إلى غيره ففاتاه[٤]. وجاءت أم هانيء إلى رسول الله ﷺ فوجدته يغتسل من جَفنة فيها أثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوبها، فوقفت حتى أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف فقال: مرحباً وأهلاً بأم هانيء، ما جاء بك؟ فأخبرَته خبرَ بعلها وابن عمه، ودخول علي عليه السلام بيتها بالسيف. فجاء علي عليه السلام ورسول الله ﷺ يضحك فقال له: ما صنعت بأم هانيء؟ فقال: سلها يا رسول الله ما صنعَتْ بي. والذي بعثك بالحق لقد قبضَتْ على يدي وفيها السيف فما استطعتُ أن أخلّصها إلا بعد لأي وفاتني الرجلان[٥]. فقال ﷺ: لو ولد أبو طالب الناس كلهم لكانوا شجعاناً. قد أجرنا من أجارت أم هانيء وأمّنّا من أمّنَت، فلا سبيل لك عليهما. فأما هبيرة فلم يرجع، وأما الرجل الآخر فرجع، فلم يُعرَض له**)[٦].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء - ج ٢ - ص ٣١٣ .

(٢) أي فتح مكة المكرمة عام ٨ هـ.

(٣) أي لم تتحرك من مكانها.

(٤) أي هرب الرجلان ولم يستطع الإمام أن يقتلهما.

(٥) لأي: جهد . وفاتني الرجلان: هربا مني.

(٦) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١٠ . ص ٧٧ – ٧٨ . وقد كان للمسجد الحرام أبواب في الجانب الجنوبي منه من الشرق إلى الغرب، من بينها باب أم هانيء، نسبة إليها، حيث أن دارها كانت تقع أمامه كما عرّفه الأزرقي، وقد بنى هذا الباب الخليفة العباسي المهدي عام ١٦٤هـ، وعمّره السلطان مراد خان سنة ٩٨٤هـ، وكان قد كُتبت الآيات من ١-٤ من سورة الفتح على الباب نقْراً على الحجر بخط الثُّلث البارز.

الإمام عليه السلام
يتحدث عن شجاعته

الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يتحدث عن شجاعته

لم يعرف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للجُبن معنى في شخصيته منذ نعومة أظفاره، ولم يكن له أي موقف طوال حياته المباركة ما يمكن أن يخدش في بطولاته التي لا نظير لها، ولم يسجل عليه أحد تردداً في مواجهة تستوجب الانتصار لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقوة. ولم يكن ذلك منه استجابة لرغبة ذاتية أو انقياداً لهوى نفس، بل كان وجوده كله لله عَزَّوَجَلَّ، وجهاده بالسيف والكلمة والموقف مخلصاً لوجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولاغرو، فقد قرأنا في الفصل السابق كيف عُرف بنوهاشم بالشجاعة، وخلّد لهم التاريخ مواقف يقلّ لها نظير، فعليٌّ من تلك السلالة العظيمة، وفرع تلك الدوحة الكريمة، وهو سيدها في زمانه بلا منازع.

ولعل من حق القارئ أن يسأل: إذا كان الفرد ـ كأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ قد ورث سمة الشجاعة، فعلى أي أساس يُمتدح بها ؟ ولكي نعطي هذا السؤال حقه فقد وجهناه للأستاذ الدكتور السيد حسين محمد طاهر، أستاذ علم النفس بجامعة الكويت وكلية التربية الأساسية والجامعة العربية المفتوحة، واستشاري علم النفس والعلاج السلوكي، فتفضل بالتفصيل التالي مشكوراً:

تمهيد:

من المعلوم أن السمة هي الوحدة المناسبة لوصف الشخصية، وليست السمة صفة مميزة لسلوك الفرد فقط، بل إنها استعداد أو قوة أو دافع داخل الفرد يدفع سلوكه ويوجهه بطريقة معينة، فالشخص الذي يتسم بالشجاعة يكون دائماً على استعداد للتصرف بجرأة وإقدام في جميع الظروف والمواقف، وهو يبحث عن المواقف التي يتصرف بها بشجاعة.

والسمات إما عامة أو مشتركة أو فردية، فالعامة والمشتركة هي الاستعدادات أو السمات التي يشترك بها الناس عامة بدرجات متفاوتة، ويمكن على أساسها المقارنة بين معظم الأفراد الذين يعيشون في ثقافة معينة. فسمة السيطرة مثلاً سمة عامة يمكن أن نقارن على أساسها بين الأفراد، والسمة العامة سمة متصلة وتتوزع بين الناس اعتدالياً.

أما السمة الفردية فهي الاستعدادات أو السمات الشخصية أو الخصائص السلوكية التي لا توجد لدى جميع الأفراد، وإنما تكون خاصة بفرد معين، فنقول: فلان شجاع، كريم... إلخ. وهناك سمة مركزية تسيطر على جميع أعمال الفرد وأفعاله، وغالباً ما يتصف بها الشخص في علاقاته مع الناس، كالكرم والشجاعة والطيبة والبخل والجبن... إلخ.

والسمة إما دينامية أو أسلوبية، فالدينامية توضح لماذا يسلك الفرد على هذا النحو، وتشير إلى العوامل الدافعة للنشاط، والأسلوبية توضح كيف يسلك الفرد، أي تشير إلى طريقته وأسلوبه في التعامل مع الغير. والشجاعة والمروءة من السمات أو الصفات التي يرثها الإنسان أو يكتسبها من البيئة التي يتربى فيها، وأصلها في القلب وثباته وسكونه وقوته، ولا يثبت إلا مع سلامة العقل والمزاج، وهو الاعتدال.

والقوة الغضبية هي منشأ الشجاعة، وهي مبدأ الغضب والإقدام على الأهوال والتسلط والترفع والجاه والعز، وتهذيبها يسمى شجاعة، فيقال: شجع الفرد شجاعة، أي قوي قلبُه واشتد عند البأس، فهو شجيع، وتشجّع أي تقوّى وأقدم.

۞ لماذا نمتدح الشجاع؟

بما أن سمة الشجاعة تعني الجرأة والإقدام وتقوية القلب عند البأس، وهي استعداد موروث عند الفرد، فلماذا يُمتدح بها ؟

إن المدح للشخص الذي يملك صفة الشجاعة، لا يكون على ما لديه من استعدادات وخصائص شخصية كامنة، إنما يكون على:

أ ـ دينامية السمة «الشجاعة»، أي العوامل الدافعة للنشاط

ب ـ أسلوبية السمة «المروءة ...»، أي العوامل التي تشير إلى طريقة النشاط

وهذه السمات الدينامية أو الأسلوبية تحتاج من الشخص إلى الضبط والتدريب والممارسة حتى يصبح استعداده للإقدام والجرأة ملكة. فلابد من التغلب على رهبة الموقف من خلال تكرار وضع النفس في المواقف الشدّية كي تألفها وتتعود عليها، وإن كانت لديها استعداد الإقدام.

قال رسول الله ﷺ: (**الشجاع من يملك نفسه عند الغضب**)[1].

فكم من شخص لا يتمكن من ضبط انفعالاته عند مواجهة إعاقة حاجاته الأساسية النفسية والاجتماعية، فيقع أسيراً للغضب الذي هو مفتاح الزور ورأس الآثام وداعية الأزمات والأخطار.

وقد يرجع المدح لصفة الشجاعة إلى ما ياتي:

أ ـ شخصية الفرد

ب ـ سلوك الفرد

جـ ـ تحكّم الفرد بانفعالاته

والنبي محمد ﷺ: كان أشجع الأنبياء، ووصيه علي عليه السلام كان أشجع الأوصياء، والمدح في ذلك يرجع إلى قوة

(١) النراقي: جامع السعادات، ج١، ٢٥٨.

الإيمـان والخلُـق الكريم والتقوى والتـوكل على الله والتأييد والتسديد، فكان رسـول الله ﷺ ووصيه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من أقـرب الناس إلى العدو يوم بـدر، وهذا الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يسطّر لنا سلوكاً رائعاً وتحكمـاً بالانفعال عندما تصرف بحكمـة لا نظـير لها في مواجهة ضبط غضبه «سلـوك دينامي» تجاه عمرو بن عبد وَد العامري الذي بصق في وجهه الكريم عندما أراد أن يجهز عليه، فتركه الإمام ودار حوله ثم رجع وأجهز عليه، فسئل الإمام عن ذلك فقال: (**إنه لما بصـق في وجهـي اغتضبـت منه، فخفت إن قتلتـه أن يكون للغضـب والغيظ نصيب في قتله، ومـا كنت أحب أن أقتلـه إلا خالصـاً لوجـه الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) [١].

والإنسان المؤمن يُمتدح على شجاعته لفعله الخير والعمل النافع، وتحركه تجاه الإيمان كله حركة أسلوبية، كأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج وسائر العبادات ومساعدة الملهوف والتفريج عن المكروب والصبر على البلاء والشدائد «قمة الشجاعة».

فما أعظم صبر الحسين على بلائه «قمة الشجاعة» إذ قُتل مظلوماً وعطشاناً وغريباً وصبراً... ألا يستحق الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ المدح على شجاعته ومواجهة ما قُدّر له، وأن يصبح مثالاً يُقتدى به عبر الأزمان ؟!

والإنسان المؤمن أصبح مسجوداً للملائكة بسلوكه الإيجابي الذي يكرّمه القرآن، والذي مدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسه بسببه فقال: ﴿ **فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾[٢] وهو ذلك الإنسان الذي صُوّر بالصور التالية:

١. إنه خليفة الله على سائر المخلوقات، فالخليفـة يمتدح على حسن خلقه وفعله: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٣].

٢. سجود الملائكة له: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾[٤].

٣. الهداية الخاصة والإلهام: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[٥].

٤. نعمة الاختيـار: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[٦].

٥. اشتمـاله على الصفـات الإلهيـة كالعـزة والعلـو والكرامـة: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٧]، ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ**﴾[٨].

٦. تعليم آدم الأسماء كلها مباشرة: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[٩]، ﴿**الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾[١٠].

---

(١) الريشهري: موسوعة الإمام علي بن أبي طالب – ح٤١٧٦.
(٢) سورة المؤمنون: ١٤.
(٣) سورة البقرة: ٣٠.
(٤) سورة البقرة: ٣٤.
(٥) سورة الشمس: ٨.
(٦) سورة الكهف: ٢٩.
(٧) سورة المنافقون: ٨.
(٨) سورة آل عمران : ١٣٩.
(٩) سورة آل عمران : ١٣٩.
(١٠) سورة الرحمن: ١-٢.

٧. تسخير جميع المخلوقات في السماوات والأرض لأجله ولخدمته: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[١].

٨. الميزان وإدراك العدالة وتمييز الحق من الباطل: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾[٢].

٩. قتل الإنسان: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

إن هذه الصور تدل على أن مدح الإنسان يرجع إلى فعله وسلوكه وشخصيته المميزة عن سائر المخلوقات، والتي بها ميّز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الشجاعة والجبن، وبين الحب والكراهية... وتبارك الله أحسن الخالقين.

نماذج من كلمات الإمام:

تحدث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حول شجاعته وبطولاته ومواقفه في الشدائد، وحفظ الرواة تلك النصوص، ودُوّنت مجموعة منها في الكتب، وتناقلها الناس عبر القرون. ولم يكن ذلك منه تفاخراً واستعلاءً على الناس، وهو الذي لم يعرف الكبر طريقاً إلى قلبه، وإنما اضطر عليه السلام للخوض فيها دفاعاً عن نفسه وبياناً للحقيقة ودرءً للشبهات وكشفاً للزيف ورداً على المعتدين وسعياً لإحقاق الحق الذي يدور معه أينما دار.

وفيما يلي نماذج من كلماته عليه السلام الزاخرة بالفتوة والعنفوان ورباطة الجأش وشدة البأس وسمو الروح:

*** ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله[٤]، أني لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة قط[٥]، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخر الأقدام، نجدةً[٦] أكرمني الله بها. ولقد قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّ رأسه لعلى صدري، ولقد سالت نفسه في كفي، فأمررتها على وجهي. ولقد وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعواني، فضجَّت الدار والأفنية: ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة[٧] منهم، يصلون عليه، حتى واريناه في ضريحه، فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً ! فانفذوا على بصائركم، ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم، فوالذي لا إله إلا هو إني لعلى جادة الحق، وإنهم لعلى مزلة الباطل. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم**[٨].

قال ابن أبي الحديد تعليقاً على قول الإمام ولقد واسيته بنفسي: (**وهذا مما اختص عليه السلام بفضيلته غير مدافع،**

---

(١) سورة الجاثية: ١٣.
(٢) سورة الرحمن: ٨.
(٣) سورة المائدة: ٣٢.
(٤) لعله يعنى به العلماء والفضلاء من الصحابة ، لأنهم استحفظوا الكتاب ، أي كلفوا حفظة وحراسته .
(٥) هذا القول منه تعريض بالبعض الذين رفضوا أحياناً أوامر النبي لا سيما في المواضع الحساسة .
(٦) النجدة: الشجاعة.
(٧) الهينمة: الصوت الخفي.
(٨) الرضي : نهج البلاغة ـ الخطبة ١٩٧ ـ ص ٣١١ – ٣١٢.

ثبت معه يوم أحد وفرّ الناس، وثبت معه يوم حنين وفرّ الناس، وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحها، وفرّ من كان بعث بها من قبله. وروى المحدثون أن رسول الله ﷺ لما ارتثّ [١] يوم أحُد، قال الناس: قُتل محمد، رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلا أنه حي، فصمدت له. فقال لعلي عليه السلام: اكفني هذه. فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة أخرى، فقال: يا علي اكفني هذه. فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة ثالثة، فكذلك، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يامحمد إن هذه للمواساة. فقلت: وما يمنعه وهو مني وأنا منه ؟ فقال جبريل: وأنا منكما. وروى المحدثون أيضاً أن المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي. فقال رسول الله ﷺ لمن حضره: ألا تسمعون ؟! هذا صوت جبريل. وأما يوم حنين فثبت معه في نفر يسير من بني هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامى عنه، وقتل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابت إليه [٢] الأنصار ، وانهزمت هوازن وغنمت أموالها. وأما يوم خيبر فقصته مشهورة) [٣].

* قال الإمام عليه السلام في كتاب كتبه لواليه على البصرة الصحابي عثمان بن حنيف الأنصاري يصف في مقطع منه أسباب شجاعته وقوته الجسدية على الرغم من قلة طعامه وشرابه، ويبدو أنه كتبه بعد حرب الجمل قبل صفين: **ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى [٤] ؟ أو أكون كما قال القائل:**

وَحَسْبُكَ داءً أنْ تَبِيتَ بِبِطنَةٍ ... وَحَولَكَ أكبَادٌ تَحِنُّ إلَى القِدِّ

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش [٥]. فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همُّها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها [٦]، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها. أو أترك سدى أو أهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة، أو أعتسف [٧] طريق المتاهة. وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوتُ ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان. ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً والرواتع الخضرة أرق جلوداً والنابتات العذية [٨] أقوى وقوداً وأبطأ خموداً. وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء والذراع من العضد. والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ولو أمكنت الفرص

---

(١) ارتث: حُمل من المعركة جريحاً وفيه رمق.

(٢) ثابت: رجعت.

(٣) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١٠ ـ ص ١٨١ – ١٨٢.

(٤) غرثى: جائعة . وحرى: مؤنث حران أي عطشان.

(٥) جشوبة العيش: خشونته.

(٦) التقمم: التقاط القمامة.

(٧) الاعتساف: ركوب الطريق على غير قصد.

(٨) النباتات العذية: الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر وهو يكون أقل أخذاً من الماء من النبت سقيا.

من رقابها لسارعت إليها، وسأجهد في أن أطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس[١] حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد[٢].

وقد علق ابن أبي الحديد قائلاً: فما الفائدة في قوله: ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت إليها ؟ وهل هذا مما يفخر به الرؤساء ويعدونه منقبة؟ وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز وعفا ! قلت: غرضه أن يقرر في نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حق وأن حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله ﷺ، وأن من يجاهد الكفار يجب عليه أن يغلظ عليهم ويستأصل شأفتهم. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما جاهد بني قريظة وظفر لم يبق ولم يعف وحصد في يوم واحد رقاب ألف انسان صبراً في مقام واحد، لما علم في ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين. فالعفو له مقام والانتقام له مقام[٣].

* ونُقل عنه عليه السلام أنه أنشد أبياتاً في بيان شجاعته[٤]:

أنَا الصَّقْرُ الذي حَدَّثَتْ عَنهُ ... عِتاقُ الطَّيرِ تَنجَذِلُ انجِذالا
وَقَاسَيْتُ الحُروبَ أنا ابنُ سَبُع ... فَلَمَّا شِبْتُ أفنَيْتُ الرِّجَالا
فَلَمْ تَدَعْ السُّيُوفُ لنَا عَدواً ... وَلَمْ يَدَع السَّخاءُ لَدَيَّ مَالا

* وهكذا نُقل عنه عليه السلام أنه قال[٥]:

صَيدُ المُلُوكِ أرَانِبٌ وثَعَالِبُ ... وإذا رَكِبْتُ فَصَيدي الأبطَالُ
صَيْدِي الفَوارِسُ في اللِّقاءِ وإنَّني ... عِندَ الوَغَا لَغَضَنْفَرٌ قَتّالُ

* روى الشريف الرضي خطبة طويلة ذات مفاهيم وأخبار كثيرة، وذكر أن من الناس من يسمي هذه الخطبة بالقاصعة[٦].

وأولها: الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على

السيد محمد بن الحسين بن موسى العلوي الحسيني الموسوي، ويلقب بالشريف الرضي (٣٥٩ هـ - ٤٠٦ هـ). فقيه وأديب وشاعر. ولد في بغداد وتوفي فيها. عمل نقيباً للطالبيين حتى وفاته. حفظ القرآن بعد أن تجاوز الثلاثين سنة في مدة يسيرة. له كتب عدة منها «مجاز القرآن» و«المجازات النبوية» و «خصائص أمير المؤمنين الإمام علي» وأشهرها «نهج البلاغة».

(١) المعكوس: هنا بمعنى الذي يخالف ويعاكس الحق ، والمركوس: المقلوب . ويقصد معاوية .
(٢) الرضي : نهج البلاغة. الكتاب ٤٥. ص ٤١٧ – ٤١٨ . وقوله : حتى تخرج المدرة ...إلخ أي حتى يتطهر الدين وأهله منه ، فشبه معاوية بالمدر ونحوه، وشبه الدين بالحب الذي هو ثمرة الزرع.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٤١.
(٤) المجلسي : بحار الأنوار. ج ٣٤. ص ٤٣٣ . عتاق الطير: الجوارح منها. والانجذال: السقوط من طعنة أو ضربة .
(٥) المجلسي : بحار الأنوار. ج ٣٤. ص ٤٣٤ .
(٦) وفي نسخة من النهج سماها بالقاصعة مباشرة.

من نازعه فيهما من عباده. ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين؛ ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[١] اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدوّ الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل[٢].

وقد أعطى ابن أبي الحديد عدة تفسيرات لمناسبة هذا الاسم الذي ارتبط بهذه الخطبة، والتي ألقاها الإمام بعد فراغه من معركة النهروان، فقال: يجوز أن تسمى هذه الخطبة القاصعة من قولهم قصعت الناقة بجرَّتها[٣]، وهو أن تردها إلى جوفها، أو تخرجها من جوفها فتملأ فاها، فلما كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مرددة من أولها إلى آخرها، شبهها بالناقة التي تقصع الجرة. ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبية، من قولهم قصعت القملة، إذا هشمتها وقتلتها. ويجوز أن تسمى القاصعة لأن المستمع لها المعتبر بها يذهب كبره ونخوته فيكون من قولهم قصع الماء عطشه، أي أذهبه وسكنه[٤].

* ومما جاء في الخطبة القاصعة أيضاً: أنا وضعت بكلاكل العرب[٥] ، وكسرت نواجم[٦] قرون ربيعة ومضر. وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسُّني جسدَه، ويُشِمُّني عَرفَه[٧]، وكان يمضغ الشئ ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة[٨] في فعل . ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه عَلَماً، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه، ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة. ولقد سمعت رنَّة[٩] الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ ، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنَّة ؟ فقال: هذا الشيطان، قد أيِس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير، وإنك لعلى خير[١٠].

---

(١) سورة ص: ٧١-٧٤.

(٢) الرضي : نهج البلاغة . الخطبة ١٩٢.

(٣) الجرة: ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج ١٣ . ص ١٢٨ .

(٥) الكلاكل: الصدور ، الواحد كلكل ، والمعنى : إنى أذللتهم وصرعتهم إلى الأرض .

(٦) نواجم ، جمع نجم: ما ظهر من قرون ربيعة ومضر ، وعلا قدره ، وطار صيته.

(٧) العرف: الريح الطيبة.

(٨) الخطلة في الفعل: الخطأ فيه ، وإيقاعه على غير وجهه.

(٩) الرنة: الصوت والصرخة.

(١٠) الرضي : نهج البلاغة . الخطبة ١٩٢.

قال ابن أبي الحديد معلقاً على هذا المقطع من الخطبة: ذِكر ما كان من صلة علي برسول الله في صغره، والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله ﷺ دون غيره من الأعمام، كونه رباه في حجره، ثم حامى عنه ونصره عند إظهار الدعوة دون غيره من بني هاشم، ثم ما كان بينهما من المصاهرة التي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار. ونحن نذكر ما ذكره أرباب السير من معاني هذا الفصل: روى الطبري في تاريخه، قال حدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة، قال حدثني محمد ابن إسحاق، قال حدثني عبد الله بن نجيح، عن مجاهد، قال كان من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس - وكان من أيسر بني هاشم -: **يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا، فلنخفّف عنه من عياله، آخذ من بيته واحداً، وتأخذ واحداً، فنكفيهما عنه.**

فقال العباس: **نعم.**

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: **إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه.**

فقال لهما: **إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما.**

فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمَّه إليه، وأخذ العباس جعفراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فضمه إليه، فلم يزل علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فأقرَّ به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه. قال الطبري: وحدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة، قال حدثنا محمد بن إسحاق، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي ابن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ مستخفياً من عمه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا. ثم إن أباطالب عثر عليهما وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: **يا بن أخي، ما هذا الذي أراك تدين به؟**

قال: **يا عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم. أو كما قال. بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه. أو كما قال..**

فقال أبو طالب: **يا بن أخي، إنى لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي**[1]**، وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك شئ تكرهه ما بقيت.**

قال الطبري: وقد روى هؤلاء المذكورون أن أبا طالب قال لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يا بني، ما هذا الذي أنت عليه؟**

فقال: **يا أبتِ، إنى آمنت بالله وبرسوله، وصدّقته بما جاء به، وصليت لله معه.**

قال: فزعموا أنه قال له: **أما إنه لا يدعو إلا إلى خير، فالزمه.**

وروى الطبري في تاريخه أيضاً قال: حدثنا أحمد بن الحسين الترمذي، قال حدثنا عبد الله بن موسى، قال أخبرنا

(١) أقول: وهل كان دين أبي طالب وآبائه سوى التوحيد ؟!

العلاء، عن المنهال بن عمر، وعن عبد الله بن عبد الله، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: **أنا عبد الله، وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لايقولها بعدي إلا كاذب مفتر، صليت قبل الناس بسبع سنين.**

وفى غير رواية الطبري: **أنا الصديق الأكبر وأنا الفاروق الأول، أسلمت قبل إسلام أبى بكر، وصليت قبل صلاته بسبع سنين.**

وروى الفضل بن عباس رضي الله عنه قال: **سألت أبي عن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله الذكور، أيهم كان رسول الله صلى الله عليه وآله له أشد حباً؟**

فقال: **علي بن أبي طالب** عليه السلام.

فقلت له: **سألتك عن بنيه !**

فقال: **إنه كان أحب إليه من بنيه جميعاً وأرأف، ما رأيناه زايله[١] يوماً من الدهر منذ كان طفلاً ، إلا أن يكون في سفر لخديجة، وما رأينا أباً أبرّ بابن منه لعلي، ولا ابناً أطوع لأب من علي له.**

وروى الحسين بن زيد بن علي بن الحسين، قال: سمعت زيداً أبي عليه السلام يقول: **كان رسول الله يمضغ اللحمة والتمرة حتى تلين، ويجعلهما في فم علي** عليه السلام **وهو صغير في حِجره..... .**

وأما حديث أن الإسلام لم يجتمع عليه بيتٌ واحدٌ يومئذ إلا النبي وهو عليهما السلام وخديجة، فخبر عفيف الكندي مشهور، وقد ذكرناه من قبل، حيث أن أبا طالب قال له: **أتدري من هذا ؟**

قال: **لا.**

قال: **هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وهذا ابني علي بن أبي طالب، وهذه المرأة خلفهما خديجة بنت خويلد، زوجة محمد ابن أخي، وأيم الله ما أعلم على الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.**

وأما رنة الشيطان، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مسنده، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله صبيحة الليلة التي أسرى به فيها، وهو بالحِجر يصلي، فلما قضى صلاته، وقضيت صلاتي، سمعت رنة شديدة، فقلت: **يا رسول الله، ما هذه الرنة ؟**

قال: **ألا تعلم؟ هذه رنة الشيطان، علم أني أسري بي الليلة إلى السماء، فأيس من أن يُعبد في هذه الأرض.**

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله ما يشابه هذا، لما بايعه الأنصار السبعون ليلة العقبة سمع من العقبة صوت عال في جوف الليل: **يا أهل مكة، هذا مُذمَّم، والصباة معه[٢]، قد أجمعوا على حربكم.**

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار: **ألا تسمعون ما يقول؟ هذا أزب العقبة[٣]**. يعنى شيطانها ـ وقد روي: أزبب العقبة ـ . ثم التفت إليه فقال: **استمع يا عدو الله ، أما والله لأفرغن لك.**

---

(١) زايل: فارق.

(٢) مذمم: أي النبي محمد، لأنه كان يذم آلهتهم. والصباة: أي المسلمون.

(٣) أزب: لئيم . و أزبب : ألأم.

وروي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: **كان علي عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال له صلى الله عليه وآله: لولا أنى خاتم الأنبياء لكنتَ شريكاً في النبوة، فإن لا تكن نبياً فإنك وصى نبي ووارثه، بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء.**

وأما خبر الوزارة، فقد ذكره الطبري في تاريخه عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[١] على رسول الله صلى الله عليه وآله دعاني، فقال: **يا علي، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً، وعلمت أنى متى أنادهم بهذا الأمر أرَ منهم ما أكره، فصمت[٢] حتى جاءني جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، إنك إن لم تفعل ما أمرت به يعذبك ربك. فاصنع لنا صاعاً من طعام[٣]، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عسّاً من لبن، ثم اجمع بنى عبد المطلب حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرت به.**

ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب، فلما اجتمعوا إليه دعا بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله صلى الله عليه وآله بضعة من اللحم فشقّها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال: **كلوا باسم الله.**

فأكلوا حتى ما لهم إلى شئ من حاجة، وأيم الله الذي نفسُ علي بيده، إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمته لجميعهم. ثم قال: **اسقِ القوم يا علي.**

فجئتهم بذلك العس فشربوا منه، حتى رووا جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكلمهم، بدَرَه أبو لهب إلى الكلام، فقال: **لشدّ ما سحركم صاحبكم.**

فتفرق القوم، ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال من الغد: **يا علي، إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول، فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فعد لنا اليوم إلى مثل ما صنعت بالأمس، ثم اجمعهم لي.**

ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام، فقرّبته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى مالهم بشئ حاجة، ثم قال: **اسقهم.**

فجئتهم بذلك العس، فشربوا منه جميعاً، حتى رووا، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: **يا بنى عبد المطلب، إنى والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟**

فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت: **أنا** ـ وإني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً[٤]، وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً[٥]. **أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه.**

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٢) صمت: لم أنفذ الأمر بالإنذار.

(٣) هذا كلام النبي لعلي.

(٤) الرمص في العين = كالغمص، وهو قذى تلفظ به، كناية عن صغر سنه.

(٥) حمش الساقين: رفيعهما.

فأعاد القول، فأمسكوا وأعدت ما قلت، فأخذ برقبتي، ثم قال لهم: **هذا أخي ووصيي و خليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.**

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: **قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.**

ويدل على أنه وزير رسول الله ﷺ من نص الكتاب والسنَّة قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾[١] .

وقال النبي ﷺ في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام: **أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.** فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى، فإذن هو وزير رسول الله ﷺ، وشادّ أزره، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكاً في أمره[٢].

* ومن أقواله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أنا قاتل الأقران، ومجدّل الشجعان**[٣]. **أنا الذي فقأت عين الشرك، وثللت عرشه**[٤]، **غير ممتن على الله بجهادي، ولا مدل**[٥] **إليه بطاعتي ، ولكن أحدّث بنعمة ربي**[٦].

* وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إني والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض**[٧] **كلها ما باليت، ولا استوحشت**[٨].

* وعن محمد ابن الحنفية ـ في وقعة الجمل ـ : ودعا علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بدرعه البتراء، ولم يلبسها بعد النبي ﷺ إلا يومئذ، فكان بين كتفيه منها وهن، فجاء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي يده شسع نعل. فقال له ابن عباس: **ما تريد بهذا الشسع يا أمير المؤمنين ؟**

فقال: **أربط بها ما قد تهي**[٩] **من هذا الدرع من خلفي .**

فقال ابن عباس: **أفي مثل هذا اليوم تلبس مثل هذا ؟!**

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **ولم ؟**

قال: **أخاف عليك.**

فقال: **لا تخف أن أؤتى من ورائي، والله يا بن عباس ما وليت في زحف قط** [١٠].

---

(١) سورة طه: ٢٩ – ٣٢.
(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١٣ ـ ص ١٩٨ – ٢١١.
(٣) جدله: صرعه وقتله.
(٤) ثللت عرشه: ضعضعته.
(٥) مدل: متجرئ بسبب مقام قرب منه أراه في نفسي.
(٦) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٢٠ ـ الحكمة ٣٨٤ ـ ص ٢٩٦.
(٧) طلاع الأرض: ملؤها.
(٨) الرضي : نهج البلاغة ـ الكتاب ٦٢ .
(٩) تهي: بلي.
(١٠) المحمودي : نهج السعادة ـ ج ١ ـ ص ٣١٢.

* قيل له: **ألا تركب الخيل وطلابك كثير؟ فقال: الخيل للطلب والهرب، ولست أطلب مدبراً، ولا أنصرف عن مُقبل**[١].

* وعن الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال : **حدثتني امرأة منا قالت: رأيت الأشعث ابن قيس دخل على علي** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فأغلظ له عليٌّ، فعرض له الأشعث بأن يفتك به. فقال له علي** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أبالموت تهددني ؟! فوالله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت عليَّ**[٢] .

* وقيل له: **لم لا تشتري فرساً عتيقاً**[٣]**؟ قال: لا حاجة لي فيه؛ فأنا لا أفر ممن كرّ علي، ولا أكرّ على مَن فرَّ مني**[٤].

* وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إني لم أفر من الزحف قط، ولم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه**[٥].

* وقيل له في بعض حروبه: **إن جالت الخيل فأين نطلبك ؟ قال: حيث تركتموني**[٦] .

* وروي أنه كانت درع علي عَلَيْهِ السَّلَامُ صدراً لا ظهر لها، فقيل له في ذلك. فقال: **إذا استمكن عدوي من ظهري فلا يبقى**، وروي أنه أجاب بـ : **إن ولّيت فلا وألت**[٧].

۞ الإمام يبين أسباب انتصاراته :

بيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أسباب انتصاراته وبطولاته في كلمات متعددة، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١. عقيدته في الموت والقضاء والقدر:

كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ شديد اليقين، مؤمناً بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، مطمئناً إلى إرادته، مسلماً أمره إليه، الأمر الذي حقّق له الثبات والقوة والرسوخ والطمأنينة التامة في المواقف الشديدة، فلم يفزع ولم يجبن ولم يهرب، بل كان على طول الخط بطلاً مقداماً شجاعاً. الإنسان عندما يعيش العمق الحقيقي للإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ والثقة به، وينطلق في حياته من موقع التوكّل عليه والتصديق بوعده الأخروي بالحساب والثواب والعقاب، وبالوعد الدنيوي بأنه ينصر أولياءه ويجعل الغلبة لهم في نهاية المطاف وفي الامتداد التاريخي، ويستحضر الموت كحقيقة ثابتة لا فرار منها، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ما يقدّمه الإنسان في هذه الحياة هو الذي يحدد مصيره في عالم الآخرة، فإنه سيمتلك مستويً عال من الشجاعة في مواجهة التحديات والظروف المختلفة.

---

(١) ابن شهراشوب : مناقب آل أبي طالب. ج ٣. ص ٢٨٤.
(٢) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين. ص ٢١.
(٣) فرساً عتيقاً: أصيلاً.
(٤) الصدوق : الأمالي. ص ٢٣٤.
(٥) الصدوق : الخصال. ص ٥٨٠.
(٦) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٢٠. ص ٢٨٤.
(٧) ابن قتيبة : عيون الأخبار. ج ١. ص ١٣١ ابن شهراشوب : مناقب آل أبي طالب. ج ٣. ص ٢٩٨ ، فلا وألت: فلا نجوت.

إن المعارف الإيمانية المتعلقة بما جاء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حول الحقائق السابقة كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١] وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٢] وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣] وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤] وفي قوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا، قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا، قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[٥] كل هذه المعارف كفيلة بأن ترفع مستوى الشجاعة لدى الإنسان، فلا يذوق طعم الذلّة والمهانة والضعف، ولا يتردّد أو يخاف أمام الحوادث الصعبة، ولا يتزلزل أمام التحدّيات، ولا يهاب أحداً من الأعداء، لأنه يرى أن قدراتهم محدودة ولا تعادل شيئاً أمام قدرة الله المطلقة، وأن نتائج مثل هذه المواجهة ـ مهما كانت ـ فإنها ستبقى في عين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إن ضعف الإيمان وسوء الظن بالله واختلال المفاهيم المتعلقة بالحياة والموت، والمبدأ والمعاد من أهم أسباب الجبن وضعف الإنسان وعجزه عن مواجهة الصعاب والتحدّيات المختلفة، لذا فإننا نرى مثل هذا الإنسان عادةً ما يلجأ إلى التذرّع بالأعذار الواهية هرباً من المسؤوليات أو الواجبات المطلوبة منه في المواقف العصيبة، وهذا ما عبّر عنه الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: (**شدّة الجبن من عجز النفس وضعف اليقين**)[٦]، وكما جاء أيضاً في حديث الإمام محمد الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث قال: (**لا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحيحاً**)[٧].

والشواهد التاريخية على توافر الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ على هذا العمق الإيماني المؤثر في اتجاه تحقيق المستوى الرفيع من الشجاعة الميدانية كثيرة، من بينها:

* ماورواه **نصر بن مزاحم المنقري** أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج يوماً من أيام صفين، وفي يده عنزة[٨]، فمرّ على

نصر بن مزاحم العطار المنقري (ت٢١٢ هـ)، العراقي، مؤرخ عدّه الشيخ الطوسي في أصحاب الإمام الباقر. التحق في أواخر حياته بثورة أبي السرايا ضدّ الحكم العباسي فولّاه على السّوق. له مجموعة من المصنّفات منها: وقعة صفين، الجمل، الغارات، مقتل حجر بن عدي، مقتل الحسين بن علي.

(١) سورة المجادلة: ٢١.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٠.
(٣) سورة محمد: ٧.
(٤) سورة الجمعة: ٨.
(٥) سورة الأحزاب: ١٣-١٧.
(٦) الآمدي: غرر الحكم - ص٢٦٣.
(٧) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٧٢ - ص ٣٠١.
(٨) عنزة: رمح صغير.

سعيد بن قيس الهمداني، فقال له سعيد: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوك؟ فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنه ليس من أحد إلا وعليه من الله حفظةٌ [١] يحفظونه من أن يتردّى في قليب، أو يخرّ عليه حائط، أو تصيبه آفة. فإذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه[٢].

سعيد بن قيس بن زيد الهمداني (ت ٤٥ هـ)، كان من عليَة هَمْدان وكبرائها، ومن سلالة ملوكها، وكان رجلاً صالحاً عابداً شجاعاً ومن المحاربين الأشداء ذوي البصيرة في الحرب والخطط العسكرية الميدانية. شهد مع الإمام علي معركتي الجمل وصفين كأحد القادة الذين اعتمد عليهم مع مالك الأشتر وقيس بن سعد، كما كان من قادة جيش الإمام الحسن المخلصين.

ومن كلام له عَلَيْهِ السَّلَامُ قاله لأصحابه في ساعة الحرب: وأي امرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأى من أحد من إخوانه فشلاً [٣]، فليذبّ عن أخيه بفضل نجدته[٤] التي فضل بها عليه ، كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله. إن الموت طالبٌ حثيث لا يفوته المقيم، ولا يُعجزه الهارب. إن أكرم الموت القتل، والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربةٍ بالسيف أهون عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله[٥].

ولابن أبي الحديد تعليق على الكلمات السابقة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال: (واعلم أنه ﷺ أقسم أن القتل أهون من الموت حتف الأنف، وذلك على مقتضى ما منحه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من الشجاعة الخارقة لعادة البشر، وهو ﷺ يحاول أن يحض أصحابه، ويحرّضهم ليجعل طباعهم مناسبة لطباعه، وإقدامهم على الحرب مماثلاً لإقدامه، على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم. وهيهات ! إنما هو كما قال أبو الطيب[٦]:

يُكَلِّفُ سَيفُ الدَولَةِ الجَيشَ هَمَّهُ ... وَقَد عَجَزَت عَنهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ

وَيَطلُبُ عِندَ الناسِ ما عِندَ نَفسِهِ ... وَذَلِكَ مالا تَدَّعيهِ الضَراغِمُ

ليست النفوس كلها من جوهر واحد، ولا الطباع والأمزجة كلها من نوع واحد، وهذه خاصية توجد لمن يصطفيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من عباده، في الأوقات المتطاولة، والدهور المتباعدة، وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان، فإن التواريخ من قبل الطوفان مجهولة، عندنا إن أحداً أعطي من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها، من التّرك والفرس والعرب والروم وغيرهم. والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم، والموت على الحياة، والموت الذي كان يطلبه ويؤثره، إنما هو القتل بالسيف، لا الموت على الفراش، كما قال الشاعر:

---

(١) الحفظة هنا هم الملائكة.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٥. ص ١٩٩ .

(٣) الفشل: الجبن.

(٤) يذب : يدافع . النجدة: الشجاعة.

(٥) الرضي : نهج البلاغة. الخطبة ١٢٣. ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٦) معنى كلمة «الخضارم» التي سترد في البيت التالي، جمع خضرم: العظيم الكبير.

لَـو لَمْ يَمُـتْ بَـينَ أطْـرافِ الـرِّمَـاحِ إذاً ... لَـمَـاتَ إذْ لَمْ يَمُـتْ مِـنْ شِـدَّةِ الحُـزْنِ

وكما قال الآخر:

يَـسْـتَـعْـذِبُـونَ مَـنـايـاهُـم كَـأنَّـهُـم ... لا يَـيْـأسُـون مِـن الـدُّنـيـا إذَا قُـتِـلوا

فإن قلت: فما قولك فيما أقسم عليه: هل ألف ضربة بالسيف أهون ألماً على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة، أم هذا قولٌ قالَه على سبيل المبالغة والتجوز، ترغيباً لأصحابه في الجهاد ؟ قلت: الحالف يحلف على أحد أمرين: أحدهما أن يحلف على ظنه واعتقاده، نحو أن يحلف أن زيداً في الدار، أنا حالف ومقسم على أنى أظن أن زيداً في الدار، أو أنى أعتقد كون زيد في الدار. والثاني أن يحلف لا على ظنه، بل يحلف على نفس الأمر في الخارج. فإن حمَلنا قَسَم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على المحمل الأول، فقد اندفع السؤال، لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كان يعتقد ذلك، فحلَف أنه يعتقد وأنه يظن ذلك، وهذا لا كلام فيه. وإن حملناه على الثاني فالأمر في الحقيقة يختلف، لأن المقتول بسيف صارم معجّل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة ما يجده الميت دون النزع من المد والكف. نعم، قد يجد المقتول قبل الضربة ألم التوقع لها، وليس كلامنا في ذلك، بل في ألم الضربة نفسها، وألف سيف صارم مثل سيفٍ واحد، إذا فرضنا سرعة الزهوق. وأما في غير هذه الصورة، نحو أن يكون السيف كالاً، وتتكرر الضرباتً به، والحياة باقية بعد، وقايسنا بينه وبين ميت يموت حتف أنفه موتاً سريعاً، إما بوقوف القوة الغاذية كما يموت الشيوخ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة، ويبقى العقل والذهن، إلى وقت الموت، فإن الموت هاهنا أهون وأقل ألماً. فالواجب أن يحُمل كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إما على جهة التحريض، فيكون قد بالغ كعادة العرب، والخطباء في المبالغات المجازية، وإما أن يكون أقسم على أنه يعتقد ذلك، وهو صادق فيما أقسم، لأنه هكذا كان يعتقد بناء على ما هو مركوز في طبعه من محبة القتال، وكراهية الموت على الفراش. وقد روي أنه قيل لأبي مسلم الخراساني: إن في بعض الكتب المنزَلة: من قَتل بالسيف فبالسيف يُقتل. فقال: القتلُ أحبّ إليّ من اختلاف الأطباء، والنظر في الماء، ومقاساة الدواء والداء. فذُكر ذلك للمنصور بعد قتل أبي مسلم فقال: قد أبلغناه محبته[١].

* وفي كتاب العقد الفريد[٢]: كان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول:

أيُّ يَـومَـي مِـن المـوتِ أفِـر ... يَـومٌ لا يُـقـدّرُ أو يـومٌ قُـدِّر

يَـومٌ لا يُـقَـدَّرُ لا أرْهَـبُـه ... ومِـن المـقْـدُورِ لا يُـنـجِـي الحَـذَر

* وروى الشريف الرضي كلمة للإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قالها حين حذّره البعض من الاغتيال، فقال: وإن عليَّ من الله جُنّة [٣] حصينة، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتني، فحينئذ لا يطيش السهم، ولا يبرأ الكَلِم[٤].

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٧ ـ ص ٣٠١ – ٣٠٢.

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ـ ج ١ ـ ص ١٠٠.

(٣) الجنة: الدرع وما يجن به ، أي يستتر من ترس وغيره.

(٤) الرضي: نهج البلاغة ـ الخطبة ٦٢ ـ ص ٩٤ ، لا يبرأ: لا يشفى . الكلم: الجرح.

٢ . هيبته:

من يتق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يكون أمام ناظريه إلا رضاه، وفي قلبه إلا محبته، وفي عمله إلا طاعته، فإن مثل هذا الإنسان يتجلل ببهاء الإيمان، وتعلوه سيماء الصالحين، وتملأ هيبته قلوب الناس، وهكذا كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكانت لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ في القلوب هيبة عظيمة، ليست كهيبة الناس من الحكام، بل كانت هيبة إيمانية تنبع من حقيقة شأن علي عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومقامه الرفيع. وقد حفظ لنا التاريخ مشاهد تؤكد هذه الحقيقة التي لا يعتريها ريب، من بينها:

* عن النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنه قال: **من أراد أن ينظر إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في علمه، وإلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تقواه، وإلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في حلمه، وإلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في هيبته، وإلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في عبادته، فلينظر إلى علي بن أبي طالب**[١].

* قال معاوية **لقيس بن سعد: رحم الله أبا حسن، فلقد كان هشّاً بشّاً ذا فكاهة.**

قال قيس: **نعم، كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يمزح ويبتسم إلى أصحابه، وأراك تسر حسواً في ارتغاء**[٢]**، وتعيبه بذلك ! أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسَّه الطوي**[٣]**. تلك هيبة التقوى، وليس كما يهابك طغام**[٤] **أهل الشام**[٥].

قيس بن سعد بن عبادة الساعدي الخزرجي (ت٦٠هـ)، صحابي جليل، كان أبوه سيد الخزرج، وقد ربّاه منذ الصغر على الشجاعة والكرم، حتى صار يُضرب به المثل في جوده وكرمه. كان للنبي بمثابة صاحب الشرطة. يعد قيس من كبار شيعة الإمام علي، وشارك في معاركه، كما ثبت مع الإمام الحسن ولام الخاذلين له. روي أنه هاجر إلى «تفليس» وهي عاصمة « جمهورية جورجيا» وبها توفي.

* وقيل في هيبته[٦]:

ذاكَ الفَتَى النَّجدُ الذي إذا بَدَا ... بِمَعْرَكٍ أَلْقَتْ لَه فِتْيَانَه

لَيْثٌ لَو اللَّيثُ الجَرِي خَالَهُ ... أَطَارَ مِن هَيبَتِه جَنَانَه

ذَاكَ الشُّجاعُ إذ بَدا بِمَعرَكٍ ... تَفَرَّقَتْ مِن خَوفِهِ شُجْعَانَه

* ولما قيل لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: **بأي شئ غلبت الأقران ؟**

قال: **ما لقيت أحداً إلا أعانني على نفسه.**

قال الشريف الرضي: **يومئ بذلك إلى تمكّن هيبته في القلوب.**

وقال ابن أبي الحديد معلقاً: **قالت الحكماء: الوهم مؤثر، وهذا حق، لأن المريض إذا تقرر في وهمه أن مرضه**

---

(١) كاشف الغطاء : كشف الغطاء . ج ١ . ص ١٣.
(٢) مثل يقال لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره .
(٣) أي أهيب من أسد جائع.
(٤) الطغام: الأراذل.
(٥) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج ١ ص ٢٦ . الطغام: الأراذل.
(٦) ابن شهراشوب : مناقب آل أبي طالب . ج ١ . ص ٣٦٢.

قاتل له ربما هلك بالوهم، وكذلك من تلسبه الحية[١]، ويقع في خياله أنها قاتلته، فإنه لا يكاد يسلم منها. وقد ضربوا لذلك مثالاً، الماشي على جذع معترض على مهواة[٢]، فإن وهمه وتخيّله السقوط يقتضى سقوطه، وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المهواة كمشيه عليه وهو ملقى على الأرض، لا فرق بينهما إلا الوهم والخوف والإشفاق والحذر. فكذلك الذين بارزوا علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأقران، لما كان قد طار صيته[٣]، واجتمعت الكلمة إنه ما بارزه أحد إلا كان المقتول، غلب الوهم عليهم، فقصرت أنفسهم عن مقاومته، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته، وكان هو في الغاية القصوى من الشجاعة والإقدام، فيقتحم عليهم ويقتلهم[٤].

٣. المدد الإلهي:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[٥] فالله لا يتخلى عن عبده المتقي، بل يفتح له آفاق الرحمة، ويزرع في قلبه الأمل، ويفيض عليه من القوة والصبر وأسباب التحمل والاستقامة ما يمكّنه من تجاوز المحنة أو قهر العدو أو تحقيق أهدافه. وقد يتأخر المدد الإلهي لحكمة سماوية تتمثل في اختبار الإنسان أو الأمة، أو لهدف تربوي،

(١) تلسبه: تلذغه.
(٢) مهواة: شق بين جبلين.
(٣) طار صيته: انتشر خبر شجاعته
(٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١٩ . ص ٢٢٦ – ٢٢٧.
(٥) سورة الطلاق: ٢.

ولكن تبقى الحقيقة القائمة هي أن الله لا ينسى عبده ولا يخذله. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

ولقد برز أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المواقف المختلفة لنصرة الإسلام ونبيه، فما وهن وما استكان، ولذا كان المدد الإلهي حليفه في المواقف الحاسمة، وناصره في المواجهات الصعبة، كما عبّر في إحداها حيث قال: **والله ما قلعت باب خيبر، ودكدكت[٣] حصن يهود بقوة جسمانية، بل بقوة إلهية[٤].**

٤. صفته الجسمانية:

لاشك أن للصفات الجسمانية أيضاً دوراً في تحقيق انتصاراته، ونذكر هنا نصاً أورده «الإربلي» في كتابه «كَشْف الغُمَّة» يذكر فيه صفات الإمام الجسدية، قال: (**ومما ورد في صفته عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أورده صديقنا المعز المحدِّث، وذلك حين طلب منه السعيد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُخرج أحاديث صحاحاً وشيئاً مما ورد في فضائل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وصفاته، وكُتبت على الأنوار الشمع الإثني عشر التي حُملت إلى مشهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وأنا رأيتها .. قال: كان رُبعة من الرجال، أدعج العينين[٥]، حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر حسناً، ضخم البطن[٦]، عريض المنكبين، شثن الكفين أغيد[٧]، كأن عنقه إبريق فضة، أصلع، كث اللحية، لمنكبيه مُشاش كمشاش السبع الضاري[٨]، لا يبين عضده من ساعده، وقد أدمجت إدماجاً. إن أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، شديد الساعد واليد، إذا مشى إلى الحرب هرول، ثبت الجنان، قوي شجاع منصور على من لاقاه**)[٩].

الملك بدر الدين لؤلؤ الأرمني النوري الأتابكي (ت ٦٥٧هـ). سُبي صغيرًا من أرمينيا فاشتراه خياط، ثم صار إلى الملك نور الدين حاكم الموصل، الذي صار يعزّه كثيراً، فحظي عنده وتقدم في دولته، ثم انقلب على أولاده بعد وفاته، واستقل بالملك. وُصف تارة بالرحيم الشجاع الحازم المدبر، وتارة بالجبار الظلوم!

(١) سورة يوسف: ١١٠.

(٢) سورة التوبة: ٤٠.

(٣) دكدك الحصن: هدّه.

(٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٢٠. ص ٣١٦ .

(٥) الدعج: شدة سواد العين مع سعتها.

(٦) ضخامة البطن خِلقةً من حيث العرض لا كنوع من الامتلاء بسبب كثرة تناول الطعام.

(٧) شثنت كفه: خشنت، وقيل أن يكون في أنامله غِلظ بلا قصر، ويحمد ذلك في الرجال لأنه أشد لقبضهم، ويُذم في النساء. أغيد: مائل العنق.

(٨) المشاش: جمع مشاشة ، رؤوس العظام ، والمراد أن رؤوس عظام المنكبين منه كرؤوس عظام منكبي الأسد في الغلظ.

(٩) الإربلي : كشف الغمة في معرفة الأئمة. ج ١. ص ٧٥ – ٧٦.

قالوا
في شجاعته عليه السلام

قالوا في شجاعته عليه السلام

تكلم المؤرخون والمحققون والباحثون والأدباء والمستشرقون في شجاعة علي عليه السلام كما تكلموا في الجوانب الأخرى من شخصيته، وكما تكلم قبلهم النبي وآله عليهم السلام في ذلك.

وقد امتلأت الكتب بأخبار بطولاته، وبكلمات الإعجاب والإطراء لجهاده وقتاله في سبيل الله، مع التحليل والدراسة لهذه الجوانب العظيمة من شخصيته.

وسنورد في هذا الفصل نماذج مما قيل في شجاعته، ونرتبها وفق تاريخ وفاة صاحب تلك الكلمات .

۞ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

* .... فعلي أشجع الناس قلباً[١].

* علي أشجع العرب[٢].

* يا علي، أنت فارس العرب، وقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين، وأنت أخي، ومولى كل مؤمن، وسيف الله الذي لا يخطئ[٣].

* إنه صاحب لوائي عند كل شديدة وكريهة[٤].

* علي مثل موسى في مناجاته وشجاعته.

* علي مثل موسى في شوكته وشجاعته.

* علي أسد الله في أرضه.

* علي أسد الله الغالب.

* علي سيف الله في أرضه[٥].

---

(١) الخوارزمي: المناقب. ص ٢٩١.
(٢) المرعشي: شرح إحقاق الحق. ج ٨. ص ٣١٧.
(٣) الأميني: الغدير. ج ٣. ص ١٩٤.
(٤) ابن أبي شيبة: المصنف. ج ٧. ص ٤٩٩.
(٥) الأحاديث الخمسة السابقة نقلاً عن كتاب شرح إحقاق الحق للسيد شهاب الدين المرعشي النجفي. ج ٨. ص ٣١٧.

۞ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام :

*** ما قُدِّمت رايةٌ قوتل تحتها أمير المؤمنين عليه السلام إلا نكسها الله عزوجل، وغُلب أصحابها، وانقلبوا صاغرين. وما ضرب أمير المؤمنين عليه السلام بسيفه ذي الفقار أحداً فنجا، وكان إذا قاتل قاتل جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وملك الموت بين يديه[١].**

۞ عمرو بن معديكرب :

عُرف عمرو بن معديكرب بأنه من شجعان العرب الذين تُضرب بهم الأمثال.. وقد تناولنا جانباً من سيرته في فصل سابق عند الحديث عن أخبار الشجعان. وقد كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب في أمرٍ أنكره عليه، وغدرٍ تخوّفه منه، فقال له: **أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه، لأبعثن إليك رجلاً تستصغر معه نفسك، يضع سيفه على هامتك فيخرجه من بين فخذيك ! فقال عمرو لما وقف على الكتاب: هددني بعليٍّ والله[٢].**

۞ عبيدالله بن عمر :

أبو عثمان عبيدالله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي «ت ٣٧ هـ» صحابي. رحل إلى الشام في أيام حكم أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وشهد حرب صفين إلى جانب معاوية، وقُتل فيها.

روى نصر بن مزاحم في كتاب وقعة صفين قال: (**لما قدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر، وقد رأيت أن أقيمه خطيباً يشهد على عليٍّ بقتل عثمان، وينال منه. فقال: الرأي ما رأيت. فبعث إليه، فأتاه، فقال له معاوية: يا بن أخي، إن لك اسم أبيك فانظر بملء عينيك، وانطق بملء فيك، فأنت المأمون المصدَّق، فاصعد المنبر واشتم علياً، واشهد عليه أنه قتل عثمان. فقال: أيها الأمير، أما شتمه، فإن أباه أبو طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حسبه ؟! وأما بأسه فهو الشجاع المطرق، وأما أيامه فما قد عرفت، ولكني ملزمه دم عثمان. فقال عمرو بن العاص: قد. وأبيك. إذن نكأت القُرحة[٣]. فلما خرج عبيد الله بن عمر، قال معاوية: أما والله لولا قتله الهرمزان، ومخافته علياً على نفسه، ما**

> **لما قُتل الخليفة عمر أخبرهم عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه رأى الهرمزان وجفينة وأبا لؤلؤة يتناجون، فهربوا منه، فسقط من بينهم خنجر كأنه الذي قُتل به الخليفة، فخرج عبيد الله حتى أتى الهرمزان وعلاه بالسيف، فلما وجد حَرَّ السيف صاح: «لا إله إلا الله». فقُبض على عبيدالله وسُجن إلى أن تولّى عثمان بن عفان الخلافة فاستشار الصحابة في أمره، فأفتى بعضهم بقتله، وأفتى بعضهم الآخر بالدية، فأدّى عثمان الدية من ماله وأطلقه. ولما تولى الإمام علي الخلافة، كان يرى أن يُقتَل عبيدالله بالهرمزان، فخرج إلى الشام وانضم إلى معاوية بن أبي سفيان.**

---

(١) الصدوق : الأمالي. ص ٦٠٤.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١٠. ص ٢٦٠.

(٣) نكأ القرحة: قشرها قبل أن تبرأ فخرجت فنديت، وهو كناية عن تهييج الأمر.

أتانا أبداً، ألا ترى إلى تقريظه علياً ؟! فقال عمرو: يا معاوية، إن لم تغلب فاخلب[١]. قال: وخرج حديثهما إلى عبيد الله، فلما قام خطيباً تكلم بحاجته، فلما انتهى إلى أمر عليٍّ أمسك ولم يقل شيئاً، فلما نزل بعث إليه معاوية: يا بن أخي إنك بين عيٍّ[٢] وخيانة ! فبعث إليه: إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان، وعرفت أن الناس محتملوها عني فتركتها. قال: فهجره معاوية واستخف به وفسّقه، فقال عبيد الله:

مُعَاوِي لَم أَخرُصْ بِخُطبةِ خَاطِب ... وَلَم أكُ عَيّاً فِي لُؤَيِّ بنِ غَالِب
وَلَكِنَّنِي زَاوَلْتُ نَفْساً أبِيَّةً ... عَلَى قَذْفِ شَيْخٍ بِالعِراقَيْنِ غَائِب
وَقَذْفِي عَلِياً بابنِ عَفَّانَ جَهْرَةً ... يَجْدَعُ بِالشَّحْنَا أُنُوفَ الأقَارِب
وَلَكِنَّهُ قَد قَرَّبَ القَومَ جَهْدَه ... وَدَبُّوا حَوالَيْهِ دَبِيبَ العَقَارِب
فَمَا قَالَ : أحسَنتُم ولا قَد أسَأتم ... وَأطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجَاعِ المُواثِب
فَأمَّا ابنُ عَفَّانَ فَأشهَدُ أنَّه ... أُصِيبَ بَرِيئاً لابِساً ثَوْبَ تَائِب
حَرامٌ عَلَى آهَالِه نَتْفُ شَعْرَةً ... فَكَيفَ وَقَد جَازُوهُ ضَرْبَةَ لازِب
وَقَد كَانَ فِيها لِلزُّبيرِ عَجَاجَةً ... وَطَلْحَةُ فِيها جَاهِدٌ غَيرُ لاعِب
وَقَد أظهَرا مِن بَعدِ ذَلِكَ تَوبَةً ... فَيالَيتَ شِعرِي مَا هُما فِي العَواقِب

قال : فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه، وقال: حسبي هذا منك)[٣].

عمرو بن العاص:

أبوعبدالله عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي «٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ» صحابي ومن دهاة العرب، أرسلته قريش - قبل أن يسلم - إلى الحبشة ليُقنع النجاشي بأن يسلّم إليه المسلمين المهاجرين. أسلم في هدنة الحديبية، وكان من أمراء السرايا والجيوش على عهد النبي الأكرم وفي بعض الفتوحات الإسلامية التي أعقبت وفاته ﷺ. عزله الخليفة عثمان عن ولاية مصر، ثم انضم إلى معاوية ضد علي عليه السلام في حرب صفين على أن يعيد إليه ولاية مصر، ففعل، وجعل له خراجها ستة أعوام.

قال عمرو بن العاص ليلة الهرير[٤]: لله در ابن أبي طالب، ما كان أكثره عند الحروب، ما آنست أن أسمع صوته في أول الناس إلا وسمعته في آخرهم، ولا في الميمنة إلا وسمعته في الميسرة[٥].

وروى الخوارزمي في المناقب أنه في يوم السادس والعشرين من أيام حرب صفين اجتمع عند معاوية الملأ من قومه،

(١) اخلب: اجرح بالمخالب.
(٢) عي: عجز.
(٣) ابن مزاحم : وقعة صفين - ص ٨٢ - ٨٥. أخرص: أكذب. يجدع الأنف: يقطعه . والشحناء: العداوة والبغضاء. الآهال جمع أهل.
(٤) أشد أيام حرب صفين، وسنفصل فيها القول عند الحديث حول المعركة في فصل لاحق بإذن الله.
(٥) العاملي : الصراط المستقيم - ج ٢ - ص ٤.

فذكروا شجاعة علي وشجاعة الأشتر، فقال **عتبة بن أبي سفيان**: إن كان الأشتر شجاعاً لكن علياً لا نظير له في شجاعته وصولته وقوته. قال معاوية: ما منّا أحد إلا وقد قتل عليٌّ أباه أو أخاه أو ولده، قتل يوم بدر أباك ياوليد، وقتل عمك يا أبا الأعور يوم أُحُد، وقتل يا بن طلحة الطلحات أباك يوم الجمل، فإذا اجتمعتم عليه أدركتم ثأركم منه وشفيتم صدوركم. فضحك الوليد بن عقبة بن أبي معيط من قوله وأنشأ يقول[١]:

عتبة بن صخر بن حرب الأموي. ولد على عهد النبي، وولاه عمر بن الخطاب الطائف، ولما مات عمرو بن العاص ولّى معاوية أخاه عتبه مصر، وأقام عليها سنة، ثم توفي بها، ودفن في مقبرتها، وذلك سنة أربع وأربعين. كان فصيحاً خطيباً. شهد صفين مع أخيه معاوية، كما شهد أيضاً التحكيم بين علي ومعاوية في دومة الجندل، وله فيه أثر كبير. وكان قد شهد معركة الجمل ضد الإمام علي فذهبت عينه يومئذ.

يَقولُ لَكُم مُعاوِيَةُ بنُ حَرْبٍ ... أمَا فيكُم لِوَاتِركُم طَلُوبُ
يَشُدُّ عَلَى أبِي حَسَنٍ عَلِيٍّ ... بِأسْمَرَ لا تَهْجِنُهُ الكُعوبُ
فَيَهتِكُ مَجْمَعَ اللُّبَّاتِ مِنهُ ... وَنَقْعُ القَومِ مُطَّرِدٌ يَثُوبُ
فَقُلتُ لَهُ أتَلعَبُ يا بنَ هِندٍ ... كَأنَّكَ وَسَطَنا رَجُلٌ غَرِيبُ
أتَأمُرُنا بِحَيَّةِ بَطْنِ وَادٍ ... إذا نَهَشَتْ فَليسَ لَها طَبِيبُ
وَبَشرٌ مِثلُها لاقَى جِهاداً ... فَأخطَأ نَفسَهُ الأجَلُ القَرِيبُ
سِوى عَمرٍو وَقَتْهُ «.....» ... نَجَا وَ لِقَلْبِهِ مِنهُ وَجِيبُ
ومَا ضَبْعٌ تَدِبُّ بِبَطنِ وَادٍ ... أُتِيحَ لِقَتْلِها أَسَدٌ مَهِيبُ
بِأضْعَفَ حِيلَةٍ مِنّا إذا مَا ... لَقِيناهُ و ذا مِنّا عَجِيبُ
كَأنَّ القَومَ لَمّا عَايَنُوهُ ... خِلالَ النَّقْعِ لَيسَ لَهُم قُلوبُ
وقَد نَادَى مُعاوِيَةُ بنُ حَرْبٍ ... فَأسمَعَهُ وَلَكِن لا يُجِيبُ

وقال الوليد: إن لم تصدقوني فاسألوا الشيخ عمرو بن العاص ليخبركم عن شجاعته وصولته. وكان هذا توبيخاً منه لعمرو، حين خرج عمرو بن العاص للحرب وقال لابنيه عبد الله ومحمد[٢]:

شُدَّا عَلَى شَكّتِي لا تَنْكَشِفْ ... أبَعْدَ عَمرٍو والزُّبيرِ نَأتَلِفْ
أم بَعْدَ عُثمانَ نُبالي مِن تَلَفْ ... يَومٌ لِهَمْدَانَ وَيومٌ لِلصَّدِفْ
وفي تَمِيمٍ نَخْوَةٌ لا تَنحَرِفْ ... نَضرِبُها بالسَّيفِ حَتَّى تَنْصَرِفْ

(١) حذفنا الكلمة من البيت السابع تعففاً لقبحها.
(٢) الشكة: السلاح. الصدف: اسم قبيلة تنتسب لعمرو بن مالك بن أشرس، وقد نُسب إلى كندة، كما نسب إلى حضرموت.

فحمل عليه أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وعمرو لا يشعر به، فطعنه وصرعه وبدت عورته، فصرف علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وجهه فانسلّ عنه عمرو. قيل لعلي في ذلك فقال: إنه ابن العاص. تلقّاني بعورته فصرفت وجهي عنه..... وعذله معاوية وقال: ما هذه الفضيحة التي فضحت بها نفسك؟ فقال عمرو لمعاوية: يا أبا عبد الرحمان من يتعرض لبلاء نفسه؟ لا طاقة لي بعلي ولا لك ولا للوليد ولا لأحد من جموعنا، وإن لم تصدّقني فجرّب، وقد دعاك مراراً إلى البراز ولا تبرز إليه. وقال عمرو في ذلك[١]:

يُذكِّرُني الوَليدُ شَجَى عَليٍّ ... وَصَدْرُ المَرْءِ يَملأهُ الوَعيدُ
مَتَى تَذْكُرْ مَشاهِدَه قُريشٌ ... يَطِرُّ مِن خَوفِهِ القَلبُ الشَّديدُ
فَأمَّا في اللِّقاءِ فَأينَ مِنْهُ ... مُعاوِيةُ بنُ حَربٍ والوَليدُ
وَعَيَّرَني الوَليدُ بَقاءَ لَيْثٍ ... إذا ما زارَ هابَتْهُ الأُسُودُ
لَقيتُ وَلَستُ أجهَلُهُ عَليّاً ... وَقَد بُلَّت مِنَ العَرَقِ اللُّبودُ
فأطعَنُهُ وَيَطعَنُني خِلاساً ... ومَاذا بَعدَ طَعنَتِهِ مَزيدُ
فَرُمْها مِنهُ يابنَ أبي مُعَيطٍ ... فَأنتَ الفارِسُ البَطَلُ التَّجيدُ
وأقْسِمُ لَو سَمِعْتَ نِدا عَليٍّ ... لَطَارَ القَلْبُ وانتَفَخَ الوَريدُ
ولَو لاقَيْتَهُ شُقَّتْ جُيوبٌ ... عَليكَ ولُطِمَت فيكَ الخُدودُ

وقال معاوية: يا عمرو، ولو عرفت علياً ما أقحمت عليه. و قال معاوية في ذلك:

ألَا للهِ مَن هَفَواتِ عَمْرٍو ... يُعاتِبُني عَلى تَرْكي بَرازي
فَقَد لاقَى أبا حَسَنٍ عَلياً ... فَآبَ الوَائِليُّ مَآبَ خَازي
وَلَو لَم يُبْدِ عَوْرَتَهُ لأوْدَى ... بِهِ لَيثٌ يُذَلِّلُ كُلَّ نَازي
لَهُ كَفٌّ كَأنَّ بِراحَتَيْها ... مَنايا القَومِ تُخطَفُ خَطْفَ بَازي
فَإنْ تَكُنِ المَنِيَّةُ أحْرَزَتْهُ ... فَقَد عَنِيَ بِها أهْلُ الحِجازِ

فغضب عمرو وقال: هل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه، أترى السماء قاطرة لذلك دماً؟[٢]

جابر بن عمير الأنصاري:

قيل أن له صحبة ورواية عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وكان من أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقاتل معه في صفين. وقد روى نصر بن مزاحم في كتابه وقعة صفين عن جابر بن عمير الأنصاري قال: **والله لكأني أسمع علياً يوم الهرير حين سار أهل**

(١) اللبود: المفارش.
(٢) الخوارزمي: المناقب. ص ٢٤٥ - ٢٣٧.

الشام وذلك بعد ما طحنت رحى مذحج فيما بيننا وبين عكّ ولُخَم وجُذام والأشعريين بأمر عظيم تشيب منه النواصي، من حين استقبلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة. ثم إن علياً قال: حتى متى نخلي بين هذين الحيين؟ قد فنيا وأنتم وقوف تنظرون إليهم ! أما تخافون مقت الله؟ ثم انفتل إلى القبلة ورفع يديه إلى الله ثم نادى: يا الله يا رحمن يا واحد يا صمد ياالله يا إله محمد، اللهم إليك نقلت الأقدام وأفضت القلوب ورفعت الأيدي وامتدت الأعناق وشخصت الأبصار وطلبت الحوائج، إنا نشكو إليك غيبة نبينا ﷺ، وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. سيروا على بركة الله. ثم نادى: لا إله إلا الله والله أكبر كلمة التقوى. قال الراوي: لا والله الذي بعث محمداً ﷺ بالحق نبياً ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب، إنه قتل فيما ذكر العادّون زيادة على خمسمائة[١] من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنياً فيقول: معذرة إلى الله واليكم من هذا، لقد هممت أن أفلقه[٢]، ولكن حجزني عنه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول كثيراً: لا سيف إلا ذوالفقار، ولا فتى إلا علي. وأنا أقاتل به دونه. قال: فكنا نأخذه فنقوّمه ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف، فلا والله ما ليث بأشد نكاية منه في عدوه[٣].

۞ خفاف بن عبدالله الطائي:

ورد ذكره في بعض الأحداث المرتبطة بأيام حكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان من قبيلة عدي بن حاتم الطائي، ووُصف بأن له لسان وهيئة وشِعر لا يوازَى به رجل. وقد روى ابن مزاحم قال: قام عدي بن حاتم إلى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: **يا أمير المؤمنين، إن عندي رجلاً من قومي لا يُجارى به، وهو يريد أن يزور ابن عم له، حابس بن سعد الطائي . بالشام . فلو أمرناه أن يلقى معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام.**

فقال له علي: **نعم، فمُرْه بذلك.**

وكان اسم الرجل خفاف بن عبد الله. فقدم على ابن عمه حابس بن سعد بالشام، وكان حابس سيد طيئ، فحدث خفاف حابساً أنه شهد عثمان بالمدينة، وسار مع علي إلى الكوفة. وكان لخفاف لسان وهيئة وشِعر. فغدا حابس وخفاف إلى معاوية فقال حابس: **هذا ابن عمي قدم الكوفة مع علي، وشهد عثمان بالمدينة، وهو ثقة.**

فقال له معاوية: **هات يا أخا طيئ، حدّثنا عن عثمان.**

قال: **حصره المكشوح[٤]، وحكم فيه حكيم، ووليه محمد وعمار، وتجرد في أمره ثلاثة نفر: عدي بن حاتم، والأشتر النخعي، وعمرو بن الحمق، وجدّ في أمره رجلان، طلحة والزبير، وأبرأ الناس منه علي.**

قال: **ثم مه؟**

---

(١) وروي أكثر من خمسمائة، كما وروي ثلاثمائة.

(٢) في بعض المصادر (أصقله) أي أزيل ما به من حفر بسبب الضرب، ولعله هو الصحيح فلا معنى لأفلقه هنا.

(٣) ابن مزاحم : وقعة صفين. ص ٤٧٨ - ٤٧٩.

(٤) المكشوح: المبغوض.

قال: ثم تهافت الناس على علي بالبيعة تهافت الفراش، حتى ضلت النعل وسقط الرداء، ووطئ الشيخ، ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له، ثم تهيأ للمسير وخف معه المهاجرون والأنصار، وكره القتال معه ثلاثة نفر: سعد بن مالك، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة. فلم يستكره أحداً، واستغنى بمن خف معه عمن ثقل. ثم سار حتى أتى جبل طيئ، فأتاه منا جماعة كان ضارباً بهم الناس، حتى إذا كان في بعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، فسرّح رجالاً إلى الكوفة فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة فهي في كفه، ثم قدم إلى الكوفة، فحمل إليه الصبي، ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس فرحاً به، وشوقاً إليه، فتركتُه وليس همّه إلا الشام.

فذعر معاوية من قوله. وقال حابس: أيها الأمير لقد أسمعني شعراً غيّر به حالي في عثمان، وعظم به علياً عندي.

قال معاوية: أسمعنيه يا خفاف.

فأسمعه قوله شعراً[1]:

قُلتُ واللَّيلُ سَاقِطُ الأكنَافِ ... وَلِجَنبي عَنِ الفِراشِ تَجَافِ

أرْقُبُ النَّجمَ مَائِلاً ومَتَى ... الغَمْضُ بِعَينٍ طَوِيلَةِ التِّذرافِ

لَيْتَ شِعْري وإنَّني لَسَؤولٌ ... هَل لي اليَومَ بالمدِينَةِ شَافِ

مِن صِحابِ النَّبيِّ إذ عَظُمَ الخَطْـ ... ـبُ وفيهِم مِنَ البَرِيَّةِ كَافِ

أحَلالٌ دَمُ الإمَامِ بِذَنْبٍ ... أمْ حَرامٌ بِسُنَّةِ الوَقَّافِ

قَالَ لي القَومُ لا سَبِيلَ إلى ما ... تَطلبُ اليومَ، قلتُ حَسبَ خِفافِ

عِندَ قَومٍ لِيسُوا بِأوعِيَةِ ... العِلمِ ولا أهلُ صِحَّةٍ وعَفافِ

قُلتُ لَمَّا سَمِعْتُ قَولاً دَعُونِي ... إنَّ قَلبِي مِنَ القُلوبِ الضِّعافِ

قَد مَضَى مَا مَضَى ومَرَّ بِهِ ... الدَّهرُ كَما مَرَّ ذَاهِبُ الأسلافِ

إنَّني والذي يَحجُّ لَهُ النَّاسُ ... عَلَى لحقِ البُطونِ العِجافِ

تَتبارَى مِثلَ القَسِيِّ مِنَ النَّبعِ ... بِشُعْثٍ مِثلَ الرِّصافِ نِحافِ

ارهَبْ اليَومَ، إنْ أتَاكَ عَلَى ... صَيْحَةٍ مِثلَ صَيحَةِ الأحقافِ

إنَّهُ اللَّيثُ عَادِياً وشُجَاعٌ ... مُطرِقٌ نَافِثٌ بِسُمٍّ زُعَافِ

---

(١) مائلاً ، أي إلى الغيب . والغمض ، بالضم : النوم . الوقّاف : المتأني الذي لا يعجل . والوقاف أيضا : المحجم عن القتال . لحق البطون ، عني بها الإبل . ولحق : جمع لاحق ولاحقة ، واللاحق : الضامر . مثل القسي: شبه الإبل بالقسي في تقوسها . والشعث ، عنى بهم الحجاج الذين قد شعثت رؤوسهم أي تلبد شعرها واغبر . والرصاف : العقبة التي تلوى فوق رعظ السهم إذا انكسر . ورعظ السهم : مدخل سنخ النصل . الصيحة : العذاب والهلكة . وقوم الأحقاف هم عاد قوم هود . عاديا ، عدا الليث : وثب . يذرى : يطيح ويلقى ويطير . والشؤون : جانب من الرأس . والقحاف ، جمع قحف: العظم الذي فوق الدماغ من الجمجمة الإتحاف : أن يتحفه بتحفة، وهي ما تتحف به الرجل من البر واللطف . نادية القوم : دعوتهم .

فَـارِسُ الخَـيـلِ كُـلَّ يَـومٍ نِـزالُ ... ونِـــزالُ الـفَـتـى مِـنَ الإنـصَـافِ
واضِـعُ السَّـيفِ فَـوقَ عَـاتِـقِـهِ الأيمَـنِ ... يَـــذري بِـــهِ شُـــؤونَ الـقِـحـافِ
لا يَـرى الـقَـتـلَ في الخِـلافِ عليْهِ ... أَلْـفُ أَلْـفٍ كـانُـوا مِـن الإسـرافِ
سَـوَّمَ الخَـيـلَ ثـمَّ قَـالَ لِـقَـومٍ ... تَـابَـعُـوهُ إلى الـطِّـعَـانِ خِـفـافِ
اسـتَـعِـدُّوا لِحَـربٍ طـاغِـيَـةٍ ... الـشَّـامِ ، فَـلَـبَّـوهُ كالبَـنِـينِ اللِّطافِ
ثُـم قـالُـوا أنـتَ الجَـنـاحُ لَـكَ الرِّيشُ ... الـقُـدامَـى ونَـحـنُ مِـنـهُ الخَـوافِي
أنـــتَ وال وأنـــتَ والِـــدُنـــا ... الـبَـرُّ ونَـحـنُ الـغَـداةَ كالأضـيـافِ
وقِـرَى الـضَّـيفِ في الـدِّيـارِ قَـلـيلٌ ... قَـد تَـرَكْـنـا الـعِـراقَ لـلإتحَـافِ
وهُـم مـا هُـم إذا نَـشَـبَ الـبـأسُ ... ذووا الـفَـضـلِ والأمـــورِ الـكَـوافِي
وانـظُـرِ الـيـومَ قَـبـلَ نَـادِيَـةِ الـقَـومِ ... بِـسِـلْـمٍ أرَدتَ أم بِـخـلافِ
إنَّ هـذا رأيُ الـشَّـفـيقِ عَـلـى الـشَّـامِ ... ولَـــولاهُ مـا خَـشـيـتُ مـشـافِ

فانكسر معاوية وقال : **يا حابس ، إني لا أظن هذا إلا عيناً لعلي، أخرجه عنك لا يفسد أهل الشام**[١].

عبدالله بن عباس:

حبر الأمة عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب «٣ هـ ـ ٦٨ هـ». ولد بمكة وصحب النبي ﷺ فحفظ وروى عنه أحاديث كثيرة. صحب أمير المؤمنين عليه السلام وشارك معه في حربي الجمل وصفين. توفي في الطائف وبها دفن.

ومما رواه في شجاعة الإمام عليه السلام، وقد سأله رجل: **أكان علي يباشر القتال بنفسه يوم صفين ؟**

قال: **والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه في متلف من علي، ولقد رأيته يخرج حاسر الرأس، بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله**[٢].

وعنه أنه قال: **عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والله ما رأيت ولا سمعت رئيساً يوزن به. لرأيته يوم صفين وعلى رأسه عمامة قد أرخى طرفيها وكأن عينيه سراجَا سليط**[٣]**، وهو يقف على شرذمة شرذمة يخصهم حتى انتهى إلي وأنا في كثف من الناس**[٤]**، فقال: معاشر المسلمين استشعروا الخشية**

(١) ابن مزاحم : وقعة صفين. ص ٦٤ - ٦٨.
(٢) أحمد بن عبدالله الطبري : ذخائر العقبى. ص ٩٩.
(٣) سراج سليط: سراج زيت.
(٤) كثف من الناس: حشد منهم.

وعنوا الأصوات[١]، وتجلببوا السكينة، وأعلموا الأسنَّة[٢]، واقلقوا السيوف قبل السَّلَّة[٣]، واطعنوا الرخر[٤]، ونافحوا بالظُّبا[٥]، وسلّوا السيوف بالخُطا، والنبال بالرماح، فإنكم بعين الله، ومع ابن عم نبيه ﷺ. عاودوا الكر واستحيوا من الفرّ، فإنه عار باق في الأعقاب والأعناق ونار يوم الحساب، وطيّبوا عن أنفسكم أنفساً، وامشوا إلى الموت سجحاً، وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطنب فاضربوا ثبجه[٦]، فإن الشيطان راكبٌ صعبه، ومفترشٌ ذراعيه، قد قدّم للوثبة يداً وأخّر للنكوص رِجلاً[٧]، فصمداً صمداً حتى يتجلى لكم عمود الدين وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم[٨].

وفي نص آخر أن معاوية بن أبي سفيان سأل عبد الله بن العباس عن أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال ابن عباس: **هيهات، عقم النساء أن يأتين بمثله، والله مارأيت رئيساً مجرباً يوزن به. ولقد رأيته في بعض أيام صفين، وعلى رأسه عمامة بيضاء تبرق وقد أرخى طرفيها على صدره وظهره، وكأنما عيناه سراجَا سليط، وهو يقف على كتيبة كتيبة حتى انتهى إلي وأنا في كنف من القوم[٩]، وهو يقول: معاشر المسلمين استشعروا الخشية، وتجلببوا بالسكينة، وعضوا على النواجذ[١٠]، فإنه أنبى للسيوف عن الهام[١١]، وأكملوا اللأمة[١٢]، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها، والحضوا لِخَزَر[١٣]، واطعنوا لِشَزَر[١٤]، ونافحوا بالظبا، وصلوا السيوف بالخُطى. واعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله ﷺ، فعاودوا الكرَّة، واستحيوا من الفرّ، فإنه عار من الأعقاب، ونار يوم الحساب، وطيّبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سجحاً[١٥]. وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنب[١٦]، فاضربوا ثَبَجَه[١٧]، فإن الشيطان كامن في كسره، قد قدّم للوثبة يداً، وأخّر للنكوص رِجلاً، فصمداً**

---

(١) عنوا الأصوات: احبسوها وأخفوها.

(٢) لعله يقصد إعلام رؤوس الرماح بجعلها بارزة مكشوفة لترهب العدو.

(٣) أي حركوها قبل إخراجها من أغمادها.

(٤) الرخرخ: اللين السهل، وكأنه يوصيهم بالبحث عن نقاط الضعف لدى الخصم والتركيز عليها عند المواجهة.

(٥) نافحوا: ضاربوا وكافحوا . الظبا: طرف السيف.

(٦) الثبج: الوسط.

(٧) النكوص: الهرب.

(٨) ابن عساكر : تاريخ دمشق. ج ٣. ص ١٤٥.

(٩) كنف من القوم: وسطهم.

(١٠) النواجذ : جمع ناجذ وهو أقصى الأضراس.

(١١) الهام: جمع هامة وهي الرأس.

(١٢) اللامة: أداةُ الحرب كلُّها من رمح ، وبيضة ، ومِغْفَر ، وسيف ، ودرع.

(١٣) الخزر: النظر بعين واحدة ، وهو علامة الغضب.

(١٤) الشزر : الجوانب يميناً وشمالاً.

(١٥) السجح: السهل.

(١٦) الرواق: المقدمة. المطنب: الممتد.

(١٧) الثَّبَجُ : وَسَطُ الشيء تَجَمَّعَ وبَرَزَ ومنه ثَبَج البحر ، وثبج الصدر ، وثبج الظهر ، وثبج الأكمة .

صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم. وأنشأ يقول[١]:

إذا المشكلاتُ تصدَّينَ لي ... كَشَفْتُ غَوامضَها بالنَّظَرْ
وإنْ بَرقَتْ في مَخْيَلِ الظُّنونِ ... عَمِيَاءَ لا تَجْتَليهَا الفِكَرْ
مُقَنَّعَةً بِغُيوبِ الأمُورِ ... وَضَعْتُ عَليها حُسَامَ العِبَرْ
مَعي أصْمَعٌ كَظُبَى المرهَفاتِ ... أفْري بِهِ عَن بَنَاتِ السّتَرْ
لِسانٌ كَشَقشَقَةِ الأرحَبِيِّ ... أو كالحُسامِ اليَمَانيِّ الذَّكَر
ولكِنَّني مُدْرِهُ الأصغَرَينِ ... أقيسُ بما قَد مَضى ما غَبَرْ
ولستُ بإمَّعَةٍ في الرِّجالِ ... أُسَائِلُ هَذا وذا مَا الخَبَرْ

ثم غاب عني عليه السلام، ثم رأيته قد أقبل وسيفه ينطف دماً وهو يقرأ: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[٢].

وإذ روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: **النظر إلى وجهك يا علي عبادة. أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، من أحبك أحبني، وحبيبي حبيب الله، وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله، الويل لمن أبغضك.** فإن ابن عباس كان يفسر ذلك بقوله: **إنَّ من ينظر إليه يقول: سبحان الله! ما أعلمَ هذا الفتى! سبحان الله! ما أشجع هذا الفتى! سبحان الله! ما أفصح هذا الفتى**[٣]!

۞ بشر بن المعتمر المعتزلي:

أبو سهر بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي «ت ٢١٠ هـ» من فقهاء ومتكلمي المعتزلة، وقيل أن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه. له عدة مصنفات في مذهب المعتزلة، ونظم قصيدة من أربعين ألف بيت يردّ فيها الإشكالات الواردة على مذهبه. قال ابن أبي الحديد: (**كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله يقول بتفضيل علي عليه السلام، ويقول: كان أشجعهم وأسخاهم. ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة، وفي كثير من البصريين...**)[٤].

۞ العلامة الإسكافي:

هو العلامة أبوجعفر محمد بن عبد الله الإسكافي «ت ٢٤٠ هـ»، يعد أحد أئمة المعتزلة، أصله من سمرقند وسكن بغداد، عُرف بشدة ذكائه، وقد عمّر طويلاً، وكان المعتصم العباسي يعظمه جداً.

---

(١) الأصغران: القلب واللسان.

(٢) الرضي: خصائص الأئمة ـ ٧٥ – ٧٦ . الآية من سورة التوبة: ١٢.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ـ ج ٩ ـ ص ١٧١ .

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ـ ج ٢ ـ ص ٢٨٨ – ٢٨٩.

قال في المعيار والموازنة: (**وكان أبو الحسن لهذه الأمور جامعاً، وكان بالسيف ضروباً، وبالرمح طعّاناً، وبالفراسة والشجاعة موصوفاً، وبالشدة معروفاً، وللحذر مستعملاً. ويدلّك على ذلك ما وصفه به وحشي حيث إنه قال: لما وقفت نفسي بعير قريباً من أُحُد أردت النبي ﷺ فإذا هو لا تناله الأيدي. ثم أقبل علي بيده سيفٌ يفري، وخُيِّل إليَّ أن في كل جارحة من جوارحه عيناً تنظر إلي، فلما نظرت إلى مَن هذه حالُه قلت: تراكها تراكها**[١]**، لستُ من هذا ولا هذا مني**)[٢].

الشريف الرضي:

أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي الملقب بالشريف الرضي «٣٥٩ هـ ـ ٤٠٦ هـ»، كان عالماً أديباً، وشاعراً مجيداً حتى قيل أنه أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم، وانتهت إليه نقابة الأشراف على عهد والده.

له عدة مؤلفات من بينها المجازات النبوية و حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ولكن أشهر أعماله السفر الخالد نهج البلاغة الذي جمع فيه نبذاً من خطب أمير المؤمنين عليه السلام، وبلغت شروحه العشرات.

قال الشريف الرضي: (**ومن عجائبه عليه السلام التي انفرد بها، وأمن المشاركة فيها أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل، وفكّر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله، ممن عظم قدره، ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه كلام من لا حظَّ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كسر بيت**[٣]**، أو انقطع إلى سفح الجبل**[٤]**، لا يسمع إلا حسه، ولايرى إلا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب، مصلتاً سيفه**[٥]**، فيقطّ الرقاب**[٦]**، ويجدّل الأبطال**[٧]**، ويعود به ينطف دماً ويقطر مهجاً**[٨]**. وهو مع تلك الحال، زاهد الزهاد، وبدل الأبدال**[٩]**. وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة، التي جمع بها بين الأضداد، وألّف بين الأشتات**[١٠]**، وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة فيها**)[١١].

---

(١) تراكها: دعها واصرف النظر عنها

(٢) الإسكافي: المعيار والموازنة ـ ص ٩١ .

(٣) قبع : انزوى واعتزل.

(٤) سفح الجبل : أسفله وجوانبه.

(٥) أصلت سيفه : جرّده وأخرجه من غمده.

(٦) يقط الرقاب: يقطعها عرضاً . فإن كان يقطعها طولاً قيل : يقدّ.

(٧) يجدل الأبطال : يلقيهم على وجه الأرض.

(٨) ينطف: يقطر ويسيل . المهج جمع مهجة : دم القلب و الروح.

(٩) الأبدال جمع بدل أو بديل: تعبير ورد في بعض الأخبار يراد به قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم ، إذا مات منهم واحد بدل الله مكانه آخر. ويبدو أنه من وضع بعض الصوفية.

(١٠) ألف بين الأشتات : جمع بين المتفرقات.

(١١) الشريف الرضي : نهج البلاغة – المقدمة ـ ص ٣٥ – ٣٦ .

الشيخ المفيد:

هو الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري نسبة إلى قرية عكبرا القريبة من بغداد، ويلقب بالمفيد «٣٣٦ هـ - ٤١٣ هـ». انتهت إليه رئاسة مذهب الإمامية في زمانه وكان كثير التأليف والبحث والتدريس. له ٢٠٠ مؤلف في الكلام والفقه والأصول، وتتلمذ على يديه الكثير من الفقهاء والمحققين، وما زالت آراؤه مورد بحث ودراسة.

جاء في كتاب الإرشاد في حق الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: (**ومن آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لا يذكر ممارس للحروب التي لقي فيها عدواً إلا وهو ظافر به حيناً وغير ظافر به حيناً، ولا نال أحد منهم خصمه بجراح إلا وقضى منها وقتاً وعوفي منها زماناً. ولم يعهد من لم يفلت منه قرن في الحرب، ولا نجا من ضربته أحد فصلح منها إلا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه لا مرية في ظفره بكل قرن بارزه، وإهلاكه كل بطل نازله، وهذا أيضاً مما انفرد به عَلَيْهِ السَّلَامُ من كافة الأنام، وخرق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به العادة في كل حين وزمان، وهو من دلائله الواضحة عَلَيْهِ السَّلَامُ. ومن آيات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيه أيضاً أنه مع طول ملاقاته للحروب، وملابسته إياها، وكثرة من مني به فيها من شجعان الأعداء وصناديدهم، وتجمعهم عليه، واحتيالهم في الفتك به وبذل الجهد في ذلك، ما ولّى قط عن أحد منهم ظهره، ولا انهزم عن أحد منهم، ولا تزحزح عن مكانه، ولا هاب أحداً من أقرانه، ولم يلقَ أحد سواه خصماً في حرب إلا وثبت له حيناً وانحرف عنه حيناً، وأقدم عليه وقتاً وأحجم عنه زماناً**)[1].

ونقل السيد المرتضى في كتاب الفصول عن شيخه المفيد قوله: **ومما يشهد بشجاعة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وعظم بلائه في الجهاد ونكايته في الأعداء، من النظم الذي يشهد بصحة النثر في النقل، قول أسيد بن أبي أياس يحرّض مشركي قريش على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ**[2]:

أسيد بن أبي إياس بن زنيم الكناني، شاعر هجا النبي وكان من المحرِّضين عليه وعلى الإمام علي، وقد أهدر النبي دمه، فهرب إلى الطائف، فتوسط له ابن أخيه واسمه سارية، وجاء به عند النبي فجلس بين يديه وأسلم، فأمنه رسول الله ومسح على وجهه وصدره. فأنشد أسيد شعراً يمتدحه فيه.

في كُلِّ مَجْمَعِ غَايَةٍ أَخْزَاكُمُ ... جَذْعٌ أَبَرّ عَلَى المَذَاكِي القُرَّحِ

للهِ دَرُّكُمُ أَلَمَّا تُنكِروا ؟ ... قد يُنكِرُ الحُرُّ الكريمُ ويستَحي

هذا ابنُ فاطمةَ الذي أفْنَاكُمُ ... ذَبحاً وقَتْلاً قَعْصَةً لم يُذبَحِ

أعْطُوهُ خَرْجاً واتَّقوا تَضريبَهُ ... فِعْلَ الذَّليلِ وبَيْعَةً لم تَربَحِ

أينَ الكُهولُ وأيْنَ كُلُّ دَعامَةٍ ... في المُعْضِلاتِ وأينَ زَينُ الأبطَحِ

أفْنَاهُمُ قَعْصاً وضَرباً يَفتري ... بالسَّيفِ يَعمَلُ حَدُّه لَم يَصفَحِ

---

(١) الشيخ المفيد: الإرشاد. ج ١. ص ٣٠٨.

(٢) المرتضى: الفصول المختارة. ص ٢٩٢ - ٢٩٥. القعص: القتل المعجل.

ومما يشهد لذلك قول أخت عمرو بن ود العامري وقد رأته قتيلاً فقالت: من قتله ؟

فقيل لها: علي بن أبي طالب.

فقالت: كفو كريم. ثم أنشأت تقول:

لَو كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيرَ قَاتِلِهِ ... لَكُنتُ أبْكِي عَلَيْهِ آخِرَ الأبَدْ
لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَن لا يُعَابُ بِهِ ... مَن كَانَ يُدعَى قَدِيماً بَيضَةَ البَلَدْ

أفلا ترى إلى قريش كيف تحرّض عليه بذكر من قتله وكثرتهم وفناء رؤسائهم بسيفه وقتله لشجعانهم وأبطالهم، ثم لا يجسر أحد من القوم أن ينكر ذلك، ولا ينفع في جماعتهم التحريض لعجزهم عنه ﷺ، أو لا ترى أنه ﷺ قد بلغ من فضله في الشجاعة أنها قد صارت تفخر بقتله من قتل منها وتنفي العار عنه بإضافته إليه، وهذا لا يكون إلا وقد سلم الجميع له واصطلحوا على إظهار العجز عنه.

وقد روى أهل السير أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قتل عمرو بن عبد ود ، نُعي إلى أخته فقالت: لو لم يعْدُ يومه على يد كفو كريم لأرقأت دمعتي إن هرقتها عليه، قتَل الأبطال وبارز الأقران وكانت منيَّته على يد كفو كريم، ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر. ثم أنشأت تقول:

أسَدَانِ في ضِيقِ المكرِ تَصَاوَلا ... وكِلاهُمَا كُفْوٌ كَرِيمٌ باسِلُ
مُهَجُ النُّفُوسِ كِلاهُما ... وَسَطَ المدارِ مُخَاتِلٌ ومُقاتِلُ
وكِلاهُما حَضَرَ القِراعَ حَفِيظَةً ... لم يُثْنِهِ عَن ذاكَ شُغْلٌ شاغِلُ
فاذهَبْ عَلِيُّ فَما ظَفِرْتَ بِمِثْلِهِ ... قَوْلٌ سَدِيدٌ لَيسَ فِيهِ تَحَامُلُ
فالثَّأرُ عِندي يا عَلِيُّ فَلَيْتَنِي ... أدْرَكْتُهُ والعَقْلُ مِنّي كامِلُ
ذَلَّت قُرَيشٌ بَعدَ مَقتَلِ فَارِسٍ ... فَالذُّلُّ مُهلِكُها وخِزيٌ شامِلُ

ثم قالت: والله لا ثأرت قريش بأخي ما حنَّت النيب[1].

وقد كان حسان بن ثابت افتخر للإسلام بقتل عمر بن عبد ود فقال في ذلك أقوالاً كثيرة منها:

أمْسَى الفَتى عَمرُو بنُ عَبدٍ يَبتَغِي ... بَجنوبِ يَثرِبَ غَارَةً لم تُنظَرِ
فَلقَد وَجَدْتُ سُيوفَنا مَشهورةً ... وَلَقد رأيتُ جِيادَنا لم تُقصَرِ
ولَقد لَقِيتَ غَداةَ بَدرٍ عُصبةً ... ضَربوكَ ضَرباً غَيرَ ضَربِ الحَسِرِ
أصبحتَ لا تُدعَى لِيومٍ عَظِيمَةٍ ... يا عَمرو أو لِجَسِيمِ أمرٍ مُنكَرِ

(١) النيب: جمع ناب ، وهي الإبل المسنة ، والعبارة كناية عن التأبيد .

فلما بلغ شعره بني عامر قال فتى منهم يرد عليه قوله في ذلك[١]:

كَذبتُم وَبَيت الله لَم تَقتلونَنا ... ولكنْ بسَيف الهاشميِّينَ فَافخَرُوا
بِسَيف ابن عَبدالله أحمدَ في الوَغَى ... بِكَفِّ عَليٍّ نلتُم ذَاكَ فَاقصِرُوا
فلَم تَقتُلوا عَمرَو بنَ وَدٍّ ولا ابنَهُ ... ولكنَّه الكفْوُ الهِزَبْرُ الغَضنفَرُ
عَليٌّ الذي في الفَخْرِ طَالَ ثَناؤُه ... فَلا تُكثِروا الدَّعوَى عَلينا فَتُحقَروا
بِبَدرٍ خَرجتُم لِلبرازِ فَردَّكُم ... شُيوخُ قُريشٍ جَهرةً وتَأخَّروا
فَلمَّا أتاهُم حَمزةُ وعُبَيدةُ ... وَجاءَ عَليٌّ بِالمُهَنَّدِ يَخطُرُ
فَقالُوا نِعْمَ أكفَاءَ صِدقٍ وأقبَلوا ... إليهِم سِراعاً إذ بَغَوا وتَجبَّروا
فَجالَ عَليٌّ جَولَةً هاشِميَّةً ... فَدمَّرهُم لما عَتَوا وتَكبَّروا
فَليسَ لَكم فَخْرٌ عَلينا بِغيرِنا ... وَليسَ لَكم فَخْرٌ يُعَدُّ ويُذكَرُ

وجاء في «الاختصاص»[٢]: (ثم الشجاعة كان منها على أمر لم يسبقه الأولون ولم يدركه الآخرون من النجدة والبأس ومباركة الأخماس[٣] على أمر لم يُرَ مثله، لم يولّ دبراً قط، ولم يبرز إليه أحد قط إلا قتله ولم يكعّ[٤] عن أحد قط دعاه إلى مبارزته. ولم يضرب أحداً قط في الطول إلا قدّه، ولم يضربه في العرض إلا قطعه بنصفين، وذكروا أن رسول الله ﷺ حمله على فرَس، فقال: بأبي أنت وأمي ما لي وللخيل؟! أنا لا أُتبِع أحداً، ولا أفرُّ من أحد، وإذا ارتديت سيفي لم أضعه إلا للذي أرتدي له. ثم ترك الفرح وترك المرح[٥]. أتت البشرى إلى رسول الله ﷺ تَتْرى بقتل من قُتل يوم أُحُد من أصحاب الألوية فلم يفرح ولم يختل، وقد اختال أبودجانة ومشى بين الصفين مختالاً فقال له رسول الله ﷺ: إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع. ثم لما صنع بخيبر ما صنع من قتْل مرحب، وفرار من فرَّ بها قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ليس بفرار». فإخباره أنه ليس بفرار معَرّضاً عن القوم الذين فرّوا قبله، فافتتحها وقتل مرحباً وحمل بابها وحده فلم يطقه دون أربعين رجلاً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهض مسروراً، فلما بلغه أن رسول الله ﷺ قد أقبل إليه انكفأ إليه، فقال له رسول الله ﷺ: «بلغني بلاؤك، فأنا عنك راض». فبكى علي عليه السلام عند ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك، ما يبكيك؟ فقال: وما لي لا أبكي ورسول الله عني راض؟ فقال له رسول الله ﷺ: إن الله وملائكته ورسوله عنك راضون. وقال له: لولا أن يقول فيك

---

(١) المرتضى: الفصول المختارة. ص ٢٩٢ - ٢٩٥.

(٢) لم تثبت نسبة الكتاب للشيخ المفيد.

(٣) الأخماس: الجيوش والمقاتلون.

(٤) يكع: يجبن.

(٥) أي لم يفرح الإمام علي بهذه البطولات ولم يختل ولم يشعر بالغرور ولا عاش البطر.

الطوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم ، لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر بملأ من المسلمين قلّوا أو كثروا، إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يطلبون بذلك البركة»)[١].

ابن عبدالبَر الأندلسي:

هو الشيخ أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر القرطبي الأندلسي المالكي «٣٦٨ هـ- ٤٦٧ هـ»، من كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ مشهور، كانت له رحلات طويلة في شرقي الأندلس وغربيها، وولي قضاء لشبونه وشَنتَرين، وله مؤلفات عديدة من بينها «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» و «العقل والعقلاء».

قال في الاستيعاب: **(أجمَعوا على أنه شهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد، وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخيبر بلاءً عظيماً، وأنه أغنى في تلك المشاهد، وقام فيها المقام الكريم، وكان لواء رسول الله ﷺ بيده في مواطن كثيرة، وكان يوم بدر بيده على اختلاف في ذلك. ولما قُتل مصعب بن عمير يوم أحُد وكان اللواء بيده دفعه رسول الله ﷺ إلى علي)**[٢].

الراغب الأصفهاني:

الحسين بن محمد بن المفضل الملقب بالراغب الأصفهاني «ت ٥٠٢ هـ» أديب وعالم. له عدة مؤلفات من بينها

(١) المفيد : الاختصاص. ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) ابن عبدالبر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ج ٣. ص ١٠٩٦ – ١٠٩٧ . وسيأتي تحقيق مسألة اللواء لاحقاً في تفاصيل معركة أحد .

«المفردات في غريب القرآن» وهو أشهر كتبه، و «الذريعة إلى مكارم الشريعة» و «جامع التفاسير» و «حل متشابهات القرآن» و «الأخلاق» و «محاضرات الأدباء». قال الزركلي عنه: (**اشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزّالي**)[١].

قال في كتابه محاضرات الأدباء: (**كانت قريش إذا رأت أمير المؤمنين في كتيبة، تواصت خوفاً منه. ونظر إليه رجل. وقد شق العسكر. فقال: قد علمت أن ملك الموت في الجانب الذي فيه علي**)[٢].

۞ القاضي عِيَاض:

هو عِيَاض بن موسى اليحصبي السبتي «٤٧٦ هـ - ٥٤٤ هـ» عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. له مصنفات كثيرة، وصفها ابن خلكان في وفيات الأعيان: (**كل تواليفه بديعة**)[٣]، ومن بينها: «كتاب الشفا»، و «إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم»، و «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، و «مشارق الأنوار على صحاح الآثار»، و «الإعلام بحدود قواعد الإسلام»، و «ترتيب المدارك وتنوير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك».

قال: (**لعلي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **من الشجاعة والعلم والحلم والزهد والورع وكرم الاخلاق وغير ذلك من المناقب ما لا يسعه كتاب**)[٤].

۞ ابن شهراشوب:

هو محمد بن علي بن شهراشوب السروي المازندراني «٤٨٨ هـ - ٥٨٨ هـ»، من علماء الإمامية، له عدة مؤلفات من بينها «أسباب نزول القرآن» و «الفصول» و «مناقب آل أبي طالب». وقد ذكر في مناقب آل أبي طالب عدة نصوص حول شجاعة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما روى أحاديث وأقوال للعلماء حول أسباب نزول بعض الآيات فيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولابد من حمل بعضها على أنها تنطبق عليه لا أنها نزلت فيه، من قبيل آيات سورة المدثر التي سيذكرها لاحقاً: ﴿**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**﴾[٥].

قال: **اجتمعت الأمة ووافق الكتاب والسنة أن لله خيرة من خلقه، وأن خيرته من خلقه المتقون، قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[٦]**، وأن خيرته من المتقين المجاهدون، قوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾**[٧]**، وأن خيرته من المجاهدين السابقون إلى الجهاد، قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية**[٨] **... ، وأن خيرته من المجاهدين السابقين أكثرهم عملاً في الجهاد، واجتمعت الأمة على**

---

(١) الزركلي: الأعلام - ج ٢ - ص٢٥٥.
(٢) الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء - ج ٣ - ص ١٣٨.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان - ج ٤ - ص ١٣٠٦.
(٤) المازندراني: شرح أصول الكافي. ج ٧. ص ٢٠٣.
(٥) سورة المدثر: ٤٩-٥١.
(٦) سورة الحجرات: ١٣.
(٧) سورة النساء: ٩٥.
(٨) سورة الحديد: ١٠. وتتمتها: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أن السابقين إلى الجهاد هم البدريون، وأن خيرة البدريين علي، فلم يزل القرآن يصدّق بعضه بعضاً باجماعهم، حتى دلّوا بأن علياً خيرة هذه الأمة بعد نبيها.

العلوي البصري:

ولَو يَستَوي بِالنُّهوضِ الجُلوسُ ... لما بَينَ اللهُ فَضْلَ الجِهادِ

..... قد اجتمعت الأمة على أن علياً كان المجاهد في سبيل الله، والكاشف الكروب عن وجه رسول الله، المقدَّم في سائر الغزوات إذا لم يحضر النبي ﷺ، وإذا حضر فهو تاليه، وصاحب الراية واللواء معاً، وما كان قط تحت لواء جماعة أحد، ولا فرّ من زحف.... وقال الزاهي:

أيُجعَل سَيِّدُ الثَّقلين شَبهاً ... لما لا يَرتَضيه لَهُ غُلاما

إلى مَن قَطُّ لم يَهزِم شُجاعاً ... ولم يَحمِل بِقَبضَتِهِ حُساما

... تفسير عطاء الخراساني قال ابن عباس في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[١]، أي قوّى ظهرك بعلي بن أبي طالب. أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن مجاهد في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾[٢]، أي قوّمك بأمير المؤمنين وجعفر وحمزة وعقيل، وقد روينا نحو ذلك عن الكلبي عن أبي صالح عن أبي هريرة.

كتاب أبي بكر الشيرازي: قال ابن عباس: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني مكة ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[٣]، قال: لقد استجاب الله لنبيه دعاءه وأعطاه علي بن أبي طالب سلطانا ينصره على أعداءه... أبو المضا صبيح مولى الرضا عن الرضا عن آبائه عليهم السلام في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[٤]، قال: منهم علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال الناشي[٥]:

أيَا نَاصِرَ المصطَفَى أحمَدَ ... تَعلَّمْتَ نُصرَتَه مِن أبِيكا

وَنَاصَبْتَ نَصّابَه عُنوةً ... فَلَعْنَةُ رَبِّي عَلى نَاصِبِيكا

وَلَو آمَنوا بِنَبِيِّ الهُدى ... وبِاللهِ ذي الطَّوْلِ مَا ناصَبُوكا

---

(١) سورة الشرح: ٢-٣.

(٢) سورة الأنفال: ٦٢.

(٣) سورة الإسراء: ٨٠.

(٤) سورة غافر: ٥١.

(٥) العلامة أبو العباس، عبد الله بن محمد بن شرشير الأنباري ، الملقب بالناشي . قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: (من كبار المتكلمين، وأعيان الشعراء، ورءوس المنطق. له التصانيف. وكان قوي العربية والعروض، أدخل على قواعد الخليل شبهاً، ومثلها بغير أمثلة الخليل، وصنف في المنطق، وله قصيدة في عدة فنون، نحو أربعة آلاف بيت، وكان من أذكياء العالم. سكن مصر، وبها مات في سنة ثلاث وتسعين ومائتين).

.... قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[١]، وكان عليه السلام إذا صف في القتال كأنه بنيان مرصوص، وما قتل المشركين قَتْله أحد. سفيان الثوري: كان علي بن أبي طالب عليه السلام كالجبل بين المسلمين والمشركين أعز الله به المسلمين وأذل به المشركين.

قال العوني[٢]:

فُلكُ النَّجاةِ وبَابُ للجِنانِ غداً ... ومُلتجَى وصِراطٌ غَيرُ ذي جَنَفِ
جَنْبٌ عَزيزٌ يَلوذُ اللائِذونَ بِهِ ... حَبلٌ مَتينٌ قَويٌّ مُحكَمُ الطَّرفِ

ويقال أنه نزل فيه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾[٣]،

أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: نزل قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾[٤] في أمير المؤمنين... وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا خرج من بيته تبعه أحداث المشركين يرمونه بالحجارة حتى أدموا كعبه وعرقوبيه، وكان علي عليه السلام يحمل عليهم فينهزمون، فنزل: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[٥]. ولا خلاف أن أول مبارز في الاسلام علي وحمزة وأبو عبيدة بن الحارث في يوم بدر.

قال الشُّعبي: ثم حمل علي على الكتيبة مصمماً وحده، واجتمعت الأمة أنه ما رأي أحد ادُّعيَت له الإمامة عمل في الجهاد ما عمل عليّ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[٦]، ولقد فسر قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾[٧]، يعني علياً، لأن الكفار كانوا يسمونه الموت الأحمر، سموه يوم بدر لعظم بلائه ونكايته. قال العوني:

مَن اسمُهُ الموتُ في القُرآنِ فَهَل ... يَسبِقُهُ في الحُروبِ مَن هَرَبا
وَمَن رَأى وَحدَهُ مُبارزة ... إلا رَأى الموتَ مِنهُ والعَطَبا

... في بعض التفاسير أنه نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... الآية[٨]، في علي عليه السلام، لأنه قتل عشيرته مثل عمرو بن عبدود والوليد بن عتبة في خَلْق.

---

(١) سورة الصف: ٤.

(٢) طلحة بن عبيدالله العوني المصري، توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، يعد من شعراء أهل البيت المجاهرين بنصرهم.

(٣) سورة الحج: ٧٨.

(٤) سورة يونس: ٢٦.

(٥) سورة المدثر: ٥٠-٥١.

(٦) سورة التوبة: ١٢٠.

(٧) سورة آل عمران: ١٤٣. نعود ونؤكد مجدداً أن بعض هذه الأقوال في معاني الآيات هي من باب التطبيق لا التفسير وبيان أسباب النزول.

(٨) سورة المجادلة: ٢٢. وتتمة الآية كالتالي: ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قال أبقراط النصراني[١]:

أمَـا رَدَّ عَـمْـراً يَـومَ سَـلَـعٍ بِباتِر ... كَـأنَّ عَلى جَنبَيْهِ لَطْخَ العَنادِم
وعَادَ ابنُ مَعدي نَحو أحمدَ خاضِعاً ... كَشارِبِ أثْلٍ في خِطامِ الغَمائِم
وعاديتَ في الله القَبايلَ كلَّها ... ولم تَخشَ في الرَّحمنِ لومَةَ لائِم
وكُنتَ أحَقَّ الناسِ بَعدَ محمَّدٍ ... وَليسَ جَهولُ القَومِ فَضلاً كعالِم

... هو الفارس الذي يفرق العسكر كفرق الشعر، ويطويهم كطيّ السجل، الحربُ دأبُه، والجدُّ آدابُه، والنصرُ طبعُه، والعدوُّ غُنْمُه. جريٌّ خطّار[٢]، وجسورٌ هصّار[٣]، ما لسيفه إلا الرقاب قِراب[٤]، إنه لو حضر لكفى الحذر، ويقال له: غالب كل غالب، علي بن أبي طالب.

وقَد رَويتُم عَليٌّ كانَ أشجَعَه ... وأشجَعُ الجَمْعِ بِالأعداءِ أثْقَفَه

... وقال الزاهي[٥]:

هَذا الذي أرْدَى الوَليدَ وعُتبةَ ... والعَامِريَّ وذا الخِمارِ ومَرحَبا
هَذا الذي هَشَّمَت يَداهُ فَوارِساً ... قَسْراً ولَم يَكُ خائِفاً مُترقِّبا
في كُلِّ مَنبَتِ شَعرَةٍ مِن جِسمِهِ ... أسَدٌ يَمُدُّ إلى الفَريسَةِ مِخلَبا

وقال دعبل[٦]:

سِنانُ مَحمَّدٍ في كلِّ حَربٍ ... إذا نَهلَت صُدورُ السَّمْهَري
وأوَّلُ مَن يُجيبُ إلى بِرازٍ ... إذا زاغَ الكَميُّ عَن الكَمي
مَشاهِدُ لَم تَفِل سُيوفُ تَيْمٍ ... بِهُنَّ ولا سُيوفُ بَني عَدِي

وقال ابن حماد[٧]:

---

(١) أبقراط بن أشوط الأرميني، ويقال له الوامق، من أكبر القادة العسكريين في أرمينية في القرن الثالث، يوم سلع: غزوة الخندق، لأن جبل سلع يقع عند الخندق الذي حفره المسلمون. العنادم: الدم. أثل: شجر عظيم لا ثمر له، جمع أثلة. الخطام: كل ما وضع في فم البعير ليقتاد به. الغمائم جمع الغمامة: خريطة فم البعير. كناية عن نهاية الذلّة والخضوع.

(٢) خطار: طعان بالرمح.

(٣) هصار: هصور: شديد.

(٤) قراب، جمع قربة: غمد السيف وحمائله.

(٥) علي بن إسحاق بن خلف الزاهي القطان (٣١٨هـ-٣٥٢هـ)، شاعر بغدادي أكثر من مدح آل البيت.

(٦) دعبل بن علي بن رزان الخزاعي (١٤٨ هـ-٢٤٦ هـ)، شاعر كوفي معروف بولائه لآل البيت.

(٧) علي بن حماد بن عبيدالله العدوي، توفي أواخر القرن الرابع الهجري، كان عالماً وشاعراً. الطلا: الصغير من كل شئ. القرى: ما يقدم للضيف.

ذاكَ الفَتَى النَّجْدُ الذي إذا بَدا ... بِمَعْرَكٍ أَلْقَتْ لَهُ فِتيانُه
لَيثٌ لَو اللَّيثُ الجَريُّ خالَهُ ... أَطارَ مِن هَيبَتِه جَنانُه
ذاكَ الشجاعُ إذ بَدا بِمَعرَكٍ ... تَفَرَّقَت مِن خَوفِه شُجعَانُه
تبكِي الطِّلا إنْ ضَحِكَت أسيافُه ... ويَرتَوي إنْ عَطِشَتْ سِنانُه
صَقْرٌ ولكِنْ صَيدُهُ صَيدُ الوَغى ... لَيثٌ ولَكِنْ فَرَسَهُ فُرسانُه
تَرى سِباعَ البِيدِ تَقْفُوا أثرَه ... لأنَّها يَومَ الوَغى ضِيفانُه
يَقرُنُ أرواحَ الكُماةِ بالرَّدَى ... كَذاكَ خَاضَت دُونَهُ أقرانُه
وكَم كَمِيٍّ قَد سَقاهُ في الوَغَى ... وَلِيسَ تَخبُو لِلقِرى نِيرانُه

ومن قوله:

مُجلِي الكَرْبَ يَومَ الحَربِ ... في بَدْرٍ وفي أُحُدْ
إذا الهَيجاءُ هاجَ لها ... بِقلبٍ غَيرِ مُرتَعِدْ
تَرَى الأبطالَ بَاطِلَةً ... لِخَوفِ الفارِسِ الأسَدْ
فَأنفُسُهُم مُودَعَةٌ ... لَها بِتَنَفُّسِ الصُّعُدْ
وقَد خُنِقوا لِخِيفَةٍ ... فَلَستَ تَحُسُّ مِن أحَدْ
فَلا صَوتٌ بِغَيرِ البِيضِ ... فَوقَ البِيضِ والزُّرُدْ
سَقَى عَمْراً مَنِيَّتَه ... وعَمراً قَادَ في الصَّفَدْ

... وقالت جرهمة الأنصارية[1]:

صِهرُ النَّبيِّ فَذاكَ اللهُ أكرَمَهُ ... إذا اصطفَاهُ وذاكَ الصَّبرُ مُدَّخرُ
لا يَسلمُ القَرنُ مِنهُ إنْ ألَمَّ بِهِ ... ولا يَهابُ وإنْ أعداؤُه كَثُروا
مَن رامَ صَولَتَهُ وافَت مَنِيَّتُه ... لا يَدفَعُ الثَّكلَ عَن أقرانِه الحَذَرُ

ابن الجوزي:

هو الشيخ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي الحنبلي المشتهر بابن الجوزي «٥٠٨ هـ - ٥٩٧هـ»، عُرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره ببلدة واسط، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها، وقيل: نسبة إلى «فرضة الجوز» وهي مرفأ نهر البصرة. فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم، عُدَّ علاّمة عصره في التاريخ والحديث، وله

(١) ابن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب. ج ١. ص ٣٤١ - ٣٦٣. ولم أعثر على ترجمة لجرهمة الأنصارية.

نحو ٣٠٠ مؤلف، من بينها «زاد المسير في علم التفسير»، و «نواسخ القرآن»، و «الموضوعات من الأحاديث المرفوعات»، و «صفوة الصفوة»، و «تلبيس إبليس»، و «التذكرة في الوعظ».

قال في كتابه غريب الحديث: (**في حديث علي عليه السلام: أنه حمل على المشركين فما زالوا يبقطون. أي يتعادون في الجبال... وقال رجل: عند علي بن أبي طالب شجاعة ما تُنكش. أي ما تُستخرج لأنها بعيدة الغاية**)[١].

ابن أبي الحديد المعتزلي:

أبوحامد عزالدين عبدالحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد «٥٨٦ هـ - ٦٥٦ هـ» من أعيان المعتزلة وعلمائها، كان عالماً أديباً وشاعراً صاحب اطلاع واسع في التاريخ. ألّف عدة كتب من بينها «الفلك الدائر على المثل السائر»، و «العبقري الحسان»، ولكن أشهرها شرح نهج البلاغة.

وقد علق ابن أبي الحديد المعتزلي على كلام الشريف الرضي الذي ذكرناه قبل صفحات حين تحدث عن جمع الإمام عليه السلام للصفات التي يصعب الجمع بينها، فقال: (**كان أمير المؤمنين عليه السلام ذا أخلاق متضادة. فمنها ما قد ذكره الرضي رحمه الله وهو موضع التعجب، لأن الغالب على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أن يكونوا ذوي قلوب قاسية، وفتك وتمرد وجبرية. والغالب على أهل الزهد ورفض الدنيا وهجران ملاذها والاشتغال بمواعظ الناس وتخويفهم المعاد، وتذكيرهم الموت، أن يكونوا ذوي رقة ولين وضعف قلب، وخور طبع، وهاتان حالتان متضادتان، وقد اجتمعتا له عليه السلام. ومنها أن الغالب على ذوي الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوي أخلاق سبعية، وطباع حوشية[٢] وغرائز وحشية، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذوي انقباض في الأخلاق وعبوس في الوجوه ونفار من الناس واستيحاش. وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجع الناس وأعظمهم إراقة للدم، وأزهد الناس وأبعدهم عن ملاذ الدنيا، وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأيام الله ومثلاته، وأشدهم اجتهاداً في العبادة، وآداباً لنفسه في المعاملة. وكان مع ذلك ألطف العالم أخلاقاً، وأسفرهم وجهاً، وأكثرهم بِشراً، وأوفاهم هشاشة[٣]، وأبعدهم عن انقباض موحش، أو خلق نافر، أو تجهم مباعد[٤]، أو غلظة وفظاظة تنفر معهما نفس، أو يتكدر معهما قلب. حتى عِيبَ بالدعابة، ولما لم يجدوا فيه مغمزاً ولا مطعناً تعلقوا بها، واعتمدوا في التنفير عنه عليها، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها[٥]، وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة**)[٦].

وأضاف: (**ومنها أن الغالب على ذوي الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أن يكونوا قليلي الصفح، بعيدي**

---

(١) المرعشي: شرح إحقاق الحق - ج ٣٢ - ص ٣٣٦.

(٢) حوش الفؤاد: حديد الفؤاد، أي قلبه قاس كأنه من حديد.

(٣) هشاشة: بشاشة.

(٤) التجهم: الغلظة والوجه الكريه.

(٥) أي أن هذا ليس عاراً يلزق به.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج١ - ص ٥٠ - ٥١.

العفو، لأن أكبادهم واغرة[١]، وقلوبهم ملتهبة، والقوة الغضبية عندهم شديدة، وقد علمت حال أمير المؤمنين عليه السلام في كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح، ومغالبة هوى النفس، وقد رأيت فعله يوم الجمل، ولقد أحسن مهيار في قوله[٢]:

مهيار بن مرزويه الديلمي البغدادي (ت ٤٢٨هـ) عده ابن شهرآشوب من شعراء أهل البيت المجاهرين، وله ديوان شعر كبير، من غلمان الشريف الرضي، جمع بين فصاحة العرب ومعاني العجم.

حتّى إذا دارَت رَحَى بَغْيِهم ... عَليهم وسَبَقَ السَّيفُ العَذَلْ
عَاذوا بِعَفْوٍ مَاجِدٍ مِعودٍ ... للعَفوِ حَمَّالٌ لَهم عَلَى العِلَلْ
فَنَجّت البُقيا عَليهم مَن نَجا ... وأكَلَ الحَديدُ مِنهم مَن أكَلْ
أطّتْ بِهم أرحَامُهم فَلَم يُطِعْ ... ثائِرَةَ الغَيظِ ولَم يُشْفِ الغِلَلْ

ومنها أنّا ما رأينا شجاعاً جواداً قط، كان عبد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبخل الناس، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً. قال له عمر: لو وُلّيتها لظلْتَ تلاطم الناس في البطحاء على الصاع والمُد.

وأراد علي عليه السلام أن يحجر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال، فاحتال لنفسه، فشارك الزبير في أمواله وتجاراته، فقال عليه السلام: أما إنه قد لاذ بملاذ. ولم يحجر عليه.

وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً، أمسك عن الإنفاق حتى خلف من الأموال ما لا يأتي عليه الحصر. وكان عبد الملك شجاعاً وكان شحيحاً، يضرب به المثل في الشح، وسمي رشح الحجر، لبخله. وقد علمت حال أمير المؤمنين عليه السلام في الشجاعة والسخاء، كيف هي وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام)[٣].

وقال: (وكان يقال: الحياء تمام الكرم، والحلم تمام العقل. وقال بعض الحكماء: الحياء انقباض النفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان، لأنه لا يوجد في الفرس ولا في الغنم والبقر، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات، فهو كالضحك الذي يختص به نوع الإنسان. وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان الحياء، وقد جعله الله تبارك وتعالى في الإنسان ليرتدع به عما تنزع إليه نفسه من القبيح، فلا يكون كالبهيمة. وهو خلُق مركّب من جُبن وعفّة، ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً، ولا الفاسق مستحياً، لتنافي اجتماع العفة والفسق، وقلّما يكون الشجاع مستحياً والمستحي شجاعاً لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة، ولعزة وجود ذلك[٤]، ما يجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة والمدح بالحياء نحو قول القائل:

يَجْري الحَياءُ الغَضُّ مِن قَسَماتِهم ... في حِينِ يَجرِي مِن أكُفِّهِم الدَّمُ

---

(١) واغرة: حاقدة فيها غل وغيظ.

(٢) من قصيدة في ديوانه ج٣ ـ ص ١٠٩ - ١١٦ يذكر فيها مناقب الإمام وما مني به من أعدائه . أطت: حفت.

(٣) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١ ـ ص ٥٢ - ٥٣.

(٤) عزة: ندرة وقلة.

وقال آخر[١]:

كَـريمٌ يَغُضُّ الـطَّـرْفَ فَضْـلُ حَيائِه ... ويَـدنُـو وأطـرافُ الـرِّمـاحِ دَوانُ).

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي: (وأما الشجاعة: فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة، وهو الشجاع الذي ما فرّ قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى ثانية، وفي الحديث: كانت ضرباته وتراً.

ولما دعا معاوية إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما، قال له عمرو: لقد أنصفك.

فقال معاوية: ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم! أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق؟! أراك طمعت في إمارة الشام بعدي!

وكانت العرب تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابلته، فأما قتلاه فافتخار رهطهم بأنه عليه السلام قتلهم أظهر وأكثر، قالت أخت عمرو بن عبدود ترثيه[٢]:

لَـو كَـانَ قَـاتِـلُ عَـمـرٍو غَـيرَ قَـاتِـلِـه ... بَـكـيـتُـه أبـــداً مـا دُمْـــتُ في الأبَـــدْ

لَـكـنَّ قَـاتِـلَـه مَـن لا نَـظـيرَ لَـه ... وكـانَ يُـدعَـى أبـوهُ بَـيْـضَـةَ الـبَـلَـدْ

وانتبه يوماً معاوية، فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره، فقعد، فقال له عبد الله يداعبه: يا أمير المؤمنين، لو شئتُ أن أفتك بك لفعلت.

فقال: لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر!

قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف إزاء علي بن أبي طالب؟!

قال: لا جرَم إنه قتلك وأباك بيسرى يديه، وبقيت اليمنى فارغة، يطلب من يقتله بها.

وجملة الأمر أن كل شجاع في الدنيا إليه ينتهي، وباسمه ينادى في مشارق الأرض ومغاربها)[٣].

وقال: (قيل لشيخنا أبي عبد الله البصري رحمه الله: أتجد في النصوص ما يدل على تفضيل علي عليه السلام، بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه؟ فإنّ ذاك أمر مفروغ منه. فذكر حديث الطائر المشوي[٤]، وأن المحبة من الله سبحانه وتعالى إرادة الثواب. فقيل له: قد سبقك الشيخ أبو علي رحمه الله إلى هذا، فهل تجد غير ذلك؟

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١٩. ص ٤٥. ٤٦. دوان: خاضعة ذليلة.

(٢) من أبيات ذكرها ابن منظور في لسان العرب. فصل الباء الموحدة، مع اختلاف يسير، وقال معلقاً: بيضة البلد، يريد علي بن أبي طالب، أي أنه فرد ليس مثله في الشرف كالبيضة التي هي تريكة وحدها، ليس معها غيرها.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١. ص ٢٠ - ٢١.

(٤) يشير إلى ما رواه الترمذي في باب المناقب ج ١٣. ص ١٧٠، بسنده عن أنس بن مالك، ولفظه: (كان عند النبي طير فقال: اللهم ائتني بأحب خلقك إليك، يأكل معي هذا الطير. فجاء علي فأكل معه). وهو خبر مشهور في كتب الحديث والسيرة.

قال: نعم قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[١]، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص، فكل من زاد ثباته، زادت المحبة له، ومعلوم أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ ما فرَّ في زحف قط، وفرَّ غيره في غير موطن)[٢].

وقال في موضع آخر: (وأقسام العدالة ثلاثة، هي الأصول وما عداها من الفضائل فروع عليها:

الأولى: الشجاعة، ويدخل فيها السخاء لأنه شجاعة وتهوين للمال، كما أن الشجاعة الأصلية تهوين للنفس. فالشجاعُ في الحرب جوادٌ بنفسه، والجواد بالمال شجاعٌ في إنفاقه، ولهذا قال الطائي[٣]:

أيقَنْتُ أنَّ مِن السَّماحِ شَجاعَةً ... تُدمِي وأنَّ مِن الشَّجاعَةِ جُودا

والثانية: الفقه، ويدخل فيها القناعة والزهد والعزلة.

والثالثة: الحكمة، وهي أشرفها.

ولم تحصل العدالة الكاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلا لهذا الرجل، ومن أنصف عَلِم صحة ذلك، فإن شجاعته وجوده، وعفته وقناعته وزهده، يُضرب بها الأمثال.

وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية، فلم يكن من فن أحد من العرب، ولا نُقل في جهاد أكابرهم وأصاغرهم شئ من ذلك أصلاً، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة، ينفردون به، وأول من خاض فيه من العرب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل، مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة، والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصورونه، ولو فُهّموه لم يَفهموه، وأنّى للعرب ذلك! ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا[٤] في بحار المعقولات، إليه خاصة دون غيره، وسمّوه أستاذهم ورئيسهم، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها.

ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء[٥]، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فأما الشيعة من الإمامية والزيدية والكيسانية، فانتماؤهم إليه ظاهر. وأما الأشعرية فإنهم بآخره ينتمون إليه أيضاً، لأن أبا الحسن الأشعري تلميذ شيخنا أبي علي رَحِمَهُ اللهُ، وأبو علي تلميذ أبي يعقوب

الكيسانية هم الذين ادعوا إمامة محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية . والأشعرية هم أتباع أبوالحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠هـ . ٣٢٤ هـ) الذي قام بالجمع بين العقل والنقل في تكوين نظريته العقائدية .

(١) سورة الصف: ٤.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٣. ص ٢٦٣ . في غير موطن: في أكثر من موطن.

(٣) حاتم الطائي المعروف بسخائه بين العرب حتى ضرب به المثل .

(٤) لججوا : ولجوا.

(٥) يقصد المعتزلة.

الشحام، وأبو يعقوب تلميذ أبي الهذيل، وأبو الهذيل تلميذ أبي عثمان الطويل، وأبو عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء، فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علي عليه السلام. وأما الكرامية فإن ابن الهيصم[١] ذكر في كتاب المقالات أن أصل مقالتهم وعقيدتهم تنتهي إلى علي عليه السلام من طريقين:

الكرامية فرقة كلامية ظهرت في النصف الأول من القرن الثالث الهجري. سميت بذلك نسبة إلى مؤسسها محمد بن كرام السجستاني، وكان من القائلين بأن الإيمان هو القول باللسان دون المعرفة بالقلب، كما قال بتجسيم الله وتشبيهه بالخلق.

أحدهما: بأنهم يسندون اعتقادهم عن شيخ بعد شيخ، إلى أن ينتهى إلى سفيان الثوري، ثم قال: وسفيان الثوري من الزيدية، ثم سأل نفسه فقال: إذا كان شيخكم الأكبر الذي تنتمون إليه كان زيدياً، فما بالكم لا تكونون زيدية ؟ وأجاب بأن سفيان الثوري رحمه الله، وإن أشهر عنه الزيدية، إلا أن تزيّده إنما كان عبارة عن موالاة أهل البيت، وإنكار ما كان بنو أمية عليه من الظلم، وإجلال زيد بن علي وتعظيمه، وتصوينه في أحكامه وأحواله، ولم ينقل عن سفيان الثوري أنه طعن في أحد من الصحابة.

الطريق الثاني: أنه عد مشايخهم واحداً فواحداً، حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب علي، كسلمة بن كهيل، وحبّة العرني، وسالم بن الجعد، والفضل بن دكين، وشُعبة، والأعمش، وعلقمة، وهبيرة بن مريم، وأبي إسحاق الشعبي، وغيرهم. ثم قال: وهؤلاء أخذوا العلم من علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو رئيس الجماعة. يعنى أصحابه. وأقوالهم منقولة عنه ومأخوذة منه.

وأما الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهر أيضاً، مع طعنهم فيه، لأنهم كانوا أصحابه، وعنه مرقوا، بعد أن تعلموا عنه واقتبسوا منه، وهم شيعته وأنصاره بالجمل وصفين، ولكن الشيطان ران على قلوبهم، وأعمى بصائرهم)[٢].

وفي معرض تعليقه على كلام الإمام عليه السلام لابنه الحسن: (لا تدعونّ إلى مبارزة. فإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع). قال ابن أبي الحديد معلقاً: (قد ذكر عليه السلام الحكمة، ثم ذكر العلة، وما سمعنا أنه عليه السلام دعا إلى مبارزة قط، وإنما كان يُدعى هو بعينه، أو يدعو من يبارز، فيخرج إليه فيقتله، دعا بنو ربيعة بن عبد بن شمس بني هاشم إلى البراز يوم بدر، فخرج عليه السلام، فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام في قتل عُتبة، ودعا طلحة بن أبي طلحة إلى البراز يوم أُحد، فخرج إليه فقتله، ودعا مرحب إلى البراز يوم خيبر فخرج إليه فقتله. فأما الخرجة التي خرجها يوم الخندق إلى عمرو بن عبد ود فإنها أجلّ من أن يقال جليلة، وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هي إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائل: أيما أعظم منزلةً عند الله علي أم أبو بكر ؟

فقال: يا ابن أخي، والله لمبارزة عليٍّ عَمراً يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتربى عليها، فضلاً عن أبي بكر وحده.

---

(١) أبوعبدالله محمد بن الهيصم شيخ الكرامية في زمانه.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ٦. ص ٢٧٠ - ٢٧٢.

وقد روي عن حذيفة بن اليمان ما يناسب هذا، بل ما هو أبلغ منه، روى قيس ابن الربيع عن أبي هارون العبدي، عن ربيعة بن مالك السعدي، قال: أتيت حذيفة ابن اليمان فقلت: يا أبا عبد الله، إن الناس يتحدثون عن علي بن أبي طالب ومناقبه، فيقول لهم أهل البصيرة: إنكم لتفرطون في تقريظ هذا الرجل. فهل أنت محدّثي بحديث عنه أذكره للناس؟

فقال: يا ربيعة، وما الذي تسألني عن علي، وما الذي أحدثك عنه ؟! والذي نفس حذيفة بيده لو وضع جميع أعمال أمة محمد ﷺ في كفة الميزان منذ بعث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محمداً إلى يوم الناس هذا، ووضع عمل واحد من أعمال علي في الكفة الأخرى، لرجح على أعمالهم كلها.

فقال ربيعة: هذا المدح الذي لا يُقام له ولا يقعد ولا يُحمل، إني لأظنه إسرافاً يا أبا عبد الله !

فقال حذيفة: يا لكع[١]، وكيف لا يحمل ؟! وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحجموا عنه حتى برز إليه علي فقتله ؟! والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أمة محمد ﷺ إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة.

وجاء في الحديث المرفوع: إن رسول الله ﷺ قال ذلك اليوم حين برز إليه: برز الإيمان كله إلى الشرك كله.

وقال أبو بكر بن عياش: لقد ضرب علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَام ضربة ما كان في الإسلام أيمن منها[٢]، ضرْبتُه عمراً يوم الخندق، ولقد ضُرب عليٌّ ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها، يعنى ضربة ابن ملجم لعنه الله.

أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي الكوفي الحناط المقرئ (ت ١٧٣ هـ). كان من علماء الكوفة وعبادها، روى عنه: الثوري، ابن المبارك، أبو داود الطيالسي، أسود بن عامر شاذان المديني، أحمد بن حنبل. قال الذهبي في ميزانه: «صدوق ثبت في القراءة لكنه في الحديث يغلط ويهم».

وفي الحديث المرفوع أن رسول الله ﷺ لما بارز علي عَمْراً ما زال رافعاً يديه مقمحاً رأسه نحو السماء[٣]، داعياً ربه قائلاً: اللهم إنك أخذت مني عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، فاحفظ عليَّ اليوم علياً، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[٤].

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: والله ما شبَّهتُ يوم الأحزاب، قَتْلُ عليٍّ عمراً وتخاذل المشركين بعده إلا بما قَصَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من قصة طالوت وجالوت في قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾[٥].

---

(١) لكع: لئيم.
(٢) أيمن: أكثر بركة. .
(٣) أقمح رأسه: رفعه.
(٤) سورة الأنبياء : ٨٩.
(٥) سورة البقرة : ٢٥١.

وروى عمرو بن أزهر، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أن علياً عليه السلام لما قتل عَمْراً احتزّ رأسه وحمله فألقاه بين يدي رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر وعمر فقبَّلا رأسه، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل، فقال: هذا النصر ! أو قال: هذا أول النصر.

وفي الحديث المرفوع أن رسول الله ﷺ قال يوم قُتل عمرو: ذهبَت ريحُهم، ولا يغزوننا بعد اليوم ، ونحن نغزوهم إن شاء الله)[١].

وقال: (... وما أقول في رجلٍ تحبُّه أهلُ الذمَّة على تكذيبهم بالنبوة[٢]، وتُعظمُه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة، وتصوّر ملوك الفرنج والروم صورته في بيَعها وبيوت عباداتها، حاملاً سيفه، مُشمِّراً لحربه، وتصوِّر ملوكُ التُّرك والديلم صورتَه على أسيافها؟! كان على سيف عضد الدولة ابن بويه وسيف أبيه ركن الدولة صورته، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه ملكشاه صورته، كأنهم يتفاءلون به النصرَ والظفر.

وما أقول في رجل أحبَّ كلُّ واحد أن يتكثّر به، وودّ كلُّ أحد أن يتجمل ويتحسن بالانتساب إليه، حتى الفتوة التي أحسن ما قيل في حدِّها[٣]: ألا تستحسن من نفسك ما تستقبحه من غيرك، فإن أربابها نسبوا أنفسهم إليه، وصنفوا في ذلك كتباً، وجعلوا لذلك إسناداً أنهوه إليه، وقصروه عليه وسمّوه سيد الفتيان، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المروي، أنه سُمع من السماء يوم أحد: لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي)[٤].

وقال: (إن علياً عليه السلام كانت هيبته قد تمكنت في صدور الناس، فلم يكن يظن أن أحداً يقدم عليه غيلة أو مبارزة في حرب، فقد كان بلغ من الذِّكر بالشجاعة مبلغاً عظيماً لم يبلغه أحد من الناس؛ لا مَن تقدم، ولا مَن تأخر، حتى كانت أبطال العرب تفزع باسمه؛ ألا ترى إلى عمرو بن معديكرب . وهو شجاع العرب الذي تُضرب به الأمثال . كتب إليه عمر بن الخطاب في أمرٍ أنكره عليه وغدرٍ تخوّفه منه: أما والله لئن أقمتَ على ما أنت عليه لأبعثنّ إليك رجلاً تستصغر معه نفسك، يضع سيفه على هامتك فيخرجه من بين فخذيك! فقال عمرو . لما وقف على الكتاب . [٥]: هددني بعليٍّ والله)[٦].

۞ الملك الغساني:

قال علي بن داود بن يوسف الرسولي الغساني الملقب بالملك المجاهد، وهو من ملوك الدولة الرسولية باليمن «ت ٧٦٤ هـ» في «الأقوال الكافية والفصول الشافية في الخليل»: (وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقاتل فارساً وراجلاً، وحكي عن بعضهم قال: قلت لأمير المؤمنين: من أشجع الناس؟

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج ١٩ . ص ٦٠ – ٦٤.

(٢) أي مع إنكارهم لنبوة محمد والإسلام .

(٣) حدها : تعريفها ومعناها.

(٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج ١ . ص ٢٨ – ٢٩.

(٥) وقف على الكتاب : اطلع على محتواه.

(٦) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج ١٠ . ص ٢٥٩ .

قال: ابن صفية. يعني الزبير.

قال: فأتيت الزبير فقلت له: من أشجع الناس ؟

قال: الطُّهْر ابن فاطمة ـ يعني علياً ـ إلا أنه لا يقاتل إلا راجلاً.

فأتيت علياً فقلت له بما قال الزبير، فقال:

لَم يُطيقُوا أنْ يَنزلُوا فَنزَلنا وأخُو الحَرْبِ مَن أطاقَ النُّزولا

قال: فرجعت إلى الزبير فأعلمته بما قال أمير المؤمنين، فقال: صدق، هو والله أشجع مني فارساً وراجلاً)[١].

أحمد الحافي الشافعي:

أحمد بن محمد بن عاشر بن عبد الرحمن الحافي الحسيني الشافعي السلاوي «ت ١٧٥٠م»، مؤرخ. من آثاره: «تحفة الزائر في ترجمة فخر سلا ابن عاشر». قال في «التبر المذاب في بيان ترتيب الأصحاب»: (وأما الشجاعة فهو مشهور بها عند الخاص والعام فهي أنور من النهار وأضوء من الشمس لذوي الأبصار، وقد كان جماعة من الصحابة لهم صفات الشجاعة كعمر بن الخطاب والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وأبي دجانة الأنصاري، وكلٌّ منهم معترف لعلي بالرجحان على الشجعان، وقد شهدت له بالشجاعة مغازي النبي ﷺ، ففي غزاة بدر قتل فيها صناديد قريش كالوليد بن عتبة والعاص بن سعيد بن العاص الذي أحجم المسلمون عنه ونوفل بن خويلد.... ولم يزل يقتل واحداً بعد واحد حتى قتل نصف المقتولين وكانوا سبعين قتيلاً.

وفي غزاة أحد انهزم المسلمون وعليٌّ يدافع عنه، وصاح صائح في المدينة قُتل رسول الله ﷺ، فانخلعت القلوب، ولما أفاق ﷺ من غشيته قال: يا علي ما فعل المسلمون ؟

قال: نقضوا العهد وولّوا الدُّبُر.

فقال: يا علي، اكفني أمر هؤلاء .

فتعجبت الملائكة من ثباته فقال جبرئيل: قد عجبت الملائكة من حسن مواساة علي عليه السلام لك بنفسه.

فقال النبي ﷺ: ما يمنعه من ذلك وهو مني وأنا منه؟

وغزاة الخندق حين نادى عمرو بن ود[٢] بالبراز ، ولم يخرج إليه أحد وكأنها على رؤسهم الطير، فخرج إليه علي عليه السلام وقتله. قال ربيعة السعدي: أتيت حذيفة اليمان فقلت: يا أبا عبد الله إنا لنتحدث عن علي عليه السلام ومناقبه فيقول أهل البصرة: إنكم لتفرطون في علي عليه السلام. فهل تحدثني بحديث؟

فقال حذيفة: والذي نفسي بيده، لعمل علي عليه السلام في مقاماته وجهاده لا يوازيه عمل عامل من أصحاب

---

(١) المرعشي: شرح إحقاق الحق. ج ٣٢. ص ٣٠٦.

(٢) الصحيح: عبد ود.

رسول الله ﷺ، وأين كان حذيفة وأصحاب رسول الله يوم عمرو بن ود وقد دعا للبراز وأحجم الناس ما خلا علي عَلَيْهِ السَّلَام، فإنه برز إليه فقتله. والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أصحاب محمد ﷺ. وفي غزاة بني المصطلق قتل ملكاً وابنه، واصطفى جويرية بنت الحارث فاصطفاها النبي ﷺ. وفي غزاة خيبر كان الفتح فيها له، قتل مرحباً وانهزم الجيش بقتله، وغلّقوا باب الحصن فعالجه ورمى به وجعله جسراً على الخندق للمسلمين، وظفروا بالحصن وأخذوا الغنائم. وقال عَلَيْهِ السَّلَام: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية بل بقوة ربانية.

وفي غزاة حنين مع كثرة المسلمين انهزموا ولم يثبت إلا علي عَلَيْهِ السَّلَام وتسعة رهط من هاشم فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، يريد علياً ومن ثبت معه، وقتل جمعاً كثيراً فانهزم المشركون ووقع الأمر فيهم وابتُلي بجميع الغزوات وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

روى أبو بكر الأنباري في أماليه: إن علياً جلس إلى جانب عمر بن الخطاب في المسجد، فلما قام عرض واحدٌ بذكره ونسبَه إلى النية[٢] والعُجُب. فقال عمر: حقٌّ لمثله ذلك، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بَعدُ أقضى الأمة وذو سابقتها وشرفها)[٣].

◎ توماس كارليل:

الكاتب والفيلسوف والمستشرق الإنجليزي توماس كارليل «١٧٩٥ م - ١٨٨١ م»، صاحب كتاب «الأبطال و التنظيمات الحضارية في الإمبراطورية الإسلامية».

قال: (أما ذلك الفتى علي فلا يسعك إلا أن تحبه، ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة، وتجلّى في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس، وآتاه الفروسية وجرأة الليث، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية)[٤].

◎ محمد رشيد رضا:

الشيخ محمد رشيد رضا القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب «١٢٨٢ هـ - ١٣٥٤ هـ»، صاحب مجلة المنار، وتلميذ الشيخ محمد عبده، و اعتُبر من رجالات الإصلاح في عهده.

قال في كتابه «الإمام علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه» رابع الخلفاء الراشدين»: (شهد علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الغزوات مع

---

(١) سورة التوبة: ٢٥-٢٦.

(٢) لعله يقصد الرياء.

(٣) المرعشي: شرح إحقاق الحق. ج ٣٢. ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٤) الزيات: تاريخ الأدب العربي. ص ٩٧.

رسول الله ﷺ، فكان له فيها شأن عظيم، وأظهر شجاعة عجيبة، وأعطاه رسول الله ﷺ اللواء في مواطن كثيرة...).

وبعد أن عدّد مواطن بطولاته قال: (يُعلم مما تقدم أن علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ربي في بيت النبوة، وكان أسبق الناس إلى الإسلام، ونشأ وقد أشربت روحه بتعاليمه، وشبّ على الصلاح، ورأى الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، فكان من كتّابه، لكن لم يبلغنا متى وكيف وممن تعلم القراءة والكتابة ؟ وهو الذي كتب بخطه ما أملاه عليه رسول الله من صلح الحديبية، وقد خالط الرسول وعاشره وحفظ القرآن وسمع الحديث ورواه وتفقه في الدين. وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شجاعاً بطبعه، فهو من سلالة أبطال شجعان. وقضى زهرة شبابه في الدفاع عن رسول الله ونشر لواء الإسلام، وتثبيت دعائمه غير هيّاب ولا وجل.

وكلما راجعنا غزوات رسول الله وجدنا اسم علي مقروناً بها، فتارة نجده يحمل اللواء، وتارة يفرّق جموع الأعداء ويلم شمل المجاهدين، ويبارز أبطال القريش أعداء الإسلام، فيصرعهم ويفتح الحصون المستعصية، ويهدم الأصنام، وهو صاحب الفضل في دخول هَمْدان في الإسلام، وهي قبيلة كبيرة في اليمن، حتى خرج رسول الله ساجداً شكراً لله على إسلامها. أصابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم أُحُد ست عشرة ضربة)[1].

محسن الأمين العاملي:

المرجع الديني الراحل السيد محسن بن عبدالكريم الأمين الحسيني العاملي «١٢٨٢ هـ - ١٣٧١ هـ»، ولد في قرية شقراء من أعمال مرجعيون بجبل عامل، وتعلم بها ثم في النجف الأشرف، واستقر لاحقاً في دمشق وهو يحمل مشروعاً إصلاحياً، ولاقى معارضة عنيفة إلا أنه لم يتوانَ في إنجازه، وآثار ذلك حاضرة إلى هذا اليوم في بلاد الشام وغيرها. كما كان السيد الأمين مكثراً من التأليف والدفاع عن الإسلام والمذهب، ومن أشهر مؤلفاته أعيان الشيعة الذي هو من أهم مصادر كتابنا هذا.

في موسوعته «أعيان الشيعة» في معرض حديثه حول خصائص الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (الثامن: الشجاعة وامتيازه بها وتفوقه فيها ملحق بالضروريات... أقول: لا يمكن أن توصف الشجاعة

(١) المرعشي: شرح إحقاق الحق. ج ٣٢. هامش ص ٣٠٦.

بأكثر من أنه ما نكَل[١] عن مُبارز ، ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا فرّ قط، ولا ضَرب ضربة فاحتاج إلى ثانية، وكان يقول: ما بارزتُ أحداً إلا وكنت أنا ونفسُه عليه. وفي كتاب عجائب أحكامه قيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تعدّ فرساً للفر والكر ؟

فقال: أما أنا فلا أفرّ، ومن فرّ مني فلا أطلبه.

وكفى في ذلك مبيته على الفراش ليلة الغار معرضاً نفسه للأخطار لم يخف ولم يحزن، فوقى النبي ﷺ بنفسه وفداه بمهجته، غير هياب ولا متردد ولا حزين. وخروجه بالفواطم[٢] جهاراً من مكة، ولحوق الفوارس الثمانية به لما علموا بخروجه حنقين عليه عازمين على قتله إن لم يرجع راغماً...

ولا بد أن يكونوا من شجعان مكة وأبطالها لأن من ينتدب لمثل ذلك لا يكون من جبناء الناس، وهم فرسان وهو راجل، وهم ثمانية وهو واحد، وليس معه إلا أيمن ابن أم أيمن وأبو واقد الليثي، وهما لايغنيان عنه شيئاً، وقد أخذ الهلع أبا واقد حين رأى الفرسان، فسكّن جأشه، ولم يُنقل أنهما عاوناه بشئ، بل كان حظهما حظ الواقف المتفرج، وهو ليس بحاجة إلى مساعد، على أن ثمانية فوارس ولو لم يكونوا في الدرجة العالية من الشجاعة لا يفلت منهم رجل واحد في العشرين من سنّه أو تجاوزها بقليل مهما كان شجاعاً، فيمكنهم أن يحيطوا به من كل جانب فيقتلوه ولو رضخاً بالحجارة، فإذا كرّ على الذين أمامه حمل عليه الذين وراءه، أو كرّ على الذين وراءه حمل عليه الذين أمامه، فلا يمكنه الخلاص ويسهل عليه قتله أو أسره، أمّا أن يكون رجل واحد على قدميه يشدّ على فارس في مقدمة ثمانية فوارس، ولا بد أن يكون أشجعهم فيقدّه نصفين ويصل سيفه إلى قربوس فرسه[٣]، فهذا شئ خارق للعادة من شاب لم يسبق له مباشرة الحرب قبل هذا، وهو منتهى الشجاعة والجرأة والإقدام، فلا جرم أن ترتعد منه فرائض الباقين فيولّوا هاربين مذعورين ويطلبوا منه أن يكف عنهم ، فكانت هذه أول مظهر من مظاهر شجاعته الخارقة...

وما كان منه في وقعة بدر... التي بها تمهدت قواعد الدين، وأذل الله جبابرة المشركين، وقتلت فيها رؤساؤهم، ووقعت الهيبة من المسلمين في قلوب العرب واليهود وغيرهم، فقد كان في هذه الوقعة قطب رحاها وليث وغاها، بارز الوليد بن عتبة أول نشوب الحرب، فلم يلبثه حتى قتله، وشارك عمه حمزة في قتل عتبة، واشترك هو وحمزة وعبيدة في قتل شيبة فأجهزوا عليه.

قال المفيد: فكان قتل هؤلاء الثلاثة أول وهنٍ لحق المشركين ودخل عليهم، ورهبة اعتراهم بها الرعب من المسلمين، وظهر بذلك إمارات نصر المسلمين.

قال: وبرز إليه حنظلة بن أبي سفيان فقتله، وبرز إليه من بعده طعيمة بن عدي فقتله، وقتل بعده نوفل بن

---

(١) نكل عنه: جبن ونكص وتراجع.

(٢) الفواطم، جمع فاطمة ، ويقصد بهن فاطمة الزهراء وفاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب.

(٣) القربوس : حنو السرج.

خويلد وكان من شياطين قريش، ولم يزل يقتل واحداً منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم[١]، وكانوا سبعين قتيلاً، تولى كافة من حضر بدراً من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين قتل الشطر منهم، وتولى أمير المؤمنين قتل الشطر الآخر وحده بمعونة الله له وتأييده وتوفيقه ونصره، وكان الفتح له بذلك وعلى يديه.

وما كان منه في وقعة أُحُد... فقد كان قطب رحاها وليث وغاها وعليه مدارها وهو واحدها وقائدها كما كان كذلك يوم بدر، والمتأمل فيما ذكره أهل السير والتواريخ لا يشك في ذلك مهما دس الدساسون، ومهما أرادوا أن يجعلوا له مشاركاً في بعض مزاياه التي امتاز بها في تلك الوقعة وغيرها، لكن المطالع للأخبار يعرف بأقل نظرة صحة ما قلناه، فقد امتاز في تلك الوقعة كغيرها مع الوقائع بأمور كثيرة... وقتله عزوراً اليهودي لما رمى قبة[٢] النبي ﷺ ليلاً وهو يحاصر بني النضير ، فلحقه علي حتى قتله وجاء برأسه، وكان معه تسعة فهربوا فلحقهم بعشرة من المسلمين فقتلوهم، وكان ذلك سبب فتح حصون بني النضير. ومبارزته يوم الخندق عمرو بن عبد ود فارس يليل، وقد جبن عنه الناس، والنبي ﷺ يندبهم لمبارزته ويضمن لمبارزه الجنة، فسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير إلا علي بن أبي طالب، فبارزه وقتله ولحق بعض من كان معه وهو نوفل بن عبد الله فقتله في الخندق، وانهزم بقتله المشركون وكفى الله المؤمنين القتال به، وكانت ضربته في ذلك اليوم تعدل عمل الثقلين إلى يوم القيامة.

قال المفيد: وفي الأحزاب أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[٣]. قال: فتوجه العتب إليهم والتوبيخ والتقريع، ولم ينجُ من ذلك أحد بالاتفاق إلا أمير المؤمنين، إذ كان الفتح له وعلى يديه، وكان قتله عمْراً ونوفل بن عبد الله سبب هزيمة المشركين. وقال رسول الله ﷺ بعد قتله هؤلاء النفر: الآن نغزوهم ولا يغزوننا. وقد روى يوسف بن كليب عن سفيان بن زيد عن قرة وغيره من عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بعلي[٤] .

ومبارزته مرحباً يوم خيبر، وقتله، وفتح الحصن ودحو الباب بعد ما رجع غيره منهزماً يجبّن أصحابه ويجبّنونه، أو منهزماً يؤنّب قومه ويؤنّبونه...

وثباته يوم حنين مع رسول الله ﷺ وقد هرب عنه الناس غير عشرة تسعة من بني هاشم والعاشر أيمن بن أم أيمن، وقتْله أبا جرول وأربعين من المشركين غيره، وانهزام المشركين بقتله وقتلهم، ورجوع المسلمين من هزيمتهم بثباته ومن معه الذين كان ثباتهم بثباته.

---

(١) شطر : تنصيف.

(٢) قبة: خيمة.

(٣) الأحزاب:١٠- ٢٥.

(٤) هذه الإضافة من ابن مسعود تعد نحواً من التفسير لا التنزيل ، وهو شائع آنذاك .

قال المفيد: وذلك أنّا أحطنا علماً بتقدمه في الشجاعة والبأس والصبر والنجدة على العباس والفضل ابنه وأبي سفيان بن الحارث والنفر الباقين لظهور أمره في المقامات التي لم يحضرها أحد منهم، واشتهار خبره في منازلة الأقران وقتل الأبطال، ولم يُعرف لأحد من هؤلاء مقام من مقاماته ولا قتيل عُزي إليهم بالذكر، فعُلم بذلك أن ثبوتهم كان به، وأن بمقامه ذلك وصبره مع النبي ﷺ كان رجوع المسلمين إلى الحرب وتشجعهم في لقاء العدو.

وما كان منه في غزوة أوطاس والطائف فكان الفتح فيها على يده، وقتل فيها من قتل من خثعم، إلى غير ذلك من غزواته ووقائعه في زمن النبي ﷺ.

أما وقائعه بعد وفاة رسول الله ﷺ بعد ما بويع بالخلافة أيام الجمل وصفين والنهروان فاشتهار شجاعته العظيمة فيها قد زاد عن حد الضرورة.

ففي يوم الجمل ثبت الفريقان وأشرعوا الرماح بعضهم في صدور بعض كأنها آجام القصب[١]، ولو شاءت الرجال أن تمشي عليها لمشت، وكان يُسمع لوقع السيوف أصوات كأصوات القصّارين[٢]. ولما اشتد القتال وقامت الحرب على ساقها زحف عليه السلام نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل حتى طحن العسكر ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته، فقال له أصحابه وبنوه: نحن نكفيك. فلم يُجب أحداً منهم ولا رد إليهم بصره، وظل ينحط[٣] ويزأر زئير الأسد ، ثم حمل حملة ثانية وحده، فدخل وسطهم يضربهم بالسيف قدماً قدماً والرجال تفر من بين يديه وتنحاز عنه يمنة ويسرة، حتى خضّب الأرض بدماء القتلى، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته، فاجتمع عليه أصحابه وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام، فقال: والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة.

ثم قال لمحمد: هكذا تصنع يا ابن الحنفية.

فقال الناس: من الذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين ؟!

ومن مواقفه في صفين ما كان يوم الهرير، قال بعض الرواة: فوالله الذي بعث محمداً بالحق نبياً ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب علي، إنه قتل فيما ذكر العادّون زيادة على خمسمائة من الأعلام، يخرج بسيفه منحنياً فيقول: معذرةً إلى الله وإليكم من هذا، لقد هممت أن أفلقه[٤]، ولكن يحجزني عنه أني سمعت رسول الله يقول: لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي. وأنا أقاتل به دونه. فكنا نأخذه فنقوّمه ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف، فلا والله ما ليثٌ بأشد نكاية منه في عدوه. وكان في أوائل أيام صفين يسهر الليل كله إلى الصباح يعبّئ الكتائب، ويؤمّر الأمراء ويعقد الألوية،

---

(١) آجام: جمع أجمة، أي الشجر الكثيف الملتف.

(٢) القَصَّارُ : المبيِّضُ للثِّياب ، وهو الذي يُهَيِّئُ النسيجَ بعد نَسجه بِبَلِّه ودقِّه بالقَصَرَة .

(٣) النحط : الزفير.

(٤) في بعض المصادر (أصقله) أي أزيل ما به من حفر نتيجة الضرب به ، ولعله هو الصحيح ، فلا معنى لأفلقه هنا .

ومرّ في اليوم السابع ومعه بنوه نحو الميسرة والنبل يمر بين عاتقيه ومنكبيه وما من بنيه إلا من يقيه بنفسه، فيكره ذلك ويتقدم نحو أهل الشام ويؤخر الذي يقيه إلى ورائه. وهو الذي لبس يوم صفين سلاح العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما برز إليه اللخميان، فبرز إليه أحدهما فكأنما اختطفه، ثم برز إليه الآخر فألحقه بالأول.

وهو الذي قتل الحِمْيري الذي لم يكن في الشام أشهر منه بالبأس والنجدة بعد أن قتل ثلاثة من أهل العراق مبارزة ورمى أجسادهم بعضها فوق بعض، ووقف عليها بغياً وعتوّاً، فضربه أمير المؤمنين عليه السلام ضربةً خرَّ منها قتيلاً يتشحّط في دمه[١]، وقتل معه اثنين، وتلا: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

التاسع[٣]: القوة والأيد، وحسبك في ذلك قلعه باب خيبر وجعله جسراً على الخندق، وكان يغلقه عشرون رجلاً، وتترّسه يومئذ ببابٍ لم يستطع قلبُه ثمانية نفر.

قال المفيد: روى أصحاب الآثار عن الحسن بن صالح عن الأعمش عن أبي عبدالله الجدلي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لما عالجت باب خيبر جعلته مِجَنّاً لي[٤]، فقاتلتهم به، فلما أخزاهم الله وضعت الباب على حصنهم طريقاً، ثم رميت به في خندقهم.

فقال له رجل: لقد حملت منه ثقلاً !

فقال: ما كان إلا مثل جُنَّتي التي في يدي غير ذلك المقام[٥].

ذكر أصحاب السيرة أن المسلمين لما انصرفوا من خيبر راموا حمل الباب، فلم يُقله منهم إلا سبعون رجلاً...

قال ابن أبي الحديد: أما القوة والأيد فبه يُضرب المثل فيهما، قال ابن قتيبة في المعارف: ما صارع أحداً قط إلا صرعه. وهو الذي قلع باب خيبر واجتمع عليه عُصبة من الناس ليقلبوه فلم يقدروا، وهو الذي اقتلع هُبل من أعلى الكعبة، وكان عظيماً كبيراً جداً، فألقاه إلى الأرض، وهو الذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته بيده بعد عجز الجيش كله عنها، فانبطّ الماء من تحتها... وهو الذي قطع حريثاً مولى معاوية نصفين يوم صفين لما أغراه عمرو بن العاص بمبارزته، وكان معاوية يعدّه لكل مبارز وكل عظيم، وكان يلبس سلاح معاوية متشبهاً به، وكان يقول له: اتّقِ علياً وضَعْ رمحك حيث شئت[٦]. وهو الذي كان يقتلع الفارس من ظهر جواده بيده ويرمي به إلى الأرض من فوق رأسه، فعل ذلك أيام صفين بأحمر مولى بني أمية لما همّ أن يضرب أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن قتل كيسان مولاه، فوضع أمير المؤمنين عليه السلام يده في جيب درع أحمر، وجذبه عن فرسه وحمله على عاتقه، ثم

---

(١) يتشحط: يتمرغ.

(٢) سورة البقرة: ١٩٤ . و ستأتي تفاصيل ذلك كله في معرض الحديث حول حرب صفين بإذن الله .

(٣) التاسع من خصائص الإمام علي التي أوردها الأمين في كتابه.

(٤) المجن: الدرع وما يحتمى به.

(٥) أي كانت من حيث الثقل بالنسبة إلي في ذلك الموقف ، كثقل جُنته التي كان يستخدمها في المواقف الأخرى.

(٦) سنأتي على ذكر الحادثة ضمن أخبار حرب صفين.

ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضديه وأجهز عليه الحسين وابن الحنفية. وهو الذي كان إذا أمسك بذراع أحد أمسك بنفَسه فلم يستطع أن يتنفس، ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب. وقد قبض على يد خالد بن الوليد ليلة المبيت على الفراش حين تقدم إليه أمام القوم فجعل يقمص قماص البكر [١]، رواه الشيخ الطوسي في أماليه.

العاشر: الجهاد في سبيل الله وتفوقه فيه على كافة الخلق ملحق بالضروريات، والاستدلال عليه يُعد من العبث، فهو كالاستدلال على وجود الشمس الضاحية. وقد شهد مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها غير تبوك، وفي جميعها يكون الفتح له وعلى يديه، وقد قتل الله بسيفه صناديد المشركين وجبابرة قريش وطواغيت العرب، وفي جميع الوقائع تكون قتلاه أزيد ممن قتله باقي الجيش، حتى أنه في يوم بدر زادت قتلاه على قتلى الجيش وهو شاب لم يتجاوز العشرين أو الخمسة والعشرين، ومثله في هذا السن يكون قليل البصيرة بالحرب ناقص الخبرة بالطعن والضرب، وهذا داخل في المعجزات خارج عن مجرى العادات، ولو عُدّ في عداد معجزات النبي ﷺ لكان صواباً، بل إذا عُدّ علي بن أبي طالب إحدى معجزاته ﷺ كان عين الصواب.

قال المفيد: وأما الجهاد الذي ثبتت به قواعد الإسلام واستقرت بثبوتها شرائع الملة والأحكام، فقد تخصص منه أمير المؤمنين بما اشتهر ذكره في الأنام واستفاض الخبر به بين الخاص والعام، ولم يختلف فيه العلماء ولا شك فيه إلا غفل لم يتأمل الأخبار ولا دفعه أحد ممن نظر في الآثار، إلا معاند بهّات لا يستحي من العناد. ثم ذكر جهاده في بدر وغيرها.

وقال ابن أبي الحديد: أما الجهاد في سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوه وأنه سيد المجاهدين، وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ؟! ....

وإذا رجعت إلى مغازي محمد بن عمر الواقدي و تاريخ الأشراف ليحيى بن جابر البلاذري وغيرهما علمت صحة ذلك، دع من قتله في غيرها كأحد والخندق وغيرهما، وهذا الفصل لا معنى للإطناب فيه لأنه من المعلومات الضرورية كالعلم بوجود مكة ومصر ونحوها)[٢].

عباس العقاد:

هو الأديب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد «١٣٠٦ ـ ١٣٨٣ هـ»، ولد في أسوان بمصر، وبها تلقى تعليمه الابتدائي، ثم انطلق في عالم الأدب والفكر والثقافة معتمداً على نفسه لشغفه في المطالعة والبحث، فغدا واحداً من أعلام عصره، وصنّف ٨٣ كتاباً. قال في كتابه عبقرية علي: (فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرّف بها من يصيب بها ومن يصاب، ويزيدها تشريفاً أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء، فلا يعرف

(١) القمص : رفع اليدين وطرحهما معاً مع العجن بالرجلين .

(٢) محسن الأمين : أعيان الشيعة ـ ج ١ ـ ص ٣٣٨ - ٣٤٠.

الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجاهدة رأي، وهي التورع عن البغي، والمروءة مع الخصم، قوياً أو ضعيفاً على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.فمن تورعه عن البغي، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، إنه لم يبدأ أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن: لا تدعونَّ إلى مبارزة، فإن دُعيت إليها فأجب ، فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع. وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له: إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك. فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون.

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمُض، يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قوماً، فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفّرونه، فصاح معجباً إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: قاتله الله كافراً ما أفقهه.

فوثب أتباعه ليقتلوه فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سبٌّ بسبٍّ أو عفوٌ عن ذنب.

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن عبد ود: إني لا أكره أن أهريق دمك.

ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين، فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنِف، وقال: إذاً تتحدث العرب بفراري.

وناشده: يا عمرو ، إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلّتين إلا أخذت منه إحداهما.

قال: أجل.

قال: فإني أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال.

قال: ولم يا بن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك.

فلم يكن له بُد بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو يُقتَل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء ، لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة، فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كُريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين: من يبارز ؟

فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى: من يبازر ؟

فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى: من يبارز ؟

فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه، ثم نادى رابعة: من يبارز ؟

فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه، وخاف في أن يشيع الرعب بين صفوفه

فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه، ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم قال مُسمعاً الصفوف: يا أيها الناس، إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[١]، ولو لم تبدؤونا ما بدأناكم.... ثم رجع إلى مكانه.

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال. فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم إنه شئ في هذه الدنيا وإنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير.

ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم[٢] القرشيون بالنبي ﷺ، ينذرونه وينكرونه وهو يقلّب عينه في وجوههم، ويسأل عن النصير ولا نصير، لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع، ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين، فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق المغضوب: أنا نصيرك. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم.

عليٌّ هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش...)[٣].

العربي التبّاني:

الشيخ محمد العربي التباني الجزائري المالكي المكي «ت ١٣٩٠ هـ» شيخ علماء مكة، كان محدّثاً فقيهاً مؤرخاً نسابة، له كتب مشهورة في الوسط السلفي، ومن المبالغين في الرد على الشيعة.

قال في كتابه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»[٤]: (وشجاعة علي

(١) سورة البقرة: ١٩٤.

(٢) القروم: جمع قرم، وهو السيد الفحل.

(٣) العقاد: عبقرية الإمام، ص ١٠-١٤.

(٤) قال الأستاذ حسن بن فرحان المالكي حول كتاب «محاضرات الخضري»: (أقول لكم - وبلا فخر - خذوا مني هذه الحقائق التي هي خلاصة دراسة استمرت أربع سنوات في كتب التاريخ، وهي: ١ - أن الكتب المفتقدة للتحقيق العلمي المتشدقة بمنهج أهل الحديث بالإضافة إلى ما سبق هي كتب محب الدين الخطيب وتحقيقاته وتعليقاته ومن أشهرها تعليقه على «العواصم من القواصم» لابن العربي المالكي، تلك التعليقات التي قلدها الجهلة من المؤرخين وأصبحوا يعارضون بها الأحاديث الصحيحة والروايات الثابتة. كذلك كتاب «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ» ما هو إلا كتاب أباطيل ولم يأت بفائدة تذكر، لأن التأليف داخل العقل الذي لا يعرف حدوده لا يجدي. وكذلك «محاضرات الخضري» التي أصبحت مرجعاً لدارسي التاريخ في جامعاتنا، ففي هذه المحاضرات من الأخطاء الموبقة والنصب الظاهر ما يندي له الجبين، وقد أحسن المحدث محمد العربي التباني رَحِمَهُ اللَّهُ في نقض هذه المحاضرات بكتاب أسماه «تحذير العبقري من محاضرات الخضري»، وكذلك «تاريخ الإسلام» لحسن إبراهيم حسن، وكتاب «العواصم من القواصم». هذه أهم الكتب التي يطالعها الطلاب والمؤرخون ويثقون فيها ثقة تفوق ثقتهم في الصحاح. فخذوها مني نصيحة صريحة: إن هذه الكتب المذكورة فيها من الأخطاء التاريخية ما نحتاج لبسطه في مجلدات! وغالبها تجمع بين نقيضين وهما الدعوة إلى التحقيق والسقوط عند التطبيق، مع تحريف الحقائق أو الاستدلال بالصحيح أو الكذب الصراح المجرد أحياناً....). المالكي: في إنقاذ التاريخ الإسلامي. ص ٣٥- ٣٦.

متواترة تواتراً معنوياً، قال أسيد بن أبي أياس الكناني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قبل أن يسلم بعد بدر الكبرى. يعيّر قريشاً بما فعل علي فيهم:

في كُـلِّ مَجـمَـعٍ غَـايـةٌ أخـزاكُـم ... صَـدْعٌ يَـفـوقُ عَـلـى المـذاكـي الـقُـرَّحِ
لله دُرّكُـــــم ألمـــا تَـــذكُـــروا ... قَـد يُـذكَـر الحُـرُّ الـكَـريمُ ويَستَحي
هَـــذا ابـــنُ فـاطِـمـةَ الـــذي أفـنـاكُـم ... ذَبـحـاً وقَـتـلاً بَـعـضـه لَم يَـــرتَحِ
أيـــنَ الـكـهُـولُ وأيـــن كُـــلُّ دُعـامـةٍ ... في المعـضِـلاتِ وأيـــنَ زيـــنُ الأبـطَـحِ

وكانت درعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صدراً لا ظهر لها، فقيل له: يا أبا الحسن لم لا تجعل لها ظهراً؟ فقال: إذا مكّنتُ عدوي من ظهري فلا أبقى الله علي).

ثم أخذ يعدد مواقفه البطولية ومن بينها: (خرج أبو سعد بن أبي طلحة العبدري يوم أحد وبيده لواء المشركين مبارزاً وقال: أنا قاصم أي داهية. فخرج إليه علي وهو يقول: أنا أبو القصم. فقتله).

وأضاف في شأن فتح خيبر: (فتْحه حصنها وتترسه بباب من أبوابه. لم يستطع ثمانية من الصحابة قلبَه. مشهور. قال سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق برايته إلى بعض حصون خيبر، فقاتل فرجع ولم يك فتح وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يك فتح وقد جهد، فقال رسول الله د: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار.

قال: فدعا رسول الله ﷺ علياً وهو أرمد فتفل في عينه ثم قال: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك.

قال سلمة: فخرج. والله. بها يهرول هرولة وإنا لخلفه نتبع أثره حتى ركزها في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت ؟

قال: أنا علي بن أبي طالب.

قال: فقال اليهودي: علوتم وما أُنزِل على رأس موسى[1]!

فما رجع حتى فتح الله على يديه.

قال أبو رافع مولى النبي ﷺ: خرجنا مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يديه حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه)[2].

---

(١) أي أنه أدرك أن المسلمين سينتصرون ببطولة علي فأقسم بالتوراة على ذلك.

(٢) المرعشي: شرح إحقاق الحق. ج ٣٢. هامش ص ٣٠٦.

طه العفيفي:

الكاتب المعاصر طه عبد الله العفيفي، له عدة مؤلفات من بينها من وصايا الرسول ، و كتاب من أفعال الرسول في الطهارة والصلاة، و كتاب الحقوق الإسلامية. قال في كتابه العشرة المبشرون بالجنة: (**ومن شجاعته ما حدث وهو في العاشرة من عمره حين أحاط المشركون بالنبي قبل انتشار الدعوة الإسلامية وهم ينذرون النبي ويتوعدونه، ويقولون له: إنك وحيد ليس لك فينا نصير. وعندما سمع ذلك علي، صاح قائلاً وهو ينظر إلى النبي ﷺ: أنا نصيرك. فضحك القوم من هذا الصبي الصغير، ولكنه شدَّ قبضته كأنه فارس مغوار، وهو يهم بالهجوم على القوم دفاعاً عن النبي ﷺ**).

وأضاف في معرض حديثه عن مبيت الإمام بفراش النبي ليلة الهجرة: (**ومن أجمل ما قرأت حول هذا قصيدة للشاعر المصري الشيخ محمد عبدالمطلب رَحِمَهُ اللَّهُ يقول فيها تحت عنوان علي ليلة الهجرة**[١]:

ولَـن يَنسَى النَّبيُّ لَهُ صَنيعاً ... عَشيَّةَ ودَّعَ البيتَ الحَرامَا
عَشيَّة سَامَهُ في الله نَفْساً ... لِغَير الله تُكبَر أن تُسامَا
فَأرخَصَها فِدىً لأخيه لمّا ... تَسَجّى في حَظيرَتِه وَنَاما
وأقبلَت الصَّوارمُ والمنَايا ... لحَربِ الله تَنتَحِمُ انتحاما
فَلَم يَأبَه لَها أنفاً عليٌّ ... ولَم تَقلق بِجفنَيْه مَناما
وأعْشَى الله أعيُنَهُم فَراحَت ... وَلم تَرَ ذَلك البَدرَ التَّماما)

عبدالفتاح عبدالمقصود:

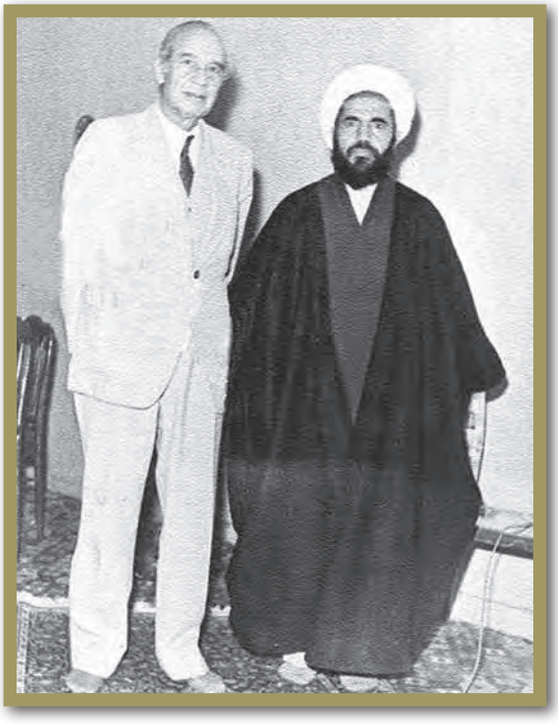

الباحث والأديب المصري الأستاذ عبدالفتاح عبدالمقصود، ولد عام ١٣٢٩ هـ بالقرب من مدينة الإسكندرية، ونال شهادة الليسانس في الآداب قسم التاريخ، وعُيِّن أخصائياً للإعلام والنشر في المؤسسة الاقتصادية بالقاهرة، ومديراً لمكتب نائب رئيس الجمهورية بمصر، ثم مديراً لمكتب رئيس الوزراء للتحرير والنشر. أهم مؤلفاته الإمام علي بن أبي طالب، في ٩ أجزاء، أبناؤنا مع الرسول، الزهراء أم أبيها، السقيفة والخلافة.

قال في موسعته[٢] حول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: (**ألا ما أعزلها ليلة بين لياليه، ما أعزلها ليلة تفضل كل لياليه ! هاهو ذا على**

(١) العفيفي : العشرة المبشرون بالجنة. ص ٢١٢ - ٢١٦... سامه: طلب منه.
(٢) سنضطر إلى الاختصار في بعض المقاطع.

فراش الرسول، مسجى ببرده الأخضر حتى لايستطيع أن يرى أتقدم القوم نحوه خطوات أم ما زال عن أسلحتهم بمنجاة. لكن أصواتهم كانت تسري دائماً إلى سمعه، هامسة كأنها طنين نحل، تطوف به همهمتها مخافتة، وكان صافي الذهن حاضره، صاحي العين لم يطف بعينه نوم.

أترى وجد في اليقظة متعة فراض نفسه على السهر ليشهد كيف تستقبل هذه الطغمة فشلها حين تتبين فرار محمد ؟ كان هذا بعض ما جال بذهنه، وأما بقيته فارتقاب طعنة الموت يتلقاها من سنان حانق.

لن يسرّ القوم أن يلعب الفتى لعبته فيفقدهم صيدهم وهم على حافة النصر، وليس بمستبعد إذاً أن يأخذوا الفادي الحاضر بالمفتدى المهاجر.

ولعب على شفتيه طيف بسمة نصفها رضا ونصفها سخرية. إن الموت كان غاية المأمول من حياته لأنه الوسيلة إلى حياة عقيدته، وليكونن في مقتله لقريش والعرب قارعة أي قارعة، لأن دماءه لن تذهب لُقى[١]، بل سوف تدعو من بين قومه أناساً للثأر له انتصاراً لحرمة الدم. ولئن كانت قريش قد أجمعت أمرها على قتل محمد، فقد تذرعت لجرمها هذا بأن رسول الله شق عصاها وبذر بدعوته الجديدة في صفوفها الفرقة. أما ابن أبي طالب فلن تنهض لقريش حجة أمام ذويه على قتله إياه....

ولكنهم اليوم عُمي القلوب والبصائر، وإن حدَّت منهم العيون والنواظر، بل إنهم ما لبثوا أن فقدوا أيضاً حدَّة البصر وحضور الذهن حين اخترق محمد جمعهم ومر بالنطاق الذي ضربوه حول الدار. وكان عليٌّ في مرقده، واجف القلب إشفاقاً على الرسول، يرى بلحظ الخيال دون رُأى اللحظة، إليه يسري ترتيل محمد، إذ يسير مخلّفاً المكان، خافت الرنين رافع اليقين ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[٢].

وحقّت كلمة الله فلم يره منهم راء ولم يسمع خَطْوه سميع، واطمأن قلب علي وسكنت نفسه حين تلاشى رويداً رويداً جرس الآيات وراح في السكون، ثم أغرقت البسمة شفتيه، ناطقةً بفرحة قلبه لنجاة محمد ونفاذه من بين عدوه كسريان النّسمة، ترعاه عين الله وتظله رعايته، وتحوطه يد عنايته الإلهية وهي توجه خَطْوه خارج مكة، صوب الشمال إلى يثرب، أرض النصر.

تلك كانت أولى لحظات الفتى بالخلود، شعر ساعتها بالسعادة كما لم يشعر بمثلها مطلقاً قلب إنسان، ولم يكن هذا لنجاة محمد فحسب، لأنها كانت في قلب علي راسخة رسوخ اليقين وإن شق عليه أن يرد إلمامةً من جزع طافت به وهو يرهف سمعه لخطو النبي إذ يسير مجتازاً باب الدار وحلقة الثوّار.

ولم يكن من أجل انتقال الدعوة الإسلامية من بلدة شائنة جاحدة إلى أرض طيبة صالحة للحياة والنماء، فهو وطيد الإيمان بالمستقبل المسطور لدين الله في لوحة القضاء، لا لهذا أو ذاك غمر الفتى من سعادته ورضاه ما

---

(١) لقى: بلا فائدة.

(٢) سورة يس: ٩.

ملأ أجواء دنياه، ولكن لأنه رقد يرتقب أن يمس عنقه سيف تحركه يد حانقٍ من القوم ويجهز عليه به، لأن موته العاجل ها هنا فيه نصرة لدينه وعزة لنبيه وخدينه[١].

لقد استخلص الفتى هذا بعد أن فكّر وقدّر وما كان ذوو قرباه من قريش ليغفروا لقاتليه قطرة دم تراق منه، بل سيجتمعون على الثأر له، قاصيهم ودانيهم، حاضرهم وغائبهم، ولن يتخلف منهم عن تلبية نداء الدم عبّاد أصنام وأتباع إسلام. كذلك فكّر علي وقدّر فأصاب، ولم يكن مبالغاً، بل كان يستخلص النتائج بقياس حدثه على غيره من أحداث...ولكن أولئك الذين عصف الغضب بجوانحهم حين حسروا الغطاء فلم يروا محمداً تحته، عرفوا كيف يملكون سَوْرتهم عند حد، فلم يفز الفتى بأمنيته. لم يُقتَل !

لم ترفرف روحه في الفضاء تدعو آل عبدالمطلب وآل هاشم ومن تابَع هؤلاء وأولئك إلى الثأر له والانضواء تحت لواءٍ واحد قد كادوا أن يجتمعوا تحته تلبية لنداء الدم. ولئن أفلتت من علي هذه الفرصة فلسوف تواتيه الأيام وشيكاً بغيرها من فرص سانحات، ولن يلبث أولئك الذين تركوه ولم يضرّجوا الفراش بدمه أن يندموا لأنهم تلك الليلة أبقوا على حياته فأحيوا فيه شبح الموت الذي ظل يلاحقهم بعدها مدى أعوام وأعوام !

كان علي منجل الموت الذي أخذ يلاحق رؤوس قريش من أعداء دين الله فيقطفها قطفاً ويخطفها خطفاً، تسقط تحت سيفه كالثمر، وتتراكم عند قدميه في عدد المدر، وذاك الفتى الذي كان في صباه سبّاقاً إلى الدين أصبح اليوم. في فجر شبابه. سبّاقاً إلى ضرب الهام وشق الأجسام.

وفي كلا ناحيتي شجاعته المعنوية والمادية كان المؤيَّد الدائم برسول الله، المقرب إليه، المرموق منه بعين الحب والرعاية... حتى في ساعة الحرب، والنفس البشرية مشغولة عن دنياها جميعاً بلحظة الطعان المنتظرة، كان النبي حين سعى إلى بدر بجيوش المسلمين يسير آونات إلى جوار بعيره ويدعه مطيّةً لابن عمه ليخفف عنه بعض مشقة الطريق.... وكانت بدر كلها نصراً هو فاتحة النصر المبين لراية الدين، بل كانت المنفذ الذي اجتازه هواء الحياة إلى رئة الإسلام، جازت محنتها الفئة القليلة فغلبت الفئة الكثيرة بإذن الله.

ولئن كان النصر سبقت أنباؤه إلى لوح القضاء طعان الأبطال، فإن علياً كان الأسبق يداً وسيفاً إلى أعناق الأعداء. لم يكن في المسلمين أسنَّهم، ولا أشدَّهم ساعداً ولا أبعدهم صيتاً في مجال الكفاح يوم خاض غمار هذه الواقعة البعيدة الأثر في تاريخ الإنسان، ولم يكن قط مارس من الحرب ما مارست الكثرة من صحابة المسلمين، إذ كان بعد بالدنيا حديث عهد، لم يجاوز العشرين إلا بقليل. ولكنه كاد أن ينفرد بجنان ثَبْت وقلب جَلد، لا يستطيع أن يطرقه خوف أو تطوف بساحته رهبة. ولم يكن فوق هذا وذاك كأولئك الشجعان الذين ينسون في معمعان المعركة كيانهم، ويفنون فيها فناء يحجب عن أبصارهم سيرها، وإنما كان مرهف الحواس متمالك الجأش، يقظاً غاية اليقظة أمام كل صغيرة وكبيرة تبدو أثناء الصراع من مناجزيه حتى كأنما جسمه كان عيوناً تنظر.

---

(١) الخدين: الصديق المقرب.

وما من شك في أنه لم ينفرد وحده بالصيال[١]، ولكن الثابت ثبات اليقين أنه وحمزة عمه كانا فرسي رهان، وكانا دائماً سبّاقين إلى رؤوس الكفر وأشياخ قريش الضالين يضربان الهام كأنما تخيّرا ذلك اليوم أن يحفروا قبور الأصنام....

وأما علي فقد تهيّب الناس فيه صِدْقَ حمَلِه وحدَّ نصْله، فكانوا إن آثروا الثبات لا يملكون إلا الوقوع صرعى تحت قدميه، أو فضَّلوا السلامة أدبروا يفرّون أو ارتدوا ينكصون بُعداً منه، ثم كان يبعثهم كربُهم أحياناً على اصطناع الحيلة كيلا يعمل في أقفيتهم سلاحه، فيكشفوا عن عوراتهم إذ علموه يربأ بناظريه أن يرى سوأة. وكانت يقظته لا تغادره لحظة مهما تأجج لهب الحرب، بل يظل أبداً متمالك الأعصاب، يتحرك كمن في نزهة، فلا تفوته من صفوف مناجزيه أجمعين لفتة أو حركة، وقد بقيت يقظته هذه الدرع الواقية والحصن الذي حال طوال حروبه بينه وبين أعدائه المتوالين أن ينالوا منه، وإن رصدوا له العيون والأرصاد، وكتلوا بين يديه وخلفه حشدهم بالمرصاد. كانت بدر نصراً كلها للدين وللمسلمين رفع لواءه عالياً عليّ، وباء بالخذلان أئمة الكفر الذين أفلتوا من السيف والسنان. وهكذا ثبَّت الله قدم نبيِّه وأعزَّ أمره...)[٢].

وقال في شأن بطولة علي في حرب الأحزاب: (تقدمت من بينهم عُصبة هي أشدهم وأجلدهم على الصراع والصيال، فامتطت الخيل وسارعت تضرب أجنابها إلى ناحية من الخندق سهلة الاجتياز محاولة أن تقتحمها كي تكون مَجاز بقية جيشها إلى المدينة، ولكن علياً كان كدأبه اليقظ الذي لا تفوته من عدوه حركة أو لفتة.

في سرعة الصوت قفز بجواده على أولئك المجترئين لم يثنه عنهم أنهم جماعة وهو فرد ، ولم تذهله المفاجأة التي اندفعوا بها يقتحمون الخندق على المسلمين قبل أن ينتبه لفعلتهم كثيرون غيره، وكالبرق طاح بينهم سيفه اللمّاح حتى راعهم منه ما حسبوا من قبل أنهم مروّعوه بمثله، وكأنما أعادت حملته الصادقة إلى نفوس أصحابه الوعي الذي غاب عنهم هنيهة، فسارعوا إليه يسيرون في أعقابه ويدفعون حتى فرّت خيل المشركين ولوت أعنَّتها لتعبر الخندق إلى صفوفها مرتدة.

لابد أن يكون هذا قد أصاب من اعتداد قريش ومن صَلَفها ومن كبريائها، ولابد أنها استشعرت فيه طعم مهانة لم تذق لها في يومها طعماً، وكان أكثرها شعوراً بمرارة هذه الفاتحة الخاسرة فارسها المجلى وبطل ميادينها عمرو بن عبد ود ، الذي قاد عصبةَ خيلها فاقتحم الخندق عزيزاً ثم انثنى فاجتازها مدحوراً ذليلاً.

لم تعد القضية الآن في حسبانه قضية قريش، بل أصبحت قضيته هو، قضية الذِّكْر الذاهب في أنباء البطولة إلى السماء، والصيت الذي تحدث به العرب في الجزيرة ورواه رواتهم في كل الأنحاء، قضية السيف الحاصد البتّار كأنه شعلة نار، والرجل الذي لا يقومه قومه بين الرجال إلا بألف من الأبطال، قضية الكبرياء المهيضة الجناح كأنما قد طُعنت في قلبها بأصمى سلاح[٣]!

---

(١) الصيال: القتال.

(٢) عبدالمقصود: الإمام علي بن أبي طالب. ج١. ص ٥٤-٦٣.

(٣) أصمى سلاح: أكثره نفاذاً وتأثيراً.

لم تثبت بعمرو قوائم فرسه حتى عاد بها إلى جانب الخندق كأنه القلعة فوق صهوتها، دارعاً مقنّعاً بالزرد والحديد تهتز الأرض تحت تيهه وزهوه، وتنتبه العيون من كلا الفريقين بنظرات فيها رهبة، وفيها إعجاب، ثم لا تكاد أن تستقر عليه طويلاً بل تغضي لفرط ما ملأ الأسماع من صيته المرهوب وما جرى من أنبائه في النفوس والقلوب....)[١].

واسترسل المؤلف في حديثه حول مجريات المواجهة بين الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وعمرو بن عبد ود، ثم قال: **(كانت قريش جميعها واثقة من المصير المحتوم الذي ينتظر الشاب، عالمة به قبل وقوعه، وكان المسلمون مثلها منذ بدأ الصراع وإن استبدلوا بفرحتها بهذا المصير اللوعة على المُنازل الصغير.**

أجل، فلم يكن بين كلا الفريقين إلا من هو مؤمن أشد الإيمان بإضافة عمرو ضحية جديدة في عداد ضحاياه، ولكن الله بدّل حدسهم جميعاً، لأن العيون وقعت بعد قليل على ما لم يدر مطلقاً في الأخلاد والظنون. سقط عمرو وقد هدّته الضربة، وثار لسقطته الغبار إلى جوار أقدام عليٍّ كما يثور لحركات ثور ذبيح!

ومن بين الغبرة التي ارتفعت علا صوت ابن أبي طالب بالتهليل والتكبير يتلوه هتاف الآلاف من عسكر المسلمين.إقدامٌ حيث لا معدى لغيره عن التزام الإحجام، هذه ناحية من خُلُق علي، واضحة الملامح جلية، رفعته في مجالي الشجاعة على الناس، إن أدلى بالرأي أو هزَّ السيف. ومع ذلك فلم تكن في الشاب دفعة، ولا تهور أو طيش، ولكنه كان يصدر فيما يأتيه دائماً عن حكمة خفيت عن نفوس الناس، وشعور كأنه إلهام يوفى به على إحكام التقدير عند اقتحام المعامع أو معالجة الأمور. كانت له نظرة ثاقبة نفاذة فيما يعرض له، ولكنها كانت أيضاً لمّاحة تسبق ما يستخلصه سواه بعد إعمال فكر أو موالاة تدبّر، وتصل به سريعاً. وغيره لم يزل بعدُ في بدء التفكير. إلى النتائج العصيّة على العقول حتى ليحسبه الناس يجنح إلى اعتساف الحلول.

وكانت تقوده دائماً بديهة صافية، ويسدد خطاه قلبٌ ملأته الثقة بقدرة صاحبه، وإن كانت هذه صفة تعدل الغرور في نظر مغلولي الصدور!)[٢].

وتحدث الكاتب حول فتح خيبر، بيد علي، في أعجوبة انحنت لها أقلام فحولة التاريخ إجلالاً، فأخذ يصف المشاهد البطولية تقديراً وإعجاباً، وبعبارات بليغة تأخذ بالألباب، ثم عقَّب على ذلك بقوله: **(على هذا المنوال كانت حياة علي مثالاً فذاً من البطولة منذ أشرق فجر حياته على دنيا التاريخ، وكانت سيطرته على نفسه هي رائدُه الأوحد إلى هذه البطولة، لا يعنيه إلا أن يفعل ما دام يؤمن بمقدرته على أن يفعل، وكان دائماً يؤمن بهذه القدرة التي جربها فلم تخنه مطلقاً في مرة، وما أحسبه كان مستطيعاً غير هذا وهو الذي شب في أكناف رجل وقف بمفرده أمام عالَم بغير سلاح، إلا إيمانه!**

إنما نحلَهُ محمد بعض الثقة التي سلّحه بها الله، وأضفى عليه من سوابغها آيات، ولئن كان علي قد برز في هذه

---

(١) عبدالمقصود: الإمام علي بن أبي طالب. ج١. ص ٩٠-٩١.

(٢) عبدالمقصود: الإمام علي بن أبي طالب. ج١. ص ٩٣-٩٤.

البطولة المادية، فلقد توفرت له منها . فوق التوجيه النفسي . طوابعها الجسدية التي كانت تنبئ دائماً بما فيه.

كان الفتى في الأقران شديد البنيان، موفور القوة إلى مدى لا يصل إليه قرين ولاأقران، وبحسبك أن تسمع حديث التاريخ يلقي على مسمعك في قصة حصن ناعم أن بضعة عشر رجلاً من أصحابه حاولوا أن يحملوا الباب الذي كان ترسه، فناؤوا به !

وكان ضخم عضلة الساق، أمْيَل إلى القِصَر، فهو بصفتيه هاتين أثبت في موطئ قدميه وأشد رسوخاً، ملئ عضلات الأعضاد مكتَّلها، حتى يستطيع أن يخطف بذراعٍ واحدةٍ فارساً عن فرسه، وإن كان دارعاً في الحديد ، فيجلد به الأرض كما تضربها بسوط، ثم يقذف به كالكرة إلى أينما شاء !)[١].

۞ خالد محمد خالد:

الأستاذ الشيخ خالد محمد خالد، ولد عام ١٣٣٨ هـ ، ودرس الشريعة في الأزهر مدة ١٦ عاماً إلا أنه لم يلبس العمامة. له مؤلفات عديدة معروفة، من بينها «أبناء الرسول في كربلاء» و «من هنا نبدأ» و «رجال حول الرسول». «ت١٤١٦هـ»، وقد أوصى قبيل وفاته أن يوضع نعشه عند مقام الإمام الحسين عليه السلام - ولو لمدة خمس دقائق - قبل دفنه في مسقط رأسه، علماً بأن أباه أتى به عند المقام في أول دخولهما القاهرة وذلك بغرض التحاقه بالأزهر الشريف.

قال في كتابه خلفاء الرسول: (ذات يوم، والرسول بالمدينة، نزل عليه الوحي بآية جديدة من القرآن، وراح الرسول يتلوها على أصحابه وهم منصتون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٢]، وأحدثت الآية في أفئدة الصحابة رد فعل قوياً، وظن بعضهم أنها تنعى إليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام.

وصاح علي بن أبي طالب: والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله، ولئن مات أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت. وطوال عمر علي في حياة الرسول وبعد وفاته، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته وإنها لتلح على وجدانه إلحاحاً دائباً وعجيباً. فهو دائماً يذكرها فيتلوها، ويتبع تلاوته لها بكلماته التي سمعناها الآن: والله، لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، ولئن مات أو قُتل، لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت.

ولكن لماذا اختار القتال سبيلاً للتعبير عن ولائه للدين، وإصراره على متابعة طريق الرسول ؟ لماذا لم يقل: ولئن مات أو قُتل لأواصلن السير على نهجه، والاهتداء بسنته وهديه ؟

---

(١) عبدالمقصود: الإمام علي بن أبي طالب. ج١. ص ٩٦-٩٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٤.

إن طبيعة المقاتل تحتل كل ذرّة في كيانه، فإذا أعطى العهد على مواصلة السير تحت الراية التي يرفعها الرسول بيمينه، فإنه يصوغ عهده من الكلمات التي تتسق مع طبيعته وتعبّر عنها في أمانة وصدق. وأي كلمة تعبّر عن طبيعة المقاتل سوى كلمة سأقاتل ؟

صحيح أن الآية نزلت في معركة دائرة، وقتال مشبوب في غزوة أحد أو بعدها، والمشركون يومئذ يُرجفون بأن الرسول قُتل، فنزلت الآية تسفّه أحلامهم، وتشد عزم المسلمين، وتخبرهم بأنه حتى لو مات الرسول أو استشهد، فإن رايته لن تسقط، ودينه لن يتقهقر، وجنده لن يضعوا السلاح. فلئن كانت طبيعة المناسبة، تجعل الرد على تساؤل الآية: سنقاتل، فإن طبيعة المقاتل هي التي جعلت كلمة سأقاتل شعار حياة بأسرها، وليست شعار مناسبة بذاتها. وهكذا رأينا الإمام طوال حياته المديدة والمجيدة، لا يفتأ يذكر الآية الكريمة فيتلوها، ثم يعقب عليها بنشيده ذاك: ولئن مات أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت.

قلنا: إن علياً يحمل بين جنبيه طبيعة المقاتل وسجاياه، فهل هذه منقبة توضع في ميزان فضائله، ومزاياه ؟ وبتعبير آخر: هل وجود طبيعة المقاتل في إنسان أمر يشرّف ذلك الإنسان ؟

أما بالنسبة لابن أبي طالب، فنعم. إن كون طبيعة المقاتل في أعماقه، لمما يزيده شرفاً ورفعة وكمالاً. ذلك أن طبيعة المقاتل فيه قد بلغت من الاستقامة، ومن العدالة، ومن الشرف، المدى الذي أفاءه عليها القرآن، والرسول والإسلام. فهي عند الإمام لا تمثل عدواناً ولا تشكل بهتاناً ولا تنطلق وقوداً لأغراض الدنيا، وأطماع النفس. وهي بهذا، ولهذا، تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة.

كما أن البطولة عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة، والرجولة عنده ليست اندفاعاً عرمرماً تزجيه طاقاته الجبارة، إنما هي التزام يكاد يكون مطلقاً لمنهج الرسول الذي آمن به، والدين الذي حمل رايته.

وهكذا نرى البطل والمسلم يلتقون في شخصية الإمام علي أصدق لقاء. أجل لم ينفصم البطل، عن الرجل، عن المسلم، في حياة عليٍّ أبداً.

فإذا رأيناه يبارز خصماً مثلاً، فليس البطل المتمكن هو وحده الذي يبارز، بل إن رجولة الرجل، وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها.

انظروا ! في غزوة أحد يخرج من صفوف المشركين أحدُ مبارزيهم الأشداء هو أبوسعد بن أبي طلحة، وينادي علياً ليبارز ويخرج علي إليه ويتلاقان في مبارزة ضاربة حامية ويتمكن منه سيف عليّ بضربة تطرحه أرضاً، وهو يتلوّى من الألم. وبينما علي يتهيأ ليُجهز عليه بضربة قاضية، ينحسر جلباب الرجل فتنكشف عورته، فيغمض عليٌّ عينيه، ويغض بصره ويثني إليه سيفه ويعود إلى مكانه في الصف.

ويسأله المسلمون: لماذا لم تُجهز عليه ؟

ويجيبهم: لقد استقبلني بعورته، فعطفتني الرحم.

إن شرف المقاتل خُلقٌ لا ينساه علي أمام النصر، وأمجاد الظفر. ولقد عُرف عنه ذلك دائماً، فراح أعداؤه يلمسون هذا الوتر كلما رأوا المنايا تهوى عليهم من سيفه الوثيق.

إن الأبطال الأصلاء العظماء، لا ينشدون النصر مجرد النصر، إنما هم ينشدون النصر عفاً شريفاً عادلاً، فإذا لم يأتهم النصر موشّى بهذه الفضائل، فلا خفقت راياته، ولا دقت طبوله. وسنرى ونحن نتتبع مشاهد البطولة في حياة الإمام، كيف كان حرصه الشديد على شرف المقاتل آثر وأبقى من غلبة ومن كل انتظار.

ومن المفارقات العجيبة لشخصيته، أن براعة المقاتل فيه، كانت تزلزل خصومه خوفاً وهلعاً في حين شرف المقاتل فيه، كان يملأ نفوسهم طمأنينة وأمناً. أجل لطالما تحولت نقمته على أعدائه إلى رحمة بهم بسبب إيمانه الحق بأن القتال الشريف النبيل العادل، هو وحده سبيل الرجال، إذا اضطروا لقتال.

بعد أن تحقق له النصر في موقعة الجمل، وقبل أن تبدأ موقعة صفين وكان لا يزال يرجو أن يفئ معاوية إلى الحق، على الرغم من كل الشواهد التي كانت تنبئ بإصراره على موقفه وإعداده العريض للحرب والقتال يومئذ، علم الإمام أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم معاوية، ولعن أهل الشام، هما: حجر بن عدي وعمرو بن الحمق، فأرسل إليهما آمراً أن يكفّا عن هذا الشتم وهذا اللعن، فقدِما عليه وسألاه: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق، وهم على الباطل ؟

أجابهم الإمام: بلى، ورب الكعبة.

قالوا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم ؟

قال الإمام: كرهتُ لكم أن تكونوا شتّامين لعانين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلِح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لجّ به.

إنه شرف المقاتل أيضاً، وإنها البطولة التي تزجيها [١] الرجولة ، والرجولة التي صاغها الإسلام في أحسن تقويم. ولكن، لماذا عجلنا وتخطينا الزمن ورحنا ننشد الأمثلة على بطولة الإمام من أخريات أيامه ؟ ألا يحسن بنا أن نستشرف هذه البطولة في بداياتها الرائعة ؟

بلى فلنرجع مع الزمن إلى وراء، حيث الرسول في مكة يتهيأ للهجرة إلى المدينة التي سبقه إليها أصحابه. إن خطة الهجرة كما رسمها الرسول، كانت تتطلب أن يأخذ مكانه في البيت رجل تشغل حركته داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركي قريش، وتخدعهم بعض الوقت عن مخرج الرسول ﷺ، حتى يكون وصاحبه أبوبكر قد جاوزا منطقة الخطر، وخلّفا وراءهما من متاهات الصحراء مسافة تتشتت فيها مطاردة قريش إذا هي خرجت في طلبهما.

ولكن ما مصير هذا الذي سيخلف الرسول في داره، ويخدع قريشاً كلها عن مخرجه ؟ ما مصيره حين تكتشف قريش الحيلة، وترى كيدها الذي عبأت فيه كل قواها، يرتد، لا هزيمة ماحقة فحسب، بل وسخرية تضحك منها

(١) تزجيها : تقودها.

وِلْدانها، وخزياً يجثم فوق جبينها ؟

إن مصيره مفروغ منه، إنه القتل، إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفّياً وفتكاً. والحق أنها ستكون نهاية موحشة، فالرجل الذي سيكتب عليه أن يحمل هذه التضحية، لن يُقتل فحسب بل هو سيقتل في بلد موحش، قد خلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يملأون فجاجه دوياً بالقرآن كدوي النحل. في هذا البلد الموحش سيُقتل وحيداً دون أن يجد من إخوانه من يشجعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت، أو يودعه ولو من بعيد أيضاً بنظرة عطف ومحبة أو يتسلل في جنح الظلام إلى قبره فيقف عليه مسلّماً. لا شئ من ذلك سيكون، ولا شئ من ذلك سيخفف من وقع النهاية التي ستختارها قريش لمن يمثّل دور الرسول عليها حتى يخدعها عنه، وحتى يرد كيدها العاتي تراباً في تراب.

فمن أي طراز سيكون هذا الفدائي العظيم، ومن أي ناحية سيجئ البطل ؟ إنه من بيت النبوة يجئ، إنه سليل بني هاشم وتلميذ محمد، إنه ربيب الوحي وسابق المسلمين، إنه علي يفاجئ قريشاً فليسوء على يديه صباحها كما ساء بخروج النبي ممساها.

على أن مهمة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم تكن مقصورة على المبيت مكان الرسول والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة، بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية، ذلك هو قيامه بردّ الأمانات والودائع التي كان الرسول يحتفظ بها لذويها من أهل مكة.

لقد تلقى علي من الرسول كل هذه الودائع وتلقى منه أسماء أصحابها، وكان عليه أن يذهب إليهم داراً داراً وفرداً فرداً ويعطي كل إنسان أمانته، دون أن ينيل قريشاً منه فرصة تحول بينه وبين إنجاز مهمته كلها.

ولقد قام البطل والرجل بالمهمة على خير وجه، وحفظه الله ورعاه وصدق وعد الرسول له حين قال وهو يودعه: لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم.

وبعد أيام ثلاثة، قضاها الفتى الوثيق بمكة، يردّ الأمانات إلى ذويها، ركب الصحراء مهاجراً إلى الله ورسوله، وحده، خرج مجتازاً نفس الطريق الذي خرجت عليه قوات قريش تطارد الرسول والصدّيق، وتطلبهما بكل جهد وثمن. وحده خرج عليٌّ في رباطة جأش تجل عن النظير، وفي إيمان مطلق جعل عزمه يتألق مضاء وتهللاً. وبعد أيام وليال، كان هناك في قباء ينزل مع الرسول في نفس الدار التي أعدت له ﷺ، دار كلثوم بن هدم، أخو بني عمرو بن عوف. وبعد أيام، ينتقل مع الرسول إلى المدينة دار الهجرة وعاصمة العالم الجديد الذي جاء محمد ينشئه ويبنيه على دعائم الإيمان والحق والعدل والرحمة والسلام.

وتجئ غزوة بدر، ويواجه الإسلام الوثنية في أول لقاء مسلح ينشب بينهما، ويظهر علي بن أبي طالب، وعمه حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المقدرة والجَلَد والبطولة ما يبهر الألباب).

واسترسل الكاتب في وصف بطولات علي في المعارك حتى قال: (والآن نتابع البطل في خيبر، فأمام حصنها المنيع ارتدّت أول يوم كتيبة قوية يقودها أبو بكر الصديق، ثم ارتدّت في اليوم الثاني كتيبة أخرى، يقودها عمر بن

الخطاب. لم يجزع الرسول، فما كان هو بالجازع أبداً، وإنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه.

يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما تمنيت الإمارة قط إلا ذلك اليوم، رجاء أن أكون مَن يحبه الله ورسوله.

أصبح الصباح، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذي سيعطيه الرسول الراية، والذي سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب. واكتملت أعدادهم، واستوت صفوفهم واشرأبت الأعناق متمنية راجية. وشقّ السكون صوت رسول الله ﷺ يقول: أين علي بن أبي طالب ؟

كان عليٌّ هناك وسط الزحام، لم يخطر بباله يومئذ أن يكون هو الرجل الذي وعد الرسول أصحابه، وجعله بشرى الفتح القريب. لم يخطر هذا الاختيار بباله لسبب، هو أنه في ذلك اليوم كان يشكو رمداً في عينيه، لا يمكنه من العمل الصعب الذي تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود. ولكنه لبّى نداء الرسول من فوره: ها أنذا يا رسول الله!

وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه، فتقدم البطل ورأى الرسول ما بعينه من وجع واهتياج، فبلّل أنامله المضيئة بريقه الطهور، ومس بها عين البطل ثم دعا بالراية فأمسكها ورفعها إلى أعلى وهزها ثلاثاً، ثم غرسها في يمين علي، وقال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك. دقائق، لعلها لا تجاوز خمساً ولكنها تمثل حياة كاملة لا منتهى لأبعادها، ولا غاية لأمجادها. حمل البطل الراية، وتقدم كتيبته يهرول هرولة وأمام باب الحصن نادى: أنا علي بن أبي طالب. أجل فإنه ليعرف تماماً ما هذا الاسم في أفئدة أعداء دينه من رهبة، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان.

وتلقى علي ضربة قوية لم تصبه بسوء، لكنها أطارت ترسه من يده. ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن، فصاح: والذي نفسي بيده، لأذوقن ما ذاق حمزة أو ليفتحن الله لي.

رأى سليل بني هاشم نفسه، ولا درع معه فاندفع نحو باب من باب الحصن ولايدري الناس عندها ماذا حدث ؟ كل ما يذكرون أن علياً صاح: الله أكبر ! ثم التفت نحوهم وباب الحصن بين يديه. يقول أبو رافع مولى رسول الله، وقد كان ضمن كتيبة علي: لقد هممتُ أنا وسبعة معي أن نحرّك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا.

وهجمت كتيبة الإسلام تحت قيادة بطلها علي، وفي وقت وجيز كانت القوة المنتصرة تردد من شرفات الحصن الذي سقط بكل ما فيه، هتاف النصر: الله أكبر ! خربت خيبر وصدقت نبؤة الرسول التي قالها لابن عمه: خذ هذه الراية، فامضِ بها حتى يفتح الله عليك. أجل لقد فتح الله عليه، ومنحه النصر المرتجى).

تحدث الكاتب عن معركة الخندق وقتل عمرو بن عبد ود فعقّب قائلاً: (وعاد علي إلى صفوف المسلمين، تستقبله تحيات شاعرهم:

نَصَرَ الحِجارةَ من سَفاهَةِ رَأيِه ... وَنَصرتَ ربَّ مُحمَّدٍ بِصَوابِ
لا تَحسَبنَّ اللهَ خَاذلُ دِينِه ... ورَسولِه، يا مَعشَرَ الأحْزابِ

وقبل أن نستطرد مع مشاهد بطولته الخارقة، يحسن بنا أن نتذكر ما قلناه من قبل، ألا وهو أن بطولة علي كانت تزدان بكل شرف الرجولة، ولم تكن قط في خدمة هوى أو زهو، إنما كانت في خدمة تلك المبادئ العلى التي هداه الله إليها والتي آمن بها علي أوثق الإيمان.

من أجل هذا لا نعثر على مشهد واحد من مشاهد بطولته، يمثل عدواناً أو بهتاناً. وبطولته على الرغم من شموخها واقتدارها، كانت بطولة مسالمة عاقلة عادلة. ففي هذه البطولة التقت شدة البأس ولين الجانب لقاء موفقاً. من أجل هذا نجد الرسول ﷺ يندبه في مهام الحرب والقتال لتلك التي تتطلب حظاً وافراً من ضبط النفس ولين الجانب، وفي هذا تزكية لبطولته وإطراء.

في ذلك اليوم المشهود يوم فتح مكة كان الزعيم الأنصاري سعد بن عبادة يحمل الراية على كتيبة كبيرة من المسلمين، ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة، حتى استجاشته ذكريات عداء قريش للرسول ولصحبه، فصاح قائلاً وسط نشوة الظفر التي تستخف الأحلام: اليوم يوم الملحمة اليوم تُستحل الكعبة !

قالوا: وسمعه بعض الصحابة فروّعهم هذا النداء، وسارع عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ ونقل إليه كلمات سعد، وقال معقباً عليها: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون لسعد في قريش صولة. وعلى الفور، نادى الرسول علياً وقال له: أدرِك سعداً، وخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها.

عليٌّ الذي شهد كل الأذى الذي صبّته قريش على ابن عمه ورسوله، عليٌّ الذي يحمل طاقة زاخرة فوارة تحرك الجبال، عليٌّ، وهذا يومه، حيث يتوقع منه بأس المقاتل وزهو المنتصر، يختاره أعرف الناس به لمهمة قهر الزهو ونسيان الثأر، مهمة دخول مكة المفتوحة، في تواضع وإخبات وسلام.

ومشهد آخر يعرّفنا بجمال هذه البطولة وإنسانيتها، وما كانت تتمتع به من أناة ومعدلة. فبعد فتح مكة، أرسل الرسول إلى من حولها من القبائل سرايا تدعوها إلى الله في غير قتل لها أو حرب معها، وكان خالد بن الوليد على رأس إحدى هذه السرايا، أمره الرسول أن يسير بأسفل تهامة داعياً لا مقاتلاً، وعند قبيلة بني خزيمة بن عامر، تصرّف أحد رجالها تصرفاً تسرع تجاهه خالد فأعمل فيهم السيف.

ونمى الخبر إلى رسول الله، فغضب وحزن وبرئ إلى الله مما صنع خالد بن الوليد، ثم رأى ﷺ أن يبادر بإرسال رسولِ سلام، وكان ابن أبي طالب هو الرسول المختار. دعاه رسول الله إليه، وقال له: يا علي، أخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك. وأعطاه الرسول من المال ما يكفي لدية القتلى، وتعويض أهلهم عن كل خسارة حاقت بهم، وقام علي بالمهمة خير قيام.

وهكذا، حيث تضري[1] البطولات ، وتستعلي الأناة والحكمة، يكون علي هو الرجل، وهو البطل الذي يختاره الرسول ليقيم الميزان بالقسط، ويمزج القصاص بالعدل، والقوة بالرحمة، ويضع الشجاعة تحت إمرة السداد والأناة والحكمة.

---

(١) تضري: تعتاد.

وإذا كان الفضل ما يشهد به الأعداء، فلنستمع في هذا المقام لشهادة أبي سفيان أيام شركه ووثنيته، فعندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله ﷺ، واستخار النبي ربه في الخروج إلى مكة لفتحها، نمى الخبر إلى قريش فسقط في يدها، وأرسلت أبا سفيان إلى المدينة، ليعتذر إلى الرسول، وليسأله الموافقة على المعاهدة التي كانت بينهما، والتي أبرمت يوم الحديبية. ونزل أبو سفيان المدينة وقابل زعماء المسلمين راجياً أن يزكّوا مهمته عند الرسول فكلهم رفض، بل إن ابنته أم حبيبة . وكانت إحدى زوجات النبي . أبت أن تجلسه على فراش رسول الله، وكان مبسوطاً في فناء حجرتها ساعة دخوله عليها، فطوته عنه ! ولما عاتبها في صنيعها هذا أجابته قائلة: إنك مشرك، وفراش رسول الله لايطؤه مشركون.

ولما عاد إلى مكة خائب المسعى، جلس يحدّث قريشاً عن محاولته، فقال فيما قال: وجئت ابن أبي قحافة . يعني أبا بكر . فلم أجد منه عوناً، وجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو لقد قال لي: أأنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. وجئت علياً فوجدته ألين القوم !

أجل في هذه المناسبة بالذات، حيث لا يتوقع من علي كرم الله وجهه سوى بأس المقاتل، وتشفّى صاحب الثأر، نجد لين الجانب ورحمة الغلب يسمان موقفه وتصرفه. وبشهادة من ؟! بشهادة خصمه أبي سفيان زعيم قريش يومئذ وقائد جيوشها وحامل لواء وثنيّتها. ذلكم هو نوع البطولة التي أفاءتها مقادير علي عليه، بطولة يقودها العقل لا العاطفة، بطولة تحكمها أخلاقياتها النبيلة السامية، فلا تستعلي على الرحمة ولا تزيغ عن الحق ولا تتنكب طريق الأناة والحكمة.

وبهذه البطولة وقف علي تحت راية الرسول في حياته وبعد مماته، بهذه البطولة الشهمة العادلة، قاتل المشركين فما تخلف عن غزاة ولا عن مشهد أبداً، إلا غزاة واحدة أمره الرسول بعدم الخروج إليها ليكون خليفته في المدينة على أهله. ولما تململت روح البطل إزاء هذا التخلف أرضاه الرسول بقوله على ملأ من أصحابه: أما يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ؟

وبهذه البطولة الشهمة العادلة، سيخوض قتاله مع معاوية ومع الخوارج، وسيواجه الفتن الحالكة التي تدع الحليم حيران بأخلاقه الطاهرة، قبل أن يواجهها بمقدرته القاهرة. لن يجد بأساً . أيَّ بأس . في أن يخسر ألف معركة، ولكنه لن يسمح للظروف . مهما تبلغ ضراوتها وشدتها . أن تسلبه فضيلة واحدة من فضائل نفسه وفضائل دينه.

والحق أن معارك الحروب الأهلية التي اضطر الإمام لخوضها كانت أعظم مجاليّ عظمته ورجولته ونُبله، فإلى هناك لنرى بعض مشاهدها.

إن منصة الأستاذية قد رفعت فوق المشقة والهول، وقد علاها البطل والمعلم ليرى الدنيا على الطبيعة كيف تعمل البطولات العظيمة في نُبل واستقامة وشرف)[١].

(١) خالد: خلفاء الرسول. ص ٤٠٧ - ٤٢٦.

العلامة فضل الله:

المرجع الديني المعاصر والمفكر الإسلامي السيد محمد حسين بن عبدالرؤوف بن نجيب الدين الحسني «ت١٤٣١هـ»، نسبت أسرته إلى جدهم السيد فضل الله بن محمد، ولد في النجف الأشرف عام ١٣٥٤ هـ ، وبها تلقى علومه على يد جهابذة العلم فيها فنبغ، ثم غادر إلى لبنان عام ١٣٩٦ هـ حاملاً مشروعاً كبيراً على مستوى التوعية وإنشاء المؤسسات والعمل السياسي والفكري، وقد أنجز الكثير منه على أرض الواقع، ويعد اليوم أحد أبرز الشخصيات الإسلامية على المستوى العالمي. له مؤلفات عديدة، كما جمعت محاضراته وخطبه في كتب كثيرة متسلسلة.

قال في كتابه في رحاب أهل البيت: (**كان كل شئ في شخصيته** عليه السلام **في خدمة الله، وهكذا كان سيفه وبطولته وشجاعته، لا في خدمة الذات وإنما في خدمة الله. كان الإمام علي** عليه السلام **يشعر أنه لا يملك شجاعته، ولا يملك بطولته، ولا يملك سيفه، بل كان يشعر أنها ملك لله. لم تكن الشجاعة والبطولة عنده حالة ذاتية، ولم يكن السلاح ملكاً شخصياً له، فهو يعتبر ذلك ملكاً لله، لهذا كان لا يحرك سلاحه إلا في المواقع التي يريد الله منه أن يحرك سلاحه فيها، كان ينتظر أمر الله وينتظر المعركة التي يشعر أن الله يرضى بها، ولايسمح لنفسه أن يدخل أية معركة يمكن أن لا تكون في رضا الله، أو يمكن أن تسئ إلى الإسلام.**

وهكذا إذا درسنا كل حروب الإمام علي عليه السلام **منذ الحرب التي بدأها في بدر مع رسول الله** صلى الله عليه وآله **، حتى الحرب التي انتهت بها حياته بعد ذلك مع الخوارج. كان الإمام علي** عليه السلام **يبحث عن الأساس الشرعي للحرب، وكان يريد أن يعرف كيف تتحرك الحرب في طريق الله وفي طريق الإسلام، ولا تتحرك في طريق الذات وطريق الشهوات.**

هكذا رأينا علياً عليه السلام **في سلمه وحربه، فهو يسالم لا لأن مصلحته الشخصية تفرض عليه السلم، ولكن كان يسالم إذا كانت مصلحة الإسلام تفرض عليه السلم، حتى لو كان السلم على حساب قضاياه الخاصة، ولهذا كان يقول: لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين.**

كان يسالم عندما يرى أن قضايا المسلمين تفرض عليه أن يسالم، ويحارب عندما يرى أن حياة المسلمين ومصلحة الإسلام تفرض عليه أن يحارب، كانت حربه منطلقاً في طريق الله، وكان سلمه متحركاً في طريق الله.

عندما انطلق الإمام عليه السلام **في حياته كان يستصغر كل من حوله أمام الله، ولهذا لايخاف من أحد، لأن خوف الله قد شغله، ولأن شعوره بعظمة الله جعلته ينشغل عن النظر في عظمة الآخرين. ولهذا كان علي البطل الذي لا يخاف، كان الكرّار غير الفرّار، قالها رسول الله** صلى الله عليه وآله **وهو يفتح للمسلمين سر شخصية الإمام علي** عليه السلام**، يقول: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله**

على يديه. يحب الله فيكرّ على أعداء الله، ويحبه الله فيستمد القوة من محبة الله فيثبت في المعركة، لأنه يشعر أنه برعاية الله يتحرك.

هذه الروح التي أراد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَام أن يجعل الناس يتحركون من خلالها، لأن أية قضية وأية مشكلة وأية معركة إذا لم تكن منطلقة من عمق الإيمان وفي روحيته، فإنها تظل معركة على السطح وتظل معركة لا تثبت فيها الأقدام)[١].

نصري سلهب:

كاتب ومحامي لبناني مسيحي، تولى عدة مناصب إدارية وسفارية هامة لبلاده، ألّف عدة كتب، من بينها: «في خُطَى محمد» و«في خُطَى عليّ» و«في خُطَى المسيح» و«لقاء المسيحية والإسلام» و«الإسلام، كما عرفته، دين الرحمة والسلام». تميز بنظرته الموضوعية وتحريّة للحقيقة المجرّدة، كما عرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان، كتب العديد من الفصول وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية على السواء، متوخّياً الهدف نفسه.

قال في كتابه «في خُطى علي»: (علي من أولئك البشر الذين كتب عليهم أن يموتوا لتحيا بموتهم شعوب وأمم. وأعداء علي من أولئك النفر الذين آثروا الحياة على الموت فأماتوا كل أباء وشمم . ذكراه ليست ذكرى البطل الذي استشهد فخلد في ضمير الله ، بقدر ما هي ذكرى الغادرين الذين غدروا فخلدوا في نار جهنم .

وحين تذكر الأمة علياً فتبكي، فإنما تبكي نفسها ، ذلك أنها كلما ذكرت أن من ابنائها من الأعراب المؤمنين، أطلقت عليه وعلى أبنائه سهام، وانقضت سيوف ورشقت نبال، كلما ذكرت أن أولئك الذين جعلوا من أنفسهم أمراء مؤمنيها ، خلفاء نبيها وارثي رسول ربها ، قد استباحوا الدم الزكي العطر فغدروا بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام أولاداً ورضعاً نساءً وعجزاً فتيات وعزلاً.

كلما ذكرت أن الغادرين سافكي الدماء هادري الحياة عم منها عرب أقحاح ، بكت وخافت من أمسها على غدها. ذلك أن الأمم التي تنجب الأبطال الميامين والشهداء الصالحين لا تبكي ، بل تفرح ، وبهم تفاخر وتكابر ، إنما الأمم التي تنجب الغادرين ، الكافرين هي التي تبكي وحالها ترثي ، إذ يلحق بها العار أبد الآبدين .

حري بعلي وهو في دنيا خلوده أن يبكينا، لأننا من الساح فررنا وأخلينا الميدان لأعداء لنا يجولون فيه ويصولون، بل يسرحون ويمرحون!

---

(١) فضل الله : في رحاب أهل البيت. ج ١. ص ١٤٦ - ١٤٨.

كم نحن، اليوم، بحاجة إلى علي وأمثاله! وهل أمثاله كثيرون؟ مَن للأمة غيرهم يجاهدون في سبيلها مثل جهادهم في بدر وأُحُد والخندق وحُنين وفي كل وقعة خاضوها ضد المشركين، أعداد الله، أعداء الحق؟

إلى علي وأمثال علي ترنو القلوب والخواطر، وجسم الأمة مثخن بالجراح، تدوسه كل يوم أقدام الغرباء الغاصبين الآثمني، أولئك الذين تربصوا بنا مئات السنين ليعودوا فينقضّوا علينا وعلى مقدساتنا، فيستبيحوا مهدَ المسيح وكنيسة قيامته، وأولى القبلتين وثالث الحرمين، غير آبهين، بل غير حاسبين لنا حساباً، كأنما هم أصحاب الحق، بل أصحاب الدار، ونحن في ديارنا غرباء، بل نحن عن ديارنا مبعَدون، بل في ديارنا لاجئون!

لمَ لا نسير في خطى علي وأمثال علي من أبطال الإيمان وأسياد الميدان؟

مات الحسين وآل البيت في كربلاء فعاشوا في ضمير الأمة خالدين إلى الأبد! وعشنا علي أرض وطن مُهان فمتنا، كل يوم، أذلاء، أحياء، من كرامتنا مفرغين!

لم لا نثبت في ساح الجهاد في سبيل الوطن السليب، والأمة الجريح، والكرامة النازفة دماً، ونردد مع الحسين بطل كربلاء، بل بطل الزمن، السائر في خطى علي قولاً وفعلاً :

سَأمْضِي ومَا في الموتِ عارٌ علَى الفَتَى ... إذا مَا نَوَى حَقاً وجَاهَدَ مُسلِما
فإنْ عِشتُ لم أندَمْ وإنْ متُّ لَم أُلم ... كَفى بكَ ذُلاً أنْ تَعيشَ وتُرغَما

لم لا تسير الأمة في خطى علي؟ فكل من آمن بأن الفداء طريق إلي السماء يشده إليه شوق وحنين.

وكل من عقد العزم على غسل العار تجمعه إليه وحدة مصير.

كل روضة من رياض الأرض تتمنى أن تكون له مضجعاً.

كل زهرة تشتهي آن تعطّر مثواه الأخير.

ذلك أنه كبُرَ على الدنيا ففاز بالآخرة المعدة للخالدين.

والأمة التي أنجبَتْه وأنجبت أمثاله من العظماء الصحاح لن تقفر من ميلاد فجر جديد. سيد الشهداء،

دعني وأنا سائر في خطاك أقل لك القول الصريح، النابع من قلب جريح:

أنا من بلاد الأجراس الحزينة والمآذن الصامتة!

أنا من بلاد الكنائس الثكلى والمساجد المنطوية على الجِراح.

أنا من بلاد الكرامات المذبوحة تئن وتهمس في مسمع التاريخ همسات خافتات.

فررتُ من أولئك الذين عليّ كرّوا، لأني لك ولذكراك تنكرتُ، وعن تعاليم إنجيلي وتوصيات قرآني أُذُنيَّ وقَرْتُ، وعينيَّ أغمضْتُ.

أتيتك، وأنا سائر في خطاك، أستمد منك قبساً يُشعل فيَّ زيتَ الكبرياء، لعلّي على نفسي أثور وعلى ذاتي أنتصر، فأنتصر على عدو أذلّني ودنس أرضي واستباح الحرمات.

لكأن التاريخ يأبى إلا أن يعيد نفسه!

فكما أن الأعداء الذين وقفوا بوجهك، فصدّعوا وحدة الصف وشطروا الأمة شطرين، لم يكونوا من الغرباد، بل من بني قومك، أعراباً أقحاحاً، ومن بني دينك، مسلمين، مؤمنين، هكذا أعداؤنا اليوم ليسوا من الغرباء، بل هم من بني قومك وبني دينك، ولم يشطروا الأمة شطرين فحسب، بل فلّوها شطوراً، مدركين أو غير مدركين أن العدو الحقيقي الغريب الباغي المغتصب يجني ثمار الفُرقةَ ويجعل من أمة كانت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمة تجر أذيال الهزمة والعار، تنهى عن المعروف وتأمر بالمنكر، مخالفة أوامر الله في كتابه الكريم، ومنحرفةً عن طريق مشاها رسول الله وعطّرها بالأحاديث والأعمال الكبار، ومشيتها أنت، في أثره، فجعلت الزنابق والورود على جوانبها تتعالى ومعها يتعالى الأريج والعطر المقدس، لأنك أرويتها، مع آل بيتك، بالدم الذكيّ العطِر، دمِ الاستشهاد والفداء، من أجل الله وأمة العرب.

أجل أبا الحسين، كم نحن بحاجة إلى شجاعة تجلّت في خلقك كما تجلّت في نصلة سيفك! ما قلتَ طوال حياتك كلمة باطل، ولم تقل إلا الحق يهوي علي الكذب، صاخباً، قاطعاً كسيفك يهوي على الكفر والشرك.

وزنّى لنا آن نسير في خطاك، والكذب مستبد بنا فلا قدرة لنا على فراقه؟ كذبنا وكذبنا حتى بتنا نصدّق ما نقول! كم نحن صغار إلى قربك أيها الكبير!

سيفك الذي لطالما فرّجت الكربة به عن رسول الله، سيفك ذا الذي رمتَ بيعه حتى لا تبيع نفسَك وتشتري بثمنه إزاراً!

سيفك، ذاك، أين هو اليوم لنشتريه بجميع ما نملك، بالفضة والذهب، بالنخيل والأرز، بالمهج والأرواح، بكل ما عزّ ونَدَر، فننقضّ به على الباطل، على العدو المغتصب، فنحرر به أنفسنا وأرضنا والأمة الجريح.

ولكن أترى سيفك صنع المعجزات؟ أم زندك والإيمان الذي حرّك زندك وشعلة نار أضرمها في قلبك ذلك الأكبر الذي جعل ذاك الكبير نبياً له ورسولاً؟

لا ، سيفك أعزل، لن يكفي.

إلى زندك نحن نفتقر.

إلى إيمانك والبطولة، إلى شجاعتك، إلى شمائل وفضائل لو نثرها الله علينا لغدا كل واحد منا بطلاً لا يبالي أوقَع على الموت أم وقع الموت عليه....

أ وَيجوز للأمة التي أهرقت دمك ودم أبنائك وأبناء أبنائك أن تناديك وبك تستغيث لتردّ عنها الغزاة الفاجرين الظالمين؟

تلك الأمة التي لك تنكّرَت، فأنكرت عليك حقاً عقده لك نبي الله، ترى نفسها اليوم - كما في الخندق - بحاجة إليك، إلى سيفك وزندك وقلبك وإيمانك!

ذلك أن يوم الخندق شهد ابن وَد واحد.

أما اليوم فهم كثيرون كثيرون، وكلهم ابن وَد!

وكما راح ابن وَد ينادي: يا أصحاب محمد هل من مبارز؟ ويكرر النداء بصوته المجلجل، حتى استحال النداء تحدياً وصوته يلقي الدعب في قلوب المؤمنين فلا يجرؤ أحد على نزاله إلاكَ يا علي، فخرجتَ إليه فجندلته بضربة واحدة، وصرخ النبي: خرج الإسلام كله إلى الشرك كله. هكذا التاريخ، اليوم، يعيد نفسه.

فالعدو - وليس بيننا وبينه خندق - يدوس أرضنا، يدنّسها، ينادي بأعلى صوته الشاذ القبيح: أيها العرب، هل من مبارز؟ ويكرر النداء حتى استحال نداؤه تحدياً سافراً جعلنا سخرية الزمن في فم الزمن!

أين أنت يا علي لتبرز فتبارز فيصرخ الرسول: خرج الحق كله إلى الباطل كله؟

كل عربي بوسعه أن يكون علياً، إذا تخلّق بخلقك يا علي. غير أن العربي يخشى إنْ هو سار علي خطاك أن يكون له نفس مصيرك، أن يضطهده بنو قومه، أن ينبري له ابنُ ملجم آخر يطعنه بخنجر مسموم وهو في بيت الله يصلي.

أحقاً يخشى العربي أن يكون له نفس مصيرك؟ أم تراه يتمنّي ويشتهي أن يكون له مثل ذاك المصير؟ أإنها لنعمة كبرى، لَعطاء السماء، لهبة من الله، أن يقدّر لبشر ما قُدِّر لك. أن تطوي السنون مئات، وأن تظل حياً في ضمائر المؤمنين كأنما جثمانك لم يوار الثرى.

أن يمر في أرض العرب المسلمين ملايين من بشر أثناء ألف من السنين ويزيد، فلا يستطيع واحد، مهما أوتي من عبقرية وعظم خلق، أن يلقي عليك بعض ظل يخفّف من إشراقك ووهجك، ولا يقوى واحد على التخفيف من لهيب الشوق إليك والحنين.

أن تظل القدوة والمثال ومنتهى الآمال والمستحيل المنال، بل ذروة الكمال وأوج الجمال. أمِثلُ ذلك يقدَّر إلا لقلة من البشر اختارهم الله ليرسموا بدمائهم طريقاً إلى السماء؟...

كم نحن بحاجة، يا أبا الحسن، إلى بطولة تجلّت فيك، نادرة، عبر التاريخ، فإذا هي، بعدَك يتيمة تستغيث! يوم خرج ابن وَد من صفوف المشركين يتحدّى المؤمنين فأنزل في قلوبهم خوفاً ورعباً، فجبنوا وأحجموا، كنت الفتى الذي انقضضتَ عليه فأرديته، فإذا الشرك صريع مسجّى، وإذا الإيمان يتعالى صوب السماء على صيحات: لا إله إلا الله.

وإذا النبي يعلن: لا فتى إلا علي.

وإذا الأجيال تردد: لا فتى إلا علي. وستظل تردد: لا فتى إلا علي، حتى يرسل الله للعرب فتى يزهق الباطل

وينصر الحق، ويُعلي كلمة الله، ويعيد إلى الأمة كرامةً ومجداً، ويحررها من أبناء وَد كثيرين، متربصين بها وبكنيسة قيامتها، مشردين أبناءها، منكسين رايتها، محتلّين أجزاءها، وسلاحنا خطب وأشعار.

لقد كنتَ شهيد إيمانك بأمتك، وما ذلك بالقليل، لأن الأمة، قبلك وبعدك، تعوّدَت أن تكون شهيدة إيمانها بأبنائها!

ولقد خفتَ الله فما أخافَك بشر!

حسبنا زاداً لدنيانا والآخرة قولك: إن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه... فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل.

ولتضج في أعماقنا والأسماع صرخةٌ أطلقْتَها فأيقظتَ ضمير التاريخ ولم توقظ ضمائرنا، لأن الخدر استبدّ بها فطغي وأضنى: والله ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنَّت عليكم الغارات ومُلكت عليكم الأوطان، فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرونو وتُغزَون ولا تغزُون، ويُعصى الله وترضون.

فكلما استبدّ بنا عطش إلى السماء عُدنا إليك يا علي، يا أمير المؤمنين، وخليفة خير نبي. لكأنك واحة في صحراء الدنيا نردُها فننجو من نار جهنم!

أيكون الله، يوم ولدتَ، قد أفرغ في روحك بعضاً من روحه؟ وإلا كيف استطعت أن توقف الزمن؟ ألأنك مت شهيداً؟ لا، فالشهداء عبر الزمن كثيرون، مرّوا بساح الدنيا وزالوا كأنهم ما كانوا.

ما أضفى عليك الموت عِظَماً لو لم تكن في حياتك عظيماً. حياتك سِفْرُ قداسة لو يقرأه البشر ويعيشونه لاستحالت قلوبهم قطعاً من سماء.

ذلك هو سرّ خلودك يا علي، لأنك حي بالله، والله حي فيك.

وذكراك، تُحيا على مر السنين، لدليل على أن معصية الله موت وفناء، وأن الاستسلام له حياة وخلود...

مثلك أي مصير له غير الشهادة؟ إنك الشهيد، لا محالة، ولو مت في فراش. لزمتك آية الشهادة في كل نقلة من نقلات مصيرك. لكأن الأحداث منذ الأبد أبت إلا أن تجعل منك أبا الشهداء. مثَلُك مثَلُ السراج الذي امتصَّ حشاشته ليفنيها هدياً على المسالك. بذلتَ أكرمَ نفس في سبيل قوم لم يفهموك.

حميت هامَهم فطعنوا هامَك بالحسام المسموم، وذدتَ عن حياضهم والكرامات، فاغتابوك كالرعاديد اللئام.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

ومن يمت في سبيل أمته فهو في سبيل ربه قد مات، فكان من الخالدين. والموت في النهاية عود إلى الله، ومن

(١) سورة آل عمران: ١٦٩.

عاد إلى خالقه فهو حي لا يموت.ومن الناس من خُلقوا لتحيا بهم أوطانهم والأمم. فإن آلمتك الدنيا وأدمت منك القلب والروح، فعزاء المؤمنين أن مأتَم الدنيا عرس الآخرة.

لقد كنتَ يا علي، قيمة ذاتية كبرى لا يكبرها إلا ذلك الكبير الذي كان أول من قال: الله أكبر.

دعني وأنا المسيحي أقل لك:

أن في خاطري ووجداني شعاع يضيء طريقي.

أنت في ضمير الزمن تعيش،

وفي ضمير الزمن ستبقى

أبا الشهداء

وأمير المؤمنين)[١].

وقال في فصل بعنوان «قوله والفعل صِنوان»: («لألف ضربة بالسيف في سبيل الله أهون من ميتة في فراش». «لو تظاهرت العرب على قتالي ما ولّيتُ مدبِراً». بهذه الكلمات البليغات - ومثيلاتها كثير - عبّر علي عن شجاعته، ولكنه بالأفعال كان أبلغ تعبيراً. كانت جولاته وصولاته في ساح الوغى فوق ما قال وكتب. فما استطاع، وهو سيد البلاغة، أن يفي شجاعته حقّها، فظلت البلاغة عنده في خجل من شجاعته، أو لربما راحتا تتهاديان وتمسيان جنباً إلى جنب دلّاً وفخراً.

في وقعة الخندق، كان الوحيد، في جيش المسلمين الذي اجترأ على منازله ابن وَد، فارس الجزيرة، الذي أخذ يتحدّى المسلمين، فألقى الرعب في قلوبهم فسمّرهم في مكانهم يرتجفون. بضربة واحدة - لا ثانية لها - جندل ابنَ ود! فإذا فارس الجزيرة الخطير جثة تمرّغ في التراب.

في غزوة خيبر ضرب مرحباً على رأسه - وكان عليه مِغفَر، «وهو زرد من الدرع يلبس تحت القنسوة» وحجَر - فقدّ الحجر والمغفر والرأس حتى استقر السيف في أضراسه.

في بدر كان جيشاً قائماً بذاته، بل كان نصف جيش المسلمين! فلقد قتل من المشركين النصف، والمسلمون جميعهم قتلوا النصف. وبين قتلاه فرسان صناديد ذوو ماض في الوغى عظيم، مجيد.

وفي أُحُد صرع ثمانية عشر مشركاً والجيش كله صرع عشرة. وهو من القلائل الذي ثبتوا حول الرسول.

في غزوة حنين صرع آربعين، وفي صفين خمسماية، ومثل ذلك يوم الجمل والنهروان.

وما كنا لنجيز لأنفسنا أن نصف تلك الأفعال وأمثالها بالشجاعة لو يم يكن علي أتاها دفاعاً عن الحق وفي سبيل الله ومن أجل نشر الإيمان.

---

(١) شلهب: على خطى علي، ص ١٧-٣٢.

فالقاتل - وإن كان بطلاً لا يَهاب الموت - لا يوصف بالشجاع. معاذ الله أن نصف علياً بالشجاع لأنه قتل المئات وصارع الأبطال فصرعهم. إنما هو شجاع لأنه تصدّى للباطل والجور والظلم، للبغي والشرك، بل للكفر، وخاض المعارك في حياة النبي، وجيشُ المسلمين في موقف الدفاع لا الهجوم.

وكان كلما بارز فارساً يسعى إلى رد عدوانه بالحسني، وإلى حسم الخلاف عن طريق الإقناع، دونما مساومة على حق أو حقيقة. فإن أبى خصمه وأصر واتخذ المبادرة، انبرى له عليّ بردّ بغيه، فيصارعه ويصرعه.

ما تحدّى ولا تكبّر ولا استعلى ولا استكبر، وهو ذو القوة الخارقة التي ندر لها ندّ. ومن قُدّر له التمتع بمثل نصف قوته يملأ الأجواء ضجيجاً وضوضواء، ويتعالى حتى النجوم خيلاء وكبرياء.

كان علي سيفاً ما سُلّ إلا لنصرة الحق علي الباطل، وسهماً ما أطلق إلا على القوي حمايةً لضعيف، ورمحاً ما حُرّد إلا على الظالم دفاعاً عن مظلوم، وغضباً ما انصبّ إلا على الغني رفقاً بالفقير والسائل والمحروم وابن السبيل. كان صرخة مدوّية في وجه أعداء الرسول، أعداء الله، نصره يوم تألّبَت عليه قريش تبغي هلاكه.

وفي ساح القتال كان الفارس الذي تجسدت في زنده طاقةُ السماء، وجرت في حدّ سيفه غضبة الله على أهل الشرك عابدي الأصنام.

شرفٌ للمرء وفخر أن يصرعه علي، ذلك البطل الذي لا يُقهَر والذي غدا اسمه مرادفاً لثورة السماء على الأرض. وأقل ما يقال في هذا الصدد أن الموت بسيف ابن أبي طالب ما كان عيباً ولا عاراً... شجاعة علي ستظل أغنية الدهر منذ بات على فراش الرسول ليلة الهجرة.

ولا شجاعة صحيحة أصيلة إن لم تلازمها المروءة واللاضغينة والسماح، شمائل وصفات توفّرَت لعلي كوفرة الأشعة في الشمس.

ما شهر سيفه طوال حياته ليروي حقداً أو يشبع بغضاء. فهما لم يعرفا إلى ذلك القلب الكبير سبيلاً. قبل القتال وبعده كان يشعّ نُبلاً ورِفقاً..... إن قاتل لا يغدر ولا يبغي، ولا يداور أو يراوغ، لأن الضربة - وهي دائماً للدفاع - يسددها في وجه خصمه تاركاً له المجال ليتّقيها، وفق قواعد القتال الشريف.

من هنا أنه لم يبدأ أحداً بقتال، غير أنه إن برز للميدان رداً للتحدي، فإم مصارعه حتماً لمصروع... ولم تتجل شجاعة علي في القتال فحسب، لم تكن وقفاً على سيفه وزنده، فحسب، بل اتصف بشجاعة من نوع آخر، ربما كانت أنبل وأسمى. كانت الكلمة، عنده، أقوى من السيف وأمضى. فكما كان يسل سيفه في وجه خصمه، ويهوي به عليه، ضربة بضربة، غير مستعين بخدعة وغير لاجيء إلى حيلة، هكذا كان يهوي بالكلمة على ذلك الخصم صريحة واضحة، مسلولة من قلبه، منطلقة من لسانه، كالسيف يُسلّ من غمده قينقضّ به على ذي جهل، فيفصل بين الحق والباطل. سيفه والكلمة سلاحان صنوان: ما سلّهما إلا لنصرة الحق، زهقاً للباطل. وكما كان شريفاً نبيلاً رحيماً في ساحة القتال، هكذا كان شأنه على المنابر وفي المجالس، قال أم كتَب)[١].

(١) شلهب: على خطى علي، ص ٢٨٧-٢٩٥.

نفاثة
الجاحظ

نفاثة[١] الجاحظ

أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ «ت ٢٥٥ هـ»، أحد كبار الأدباء العرب في زمانه وله مؤلفات عديدة، ونُسبت إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة. عُرف بأمويّته، وانعكس ذلك بوضوح فيما كتب.

انتقص الجاحظ من شخصية الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وشكك في قيمة كثير مما روي في شأنه، و انبرى أبوجعفر محمد بن عبدالله الإسكافي المعتزلي للرد عليه في كلمات رائعة نقلها لنا ابن أبي الحديد[٢]، وننقل منها هنا بعض ما يخص جانب الشجاعة من شخصية الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ودوره في نصرة النبي والإسلام والمسلمين، مع الاختصار بحذف بعض المقاطع لحساسية مضمونها.

۞ المورد الأول:

قال الجاحظ: **علم الناس أن علياً** عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣] **إنما ظهر فضله، وانتشر صيته، وامتُحن ولقي المشاق منذ يوم بدر، وأنه إنما قاتل في الزمان الذي استوفى فيه أهل الإسلام، وأهل الشرك، وطمعوا في أن يكون الحرب بينهم سجالاً، وأعلمهم الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **أن العاقبة للمتقين ...**

ورد الإسكافي قائلاً: لا أشك أن الباطل خان أبا عثمان، والخطأ أقعده، والخذلان أصاره إلى الحيرة، فما علم وعرف حتى قال ما قال، فزعم أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل الهجرة لم يُمتحن ولم يُكابد المشاق، وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحن الابتلاء منذ يوم بدر، ونسي الحصار في الشِّعب[٤]، وما مُني به منه ... وعليٌّ يقاسي الغمرات، ويكابد الأهوال، ويجوع ويظمأ، ويتوقع القتل صباحاً ومساءً، لأنه كان هو المتوصل المحتال في إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سراً، ليقيم به رمق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبني هاشم، وهم في الحصار، ولا يأمن في كل وقت مفاجأة أعداء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ له بالقتل، كأبي جهل بن هشام وعقبه بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرته.

ولقد كان يُجيع نفسه ويطعم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ زاده، ويُظمئ نفسه ويسقيه ماءه، وهو كان المعلِّل له إذا مرض،

---

(١) النفاثة من النفث: شبه النفخ ، وهو أقل من التفل ، لأن التفل لا يكون إلا معه شئ من الريق . وفي المثل: لابد للمصدور أن ينفث . والمصدور هو المهموم المتألم نفسياً .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١٣ ـ ص ٢٥٦ ـ ٢٩٥.

(٣) هكذا في المصدر ، ولا أعلم إن كان الجاحظ هو الذي سلم على أمير المؤمنين في كل المواضع التالية أم أنها من إضافات الإسكافي أو النساخ .

(٤) دام الحصار في شعب أبي طالب ٣ سنوات كابد خلالها آل رسول الله المشاق الكثيرة ، والظروف الصعبة .

والمؤنس له إذا استوحش... ثلاث سنين، محرّمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج والتصرف في أنفسهم، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة، ونسي هذه الخصيصة، ولا نظير لها ؟! ولكن لا يبالي الجاحظ بعد أن يسوغ له لفظه، وتنسق له خطابته، ما ضيّع من المعنى، ورجع عليه من الخطأ.

فأما قوله واعلموا أن العاقبة للمتقين، ففيه إشارة إلى معنى غامض قصده الجاحظ، يعنى أن لا فضيلة لعلي عليه السلام في الجهاد، لأن الرسول كان أعلمه أنه منصور، وأن العاقبة له، وهذا من دسائس الجاحظ وهمزاته ولمزاته، وليس بحق ما قاله، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم أصحابَه جملةً أن العاقبة لهم، ولم يُعلم واحداً منهم بعينه أنه لا يُقتَل، لا علياً ولا غيره. وإن صح أنه كان أعلمه أنه لا يُقتل، فلم يُعلمه أنه لا يُقطع عضو من أعضائه، ولم يُعلمه أنه لا يمسه ألمُ جراح في جسده، ولم يُعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد. وعلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر، وهو يومئذٍ بمكة، أن العاقبة لهم، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك ...

۞ المورد الثاني:

قال الجاحظ: **وأن بين المحنة في الدهر الذي صار فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله مقرّنين لأهل مكة ومشركي قريش، ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواساة، والإيثار والمحاماة والعدد الدثر، والفعل الجزل، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكة يُفتنون ويُشتمون، ويُضربون ويشرّدون، ويجوعون ويعطشون، مقهورين لا حراك بهم، وأذلاء لا عزّ لهم، وفقراء لا مال عندهم، ومستخفين لا يمكنهم إظهار دعوتهم، لفرقاً واضحاً، ولقد كانوا في حال أحوجت لوطاً وهو نبي إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1] وقال النبي صلى الله عليه وآله: عجبت من أخي لوط، كيف قال: أو آوي إلى ركن شديد، وهو يأوي إلى الله سبحانه وتعالى ؟! ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومين ولا شهراً ولا شهرين، ولا عاماً ولا عامين، ولكن السنين بعد السنين ...**

ورد الإسكافي قائلاً: ... يُقال له: ما بالك أهملت أمر مبيت علي عليه السلام على الفراش بمكة ليلة الهجرة هل نسيته أم تناسيته ؟! فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة التي متى امتحنها الناظر، وأجال فكره فيها، رأى تحتها فضائل متفرقة ومناقب متغايرة، وذلك أنه لما استقر الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وآله مُجمع على الخروج من بينهم للهجرة إلى غيرهم، قصدوا إلى معاجلته، وتعاقدوا على أن يبيّتوه في فراشه، وأن يضربوه بأسياف كثيرة بيد كل صاحب قبيلة من قريش سيف منها، ليضيع دمه بين الشعوب، ويتفرق بين القبائل، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلة واحدة بعينها من بطون قريش، وتحالفوا على تلك الليلة، واجتمعوا عليها.

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من أمرهم، دعا أوثق الناس عنده، وأمثلهم في نفسه، وأبذلهم في ذات الإله لمهجته، وأسرعهم إجابة إلى طاعته، فقال له: إن قريشاً قد تحالفت على أن تبيّتني هذه الليلة، فامض إلى فراشي، ونم في مضجعي، والتفّ في بُردي الحضرمي ليروا أنى لم أخرج، وإني خارج إن شاء الله.

فمنعه أولاً من التحرز وإعمال الحيلة، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات التي يحتاط

(١) سورة هود: ٨٠.

بها الناس لنفوسهم، وألجأه إلى أن يعرض نفسه لظبات السيوف الشحيذة[١] من أيدي أرباب الحنق والغيظة، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعاً طيبة بها نفسه، ونام على فراشه صابراً محتسباً، واقياً له بمهجته، ينتظر القتل. ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتمسها صابر، ولا يبلغها طالب، والجود بالنفس أقصى غاية الجود. ولولا أن رسول الله ﷺ علم أنه أهلٌ لذلك، لما أهّله، ولو كان عنده نقص في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمه، واختير لذلك، لكان من اختاره ﷺ منقوضاً في رأيه، مضراً في اختياره، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الاسلام، وكلهم مجمعون على أن الرسول ﷺ عمل الصواب، وأحسن في الاختيار. ثم في ذلك ـ إذا تأمله المتأمل ـ وجوه من الفضل:

• منها أنه وإن كان عنده في موضع الثقة، فإنه غير مأمون عليه ألا يضبط السر فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء.

• ومنها أنه وإن كان ضابطاً للسر وثقة عند من اختاره، فغير مأمون عليه الجبن عند مفاجأة المكروه، ومباشرة الأهوال، فيفرّ من الفراش، فيُفطن لموضع الحيلة، ويُطلب رسول الله ﷺ فيُظفر به.

• ومنها أنه وإن كان ضابطاً للسر، شجاعاً نجداً، فلعله غير محتمل للمبيت على الفراش، لأن هذا أمر خارج عن الشجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع، بل هو أشد مشقة من المكتوف الممنوع، لأن المكتوف الممنوع يعلم من نفسه أنه لاسبيل له إلى الهرب، وهذا يجد السبيل إلى الهرب وإلى الدفع عن نفسه، ولا يهرب ولايدافع.

• ومنها أنه وإن كان ثقة عنده، ضابطاً للسر، شجاعاً محتملاً للمبيت على الفراش، فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند العقوبة الواقعة، والعذاب النازل بساحته، حتى يبوح بما عنده، ويصير إلى الإقرار بما يعلمه، وهو أنه أخذ طريق كذا فيُطلب فيؤخذ.

فلهذا قال علماء المسلمين إن فضيلة علي عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها، إلا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذبح[٢]، ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم لقلنا إن محنة علي أعظم، لأنه قد روي أن إسحاق تلكأ لما أمره أن يضطجع، وبكى على نفسه، وقد كان أبوه يعلم أن عنده في ذلك وقفة، ولذلك قال له ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[٣]، وحال علي عليه السلام بخلاف ذلك، لأنه ما تلكأ ولا تتعتع، ولا تغير لونه ولا اضطربت أعضاؤه.

ولقد كان أصحاب النبي ﷺ يشيرون عليه بالرأي المخالف لما كان أمر به وتقدم فيه، فيتركه ويعمل بما أشاروا به، كما جرى يوم الخندق في مصانعته الأحزاب بثلث تمر المدينة، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه، وهذه كانت قاعدته معهم، وعادته بينهم، وقد كان لعلي عليه السلام أن يعتلّ بعلة، وأن يقف ويقول: يا رسول الله، أكون معك أحميك من العدو، وأذبّ بسيفي عنك، فلستَ مستغنياً في خروجك عن مثلي، ونجعل عبداً من عبيدنا في فراشك، قائماً مقامك، يتوهم القوم ـ برؤيته نائماً في بُردك ـ أنك لم تخرج، ولم تفارق مركزك. فلم يقل ذلك، ولا تحبّس ولا توقّف، ولاتلعثم، وذلك لعلم كل واحد منهما ﷺ أن أحداً لا يصبر على ثقل هذه المحنة، ولا يتورط هذه الهلكة، إلا من خصه الله سبحانه وتعالى

(١) الظبة : حد السيف . والشحيذة : الحادة .
(٢) لنا ملاحظات على الكلام التالي للإسكافي ، منها أن الذي أريد ذبحه هو إسماعيل وليس بإسحاق ، كما أن مسألة التلكؤ فيها كلام .
(٣) سورة الصافات: ١٠٢.

بالصبر على مشقتها، والفوز بفضيلتها. وله من جنس ذلك أفعال كثيرة، كيوم دعا عمرو بن عبد ود المسلمين إلى المبارزة، فأحجم الناس كلهم عنه، لما علموا من بأسه وشدته، ثم كرر النداء، فقام علي عليه السلام، فقال: أنا أبرز إليه.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه عمرو!

قال: نعم، وأنا علي.

فأمره بالخروج إليه، فلما خرج قال صلى الله عليه وآله: برز الإيمان كله إلى الشرك كله.

وكيوم أُحُد حيث حمى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبطال قريش وهم يقصدون قتله، فقتلهم دونه، حتى قال جبرئيل عليه السلام: يا محمد، إن هذه هي المواساة.

فقال: إنه مني وأنا منه.

فقال جبريل: وأنا منكما.

ولو عددنا أيامه ومقاماته التي شرى فيها نفسه لله تبارك وتعالى لأطلنا وأسهبنا.

۞ المورد الثالث:

قال الجاحظ: ... **وأمْرُ علي عليه السلام ونومه على الفراش، وإن كان ثابتاً صحيحاً، إلا أنه لم يُذكر في القرآن، وإنما جاء مجئ الروايات والسير ...**

قال أبوجعفر الإسكافي: ... قال أهل التفسير إن قوله سبحانه وتعالى ﴿وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ كناية عن علي عليه السلام لأنه مكر بهم، وأول الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] أنزلت في ليلة الهجرة، ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش، ومكر الله سبحانه وتعالى هو منام علي عليه السلام على الفراش ... وقد روى المفسرون كلهم إن قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[2] أُنزلت في علي عليه السلام لليلة المبيت على الفراش.

۞ المورد الرابع:

قال الجاحظ في شأن مبيت أمير المؤمنين على فراش النبي ليلة الهجرة: .. **لم يكن له في ذلك كبير طاعة، لأن الناقلين نقلوا أنه صلى الله عليه وآله قال له: نَم، فلن يخلص إليك شئ تكرهه...**

رد الإسكافي: هذا هو الكذب الصراح، والتحريف والإدخال في الرواية ما ليس منها، والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له: اذهب فاضطجع في مضجعي، وتغشّ[3] ببردي الحضرمي، فإن القوم سيفقدونني، ولا يشهدون مضجعي، فلعلهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا، فإذا أصبحت فاغدُ في أداء أمانتي. ولم ينقل ما ذكره الجاحظ، وإنما ولده أبو

(١) سورة الأنفال: ٣٠.
(٢) سورة البقرة: ٢٠٧.
(٣) يتغشى: يتغطى.

بكر الأصم[١]، وأخذه الجاحظ، ولا أصل له، ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه، وقد وقع الاتفاق على أنه ضُرب ورُمي بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تضوّر[٢]، وأنهم قالوا له: رأينا تضوّرك، فإنا كنا نرمي محمداً ولا يتضوّر.

ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل، فهب أنه أمن القتل، كيف يأمن من الضرب والهوان، ومن أن ينقطع بعض أعضائه، وبأن سلمت نفسه؟ أليس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لنبيه ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٣]، ومع ذلك فقد كُسرت رباعيته وشجّ وجهه، وأدميت ساقه[٤]، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة، وكذلك المكروه الذي أومن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ منه. وإن كان صح ذلك في الحديث. إنما هو مكروه القتل.

۞ المورد الخامس:

قال الجاحظ: **... طاعة الشاب الغرير والحدث الصغير الذي في عز صاحبه عزه، ليست كطاعة الحليم الكبير الذي لا يرجع تسويد صاحبه إلى رهطه وعشيرته.**

قال الإسكافي: أما كثرة المستجيبين، فالفضل فيها راجع إلى المجيب، لا إلى المجاب، على أنا قد علمنا أن من استجاب لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر ممن استجاب لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وثواب نوح أكثر، لصبره على الأعداء، ومقاساة خلافهم وعنتهم...

وأما طاعة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن في عز محمد عزه وعز رهطه ... فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك، وجهاد عبيدة بن الحارث، وهجرة جعفر إلى الحبشة، بل لعل محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كانت لأن في دولته دولتهم، وفي نصرته استجداد ملك لهم، وهذا يجر إلى الإلحاد، ويفتح باب الزندقة، ويفضي إلى الطعن في الإسلام والنبوة.

۞ المورد السادس:

قال الجاحظ: **والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قتله الأقران، وخوضه الحرب، وليس له في ذلك كبير فضيلة، لأن كثرة القتل والمشي بالسيف إلى الأقران، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل، وكان دليلاً على الرياسة والتقدم، لوجب أن يكون للزبير وأبي دجانة ومحمد بن مسلمة، وابن عفراء، والبراء بن مالك من الفضل ما ليس لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ولم يحضر الحرب يوم بدر، ولا خالط الصفوف، وإنما كان معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبوبكر، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران، ويجندل الأبطال، وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز، وهو الرئيس أو ذوي الرأي، والمستشير في الحرب، لأن للرؤساء من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة،**

---

(١) أي أنه قول ابتدعه أبو بكر عبدالرحمن بن كيسان الأصم توفي نحو ٢٢٥ هـ). فقيه معتزلي مفسر، كان يخطّئ علياً في كثير من أفعاله ويصوب معاوية في بعض أفعاله .

(٢) تضور: أصابه الضرر.

(٣) سورة المائدة: ٦٧.

(٤) لنا تحفظ في ارتباط الآية بما جرى في معركة أحد ، إذ أنها ترتبط بقضية الغدير وتبليغ الولاية .

وعليه مدار الأمور، وبه يستبصر المقاتل، ويستنصر، وباسمه ينهزم العدو، ولو لم يكن له إلا أن الجيش لو ثبت وفرّ هو لم يغن ثبوت الجيش كله، وكانت الدبرة عليه، ولو ضُيِّع القوم جميعاً وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له، ولهذا لا يضاف النصر والهزيمة إلا إليه ...

قال أبوجعفر: لقد أعطِي أبو عثمان مقولاً وحُرم معقولاً[١]، إن كان يقول هذا على اعتقاد وجِد، ولم يذهب به مذهب اللعب والهزل، أو على طريق التفاصح والتشادق وإظهار القوة، والسلاطة وذلاقة اللسان وحدّة الخاطر والقوة على جدال الخصوم.

ألم يعلم أبو عثمان أن رسول الله ﷺ كان أشجع البشر، وأنه خاض الحروب، وثبت في المواقف التي طاشت فيها الألباب، وبلغت القلوب الحناجر؟!

فمنها يوم أحُد، ووقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم، ولم يبق معه إلا أربعة: علي والزبير وطلحة وأبو دجانة، فقاتل ورمى بالنبل حتى فنيت نبله، وانكسرت سية قوسه، وانقطع وتره، فأمر عكاشة بن محصن أن يوترها. فقال: يا رسول الله لا يبلغ الوتر.

فقال: أوتِر ما بلغ.

قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق لقد أوترت حتى بلغ ، وطويت منه شبراً على سية القوس، ثم أخذها فما زال يرميهم، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطمت.

وبارز أبيّ بن خلف، فقال له أصحابه: إن شئت عطف عليه بعضنا.

فأبى، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة ثم انتقض بأصحابه، كما ينتقض البعير.

قالوا: فتطايرنا عنه تطاير الشعارير[٢]، فطعنه بالحربة فجعل يخور كما يخور الثور.

ولو لم يدل على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ**﴾[٣]، فكونه عَلَيْهِ السَّلَامُ في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون، هاربين، دليل على أنه ثبت ولم يفر. وثبت يوم حنين في تسعة من أهله ورهطه الأدنين، وقد فر المسلمون كلهم والنفر التسعة محدقون به والعباس آخذ بحكمة بغلته، وعليٌّ بين يديه مصلت سيفه، والباقون حول بغلة رسول الله ﷺ يمنة ويسرة، وقد انهزم المهاجرون والأنصار، وكلما فرّوا أقدم هو ﷺ وصمم مستقدماً، يلقى السيوف والنبال بنحره وصدره، ثم أخذ كفاً من البطحاء، وحصب المشركين، وقال: شاهت الوجوه.

---

(١) أي أن الجاحظ وهب العلم في المنقول والأدب دون أن يمتلك التفكير العميق والقدرة على التحليل السليم للأمور.

(٢) الشعارير : ما يجتمع على دبرة البعير من الذباب ، فإذا هيجت تطايرت عنها . ولابد أن أشير هنا إلى أنني أتحفظ على كون النبي قد قاتل في المعارك ، وذلك لئلا يتعارض قتله لأعدائه مع انتشار رسالته وقبول الأعداء بها ، لأن العرب كانت تحمل عداء دائماً لمن يقتل منها فرداً ، ولذا تحمّل الإمام علي كل ردود الفعل لاحقاً حيث أضمر له بعض العرب العداوات بسبب من قتل منهم ، فكان ما كان . والله العالم .

(٣) سورة آل عمران: ١٥٣.

والخبر المشهور عن علي عليه السلام، وهو أشجع البشر: كنا إذا اشتد الباس ، وحمى الوطيس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولذنا به. فكيف يقول الجاحظ أنه ما خاض الحرب، ولا خالط الصفوف ؟ وأي فرية أعظم من فرية من نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإحجام واعتزال الحرب ؟ ...

وحقٌّ لمثله إذا تنحّى عن الحرب واعتزلها أن يتنحّى ويعتزل، لأن ذلك شأن الملوك والرؤساء، إذا كان الجيش منوطاً بهم وببقائهم، فمتى هلك الملك هلك الجيش، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكه، وإن عطب جيشه فإنه يستجد جيشاً آخر. ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه، وخطّئوا الإسكندر لما بارز قوسراً ملك الهند، ونسبوه إلى مجانبة الحكمة ومفارقة الصواب والحزم...

وكيف يقول الجاحظ لا فضيلة لمباشرة الحرب ولقاء الأقران، وقتل أبطال الشرك؟ وهل قامت عمد الإسلام إلا على ذلك ؟ وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ؟ أتراه لم يسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[١]؟ والمحبة من الله سبحانه وتعالى هي إرادة الثواب، فكل من كان أشد ثبوتاً في هذا الصف، وأعظم قتالاً، كان أحب إلى الله، ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً. فعلي عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله، لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص، لم يفر قط بإجماع الأمة، ولا بارزه قرن إلا قتله.

أتراه لم يسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢] ؟ وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾[٣] ثم قال سبحانه وتعالى مؤكداً لهذا البيع والشراء: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٤]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[٥].

فمواقف الناس في الجهاد على أحوال، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض، فمن دلَف إلى الأقران، واستقبل السيوف والأسنّة، كان أثقل على أكتاف الأعداء، لشدة نكايته فيهم، ممن وقف في المعركة، وأعان ولم يُقدِم. وكذلك من وقف في المعركة، وأعان ولم يُقدِم، إلا أنه بحيث تناله السهام والنبل أعظم غناء، وأفضل ممن وقف حيث لا يناله ذلك. ولو كان الضعيف والجبان يستحقان الرياسة بقله بسط الكف وترك الحرب، وإن ذلك يشاكل فعل النبي صلى الله عليه وآله، لكان أوفر الناس حظاً في الرياسة، وأشدّهم لها استحقاقاً حسان بن ثابت[٦]...

وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش، ونظرت السِّيَر، وقرأت الأخبار، عرفت أنها كانت تطلب محمداً صلى الله عليه وآله وتقصد قصده، وتروم قتله، فإن أعجزها وفاتها طلبَت علياً عليه السلام، وأرادت قتله، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً، وأقربهم

(١) سورة الصف:٤.
(٢) سورة النساء:٩٥.
(٣) سورة التوبة: ١١١.
(٤) سورة التوبة: ١١١.
(٥) سورة التوبة: ١٢٠.
(٦) لم يكن حسان بن ثابت أهل حرب وقتال ، ولذا كان النبي أحياناً يخلفه في المدينة كما جرى في معركة الخندق .

منه قرباً، وأشدهم عنه دفعاً، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه أضعفوا أمر محمد ﷺ وكسروا شوكته، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة والشجاعة والنجدة والإقدام والبسالة. ألا ترى إلى قول عتبة بن ربيعة يوم بدر، وقد خرج هو وأخوه شيبة وابنه الوليد ابن عتبة، فأخرج إليه الرسول نفراً من الأنصار، فاستنسبوهم، فانتسبوا لهم، فقالوا: ارجعوا إلى قومكم.

ثم نادَوا: يا محمد، أخرِج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال النبي ﷺ لأهله الأدنين: قوموا يا بني هاشم، فانصروا حقكم الذي آتاكم الله على باطل هؤلاء. قم يا علي، قم يا حمزة، قم يا عبيدة.

ألا ترى ما جعلت هند بنت عتبة لمن قتَله يوم أُحُد، لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر؟ ألم تسمع قول هند ترثي أهلها:

مَا كَانَ عَن عُتبَةَ لي مِن صَبرِ ... أبي وعَمّي وشَقيقِ صَدري

أخِي الذي كَان كَضوءِ البَدْرِ ... بِهِم كَسَرتَ يا عَليُّ ظَهرِي

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عتبة، وشرك في قتل أبيها عتبة، وأما عمها شيبة، فإن حمزة تفرّد بقتله.

وقال جبير بن مطعم لوحشيّ مولاه ـ يوم أُحُد ـ : إن قتلت محمداً فأنت حُر، وإن قتلت علياً فأنت حُر، وإن قتلت حمزة فأنت حُر.

فقال: أما محمد فسيمنعه أصحابه، وأما علي فرجل حذر كثير الالتفات في الحرب، ولكني سأقتل حمزة.

فقعد له وزرقه[١] بالحربة فقتله .

ولما قلنا من مقاربة حال علي عليه السلام في هذا الباب لحال رسول الله ﷺ ومناسبتها إياها ما وجدناه في السير والأخبار، من إشفاق رسول الله ﷺ وحذره عليه، ودعائه له بالحفظ والسلامة، قال ﷺ يوم الخندق، وقد برز علي إلى عمرو[٢]، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه: اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أُحُد ، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليَّ علياً : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[٣].

ولذلك ضنّ به[٤] عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مراراً ، في كلها يحجمون ويقدم عليٌّ، فيسأل الإذن له في البراز حتى قال له رسول الله ﷺ: إنه عمرو!

فقال: وأنا علي.

---

(١) زرقه: طعنه.
(٢) عمرو بن عبد ود العامري.
(٣) سورة الأنبياء: ٨٩.
(٤) ضن : بخل وآثر الاحتفاظ به.

فأدناه وقبّله وعمّمه بعمامته، وخرج معه خطوات كالمودّع له، القلق لحاله، المنتظر لما يكون منه. ثم لم يزل ﷺ رافعاً يديه إلى السماء، مستقبلاً لها بوجهه، والمسلمون صموت حوله، كأنما على رؤوسهم الطير، حتى ثارت الغبرة، وسمعوا التكبير من تحتها، فعلموا أن علياً قتل عَمْراً، فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر المسلمون تكبيرة سمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين. ولذلك قال حذيفة بن اليمان: لو قُسِّمت فضيلة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعَتهم. وقال ابن عباس في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[١]. قال: بعلي بن أبي طالب.

۞ المورد السابع:

قال الجاحظ: **على أن مشي الشجاع بالسيف إلى الأقران، ليس على ما توهمه من لا يعلم باطن الأمر، لأن معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لايبصرها الناس، وإنما يقضون على ظاهر ما يرون من إقدامه وشجاعته، فربما كان سبب ذلك الهوَج[٢]، وربما كان الغرارة والحداثة[٣]، وربما كان الإحراج والحميَّة، وربما كان لمحبة النفخ والأحدوثة[٤]، وربما كان طباعاً كطباع القاسي والرحيم والسخي والبخيل.**

وردّ الإسكافي على ما سبق بقوله: فيقال للجاحظ فعلى أيها كان مشى علي بن أبي طالب إلى الاقران بالسيف ؟ فأيما قلت من ذلك بانت عداوتك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولرسوله، وإن كان مشيه ليس على وجه مما ذكرت، وإنما كان على وجه النصرة والقصد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة، والجهاد في سبيل الله، وإعزاز الدين، كنتَ بجميع ما قلت معانداً، وعن سبيل الإنصاف خارجاً، وفى إمام المسلمين طاعناً.

وإنْ تطرّق مثل هذا الوهم على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليتطرقنّ مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال، الذين نصروا رسول الله ﷺ بأنفسهم ووقوه بمُهَجهم، وفدوه بأبنائهم وآبائهم، فلعل ذلك كان لعلة من العلل المذكورة، وفي ذلك الطعن في الدين، وفى جماعة المسلمين. ولو جاز أن يتوهم هذا في علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وفى غيره، لما قال رسول الله ﷺ حكاية عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأهل بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

ولا قال لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ: برز الإيمان كله إلى الشرك كله.

ولا قال: أوجَب طلحة[٥].

وقد علمنا ضرورةً من دين الرسول ﷺ تعظيمه لعلى عَلَيْهِ السَّلَامُ تعظيماً دينياً، لأجل جهاده ونصرته، فالطاعن فيه طاعن في رسول الله ﷺ، إذ زعم أنه قد يمكن أن يكون جهاده لا لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل لأمر آخر من الأمور التي عددها، وبعثه على التفوه بها إغواء الشيطان وكيده، والإفراط في عداوة من أمر الله بمحبته، ونهى عن بغضه وعداوته. أترى رسول الله ﷺ خفي عليه من أمر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ما لاح للجاحظ والعثمانية فمدحه وهو غير مستحق للمدح ؟!

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٥.
(٢) هوج: حمق وتهور.
(٣) أي أنه صغير في العمر لا يقدر الأمور بحقيقتها ، فأخذته حماسة الموقف دون وعي للمخاطر.
(٤) أي أن يشتهر بين الناس ويصبح حديث ساعتهم.
(٥) أي : عمل عملاً يدخله الجنة.

۞ المورد الثامن:

وقال الجاحظ: **فصاحب النفس المختارة المعتدلة يكون قتاله طاعة، وفراره معصية، لأن نفسه معتدلة، كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه طباعاً، وفراره طباعاً.**

وعلّق الإسكافي قائلاً: ... ولعل رسول الله ﷺ في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصلوات الخمس في جوف الليل[١]، وتدبيره أمر الأمة لا ثواب له فيه، لأنه قد تكون نفسه غير معتدلة، بل يكون في طباعه الرياسة وحبها، والعبادة والالتذاذ بها.

ولقد كنا نعجب من مذهب أبي عثمان أن المعارف ضرورة، وأنها تقع طباعاً، وفى قوله بالتولد وحركة الحجر بالطبع[٢]، حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه، فزعم أنه ربما يكون جهاد علي عليه السلام وقتله المشركين لا ثواب له فيه، لأنه فعَله طبعاً، وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفى التولد.

۞ المورد التاسع:

و قال الجاحظ: **ووجه آخر أن علياً لو كان كما يزعم شيعته، ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة، ولا عظيم طاعة، لأنه قد روي عن النبي ﷺ أنه قال له: ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. فإذا كان قد وعده بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه.**

قال الإسكافي: هذا راجع على الجاحظ في النبي ﷺ، لأن الله سبحانه وتعالى قال له: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٣]، فلم يكن له في جهاده كبير طاعة، وكثير طاعة. وكثير من الناس يروي عنه ﷺ: اقتدوا بالذين من بعدي، أبي بكر وعمر. فوجب أن يبطل جهادهما. وقد قال للزبير: ستقاتل علياً وأنت ظالم له. فأشعره بذلك أنه لا يموت في حياة رسول الله ﷺ.

وقال في الكتاب العزيز لطلحة: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾[٤]، قالوا نزلت في طلحة، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده، فوجب ألا يكون لهما كبير ثواب في الجهاد. والذي صحّ عندنا من الخبر وهو قوله - ستقاتل بعدي الناكثين - أنه قال لما وضعت الحرب أوزارها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ووضعت الجزية، ودانت العرب قاطبة.

۞ المورد العاشر:

قال الجاحظ: **ثم قصد الناصرون لعلي، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم، وليسوا هناك. فمنهم عمرو بن عبد ود، تركتموه أشجع من عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس،**

---

(١) يبدو أن لا محل لكلمة (الخمس) في تعبير الإسكافي ، ولعلها من خطأ النساخ ، أو أن عبارة ما قد سقطت في البين.
(٢) نظريات يتبناها الجاحظ.
(٣) سورة المائدة:٦٧.
(٤) سورة الأحزاب: ٥٣.

وقد سمعنا بأحاديث حروب الفجار وما كان بين قريش ودوس وحلف الفضول، فما سمعت لعمرو بن عبد ود ذكراً في ذلك.

قال الإسكافي: أمرُ عمرو بن عبد ود أشهر وأكثر من أن يُحتج له، فلنتلمح كتب المغازي والسير، ولينظر ما رثته به شعراء قريش لمّا قُتل. فمن ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في مغازيه، قال: وقال مسافع بن عبد مناف ابن زهره بن حذافة بن جمح يبكي عمرو بن عبد الله بن عبد ود حين قتله علي بن أبي طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد[١]، أي قطع الخندق[٢]:

عَمرو بنُ عبدٍ كَانَ أوَّلَ فَارسٍ ... جَزعَ المذادَ وكانَ فَارِسَ مَليَل
سَمِحُ الخَلائقِ مَاجِدٌ ذو مِرّةٍ ... يَبغِي القِتالَ بِشَكَّةٍ لَم يَنكَل
ولَقد عَلِمتُم حِينَ وَلَّوا عَنكُم ... أنَّ ابنَ عَبدٍ مِنهم لَم يَعْجَل
حَتّى تَكَنَّفَهُ الكُماةُ وكُلّهم ... يَبغِي القِتالَ لَه ولَيسَ بِمُؤتَل
وَلَقَد تَكَنَّفَت الفَوارِسُ فارساً ... بِجَنوبِ سَلعٍ غَيرَ نَكسٍ أمْيَل
سألَ النِّزالَ هُناكَ فَارسٌ غَالبٌ ... بِجَنوبِ سَلعٍ لَيْتَهُ لم يَنزل
فاذهَب عَليُّ مَا ظَفَرْتَ بِمِثلِها ... فَخراً ولَو لاقَيْتَ مِثلَ المُعْضل
نَفسِي الفِداءَ لِفَارسٍ مِن غَالبٍ ... لاقَى حِمامَ المَوتِ لَم يَتَحَلْحَل
أعْنِي الذي جَزعَ المَذادَ ولَم يَكُنْ ... فَشِلاً وَلَيسَ لَدى الحُروبِ بِزَمَل

وقال هبيرة بن أبي وهب المخزومي، يعتذر من فراره عن علي بن أبي طالب، وتركه عمراً يوم الخندق ويبكيه[٣]:

لَعَمرُكَ مَا وَلّيتُ ظَهري مُحمّداً ... وأصحَابَه جُبناً ولا خيفَةَ القَتلِ
وَلَكنَّني قَلَّبتُ أمري فَلَم أجِدْ ... لِسَيفي غِناءً إنْ وَقَفْتُ ولا نَبْلي
وَقَفْتُ فَلمّا لَم أجِدْ لي مقدماً ... صَدَرتُ كَضِرغامٍ هِزَبْرٍ إلى شِبلِ
ثَنّى عِطفَهُ عَن قَرْنِه حِينَ لم يَجِدْ ... مَجالاً وَكانَ الحَزمُ والرَّأيُ مِن فِعلي
فَلا تَبعُدَنَّ يا عَمرُو حَياً وهالِكاً ... فَقَد مُتَّ مَحمودَ الثَّنا مَاجِدَ الفِعلِ
ولا تَبعدنَّ يا عَمرُو حَياً وهالِكاً ... فَقَدْ كُنتَ في حَربِ العِدا مُرهَفَ النَّصْلِ

---

(١) المذاد : موضع قرب المدينة المنورة حيث حفر الخندق عام ٥ هـ .

(٢) مليل : واد حيث وقعت معركة بدر الكبرى . مرة: قوة . شكة: سلاح. تكنّفه الكماة: أحاط به المقاتلون الشجعان . ليس بمؤتل: غير مقصّر . سلع: جبل عند المدينة المنورة حيث حفر الخندق ومسجد الفتح. والنكس: الدنئ من الرجال . والأميل : الذي لا رمح معه. المعضل: الأمر الشديد. لم يتحلحل: لم يبرح مكانه. الزمل: الضعيف الجبان.

(٣) لم أجد لي مقدماً : لم أجد من يقدمني . وصدرت: رجعت . والصرغام : الأسد . والهزبر: الشديد . والشبل : ابن الأسد. الثنا: الثناء أي الذكر الطيب . والماجد: الشريف . تقدع: تكف . والقرقرة : أصوات فحول الإبل . والبزل ، جمع بازل: البعير الذي فطر نابه وذلك زمان اكتمال قوته.

فَمَن لِطِرادِ الخَيْلِ تَقدَعُ بالقَنا ... وَلِلبَذْلِ يَوماً عِندَ قَرقَرةِ البَزْلِ
هُنالِكَ لو كَانَ ابنُ عَمرو لَزارَها ... وفَرَّجَها عَنهُم فَتىً غَيرِ مَا وَغلِ
كَفَتْكَ عَليٌّ لَن تَرى مِثلَ مَوقِفٍ ... وَقَفْتَ عَلى شِلوِ المقدَّمِ كالفَحْلِ
فَما ظَفَرَت كَفَّاكَ يَوماً بِمِثلِها ... أمِنْتَ بِها مَا عِشتَ مِن زَلّةِ النَّعْلِ

وقال هبيرة بن أبي وهب أيضاً، يرثي عمْراً ويبكيه[١]:

لَقَد عَلِمَت عَلياً لُؤيُّ بنُ غَالِبٍ ... لِفارِسِها عَمرو إذا نَابَ نَائِبُ
وفارِسُها عَمرٌو إذا ما يَسُوقُه ... عَلِيٌّ وإنَّ المَوتَ لا شَكَّ طَالِبُ
عَشِيَّةَ يَدعُوهُ عَلِيٌّ وإنَّه ... لَفَارِسُها إذْ خَامَ عنه الكَتَائِبُ
فَيَا لَهفَ نَفسِي إنَّ عَمراً لَكائِنٌ ... بِيَثرِبَ لا زالَت هُناكَ المصَائِبُ
لَقَد أحرَزَ العَلياءَ عَلِيٌّ بِقَتلِهِ ... وِلِلخَيرِ يَوماً لا مَحالَةَ جَالِبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر عمْراً[٢]:

أمسَى الفَتَى عَمرُو بنُ عَبدٍ ناظِراً ... كَيفَ العُبورُ و لَيْتَهُ لَم يَنظُر
ولَقَد وَجَدْتُ سُيوفَنا مَشهورةً ... وَلَقَد وَجَدْتُ جِيادَنا لَم تَقصُر
ولَقَد لَقِيتَ غَداةَ بَدرٍ عُصبَةً ... ضَربوكَ ضَرباً غَيرَ ضَربِ الحسر
أصبحْتَ لا تُدعَى لِيومٍ عَظيمَةٍ ... يا عَمرُو أو لِجَسِيمِ أمْرٍ مُنكَر

وقال حسان أيضاً[٣]:

لَقَد شَقِيَتْ بنو جُمَحٍ بنِ عَمرو ... ومَخزومٌ وتَيْمٌ مَا نَقِيل
وَعَمرو كالحُسامِ فَتى قُرَيشٍ ... كَأنَّ جَبِينَه سَيفٌ صَقِيل
فَتًى مِن نَسْلِ عَامِرٍ أرَيحِيّ ... تَطاوَلَه الأسِنَّةُ والنُّصول
دَعاهُ الفارِسُ المِقدامُ لَمّا ... تَكَشَّفَت المَقانِبُ والخُيُول
أبو حَسنٍ فَقَنّعَهُ حُساماً ... جُرازاً لا أفَلُّ ولا نَكول
فَغادرَهُ مُكِبّاً مُسلحَباً ... عَلى عَفراءَ لا بَعدَ القَتيل

(١) ناب نائب: عرض مكروه. خام: جبن ورجع عن القتال هيبة وخوفاً.
(٢) لم تقصر: لم تكف عن التجوال.
(٣) حسام جراز: سيف قاطع. مسلحب: مُمتد . وعفراء: أرض بيضاء لم توطأ.

فهذه الأشعار فيه، بل بعض ما قيل فيه. وأما الآثار والأخبار، فموجودة في كتب السِّيَر وأيام الفرسان ووقائعهم، وليس أحد من أرباب هذا العلم يذكر عمْراً إلا قال: كان فارس قريش وشجاعها.

وإنما قال له حسان: «ولقد لقيت غداة بدر عصبة» لأنه شهد مع المشركين بدراً، وقتل قوماً من المسلمين ثم فرّ مع من فرّ، ولحق بمكة، وهو الذي كان قال وعاهد الله عند الكعبة ألا يدعوه أحد إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه، وآثارُه في أيام الفجَّار مشهورة تنطق بها كتب الأيام والوقائع. ولكنه لم يُذكر مع الفرسان الثلاثة وهم عتبة وبسطام وعامر، لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب، وأهل بادية، وقريش أهل مدينة وساكنوا مدر وحجر، لايرون الغارات، ولا ينهبون غيرهم من العرب، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حرمهم، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء.

ويقال له: إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك[١]، فما باله لما جزع الخندق في ستة فرسان هو أحدهم[٢]، فصار مع أصحاب النبي ﷺ على أرض واحدة، وهم ثلاثة آلاف ؟ ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحد منهم للخروج إليه، ولا سمح منهم أحد بنفسه، حتى وبخهم وقرعهم، وناداهم: ألستم تزعمون أنه من قُتل منا فإلى النار، ومن قُتل منكم فإلى الجنة ؟ أفلا يشتاق أحدكم إلى أن يذهب إلى الجنة، أو يُقدم عدوَّه إلى النار ؟

فجبنوا كلهم ونكلوا، وملكهم الرعب والوهل[٣]. فإما أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه، أو يكون المسلمون كلهم أجبن العرب وأذلهم وأفشلهم.

وقد روى الناس كلهم الشعر الذي أنشده لما نكل القوم بجمعهم عنه، وأنه جال بفرسه واستدار وذهب يمنة، ثم ذهب يسرة، ثم وقف تجاه القوم، فقال:

ولقَد بَححْتُ من النِّداءِ ... جَمعَهم هَل مِن مُبارِز
ووقَفْتُ إذ جَبُن المشيّع ... بِوقفَةِ القَرنِ المناجِز
وكذاكَ أنّي لم أزَل ... مُتسَرِّعاً نَحوَ الهَزاهِز
إنَّ الشَّجاعَةَ في الفَتَى ... والجُودَ مِن خَيرِ الغَرائِز

فلما برز إليه علي أجابه، فقال له:

لا تَعجَلَنَّ فقَد أتاكَ ... مُجيبُ صَوتِكَ غَيرَ عاجِز
ذو نِيةٍ وبَصيرَةٍ ... يَرجو الغَداةَ نَجاةَ فائِز
إنّي لأرجُو أنْ أقِيمَ ... عَليكَ نَائِحَةَ الجَنائِز
مِن ضَربةٍ تَفنَى ويَبقَى ... ذِكرُها عِندَ الهَزاهِز

(١) أي لم يكن شجاعاً وبطلاً معروفاً.
(٢) جزع : عبر وقطع.
(٣) الوهل: الفزع.

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعض جهّال الأنصار، لما رجع رسول الله من بدر، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدراً: إن قَتلنا إلا عجائز صُلعاً. فقال له النبي ﷺ: لا تقل ذلك يا بن أخ، أولئك الملأ [١].

۞ المورد الحادي عشر:

قال الجاحظ: **وقد أكثروا في الوليد بن عتبة بن ربيعة قتيله يوم بدر، وما علمنا الوليد حضر حرباً قط قبلها، ولا ذكِر فيها.**

وردّ عليه أبو جعفر الإسكافي: كل من دوَّن أخبار قريش وآثار رجالها، وصف الوليد بالشجاعة والبسالة، وكان مع شجاعته أنه يصارع الفتيان فيصرعهم، وليس لأنه لم يشهد حرباً قبلها ما يجب أن يكون بطلاً شجاعاً، فإن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يشهد قبل بدر حرباً، وقد رأى الناس آثاره فيها.

(١) إشارة إلى ماذكره الواقدي في مغازيه من أن الناس لقوا رسول الله بالروحاء يهنئونه بفتح الله عليه ، فلقيه وجوه الخزرج ، فقال سلمة ابن سلامة بن وقش: ما الذي تهنئونه فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلعاً ! فتبسم النبي فقال : يا بن أخي ، أولئك الملأ ، لو رأيتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم. فقال سلمة أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله.. إلخ.

شعراء
يتغنّون بشجاعته

شعراء يتغنون بشجاعته

أخذ شعر الحرب مساحته في القصيدة العربية، واتسعت مدلولاته ومفرداته اللفظية، وشحنت القصيدة بالحديث حول قدرات المقاتلين الأشداء الذين كانوا يغنون عطاءهم بتضحيتهم، ويوقدون سعيرها باقتحامهم، ويمتلكون زمام المبادرة بجرأتهم النادرة وبطولاتهم الفريدة. ومما زاد في غنى النصوص الشعرية عند العرب، أن عدداً من شجعان العرب كانوا بأنفسهم من شعراء الطراز الأول، فأغنوا بأحاسيسهم الصادقة وتجاربهم الميدانية القصيدة الحماسية، وخلّدوا فيها مشاهد الشجاعة والعنفوان والمآثر التي يظل صداها في قلوب الرجال الذين يستذكرونها باعتزاز ويعيشونها بإباء ويتمثلون بها كلما دعت الحاجة اليها. ويختلف شعر الحرب والحماسة في عصر الرسالة الإسلامية عما سبقه بأنه استوعب مضامينه، ولكنه أضاف إليها قيم الحرب الجديدة المنطلقة من قيم الإسلام العظيمة التي اعتبرت أن الهداية هي أساس الانطلاق في الحياة حرباً وسلماً، وأن الأخلاق إطار لا يمكن الاستغناء عنه حتى في لحظات الحرب العصيبة، وأن لا قيمة للحرب بعنوانها ما لم تكن ضمن تلك القيم والمبادئ.

كما امتاز شعر الحرب في عصر الرسالة بأنه ضخ معاني العقيدة التي ملأت على العرب حياتهم، وجددت فيها روح التضحية، ووحدت في اندفاعهم قدرة الاندفاع، وحررت من خلال سلامة قيادتهم نفوس البشر.

ولذا يمكن القول أن شعر الحرب في عصر الرسالة يشكل بداية جديدة للشعر العربي الذي جاء بعد هذا العصر، لأنه استطاع أن يفرد لمعاني الحرب صورتها الجديدة، ويبرز في أتون سعيرها الألق البطولي المتميز.

وإذ عاش أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام حياته بطلاً شجاعاً ملأت سيرته الآفاق، فقد خلّد الشعراء تلك البطولات في قصائدهم، واستلهموا منها العبر، وشحنوا نفوس الناس بالعنفوان والإباء والبسالة والتضحية في المواقف المختلفة، ومزجوا ذلك بقيم العقيدة والأخلاق التي كان يتحلى بها علي عَلَيْهِ السَّلَام.

ولما كان هذا الكتاب يهدف لعرض جانب الشجاعة من شخصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام فسيقتصر التركيز في النماذج الشعرية على ما كان يخص ذلك الجانب، وإن اضطررت أحياناً إلى تدوين أبيات شعرية تتحدث في البين عن جوانب أخرى من شخصيته الفذة، وذلك لعدم انفكاك جوانب الشخصية عن بعضها البعض، ولارتباط الأبيات أحياناً ببعضها البعض بصورة قد يؤدي استقطاعها إلى فساد المعنى أو التركيب.

واعتمدتُ في ترتيب ذكر الشعراء على تاريخ وفاتهم، علماً بأن الفصول اللاحقة ستتضمن ـ قهراً ـ أبياتاً أخرى تناسب الموضوع وتأتي ضمن الأحداث التاريخية وفي نسقها.

السيد الحميري:

إسماعيل بن محمد بن يزيد الحميري، شاعر آل البيت «١٠٥ هـ - ١٧٣ هـ». كتب أبوالفرج الأصفهاني في الأغاني: يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة، بشار وأبوالعتاهية والسيد. للسيد الحميري أشعار في مدح آل البيت والولاء لهم، ومنها قصيدته الموسومة بالقصيدة المذهَّبة يذكر فيها بطولاته وشجاعته، جاء فيها [١]:

خير البرية بعد أحمد من له ... منّي الهوى وإلى بنيه تطربي
أمسى وأصبح معصماً مني له ... بهوى وحبل ولاية لم يقصب
ونصيحة خلص الصفاء له بها ... مني وشاهد نصرة لم يعزب
ولقد سرى فيما يسير بليلة ... بعد العشاء بكربلا في موكب
حتى أتى متبتلاً في قائم ... ألقى قواعده بقاع مجدب
بانيه ليس بحيث يلقى عامراً ... غير الوحوش وغير أصلع أشيب
في مدمج زلق أشم كأنه ... حلقوم أبيض ضيق مستصعب
فدنا فصاح به فأشرف ماثلاً ... كالنسر فوق شظية من مرقب
هل قرب قائمك الذي بوأته ... ماء يصاب فقال ما من مشرب
إلا بغاية فرسخين ومن لنا ... بالماء بين نقى وقيّ سبسب
فثنى الأعنة نحو وعث فاجتلى ... ملساء تبرق كاللجين المذهب
قال اقلبوها إنكم إن تقلبوا ... تروا ولا تروون إن لم تقلب

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة - ج ١ - ص ٥٥٤ - ٥٥٦.

معصماً: متمسكاً . يقصب: يقطع. البيت الرابع وما بعده إلى ١٣ بيت إشارة إلى ما روي مما حاصله أنه لما سار أمير المؤمنين إلى حرب صفين أخذ طريق البر وترك الفرات، وأصاب أصحابه عطش شديد فلاح لهم دير فهتف به فأشرف راهب من صومعته، قال: هل قرب قائمك من ماء؟ قال: بيني وبين الماء أكثر من فرسخين. فسار قليلاً ونزل بموضع فيه رمل وأشار إلى مكان فكشفوه فأصابوا تحته صخرة بيضاء عظيمة، فأمرهم بقلعها فلم يقدروا فاقتلعها الإمام بيده ونحاها فإذا تحتها ماء فشرب الناس وارتووا وحملوا منه. المتبتل: إشارة إلى الراهب الذي لاقاه في الطريق. المدمج: الشئ المستور، إشارة إلى صومعة الراهب. ويشبه صومعة الراهب لارتفاعها وطولها بحلقوم طائر يسميه العرب (الأبيض). الشظية: قطعة من الجبل منفردة. المرقب: المكان المرتفع. النقى أو النقا: قطعة من الرمل محدودبة. القيّ: الأرض القفر، وكذلك السبسب. الوعث: المكان اللين الذي لا يسلك لأن الاخفاف تغيب فيه. اعصوصبوا: اجتمعوا وصاروا عصبة واحدة. الحزور: الغلام القوي. العبل: الغليظ الممتلئ. الشميط: الصبح، سمي بذلك لاختلاط لونيه من الظلمة والضوء. الأنكب: المنحرف. المحرب: الحسن البلاء في الحرب. المقلص: مأخوذ من التشمير في الثياب وغيرها ووصف الفرس بذلك لتشمر لحمه وارتفاعه عن قوائمه. نهد المراكل: كثير لحم المراكل وهي مواضع ركل الفارس برجله يصف جسمه بالحسن والتمام. السبيب: خصل شعر الناصية وجمعها سبائب. السلهب: الطويل. الأسمر: الرمح. الثعلب: طرف الرمح. المقعص: المقتول. العواكف: من العكوف وهو طول المقام. الخامعة: الضبع لأنها تتخمع في مشيها فتمشي كأن بها عرجاً. الأهدب: كثير أشفار العين، ووصفه بأنه أهدب لسبوغ ريشه ولحوقه بالأرض. في البيت ٥٨: ابن عبدالله أي عمرو بن عبد ود العامري. والوليد هو ابن عتبة بن ربيعة قتله علي يوم بدر. الصقعب: الرجل الطويل. موائلين: لاجئين. الأزل: الذي تزل به الأقدام لطوله ووعورة طرقه وهو حصنهم. المشمخر: العالي. الحوشب: العظيم الجنبين. الأرعن: الجيش العظيم. الجحفل: الجيش الكثير العدد. نبأة: صوت.

فاعصوصبوا في قلعها فتمنعت ... منهم تمنع صعبة لم تركب
حتى إذا أعيتهم أهوى لها ... كفاً متى ترد المغالب تغلب
فكأنها كرة بكف حزور ... عبل الذراع دحا بها في ملعب
فسقاهم من تحتها متسلسلاً ... عذباً يزيد على الألذ الأعذب
حتى إذا شربوا جميعاً ردها ... ومضى فخلت مكانها لم يقرب
أعني ابن فاطمة الوصي ومن يقل ... في فضله وفعاله لم يكذب
ليست ببالغة عشير عشير ما ... قد كان اعطيه مقالة مطنب
صهر النبي وجاره في مسجد ... طهر بطيبة للرسول مطيب
سيان فيه عليه غير مذمم ... ممشاه إن جُنباً وان لم يجنب
وسرى بمكة حين بات مبيته ... ومضى بروعة خائف مترقب
خير البرية هارباً من شرها ... بالليل مكتتماً ولم يستصحب
باتوا وبات على الفراش ملفّعاً ... ويرون أن محمداً لم يذهب
حتى إذا طلع الشميط كأنه ... في الليل صفحة خدادهم مغرب
ثاروا لأخذ أخي الفراش فصادفت ... غير الذي طلبت أسف الخيب
فتراجعوا لما رأوه وعاينوا ... أسد الإله وعصبوا في منهب
قالوا اطلبوه فوجهوا من راكب ... في مبتغاه وطالب لم يركب
حتى إذا قصدوا لباب مغارة ... ألفوا عليه نسيج غزل العنكب
صنع الإله له فقال فريقهم ... ما في المغار لطالبٍ من مطلب
ميلوا وصدهم المليك ومن يرد ... عنه الدفاع مليكه لا يعطب
حتى إذا أمن العيون رمت به ... خوض الركاب إلى مدينة يثرب
فاحتل دار كرامة في معشر ... آووه في سعة المحل الأرحب
وله بخيبر إذ دعاه لراية ... ردت عليه هناك أكرم منقب
إذ جاء حاملها فأقبل متعباً ... يهوي بها العدوي أو كالمتعب
يهوي بها وفتى اليهود يشله ... كالثور ولى من لواحق أكلب
غضب النبي لها فأنّبه بها ... ودعا أخا ثقةٍ لكهل منجب

رجلا كلا طرفيه من سام وما ... حام له باب ولا بأبي أب
من لا يفرّ ولا يُرى في نجدة ... إلا وصارمه خضيب المضرب
فمشى بها قِبَل اليهود مصمماً ... يرجو الشهادة لا كمشي الأنكب
تهتز في يمنى يدي متعرض ... للموت أروع في الكريهة محرب
في فيلق فيه السوابغ والقنا ... والبيض تلمع كالحريق الملهب
والمشرفية في الأكف كأنها ... لمع البروق بعارض متحلب
وذوو البصائر فوق كل مقلص ... نهد المراكل ذي سبيب سلهب
حتى إذا دنت الأسنة منهم ... ورموا فنالهم سهام المقنب
شدوا عليه ليرجلوه فردهم ... عنه بأسمر مستقيم الثعلب
ومضى فأقبل مرحب متذمراً ... بالسيف يخطر كالهزبر المغضب
فتخالسا مهج النفوس فأقلعا ... عن جري أحمر سائل من مرحب
فهوى بمختلف القنا متجدلاً ... ودم الجبين بخده المتترب
أجلى فوارسه وأجلى رجله ... عن مقعص بدمائه متخضب
فكان زوره العواكف حوله ... من بين خامعة ونسر أهدب
شعث لعامظة دعوا لوليمة ... أو يأسرون تخالسوا في منهب
فاسأل فإنك سوف تخبر عنهم ... وعن ابن فاطمة الأغر الأغلب
وعن ابن عبد الله عمرو قبله ... وعن الوليد وعن أبيه الصقعب
وبني قريضة يوم فرّق جمعهم ... من هاربين وما لهم من مهرب
وموائلين إلى أزل ممنع ... رأسي القواعد مشمخر حوشب
رد الخيول عليهم فتحصنوا ... من بعد أرعن جحفل متحزب
إن الضباع متى تحس بنبأة ... من صوت أشوس تقشعر وتهرب
فدعوا ليُمضي حكم أحمد فيهم ... حكم العزيز على الذليل المذنب

أبو تمام الطائي:

واسمه حبيب بن أوس بن الحارث الطائي «١٨٨ هـ - ٢٣١ هـ»، شاعر وأديب يعد أحد أمراء البيان. ولد في جاسم من قرى حوران بسوريا، ورحل إلى مصر، ثم استقدمه الخليفة العباسي المعتصم إلى بغداد حيث قدّمه على شعراء عصره.

كان موالياً لآل البيت عليهم السلام، وله في ذلك أشعار من قبيل[١]:

ويوم الغدير استوضح الحق أهله ... بفيحاء لا فيها حجاب ولا ستر
أقام رسول الله يدعوهم بها ... ليقربهم عرف وينآهم نكر
فكان له جهر بإثبات حقه ... وكان لهم في بزهم حقه جهر
لكم ذخركم أن النبي ورهطه ... وجيليهم ذخري إذا التمس الذخر
جعلت هواي الفاطميين زلفة ... إلى خالقي ما دمت أو دام لي عمر

عُرف بذاكرته المتميزة، فقد حفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب سوى القصائد والمقاطيع، وله عدة دواوين. ومن شعره في مدح أمير المؤمنين عليه السلام[٢]:

أخوه إذا عد الفخار وصهره ... فلا مثله أخ ولا مثله صهر
وشدّ به أزر النبي محمد ... كما شد موسى بهارونه الأزر
وما زال صباراً دياجير غمرة ... يمزقها عن وجهه الفتح والنصر
هو السيف سيف الله في كل مشهد ... وسيف الرسول لا ددان ولا دثَر
فأي يد للذم لم يبر زندها ... ووجه ضلال ليس فيه له إثر
ثوى ولا هل الدين أمن بحده ... وللواصمين الدين في حده ذعر
يسد به الثغر المخوف من الردى ... ويعتاص من أرض العدو به الثغر
بأحد وبدر حين ماج برجله ... وفرسانه أحد وماج بهم بدر
ويوم حنين والنضير وخيبر ... وبالخندق الثاوي بعقوته عمرو
سما للمنايا الحمر حتى تكشفت ... وأسيافه حمر وأرماحه حمر
مشاهد كان الله كاشف كربها ... وفارجه والأمر ملتبس إمر

علي بن حماد البصري:

أبو الحسن علي بن حماد بن عبيد الله بن حماد العدوي العبدي البصري، ولد في أوائل القرن الرابع وتوفي في أواخره. كان عالماً وحافظاً للحديث وشاعراً، ومن المكثرين في أهل البيت عليهم السلام مدحاً ورثاءً، وله ديوان يربو على ٢٢٠٠ بيت من الشعر، ومن شعره في بيان مقام أمير المؤمنين وشجاعته[٣]:

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة. ج ١. ص ٤٢١.
(٢) الأمين: أعيان الشيعة. ج ١. ص ٥٦١ – ٥٦٢. الددان: السيف الكليل. الدثر: الرجل البطئ الخامل النؤوم. يعتاص يقوى ويشتد.
(٣) الشرى: أنثى الشر. الغشمرة: التهضم والظلم والأخذ بالقهر.

وشد به أزر النبي محمد ... وكان له في كل نائبة ركنا
وأفرده بالعلم والبأس والندى ... فمن قدره يسمو ومن فعله يكنى
هو البحر يعلو العنبر المحض فوقه ... ما الدر والمرجان من قعره يجنى
إذا عد أقران الكريهة لم نجد ... لحيدرة في القوم كفواً ولا قرنا
يخوض المنايا في الحروب شجاعة ... وقد ملأت منه ليوث الشرى جُبنا
يرى الموت من يلقاه في حومة الوغا ... يناديه من هنا ويدعوه من هنا
إذا استعرت نار الوغى وتغشمرت ... فوارسها واستخلفوا الضرب والطعنا
وأهدت إلى الأحداق كحلاً معصفراً ... وألقت على الأشداق أردية دكنا
وخلت بها زرق الأسنة أنجماً ... ومن فوقها ليلاً من النقع قد جنا
فحين رأت وجه الوصي تمزقت ... كثلة ظأن أبصرت أسداً شنا
فتى كفه اليسرى حمام بحربه ... كذاك حياة السلم في كفه اليمنى
فكم بطل أردى وكم مرهب أودى ... وكم معدم أغنى وكم سائل أقنى
يجود على العافين عفواً بما له ... ولا يتبع المعروف من منه منا
ولو فض بين الناس معشار جوده ... لما عرفوا في الناس بخلاً ولا ضنّا
وكل جواد جاد بالمال إنما ... قصاراه أن يستنّ في الجود ما سنا
وكل مديح قلت أو قال قائل ... فإن أمير المؤمنين به يُعنى

وله أيضاً[1]:

ذاك علي المرتضى الطهر الذي ... بفخره قد فخرت عدنانه
صنو النبي هديه كهديه ... إذ كل شي شكله عنوانه
وصيه حقاً وقاضي دينه ... إذ اقتضى ديونه ديّانه
ناصحه الناصر حقاً إذ غدا ... سواه ضد سرّه إعلانه
وارثه علم الهدى أمينه ... في أهله وزيره خلصانه
ذاك الفتى النجد الذي إذا بدا ... بمعرك ألقت له فتيانه
ليث لو الليث الجريّ خالَه ... لطار من هيبته جِنانُه

(١) الأميني: الغدير. ج ٤. ص ١٥٣ - ١٥٨.

صقرٌ ولكن صيده صيد الوغا ... ليثٌ ولكن فرسه فرسانه
ذاك الشجاع إن بدا بمعركك ... تفرقت من خوفه شجعانه
تبكي الطلى إن ضحكت أسيافه ... وترتوي إن عطشت سنانه
ترى سباع البيد تقفوا إثره ... لأنها يوم الوغا ضيفانه
يقرن أرواح الكماة بالردى ... لذاك حاصت دونه أقرانه
وكم كميٍّ قد قَراه في الوغا ... فليس تخبو أبداً نيرانه
يشهد في ذا بدره وأحْده ... وطيبة ومكة أوطانه
وخيبر والبصرة التي بها ... النكث وصفين ونهروانه

علي بن فخر الدين الإربلي:

بهاء الدين أبو الحسن علي بن فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الإربلي نزيل بغداد ودفينها «ت ٦٩٢ هـ». عالم وشاعر، له عدة مؤلفات من بينها كشف الغمة بمعرفة الأئمة و المقامات الأربع. من أبيات له في مدح أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ [١]:

سل عن عليٍّ مقامات عرفن به ... شدّت عُرى الدين في حل ومرتحل
بدراً وأحداً وسل عنه هوازن ... في أوطاس واسئل به في وقعة الجمل
واسئل به إذ أتى الأحزاب يقدمهم ... عمرو وصفين ، سَل إن كنت لم تسل
مآثر صافحت شهب النجوم علا ... مشيدة قد سمت قدراً على زحل
وسنّة شرعت سبل الهدى وندى ... أقام للطالب الجدوى على السبل
كم من يدٍ لك فينا يا أبا حسن ... يفوق نائلها صوب الحيا الهطل
وكم كشفت عن الإسلام فادحة ... أبدت لتفرس عن أنيابها العضل
وكم نصرت رسول الله منصلتاً ... كالسيف عري متناه من الخلل
ورب يوم كظل الرمح ما سكنت ... نفس الشجاع به من شدة الوهل
ومأزق الحرب ضنك لا مجال به ... ومنهل الموت لا يغني على النهل
والنقع قد ملأ الأرجاء عثيرة ... فصار كالجبل الموفي على الجبل
جلوته بشبا البيض القواضب ... والجرد السلاهب والعسالة الذبل

(١) الإربلي : كشف الغمة ـ ج ١ ـ ٢٧٥. الهطل: المطر المتفرق. الوهل : الفزع. البيض : السيف . والقواضب : جمع قاضب ، أي شديد القطع . والجرد : الترس . والسلاهب : جمع السلهب ، أي الطويل . والعسالة من الرمح : ما يهتز لينا . والذبل : جمع الذابل ، أي الدقيق : المهزول ، توصف بها الرماح . الوكل : الجبان والعاجز.

بذلت نفسك في نصر النبي ولم ... تبخل وما كنت في حال أخا بخل
وقمت منفرداً كالرمح منتصباً ... لنصره غير هيّاب ولا وكل
تردي الجيوش بعزم لو صدمت به ... صم الصفا لهوى من شامخ القُلل

كاظم الأزري:

شاعر أهل البيت الشيخ كاظم بن محمد بن مهدي الوائلي البغدادي المعروف بالأزري «ت ١٢٠١ هـ». له ديوان مرتب على الحروف. وأشهر قصائده هي القصيدة التالية التي تبلغ ألف بيت، أكلت الأرضة منها أكثر من أربعمائة بيت، بعد أن احتفظ بها صاحبها في طومار ولم يبق منها إلا ٥٧٨ بيتاً نأخذ منها ما يلي[١]:

أسد الله ما رأت مقلتاه ... نار حرب تشب إلا اصطلاها
فارس المؤمنين في كل حرب ... قطب محرابها إمام وغاها
لم يخض في الهياج إلا وأبدى ... عزمة يتقي الردى إياها
ذاك رأس الموحدين وحامي ... بيضة الدين من أكف عداها
من ترى مثله إذا صرت الحر ... ب ودارت على الكلمات رحاها
ذاك قمقامها الذي لا يروي ... غير صمصامه أوام صداها
وبه استفتح الهدى يوم بدر ... من طغاة أبت سوى طغواها
صب صوب الردى عليهم همام ... ليس يخشى عقبى التي سواها
يوم جاءت وفي القلوب غليل ... فسقاها حسامه ما سقاها
فأقامت ما بين طيش ورعب ... وكفاها ذاك المقام كفاها
ظهرت منه في الوغى سطوات ... ما أتى القوم كلهم ماتاها
يوم غصت بجيش عمرو بن ود ... لهوات الفلا وضاق فضاها
وتخطى إلى المدينة فرداً ... بسرايا عزائم سراها
فدعاهم وهم ألوف ولكن ... ينظرون الذي يشب لظاها
أين أنتم عن قسور عامري ... تتقي الأسد بأسه في شراها
فابتدى المصطفى يحدث عما ... تؤجر الصابرون في أخراها
قائلاً إن للجليل جناناً ... ليس غير المجاهدين يراها
أين مَن نفسُه تتوق إلى ... الجنات أو يورد الجحيم عداها

(١) الأمين: أعيان الشيعة. ج ١. ص ٥٥٧ - ٥٥٨. القمقام: السيد.

من لعمرو وقد ضمنتُ ... على الله له من جنانه أعلاها
فالتووا عن جوابه كسوام ... لا تراها مجيبة من دعاها
وإذا هم بفارس قرشي ... ترجف الأرض خيفة إذ يطاها
قائلاً ما لها سواي كفيل ... هذه ذمةٌ عليَّ وفاها
ومشى يطلب الصفوف كما ... تمشي خماص الحشا إلى مرعاها
فانتضى مشرفية فتلقّى ... ساق عمرو بضربة فبراها
وإلى الحشر رنة السيف منه ... يملأ الخافقين رجعُ صداها
يا لها ضربة حوت مكرمات ... لم يزن ثقل أجرها ثقلاها
هذه من علاه إحدى المعالي ... وعلى هذه فقس ما سواها
وبأحدٍ كم فلَّ آحاد شوس ... كلما أوقدوا الوغى أطفاها
يوم دارت بلا ثوابت إلا ... أسد الله كان قطب رحاها
يوم خانت نبالة القوم عهداً ... لنبي الهدى فخاب رجاها
وتراءت لها غنائم شتى ... فاقتفى الأكثرون أثر ثراها
وأحاطت به مذاكي الأعادي ... بعد ما أشرفت على استيلاها
فترى ذلك النفير كما تخبط ... في ظلمة الدجى عشواها
يتمنى الفتى ورود المنايا والمنايا ... لو تشترى لاشتراها
كلما لاح في المهامة برق ... حسبته قنا العدى وظباها
لم تخلها إلا أضالع عجف ... قد رآها السرى فحل براها
لأتلمها لحيرة وارتياع ... فقدت عزّها فعز عزاها
إن يفتها ذاك الجميل فعذراً ... إنما حلية الرجال حجاها
قد أراها في ذلك اليوم ضرباً ... لو رأته الشبان شابت لحاها
وكساها العار الذميم بطعن ... من حلي الكبرياء قد أعراها
يوم سالت سيل الرمال ولكن ... هبَّ فيها نسيمة فذراها
لا تُرُم وصفه ففيه معان ... لم يصفها إلا الذي سواها
وله يوم خيبر فتكات ... كبرت منظراً على من رآها
يوم قال النبي إني لأعطي ... رايتي ليثها وحامي حماها

فاستطالت أعناق كل فريق ... ليروا أي ماجد يعطاها
فدعا أين وارث العلم والحلم ... مجير الأيام من بأساها
أين ذو النجدة الذي لو دعته ... في الثريا مروعة لبّاها
فأتاه الوصي أرمد عين ... فسقاه من ريقه فشفاها
ومضى يطلب الصفوف فولّت ... عنه علماً بأنه أمضاها
وبرى مرحباً بكفٍّ اقتدار ... أقوياء الأقدار من ضعفاها
ودحا بابها بقوة بأس ... لو حمتها الأفلاك منه دحاها
عائد للمؤملين مجيب ... سامع ما تسر من نجواها
من تلقى يد الوليد بضرب ... حيدري بري اليراع براها
وسقى منه عتبة كأس بؤس ... كان صرفاً إلى المعاد احتساها
ورأى تيه ذي الخمار فردا ... هُ من الذل بردة ما ارتداها
ومن المهتدي بيوم حنين ... حين غاوي الفرار قد أغواها
حيث بعض الرجال تهرب من ... بيض المواضي والبعض من قتلاها
حيث لا يلتوي إلى الألف إلف ... كل نفس أطاشها ما دهاها
من سقاها في ذلك اليوم كأساً ... فايضاً بالمنون حتى رواها
أعجب القوم كثرة العد منها ... ثم ولّت والرعبُ حشو حشاها
وقفوا وقفة الذليل وفرّوا ... من أسود الشري فرار مهاها
وعليٌّ يلقى الألوف بقلب ... صوّر الله فيه شكل فناها
إنما تفضل النفوس بجد ... وعلى قدره مقام علاها
لو تراه وجوده مستباح ... قبل كشف العفاة سر عفاها
خلت من أعظم السحائب سحباً ... سقت الروض قبل ما استسقاها
وهو للدائرات دائرة السعد ... ألا ساء حظ من ناواها
لم يدع ذلك الطبيب كلوماً ... قد أساءت بالدهر إلا اساها
صادق الفعل والمقالة يحوي ... غرة مثل حسنه حسناها
لم تفه ملة من الشرك إلا ... فض بالصارم الإلهي فاها
وطواها طي السجل همام ... نشر الحرب علمه وطواها

كم عرا مشكل فحل عراه ... ليس للمشكلات إلا فتاها
واسأل الأعصر القديمة عنه ... كيف كانت يداه روح غذاها

۞ هاشم الكعبي:

الحاج هاشم بن حردان الكعبي «ت ١٢٣١ هـ»، شاعر من أهل دورق بخوزستان، درس في كربلاء وبها اشتهر، له ديوان شعر، وأشعار في المراثي الحسينية.

و هذه أبيات من قصيدة له في مدح أمير المؤمنين وذكر بطولاته عَلَيْهِ السَّلَامُ [١]:

ومواقف لك دون أحمد جاوزت ... بمقامك التعريف والتحديدا
فعلى الفراش مبيت ليلك والعِدى ... تهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما ... يهدي القراع لسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً ... بالنفس لا فشلاً ولا رعديدا
واستصبحوا فرأوا دوين مرادهم ... جبلاً أشم وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى ... أوَ ما دروا كنز الهدى مرصودا
وغداة بدر وهو أم وقائع ... كثرت وما زالت لهن ولودا
قابلتهن فلم تدع لعقودها ... نظماً ولا لنظامهن عقيدا
فالتاح عتبة ثاويا بيمين من ... يمناه أردت شيبة ووليدا
سجدت رؤوسهم لديك وإنما ... كان الذي ضربت عليه سجودا
وتوحدت بعد ازدواج والذي ... ندبت إليه لتهتدي التوحيدا
وقضية المهراس عن كثب وقد ... عم الفرار اساودا وأسودا
فشددت كالليث الهزبر فلم تدع ... ركنا لجيش ضلالة مشدودا
وكشفتهم عن وجه أبيض ماجد ... لم يعرف الأدبار والتعريدا
وعشية الأحزاب لما أقبلت ... كالسيل مفعمة تقود القودا
عدلت عن النهج القويم وأقبلت ... حلف الضلال كتائباً وجنودا
فأبحت حرمتها وعدت بكبشها ... في القاع تطعمه السباع حنيدا
وبني قريضة والنضير وسلحم ... والواديين وخثعماً وزبيدا

(١) الأمين: أعيان الشيعة. ج ١. ص ٦٦٥ - ٦٦٧.

مـزقـت جـيـب نـفـاقـهـم فـتـركـتـهـم ... أممـــاً لـعـاريـة الـسـيـوف غـمـودا
وشـللـت عـشـراً فـاقـتـنـصـت رئـيـسـهـم ... وتـــركـــت تـســعـاً لـلـفـرار عـبـيـدا
وعـلـى حـنـيـن أيـــن يـذهـب جـاحـد ... لمـــا ثـبـت بـــه وراح شـــريـــدا
ولخـــيـــبر خـــبـر يـصـــم حـديـثـه ... سـمـع الـعـدى ويـفـجـر الجـلـمـودا
يـــوم بـــه كـنـت الـفـتـى الـفـتـاح ... والـكـرار والمـحـبـوب والـصـنـديـدا
مـن بـعـد مـا ولى الجـبـان بـرايـة ... الإيمـــان تـلـتـحـف الـهـوان بـرودا
ورأتـــك فـانـتـشـرت بـقـربـك بـهـجـة ... فـعـل الـــودود يـعـايـن المـــودودا
فـنـصـرتـهـا ونـضـرتـهـا فـكـانـمـا ... غـصـن يـرنـحـه الـصـبـا امـلـودا
فـغـدوت تـرقـل والـقـلـوب خـوافـق ... والـنـصـر يـرمـي نـحـوك الاقـلـيـدا
فـلـقـيـتـهـا وعـقـلـت فـارسـهـا ولا ... عـجـب إذا افـتـرس الـهـزبـر الـسـيـدا
ويـل أمـــه أيـظـنـك الـنـكـس الـذي ... ولى غـداة الـطـعـن يـلـوي الجـيـدا
وتـبـعـتـهـا فـحـلـلـت عـقـدة تـاجـهـا ... بـيـد سـمـت ورتـاجـهـا المـوصـودا
وجـعـلـتـه جـسـرا فـقـصـر فـاغـتـدت ... طـولى يـمـيـنـك جـسـرهـا المـمـدودا
وأبـحـت حـصـنـهـم المـشـيـد فـلـم يـكـن ... حـصـن لـهـم مـن بـعـد ذاك مـشـيـدا
وحـديـث أهـــل الـنـكـث عـسـكـر ... بـهـم الـبـهـيـمـة جـنـدهـا المـحـشـودا
لاقـــاك فـارسـهـم فـبـغـدد هـاربـاً ... لـو كـان مـحـتـوم الـقـضـا مـــردودا
وعـلـى ابـن هـنـد طـار مـنـك بـأشـأم ... يـــوم غـدا لـبـنـي الـــولاء سـعـودا
ألـفـى جـحـاش الـكـرمـلـيـن فـقـادهـم ... جـهـلا فـأبـئـس قـائـدا ومـقـودا
فـغـدوت مـقـتـنـصـا نـفـوس كـمـاتـه ... لله مـقـتـنـص يـصـيـد الـصـيـدا
حـتـى إذا اعـتـقـد الـفـنـا ورأى ... الـقـنـا مـذروبـة ورأى الحـسـام حـديـدا
وبـدا لـه الـعـضـب الـذي مـن قـبـلـه ... قـــد فـــل آبـــاء لـــه وجـــدودا
رفـع المـصـاحـف لا لـيـرفـعـهـا عُـلا ... لـكـن لـيـخـفـض قـدرهـا ويـكـيـدا
فـجـنـى بـهـا ثـمـر الأمـــان وخـلـفـه ... يـــوم يـجـرعـه الـشـــراب صـديـدا
وكـذاك أهـل الـنـهـر سـاعـة فـارقـوا ... بـفـراقـهـم لجـلالـك الـتـأيـيـدا
فـوضـعـت سـيـفـك فـيـهـم فـأفـادهـم ... تـلـفـا فـديـتـك مـتـلـفـاً ومـبـيـدا
ولـقـد روى مـسـروقـهـم عـن أمـه ... والحـــق يـنـطـق مـنـصـفـاً وعـنـيـدا

قالت هم شر الورى ومبيدهم ... خير الورى أكرم بذاك مبيدا
سبقت مكارمك المكارم مثلما ... ختمت لعمر فخارك التأبيدا
إني لأعذر حاسديك على العلا ... وعلاك عذري لو عذرت حسودا
فليحسد الحساد مثلك إنه ... شرف يزيد على المدى تجديدا
ما أنصفتك عصابة جهلتك إذ ... جعلت لذاتك في الوجود نديدا
ثم ارتقت حتى أبتك رضى بمن ... لم يرض كعبك أن يراه صعيدا
ضلت أدلتها أتبدل بالعمى ... رشداً وبالعدم المحال وجودا

عبدالمطلب المصري:

الشيخ الشاعر المصري محمد بن عبدالمطلب بن واصل «١٢٨٨ هـ - ١٣٥٠ هـ»، حسن الرصف ويعد من الأدباء الخطباء، تلقى علومه في الأزهر، وشارك في الحركة الوطنية التي عاصرها من خلال أدبه وشعره. توفي في القاهرة، وله ديوان شعر وعدة كتب. له قصيدة في مدح أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، نختار منها ما يناسب المقام[1]:

وإذ يدعو العشيرة يوم جمع ... لينذر في رسالته الأناما
فكهلٌ في جهالته تولى ... وشيخٌ في ضلالته تعامى
وهذا يوسع المختار لوماً ... وذلك عن ملامته تحامى
وآخر لا يبين له جواباً ... أطاع الصمت واجتنب الكلاما
وأيّده على التقوى أخوه ... إذا ما خاف كل أخ وخاما
ولجّت في عمايتها قريش ... تصارحه العداوة والخصاما
وجاشت بين أضلعها قلوب ... على الإسلام تلتهب احتداما
فما فعل الفتى والشر تغلي ... مراجله وتهتزم اهتزاما
مضى كالسيف لم يعقد إزاراً ... على ريب ولم يشدد حزاما
يروح على مجامعهم ويغدو ... كشبل الليث يعترم اعتراما
صغير السن يخطر في إباء ... فلا ضيماً يخاف ولا ملاما
وما زالت به الأيام ترقى ... على درج النهى عاماً فعاما
وقد جمع الحِجى والدين فيه ... خلائق تجمع الخير اقتساما
فما أوفى على العشرين حتى ... شهدنا من عظائمه عظاما

(١) الأمين: أعيان الشيعة. ج ١. ص ٥٥٩ - ٥٦٠. الفئام: الجماعة من الناس. الهيام: الرمل المهيل

فلن ينسى النبي له صنيعاً ... عشيّة ودّع البيت الحراما
عشية سامه في الله نفساً ... لغير الله تكبر أن تساما
فأرخصها فدىً لأخيه لما ... تسجّى في حظيرته ونامـا
وأقبلت الصوارم والمنايا ... لحرب الله تنتحم انتحاما
فلم يأبه لها أنِفاً علي ... ولم تقلق بجفنيه مناما
وأغشى الله أعينهم فراحت ... ولم تر ذلك البدر التماما
وغادرت البطاح به ركاب ... إلى الزوراء تعتزم اعتزاما
وفي أم القرى خلى أخاه ... على وُجدٍ به يشكو الأواما
أقام بها ليقضيها حقوقاً ... على الهادي بها كانت لزاما
فإن يك عهده فيها وبالاً ... على الطاغوت أو داءً عقاما
فكم طابت به للحق نفس ... بطيبة حين أوطنها مقاما
وكم شهدت له الزوراء يوماً ... وكم حمد الحنيف له مقاما
سل الرايات كم شهدت عتياً ... يصرف تحتها الجيش اللهاما
كأني بابن عتبة يوم بدر ... يعاني تحت مجثمه جثاما
ولو علم الوليد بمن سيلقى ... لألقى قبل مصرعه السلاما
رويد بني ربيعة قد ظلمتم ... بني الأعمام والرحم الحراما
وصلناكم بها وقطعتموها ... فكان الحزم أن تردوا الحِماما
فهل ينسون للفرقان يوماً ... سقاهم من صوارمنا سماما
وما صهر النبي إذا تنادوا ... كمن يدعو ربيعة أو هشاما
ومن غدت البتول إليه تُهدى ... بنى في النجم بيتاً لا يسامى
بأمر الله قد زُفّت إليه ... عشية راح يخطبها وساما
كأني بالملائك إذ تدلت ... بذاك البيت تزدحم ازدحاما
فلو كُشف الحجاب رأيت فيه ... جنود الله تنتظم انتظاما
أطافوا بالحظيرة في جلال ... صفوفاً حول فاطمة قياما
تفيض على منصتها وقاراً ... وتكسو حسن طلعتها وساما
فلا يحزن خديجة أن تولت ... ولم تبلغ بجلوتها مراما

تولاها الذي ولّى أباها ... رسالته وزوجها الامامـا
قِرانٌ زاده الإسلام يُمناً ... وشمل زاده الحب التئاما
فإن تكُ خير من عقدت إزاراً ... وأكرم كل من أرخت لثاما
فما شغلته عن خوض المنايا ... إذا التطمت زواخرها التطاما
فإن تسأل فسائل عنه أُحداً ... غداة هناك طير الموت حاما
وجاءت في زمازمها قريش ... يهزون المثقف والهذاما
فقطر كبشها وهوى صريعاً ... على الدقعاء يلتهم الرغاما
هوى من تحت رايتهم فخرّت ... بأم الأرض ترتطم ارتطاما
فويح المسلمين هناك ولوا ... فراراً لا أسميه انهزاما
وخلوا ثَم أحمد في وغاها ... بجند الكفر يصطدم اصطداما
فأرجف بالنبي هناك قوم ... فعاذوا حول موقفه حياما
وحطم غمد صارمه عليٌّ ... وذبّ عن النبي بها وحامى
وأقبل نحوهم وهوى إليهم ... هويّ الباز يعتبط الحماما
فطاروا عن مواقفهم شعاعاً ... وطاحوا في مصارعهم حطاما
فذاك ولو ترى إذ جاب قوم ... على الإسلام خندقه اقتحاما
وأقبل في لباس البأس عمرو ... يزيد على مخيلته عراما
فجال منازلاً ودعا مُدِلاً ... فعم الهول حين دعا وغاما
نزال بني الهدى هل من كميٍّ ... يسوم الخلد بالنفس استياما
هنالك بادر الكرّار لما ... غدوا والرعب قد منع الكلاما
إذا ما هم أقعده أخوه ... وزاد إلى اللقاء جوىً فقاما
مكانك يا عليّ فذاك عمرو ... له الأبطال يوم وغى تحامى
فقال وإن يكن عمراً فإني ... عليٌّ سوف ألجمه الحساما
فلم يك غير أن أودى ابن ودٍّ ... وخاض السيف في دمه وعاما
وعاد إلى النبي يفيض بأساً ... ويزخر في حميته جماما
وراح الكفر يرجف جانباه ... وأمسى عضب عزته كهاما
وسائل يوم خيبر عن عليٍّ ... تجد فيها مأثره جساما

إذ الـرايـات في جـهـد عـليـها ... تعاصي الفتح والهرب استداما
فـأقـبـل بـالـعـقـاب عـلـى خـمـيـس ... يـهـرول مـسـرعـاً يمضي أمـامـا
فـشـدَّ عـلـى مـنـاكـبـهـا وثـاقـاً ... ولـفَّ عـلـى مـعـاطـسـهـا خـطـامـا
ولم تغن الحصون ولا الصياصي ... وإن قـام الحـديـد لـهـا دعـامـا
وأقـبـل مـرحـب في الـبـأس يحبوا ... وكـان الـبـأس صـاحـبـه لـزامـا
ومـا عـلـم الـفـتـى أن المـنـايـا ... خـطـطـن بـذي الـفـقـار لـه مـنـامـا
وأن لـه مـن الـكـرار يـومـاً ... عـبـوسـاً مُـدنِـيـاً مـنـه الحـمـامـا
ضـفـا حـلـق الحـديـد عـلـيـه مـثـنـى ... وظـاهـر فـوق بـيـضـتـه الـرخـامـا
فـشـد عـلـى الإمـام بـذي شـطـوب ... تـضـمـن حـده مـوتـاً زؤامـا
فـزال مجـنُّـه فـإذا رتـاج ... هـنـاك تـخـالـه جـبـلاً تـسـامـى
فـسـل يـسـراه كـيـف تـلـقـفـتـه ... وقـد أعـيـا تحـمـلـه فـئـامـا
عـلاه بـضـربـة لـو أن رضـوى ... تـلـقـاهـا لـعـاد بـهـا هـيـامـا
فـلـم يـعـصـمـه مـن حـين رخـام ... ولم يـجـد الحـديـد لـه عـصـامـا
وعـادت خـيـبـر لله فـيـئـاً ... يُـقـسَّـم في كـتـائـبـه اقـتـسـامـا
فـدع عـنـك المـواطـن والمـغـازي ... ومـن سـلَّ الـظـبـا فـيـهـا وشـامـا
ومـن أجـرى عـتـاق الخـيـل قـبـاً ... فـأوطـاهـا مـن الأعـداء هـامـا
يـخـوض بـهـا المـواطـن مـعـلـمـات ... ونـصـر الله كـان لـهـا عـلامـا
فـمـا وجـدت كـحـيـدرة إمـامـاً ... يـصـيـد الـصـيـد فـذا أو تـوامـا
وسـل أهـل الـسـلام تجـد عـلـيـاً ... إمـام الـنـاس يـبـتـدر الـسـلامـا

السيد رضا الهندي:

أبو أحمد السيد رضا بن محمد بن هاشم الرضوي الموسوي التقوي المعروف بالهندي (١٢٩٠ هـ - ١٣٦٢ هـ)، ولد بالنجف الأشرف وبها ترعرع، ثم انتقل إلى سامراء مع والده لمدة ١٣ عاماً ثم عاد إلى النجف مجدداً حيث اشتغل بطلب العلم في حوزتها المباركة. واشتهرت له قصيدته الخالدة الموسومة بالقصيدة الكوثرية، التي سنختار منها هذا المقطع[١]:

قـد تمـت لي بـولايـتـه ... نِـعـمٌ جـمَّـت عـن أن تُـشـكـر

(١) الشاكري: علي في الكتاب والسنة والأدب. ص ٨٤ - ٨٦.

لأصيب بها الحظ الأوفى ... وأخصص بالسهم الأوفر
بالحفظ من النار الكبرى ... والأمن من الفزع الأكبر
هل يمنعني وهو الساقي ... أن أشرب من حوض الكوثر
أم يطردني عن مائدة ... وُضعت للقانع والمعتر
يا من قد أنكر من آيا ... تِ أبي حسن ما لا يُنكر
إن كنت لجهلك بالأيام ... جحدت مقام أبي شبر
فاسأل بدراً واسأل أُحُداً ... وسل الأحزاب وسل خيبر
مَن دبَّر فيها الأمر ومَن ... أردى الأبطال ومن دمَّر
مَن هدَّ حصون الشرك ومَن ... شاد الإسلام ومن عمَّر
من قدَّمه طه وعلَى ... أهلِ الإيمان له أمَّر

إلى أن قال:

مَن غيرُك مَن يدعى للحر ... ب وللمحراب وللمنبر
أفعال الخير إذا انتشرت ... في الناس فأنت لها مصدر
وإذا ذكر المعروف فما ... لسواك به شئ يُذكر
أحييت الدين بأبيض قد ... أودعت به الموت الأحمر
قُطباً للحرب يدير الضرب ... ويجلو الكرب بيوم الكَر
فاصدع بالأمر فناصِرُ ... ك البتَّار وشانئُك الأبتر

۞ محمد عبدالحافظ:

أختم هذا الفصل بقسم من الملحمة الزجلية التي كتبها الشاعر المصري محمد عبدالحافظ، وهو شاعر وكاتب مصري معاصر، صدرت له أعمال درامية ومجموعتان شعريتان، بعنوان سيرة الإمام البطل علي بن أبي طالب باللهجة المصرية، مع التحفظ على بعض المعلومات التي وردت فيها:

(بطولة)

وفْ يوم ما قالت قريش
كلمتها في محمد
وصممت تقتله بالغدر
كان مشهد

مشهد بطولي جرئ
لما النبي هاجر
وساب مكانه علي
فوق الفراش ساهر

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

ملفوف ببردة نبينا الخضرة
ومآمن
واللّى سلاحه الإيمان
عمره يعيش آمن

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

فتيان قريش فكّروا
إن النبي بالدار
واستنّوا
لكن نبينا كان وصل للغار

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

وهمَّ ناموا وصحيوا
والسيوف في الإيد
واقفين بباب النبي
لكن بغدر عنيد

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

ولما طال انتظارهم
بصّوا جُوّا الدار
لاقوا علي
قادت قلوبهم نار
قالوا لبعض : إزاي
خرج واحنا ولا ندره ؟
واللي العنايه معاه
ما تخوّفو كتره

أما علي .. ما سأل
وكان يا ناس
رمز لْبطوله عظيمه
تحيّر الإحساس
إزّاي يخاطر الفتى ومكان نبينا ينام
والموت أمامه ... وخلفه
والسيوف خدّام

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

لا الموت ولا الفرسان
فكّر فتانا فيه
دَ الموت يخافه جبان
نفسه تعزّ عليه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

لاكنّه قام الصبح
من بدري ولا هَمُّه
ومعاه أمانات النبي
توزيعها كان هَمُّه
وزعها لصْحابها
وجهز نفسه للهجره
يلحق بعز الأحبة
ف يثرب الثوره

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ثورة إرادة البشر

ضد الهوان والظلم
ثورة صنعها القدر
ثورة حضاره وعلم

(غزوة بدر)

ولما سعْتِ الخطر دقّت

في ليلة قدر
ونادى داعي الجهاد
للمسلمين في بدر
والحق والإيمان صمد
زي الجبل للغدر
كان الإمام البطل
هوَ وعمه وأخوه
أول تلاته تصدّوا
للعدو وهزموه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

بارزوا تلاته من قريش
زي الأسود في الحرب
عتبه .. و شيبه .. و الوليد
أولاد ربيعه .. صعب

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

دي ملحمه سته جبابره
مشهورين بالضرب
كان الوليد قدام علي
واتقابل الجبلين
لكن علي ف لمح البصر
شق الوليد نصّين
وراح يساعد أبوعبيده
وعمو معاه
قتل التلاته تلاته
في البطوله عُتاه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

والله أكبر جلجلت
والجر هلّ ضياه

والنصر دايماً
بالشجاعه .. والإيمان بالله

(غزوة أحد)

شفنا البطل
مين غير علي
تاريخ حياته بالجهاد مشهور ؟
مين غير علي
أول مبارز في الحروب على طول ؟
في الهجره كان له دور
وف بدر أشهر دور
لكن بطولته ف أُحُد
فوق كل دور مذكور

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الكفر لما انكسر
في بدر عاد محزون
خطّط ليوم ينتقم
والحرب فيها فنون
جمعت قريش جمعها
علشان تاخد بالتار
لمّت قبايل العرب
وجماعه م الأشرار
كان اليهود خلفها
بالمكر والأفكار
وحدة غضب همها
تطفي الغضب بالنار

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ورجال ثقيف و كنانه
وعدد كبير لتهامه
تَلَتْ تلاف موتور

أو محترف مأجور
فيهم نسا ورجال
بالطبل والزمّار
يقلولهم إمحوا العار
وخُدوا لبدر بالتار

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

والحرب مش أعداد
لكن إيمان وجهاد
والحرب فيها عِبر
ودروس لمن يعتبر
دايماً دُوَل وسجال
ما حد دام لُه حال

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

والمسلمين في ألف
متوحّدين في زحف
قدّامهم المختار
بيصف فيهم صف

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

ظهر العدو في صفوف
تسمع وراها دفوف

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

وبرز بطل الأبطال
طلحه ولد طلحه
قال : مين يباز .. مين ؟
راح لُه علي في الحال
خلاّ دماغو اتنين
وعَلَم قريش انزال

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

و أبوسعيد طلحه
حمل العلَم بعدُه
لمحو علي راح لُه
خلاّ القضا يخدُه
حمل العلم عثمان
برضه أبوطلحه
حمزه ظهر خلاّه
ما اتهنى بالفرحه
قتله وكان جبار
مليان بحقد التار

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

حمل العلَم غيرُه
قتله علي وغيرُه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كانت بداية خير
لكن النهايه شر
والسر فيها ف بير
بعد العنا والكر
ربك عليم وكبير
يعلم خفيّ الأمر

(دروس أحد)

شفنا بداية أحُد
وف ساحة الميدان
شفنا الإمام البطل
فارس في كل مكان
يضرب بسيفه الضلال
والشرك والطغيان
يا ما بإيد البطل
اتجندلت فرسان

والمسلمين طبعُهم
دايماً في كل أوان
الجنة أحسن لهم
مِ الدنيا مهما كان
ونقولك إيه يا أحُد
درك عظيم الشان

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

يا ما ظهر يا ناس
في ساحة البر جاس
سعد و علي و حمزه
رافعين بعزة الراس

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وأبطال كتير غيرهم
مِ الأوس .. ومِ الخزرج
من مكه .. من يثرب
ما لْقَتْ قريش مخرج
لكن إرادة الله
فوق كل قوه وجاه
والعبد في تفكير
والرب في تدبير
لُقْمه في إيدك
تلاقيها تروح للغير
واللي تقول دا شر
تلقاه يكون الخير

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كان النبي في أحُد
عامل حرس ترعاه
تحمي ظهور النبي

والمسلمين وياه
حراس شداد كلُّهم
من خير خلق الله
شافوا العدو انهزم
تركوا المكان إيّاه
لكن إرادة الله
فوق كل قوة وجاه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

خالد هجم من ورا
بكتيبه م الفرسان
كان قبل إسلام البطل
واللي مقدّر كان
خلاّ المقدّر يقع
واتحوّل الميزان

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

و علي كأنه هرم
ثابت في إيده العلَم
جرحوا اليمين ما انهزم
حمل العلم بالتانيه
واللي يخاف الألم
ما ينول أمل في الدنيا

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

واتحوّل الميزان
لصالح الشيطان
والمسلمين بعضُهم
يضرب بسيفه بعض
يا ما شهيد يا ما بطل
لامس جبينه الأرض

وقع النبي ف حفره
وأخذْ علي بإيده
و قريش أشاعت خبر
ماكر بعيد الأثر
قالوا نبينا انقتل
لكن نبينا ظهر

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

واتحوطوا حمزه
من العدا عشرات
والغدر خد لحظه
في زحمة الضربات
وحشي وكان حبشي
في أحرج الأوقات
وقع الأسد حمزه
وبسهم كان الجرح
سهم وأصاب مقتله
لا بسيف وقع ولا رمح

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

كان الإمام البطل
فارس في كل مكان
يضرب بسيفه الضلال
والشرك والطغيان
يا ما بإيد البطل
اتجندلت الفرسان

(غزوة الأحزاب)

لو كنت ألاقي قلم
يكتب كلام من نور
ومداده عطر ودهب
مِ الجنه جيْ مصهور

ولاّ ألاقي حروف
م الورد تبقى سطور
لاكتب حكاية علي
في غزوة الأحزاب
وأنشرها ويّا الهوى
والنسمه بيها تدور

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

سيرة البطوله في النفوس
دايماً لها تأثير
واللي يخاطر بالحياه
يستاهل التقدير
لو للعقيده ... والوطن
لو للعداله تسير

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

واللي ملا قلبه الإيمان
ما يزل نفسه لْحَد
ويكون في كل أوان
جاهز لساعة الجِد

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وف غزوة الأحزاب
الكفر كان أسراب
دقوا على الأبواب
بسيوف كثير وحراب

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[1]

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) سورة الأحزاب: ١٠ - ١١.

والخندق المحفور ... عبَرُوا من الكفار
فارس بطل مشهور ... فارس لكن جبار
عمرو بن ود شهير
في الحرب شأنه خطير
فارس عظيم وقدير
في الحرب مالو نظير
في الجيش يساوي ألف
يعمل حسابه الغير

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

نادى بأعلى صوت :
ياللي تحب الموت
والمسلمين سامعين
سامعين لكن ساكتين
راح لُه علي في الحال
ولا همّه عمرو بحال
واثق بنصر الله
للي إيمانو حماه
ولا عمرو هزّه بسمعتُه
ولا خاف سلاحه وسطوتُه
و علي صغير السن
قدّامه فارس جِن
قال : يا علي ما يهون عليّا يا فتى
إني أقتلك
ابعت لي عمك ولاّ واحد كفء
ليّا يكبرك
قالّوا علي إنت اللي قلت :
أن خيّروني بين شيئين
اختار لا زم واحد ؟
قالّوا : نعم

قالّوا علي : آمن بدين الله
إلهك ... ربك الواحد
قالّوا : والله دي في نفسي منها شئ
قالّوا علي : يبقى بعون الله
بسيفي حاقتلك

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

غضب ابن ود وراح
يبين سطوته
لكن علي خيّب ظنونه وفكرته
عمرو ابتدا بالسيف
وسدِّد ضربته
ضَرْبَه جمع فيها شجاعته وقوته
راغ منها في خِفّه علي
وصمد .. وزادت جرأته
واقف على رجليه وخصمه ع الفرس
في كسوته
لما فشل حاول يدوسه ويدهسه
وغضب وزادت قسوته
لكن علي بعزم الهدى ..
بنور اليقين
سدّد لعمرو ضربة قاشية هدّته
الضربه جتْ في فخدته
انفصلت بعيد عن جتّته
قام عمره شايلها ولكن ما نفع
نزف الجراح خلاّ الجبل خرّ ووقع
والله أكبر جلجلت
حتى الجبال اتزلزلت
و علي البطل عاد للنبي
يشاركه سعادته وفرحتُه

قبّل جبينه المصطفى
وْكُل الصحابه باركته

(حصار خيبر)

صوره رسمها البطل
نادره .. وشفناها
صورة بطوله .. فريده
سامي معناها
عايشه في فكر الزمن
ما بينسى ذكراها
شفنا الإمام البطل
جندل عزيمة عمرو
و قريش .. وطاش سهمها
وْضلّت في مسعاها

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

آمنت قريش إنها
بتضرب دماغها في صخر
واتخلى عنها الحليف
واستسلمت للأمر
والمسلمين في جهاد
موصول وله أبعاد
واتغير التكتيك
ولا عاد يفيد تشكيك

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

واتحولوا لهجوم
زلزل كيان الكفر
رافعين رايات الله
حاملين دروع الصبر
راجعين بعون الله
من كل غزوه بنصر

كان اليهود اتجمعوا
بعد الجلاء واستوطنوا
في حصون .. في خيبر
واستعدوا .. وحصنوا
واتجبروا بعد التآمر
وافتروا
واتسلحوا بأقوى سلاح
واتنمروا

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ظنوا حصونهم درع يحمي غدرهم
ظنوا سلاحهم قوة ترهب خصمهم
لكن كتايب الحق ما تهاب المحن
زحفت على خيبر
على وكر الفتن

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

المسلمين حاصروا الحصون
وحصارها طال
هجمت جيوش النور
على كهوف الضلال
أياك : ثلاثة .. وأربعه
والحرب نارها مولّعه
والراية خامس يوم
كانت في إيد أبوبكر
برضه استمر القوم متحصنين في صبر
و عمر في سادس يوم
حامل رايات النصر
هاجم لكن الحصن
بابه كأنه صخر
قال النبي :

(سأعطي الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه)

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

شفنا الإمام البطل
هوّ وجيوش النصر
رايحين في ضل النبي
ليهودا وكر الغدر
ولحصن خيبر وصل
كان حصن ليهم فخر
كله سلاح أو مُوَن
طوّل حصارهم شهر
والراية شالها عمر
و أبوبكر قبله ف صبر
كان اليهود كلهم
عارفين حقيقة الأمر
كانت نهاية لهم
يا الموت يا إما الأسر
الراية شالها البطل
طار بيها زي النسر
قصة بطوله وعِبر
قصة تفيد العصر

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الراية سابع يوم
خدها علي في فخر
هاجم حصون القوم
هاجم حصون الغدر
هاجم وبالإيمان
وبهِمَّة الفارس
خلاّ بيت الشيطان
مفتوح بلا حارس

وبرز له م الداخل
مرحب وَ خُوه حارث
مرحب كان القائد
وخوه كان الساعد
جنلهم الإثنين
والمولى له حارس

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وحصون وراها جْموع
سقطت بما فيها
وسلاح كتير ودروع
ما حمتش حاميها
واتطهّرت أرض العرب
يومها من الغادرين
والخصم مهما جلب
من مال وكان له حصون
الحق صاحب الغلب
ع الغدر مهما يكون
والحق لما انتصر
ع الغدر والطغيان
فرحه وْ صنعها القدر
للعدل والإيمان

(الإمام والخلافه)

بعد ما مات الرسول
كان الإمام له رأي واضح في الخلافه
كان صريح
ما دارى رأيه خليفه .. أو خلافُه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

قاله بنفسه شعر
تلمس فيه ثقه .. فيه الحقيقه

فيه مشاعر نفس صافيه
فيه أحاسيسه البريئه

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

لولا إنه كان مُحارَب
من قريش والموتورين
اللي كان ليهم ضحايا
وبإيديه متجندلين
لولا إنه كان صغير السن
بالنسبه لغيره من كبار السن
لولا إنه مش رجل دنيا ومظاهر
لولا إنه ما بيداهن أو يناور
كان علي قادر يشيل السيف
ويضرب ضربته
كان علي الفارس
بماضيه البطل فيه جرأته

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

لكن علي الحر الأبي
لكن علي صهر النبي
لكن علي الفاهم لدينه
لكن علي الثابت يقينه
رأيه كان إنه أحق
لكن الرأي الأحق
فات أمور الناس لهم
يختاروا اللي يرغبوه
لا ارتجالهم .. أو فرض نفسه
ولا قال ليه فَتُوه [١]

(١) عبدالحافظ : سيرة الإمام البطل علي بن أبي طالب. ص ٢٣ - ١٥١.

بطولاته
في العهد النبوي

بطولاته في العهد النبوي

زخر تاريخ الإسلام بمواقف عديدة تؤكد بلا ريب ولا تحفظ أن علياً عليه السلام كان أشجع أهل زمانه. خلا رسول الله صلى الله عليه وآله. في نصرة الدين وإحقاق الحق وترسيخ دين الله في الأرض، منذ بدء الرسالة إلى أن ارتحل النبي إلى باريه سبحانه وتعالى ، حتى ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **ما قام ولا استقام ديني إلا بشيئين: مال خديجة وسيف علي بن أبي طالب**[١]، وفي الحفاظ على الإسلام وقيمه والدفاع عن المظلومين ومحاربة الفساد الإداري والمالي الذي عم بلاد المسلمين بعد زمن من رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وسنستعرض في هذا الفصل مقاطع من التاريخ تشهد لشجاعة علي، وتخط له بقلمها ملاحم خالدة تمتزج فيها البطولة بالإخلاص، والفتوة بالأخلاق، والشهامة بالحلم، والشجاعة بالتقوى. كما سنعتمد على التسلسل التاريخي للأحداث، ووفقاً لألفاظ بعض الروايات الواردة في شأن الحدث بعينه، دون التركيز على مصدر واحد في نقلها.

كما أننا سنتحدث حول مشاهد التاريخ التي حفظت لعلي بطولاته دون أن نسترسل بنقل كل أحداث الفترة الزمنية التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام، سواءً مع النبي أو بعد ذلك.

۞ بدء الدعوة:

منذ أن صدح رسول الله صلى الله عليه وآله بالرسالة، وعلي عليه السلام إلى جانبه يعاضده ويمنع عنه ويؤازره في المواقف كلها، دون أن يهاب صناديد قريش وأزلامهم الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويسعون لإلحاق الأذى بمن تصل إليه أيديهم، كل ذلك وعلي لم يبلغ الحلم بعد، إذ بدأت الدعوة وهو في العاشرة من عمره المبارك، فعاش آفاقها وآلامها ومصاعبها لحظة بلحظة، دون أن يهزه شئ أو يردّده موقف أو تُسجل له كلمة تدل على أنه عاش الخوف في ابتلاءات كانت تزلزل أقدام الرجال، أو امتنع حرجاً من اتهام يوجَّه إليه أو كلمة سوء يسمعها.

فعندما نزلت آية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[٢] دعا النبي عشيرته وعرض عليهم الإسلام، فامتنعوا عن إجابته. فقال: **من يؤازرني على الأمر فيكن أخي ووصيي ووزيري وخليفتي من بعدي ؟.**

فلم يجبه أحد سوى علي عليه السلام وهو أصغرهم يومئذ سناً، دون تردد ولا وجل، ولم يدفعه إلى ذلك طمعٌ في دنيا أو حبٌّ إلى جاه. وأعاد النبي كلامه إتماماً للحجة، فنهض علي مجدداً وهو يقول: **أنا أؤازرك يا رسول الله.**

وعندها أقره النبي على ذلك قائلاً: **إن هذا أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا.**

---

(١) الحائري : شجرة طوبى. ج ٢. ص ٢٣٣.
(٢) سورة الشعراء : ٢١٤.

وعلى الرغم من أن القوم قاموا يضحكون ويقولون لأبي طالب: **قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع**، إلا أن هذا الموقف لم يترك أثراً سلبياً في نفس علي كي يدفعه للتردد عن الإقدام لنصرة النبي في المواقف اللاحقة، بل استمر بكل صدق وإخلاص في الدفاع عن الإسلام ونبيه متى ما تطلب الأمر ذلك[١].

وحفظ له التاريخ أنه كان يلاحق أطفال المشركين الذين كانوا يرمون النبي بالحجارة، فيهجم عليه ويقضم أنوفهم وآذانهم، فعن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه سئل عن معنى قول طلحة بن أبي طلحة لما بارزه علي: **يا قُضَم**، قال: **إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبي طالب، وأغروا به الصبيان، و كانوا إذا خرج رسول الله يرمونه بالحجارة والتراب، وشكى ذلك إلى علي عليه السلام فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إذا خرجت فأخرجني معك. فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه أمير المؤمنين عليه السلام فتعرض الصبيان لرسول الله صلى الله عليه وآله كعادتهم، فحمل عليهم أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم، فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضَمَنا علي، قضمنا علي، فسمى لذلك القضم**[٢].

> **برز طلحة بن أبي طلحة العبدري يوم أحُد مطالباً البراز ، فبرز إليه أمير المؤمنين ، فقال طلحة: من أنت يا غلام ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب، قال : قد علمت يا قضم ، أنه لا يجسر علي أحد غيرك ، فشد عليه طلحة فضربه فاتقاه أمير المؤمنين بدرعه ، ثم ضربه أمير المؤمنين على فخذيه فقطعهما جميعاً فسقط على ظهره ، وسقطت الراية ، فذهب علي ليجهز عليه فحلفه بالرحم فانصرف عنه ، فقال المسلمون : ألا أجهزت عليه ؟ قال: قد ضربته ضربة لا يعيش منها أبداً . وسنتعرض لذلك مفصلاً حين الحديث عن معركة أحد**

الحصار في شعْب أبي طالب:

يئس المشركون من أساليب الترغيب والترهيب التي مارسوها مع النبي صلى الله عليه وآله، وشقَّ عليهم انتشار الإسلام المتزايد ونفوذه العجيب في القبائل العربية في مدة غير طويلة بالنسبة إلى عمر الدعوة، علاوة على حرية التحرك الّتي اكتسبها المسلمون على أثر الهجرة إلى أرض الحبشة، لذا فإنهم عمدوا لاستخدام أسلوب الحصار الاقتصادي والاجتماعي، ففرضوه على بني هاشم أملاً في أن تضيق الأَرض عليهم بما رحبت، وتغدو الدنيا لهم على سعتها كسجن ضيق وصغير، ويصيرون عُرضة للانهيار والاستسلام لمطالبهم التي وضعوا على رأسها القضاء على النبي ودعوته.

فاجتمع مشركو قريش في دار الندوة في الليلة الأولى من السنة السابعة لبعثة النبي، وكتبوا بينهم عهداً يتضمن البنود التالية:

١ ـ أن لا يبتاعوا من أنصار النبي ولا يبيعوهم شيئاً

٢ ـ أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم

(١) ورد حديث آية الإنذار (حديث الدار) في مصادر عديدة منها تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وكنز العمال للمتقي والسيرة النبوية للحلبي وغيرها.
(٢) المجلسي : بحار الأنوار ـ ج ٢٠ ـ ص ٥٢.

٣ ـ أن لا يؤاكلوهم ولا يكلموهم

٤ ـ أن يكونوا يداً واحدة على النبي وأنصاره

وقد وقّعت على هذه الصحيفة كل الشخصيات البارزة في قريش إلا مطعم بن عدي، وتم الإعلان عن سريان مفعولها بكل قوة وإصرار.

فلما علم أبوطالب بذلك جمع بني هاشم و بني المطلب وحمّلهم مسئولية الدفاع عن رسول اللّه ﷺ والحفاظ على حياته وسلامته، وأمرهم بالبقاء في الحي المعروف بشِعب أبي طالب وأخذ الحيطة والحذر، لاسيما في نوايا المشركين تجاه النبي، كما عمد إلى بث رجال منهم في نقاط مرتفعة للمراقبة والحراسة تحسباً لأي هجوم مباغت قد تقوم به قريش . وقد استمر هذا الحصار ثلاثة أعوام كاملة، وبلغ الجهد بالمحاصَرين في الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضر، وبلغت هذه الصرخات مسامع قساة مكة إلاّ أنها لم تؤثر فيهم قط، كما كان الشباب والرجال منهم يعيشون على تمرة واحدة طوال اليوم، وربما تناصف اثنان تمرة واحدة، ولم يأمنوا الخروج من الشعب طوال هذه السنوات الثلاث إلاّ في الأشهر الحرم حيث يسود الأمن كل أنحاء الجزيرة العربية، وتضطر قريش بالتالي للالتزام بهذا الوضع وعدم التعرض للمسلمين، وإن كانت تمارس بعض الطرق الملتوية والدنيئة لمنعهم من التعامل الاقتصادي مع الوفود القادمة إلى مكة المكرمة من قبيل عرض أسعار أعلى للبائعين في ما لو أرادوا بيع بضاعتهم للمسلمين، حتى لو لم يرغبوا فيها.

وكان أبو لهب أكثر الناس إصراراً على هذا الحصار، فقد كان ينادي في الأسواق: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم.

ولا يجسر أحد على أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن فعل انتهبت قريش ماله. فقد كان أبوجهل والعاص بن وائل و النضر بن الحارث بن كلدة و عقبة بن أبي معيط يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة فمن رأوه معه ميرة وطعام نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئاً، وإلا انتهبوا ما معه. لقد بلغ الجهد والجوع بالمحاصَرين في الشعب حداً جعلهم يأكلون كل ما تقع عليه أيديهم من الخبط وورق السمر، حتى أن سعد بن أبي وقاص يقول: **لقد جعت حتى أني وطئتُ ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن**[١].

وخلال تلك السنوات الصعبة، سعى أبو طالب لحماية النبي من الاغتيال بطرق عدة، منها ترتيب أمور حراسة الشِّعب كل ليلة، ومنها أنه كان ينيم ابنه علياً مكانه في شطر من الليل تحسباً لأي احتمال لعملية تجسس تكون قد تم من خلالها تحديد موضع مبيت النبي الأكرم ﷺ.

وكان الإمام علي عليه السلام لا يبالي بذلك، ويقدم عليه دون تردد، ويتوقع القتل في أية لحظة، حتى أنه روي أنه قال لأبيه في إحدى تلك الليالي العصيبة: **يا أبتاه، إني مقتول ذات ليلة**.

فرد أبوطالب قائلاً:

اصبرنّ يا بُنَيَّ فالصبر أحجى ... كل حَيٍّ مَصيرُه لشعوبِ
قد بلَوْناك والبَلاءُ شَديد ... لِفداءِ النجيبِ و ابن النجيبِ

فأجاب علي عليه السلام [٢]:

أتأمرُني بالصَّبر في نصر أحمَد ... ووالله ما قلتُ الذي قلتُ جازعاً
ولكنّني أحبَبتُ أن تَرَ نُصرَتي ... وتعلمَ أني لم أزل لك طائعاً

ثم حانت ساعة الخلاص، إذ نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالبشارة، فلقد أكلت الأرضة كتاب العهد الذي كتبه المشركون وأودعوه في البيت الحرام، ولم يبق منه سوى كلمة **باسمك اللهم**، فأخبر النبي عمه أباطالب بالأمر، فتوجه من فوره إلى رجالات قريش، وعرض عليهم الأمر، فإن كان محمد صادقاً أنهوا الحصار، وإن كان كاذباً سلّمه إليهم ليفعلوا فيه ما شاءوا. لقد أنصفهم شيخ الأبطح، فما من أحد كان بمقدوره أن يخبر النبي بمصير الكتاب.

وهكذا توجه أبوطالب و من معه إلى الكعبة الشريفة، ففتحوا الباب، وأخرجوا الكتاب، فإذا به كما أخبر الصادق المصدق محمد بن عبدالله ﷺ، وانقضت محنة السنوات الثلاث، ولكن القدر لم يمهل أباطالب وخديجة فتوفيا بعيد انتهاء الحصار، وبين رحيلهما أيام قلائل ملأت القلب الشريف بالحزن العميق حتى عرف ذلك العام بعام الحزن.

---

(١) السبحاني : سيد المرسلين. ج ١. ص ٥٠٣ .
(٢) ابن شهر آشوب : المناقب. ج ١ . ص ٦٤.

۞ على أبواب الهجرة إلى المدينة:

عرض النبي الأكرم ﷺ الدين الحنيف على أهل يثرب، فأسلم بعضهم، وبايعوا النبي بيعة العقبة الأولى، ثم عادوا في العام المقبل بعدد أكبر من قومهم، مسلمين مبايعين على النصرة وإيواء المسلمين من أهل مكة وغيرهم ممن أراد اللجوء إلى يثرب، فكانت بيعة العقبة الثانية.

احتضن أهل يثرب المسلمين المهاجرين بكل ترحيب، ولم يبق منهم في مكة سوى القليل، ومن بينهم النبي الأكرم وعلي بن أبي طالب وأبي بكر وبعض المسلمين من المحبوسين وكبار السن والعجزة و النساء.

وكانت هذه البقية الباقية على أبواب الهجرة ومغادرة مكة إلى المدينة، إلا أنها واجهت ـ فجأة ـ قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً جداً في هذا المجال، فقد انعقدت جلسة هامة للتشاور في دار الندوة حضرها رؤساء قريش، قرروا على إثرها أن ليس هناك من رأي إلا أن يعمدوا إلى قبائلهم ليختاروا من كل قبيلة منها رجلاً قوياً، ثم ليهجموا على محمد معاً ليلاً، ويقطعوه إرباً إرباً فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلها في صاحبهم، فيرضون حينئذ بالدية منهم !!

بعد أن دبّر الكفار ما دبروا، نزل جبرئيل عَلَيْهِ السَّلَام على رسول اللّه ﷺ، وأخبره بالمؤامرة، وقرأ عليه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

كما أُمِرَ رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة على عجَل، ولكنّ التخلص من أيدي القساة المكلّفين بقتله من قبل زعماء الوثنيين ـ وبالنظر إلى المراقبة الدقيقة التي كانوا يقومون بها لجميع التحركات ـ لم يكن بالأمر السهل، وخاصة مع ملاحظة بُعد المسافة بين مكة والمدينة، ولذا كان لابد من خطة دقيقة، ومدد إلهي لتتم الهجرة بسلام. أما التدابير التمويهية فكانت تتعلق ـ من جهة ـ بمبيت شخص في فراش النبي يكون على استعداد للتضحية بنفسه فيما لو تطلب الأمر ذلك، ويكون مؤهلاً لهذه المهمة فيما لو قُبض عليه حياً فلا يُفشي السر تحت أية ظروف. ومن جهة أخرى كان الأمر يتطلب أن يسلك النبي طريقاً تمويهياً يظن معه ملاحقوه بأنه يقصد اتجاه اليمن جنوباً، ليكسب بعض الوقت، ومن ثم يتوجه شمالاً نحو المدينة المنورة. وعرض النبي الأمر على أمينه ووزيره علي بن أبي طالب، وهل غير علي يمكن أن يكون رجل الموقف؟

وقد نقلت بعض كتب السيرة حوار النبي مع الإمام علي في تلك اللحظات:

قال رسول الله: **يا عليّ إنَّ قريشاً اجتمعت عَلى المكر بي وقتلي، وإنّه أوحيَ إليَّ عن ربّي أن أهجرَ دار قومي، فنم على فراشي والتحف ببردي الحضرمي لتُخفي بمبيتك عَليهم أثَري. فما أنت قائل وصانع ؟**

فقال علي: **أوَ تَسلَمَنَّ بِمَبيتي هناك يا نبيَّ الله ؟**

قال: **نعم.**

---

(١) الأنفال: ٣٠.

فتبسّم علي مسروراً وأهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لما أنبأه رسول الله من سلامته، فلما رفع رأسه قال للنبي: **امضِ لما أُمرتَ. فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي. ومُرني بما شئتَ أكن فيه كمسرّتك**[١]، **وأقع فيه بحيث مرادك**[٢]، **وإن توفيقي إلاّ بالله.**

ثم رقدَ علي عَلَيْهِ السَّلَامُ على فراش رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، واشتمل ببُرده الحضرمي، ولما مضى شطرٌ من الليل حاصرَ رَصد قريش - وهم أربعون رجلاً - بيت رسول الله وقد جرّدوا سيوفَهم، ينتظرون لحظة الهجوم، ويتطلّعون إلى داخل البيت من فرجة الباب بين الحين والآخر ليتأكدوا من بقاء رسول الله في مضجعه. وكلما نظروا وجدوا الفراش على وضعه، لم يغادره النبي بظنهم، وهم يحسبون أن النائمَ في الفراش ليس سواه.

ولكن كيف خرج النبي من بيته؟ ذهب البعض إلى أن النبي كان يعلم بالمؤامرة مسبقاً، وهو ما مكّنه من الخروج قبل قدوم المشركين إلى بيته. وذهب فريق آخر إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألقى النعاس على المتآمرين بأجمعهم، وخرج النبي دون أن يشعر به أحد منهم، وذهب إلى المكان الذي كان من المقرر أن يختبئ به. وقالت طائفة أخرى بأن النبي خرج من أمام القوم وهم أيقاظ، إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل على أبصارهم غشاوة فلم يروه، واستطاع بذلك التخلص منهم[٣].

۞ المفاجأة الكبرى:

طوّقت قوى الكفر بيت النبي وباتت تنتظر لحظة الإذن في إقتحامه والهجوم على النبي في فراشه وضربه وتقطيعه بالسيوف إرباً إرباً! وقد أصرّ جماعة منهم أن ينفّذوا خطتهم المشؤومة هذه في منتصف الليل وقبل الفجر، فمنعهم أبو لهب من ذلك وقال: **لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإنَّ في الدار صبياناً ونساءً من بني هاشم، ولا نأمن أن تقع يد خاطئة. فنحرسه الليلة، فإذا أصبحنا دخلنا عليه.**

ومع انقشاع الظلام اقتحم فتيان قريش حجرة رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وبينما هم يهمّون بأخذ مَن كان راقداً في الفراش بسيوفهم، إذا بهم يواجهون علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي وثب في وجوههم وهو يكشف عن نفسه البُرد الأخضر، وقال لهم في منتهى الطمأنينة والشجاعة: **ما شأنكم؟ وماذا تريدون؟**

فقالوا له بغضب: **أين محمد؟**

أجاب: **أجعلتموني عليه رقيباً؟!**

وتحقق للنبي ما أراد، وفشل المشركون مجدداً في النيل منه، وضرب الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أروع نموذج للتضحية والتفاني في طريق الحق. ولذا نزلت الآية المباركة: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[٤]، كما نصت على ذلك الأخبار، وقال به جمع من المفسرين من الفريقين كالفخر الرازي في تفسيره: (في

---

(١) أي: كما تحب.

(٢) أي: كما تريد.

(٣) السبحاني: سيد المرسلين - ج ١ - ص ٥٨٩ – ٥٩٠، وقد شكك المؤلف في وجود ضرورة لوقوع معجزة أو كرامة في مثل هذا الموقف مع وجود إمكانية لتدبير الأمر ضمن التخطيط المسبق ووفق القوانين الطبيعية.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٧.

سبب النزول روايات.... والرواية الثالثة: نزلت في علي بن أبي طالب بات على فراش رسول الله ﷺ ليلة خروجه إلى الغار، ويروى أنه لما نام على فراشه قام جبريل عَلَيْهِ السَّلَام عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي: بخ بخ، مَن مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة. ونزلت الآية)[١].

وقد علق العلامة فضل الله في تفسيره لهذه الآية الشريفة قائلاً: (جاءت هذه الآية الشريفة في صورة مقارنة مع نموذج الإنسان الذي مسخ شخصيته فأصبح شيطاناً يفسد ويدمر دون حساب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٢]. وهناك صورة أخرى لنموذج جديد مشرق في داخل الحياة وخارجها، تتمثل بالإنسان الذي شرى نفسه لله من أجل الحصول على رضاه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[٣] الأمر الذي يجعله يشعر أنه لا يملك نفسه ولا يرى لها حريّة مطلقة بعيداً عن إرادة الله وطاعته. ولذلك فهو يعيش الإحساس العميق بأنَّ عليه أن يبذل كلّ طاقاته الفكرية والروحية والجسدية في سبيل الله، فلا مجال للترف الفكري في الأجواء التي تتحرك فيها التحديات الفكرية ضد الفكر الحق، ولا موقع للخيال أمام حاجة الواقع إلى التعامل مع الظروف الموضوعية المطروحة في الساحة، ولا وقت للفراغ في المجالات التي يشعر فيها الإنسان بالزمن يضيق عن المطامح الكبرى للقضايا الأساسية الحية في واقع الإنسان والحياة. وهكذا تنطلق حياته لتتحرك من موقع الحق المتحرك في أكثر من اتجاه ضد خطوات الباطل التي تطلق التحدي في أكثر من مجال.

إنه نموذج الرساليين الذين يعيشون رسالتهم في كلّ مظهر لحركة الحياة من حولهم، ويعيشون حياتهم من أجل رسالتهم في الخط المستقيم؛ فلا ينحرفون أمام كلّ محاولات الإغراء، ولا يستسلمون لكلّ عوامل الضغط، بل يظلون في الموقع الصلب، في ساحات التحدي الصعب، ليشهدوا الله على أنهم صدقوا العهد وأكدوا الميثاق بجهادهم وتضحياتهم في سبيله، ولم تأخذهم فيه لومة لائم.

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فهو الذي يتقبل منهم هذه النفوس المجاهدة التي تستقبل الموت بكلّ رضى واطمئنان، انطلاقاً من خط الواجب الذي تلتقي فيه الرسالة بالشهادة والشهادة بالنصر، ويجزل لها الثواب في مستقر رحمته ورضوانه، وهو الذي يجازيهم الثواب الكثير بالعمل القليل)[٤].

۞ هنبثة ابن تيمية[٥]:

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم الحرّاني الحنبلي الذي مات في سجنٍ بدمشق في سنة ٧٢٨ هـ ، وتعود إليه أكثر معتقدات السلفيين، له آراء ومواقف خاصة من النبي الأكرم ﷺ وأميرالمؤمنين وعامة أهل بيت النبوة عَلَيْهِمُ السَّلَام، وقد

(١) الرازي: التفسير الكبير. ج ٥ . ص ٢٢٣ - ٢٢٤.
(٢) سورة البقرة: ٢٠٤-٢٠٦.
(٣) سورة البقرة: ٢٠٧.
(٤) فضل الله : من وحي القرآن. ج ٤ . ص ١٢٠.
(٥) الهنبثة : الاختلاط في القول.

صرح بأكثر آرائه ومعتقداته هذه في كتابه منهاج السنة. وقد دفعت عقائدُه وآراؤه الكثيرَ من علماء عصره إلى اتخاذ موقف عنيف منه، كما سُجن بسبب ذلك.

ولابن تيمية رأي عجيب حول فضيلة المبيت في فراش النبي نذكره بتصرف بسيط في الألفاظ من باب الاختصار، قال: إن مبيت علي في فراش رسول الله ﷺ لاتعد فضيلة، لأن علياً عرف من طريقين بأنه لن يصيبه شئ في تلك الليلة:

الأول: إخبار رسول الله ﷺ الصادق المصدق نفسه إياه بذلك إذ قال له في نفس تلك الليلة: نَمْ في فِراشي فإنه لا يَخلُصُ إليكَ شيء تكرَهه.

الثاني: أن النبي ﷺ كلّفه بردّ الودائع وأداء الأمانات التي أودعها أهل مكة عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها.

فعلم ـ من ذلك ـ أنه لن يُقتل وإلا لكلّفَ رسول الله ﷺ الآخرين بها. فعرف عليٌّ من هذا التكليف أنه لن يلحقه أذى في هذه العملية وأنه سيوفَّق لأداء ما كلفه به رسول الله ﷺ.

وهذه الشبهة ـ كما اطلعنا في الفصل السادس ـ لا تبتعد كثيراً عن رأي الجاحظ في القضية ذاتها، وإن كان العلامة الإسكافي قد تكفل بالرد على شبهة الجاحظ، فإن المحقق المعاصر الشيخ جعفر السبحاني قد تناول شبهة ابن تيمية بالرد إجمالاً وتفصيلاً وفق البيان التالي:

الرد الإجمالي: إن ابن تيمية بانكاره هذه الفضيلة أثبت فضيلة أعلى لعلي عليه السلام، لأنه إمّا أن كان إيمان علي بصدق مقالة الرسول إيماناً عادياً، وإما أن كان إيماناً قوياً جداً، وكانت جميع أقوال النبي ﷺ وإخباراته لديه ـ في ضوء إيمانه ـ كالنهار في وضوحه.

وعلى الفرض الأول لم يكن لعلي يقين بنجاته من تلك الواقعة لأنه لا يحصل لمثل هذه الطبقة من الناس ـ ولا شك أن علياً ليس منهم حتماً ـ يقين من كلام النبي ﷺ، وحتى لو قبلوا به في الظاهر، فإنهم سيساورهم القلق، ولا يفارقهم الاضطراب، وإذا هم باتوا في فراشه في لحظات الخطر، فانه سيبقون فريسة الخوف والوجل، وستمرّ في نفوسهم احتمالات كثيرة حول مآل الأمر ومصيره، وسيتمثل أمامهم شبح الموت المرعب في كل لحظة وآن.

وعلى هذا الفرض لابد أن يقال: بأنَّ علياً عليه السلام لم يُقدم على هذا الأمر الخطير إلا وهو يحتمل الهلاك على أيدي المشركين، لا أنه بات وهو يتيقن النجاة والسلامة.

وأما بناءً على الفرض الثاني فإنه تثبت لعلي عليه السلام فضيلة أعلى وأعظم، لأن إيمان الرجل يجب أن يبلغ من القوة والكمال بحيث لا يفرّق بين صدق كلام النبي وبين وضوح النهار، أي أنهما يكونان عنده بمنزلة سواء، ولا شك أن أهمية مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعادِلها شئ . ونتيجة هذا الإيمان هي أن النبي ﷺ عندما قال له : نم في فراشي فلن يصيبك من هجوم الأعداء الحاقدين مكروه، أن ينام في فراش النبي ﷺ بقلب واثق بالسلامة، ونفس مطمئنة إلى النجاة، ومن دون أن يخالج نفسَه أقل احتمال للخطر.

ولو كان مراد ابن تيمية من قوله: أن علياً كان واثقاً من سلامته، لأن الصادق المصدَّق أخبره بذلك، هو: إثبات

أعلى درجات الإيمان لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أثبت له من حيث لا يشعر أكبر فضيلة وأعلى منقبة، وهي كمال الإيمان والثقة برسول الله ﷺ وإخباره.

الرد التفصيلي:

فنقول عن الدليل الأول: إن عبارة لا يخلص إليك شيء تكرهه لم ينقلها بعض أرباب السيرة ورجال علم التاريخ الذين لهم سابقة لا تنكر في هذا الصعيد[١].

نعم روى ابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠ ، والطبري المتوفى عام ٣١٠ هذه العبارة وكأنما قد أخذاها عن ابن هشام في سيرته التي نقل فيها تلك العبارة بالصورة المتقدمة الذكر[٢]، خاصة أنّ عبارة ذينك المؤلّفين ـ الطبري وابن الأثير ـ تطابق عبارة ابن هشام في هذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أنّ القضية لا توجد بهذه الصورة في مؤلفات علماء الشيعة على ما نعلم، ولقد نقل شيخ الطائفة الإمامية محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ في أماليه قصة الهجرة بشكل أكثر تفصيلاً ودقة، وذكر العبارة المذكورة مع تغيير بسيط، إلاّ أنه تختلف صورة القضيّة مع ذلك عما هي عليه في كتب أهل السنة، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ يصرّح بأن عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ انطلق هو وهند بن أبي هالة ابن خديجة وربيب رسول الله ﷺ في منتصف الليل بعد ليلتين من الهجرة حتى دخلا على النبي ﷺ فقال لعلي: إنّهم لن يَصِلُوا مِنَ الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم عليَّ.

وهذه الجملة تشبه الجملة التي ذكرها ابن هشام والطبري وابن الأثير، ولكن النبي ﷺ قالها لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ مطمْئناً إياه بعد ليلتين من المبيت في الفراش، وليس ليلة المبيت كما يروي الثلاثة المذكورون. هذا علاوة على أنّ كلام علي نفسه خير شاهد على ما نقول، فلقد عدّ علي عَلَيْهِ السَّلَامُ عمله هذا ـ أي المبيت في فراش رسول الله ﷺ في تلك الليلة الرهيبة ـ نموذجاً من بذله وتفانيه في سبيل الحق كما يتضح ذلك بجلاء من أشعاره حيث يقول:

وقيتُ بنفسي خيرَ مَن وَطأ الحصا ... ومَن طاف بالبيتِ العتيقِ وبالحجر

محمد لما خافَ أن يمكُروا به ... فوقاه ربّي ذو الجلالِ من المَكرِ

وَبِتُّ أُراعي منهم ما يسوؤني ... وقد وطّنتُ نفسي على القتل والأسرِ

وباتَ رسولُ اللهِ في الغار آمِناً ... هناك وفي حفظِ الإله وفي سَترِ

ومع هذه العبارات الصريحة لا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الذي تدل قرائن كثيرة على خطأه، ويُحتمل ـ احتمالاً قوياً ـ اشتباهه وخطأه قد نشأ من تلخيصه لسيرة ابن اسحاق، وحيث أنه ـ ونعني ابن هشام ـ قد بنى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة، مهملاً ظرف النطق بها لعدم أهمية زمن النطق بها وأنها قيلت في الليلة الثانية أو الثالثة ـ في نظره ـ وروى الموضوع بنحو يوهم بأن جميع هذه الأمور وقعت في ليلة واحدة !!

---

(١) مثل مؤلّف الطبقات الكبرى ـ ج ١ ـ ص٢٢٧ – ٢٢٨ المولود عام ١٦٨ و المتوفى عام ٢٣٠، وكذا المقريزي في إمتاع الأسماع، عند ذكرهم لتفاصيل قضية المبيت .

(٢) الكامل في التاريخ : ج ٢ ـ ص ٧٢. وتاريخ الطبري : ج ٢ ـ ص ٩٩. والسيرة النبوية : ج ١ ـ ص ٤٨٣.

ويؤيد رأينا هذا أيضاً الحديث المعروف الذي رواه كثير من علماء السنة والشيعة وهو: **أن الله أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ أنّي قد آخيت بينكما وجعلت عُمْرَ أحدكما أطول من عمر صاحبه فأيكما يؤثر أخاه ـ وكلاهما كره الموت ـ؟ فأوحى الله إليهما: عبداي ألا كنتما مثل وليي علي؟ آخيت بينه وبين محمد نبيي فآثره بالحياة على نفسه؟ أو قال: قد نام على فراشه يقيه بمهجته. ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسة علي وحفظه من عدوه**[١].

وأما الدليل الثاني الذي يستفيد منه ابن تيمية أن علياً كان يعلم بمصيره: هو توصية النبي ﷺ له بأداء الأمانات والودائع إلى أهلها، التي كانت تكشف عن أن رسول الله ﷺ كان يعلم بأنه لن يصلَ إليه مكروه، ولهذا أمره بردّ الودائع والأمانات إلى أصحابها. ولكننا نعتقد أن في مقدورنا الحصول على حل لهذه المشكلة إذا استعرضنا بقية قصة الهجرة بشكل صريح وكامل[٢].

وسنقتصر نحن هنا على مقطع من بحث العلامة الشيخ جعفر السبحاني حول تفاصيل الهجرة، وسيتضح من خلاله مراده في الجواب التفصيلي، إذ قال حول فترة اختباء النبي مع أبي بكر في الغار: **(وكان يتردّد عليه ﷺ في هذه الأثناء علي عَلَيْهِ السَّلَامُ و هند بن أبي هالة ـ ابن خديجة ـ على رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبدالله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة راعي أغنام أبي بكر بناءً على رواية كثير من المؤرخين. يقول ابن الاثير: كان عبدالله بن أبي بكر يتسمَّع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلاً، وكان يرعى غنمه نهاره على مقربة من الغار، وكان إذا غدا من عندهما عفى على أثر الغنم.**

هند بن أبي هالة التميمي. كان أبو هالة حليفاً لبني عبد الدار بن قصي، واشتهر بكنيته، ونُسي اسمه حتى اختلفوا فيه: أ هو هند أو زرارة أم النباش. تزوج أبو هالة السيدة خديجة بنت خويلد قبل زواجها من النبي، فولدت له ولدين، هالة، وقد مات، والآخر هنداً وبقي على قيد الحياة. ولما تزوج النبي السيدة خديجة تربى هند في بيت النبي، وكان أخاً للسيدة الزهراء لأمها، ولذا روي عن الإمام الحسن قوله: (سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي...). كان هند بن أبي هالة فصيحًا بليغًا وصَّافًا، وصف الرسول فأحسن وأتْقَنَ، شهد مع الرسول بدرًا، وقيل بل شهد أُحدًا. واستشهد في معركة الجمل.

يقول الشيخ الطوسي في أماليه: عند ما دخل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وهند على رسول الله ﷺ في الغار. بعد الهجرة. أمر رسول الله ﷺ علياً أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبوبكر: قد كنتُ أعددتُ لي ولك. يا نبي الله. راحلتين نرتحلهما إلى يثرب. فقال رسول الله ﷺ: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. ثم أمر ﷺ علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ فدفع إليه ثمن البعيرين.

وكان من جملة وصايا رسول الله ﷺ لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ في الغار في تلك الليلة أن يؤدي أمانته على أعين الناس ظاهراً، وذلك بأن يقيم صارخاً بالأبطح غدوةً وعشياً: ألا من كان له قبل محمد أمانة أو وديعة فليأت فلنؤدِّ إليه أمانته. ثم أوصاه ﷺ بالفواطم. والفواطم هن: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ الحبيبة لديه والأثيرة

(١) المجلسي: بحارالأنوار. ج ١٩. ص ٣٩، نقلاً عن إحياء علوم الدين للغزالي.
(٢) السبحاني: سيد المرسلين. ج ١. ص ٥٩٧ ـ ٦٠٠.

عنده، وفاطمة بنت أسد أم علي عليه السلام وفاطمة بنت الزبير. ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه إلى يثرب وتهيئة ما يحتاجون إليه من زاد وراحلة، وهنا قال صلى الله عليه وآله عبارته التي تذرَّع بها ابن تيمية في دليله الأول: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم عليَّ. فالملاحظ للقارىء هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله إنما قال هذه العبارة عندما أمره بأداء أمانته، وذلك بعد انقضاء قضية ليلة المبيت، أي أنه أمر علياً بذلك، وقال له تلك العبارة وهو يتهيأ للخروج من غار ثور.

يقول الحلبي في سيرته: وصى رسول الله صلى الله عليه وآله في إحدى الليالي وهو بالغار علياً عليه السلام بحفظ ذمته وأداء أمانته ظاهراً على أعين الناس[١]. وثم ينقل عن مؤلف كتاب الدر ما يقتضي أنه اجتمع به عند خروجه من الغار.

وخلاصة القول: أنه مع رواية شيخ جليل سمن مشائخ الشيعة الإمامية كالشيخ الطوسي بالإسناد الصحيحة، أن الأمر بردّ الودائع والأمانات صدر من جانب النبي صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام بعد ليلة المبيت، لا يحقّ لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح، ونعمد إلى إلهاء العامة بالتوافه. وأما رواية مؤرخي أهل السنة هذا المطلب بشكل آخر يوحي ظاهرُه بأن جميع وصايا النبي صلى الله عليه وآله لعلي تمت في ليلة واحدة هي ليلة الهجرة. ليلة المبيت. فقابلٌ للتفسير والتوجيه، لأنه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركزة على رواية أصل الموضوع، ولم يكن لظرف صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها أهمية عندهم)[٢].

(١) الحلبي: السيرة الحلبية. ج ٢. ص ٣٥.
(٢) السبحاني: سيد المرسلين. ج ١. ص ٦٠١ - ٦٠٣

۞ عليٌّ يلتحق بالنبي:

بعد أن غادر النبي ﷺ غار ثور، اتجه نحو يثرب، حتى إذا وصل قرية قباء القريبة منها، استقر بها بانتظار قدوم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وبرفقته الفواطم، وكان يقول في رده على من كان يصرّ على الإسراع في الورود إلى المدينة المنورة: **فما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أمي وأخي، وابنتي - يعني علياً وفاطمة - ﷺ.**

أما الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أقام بمكة ثلاث ليال بأيامها، وكان يقف على مكان مرتفع في مكة - بكل شجاعة ودون تردد أو خوف في تلك الظروف الصعبة - وينادي قائلاً: من كان له قِبَل محمد أمانةٌ أو وديعةٌ فليأتِ فلنؤدّ إليه أمانته.

فكان يأتيه من له أمانة أو وديعة عند رسول الله، يذكر علامتها ويأخذها، فلما فرغ من أداء الأمانات والودائع، خرج بفاطمة بنت رسول الله وأمه فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب، وآخرين ممن لم يكن قد هاجر مكة حتى تلك الساعة، وتوجه بهم نحو المدينة ليلاً سالكاً بها طريقاً في منطقة ذي طوى.

وقد ذكر الشيخ محمد بن الحسن الطوسي في أماليه في هذا الصدد: إن جواسيس قريش عرفت بسفر علي مع تلك الجماعة فخرجوا لملاحقتهم، لغرض إعادتهم إلى مكة، فأدركوهم في ضجنان[١]، ووقع بين رجال قريش وبين علي تناوش وأخذٌ وردٌّ، ودنا الرجال من النسوة والمطايا ليثوّروها، فحال علي بينهم وبينها، ولم يجد عَلَيْهِ السَّلَامُ طريقاً إلا أن يدافع عن حرم الإسلام والمسلمين، فشدّ عليهم بسيفه شدَّة الأسد الغَضِب والليث الغيور وهو يقول مرتجزاً:

خَـلّـوا سـبـيـل الجـاهـد المـجـاهِـد ... آلـيـتُ لا أعـبُـد غَـيـرَ الـواحِـد

فلما وجدوا ما به من الجدّ والغضب خافوه وتفرّقوا عنه وقالوا بنبرة الخائف المتضرع: **احبس عنّا نفسك يا ابن أبي طالب.** فقال: **فإنّي منطلقٌ إلى ابن عمّي رسول الله ﷺ يثرب، فمن سرَّه أن أفري لحمه وأهريق دمه فليتبعني وليدنُ مني**[٢]. فتركه القومُ وعادوا من حيث أتوا، وواصل الركبُ رحلته باتجاه المدينة.

وقد روى ابن الأثير الجزري في أُسْد الغابة بسنده عن أبي رافع في هجرة النبي الأكرم ﷺ النص التالي، قال: (... **وأمر النبي ﷺ علياً أن يلحقه بالمدينة، فخرج علي في طلبه بعد ما أخرج إليه أهله، يمشي الليل ويكمن النهار، حتى قدم المدينة، فلما بلغ النبي ﷺ قدومه قال: ادعوا لي علياً. قيل: يا رسول الله لا يقدر أن يمشي. فأتاه النبي ﷺ، فلما رآه اعتنقه وبكى رحمةً لما بقدميه من الورم، وكانتا تقطران دماً، فتفل النبي ﷺ في يديه ومسح بهما رجليه، ودعا له بالعافية، فلم يشتكهما حتى استشهد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[٣].

۞ معركة بدر الكبرى:

- **ظروف المعركة:** معركة بدر من معارك الإسلام الكبرى والتي قررت مصير الدعوة النبوية، وأفرزت وضعاً جديداً في الجزيرة العربية، فبعد أن كانت هناك قوة واحدة، هي قوة قريش، أصبح المسلمون قوة أخرى منافسة

(١) حرة أي أرض بركانية شمال مكة، على مسافة ٥٤ كم على طريق المدينة المنورة.
(٢) الطوسي: الأمالي، ج٢، ص٨٤.
(٣) ابن الأثير: أسد الغابة - ج ٤ - ص ١٩.

ذات شأن، ويحسب لها الخصوم ألف حساب. وعلى صعيد الأفراد الذين شاركوا في المعركة، فإنهم فقد اكتسبوا منزلة خاصة بين المسلمين فيما بعد، فعُرفوا من خلالها بالبدريين. ولو دخلوا في أمر ما، قال المسلمون: ووافقنا عليه البدريون. وإذا أريد رفع شأن أحدهم قيل إنه كان من البدريين.

لم تكن بدر أول المواجهات بين قريش والمسلمين، فقد سبقتها عدة سرايا، كانت تستهدف تحقيق الأمن للمدينة من غزوات الأعراب وذوي الأطماع وبعض حلفاء قريش، وإضعاف التحالفات الأمنية والتجارية التي عقدتها قريش مع أطراف عديدة رغبةً منها في تشديد الحصار على المسلمين، وتضييق الخناق الأمني عليهم.. فحققت بعض تلك السرايا أهدافها، وتطوّرت الأمور وتعقيدات وتبعات الموقف بين الطرفين إلى أن خرجت قافلة قريش التجارية من مكة إلى الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ في منتصف جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، فخرج وأمر المسلمين بالخروج معه، لملاحقة تلك القافلة.

وفي ذات العشيرة[١]، اكتشف المسلمون أن القافلة قد فاتتهم، فعادوا إلى المدينة، وكلّف النبي أحد المسلمين بتتبع مسار القافلة في طريق عودتها، ورصد أحوالها وعدد المرافقين لها، فجاءه النبأ لاحقاً بأنها تتكون من ألف بعير، ببضاعة تربو على خمسين ألف دينار من الذهب، وبرفقة أربعين شخصاً فقط.

ولما اقترب موعد عودة القافلة من الشام، خرج النبي ﷺ من المدينة وأمر بأن يخرج معه كل من يستطيع من

(١) ذات العشيرة منطقة بين مكة والمدينة قريبة من ينبع جهة البحر الأحمر.

المسلمين، وقال: (**هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم، لعل الله يغنمكموها**)[١]. فلم يخرج معه سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: إثنان وثمانون من المهاجرين، ومائة وسبعون من الخزرج، وواحد وستون من الأوس، يمتطون سبعين بعيراً وثلاثة أفراس، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، فاتجه نحو ساحل البحر الأحمر حيث طريق القوافل التجارية، وقد عقد اللواء في بدء تحركه.

ولكن عند البحث حول شخصية حامل لواء المسلمين في هذه المعركة ـ بل وفي معارك أخرى ـ نجد اختلافاً بين المؤرخين، تارة من جهة تحديد الشخصية، وتارة من حيث عدد الألوية.

فقد روى ابن هشام عن محمد بن إسحاق قوله: (**ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار. قال ابن هشام: وكان أبيض**). وقال: (**وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، يقال لها: العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار**)[٢]. بينما ذكر ابن هشام لاحقاً ـ وبرواية أخرى ـ أن راية الأنصار كانت مع سعد بن معاذ.

أما الواقدي فقد ذكر أن الألوية كانت متعددة، قال: (**عقد رسول الله ﷺ الألوية، وهي ثلاثة، وأظهر السلاح، وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود**)[٣]. في الوقت الذي اعتبر فيه بعض الباحثين أن اللواء كان واحداً وبيد الإمام علي عليه السلام كما هو الحال في سائر الغزوات، فعن ابن عباس قال: (**لعلي بن أبي طالب عليه السلام أربع ما هن لأحد: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﷺ، وهو صاحب لوائه في كل زحف، وهو الذي ثبت معه يوم المهراس وفر الناس، وهو الذي أدخله قبره**)[٤]. وعن سعد بن أبي وقاص مستنكراً سب علي عليه السلام في ضمن كلام له: (**ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ في غزواته؟**)[٥].

وكما كان المسلمون بانتظار عودة القافلة، كان أبو سفيان يتوجس خوفاً من حدوث ذلك، ولذا فقد أرسل الرصَد ليأتوا إليه بالأخبار، ويكثر السؤال من الأعراب وممن يلقاهم في الطريق فيما لو أنهم شاهدوا محمداً قد كمن له في مكان ما.

وفي إحدى المنازل أحس أبوسفيان بالخطر يقترب منه، فأحجم عن الاقتراب إلى منطقة بدر حيث اعتادت القوافل أن تستقي الماء من آبارها، ولم ير بُدّاً من أن يخبر قريشاً ويطلب مساعدتهم، فاستأجر رجلاً يُدعى ضمضم بن عمرو الغفاري، وأمره بأن يجدع بعيره[٦]، ويحوّل رَحْله[٧]، ويشقَّ قميصَه من قُبُله وَ دبُره ويصيح: الغوث! الغوث! ويخبر قريشاً أن محمداً تعرّض لتجارتهم.

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص٩.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٦٣٥.
(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨.
(٤) الخوارزمي: المناقب، ص ٢١-٢٢.
(٥) النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص٥٠٠.
(٦) الجدع: قطع الأنف.
(٧) أي يجلس على بعيره بصورة مقلوبة، بحيث يواجه خلف البعير لا عنقه ورأسه.

أثار هذا المنظر أهل مكة، فتجهّزوا سراعاً، وتهيّأوا للخروج، وأعدَّ كل صناديد قريش ورجالها المقاتلون أنفسهم للتحرك نحو المدينة إلا أبولهب الذي لم يشترك في هذا الخروج، وأرسل مكانه العاصي بن هشام لقاء أجر قدرُه أربعةَ آلاف درهم.

مضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان على مشارف بدر، أتاه الخبر أن قريشاً قرَّرت المضي في مسيرها بهدف المواجهة المسلحة، فكشف النبيُّ ﷺ الأمرَ لأصحابه، واستشارهم في القرار، إما المواجهة، وإما العودة. والمشهور أن هذه المشورة جاءت بالنظر إلى أن المسلمين لم يخرجوا أساساً للحرب ومواجهة قريش، وإنما لاعتراض القافلة. إلا أن بعض الشواهد التاريخية تخالف هذا الرأي وتميل بنا إلى القول بأن المسلمين قد خرجوا أساساً واحتمال المواجهة العسكرية قائم، وقد منّى بعضهم نفسَه الشهادة وتخلّف البعض خوفاً من القتل في ساحة المعركة، وأن هذه المشورة النبوية جاءت بعد أن بات الأمر شبه محسوم، فأراد أن يختبر أصحابه ويتأكد من مصداقيتهم واستعدادهم للقتال.

وعلى العموم، فقد توجه النبي ـ بحكمته ـ نحو أصحابه، عارضاً عليهم الأمر، فقال: **أشيروا عليّ أيّها الناس.**

قام أبو بكر وقال: **يا رسول الله إنّها قريش وخيلاؤُها، ما آمنَت منذ كفرَت، ولا ذلَّت مُنذ عزّت، ولم نخرج على أهبة الحرب .**

فأعرَض عنه النبي وقال له: **اجلس.**

ثم قام عمر بن الخطاب وكرّر نفس مقالة أبي بكر، فأمره النبي ﷺ بالجلوس أيضاً.

ثم قام المقداد بن عمرو وقال: **يا رسولَ الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: اذهَب أنتَ وربُّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا، وإنا مَعكُما مُقاتلون. فو الذي بعثكَ بالحقِّ، لو سرتَ إلى بِرَك الغماد، لجالَدنا** [1] **معك من دونه حتى تبلغَه، ولو أمرتنا أن نخوضَ جَمر الغضا وشوكَ الهراس** [2] **لخضناه معك .**

برك الغماد من المواقع التهامية المعروفة، وكان لموقعها على الطريق بين مكة واليمن أهمية اقتصادية وحربية كبيرة، اُعتُني بتحصينها وتسويرها منذ وقت مبكر. وقد ذكره المقداد لبعده عن المدينة بقرابة ١٠٠٠ كم، أي أن الوصول إليه من الصعوبة بمكان. والمنطقة تُعرف حالياً بـ «البرك» وهي تابعة لمنطقة عسير على طريق الساحل الغربي على شاطئ البحر الأحمر.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به. ثم أعاد رسول الله قوله: **أشيروا عليّ أيها الناس.** وهو يريد الأنصار.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري وقال: **والله لكأنك يا رسول الله تريدنا ؟**

فقال النبي: **أجل.**

فقال سعد: **بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله، إنا قد آمنّا بكَ وصدّقناك وشهدنا أن ما جئتَ به حق مِن عندالله،**

(١) جالد: قاتل.
(٢) جمر الغضا : النار المتقدة . شوكَ الهراس: شجر كبير الشوك.

وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردتَ فنحنُ معك. فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجلٌ واحد، وما نكرهُ أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبرٌ في الحرب، صدْقٌ في اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك. فسر بنا على بركة الله، وصل مَن شئت، واقطعْ من شئتَ، وخُذ من أموالنا ما شئت، و ما أخذتَ من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركتَ.

سرّ رسول الله بقول سعد ونشّطه ذلك، وأزال سحابة اليأس من النفوس، وأشعل ضياء الأمل في القلوب. وقد أشار القرآن الكريم إلى تخوف بعض المسلمين من مواجهة العدوّ في هذه الموقعة إذ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**﴾[١]

ولهذا لم يكد يفرغ ذلك الأنصاري الشجاع من مقولته البطولية إلا وأصدر رسول الله ﷺ أمْره بالرحيل نحو بدر قائلاً: **سيروا على بركة الله وأبشروا، فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده، والله لكأني الآنَ أنظُر إلى مصارع القوم.**

- **ظروف المعركة:** مع حلول ليلة الجمعة وهي ليلة السابع عشر من شهر رمضان، نزل النبي ﷺ ومَن معه من المسلمين وادي بدر، فبعث الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وبَسبَس بن عمرو طلباً للماء في ذلك الموقع، مع أخذ الحيطة في ذلك خوفاً من وجود المشركين عنده، فاندفع الأربعة، فإذا عددٌ من عبيد قريش يستقون الماء من القليب، وسرعان ما فرّ بعضهم ووقع ثلاثة آخرون في يد المسلمين.

أُخِذ الثلاثة إلى النبي ﷺ فاستجوبهم: **أين قريش؟**

قالوا: **خلف هذا الكَثيب الذي ترى.**

قال: **كم هي؟**

قالوا: **كثير.**

قال: **كم عددها؟**

قالوا: **لا ندري كم هم.**

قال: **كم ينحرون؟**

قالوا: **يوماً عشرة، ويوماً تسعة.**

قال: **القوم ما بين الألف والتسعمائة.**

ثم قال رسول الله ﷺ للسُّقاء: **مَن خرج من مكة؟**

قالوا: **لم يبقَ أحدٌ به طعم**[٢] **إلا خرج.**

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: **هذه مكة، قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**[٣].

---

(١) سورة الأنفال: ٥-٦.

(٢) طعم: عقل وحزم.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩.

لم تكن الظروف مواتية لصالح المسلمين من حيث العدة والعدد ـ كما لاحظنا ـ ومن حيث موقع مخيم المسلمين، كونهم قد استقروا على أرض رخوة لا تساعدهم على الحركة بالصورة المطلوبة خلال المعركة، وبُعد آبار الماء عنهم. إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ أراد بمشيئته أن ينصر هذه الثلة الصابرة، ويعز الإسلام وأهله، وينزل بالكافرين العذاب والهوان، وما هي إلا ساعات حتى أمطرت السماء مطراً غزيراً فأصاب قريشاً منه ما حول أرض معسكرهم إلى وحول زلقة، بينما لم يُحدِث المطر أي مشكلة في الموقع الذي استقر فيه المسلمون، بل كان بحيث لبّد الأرض حتى ثبتت أقدامهم.

عن ابن عباس: (**أن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغَلبوا المؤمنين عليه ، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يُصلّون مُجنبين مُحدثين، حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب رسول الله ﷺ، فأنزل الله من السماء ماءً حتى سال الوادي، فشرب المسلمون، وملئوا الأسقية، وسقوا الرِّكَاب[١]، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثبَّت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رَملة، فبَعث الله عليها المطر، فضربها حتى اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدام**)[٢].

وفي تفسير القرطبي رواية تدل على أن الشك دخل في قلوب بعض المسلمين بسبب عدم توفر الماء لديهم وتوفره عند المشركين: (**حكى الزجاج : ... فقال بعضهم ـ في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم ـ : نزعُم أنّا أولياء الله، وفينا رسوله، وحالُنا هذه، والمشركون على الماء؟ فأنزل الله المطر**)[٣].

(١) الركاب: الإبل المركوبة.
(٢) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ح ١٥٧٧١.
(٣) القرطبي: تفسير القرآن العظيم، في تفسير الآية ١١ من سورة الأنفال.

وألقى الله النعاس على المسلمين لينامو ليلتهم العصيبة تلك براحة وطمأنينة، بعيداً عن أجواء القلق الذي لابد وأن يساورهم في مثل تلك الظروف، ولينشطوا في صبيحة يوم المعركة فيكون قتالهم بعيداً عن كثير من المؤثرات النفسية السلبية وإجهاد السهر والهم. ثم جاءت البشرى على لسان النبي الكريم الذي أخبرهم بالمدد الإلهي... خمسة آلاف من الملائكة مردفين متتابعين، نزلوا ليثبّتوا المؤمنين، وليوحوا لهم بالنصر المؤزّر والقريب.

ولم يقتصر المدد الإلهي على ذلك، فقد رأى النبي رؤيا تدل على قلة عدد المشركين وضعفهم، وانعكس تأثيرها على نفوس المسلمين بالإيجاب، كما ألقى الله في نفوس المسلمين حالة من الطمأنينة من خلال تقليل عدد المشركين في أعينهم، قال الله: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾ إلى قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ **إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾[١].

• **ودقت طبول الحرب** : في صبيحة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، تواجه الطرفان، وكان التقليد المتبع عند العرب في الحروب أن يبدأ القتال بالمبارزات الفردية ثم تقع بعدها المعركة الشاملة. ولذا فقد خرج ثلاثة فرسان من صناديد قريش المعروفين من صفوف الجيش المكي ودعوا إلى المبارزة، وهؤلاء الصناديد الثلاثة هم: شيبة بن ربيعة وأخوه عتبة وابنه الوليد بن عتبة[٢]. فأخذوا يجولون في ميدان القتال ويدعون إلى المبارزة، فخرج إليهم من المسلمين فتيةٌ من الأنصار ثلاثة وهم: عوف و معوذ ابنا الحارث، وعبدالله بن رواحة. ولما عرف عتبة أنهم من الأنصار قال: **ما لنا بكم من حاجة.**

ثم نادى مناديهم: **يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.**

فقال رسول الله ﷺ: **قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة، وقم يا علي.**

فقاموا وخرجوا للمبارزة، ولما دَنوا منهم، سألهم عتبة عن أسمائهم فعرّفَ أبطال الإسلام أنفسهم وذكروا أسماءهم. فقال رجال المشركين الثلاثة: **نعم أكفاء كرام.**

وقد ذكر بعض المؤرخين أن كل واحد من المسلمين بارز مَن هو في مثل سنه من المشركين، ولذا بارز عليٌّ الوليد، وبارز حمزةُ عتبة، وبارز عبيدةُ شيبة. ومنهم كابن هشام ذكر أن حمزة بارز شيبة وليس عتبة.

وقال عتبة لابنه: **قم يا وليد.** فقام الوليد، وقام إليه علي، فاختلفا ضربتين، أخطأت ضربة الوليد علياً حيث حاد عنها، وضربه عليٌّ على حبل عاتقه الأيسر فأخرج السيف من إبطه، ثم ضربه ضربة أخرى فصرعه في الحال. ثم

(١) سورة الأنفال: ٩-٤٤.
(٢) عتبة هو والد هند أم معاوية بن أبي سفيان ، والوليد أخو هند وخال معاوية .

قام عتبة وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين، فقتله حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ثم قام شيبة و قام إليه عبيدة، فضرب شيبة رِجل عبيدة بذباب السيف[١]، فأصاب عضلة ساقه فقطعها، وكرّ حمزة وعلي على شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة، فحازاه إلى الصف، ومخ ساقه يسيل.

ولابن أبي الحديد التفاتة هنا حيث علّق على الخبر السابق مبيّناً وجود نص آخر يختلف في تحديد ترتيب المتبارزين وما جرى، قال: (**وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارز عبيدة بن الحارث، و أن شيبة بارز حمزة بن عبد المطلب، فقتل حمزة شيبة لم يمهله أن قتله، ولم يُمهل عليٌّ الوليدَ أن قتلَه، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبتَ صاحبَه، وكرَّ حمزةُ وعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ على عتبة بأسيافهما حتى وقعا عليه، و احتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف. قلت: وهذه الرواية توافق ما يذكره أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلامه إذ يقول لمعاوية: وعندي السيف الذي أعضضت به أخاك وخالك وجدّك**[٢] **يوم بدر. و يقول في موضع آخر: قد عرفتَ مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك، وما هي من الظالمين ببعيد**)، وبعد أن استعرض أدلة تؤيد الوصف الأول لمجريات الأحداث قال: (**والأمر عندي مشتبه في هذا الموضع**)[٣].

وفي خبر ثالث أن حمزة وخصمه تبارزا حتى انثلمت سيوفهما من شدة الضرب، ثم اعتنقا، فصاح المسلمون: **يا علي، أما ترى الكلب قد بهر**[٤] **عمك حمزة؟**

فتقدم علي وصاح: **يا عم، طأطئ رأسك.**

وكان حمزة طويلاً، فأدخل رأسه في صدر خصمه، فبادره الإمام علي بضربة أطارت نصف رأسه، ولذا ـ بحسب هذا الخبر ـ فقد كان لعلي نصيب في قتل الثلاثة كما أشارت إلى ذلك بعض النصوص، ومن بينها ما ورد عن أبي جعفر الإسكافي المعتزلي شيخ ابن أبي الحديد المعتزلي من أن هنداً قالت[٥]:

ما كان لي عن عتبة من صبر ... أبي ، وعمي ، وشقيق صدري
أخي الذي كان كضوء البدر ... بهم كسرت يا علي ظهري

وقال الشاعر السيد الحميري المعاصر للإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ وذلك في مدح أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ [٦]:

وله ببدر وقعة مشهورة ... كانت على أهل الشقاء دمارا
فأذاق شيبة والوليد منيّة ... إذ صبحاه جحفلا جرارا

---

(١) ذباب السيف: حد طرفه الذي بين شفرتيه.
(٢) أما الأخ فهو حنظلة بن أبي سفيان، وأما الخال فالوليد بن عتبة، وأما الجد فعتبة بن ربيعة.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٣١-١٣٢.
(٤) بهر: غلب.
(٥) ابن أبي الحديد : شرح النهج للمعتزلي ج ١٣ ص ٢٨٣ ، والعثمانية ، قسم نقوض الإسكافي ص ٤٣٢ .
(٦) الحميري: ديوان السيد الحميري ص ٢١٥.

وأذاق عتبة مثلها أهوى لها ... عضبا صقيلا مرهفا بتارا

ويدل على ذلك أبيات من الشعر لرجل من بني عامر قال فيها[١]:

ببدر خرجتم للبراز فردّكم ... شيوخ قريش جهرة وتأخروا
فلما آتاهم حمزة وعبيدة ... وجاء علي بالمهنّد يخطر
فقالوا: نعم أكفاء صدق فأقبلوا ... إليها سراعاً إذ بغوا وتجبّروا
فجال عليٌّ جولة هاشمية ... فدمرهم لما بغوا وتكبروا

وقد كتب الإمام علي عليه السلام في رسالة له لمعاوية: **فأنا أبو الحسن حقاً، قاتل جدك عتبة، وعمك شيبة، وخالك الوليد، وأخيك حنظلة، الذين سفك الله دماءهم على يدي في يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي**[٢].

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال: **شاهَتِ الوُجُوه**. ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه ببدء القتال العام، فقال: **شدّوا**.

ولم يمض وقتٌ طويل حتى ظهرت بوادر انتصار المسلمين على أعدائهم المشركين، فقد انتابَ المشركين خوفٌ ورعبٌ شديدان، وأخذوا ينهزمون أمام زحف المسلمين الذين كانوا يقاتلون عن إيمان وإخلاص، ويعلمون بأنهم ينالون السعادة قَتَلوا أو قُتِلُوا، فلم يرهبُوا شيئاً، وما كان يمنعهم شيء عن التقدم والإقبال.

وكانت للإمام علي عليه السلام بطولة قلّ لها نظير، إذ أخذ يجندل أبطال المشركين الواحد تلو الآخر، وأقبل حنظلة بن أبي سفيان فلما دنا من الإمام ضربه ضربة بالسيف فسالت عيناه ولزم الأرض قتيلاً. وأقبل العاص بن سعيد بن العاص الأموي، فبارزه علي فقتله بعدما أحجم عنه غيره.

روى الواقدي في مغازيه أنه لما رأت بنو مخزوم مقتل من قُتل قالوا: **أبوالحكم لا يُخلص إليه** ـ يعنون

يذكر في التاريخ أن سعيداً ابن العاص هذا دخل على الخليفة عمر بن الخطاب في خلافته فجلس ناحية، قال سعيد: فنظر إليّ عمر وقال: ما لي أراك كأن في نفسك علي شيئاً ؟ أتظن أني قتلت أباك ؟ والله لوددت أني كنت قتلته، ولو قتلتُه لم أعتذر من قتل كافر، ولكني مررت به يوم بدر فرأيته يبحث للقتال كما يبحث الثور بقرنه، فهبتُه ورُغت عنه، فقال لي: إلى أين يا ابن الخطاب ؟ وصمَدَ له عليٌّ فتناوله، فوالله ما رمت مكاني حتى قتله . وكان عليٌّ حاضراً في المجلس فقال: اللهم غفراً، ذهب الشرك بما فيه ومحا الاسلام ما تقدم، فما لك تهيّج الناس علي ؟ فكفّ عمر. فقال سعيد: أما إنه ما كان يسرني أن يكون قاتل أبي غير ابن عمه علي بن أبي طالب.

(١) ابن شهرآشوب : المناقب ـ ج ٣ ـ ص ١١٩.

(٢) ابن أعثم : الفتوح ـ ج ٢ ـ ص ٤٣٥ . ولكن جاء في نص نهج البلاغة هكذا : فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوي ... وعليه فلم يرد ذكر لشيبة عم هند بنت عتبة .

أبا جهل . . فأحدقوا به وألبسوا لامته عبدَالله بن المنذر، فصمد له عليٌّ فقتله وهو يتصور أنه أبوجهل، ومضى وهو يقول: **أنا ابن عبد المطلب !** ثم ألبسوها حرملة بن عمرو، فصمد له عليٌّ فقتله.

كان نوفل بن خويلد من بني أسد بن عبد العزى القرشي، أخا السيدة خديجة، ومن فرسان قريش المعدودين، ويلقب بأسد قريش، وكانت قريش تقدّمه وتعظمه وتطيعه، وكان شديد الأذى على المسلمين.

وقال رسول الله: **اللهم اكفني نوفل بن خويلد.**

فأسره جبار بن صخر، ورأى علياً مقبلاً نحوه فقال لجبار: **من هذا ؟ واللات والعزى إني لأرى رجلاً يريدني.** قال : **هذا علي بن أبي طالب.** فصمد له علي فضربه فنشب سيفه في حجفته فزعّه[١]، وضرب به ساقيه فقطعهما، ثم أجهز عليه فقتله. فقال رسول الله: **مَن له علم بنوفل بن خويلد؟**

قال علي: **أنا قتلته.**

فكبّر رسول الله وقال: **الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه.**

وروى محمد بن إسحاق أن طعيمة بن عدي قتله علي بن أبي طالب، شجَرهُ بالرمح[٢]، فقال: **والله لا تخاصمنا في الله بعد اليوم أبداً.**

تنافس سعد بن خيثمة الأوسي مع أبيه في الخروج إلى بدر، فقال سعد لأبيه: (إنه لو كان غير الجنة آثرتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا) فقال الأب: (آثرني، وقُر مع نسائك). إلا أن سعداً أصر على الخروج فقال له أبوه: (إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم). فلجأ الأب وابنه إلى القرعة، فكانت لصالح سعد.

أما الواقدي فقد روى أن علياً عليه السلام كان يحدّث فيقول: إني يومئذ بعد ما متع النهار[٣]، ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم، خرجتُ في أثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل، وسعد بن خيثمة، وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة، والمشرك مقنّع في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه فعرفني وهو مُعلِم[٤] فناداني: **هلم يا ابن أبي طالب إلى البراز !** فعطفت عليه، فانحط إليّ مقبلاً وكنت رجلاً قصيراً، فانحططت راجعاً لكي ينزل إليّ، كرهت أن يعلوني، فقال: **يا ابن أبي طالب فررت؟**

فقلت: **قريباً مفرُّ ابن الشتراء**[٥].

فلما استقرت قدماي وثبتت، أقبل، فلما دنا مني ضربني، فاتقيت بالدرقة، فوقع سيفه فلحج[٦]، فأمرّ به على

---

(١) الحجف: الترس المصنوع من الجلد . والزع : التحريك.

(٢) شجره بالرمح: طعنه به.

(٣) متع انهار: ارتفع.

(٤) معلم: وضع علامة كريشة مثلاً للدلالة على أنه من الأبطال.

(٥) مثل يضرب للتراجع قليلاً بهدف الهجوم المباغت ، وابن الشتراء رجل كان يصيب وكان يأتي الرفقة فيدنو منهم حتى إذا هموا به نأى قليلاً ثم عاودهم حتى يصيب منهم غرة ، فضرب به المثل .

(٦) لحج: نشب وعلق.

عاتقه وهو دارع فارتعش، ولقد قط سيفي درعه، فظننت أن سيفي سيقتله، فإذا بريق سيف من ورائي فطأطأت رأسي ويقع السيف، فأطنّ قحف رأسه بالبيضة وهو يقول: **خذها وأنا ابن عبد المطلب**. فالتفتّ من ورائي فإذا هو عمي حمزة، والمقتول طعيمة بن عدي.

ويبدو أن المعركة لم تدم إلا سويعات، ففي الخبر أن انهزامهم وهروبهم الكبير تمَّ حين زالت الشمس، أي عند الظهر لا أكثر. ولشدة هول ما نزل بالمشركين وانهيارهم النفسي، تمنَّى بعض المشركين أن تغيب الشمس ويدخل الليل لتنتهي المواجهة، وصاروا يفرون في كل اتجاه خلاصاً بأنفسهم من هول ما نزل بهم في ذلك اليوم.

- **القول فيمن قتلهم علي ببدر:**

وبذا انتهت المعركة بنصر عظيم للمسلمين، خسر فيها المشركون سبعين قتيلاً، بينهم أكثر من عشرين من قادتهم، كما وقع في أسْر المسلمين سبعون محارباً، بينهم بعض زعماء المشركين. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾[1]. ومن أهم أسماء القتلى:

عتبة بن ربيعة من بني عبد شمس.. «اشترك في قتله علي»

الوليد بن عتبة من بني عبد شمس.. «قتله علي»

شيبة بن ربيعة من بني عبد شمس

العاص بن سعيد من بني عبد شمس.. «قتله علي»

عقبة بن أبي معيط من بني عبدشمس.. «أعدِم بعد الأسر»

طعيمة بن عدي من بني نوفل.. «قتله علي»

زمعة بن الأسود من بني أسد.. «اشترك في قتله علي»

الحارث بن زمعة من بني أسد

نوفل بن خويلد من بني أسد.. «قتله علي»

العاص بن هشام.. من بني أسد

النضر بن الحارث من بني عبد الدار «قتله علي» بعد أسره

أبوجهل: عمرو بن هشام.. من بني مخزوم

أمية بن خلف الجُمحي

وقد اختلف المؤرخون في عدد من قتلهم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده في المعركة، فقيل أنهم كانوا ستة وثلاثين رجلاً، برواية الطبرسي في «إعلام الورى»، وقيل بل كانوا خمسة وثلاثين برواية المفيد في «الإرشاد»، وقيل أنهم كانوا اثنين وعشرين، برواية الواقدي في «المغازي»، وقيل أن عددهم واحد وعشرون، برواية الشبلنجي في «نور الأبصار».

(١) سورة آل عمران: ١٢٣.

قال الشيخ المفيد: (وقد أثبت رواة العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك فكان ممن سموه:

١. الوليد بن عتبة، وكان شجاعاً جريئاً وقاحاً تهابه الرجال

٢. العاص بن سعيد بن العاص، وكان هولاً عظيماً تهابه الأبطال، وهو الذي حاد عنه عمر كما مر

٣. طعيمة بن عدي بن نوفل، وكان من رؤوس أهل الضلال

٤. نوفل بن خويلد ، وكان من أشد المشركين عداوة لرسول الله ﷺ، وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطيعه

٥. زمعة بن الأسود

٦. الحارث بن زمعة

٧. النضر بن الحارث بن عبد الدار

٨. عمر أو عمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحة بن عبيد الله

٩ و ١٠. عثمان ومالك إبنا عبيد الله أخو طلحة بن عبيد الله

١١. مسعود بن أمية بن المغيرة

١٢. قيس بن الفاكه بن المغيرة

١٣. حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة

١٤. أبو قيس بن الوليد بن المغيرة

١٥. حنظلة بن أبي سفيان

١٦. عمر بن مخزوم

١٧. أبو المنذر بن أبي رفاعة

١٨. منبه بن الحجاج السهمي

١٩. العاص بن منبه

٢٠. علقمة بن كلدة

٢١. أبو العاص بن قيس بن عدي

٢٢. معاوية بن المغيرة بن أبي العاص

٢٣. لوذان بن ربيعة

٢٤. عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة

٢٥. مسعود بن أمية بن المغيرة

٢٦. حاجب أو حاجز بن السائب بن عويمر

٢٧. أوس بن المغيرة بن لوذان

٢٨. زيد بن مليص

٢٩. غانم بن أبي عوف

٣٠. سعيد بن وهب حليف بني عامر

٣١. معاوية بن عامر بن عبد القيس

٣٢. عبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد

٣٣. السائب بن مالك

٣٤. أبو الحكم بن الأخنس

٣٥. هشام بن أبي أمية بن المغيرة.

فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين فيه غيره)[١].

وعلق العلامة الأمين على كلام المفيد بقوله: (ولكنه عدّ مسعود بن أمية بن المغيرة مرتين فلذلك بلغوا خمسة وثلاثين وإلا فهم أربعة وثلاثون كما ترى، وبعضهم عدّ معهم عيسى بن عثمان فيكونون بذلك خمسة وثلاثين، وهو نصف المقتولين الذين كانوا سبعين قتيلاً، كل هذا ولم يتجاوز الخمسة والعشرين عاماً على الأكثر، ولم يزد عن العشرين على الأقل)[٢].

أما الشيخ علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي الشهير بابن الصباغ في الفصول المهمة فقد قال: (فكان عدة من قتل علي كرم الله وجهه من مقاتلة المشركين على ما قيل في المغازي أحداً وعشرين قتيلاً، منهم من اتفق الناقلون على انفراده بقتله وهم تسعة: وليد بن عتبة بن ربيعة خال معاوية بن أبي سفيان قتله مبارزة، وكان شجاعاً جرياً فتاكاً وقاحاً تهابه الأبطال، والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية، وكان هولاً عظيماً من الرجال المعدودين، وعامر بن عبد الله، ونوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكانت قريش تقدّمه وتعظمه. ولمّا عرف رسول الله ﷺ حضوره سأل الله أن يكفيه أمره، فقتله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسعود بن أمية بن المغيرة، وأبو قيس بن فاكهة، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، والعاص بن منتبه بن الحجاج، وحاجب بن السائب. وأما الذين شاركه في قتلهم غيره فهم أربعة: حنظلة بن أبي سفيان بن حرب أخو معاوية، وعبيدة بن الحارث، وربيعة، وعقيل ابنا الأسود بن المطلب. وأما المختلَف فيهم فسبعة وهم: طيعم بن عدي بن نوفل، وكان من رؤوس أهل الضلال، وعمر بن عثمان بن عمر، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن قيس، وأوس بن الجمحي، وعقبة بن أبي معيط، ومعاوية بن عامر. فهذه عدة من قتله علي كرم الله وجهه يوم بدر، وأجمع أهل الغزوات على أن عدة من قُتل من مقاتلة المشركين يوم بدر سبعون رجلاً)[٣].

قال ابن أبي الحديد: (... وقد عرفت أن أعظم غزاة غزاها رسول الله ﷺ وأشدها نكاية في المشركين بدر الكبرى، قُتل فيها سبعون من المشركين، قَتل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ نصفهم، وقتل المسلمون والملائكة النصف الآخر، وإذا

(١) المفيد: الإرشاد - ص ٧١-٧٢.
(٢) الأمين: أعيان الشيعة - ج ١ - ص ٣٨٤.
(٣) ابن الصباغ: الفصول المهمة - ص ٣٥.

رجعت إلى مغازي محمد بن عمر الواقدي وتاريخ الأشراف ليحيى بن جابر البلاذري وغيرهما علمت صحة ذلك، دع من قتله في غيرها كأحد والخندق وغيرهما، وهذا الفصل لا معنى للإطناب فيه لأنه من المعلومات الضرورية كالعلم بوجود مكة ومصر ونحوهما)[١]. ونتيجة لهذا الدور الحاسم للإمام علي عليه السلام في المعركة قال المجلسي: **(الكفار كانوا يسمونه الموت الأحمر، سموه يوم بدر لعظم بلائه ونكايته)**[٢].

وفيما صنعه أمير المؤمنين عليه السلام ببدر قال أسيد بن أبي إياس بن وثيم، يحرّض مشركي قريش عليه ويعيرهم به:

في كل مجمع غاية أخزاكم	جذع أبرّ على المذاكي القرّح
لله دركم ألما تنكروا	قد ينكر الحر الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم	ذبحاً وقتلة قصعة لم يذبح
أعطوه خرجاً واتقوا تضريبه	فعل الذليل وبيعة لم تربح
أين الكهول وأين كل دعامة	في المعضلات وأين زين الأبطح
أفناهم قصعاً وضرباً يفتري	بالسيف يعمل حده لم يصفح

أما الغنائم ففي الخبر: **(وكانت الإبل التي أصابوا يومئذٍ مائة بعير وخمسين بعيراً، وكان معهم أدمٌ كثير حملوه للتجارة، فغنمه المسلمون يومئذٍ... وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفراس، وأصابوا لهم سلاحاً)**[٣].

منبه بن الحجاج السهمي القرشي، أحد رؤساء الكفر في مكة. كان يؤذي النبي ويستهزئ به كثيراً. قتله الإمام علي في بدر وغنم سيفه.

وقد اختار النبي صلى الله عليه وآله سيف ذا الفقار نافلة له من بين تلك الغنائم، وكان السيف لمنبه بن الحجاج، وسيهديه لعلي بعد ذلك. واختلف الرواة هل كان مع النبي سيف قبل ذلك؟ ففي رواية أنه قد غزا بسيف وهبه له سعد بن عبادة يقال له العضب، ودرعه ذات الفضول. وفي رواية أخرى أنه خرج يوم بدر وما معه سيف. وكان أول سيف تقلّده سيف منبه بن الحجاج.

- **ما بعد المعركة:**

أمر رسول الله يوم بدر بالقُلُب أن تُغوَّر[٤] ثم أمر بالقتلى، فطُرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف، فإنه كان سميناً، وقد انتفخ زيادة بعد موته، فلما أرادوا أن يلقوه تهتَّك لحمه، فأمرهم النبي أن يتركوه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد طاف بقتلى المشركين وهم مصرَّعون، وأبو بكر يخبره بهم رجلاً رجلاً، ورسول الله يحمد

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. ج ١. ص ٨، علماً بأن من الخطأ القول بأن الملائكة قد قاتلت في المعركة أو قتلت أحداً، فهل كان المشركون بحاجة إلى ٥٠٠٠ ملك كي يُهزَموا؟ ألم يكن بإمكان ملك واحد أن يقضي عليهم؟ من الواضح أن نزول الملائكة كان عنصراً معنوياً في المعركة.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٦٢.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٧.

(٤) أي أن تملأ الآبار بالتراب والحجارة لمنع خروج الماء منها، ويرتفع عمقها.

الله ويشكره ويقول: (**الحمد لله الذى أنجز لي ما وعدني، فقد وعدني إحدى الطائفتين**). ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً: (**يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. بئس القوم كنتم لنبيكم. كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس. فقالوا: يا رسول الله، أ تنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال: لقد علموا أنَّ ما وعدهم ربهم حق**).

وروى ابن أبي الحديد عن ابن إسحاق في كتاب المغازى قوله: (**أن عائشة كانت تروي هذا الخبر، وتقول: فالناس يقولون إن رسول الله ﷺ قال: لقد سمعوا ما قلت لهم. وليس كذلك، إنما قال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق**)[١].

كان الوضع القائم يوم بدر يستدعي عدم الإبقاء على المشركين في ساحة المعركة أثناء القتال، وعدم السعي لأسر أحد منهم، وقد أمرهم النبي ﷺ بذلك بشكل واضح، ولذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٢].

إلا أن من المسلمين الذين شاركوا في المعركة خالفوا ذلك، طمعاً في الحصول على الفداء، ليستفيدوا به في تقوية أنفسهم من الناحية المادية، وليعوّضوا جزءً مما فقدوه بسبب الهجرة من ديارهم، والآية السابقة تندّد بذلك. وتلك نقطة ضعف سجَّلها الله عليهم، لأن المقاتل الذي يشعر بخطورة القوة الكبرى المهيمنة على شؤون الناس بالظلم والسيطرة، لا يعيش في المعركة هاجس النفع المادي، بقدر ما يعيش هاجس القضاء عليها، بالقضاء على كل رموزها لئلا تكون فتنة ويكون الدين لله، لا سيّما في المرحلة الصعبة التي خاض فيها المسلمون المعركة غير المتكافئة ضد قريش وانتصروا فيها، ممّا يفرض التفكير في إضعاف أيّة مبادرة مستقبلية لمعركة جديدة، في ما يمكن أن تفكّر به قريش من هجوم جديد ثأراً لنفسها. ولكنها التجربة الأولى للمسلمين الذين كانوا يخوضون فيها معركة الوجود واللا وجود للإسلام، فخاضوها على الطريقة التي كانوا يخوضون فيها معاركهم الخاصة سابقاً، في قتل البعض، والإبقاء على البعض الآخر من أجل الفداء، فكانت هذه الآية تناقش المسألة من زاوية المصلحة الإسلامية العليا في حركة الأنبياء، فليس للنبي الداخل في معركةٍ من معارك الإيمان والكفر، أن يكون له أسرى، حتى يتمكن في الأرض ويستقر ويثبّت أقدامه، لينطلق ـ بعد ذلك ـ من موقع قوة، بعيداً عن إمكانات التحرّك المضاد من قِبَل الأعداء، وسيكون الحكم حينذاك مختلفاً في مسألة السعي للأسر في ساحة المعركة من عدمه[٣].

وقد جاء في «مجمع البيان»: (**كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم علي بن أبي طالب** عَلَيْهِ السَّلَامُ **سبعة وعشرين، وكان الأسرى أيضاً سبعين، ولم يؤسر أحد من أصحاب النبي ﷺ فجمعوا الأسارى، وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم... وفي كتاب علي بن إبراهيم: لما قتل رسول الله ﷺ النضر بن الحارث وعقبة**

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٧٨.

(٢) سورة الأنفال: ٦٧.

(٣) فضل الله: من وحي القرآن، في تفسير الآية ٦٧ من سورة الأنفال.

بن أبي معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله، قتلنا سبعين وهم قومك وأسرتك، أتجدّ أصلهم[١]؟ فخُذ. يا رسول الله. منهم الفداء. وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش، فلما طلبوا إليه وسألوه نزلت الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾)[٢].

ويبدو أن المسلمين بإصرارهم على الفداء ـ حتى بعد الأسر ومخالفة الأمر ـ نزل عليهم الحكم بالتخيير كما في رواية «المغازي»: (**كان علي عليه السلام يحدّث يقول: أتى جبريل إلى النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر فخيّره في الأسرى أن يضرب أعناقهم، أو يأخذ منهم الفداء ويستشهد منكم في قابل عدتهم. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه فقال: هذا جبريل يخيّركم في الأسرى بين أن نضرب رقابهم، أو نأخذ منهم الفدية ويستشهد منكم في قابلٍ عدتهم. قالوا: بل نأخذ الفدية ونستعين بها، ويستشهد منا فندخل الجنة، فقبل منهم الفداء وقتل منهم في قابلٍ عدّتهم بأحُد**)[٣].

لقد كانت المخالفة جسيمة حتى قال الله عزوجل: ﴿**لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ**﴾ أي بالعفو عن خطاياكم وفتح باب التوبة أمامكم ﴿**لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٤].

أما الموقف من الأسرى بعد اختيار الإبقاء عليهم فداءً فبينته الآية اللاحقة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[٥].

ولعل النبي كان قلقاً من إطلاقهم، فقال له الله عزوجل ما مفاده: إن كان بعضهم يضمر الشر ويعدّ الخطط العدوانية للعودة إلى الحرب، ومقاومة المؤمنين، والاعتداء على الرسالة، فلا تخشَ من ذلك ولا تحمل له هماً، لأنهم لن يكونوا القوة التي لا تُقهر، كما أنها ليست أوّل خيانة لهم، فقد اعتادوها حتى سرَت في دمائهم.

وهكذا، أوصى النبي صلى الله عليه وآله بالأسرى خيراً، فعن الزهري قال: (**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: استوصوا بالأسرى خيراً. فقال أبو العاص بن الربيع: كنت مع رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشّينا أو تغدّينا آثروني بالخبزة، وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل ليقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك، ويزيد، بل وكانوا يحملوننا، ويمشون**)[٦].

أبو العاص واسمه لقيط بن الربيع بن عبدالعزى بن عبدشمس بن عبدمناف، وأمه هالة بنت خويلد أخت السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وهو زوج زينب ابنة النبي. أسر بمعركة بدر، وفك أسرُه، ثم أسلم قبيل فتح مكة وردّ إليه النبي زوجته. لأبي العاص ابنة اسمها أمامه تزوج بها الإمام علي بوصية من الزهراء بعد وفاتها.

(١) جذ الأصل: الاستئصال.
(٢) الطبرسي: مجمع البيان، ج ٤، ص ٨٥٩.
(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩.
(٤) سورة الأنفال: ٦٨-٦٩.
(٥) سورة الأنفال: ٧٠-٧١.
(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ح ٧٢١٦٧.

كان ابن عباس يقول: (فيما بلغني: نزل فيه ثمان آيات من القرآن، قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن). وكان يأتي الحيرة ـ وتقع بالقرب من النجف الأشرف ـ يتجر فيشتري كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة ويقول: إن محمداً يحدثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم أحاديث فارس والروم، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن.

وعلى الرغم مما سبق، فقد استثنى النبي ﷺ بعض كبار قادة المشركين، ومنهم النضر بن الحارث، وكان قد أسره المقداد بن الأسود، فلما خرج النبي من بدر بمعيّة الأسرى، توقف في وادي الأُثيل الذي يبعد قرابة ٤ كم عن بدر، وأخذ يستعرض الأسرى، فنظر إلى النضر بن الحارث طويلاً فقال لرجلٍ إلى جنبه: (**محمدٌ والله قاتلي، لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت! فقال الذي إلى جنبه: والله ما هذا منك إلا رعب**). فحاول النضر الاستجارة بمصعب بن عمير وقال له: (**يا مصعب، أنت أقرب مَن ها هنا بي رحماً** [١]. **كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي، هو والله قاتلي إن لم تفعل. قال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا. وتقول فيه نبيه كذا وكذا. قال: يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي، إن قُتلوا قُتلت، وإن مَنَّ عليهم مَنَّ عليَّ. قال مصعب: إنك كنت تُعذّب أصحابه. قال: أما والله، لو أسَرتْكَ قريشٌ ما قُتلت أبداً وأنا حي. قال مصعب: والله، إني لأراك صادقاً، ولكن لستُ مثلك، قطع الإسلام العهود! فقال المقداد: أسيري! قال النبي ﷺ: اضرب عنقه، اللهم أغنِ المقداد من فضلك! فقتله علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ صبراً بالسيف بالأثيل**) [٢].

وبوصول الخبر إلى المدينة، خرج الناس لاستقبال النبي والمسلمين وهم في دهشة من أمرهم، إذ لم يكن يدور ببال كثيرين أن النبي سينتصر بوجود كل هذا الفارق في العدد والعتاد.. وعند اللقاء برسول الله صاروا يهنّئونه بفتح الله عليه، ومعتذرين لتخلّفهم بأعذار مختلفة ، سكت عنها النبي، وعفى عنهم.. وأذلَّ الله بوقعة بدر رقابَ اليهود والمنافقين كما أذل رقاب المشركين.

۞ معركة أحُد:

- **ظروف المعركة:** كانت بذور الرغبة في الانتقام والثأر من المسلمين قد بُذِرَت في مكة منذ أن وقعت الهزيمة النكراء في بدر، وقد ساعدت خطة المنع من البكاء والنياحة على قتلى قريش والتي اتخذت بعد عودة الجيش المكي المهزوم على إذكاء روح الانتقام هذه لدى قريش. كما أن تعذّر مرور قافلتها التجارية عبر طريق مكة ـ المدينة ـ الشام، واضطرارها إلى سلوك طريق العراق للسفر إلى الشام زاد هو الآخر من سخطها وانزعاجها.

من هنا اقترح صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل على أبي سفيان ومن كانت له في قافلة قريش التجارية مشاركة، أن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من المال لتسديد نفقات الحرب قائلين: **يا معشر قريش إن محمداً قد وتَركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا.**

---

(١) كلاهما من بني عبدالدار بن قصي بن كلاب.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩.

ولقي هذا الاقتراح قبولاً من أبي سفيان، وتقرّر الإعداد للحرب بهذه الصورة، وحيث أن زعماء قريش كانوا يدركون قوة المسلمين وقد رأوا من كثب استقامتهم وثباتهم في معركة بدر، لذا قرروا أن يتألف جيشهم هذه المرة من صناديد أكثر القبائل العربية وشجعانها البارزين وأبطالها المعروفين.

ومن هنا انطلق عمرو بن العاص وآخرون لتأليب القبائل العربية ضد النبي والمسلمين في عملية تصوير وهمي للخطر الكبير المحدق بالجزيرة العربية، فتجمع ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف مقاتل من قريش وغيرها ومن الأعراب والعبيد الذين استُدرجوا بالأماني والوعود، فتشكل جيش المشركين من سبعمائة دارع، وثلاثة آلاف فارس، ومشاة كثيرين، وقد خرجوا بعدة وسلاح كثير، كما اصطحبوا معهم نساءهم أملاً في أن يكون ذلك سبباً إضافياً لعدم الهروب من ساحة الحرب.

وعلى إثر ذلك بعث العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ من مكة خبراً يتضمن نوايا واستعدادات قريش، وختَمه، واستأجر رجلاً من بني غفار واشترط عليه أن يقطع الطريق إلى المدينة في ثلاثة أيام، ويوصل تلك الرسالة إلى رسول الله في أسرع وقت. وإذ تسلم النبي رسالة عمه واطلع على محتواها، أرسل في ليلة الخميس الخامس من شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة، اثنين من الرصَد هما: أنس و مونس ابنا فضالة للتجسس على قريش خارج المدينة، فأعلماه باقتراب جيش المشركين حتى أنهم باتوا يرعون إبلهم وخيولهم في مراعي المدينة ويقتحمون بعض بساتينها!

الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي السلمي، كان له موقف في يوم السقيفة حين قال الخليفة أبوبكر: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء) فقال الحباب: (لا والله لا نفعل أبداً، منا أمير ومنكم أمير) فقال أبو بكر: (لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم . أي قريش . أوسط العرب دارًا، وأكرمهم أحسابًا فبايعوا عمر أو أبا عبيدة). فرفض عمر وأعاد الأمر إلى أبي بكر، فتمّ. توفي الحباب على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وليس له عَقِب.

وتأكد الخبر عن طريق الحُباب بن المنذر أيضاً، وعليه بات من المحتوم إخبار المسلمين بمستجدات الأمور واتخاذ القرار المناسب في كيفية المواجهة.

- **المشورة ووقوع الاختلاف:** استنفر عدد من سادات الأنصار ورجالاتهم كسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة خوفاً من هجوم مباغت يقوم به الغزاة على المدينة، فباتوا ليلة الجمعة ـ وعليهم السلاح ـ في المسجد، بباب حجرة النبي، كما حُرست المدينة تلك الليلة حتى صباح الجمعة قبل يوم من وقوع المعركة.

ورأى رسول الله ﷺ رؤيا في تلك الليلة، فلما أصبح واجتمع المسلمون خطب مِن على المنبر، فحمدالله وأثنى عليه، ثم قال: **(أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا، رأيتُ كأني في درع حصينة، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظُبَته[1]، ورأيت بقراً تُذبح، ورأيت كأني مُردِفٌ كبشاً. فقال الناس: يا رسول الله، فما أوّلتَها؟ قال: أما الدروع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفي من عند ظبته فمصيبة في نفسي، وأما البقر المذبَّح، فقتلى في**

(١) الظبة: حد السيف أو الخنجر.

أصحابي، وأما مردف كبشاً، فكبش الكتيبة [١] **نقتُله إن شاء الله)** [٢]. وبإعلان اقتراب الغزاة وما أخبر به النبي من تلك الرؤيا، بدأت المشاورات حول الطريقة الفضلى للمواجهة، فالخيارات مازالت مفتوحة، وهذه التجربة ستكون مختلفة تماماً عن معركة بدر الكبرى من حيث ظروف بدء المواجهة وموقعها، وهكذا من خلال عدد الغزاة وتركيبة قواتهم.

وقد تحدث المؤرخون عن أن النبي ﷺ كان يفضّل البقاء في المدينة متحصناً بها، ومستعيناً بالآطام [٣] والحصون والجدران المبنية بين البيوت والأزقة والطبيعة الجغرافية الخاصة بها والتي تكفل لها قدراً جيداً من الحماية من الغزاة وصعوبة تحركهم بين حرّاتها [٤] وغابات النخيل الموزّعة في أرجائها، وهو الأسلوب الذي سيعتمده لاحقاً في غزوة الخندق. وقد كانت الرؤيا الصادقة التي رآها وحكاها للناس مؤيّدة لهذا التوجه عنده: (**قال النبي ﷺ: أشيروا عليَّ. ورأى رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، فرسول الله ﷺ يحب أن يوافَق على مثل ما رأى، وعلى ما عبَّر عليه الرؤيا**) [٥].

إلا أن أصحابه انقسموا إلى فئتين، فئة تريد ما أراده النبي، وأخرى تصرّ على الخروج للقتال في أرض مفتوحة وبذرائع شتّى.. أما الرأي الأول الموافق للنبي فقد تزعّمه رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، حيث قام من فوره وقال: (**يا رسول الله، كنا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة. والله، لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدوّنا، ونشبك المدينة بالبُنيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام، ونقاتل بأسيافنا في السكك. يا رسول الله، إن مدينتنا عذراء ما فُضَّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منّا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه، فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشَرِّ مَحبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً. يا رسول الله، أطعني في هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة**).

قالوا: (**وكان رأي رسول الله ﷺ مع رأي ابن أبي، وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار**).

أما الفئة الثانية فتبناها الشباب المتحمسون ومجموعة من كبار رجالات المسلمين، وكان المبرر الأول بحسب النص التاريخي الحماسة للقتال: (**فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوهم، ورغبوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو: اخرج بنا إلى عدوِّنا**).

أما المبرر الثاني فتمثّل ـ بحسب هذه النصوص ـ في التخوف من جرأة العدو، والاطمئنان إلى قوة المسلمين،

---

(١) كبش الكتية: مصطلح يطلق على المقاتل القوي الشديد.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٨.

(٣) آطام: جمع أُطُم، وهي نوع خاص من الحصون الصغيرة المبنية من الحجارة، وكانت منتشرة في المدينة.

(٤) الحرة: الأرض المكسوة بالحمم البركانية السوداء.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٧٩.

أنس أو أنيس بن قتادة بن ربيعة الأنصاري الأوسي. شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها، قتله الأخنس بن شُريق، وليس له عقب.

بينما تمثّل المبرر الثالث في طلب النصر أو الشهادة، وقد روي أن أنس بن قتادة قال: (**يا رسول الله، هي إحدى الحسنيين، إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر في قتلهم**). فقال رسول الله ﷺ: (**إني أخاف عليكم الهزيمة**)[١]. وكأنه ﷺ ينبههم أن الموت والشهادة في حد ذاتها ليست غاية كي لا يفكّر المسلم إلا بها عند مواجهة العدو، بل الغاية انتصار الإسلام، وعليهم أن يفكروا ويخططوا في هذا الاتجاه، بحيث لا تكون حساباتهم فردية ونظرتهم ضيقة، وأن أحدهم لو نال الشهادة في طريق الانتصار فذلك، وإن لم ينلها مع تحقق النصر فقد نال أجراً لا يقل عن الشهادة.

- **القرار النهائي:** وهكذا، وجد النبي ﷺ أن الكثرة من أصحابه يأبون إلا الخروج للقتال، على الرغم من تفضيله الخطة الأخرى في المواجهة، الأمر الذي دفعه للاستجابة إلى رغبتهم في الوقت الذي ما كان لهم أن يخالفوه في ذلك، لعلمهم بأنه مسدَّد من الله عَزَّوَجَلَّ. وأما سبب عدم إصراره على موقفه على الرغم من إبدائه تخوّفاً من الهزيمة في المعركة، فلربما يعود إلى تخوّف أي قائد من تخاذل قواته في ما لو عارض توجه عدد كبير منهم، وبالتالي انكسار معنوياتهم، وإحداث شرخ عميق في صفوف جيشه، وفيما بينه وبينهم.

فصلّى النبي ﷺ صلاة الجمعة بالناس، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح مؤيدو الخروج بإعلان القرار النهائي لصالحهم، وكرِه ذلك القسم الآخر. وعلى أثر ذلك، أمر النبي بالتهيؤ للعدو، ثم صلى العصر بالناس.

وفي الأثناء بدأ الاحتشاد يتسارع من الأطراف المختلفة، من المدينة وما حولها، والكل يتلبّس السلاح، وأدخلوا النساء والأطفال في الآطام والحصون لحمايتهم. وهي صورة مغايرة تماماً لما جرى يوم بدر، حين نادى النبي ﷺ بالخروج، فتلكّأ كثيرون متعذّرين بأعذار شتى.

وعلى الرغم من كل الزخم الذي لاقاه إعلان النبي ﷺ الخروج للقتال، إلا أن بعضاً من أصحابه من كبار رجالات الأنصار بدؤوا يتندّمون على موقفهم المخالف لرغبة النبي في التحصن في المدينة، فبينا القوم على ذلك، إذ خرج رسول الله ﷺ، قد لبس لأمته[٢]، وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمِنطَقة [٣] من حمائل سيف من أدم[٤]، واعتمَّ، وتقلَّد السيف.

فلما خرج رسول الله ﷺ هكذا، ندموا جميعاً على ما صنعوا، وقال الذين يلحّون على رسول الله ﷺ: **ما كان لنا أن نلح على رسول الله في أمر يهوى خلافه.**

---

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٠.

(٢) لأمة: نوع من الدروع، وتطلق الكلمة أيضاً على أداة الحرب كلها، من رمحٍ، وبيضة، ومِغْفَر، وسيف، ودرع.

(٣) منطقة: حزام يشد في الوسط.

(٤) أدم: جلد.

وندَّمَهم أهلُ الرأي الذين كانوا يشيرون بالمقام، فقالوا: **يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك.**

فقال: **لا ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب، وأذّن في الناس بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل**[١].

وهذا يعني أنه متى ما اتُّخذ القرار والعدو بالمرصاد، فلابد من المضي في ذلك، وأي قرار بالتراجع يُعدّ هزيمة وانكساراً و فتّاً في عضد الجيش وتحطيماً للمعنويات، خاصة بلحاظ كل تلك الحماسة الملتهبة التي أبداها كبار القوم. وهكذا حُسِم الأمر وما عاد ممكناً أن يتراجع النبي ﷺ عن قرار المواجهة خارج المدينة.

• **عقد الألوية**: دعا رسول الله ﷺ بثلاثة أرماح، فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى أُسَيد بن حُضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن الجموح، ويقال إلى سعد بن عبادة، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، ويقال إلى مصعب بن عمير[٢]. من جديد يبرز الاختلاف حول حامل اللواء، ولربما بسبب الخلط بين الراية واللواء، كما قلنا من قبل، قال الشيخ المفيد: (**تلت بدراً غزاةُ أحُد وكانت راية رسول الله ﷺ بيد أميرالمؤمنين عليه السلام فيها، ومما يدل على ذلك ما رواه يحيى بن عمارة قال: حدثني الحسن بن موسى بن رباح مولى الأنصار قال حدثني أبو البختري القرشي، قال: كانت راية قريش ولواؤها جميعاً بيد قَصي، ثم لم تزل الراية في يد وُلد عبدالمطلب يحملها منهم مَن حضر الحرب حتى بعث الله رسولَ الله ﷺ فصارت رايةُ قريش وغيرها إلى النبي ﷺ، فأقرَّها في بني هاشم فأعطاها رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام في غزاة وَدّان**[٣]، **وهي أول غزاة حُمل فيها راية في الإسلام مع النبي، ثم لم تزل معه في المشاهد ببدر، وهي البطشة الكبرى، وفي يوم أحُد، وكان اللواء يومئذ في بني عبدالدار**[٤]، **فأعطاه رسول الله ﷺ مصعب بن عمير**[٥]، **فاستشهد ووقع اللواء من يده فتشوَّفته القبائل، فأخذه رسول الله ﷺ فدفعه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فجمع له يومئذ الراية واللواء. وقد ورد عن ابن عباس ما يؤيد ذلك، فقد رُوي أنه قال: لعليٍّ أربع خصال ليس لأحد من العرب غيره، هو أول عربي وعجمي صلّى مع النبي ﷺ وهو الّذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي ثبت معه يوم المِهراس ـ يعني يومَ أُحُد ـ وفَرَّ الناس، وهو الذي أدخله قبرَه**)[٦].

ويضاف إلى ما سبق رواية ابن عساكر في «تاريخ دمشق» و ابن سعد في «الطبقات الكبرى»: (**إن علي بن أبي طالب كان صاحب لواء رسول الله يوم بدر وفي كل مشهد**)[٧].

وتتضح من بعض النصوص حساسية الأمر، خاصة وأنها ذات علاقة بفضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام فقد روى الإمام

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١٣، ص ١٠٨.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢٢٦-٢٢٧.
(٣) ودّان : موضع بين مكة والمدينة. سُمّيت الغزوة به.
(٤) في جهة المشركين.
(٥) وهو من بني عبد الدار أيضاً.
(٦) المفيد: الإرشاد، ج١، ص ٧٩-٨٠.
(٧). ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٩، ص ١٤٢. وابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٣.

أحمد بن حنبل عن مالك بن دينار قال: (**سألتُ سعيد بن جبير قلت: يا أبا عبد الله، مَن كان حامل راية رسول الله ﷺ؟ قال: فنظر إليّ وقال: كأنك رخيّ البال**[١]. **فغضبتُ وشكوته إلى إخوانه من القرّاء. قلت: ألا تعجبون من سعيد، إني سألتُه مَن كان حامل راية رسول الله ﷺ؟ فنظر إليَّ وقال: إنك لرخّي البال. قالوا: أرأيتَ حين تسأله وهو خائف من الحَجّاج وقد لاذ بالبيت**[٢]**! كان حاملُها عليّ**)[٣].

• **الخروج المهيب**: خرج النبي من المدينة مع جيشه بمنظر مَهيب إظهاراً للقوة ورفعاً للمعنويات التي كانت في الأساس مرتفعة، ولكنها بدأت تتراجع مع التلاوم الذي دار حول مخالفة رغبة النبي، وإشاعة أنه سيُقتَل في المعركة! ثم دعا النبي ﷺ بفرَسِه فركبه، وأخذ القوس وأخذ قناةً بيده والمسلمون متلبسون السلاح قد أظهروا الدروع، فيهم مائة دارع.

وعند أُطُم الشيخين عَسْكر النبي ﷺ مستعرِضاً قواته، واطمأن على الاستعدادات للمواجهة المحتملة في الغد، حتى إذا أذّن بلال أذانَ المغرب صلّى بهم النبي، ثم أذّن بلال بالعشاء فصلى بهم العشاء، ثم اختار فرقة حراسة مؤلفة من خمسين مقاتلاً وعلى رأسهم محمد بن مسلمة، فصاروا يطوفون بالمعسكر طوال الليل.

---

(١) أي في نعمة، لا شيء يشغلك، ولذا تبحث في أمور تثير المشاكل بلا داع.

(٢) كان ذلك سنة ٩٤ هـ حينما خرج سعيد ومن معه على الوليد بن عبد الملك كما ذكره ابن جرير الطبري في تاريخه ج ٨ ، ص ٩٣.

(٣) ابن حنبل: فضائل الصحابة، ح ١٠١٧.

أما المشركون، فقد حرّكوا قواتهم من حيث عسكروا بمجرّد أن غادر المسلمون معسكرهم في الشيخين، ولما وصل المسلمون إلى حيث ستقع المعركة، أقاموا صلاة الصبح جماعة بعد أن أمر النبي ﷺ بلالاً بالأذان، ثم لبس درعاً ثانية، ومِغفَراً وبيضةً فوق المِغفَر. وقد أعطاه هذا السبق إلى المكان المحدَّد أفضلية اختيار الموقع الأنسب لقواته.

وفي هذه اللحظات الحاسمة انسحب عبدالله بن أبيّ بن سلول مع الموالين له وعددهم ثلاثمائة مقاتل تقريباً، أي ما يقارب ثلث مجموع الجيش وقال: (**خالفَنا**) يعني بذلك النبي (**وأشرتُ عليه بالرأي، فأبَى إلا طواعية الغلمان... أيعصيني ويطيع الولدان؟... فلما أصيب أصحابُ النبي ﷺ سُرَّ ابنُ أبيّ، وأظهر الشماتة وقال: عصاني وأطاع مَن لا رأي له**)[١].

• **ترتيب الصفوف**: ثم بدأت عملية توزيع المقاتلين بحسب ما تقتضيه طبيعة المواجهة والمحيط الجغرافي، والمتفق عليه أن النبي ﷺ عيّن خمسين رامياً على جبل عَيْنَيْن، يرأسهم عبدالله بن جُبير، أما موقع بقية المقاتلين فمختلف فيه من حيث النصوص المتضاربة في عباراتها وتحليل الباحثين. قال الله عَزَّوَجَلَّ واصفاً هذه الحالة من اهتمام النبي ﷺ: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٢].

وكان من ضمن التدابير العسكرية التي اتخذها النبي في ساحة القتال أن وصّى مجموعة الرماة الخمسين بقوله: (**احموا لنا ظهورَنا، فإنا نخاف أن نؤتَى من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم، حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا. اللهم، إني أشهدك عليهم. وارشقوا خيلَهم بالنبل، فإن الخيل لا تُقدِم على النبل**)[٣].

وأما المشركون فقد قسّموا قواتهم بحيث جعلوا خالد بن الوليد على الميمنة، وعكرمة بن أبي جهل على الميسرة، بمساندة مائتي فرَس بقيادة صفوان بن أمية. وقيل عمرو بن العاص. مع مائة رام بقيادة عبدالله بن أبي ربيعة، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار بن قَصي بن كلاب.

وقد روي أنه لما تساءل النبي في أثناء تسوية الصفوف وترتيبها: **مَن يحمل لواء المشركين؟** قيل له: **عبد الدار**.

قال: **نحن أحق بالوفاء منهم، أين مصعب بن عمير؟ قال: ها أنا ذا. قال: خذ اللواء. فأخذه مصعب فتقدَّم به بين يدى رسول الله** ﷺ[٤].

فإن صحّ الخبر فهذا يعني أن النبي ﷺ ارتأى أن المصلحة تكمن في إسناد مهمة حمل اللواء لمصعب بن عمير وهو من بني عبدالدار أيضاً، مع إبقاء الراية عند الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَام، علماً بأن اللواء سيعود إلى الإمام من جديد، وبذا يزول التعارض بين النصوص والآراء التي انقسمت حول شخصية حامل اللواء في ذلك اليوم.

---

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٣.
(٢) سورة آل عمران: ١٢٢.
(٣) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٥.
(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٣٢.

• **بدء المعركة**: وبعد أن وصّى النبي أصحابه بوصاياه الإيمانية والأخلاقية والحماسية، حان وقت المبارزة الفردية بين الطرفين، حيث صاح حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة داعيا إلى البِراز: (**مَن يبارز؟ فقال علي** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **هل لك في البراز؟ قال طلحة: نعم. فبرزا بين الصفين. ورسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **جالس تحت الراية عليه درعان ومِغفر وبيضة، فالتقيا فبدَره عليٌّ فضربه على رأسه، فمضى السيف حتى فلق هامته حتى انتهى إلى لحيته، فوقع طلحة وانصرف علي** عَلَيْهِ السَّلَامُ. **فقيل لعلي: ألا ذَفَّفْتَ عليه**[١]**؟ قال: إنه لما صرع استقبلتني عورتُه فعطفني عليه الرحم، وقد علمت أن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **سيقتله، هو كبش الكتيبة**)[٢].

وفي خبر آخر: (**أن طلحة حمل على علي** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فضربه بالسيف، فاتّقاه بالدَّرَقة ، فلم يصنع شيئاً، وحمل علي** عَلَيْهِ السَّلَامُ **وعلى طلحة درع ومِغفر، فضربه بالسيف، فقطع ساقيه، ثم أراد أن يذفِّفَ عليه ، فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل ، فتركه ولم يذفِّف عليه**)[٣].

وفي خبر ثالث أن طلحة بن أبي طلحة عند خروجه للمبارزة نادى: (**معاشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجّلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل منكم من أحد يبارزني؟ قال قتادة: فخرج إليه علي وهو يقول:**

---

(١) ذفف عليه: أجهز عليه وقتله.
(٢) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٥.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٣٦.

أنـا ابـن ذي الحوضـين عبدالمطلب وهـاشـم المطعِم في العـام السغب

أوفي بميعادي وأحمي عن حسَب

فضربه علي عليه السلام فقطع رجله)[١].

وفي خبر رابع أن علياً عليه السلام **(خرج فقال:**

يـا طـلـحُ إن كـنـتَ كـمـا تـقـول لـنـا خـيـولٌ ولـكـم خـيـول

فـاثـبـت لـنـنـظـر أيـنـا المـقـتـول وأيـنـا أولـى بمـا تـقـول

فـقـد أتـاك الأسـد الـصـؤول بـصـارمٍ لـيـس بـه فـلـول

بنصرة القاهر والرسول

فقال طلحة: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب. قال طلحة: قد علمت يا قُضَم أنه لا يجسر عليّ أحد غيرك! فشد عليه طلحة فضربه، فاتقاه أمير المؤمنين عليه السلام بالحجفة، ثم ضربه أمير المؤمنين عليه السلام على فخذيه فقطعهما جميعاً، فسقط على ظهره، وسقطت الراية، فذهب علي عليه السلام ليجهز عليه فحلّفه بالرحم فانصرف عنه، فقال المسلمون: ألا أجهزتَ عليه؟ قال: قد ضربته ضربة لا يعيش منها أبداً)[٢].

وهكذا كانت الضربة الأولى لعلي عليه السلام في ترجيح كفة المسلمين في بدء القتال رافعاً بذلك المعنويات ومعطياً دفعة قوية لتحقيق النصر: **(فلما قُتل طلحة، سُرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأظهر التكبير، وكبَّر المسلمون)**[٣].

ثم إن علياً عليه السلام بعد أن قتل طلحة مبارزة، بارز بقية حملة لواء المشركين الواحد تلو الآخر، كلما سقط منهم قتيل حمل الآخر اللواء مكانه، فيبرز له علي عليه السلام فيقتله، وقد روى المجلسي[٤] أنه قتل منهم ثمانية، ثم أخذ باللواء صؤاب عبدٌ حبشي لهم، فضُرب على يدِه، فأخذه باليسرى فضُرب عليها، فأخذ اللواء وجمع المقطوعتين على صدره، فضُرب على أم رأسه فسقط اللواء. قال حسان بن ثابت:

فـخَـرتُم بـالـلـواء وشـرّ فخر لـواء حـين رُدّ إلـى صـؤاب

فسقط اللواء، فأخذته عمرة بنت الحارث بن علقمة بن عبد الدار، فصُرعت وانهزموا، وقال حسان بن ثابت:

ولـولا لـواء الحـارثـيـة أصـبـحـوا يـبـاعـون في الأسـواق بالثمن الوكس

وفي خبر يوم الشورى التي أمر بإقامتها الخليفة عمر بن الخطاب بعد اغتياله لاختيار الخليفة من بعده، أن علياً عليه السلام

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٨٢.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٥٠.
(٣) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٥.
(٤) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٨٢.

ذكّر القوم بفضله بعدة أمور من بينها: (**نشدتُكم بالله، هل فيكم أحد قتَل من بني عبد الدار تسعة مبارزة غيري، كلهم يأخذ اللواء، ثم جاء صؤاب الحبشي مولاهم وهو يقول: والله لا أقتل بسادتي إلا محمداً، قد أزبد شدقاه**[١] **واحمرت عيناه، فاتقيتموه وحدْتُم عنه، وخرجتُ إليه فلما أقبل كأنه قبة مبنية**[٢]**، فاختلفْتُ**[٣] **أنا وهو ضربتين، فقطعته بنصفين، وبقيت رجلاه وعجزُه وفخذاه قائمة على الأرض ينظر إليه المسلمون ويضحكون منه؟ قالوا: اللهم لا**)[٤].

وقد روى ابن جرير الطبري في تاريخه بطولة لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام في ذلك الموقف برواية الصحابي أبي رافع، قال: (**لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية، أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: احمِل عليهم، فحمَل عليهم، ففرَّق جمعَهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجُمحي. قال: ثم أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: احمِل عليهم. فحمل عليهم، ففرَّق جماعتهم، وقتل شيبة بن مالك، أحد بني عامر بن لؤي. فقال جبريل: يا رسول الله، إنَّ هذه للمواساة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه مني، وأنا منه. فقال جبريل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي**)[٥].

• **نصرٌ ثم هزيمة**: كانت نتائج المبارزات الفردية دفعة قوية لانتصار المسلمين الحاسم في المعركة، فوقع التلاحم بين الطرفين ولم يستطع المشركون الصمود حتى قال بعض الرواة أنه ما ظفّر الله نبيه في موطن قط ما ظفره وأصحابه يوم أحد... وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوُون، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدفاف... وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أحُداً، قال كل واحد منهم: **والله إني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات، ما دون أخذهن شيء لمن أراد ذلك، وكلما أتى خالد من قبل ميسرة النبي صلى الله عليه وآله ليجوز حتى يأتي من قبل السّفح فردّه الرماة، حتى فعلوا ذلك مراراً... وتبعهم المسلمون، يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر**[٦].

ولأمير المؤمنين عليه السلام بالإضافة إلى مبارزاته الأولى في أحُد بطولاتٌ عديدة من بينها ما جاء في الأخبار التالية، ففي إحداها أنه قال: (**لما كان يوم أحُد وجَال الناس تلك الجولة، أقبل أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وهو دارع مقنَّع في الحديد، ما يُرى منه إلا عيناه، وهو يقول: يومٌ بيوم بدر. فيعترض له رجلٌ من المسلمين فيقتله أميّة. قال علي** عليه السلام: **وأصمد له فأضربه بالسيف على هامته وعليه بيضة وتحت البيضة مغفر، فنبا سيفي**[٧]**، وكنت رجلاً قصيراً، ويضربني بسيفه فأتّقي بالدرقة، فلحِجَ**[٨] **سيفُه فأضربه، وكانت درعه مشمَّرة،**

(١) الشدق: جانب الفم.
(٢) قبة: خيمة أو غرفة.
(٣) اختلفت: تبادلت.
(٤) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٣٢٤-٣٢٥.
(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٣٤٨.
(٦) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.
(٧) نبا السّيفُ عن الضّريبة : لم يُصِبْها.
(٨) لحج: علق.

فأقطع رجليه، ووقع فجعل يعالج سيفه حتى خلَّصه من الدرقة، وجعل يناوشني وهو بارك على ركبتيه، حتى نظرت إلى فتق تحت إبطه فأخش بالسيف فيه، فمال ومات وانصرفتُ عنه)[١].

ومع هذه الهزيمة المنكرة للمشركين وهروبهم المخزي من ساحة المعركة انكب ثير من المقاتلين المسلمين على الغنائم التي خُلّفت، مهملين مسؤوليتهم الأساسية في قتال العدو والقضاء عليه، وهو ما يذكّرنا بقول الله عَزَّوَجَلَّ في وصف حال بعض المسلمين المقاتلين: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾[٢].

وبين أيدينا خبر يرويه أبو سفيان قائد جيش المشركين لما جرى منذ بداية القتال إلى وقوع النهب: (**قال أبوسفيان: يا معشر قريش، خَلِّفوا غلمانكم على متاعكم يكونون هم الذين يقومون على رِحالكم. فجمعْنا بعضها إلى بعض، وعقلنا** [٣] **الإبل، وانطلق القوم على تعبيتهم ميمنة وميسرة، وألبسنا الرِّحال الأنطاع**[٤]**. ودنا القوم بعضهم إلى بعض، فاقتتلوا ساعة ثم إذا أصحابنا منهزمون، فدخل أصحاب محمد عسكرنا ونحن في الرحال، فأحدقوا بنا، فكنت فيمن أُسِروا. وانتهبوا العسكر أقبح انتهاب، حتى إن رجلاً منهم قال: أين مال صفوان بن أمية؟ فقلت: ما حمَل إلا نفقة، هي في الرحل. فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العيبة** [٥] **خمسين ومائة مثقال. وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم، وانحاش النساء**[٦]**، فهنّ في حجرهن سِلْمٌ لمن أرادَهُن. وصار النَّهْبُ في أيدي الرجال**)[٧].

وكان هذا ما بشّر به الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين إن أطاعوه وأطاعوا رسوله وصبروا في مواجهة العدو وإن كثر عديده وعتاده، وإن تظاهر بالقوة والاستكبار، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**﴾[٨]. ولكنهم استعجلوا وخالفوا أوامر النبي، فوقعت الكارثة.

ففي تلك الأثناء وجد الرماة أنفسهم بعيدين عن الحصول على غنائم السلب، ولا أثر للمشركين في ساحة المعركة فحدّثوا أنفسهم بترك موقعهم عل جبل عينين والنزول إلى أرض القتال، فقد قال بعضُ الرماة لبعض: **لمَ تُقيمون ها هنا في غير شيء؟ قد هَزم الله العدو، وهؤلاء إخوانُكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين فاغتنموا مع إخوانكم.**

فقال بعض الرماة لبعض: **ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم: احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنِمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا؟**

فقال الآخرون: **لم يُرِد رسول الله هذا، وقد أذل الله المشركين وهزمهم، فادخلوا العسكر فانتهِبوا مع إخوانكم.**

---

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥.
(٢) سورة آل عمران: ١٥٢.
(٣) عقلنا: ربطنا أرجلها كي لا تتحرك.
(٤) الرحل: ما يُوضَعُ على ظهر البعير للركوب، النطع: الجلد.
(٥) العيبة: وعاء من خوص.
(٦) انحاش: ابتعد.
(٧) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.
(٨) سورة آل عمران: ١٥١.

فلما اختلفوا خطبهم أميرُهم عبد الله بن جبير، وكان يومئذ مُعلماً بثياب بيض، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وألا يخالَف لرسول الله أمر.

فعصوا وانطلقوا، فلم يبق من الرماة مع أميرهم عبد الله بن جبير إلا نُفَيْر ما يبلغون العشرة، فيهم الحارث بن أنس بن رافع، يقول: **يا قوم، اذكروا عهدَ نبيكم إليكم، وأطيعوا أميركم.**

إلا أنهم أبَوْا وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلّوا الجبل، فانتقضت صفوف المشركين، واستدارَت رجالهم، واستدارت الريح، إذ كانت أول النهار إلى أن رجعوا صبا، فصارت دَبُوراً [١].

نعود إلى رواية أبي سفيان التي يحكي فيها كيف انتبه المشركون إلى الفراغ الحاصل في ساحة المعركة بسبب تلك المخالفات، قال: (**فإنا لعلى ما نحن عليه من الاستسلام إلى أن نظرت إلى الجبل، فإذا الخيل مُقبلة فدخلوا العسكر فلم يكن أحدٌ يردّهم، قد ضُيِّعت الثغور التي كان بها الرماة، وجاءوا إلى النهب والرماة ينتهبون، وأنا أنظر إليهم متأبِّطي قسيِّهم وجِعابهم[٢]، كل رجل منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلما دخلَت خيلُنا دخلَت على قوم غارين آمنين[٣]، فوضعوا فيهم السيوف، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً. وتفرَّق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا وأُجلُوا عن عسكرنا، فرجعنا متاعنا بعدُ فما فقدنا منه شيئاً، وخلّوا أسرانا، ووجدنا الذهب في المعرَك[٤]. ولقد رأيتُ رجلاً من المسلمين ضمَّ صفوان بن أمية إليه ضمَّةً ظننتُ أنه سيموت حتى أدركتُه به رمق، فوجأتُه بخنجر معي فوقع، فسألت عنه بعدُ فقيل: رجلٌ من بني ساعدة**) [٥].

وفعلاً ضاعت الغنائم من يد المسلمين، وقد كانت همَّ كثيرٍ منهم، وقد روي أنه: (**ما علِمنا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أغاروا على النَّهْب، فأخذوا ما أخذوا من الذهب، بقي معه من ذلك شيء رجع به حيث غشينا المشركون واختلطوا إلا رجلين: أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، جاء بمِنطَقة وجدها في العسكر فيها خمسون ديناراً، فشدَّها على حِقويه[٦] من تحت ثيابه، وجاء عبّاد بن بشر بصُرَّة فيها ثلاثة عشر مثقالاً، ألقاها في جيب قميصه، وعليه قميص، والدرع فوقها، قد حزم وسطه. فأتيا بذلك رسول الله ﷺ بأحُد، فلم يخمّسه، ونفلهما إياه**) [٧].

نعود من جديد إلى حيث جبل عينين الذي لم يعُد محروساً من قبل عدد كاف من الرماة، حيث نزل جلّهم لجمع الغنائم مخالفين بذلك الأمر الصريح لرسول الله ﷺ، حينها انتبه خالد بن الوليد إلى ذلك، فكرَّ مع فرسان الميمنة،

---

(١) الصبا: الريح الشرقية التي أخذت تهب في وجه المشركين وتكون معاكسة لحركتهم. غربيّة مساندة لهم ومخالفة للمسلمين، والملاحظ بحسب الرواية أن هذا الانقلاب حصل عند مخالفة المسلمين لأوامر النبي واهتمامهم بالغنائم بدلاً من ملاحقة العدو وإيقاع القتل والتشريد والأسر فيهم، ولعله بفعل الملائكة.

(٢) الجعاب: جمع جعبة، وهو الوعاء الجلدي الذي توضع فيه السهام.

(٣) وهم المسلمون.

(٤) المعرك: موضع القتال.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.

(٦). الحقو: الخصر.

(٧) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧. ص ٨٨.

وتبِعَه عكرمة مع فرسان الميسرة، فانطلقوا جميعاً إلى بعض الرماة فحملوا عليهم، ورامـوهم حتى أصيبوا، ورامى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جَفْنَ سيفه[١]، فقاتلهم حتى قتُل، وصار ظهر المقاتلين المسلمين مكشوفاً، فانتقضت صفوفهم، ونادى المشركون بشعارهم: **يا للعزى، يا آل هبل**، وعادت إليهم روح القتال.

ولما وقع المسلمون في هذا الوضع الحرج تخبّطوا وصاروا يقتلون بعضهم بعضاً بالخطأ. قال رافع بن خديج في وصف ما جرى: (**أُتينا من قِبَل أنفسنا، ومعصية نبيِّنا، واختلط المسلمون، وصاروا يُقتلون، ويضرب بعضهم بعضاً، وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل**)[٢].

والتفَت بعض المسلمين إلى ضرورة ترتيب صفوفهم لعدم تكرار هذا الخطأ القاتل الذي قد يكلّفهم كثيراً: (**وأقبل يومئذ الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح: يا آل سلَمة! فأقبلوا عنُقاً واحدة: لبَّيك داعي الله، لبيك داعي الله... حتى أظهروا الشِّعار بينهم، فجعلوا يصيحون: أمِت. أمِت. فكَفَّ بعضُهم عن بعض**)[٣].

ومع اشتداد هجوم المشركين والتخبط في صفوف المسلمين، بدأ المسلمون بالهروب من ساحة المعركة، والرسول يدعوهم للرجوع، قال محمد بن مسلمة: (**سَمِعَت أذناي وأبصرت عيناي رسول الله ﷺ يقول يومئذ، وقد انكشف الناس إلى الجبل وهم لا يلوون عليه، وإنه ليقول: إليَّ يا فلان، إليَّ يا فلان، أنا رسول الله! فما عرج منهما واحد عليه، ومضيا**)[٤].

كما روى الواقدي أنه: (**كان خالد بن الوليد يُحدِّث وهو بالشام يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام. لقد رأيتني ورأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جالوا وانهزموا يوم أُحُد، وما معه أحَد، وإني لفي كتيبة خشناء فما عرفه منهم أحدٌ غيري، فنكبت عنه وخشيت إن أغريتُ به مَن معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجِّهاً إلى الشِّعب**)[٥].

ولا يخفى للمتتبع ما كان بين ابن الوليد والخليفة عمر من عدم انسجام استمر إلى عهد الخلافة، على الرغم من صلة القرابة بينهما، فخالد ابن عم والدة الخليفة عمر، وفي الخبر أن ابن الوليد وعمرَ ـ في زمن طفولتهما ـ تصارعا، فكسر خالد رِجْل عمر. ولعل خالد بن الوليد أراد ـ بهذا الخبر ـ أن يُعرِّض بالخليفة من جهة، ويحمّله جميلاً من جهة أخرى.. هذا إن افترضنا صحته.

قول النبي: أنا ابن العواتك لأن أم هاشم بن عبد مناف: عاتكة بنت مرة من بني سليم.، وأم رسول الله آمنة بنت وهب، وأم وهب عاتكة بنت الأوقص من بني سليم. وأم عبد مناف عاتكة بنت فالج من بني سليم.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ كان ينادي: (**أنا ابن العواتك... أنا النبي لا كذب، أنا ابنُ عبدالمطلب**)[٦].

وفي رواية أنهم: (**تفرَّقوا في كل وجه، وجعل الناس يمرون على النبي ﷺ، لا يَلوي عليه أحد منهم،**

(١) جفن السيف: غمده، ويُكسر علامة الاستماتة في القتال.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٤١.
(٣) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٨.
(٤) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٩.
(٥) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٩٠.
(٦) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥.

ورسول الله ﷺ يدعوهم في أخراهم، حتى انتهى مَن انتهى منهم إلى المهراس)[١]. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف ذلك: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[٢].

سعد بن عثمان الأنصاري الزُّرَقي، وأمه من الخزرج.شهد بدراً، وفرَّ مع أخيه عقبة في أحُد. قيل أنه بقي حياً إلى أن بلغ الثمانين وما شاب.

وفي خبر أنه: (تفرَّق الناس، فمنهم مَن وردَ المدينة، فكان أول من دخل المدينة يُخبِر أن رسول الله ﷺ قد قُتل[٣] سعد بن عثمان أبو عبادة، ثم ورد بعده رجالٌ حتى دخلوا على نسائهم، حتى جعل النساء يقلن: أعَن رسول الله تفرّون؟ قال: يقول ابن أم مكتوم: أعَن رسول الله تفرّون؟ ثم جعل يؤفِّف بهم، وكان رسول الله ﷺ خلَّفه بالمدينة، يصلي بالناس، ثم قال: اعدلوني على الطريق[٤]. يعني طريق أحُد. فعدلوه على الطريق، فجعل يَستخبر كلَّ مَن لقي عن طريق أحُد حتى لحق القوم، فعلم بسلامة النبي ﷺ، ثم رجع. وكان ممن ولّى فلان[٥]، والحارث بن حاطب، وثعلبة بن حاطب، وسواد بن غزية، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، بلغ مَلل[٦]، وأوس بن قيظي في نفر من بني حارثة، بلغوا الشقرة[٧]، ولقيَتْهم أمُّ أيمن تَحثي في وجوههم التراب، وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغزل به، وهلمَّ سيفَك. فوجَّهت إلى أحُد مع نسيات معها)[٨].

وهكذا نجد موقفاً آخر يُروى حول فرار بعض أصحاب النبي الأكرم ﷺ من ساحة المعركة في أحُد، وبقاء هذا الحدث مُثاراً من حين إلى آخر كسلاح للتشهير: (كان بين عبد الرحمن وعثمان كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه فقال: اذهب إلى أخيك[٩] فبلِّغه عني ما أقول لك، فإني لا أعلم أحداً يبلّغه غيرك. قال الوليد: أفعل. قال: قل، يقول لك عبد الرحمن: شهدتُ بدراً ولم تشهد، وثبتُّ يوم أحُد ووليتَ عنه، وشهدتُ بيعةَ الرضوان ولم تشهدها. فجاءه فأخبره فقال عثمان: صدق أخي! تخلَّفْت عن بدر على ابنة رسول الله ﷺ وهي مريضة[١٠]، فضرب رسول الله ﷺ بسهمي وأجرى فكنت بمنزلة مَن حَضَر. وولَّيت يوم أحُد، فقد عفا الله ذلك عني، فأما بيعة الرضوان فإني خرجتُ إلى أهل مكة، بعثني رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: إن عثمان في طاعة الله وطاعة رسوله)[١١].

---

(١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١١٠.
(٢) سورة آل عمران: ١٥٣.
(٣) سنتحدث عن هذه النقطة بعد قليل.
(٤) قال ذلك لأنه كان أعمى البصر.
(٥) هذا نوع من التلاعب في الخبر وتحريفه بإخفاء أسماء الشخصيات.
(٦) ملل: وادي يقع غرب المدينة المنورة على بُعد ٤٠ كم تقريباً.
(٧) الشقرة: وادي بين المدينة المنورة والقصيم على بُعد ٨٠ كم تقريباً، وبتقديري أن في الخبر مبالغة.
(٨) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥.
(٩) الوليد بن عقبة أخو الخليفة عثمان بن عفان لأمه، فأمهما أروى بنت كريز.
(١٠) وهي السيدة رقية.
(١١) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥.

وقد كان لاستشهاد حامل لواء المسلمين مصعب بن عمير أثر كبير في سيطرة الروح الانهزامية على المسلمين، فقد حمل مصعبٌ اللواء، فلما جال المسلمون ثبت به، فأقبل ابن قَمِيئَة[١] ـ وهو فارس ـ فضرب يده اليمنى فقطعها..... وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنَى عليه فقطع يده اليسرى، فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره..... ثم حمل عليه الثالثة فأنفذه واندقَّ الرمح، ووقع مصعب وسقط اللواء، وابتدرَه رجلان من بني عبد الدار، سُويبِط بن حرملة وأبو الروم، وأخذه أبو الروم فلم يزل في يده حتى دخل به المدينة حين انصرف المسلمون[٢].

• **ثبوت النبي وبطولات علي**: وثبت رسول الله ﷺ في ساحة المعركة، يواجه خطر الموت دون مبالاة، وهو المستهدَف الأول، وكان في ثباته هذا ينادي بالمسلمين للصمود، بينما بدأ المشركون بالبحث عنه لاستهدافه، وقد تعاهد أربعة من المشركين ـ وهم عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وابن قميئة، وأبيّ بن خلف ـ وتعاقدوا على قتله، وتعرّضوا له، ووصلوا إليه وهو على فرسه لابس درعين مُثقَل بهما، فوقع عن الفرس في حفرة كانت أمامه، وأصيب بجراحات متفرقة، حيث أصيبت رباعيَّته السفلى، وشُقّت شفتُه وكَلُم في وجنتيه وجبهته، في أصول شعره، وجُحشت ركبتاه، ولما أغني عليه اعتقدوا أنهم قد قتلوه، فصاروا ينادون بأعلى أصواتهم أن محمداً قد قُتل. وإذ سرت على إثر ذلك إشاعة قتل النبي ﷺ، ازداد وهن المسلمين، وشد ذلك من عزيمة المشركين.

وقد تحدث القرآن عن هذا الخلل الذي أصاب موقف المسلمين على أثر تلك الإشاعة حيث قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[٣].

وتحرك مَن تواجد من المنافقين في المعركة للتأثير على المسلمين: (**وقال منافق: إن رسول الله قد قُتل، فارجعوا إلى قومكم، فإنهم داخلوا البيوت**)[٤].

ووقف علي عَلَيْهِ السَّلَامُ دفاعاً عن رسول الله ﷺ، مع نفر قليل من الصحابة اختلفوا في عددهم ما بين السبعة مع الإمام علي، إلى الثلاثين.. واختلفوا في أسمائهم، ولكنهم اتفقوا على أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أحدهم دون شك.

وروي أنه قال: (**لمّا انهزم الناس عن رسول الله ﷺ لحقني من الجزع ما لم أملك نفسي، وكنت أمامه أضرب بسيفي المشركين، فرجعت أطلبه فلم أره، فقلت: ما كان رسول الله ﷺ ليفر، وما رأيته في القتلى، وأظنّه رُفع من بيننا إلى السماء. فكسرتُ جفنَ سيفي وقلت: لأقاتلنّ به حتّى أُقتَل، وحملت على القوم فأفرجوا، فإذا أنا برسول الله ﷺ قد وقع مغشيّاً عليه، فنظر إليّ وقال: ما فعل الناس يا عليّ؟ فقلت: كفروا[٥] يا رسول الله وولّوا الدبر وأسلموك إلى عدوّك، فنظر إلى كتيبة قد أقبلت فقال: ردّهم عنّي، فحملت عليهم أضربهم يميناً**

---

(١) هو عبدالله بن قميئة الحارثي.

(٢) الواقدي: المغازي، ج ١، ص٩٠.

(٣). سورة آل عمران:١٤٤.

(٤). الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٦.

(٥) ليس المقصود من الكفر الكفر العقدي، بل الكفر بمعنى العصيان وعدم الثبات.. هذا إن صح النص وصدق الراوي.

وشمالاً حتّى قتلت منهم هشام بن أميّة المخزومي، وانهزم الباقون. وأقبلت كتيبة أخرى فقال لي ﷺ: احمل على هذه، فحملت عليهم وقتلت منهم عمر بن عبد الله الجمحي، وانهزموا أيضاً، وجاءت أخرى فحملت عليها وقتلت منها بشر بن مالك العامري، وانهزموا. ولم يزل عليه السلام يُقاتل في ذلك اليوم ويفرّق جموعَ القوم عن رسول الله ﷺ حتّى أصابه في رأسه ووجهه وبدنه سبعون جراحة، وهو قائم وحدَه بين يدي رسول الله ﷺ لا يغفل عنه طرفة عين، فقال له ﷺ: يا عليّ، أما تسمع مديحك في السماء؟ إنّ ملكاً اسمه رضوان ينادي بين الملائكة: لا سيف إلاّ ذو الفقار، ولا فتى إلا عليّ)[١].

أما الصامدون مع علي عليه السلام، ففي بعض الأخبار أن النبي ﷺ قد: (بايعه يومئذ على الموت ثمانية، ثلاثة من المهاجرين و خمسة من الأنصار، فأما المهاجرون فعلي عليه السلام وطلحة، والزبير، وأما الأنصار ف: أبو دجانة، والحارث بن الصُّمَّة، والحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حُنيف، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحَد)[٢].

• لا فتى إلا علي: قال ابن أبي الحديد: (وروى المحدثون أيضاً أن المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي. فقال رسول الله ﷺ لمن حضره: ألا تسمعون ؟ هذا صوت جبرئيل)[٣].

وقد شرح ابن أبي الحديد هذه القضية بتفصيل أكثر إذ كتب في شرحه لنهج البلاغة يقول: (لما فرّ معظم أصحاب النبي يوم أُحُد كثرت عليه كتائبُ المشركين وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن كنانة فيها بنو سفيان بن عويف، وهم خالد بن ثعلب وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان وغراب بن سفيان، وإنها لتقارب خمسين فارساً وهو عليه السلام راجلٌ، فما زال يضربها بالسيف

أبو دُجانة سماك بن خرشة الأنصاري الخزرجي، شهد مع النبي بدراً وما بعدها، ثم شهد حروب الردة، واستشهد في معركة اليمامة، وكان من الشجعان، وكانت له عصابة حمراء يرتديها تُميّزه في المعارك.

الحارث بن الصمة الأنصاري الخزرجي، شهد معركة بئر معونة، حيث أرسل النبي سبعين من قراء القرآن مع ملاعب الأسنّة بحسب طلبه لنشر الإسلام بين بعض القبائل البدوية، ولكن غُدر بهم لاحقاً، فقُتل يومئذ شهيداً.

عاصم بن ثابت الأنصاري الأوسي، شهد بدراً وأُحُد، وفي السنة الرابعة وفَد على النبي بعض بني لحيان طالبين توجيه نفرٍ معهم لنشر الإسلام في ديارهم، فوجّه معهم عاصمً في عدّة من أصحابه، فلمّا قَدموا بلادَهم، أبان القوم نيتهم الخبيثة، وطلبوا من المسلمين الاستسلام ليبيعوهم على أهل مكة، فرفضوا وقاتلوا حتى استشهدوا بمن فيهم عاصم بن ثابت.

سهل بن حنيف الأنصاري الأوسي «ت ٣٨هـ». شهد مع النبي المشاهد كلها، وكان من أنصار الإمام علي بن أبي طالب بعد استخلافه، فولاه المدينة المنورة والبصرة وبلاد فارس، كما شهد معه وقعة صفين.

(١) الديلمي: إرشاد القلوب، ج١، ص ٦١-٦٢.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٢٠.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٥٦١.

تتفرق عنه ثم تجتمع عليه، هكذا مراراً، حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة وتمام العشرة منها ممن لا يُعرف أسماؤهم).

ثم نقل ابن أبي الحديد ما قاله جبرئيل، ثم كتب يقول: **(وقد روى هذا الخبر جماعةٌ من المحدثين وهو من الأخبار المشهورة وقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق ورأيت بعضها خالياً عنها، وسألت شيخي عبدالوهاب بن سكينة عن هذا الخبر، فقال: خبرٌ صحيحٌ. فقلت: له فما بال الصحاح[١] لم تشتمل عليه ؟ قال: أوَ كلُّ ما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح ؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة)**[٢].

وقد بلغ علي عليه السلام ـ حسب رواية علل الشرائع ـ من كثرة ضربه لطوائف المشركين الذين كانوا يحملون على رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد، أن انكسر سيفه، فجاء إلى النبي وقال: **يا رسول الله، إنّ الرجل يقاتل بسلاحه وقد انكسر سيفي**. فأعطاه سيفَه ذا الفقار، فما زال يدفع به عن رسول الله، فقال جبرئيل في حقه وفي سيفه ما مر[٣].

وقد أشار ابن هشام في سيرته إلى العبارة التي نادى بها جبرئيل إذ قال: **(وحدثني بعض أهل العلم إن ابن أبي نجيح قال: نادى مناد يوم أحُد: لا سيفَ إلا ذوالفقار، ولا فتى إلا علي)**[٤]. كما عدد ابن هشام في سيرته القتلى من المشركين في أحُد فكانوا اثنين وعشرين رجلاً، وقد ذكر أسماءهم واحداً واحداً وذكر قبائلهم، وغير ذلك من خصوصياتهم، وقد قُتلَ منهم اثنا عشر رجلاً بيد علي عليه السلام، وقُتل البقية بأيدي المسلمين.

وحيث صمد أبو دجانة الأنصاري مع النبي ومع علي، إلا أنه لم يزل يقاتل حتى أثخنته الجراح وسقط، فاحتمله علي عليه السلام، فجاء به إلى النبي فوضعه عنده، فقال أبودجانة: **يا رسول الله، أوفيتُ ببيعتي ؟**

قال: **نعم**. وقال له النبي خيراً[٥].

ثم إن التاريخ سجل لنسيبة بنت كعب رضي الله عنها موقفاً بطولياً في تلك اللحظات العصيبة، إذ صمدت في أوج المعركة حين انهزم الناس، ودافعت عن رسول الله وقاتلت المشركين ونادت بالمسلمين للعودة إلى ساحة القتال، وجُرحت اثني عشر جرحاً، بين طعنة برمح أو ضربة بسيف[٦].

- **نهاية المعركة**: بعد إصابة النبي صلى الله عليه وآله وتفرّق

أم عمارة، نسيبة بنت كعب الأنصارية الخزرجية النجارية، تزوجت قبل الإسلام زيد بن عاصم الأنصاري وهو من الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة، وأنجبت له ولدين. كانت من أوائل أهل يثرب دخولاً في الإسلام، فقد كانت إحدى امرأتين بايعتا النبي بيعة العقبة الثانية. توفيت بعد معركة اليمامة بعام متأثرة بجراحها وقد قطعت يدها حينئذ.

(١) أي كتب الصحاح كالبخاري ومسلم.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢٤، ص ٢٥٠-٢٥١.
(٣) الصدوق: علل الشرائع، ص ٧.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٠٠.
(٥) الكليني: الروضة من الكافي، ج٨، ص٣٢٠.
(٦) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٠١.

الكثير من المقاتلين واستشهاد عدة من المجموعة الصامدة أو إصابتها بجراح شديدة، أخِذ النبي إلى شِعب[١] في جبل أحد بعيداً عن مرمى المشركين الذين استهدفوه من قبل، ولربما يستهدفونه من جديد. قال المقريزي: (**وكان رسول الله ﷺ ـ لما انكشف المسلمون ـ لم يبق معه إلا نُفير، فأحدق به أصحابُه من المهاجرين والأنصار، وانطلقوا به إلى الشِّعب وما للمسلمين لواء قائمٌ ولا فئة ولا جَمْع، وإنَّ كتائب المشركين لتحوشهم[٢] مقبلة ومدبرة في الوادي يلتقون ويفترقون، ما يرون أحداً من الناس يردُّهم، ثم رجعوا نحو معسكرهم واشتوروا في المدينة وفي طلب المسلمين[٣]، فبينا هم على ما هُم فيه، إذ طلع رسول الله ﷺ إلى أصحابه: فكأنهم لم يُصبْهم شئ حين رأوه سالماً**)[٤].وبذا تكون الحرب قد وَضَعت أوزارها، وتباعد الجانبان، وتحمّل المسلمون من الخسائر في الأرواح ثلاثة أضعاف ما تحمّله المشركون، حيث استشهد في المعركة أكثر من سبعين من مقاتلي المسلمين، بعضهم قبل وقوع الهزيمة، وأكثرُهم بعدها، ومن الشهداء سيدهم حمزة بن عبدالمطلب الذي كان يَفري المشركين فرياً بسيفه، فكمن له وحشي وقتله بطعنة رمح.

وازداد الأمر سوء حين عمدت بعض نسوة المشركين كهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان إلى التمثيل بجثث الشهداء وتقطيع الأنامل والأنوف والآذان، وصنع القلائد منها ليرتدينها اعتزازاً بالانتقام! كما عمدت هند إلى شق صدر حمزة بن عبدالمطلب أسد الله ورسوله، فأخرجت كبده ولاكته بين أسنانها، ثم سرعان ما لفظته من فمها ! ولذا عُرفت هذه المرأة لاحقاً بلقب آكلة الأكباد. وقبيل مغادرة الغزاة لموقع القتال، قام أبوسفيان بحركة استعراضية أراد منها التشفّي وإظهار الغلبة والتأكد من خبر ابن قميئة الذي ادّعى أنه قتل النبي ﷺ، حيث قام أبو سفيان فنادى بعض المسلمين: **أحيٌّ ابن أبي كبشة؟ فأما ابنُ أبي طالب فقد رأيناه مكانه.**

فقال علي عليه السلام: **إي والذي بعثه بالحق، إنه ليسمع كلامك.**

قال: **إنه قد كانت في قتلاكم مُثلة، والله ما أمرتُ ولا نهيت، إنَّ ميعاد ما بيننا وبينكم موسم بدر في قابل هذا الشهر.**

فقال رسول الله ﷺ: **قل: نعم.**

فقال: **نعم.**

فقال أبو سفيان لعلي عليه السلام: **إن ابن قميئة أخبرني أنه قَتل محمداً، وأنت أصدق عندي وأبرّ.**

ثم ولّى إلى أصحابه وقال: **اتخِذوا الليل جملاً**[٥]، **وانصرِفوا**[٦].

---

(١) الشعب: انفراجٌ بين الجبلين. والجمع : شِعابٌ.
(٢) تحوشهم: يأخذونهم من حواليهم من كل جانب.
(٣) أي شاور بعضهم البعض في غزو المدينة وملاحقة المسلمين.
(٤) المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ١٤٧.
(٥) اتخذ الليل جملا: يضرب لمن يعمل عَمَلَه بالليل ؛ كأَنه رَكِبَ اللَّيْل ولم يَنَمْ فيه.
(٦) الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ١٨١.

وعاد المسلمون إلى المدينة ـ بعد دفن شهدائهم حيث المعركة أو حملهم معم إلى المدينة لدفنهم ـ في حزن شديد، ولايكاد بيت من بيوتها يخلو من بكاء ونَوح على الشهداء، إلا أن هذه المعركة الأليمة بنتائجها كانت درساً جديداً للمسلمين لينطلقوا من خلاله إلى مواجهة الابتلاءات الأخرى في طريق تحقيق الفتح الكبير.

ودعا رسول الله ﷺ علياً عليه السلام للتأكد من مغادرة المشركين للمنطقة فقال: **اتبعهم فانظر أين يريدون، فإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، وإن كانوا ركبوا الإبل وساقوا الخيل فهم متوجهون إلى مكة.**

فعاد الإمام بالخبر وقال: **فرأيت خيلهم تضرب بأذنابها مجنوبة**[١] **مُدبِرة، ورأيت القوم قد تجمَّلوا**[٢] **سائرين.** فطابت أنفس المسلمين بذهاب العدو[٣].

ثم عزم النبي على أن يرفع من معنويات أصحابه بعد تأثرهم الشديد بالهزيمة والخسائر في الأنفس والأموال، كما وأراد أن يضمن عدم كرّ المشركين على المدينة، وإظهار القوة أمام الأعراب في المنطقة ممن قد يطمعون في غزوها لو وجدوا المسلمين في حالة ضعف، لذا فقد أمر بلالاً في صبيحة اليوم الثاني من عودته إلى المدينة ـ وبعد أن صلّى الفجر ـ أن ينادي بالخروج لملاحقة المشركين، وأن لا يخرج إلا مَن شهد القتال بالأمس. وبدأ المسلمون ـ فعلاً ـ بالتنادي للخروج ولم يهتمّوا لجراحاتهم، فلما نظر رسول الله إليهم والجراح فيهم فاشية دعا لهم بالرحمة.

ودعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يُحَل من الأمس، فدفعه إلى علي عليه السلام ثم صلى ركعتين في المسجد وأرسل ثلاثة نفر لاستقصاء أمر القوم، ثم تحرك بمن معه نحو حمراء الأسد، فأمر أصحابه بالنزول هناك، وأن يجمعوا الحطب نهاراً ويوقدوها ليلاً، وأقام المسلمون بذلك المحل ثلاث ليال، وكانوا يوقدون في كل ليلة من تلك الليالي خمسمائة نار، حتى تُرى من المكان البعيد. وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه[٤].

وهناك، وفد مَعبَد بن أبي مَعبَد الخزاعي[٥] على النبي ﷺ وأظهر حزناً على ما أصاب المسلمين، ثم ذهب إلى حيث نزلت قريش فوجدهم يتلاومون لعدم القضاء على النبي والمسلمين نهائياً، ويحدّثون أنفسهم بالعودة إلى المدينة، فبدأ الخزاعي يخذّلهم ويخوّفهم، قال: (**تركتُ محمداً وأصحابَه خلفي يتحرّقون عليكم بمثل النيران و قد اجتمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس و الخزرج، و تعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم، فيثأروا منكم، وقد غضبوا لقومهم غضباً شديداً و لمن أصبتم مِن أشرافهم**)، ولذا اقتنع الجمع بضرورة العودة إلى مكة وصرف النظر عن مهاجمة المدينة[٦].

إلا أن أباسفيان لم يهنأ له الأمر أن يغادر المكان بهذه الصورة، ولذا فقد طلب من نفر مِن عبدالقيس كانوا يمضون

---

(١) مجنوبة: وضعت على جنب لأنها غير مركوبة.
(٢) تجملوا: ركبوا جمالهم.
(٣) الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ١٨١.
(٤) الزرقاني: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، ج٢، ص ٤٦٧.
(٥) كان معبد على الرغم من شركه حليفاً للنبي.
(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٥٨-٦٠.

باتجاه المدينة أن يبلّغوا النبي بأنهم قرروا العودة إلى القتال، وأنهم قادمون خلفهم، ووعدهم بأن يعطيهم كميات من الزبيب عندما يلتقيهم بعكاظ. وفعلاً قام الوفد بهذا الدور فدخل الحزن في قلوب المسلمين، وصمّموا على القتال متوكلين على الله.

ولم يدم الأمر كثيراً حتى انكشفت الخدعة، حيث أرسل معبد الخزاعي رسولاً إلى النبي ﷺ يُعلمه أن قريشاً هابته، وأنها قد غادرت. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1].

• **تمنّي الشهادة:** روى الشريف الرضي في نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام: (**لما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ قولَه ﴿الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ علمْتُ أنَّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرَك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها؟ فقال ﷺ: يا عليّ، إنَّ أمتي سيُفتنون من بعدي. فقلت: يا رسول الله، أو ليس قد قلت لي يوم أُحُد، حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت[2] عنّي الشهادة، فشقّ عليّ ذلك، فقلت لي: أبشِر فإنَّ الشهادة من ورائك؟ فقال ﷺ: ذلك كذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر**).

(١) سورة آل عمران:١٧٢-١٧٣.
(٢) حيزت: أبعدت.

قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الفقرة: (**وهذا الخبر مرويٌّ عن رسول الله ﷺ، قد رواه كثير من المُحدِّثين عن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ قال له: إنّ الله قد كتبَ عليك جِهاد المَفتونين ، كما كتَبَ عليَّ جِهادالمُشركين. قال، فقلت: يا رسولَ الله، ما هذه الفتنة التي كُتبَ عليّ فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وهم مخالفون للسُنّة. فقلت: يا رسول الله، فعلامَ أُقاتلهم وهُم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الإحداث في الدِّين، ومخالفة الأمر. قلت: يا رسول الله، إنّك كنت وعدْتَني الشهادة، فاسأل الله أن يجعلها لي بين يديك. قال: فمَن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أما إنّي وعدتك الشهادة وسَتُسْتشهد، تُضرَب على هذه فتُخضب هذه، فكيف صبرك إذن؟ قلت: يا رسول الله، ليس ذا بمَوطِن صبر، هذا مَوطن شُكر. قال: أجَل، أصَبْت**)[1].

۞ غزوة بني النضير:

• **ظروف الغزوة:** بعد هزيمة المسلمين في أُحُد، فرح منافقو المدينة ويهودها بهذه الانتكاسة، كما باتوا يتحيّنون الفرصة لإثارة القلاقل والفتن في المدينة لإفهام القبائل القاطنة خارجها بأنه لاتوجد أية وحدة سياسيّة وانسجام اجتماعيّ في مركز الإسلام وعاصمة الحكومة الإسلامية، وأن الفرصة قائمة للإجهاز على دولة النبي الفتية.

وتوجس النبي خيفة مما يضمره اليهود، ولكي يقف على نوايا بني النضير، مشى في جماعة من أصحابه إلى حصنهم، فاكتشف هناك ما صدق ظنه ! لقد قرر سادتهم التخلص من النبي باغتياله غدراً، وذلك بأن يعلو أحدهم على البيت الذي استند رسول الله ﷺ إلى جداره فيلقي عليه صخرة تقتله .

نهض رسول الله من مجلسه سريعاً، كأنه يريد حاجة، وتوجه فوراً إلى المدينة دون أن يخبر أصحابه الذين أتوا معه، بقصده ، وبقي أصحابه هناك ينتظرون عودته من حاجته دون جدوى، فأحس اليهود بانفضاح أمرهم مما جعلهم يعيشون حالة من التخبط في اتخاذ القرار في اللحظات القادمة الحاسمة.

فمن جهة خشي قادتهم من ردة فعل النبي، ومن ناحية أخرى أخذ بعضهم يفكّر في المبادرة بقتل أصحاب النبي الموجودين في ضيافتهم، بهدف توجيه ضربة موجعة للمسلمين قد ينصرفون معها عن التفكير في قتالهم !

وقرر الصحابة العودة إلى المدينة، وتم ذلك دون أية مشكلة تذكر، وما أن التقوا برسول الله ﷺ حتى أخبرهم عن حقيقة الموقف: همّت اليهود بالغدر بي، فأخبرني الله بذلك، فقمت .

لقد بات الخيار أمام المسلمين واضحاً، لابد من تأديب بني النضير، وهكذا أرسل النبي مبعوثه محمد بن مسلمة الأنصاري مبلغاً إياهم ضرورة الجلاء عن المدينة المنورة خلال عشرة أيام، لأنهم نقضوا العهد، وإلا فالموت مصير المتخلفين.

محمد بن مسلمة الأنصاري، حارثي من حلفاء بني عبد الأشهل، ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة، وتوفي سنة ٤٣هـ. أسلم على يد مصعب بن عمير حينما كان في المدينة، وآخى الرسول بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح. كان أحد المشاركين في تهديد بيت الزهراء بعد السقيفة. لم يبايع لأمير المؤمنين علي حين بايعه الناس بعد مقتل الخليفة عثمان.

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ٢٠٥-٢٠٦.

وبرز في هذا المقطع الزمني الحساس دور خبيث للمنافقين، فقد راسل بعض زعمائهم ـ كابن سلول ـ اليهود مشجعين إياهم على المقاومة، وأنهم سيكونون في نصرتهم بألفي مقاتل والكثير من الأموال والعتاد إن هم قرروا القتال، فتشجع حيي بن أخطب وآخرون من قادة بني النضير لهذه الأماني، وقرروا خوض المعركة.

عرف النبي بمخططات المنافقين، فعجّل في الخروج إلى حيث يسكن بنو النضير، وأعطى رايته علي بن أبي طالب، وسار إليهم فصلى العصر وضرب قبته هناك ، وحاصرهم وقطع الطريق بينهم وبين بني قريظة، واستمر الحصار عدة أيام قام بعدها النبي بقطع بعض أشجار النخيل الخاصة بهم، فضجوا واتهموه بالإفساد في الأرض، فنزل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[١].

أما المنافقون، فإنهم خذلوا اليهود ولم ينصروهم، مما حدى بهم للاستسلام مقابل أن يسمح لهم النبي بحمل ما تستطيع إبلهم حمله من متاع ماعدا السلاح والدروع.

وهكذا انتهت هذه الغزوة بهذا القرار المذل، وخرج بنو النضير نحو خيبر، يحملون كل ما استطاعوا حمله، حتى أن أحدهم كان يقلع باب بيته فيضعه على الناقة، ثم يهدم بيته لئلا يستفيد المسلمون منه لاحقاً !

وقد تحدثت سورة الحشر عن بعض أجواء هذه الغزوة، فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ، وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢].

ولابد من الإشارة إلى أن المؤرخين اختلفوا في تحديد مدة الحصار ما بين ستة إلى خمسة عشر يوماً، كما أنهم اختلفوا في وقوع القتال بين الطرفين. وقد ذكر المقريزي أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ فُقِد في إحدى ليالي هذه الغزوة، فقال النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: **إنه في بعض شأنكم.**

وسرعان ما جاء علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يحمل رأس عزورا[٣] اليهودي الذي عُرف عنه شدة بأسه، حيث كمن له علي حتى خرج في نفر من اليهود أرادوا أن يأخذوا المسلمين على حين غرة، فشدّ عليه، فقتله وفرّ من معه من اليهود . وروى بعض المؤرخين أن الإمام لما جاء برأس اليهودي وطرحه بين يدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سأله: **كيف صنعت يا أبا الحسن ؟**

فقال الإمام: **إني رأيت هذا الخبيث جريئاً شجاعاً، فقلت: ما أجرأه أن يخرج إذا اختلط الليل يطلب منا غرة. فكمنت له، فأقبل مصلتاً بسيفه في تسعة نفر من اليهود، فشددت عليه وقتلته، وأفلت أصحابه ولم يبرحوا قريباً، فابعث معي نفراً فإني أرجو أن أظفر بهم.**

---

(١) سورة الحشر: ٥.

(٢) سورة الحشر: ٢-٤.

(٣) وقيل عزرا.

فبعث رسول الله معه عشرة فيهم أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، فأدركوهم قبل أن يلجوا الحصن فقتلوهم وجاؤوا برؤوسهم إلى فبعث معه عشرة فيهم أبو دجانة وسهل بن حنيف فأدركوهم قبل أن يلجوا الحصن، فقتلوهم وجاءوا برؤوسهم إلى النبي ﷺ، فأمر أن تُطرح في بعض آبار بني حطمة وكان ذلك سبب فتح حصون بني النضير[١].

قال العلامة الأمين: ثم تلا غزوة بني النضير غزوات أخرى غير مهمة، كغزوة بدر الموعد وحمل لواء النبي ﷺ فيها علي بن أبي طالب، وغزوتي ذات الرقاع ودومة الجندل وغيرهما.

۞ غزوة الأحزاب «الخندق»:

• **ظروف الغزوة:** مع تنامي قوة المسلمين بشكل تدريجي من خلال السرايا التي بعث بها النبي ﷺ واستطاع من خلالها إخافة بعض القبائل العربية التي يُتوقّع منها الغدر أو التحالف مع قريش، وعقد التحالفات أو المعاهدات الأمنية معها، وقلق قريش المستمر من عدم حسم أمر المسلمين، وذلك بسبب تلقي الهزيمة في بدر، وعدم تحقيق انتصار حاسم في أُحُد، وانتصار المسلمين في مواجهتهم ضد يهود بني النضير، عمد عشرون من رجالات بني النضير وعلى رأسهم حيي بن أخطب إلى تأليب قريش على المسلمين بإشعال الحرب، ووعدوهم بالنصرة والمدد.

فعزمت قريش بكل ما أوتيت من قوة لتنفيذ المؤامرة، وعقدت اتفاقاً مع اليهود، خرج على إثرها وفد اليهود لحشد القبائل العربية النازلة في البراري، وتمكنوا من حشد ٦٠٠٠ مقاتل منهم. قال الواقدي: (**فخرجت اليهود حتى أتت غطفان، وأخذت قريش في الجهاز، وسيرت في العرب تدعوهم إلى نصرها، وألّبوا أحابيشهم ومَن تبعهم. ثم خرجت اليهود حتى جاءوا بني سُليم، فوعدوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش. ثم ساروا في غطفان، فجعلوا لهم تمر خيبر سنة، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا. فأنعَمت[٢] بذلك غطفان**)[٣]. كما وافقت قبيلة بني أسد على المشاركة أيضاً منضمة بذلك إلى جيش الأحزاب الذي تشكل من:

* **القوة القرشية:** قدّرت بعض النصوص قوة قريش ومن تبعها بأربعة آلاف مقاتل، وعقدوا اللواء في دار الندوة، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير.

* قوى الأعراب، وتألفت من:

١. سُليم: سبعمائة مقاتل.

٢. أشجع: أربعمائة مقاتل.

٣. فزارة: ألف مقاتل.

٤. أسد: ولم يذكر تعدادهم.

---

(١) اليوسفي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٢، ص٤٠٥-٤٠٦.

(٢) أنعمت: وافقت.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٤.

ومجاميع قبلية أخرى،حتى بلغ المجموع عشرة آلاف مقاتل تقريباً موزّعين بين القبائل العربية وبين قريش، وكانت قيادة تحالف الأحزاب بيد أبي سفيان بن حرب.

لما علم النبي ﷺ بالخبر، جمع الناس وأخبرهم خبر عدوِّهم، وشجّعهم على الجد والجهاد في الخروج لمواجهة العدو والصمود في وجه العدوان، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله. كما شاورهم رسول الله ﷺ في كيفية المواجهة وخيّرهم بين الخروج والبروز لهم من المدينة، أو البقاء فيها والتحصن في آطامها وحصونها، فيكون القتال بين أزقتها وبساتينها.

اختلف المسلمون فيما بينهم، فقال سلمان الفارسي: (**يا رسول الله، إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوّفنا الخيل خندقنا علينا؛ فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟**)[1]. أعجب رأيُ سلمان المسلمين، وساندته ذكرياتهم الأليمة بخصوص ما جرى في غزوة أحد، كما والتقى بذلك مع تفضيل النبي ﷺ البقاء في المدينة كما عرفنا في معركة أحد، وإن كانت فكرته مبتكرة من حيث الأسلوب، واختلفت مع مقترح اللجوء إلى الحصون والآطام ومحاربة العدو من ورائها وفي أزقة المدينة وبين بساتينها.

وأما مكان الخندق والمواجهة فسيكون على مشارف المدينة المنورة، شمال غرب المسجد النبوي الشريف عند جبل سلع، بين حرّتي واقم «الحرة الشرقية» والوبرة «الحرة الغربية». وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى، إذ أن مكة المكرمة تقع جنوب المدينة المنورة، والمنطق يقتضي أن تكون المواجهة في الجهة الجنوبية من المدينة، فلم كانت في الشمال الغربي؟ والجواب عن ذلك يتضح من خلال الاطلاع على جغرافية المدينة، حيث كانت محصّنة طبيعياً وعمرانياً من الجهات التالية:

- جنوباً، مساكن وغابات النخيل الخاصة باليهود. بالإضافة إلى تلاصق وتقارب بيوت المسلمين بحيث شكلت ما يشبه الجدار أو السور.
- شرقاً، الأرض الوعرة المغطاة بالحمم البركانية «حَرَّة واقم».
- غرباً، الأرض الوعرة المغطاة بالحمم البركانية «حرة الوبرة».

تم إنجاز حفر الخندق وتحصينه في ستة أيام من شهر رمضان من السنة الهجرية الخامسة، وقد قدّم الباحث في تاريخ المدينة المنورة المهندس المعماري «عبدالعزيز بن عبد الرحمن كعكي» المعاصر محاولة لتحديد مسار الخندق ومواصفاته، معتمداً على بعض الدراسات السابقة والمقاسات وعلى المصوَّرات الجوية والفضائية والمعالم الثابتة والقائمة على الطبيعة، وساند دراسته بمعلومات من بعض كبار السن من أهل المدينة ممن تواتروا نقل بعض أخبار مسار الخندق، وخاصة من غربي جبل سلع، مبيناً أن طول الخندق في ظل النصوص التاريخية يظهر من عدد المسلمين المشاركين في غزوة الخندق وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل، وهم الذين شاركوا في حفر الخندق، حيث كلف النبي ﷺ كل عشرة من الصحابة بحفر أربعين ذراعاً، وبذلك يكون قد قسّم النبي جيشه إلى ٣٠٠ مجموعة، كل مجموعة مكلفة

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥.

بحفر ٤٠ ذارعاً.. إذاً فطول ما تم حفره هو ٣٠٠ × ٤٠ = ١٢٠٠٠ ذراعاً، وهذا المقاس لكامل طول الخندق الرئيسي الذي حفره الأنصار والمهاجرون، والفرعي الذي حفره بنو عبد الأشهل إلى الشرق، وبنو دينار إلى الجنوب[١]. وإذا اعتبرنا الذراع قرابة ٤٥ سم، فالنتيجة ستكون: ٥٤٠٠ متراً. أما الدكتور «راغب السرجاني» فاعتبر أن عمق الخندق يبلغ خمسة أمتار، بينما يصل عرضه في أقل التقديرات إلى خمسة أمتار أيضاً، وأن بعض التقديرات تذهب به إلى ١٠ و١٢ مترًا، بينما يبلغ طوله اثني عشر كيلو متراً. وهذه الأبعاد تدل على أن الأرض المفروض حفرها يبلغ حجمها ٣٠٠ ألف متر مكعب[٢]. وابتعد الدكتور «تنيضب الفايدي» بقوله كثيراً عما سبق، إذ اعتبر أن طول الخندق كان في حدود ٢٧٢٥ متراً، وعرضه في حدود ٤ أمتار، بينما تراوح عمقه بين ٣ و ٥, ٤ متراً [٣].

اتخذ النبي ﷺ إجراءً آخر وذلك بهدف حماية النساء والأطفال، حيث أمر بإدخالهم في الآطام، كما وتم حفر خندق حول إحدى الحصون بقباء الواقعة إلى جنوب المدينة، كما اختار النبي موقع قيادته ليكون على جبل سلع حيث يوجد مسجد الفتح اليوم.

في ضمن هذه الظروف الصعبة ازداد الوضع تعقيداً، ففي حين تضمّن العهد القائم بين النبي ويهود المدينة عدم اتخاذ اليهود موقفاً ضده أو معه ـ وقيل بل: وأن ينصروه فيما لو غزاه الأعداء ـ إلا أن بني قريظة نقضوا هذا العهد،

(١) صحيفة الرياض الإلكترونية، العدد ١٥٨٦٣.
(٢) السرجاني: موقع قصة الإسلام، حفر الخندق، نشر بتاريخ ٢٠١٠/٤/١٧.
(٣) صحيفة المدينة الإلكترونية، نشر المقال بتاريخ ٢٠١١/٠٦/٢٤.

إذ استجابوا لحُيَي بن أخطب وآخرين من اليهود بغرض مساعدة الأحزاب ضد المسلمين، وقد طلب أبوسفيان من حُيي أن يتوجه إلى بني قريظة بغرض النصرة، فتوجه حُيي من مكة إلى المدينة، ودخل حي بني قريظة، فكرهوا ذلك، وبدت منهم ردات فعل سلبية في البداية، ولكنه استطاع أن يقنعهم بضرورة اتخاذ قرار النقض لاسيما بلحاظ قدوم جيش الأحزاب الذي لا يمكن للمسلمين هزيمته.

وفعلاً، تم شق الكتاب الذي بين قريظة وبين النبي ﷺ بيد حيي، الذي بادر بالخروج إلى جموع بني قريظة وقد التفوا حول منزل كعب ليُخبرهم أن الأمر قد تم، وأن لا عهد بينهم وبين النبي بعد اليوم.

وبلغ النبي ﷺ ما جرى وهو في قبته المشرفة على الخندق، فاشتدَّ ذلك عليه، وأرسل الزبير ليستطلع الأمر، فعاد وأخبره باستعداداتهم قائلاً: (**يا رسول الله، رأيتهم يُصلحون حصونهم، ويُدرِبون طُرُقَهم**[١]، **وقد جمعوا ماشيتهم**)[٢]. لم يكتف النبي بهذه الصورة الظاهرية لتصرفات بني قريظة، ولذا استدعى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير، لإجراء المزيد من التحقيقات حول ذلك الخبر، فلعل في الأمر مكيدة للإيقاع بين المسلمين وبني قريظة. وأوصى النبي أولئك النفر بالحيطة عند عودتهم بالخبر، تجنّباً لأي أثر سلبي يمكن أن يتركه في نفوس المسلمين، قال: (**فاذهبوا فانظروا إن كان ما بلغني حقاً؛ فإن كان باطلاً فأظهِروا القول، وإن كان حقاً فتكلموا بكلام تَلحَنون لي به أعرفُه؛ لا تفتُّوا أعضاد المسلمين**)[٣].

توجه الوفد إلي بني قريظة، ودار الحوار بينهم وبين كعب بن أسد القرظي، وبعد التأكد من صحة الخبر، حاولوا ثنيهِ عن القرار الخطير، إلا أنهم لم يجدوا أية استجابة، وسرعان ما تحوّل اللقاء إلى تراشق بالكلام والسباب بعد أن أُهين النبي والمسلمون في محضرهم.

رجع الوفد إلى رسول الله، واكتفى سعد بن معاذ بقوله: (**عَضَلُ وَالْقَارَةُ**)[٤] ففهم النبي الإشارة، وسعى بحكمته أن يحوّل الموقف السلبي الذي اطّلع عليه وأخفاه عن المسلمين إلى موقف إيجابي حيث كبَّر وقال: (**أبشِروا يا معشر المسلمين بنصر الله وعونه**) في محاولة منه لتخفيف الأثر السلبي لخبر نقض بني قريظة العهدَ واستعدادهم للخيانة في ما لو بلغ المسلمين ذلك لاحقاً.

وصدق حدس النبي، حيث تسرّب الخبر (**فاشتد الخوف وعظُم البلاء... ونجم**[٥] **النفاق، وفشل الناس، وعظم البلاء، واشتد الخوف، وخيف على الذراري والنساء**). وحاول النبي ﷺ أن يشجّع المسلمين ويقوّي من عزائمهم فقال: (**إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله**)[٦].

---

(١) أي يصلحونها ويمهدونها لتمكينهم من المواجهة.

(٢) الواقدي: الواقدي، ج١، ص٤٥٤.

(٣) أي يصلحونها ويمهدونها لتمكينهم من المواجهة.

(٤) يشير بذلك إلى خيانة قبيلتي عضل والقارة بمجموعة من قرّاء أصحاب النبي وفيهم عاصم بن ثابت، وقد أشرنا إليها سابقاً.

(٥) نجم: طلع وظهر.

(٦) الواقدي: الواقدي، ج١، ص١٨٠.

• **وصول قوات الأحزاب:** وصلت قوات الأحزاب إلى حيث الخندق، فتفاجأت به، وأدركت منعته، فعسكر الغزاة متوزعين بحسب تشكيلاتهم القبلية:

* **قريش ومن التحق بها:** نزلت برُومَةَ الواقعة شمال غرب المدينة إلى الجنوب من جبل أحد.

* **الأحابيش ومن انضم إليهم من البوادي:** نزلوا وادي العقيق.

* **غطفان:** نزلت بالزغابة إلى جانب جبل أحد.

وكانت البداية صعبة لقوات التحالف نتيجة الجدب: (**وجعلت قريش تسرّح ركابها في وادي العقيق في عضاهه**[١]، **وليس هناك شيء للخيل إلا ما حملوه معهم من علف، وكان علفهم الذرة، وسرّحت غطفان إبلها إلى الغابة في أثلها وطرفائها**[٢] **في عضاه الجرف**[٣]. **وقدموا في زمان ليس في العرض**[٤] **زرع، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر، فأدخلوا حصادهم وأتبانهم. وكانت غطفان ترسل خليها في أثر الحصاد، وكان خيل غطفان ثلاثمائة، بالعرض فيمسك ذلك من خيلهم**[٥]، **وكادت إبلهم تهلك من الهزال. وكانت المدينة. ليالي قدموا. جديبة**)[٦].

• **انصراف المنافقين:** تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض في هذه الغزوة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا، وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولا، قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلا، قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا، يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ**[٧] **وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[٨].

---

(١) العضاه: شجر كبير كثير الشوك.

(٢) الطرفاء: نوع من الشجر من نفس فصيلة الأثل.

(٣) الجرف موضع يقع في شمال غرب المدينة المنورة.

(٤) العرض: أي وادي يشتمل على قرى ومياه.

(٥) أي يحبس عنهم فلا ينالون شيئاً.

(٦) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥.

(٧) الآية الأخيرة تتحدث عن وضعهم النفسي بعد مغادرة الأحزاب في نهاية الغزوة، فهم من شدة خوفهم لم يصدّقوا الخبر، ولو أن الأحزاب جاءت مرة أخرى لتمنوا الهروب بتلك الصورة.

(٨) سورة الأحزاب: ١٢-٢٠.

وفي المقابل قدمت الآيات صورة مخالفة تماماً لحال المؤمنين وموقفهم من هذا الزلزال العظيم، وفيها ثناء على وعيهم وإخلاصهم وتضحياتهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا، لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[١].

ثم تمادت بنو قريظة في خيانتهم بحيث اتخذوا إجراءات عسكرية مساندة للأحزاب، وهموا أن يغيروا على وسط المدينة ليلاً، فأرسلوا حيي بن أخطب إلى قريش أن يأتيهم منهم ألف رجل، ومن غطفان ألف، فيغيروا بهم. فجاء رسول الله ﷺ الخبر بذلك، فعظم البلاء[٢] لأن المسلمين سيغدون بين فكي كماشة بلحاظ موقع مساكن بني قريظة إلى الجنوب. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف ذلك: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾[٣].

سارع النبي لاتخاذ إجراءات احترازية، وشكّل دوريات عسكرية لحماية المدينة، فكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلي في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير، ومعهم خيل المسلمين، فإذا أصبحوا أمِنوا[٤].

وقد وصف الخليفة أبوبكر الحالة النفسية للمسلمين وأثر تدبير النبي، قال: (**لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان، ولقد كنت أوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة، فإذا رأيتهم هادين حمدت الله** عَزَّوَجَلَّ، **فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تُحرَس**)[٥].

• **وبرز الإيمان كله:** حاولت الأحزاب أن تتخطى الخندق العظيم دون فائدة، إلى أن نجح أحد فرسانها وهو عمرو بن عبد ود العامري مع ثلاثة آخرين في عبوره، لتقع على إثر ذلك المواجهة بينه وبين الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَام والتي تُعتبر حدثاً رئيساً ومفصلياً من أحداث الغزوة، ولها دلالاتها المتعددة.

وقد رويت هذه المبارزة بصور متعددة، وسأقوم بعرض مجموعة منها كما جاءت في المصادر المختلفة.

عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد وَد..... بن غالب بن فهر، فهو عامري نسبة إلى جده عامر، وقرشي لأنه من قريش. من أشجع فرسان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. كان يسمى «فارس يليل» لأنه كان يسير بفرسه مع عدد من أصحابه فهجم عليهم عشرة فرسان في وادٍ فهرب جميع أصدقائه وثبت هو لوحده يصارع الفرسان وكانوا عصابة من قطاع الطرق وانتصر عليهم لوحده ليلاً فسمي من ذلك اليوم فارس يليل.

(١) سورة الأحزاب: ٢٢-٢٤.
(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨١.
(٣) سورة الأحزاب: ١٠-١١.
(٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨١.
(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨١.

* **الصورة الأولى:** تأتي هذه الرواية بعد عدة نصوص عن فشل محاولات المشركين لاختراق الخندق، فاتفق رؤساءهم على أن يتجمعوا في الصباح الباكر، فغدا أبو سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب الفهري، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وعمرو بن عبد، ونوفل بن معاوية الديلي، في عدّة، فجعلوا يطيفون بالخندق ومعهم رؤساء غطفان، عيينة بن حصن ومسعود بن رخيلة والحارث بن عوف، ومن سليم رؤساؤهم ومن بني أسد طليحة بن خويلد، وتركوا الرجال منهم خلوفاً، يطلبون مضيقاً يريدون يقتحمون خيلهم إلى الجهة الأخرى من الخندق حيث النبي ﷺ وأصحابه، فانتهوا إلى مكان قد أغفله المسلمون فجعلوا يُكرِهون خيلهم، حتى عبَر عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد، وقام سائر المشركين من وراء الخندق لا يعبرون. وقيل لأبي سفيان: **ألا تعبر؟** قال: **قد عبرتم، فإن احتجتم إلينا عبرنا** [١]. فجعل عمرو بن عبد يدعو إلى البراز ويقول:

ولقد بححت من النـدا ء لجمعكم هل من مبارز

وعمرو يومئذ ثائرٌ، قد شهد بدراً فارتثَّ جريحاً فلم يشهد أُحُداً، وحَرَّم الدُّهن حتى يثأر من محمد وأصحابه وهو يومئذ كبير، يقال بلغ تسعين سنة. فلما دعا إلى البراز قال علي عليه السلام: **أنا أبارزه يا رسول الله** ـ ثلاث مرات ـ وإن المسلمين يومئذ كأن على رءوسهم الطير لمكان عمرو وشجاعته[٢]. فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، وعمَّمه وقال: **اللهم أعنه عليه.**

ثم أقبل عمرو يومئذٍ وهو فارسٌ وعليٌّ راجل، فقال له عليٌّ عليه السلام: **إنك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدةٍ من ثلاثٍ إلا قبلتها.**

قال: **أجل.**

قال عليٌّ: **فإني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتسلم لله رب العالمين.**

قال: **يا ابن أخي، أخِّر هذا عنِّي. قال: فأُخْرى؛ ترجِع إلى بلادك، فإنْ يكن محمدٌ صادقاً كنت أسعد الناس به، وإن غير ذلك كان الذي تريد.**

قال: **هذا ما لا تتحدث به نساء قريشٍ أبداً، وقد نذرت ما نذرت وحرمت الدهن.**

قال: **فالثالثة؟**

قال: **البراز.**

فضحك عمرو ثم قال: **إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني عليها** [٣] **إني لأكره أن أقتل**

---

(١) لاحظ خوف أبي سفيان وسائر من معه من العبور، وفي هذا دلالة على شجاعة الذين عبروا.

(٢) شكك البعض في بطولة الإمام علي في هذا الموقف بلحاظ كبر سن عمرو على الرغم من العبارة السابقة.. وسنعالج هذا الموضوع لاحقاً.

(٣) والعبارة غريبة وفي نص آخر «يرومها مني» أي يطلبها مني، وهي أصح.

مثلك، وكان أبوك لي نديماً؛ فارجع، فأنت غلامٌ حدث، إنما أردت شيخي قريش، أبا بكر وعمر.

قال فقال عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **فإني أدعوك إلى المبارزة، فأنا أحب أن أقتلك.**

فأسف عمرو ونزل وعقل فرسه، فدنا أحدُهما من صاحبه وثارت بينهما غبرةٌ فما نراهما، فسمع المسلمون التكبير تحتها فعرفوا أن علياً قتله. فانكشف أصحابُ عمرو الذين في الخندق هاربين، وطفرت بهم خيلهم، إلا أن نوفل بن عبدالله وقع به فرسه في الخندق، فرُمي بالحجارة حتى قُتل. ورجع الفرسان هاربين، وخرج في أثرهم الزبير بن العوام وعمر بن الخطاب، فناوشوهم ساعة. وحمل ضرار بن الخطاب على عمر بن الخطاب بالرمح، حتى إذا وجد عُمر مس الرمح رفعه عنه وقال: **هذه نعمة مشكورة، فاحفظها يا ابن الخطاب. إني قد كنت حلفت لا تمكنني يداي من رجلٍ من قريشٍ أبداً.** فانصرف ضرار راجعاً إلى أبي سفيان وأصحابه وهم قيامٌ عند جبل بني عبيد[1].

* **الصورة الثانية:** والتي نقلها إلينا ابن أبي الحديد المعتزلي عن الواقعة حيث ذكر خروج عمرو بن عبد وَد شاهراً سيفه مُعلماً مُدلاً بشجاعته وبأسه، وخرج معه ضرار بن الخطاب الفهري وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميون، فطافوا بخيولهم على الخندق إصعاداً و انحداراً يطلبون موضعاً ضيّقاً يعبرونه حتى وقفوا على أضيق موضع فيه، في المكان المعروف بالمزار، فأكرهوا خيولهم على العبور فعبرت، وصاروا مع المسلمين على أرض واحدة، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جالس وأصحابه قيام على رأسه، فتقدم عمرو بن عبد ود فدعا إلى البراز مراراً فلم يقم إليه أحد، فلما أكثر قام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: **أنا أبارزه يا رسول الله.**

فأمره بالجلوس وأعاد عمرو النداء والناس سكوت كأن على رءوسهم الطير، فقال عمرو: **أيها الناس إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة أو يُقدِم عدوا له إلى النار؟**

فلم يقم إليه أحد. فقام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ دفعة ثانية وقال: **أنا له يا رسول الله.**

فأمره بالجلوس، فجال عمرو بفرسه مقبلاً و مدبراً، وجاءت عظماء الأحزاب فوقفت من وراء الخندق ومدت أعناقها تنظر. فلما رأى عمرو أن أحداً لا يجيبه قال:

ولَقَد بَحَحتُ مِن النِّدَا ... ء بِجَمعِهِم هَل مِن مُبارِز
وَوَقَفتُ مُذ جَبُنَ المُشَيّع ... مَوقِفَ القِرنِ المُناجِز
إنّي كَذلِكَ لَم أزَل ... مُتَسَرّعاً قَبلَ الهَزاهِز
إنَّ الشَّجاعَةَ في الفَتَى ... والجُودَ مِن خَيرِ الغَرائِز

فقام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: **يا رسول الله ائذن لي في مبارزته.**

فقال: **ادنُ.**

فدنا فقلده سيفه و عممه بعمامته وقال: **امض لشأنك.** فلما انصرف قال: **اللهم أعنه عليه.**

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٤-١٨٥.

فلما قرب منه قال له مجيبا إياه عن شعره:

لا تَعجَلَنَّ فَقد أتَاكَ ... مُجيبُ صَوتِكَ غَير عَاجِز
ذو نِيَّةٍ وبَصِيرَة ... يَرجُو بِذَاكَ نَجَاةَ فَائِز
إنّي لآمَل أنْ أقِيمَ ... عَلَيكَ نَائِحَةَ الجَنَائِز
مِن ضَربةٍ فَوهَاء يَبقَى ... ذِكرُهَا عِندَ الهَزاهِز

فقال عمرو: **من أنت؟** وكان عمرو شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين، وكان نديم أبي طالب بن عبد المطلب في الجاهلية. فانتسب علي عليه السلام له و قال: **أنا علي بن أبي طالب.**

فقال: **أجل لقد كان أبوك نديما لي و صديقا فارجع فإني لا أحب أن أقتلك**[1].

فقال له علي عليه السلام: **لكني أحب أن أقتلك.** فقال: **يا ابن أخي، إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، فارجع وراءك خير لك.**

فقال علي عليه السلام: **إن قريشاً تتحدث عنك أنك قلت لا يدْعوني أحدٌ إلى ثلاث إلا أجبت، و لو إلى واحدة منها.**

قال: **أجل.**

فقال علي عليه السلام: **فإني أدعوك إلى الإسلام.**

قال: **دع عنك هذه.**

قال: **فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكة.**

قال: **إذن تتحدث نساء قريش عني أن غلاماً خدعني.**

قال: **فإني أدعوك إلى البراز.**

فحمي عمرو وقال: **ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومها مني.**

ثم نزل فعقر فرسه، و قيل ضرب وجهه ففر، وتجاولا فثارت لهما غبرة وارتهما عن العيون إلى أن سمع الناس التكبير عالياً من تحت الغبرة، فعلموا أن علياً قتله وانجلت الغبرة عنهما، و علي راكب صدره يحز رأسه. و فر أصحابُه ليعبروا الخندق فظفرت بهم خيلهم إلا نوفل بن عبد الله، فإنه قصر فرسُه فوقع في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة فقال: **يا معاشر الناس قتلة أكرم من هذه.** فنزل إليه علي عليه السلام فقتله. و أدرك الزبير هبيرة بن أبي وهب فضربه فقطع ثفر فرسه، وسقطت درع كان حملها من ورائه، فأخذها الزبير وألقى عكرمة رمحه وناوش عمر بن الخطاب

---

(١) علّق ابن أبي الحديد على ما سبق قائلاً: (كان شيخنا أبو الخير مصدق بن شبيب النحوي يقول إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع: والله ما أمره بالرجوع إبقاء عليه بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر و أحد و علم أنه إن ناهضَه قتَلَه فاستحيا أن يظهر الفشل فأظهر الإبقاء والإرعاء وإنه لكاذب فيهما).

ضرار بن عمرو، فحمل عليه ضرار حتى إذا وجد عمر مس الرمح رفعه عنه وقال: **إنها لنعمة مشكورة فاحفظها يا ابن الخطاب، إني كنت آليت ألا تمكنني يداي من قتل قرشي فأقتله.** وانصرف ضرار راجعاً إلى أصحابه[١].

* **الصورة الثالثة:** رواها الحاكم النيسابوري وفيها أن عمراً سأل علياً: **من أنت؟**

قال: **أنا علي.**

قال: **ابن من؟**

قال: **ابن عبد مناف. أنا علي بن أبي طالب.**

فقال: **عندك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فانصرف، فإني أكره أن أهريق دمَك.**

فقال علي: **لكني والله ما أكره أن أهريق دمك.**

فغضب، فنزل فسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً واستقبله عليٌّ بدرقته[٢] فضربه عمرو في الدرقة فَقَدَّها، وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجَّه، وضربه علي عليه السلام على حبل العاتق، فسقط وثار العجاج، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله التكبير، فعرف أن علياً قتله[٣].

* **الصورة الرابعة:** برواية الحسكاني للحدث وتضمنت تفاصيل أخرى، حيث أضاف إلى ما سبق قول علي عليه السلام لعمرو وهو يطلب منه المساواة في المبارزة: **فأنت فارس وأنا راجل.**

فنزل عن فرسه وقال: **ما لقيت من أحد ما لقيت من هذا الغلام!**

ثم ضرب وجه فرسه فأدبرت، وأقبل إلى علي، وكان عمرو رجلاً طويلاً، وكان عليّ في تراب دق[٤] لا يثبت قدماه عليه، فجعل علي ينكص إلى ورائه يطلب جَلَداً من الأرض يثبت قدميه، ويعلوه عمرو بالسيف وكان في درع عمرو قِصَر، فتلقاها علي بالترس فلحق ذباب السيف في رأس علي، حتى قطعت تسعة أكوار[٥] حتى خط السيف في رأس علي، وتسيّف علي رجليه بالسيف[٦] من أسفل فوقع على قفاه فثارت بينهما عجاجة فسمع علي يكبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **قتله والذي نفسي بيده.**

فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب، فإذا عليٌّ يمسح سيفه بدرع عمرو، فكبَّر عمر بن الخطاب فقال: **يا رسول الله قتله.**

فحز عليٌّ رأسَه ثم أقبل يخطر في مشيته، فقال له النبي: **يا علي، إن هذه مشية يكرهها الله** عزوجل **إلا في هذا**

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص٦٣-٦٤.
(٢) الدَّرَقة نوع من التروس يتخذ من الجلد.
(٣) النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٤٣٨٥.
(٤) دق: ناعم تغوص فيه الأقدام.
(٥) أي لفات عمامة الإمام علي كانت تسعة.
(٦) تسيف رجليه: جزّهما وقطعهما بالسيف.

الموضع. فقال رسول الله ﷺ لعلي: **ما منعك من سلبه فقد كان ذا سلب؟**

فقال: **يا رسول الله، إنه تلقاني بعورته.**

فقال النبي ﷺ: **أبشِر يا علي، فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم.**

وذلك إنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو[١].

* **الصورة الخامسة:** في كتاب «كنز الفوائد» للكراجي حوار آخر دار بين علي وعمرو، فبعد أن لم يتأخر الإمام علي في إسقاط عمرو على الأرض بضربته، جلس على صدره، فلما هَمَّ أن يذبحه وهو يكبر الله ويحمده قال له عمرو: **يا علي، قد جلستَ مني مجلساً عظيماً، فإذا قتلتني فلا تسلبني حُلَّتي.**

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: **هي أهون عَليَّ من ذلك.**

وذبحه وأتى برأسه وهو يتبختر في مشيته.

فقال عمر: **ألا ترى يا رسول الله إلى علي كيف يتيه في مشيته؟**

فقال رسول الله ﷺ: **إنها مشية لا يمقتها الله في هذا المقام.**

ثم نهض رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام فتلقاه ومسح الغبار عن عينيه[٢].

* **الصورة السادسة:** روى المجلسي في إحدى الروايات الخاصة بالمبارزة تفاصيل أخرى حول كيفية قتل عمرو، وأن الإمام استعان بالحيلة، والرواية بذلك تخالف التفاصيل المشهورة، حيث روى أن علياً قال له: **يا عمرو، أما كفاك أني بارزتك وأنت فارس العرب حتى استعنت عليَّ بظهير؟**

فالتفت عمرو إلى خلفه فضربه أمير المؤمنين عليه السلام مسرعاً على ساقيه فأطنهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة. وأقبل إلى رسول الله ﷺ والدماء تسيل على رأسه من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم[٣].

* **الصورة السابعة: برواية** ابن الصباغ المالكي[٤] الذي ذكر بدوره تفاصيل لم ترد في الأخبار السابقة، ومنها أن علياً ركب على فرسه وكَرَّ على حنبل[٥] بن عمرو بن عبد وَد، فقتله، فخرجت خيول الغزاة منهزمة، ورمى عكرمة بن أبي جهل رمحه وفر منهزماً مع من انهزم من أصحابه، فرجع علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول:

أعَـلـيَّ تَـقـتَـحِـمُ الـفَـوارِسُ هَـكـذَا ... عَـنّـي وعَـنـهُـم خَـبـروا أصـحَـابـي

---

(١) الحسكاني: شواهد التنزيل، ج٢، ص ١١-١٢.

(٢) الكراجكي: كنز الفوائد، ج١، ص ١٣٧.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠ ، ص ٢٢٧.

(٤) ابن الصباغ: الفصول المهمة، ج١، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٥) وقيل حبيل أو حسل.

اليَومَ تَمنَعُني الفِرارَ حَفيظَتي ... وَمُصَمِّمٌ في الرَّأسِ لَيسَ يَناب
أردَيْتُ عَمْراً إذ طَغَى بِمُهَنَّدٍ ... صَافي الحَديدِ مُجَرَّبٍ قَضَّاب
هَذا ابنُ عَبدِ الوَدِّ كَذبَ قَولُه ... وَصَدَقْتُ فاستَمعُوا إلَى الكَذَّاب
نَصَرَ الحِجارَةَ مِن سَفاهَةِ رَأيِه ... وَنَصَرْتُ دينَ مُحَمَّدٍ بِصَواب
وغَدوتُ حِينَ تَرَكتُه مُتَجَدِّلاً ... كَالعِيرِ بَينَ دَكادِكٍ وَرَواب
وَعَفَفْتُ عَن أثوابِه لَو أنَّني ... كُنتُ المُقَطَّرَ بَزَّني أثوَابي
لا تَحسَبَنَّ اللهَ خاذِلَ دِينِه ... ونَبِيِّه يا مَعشَرَ الأحْزاب

* **الصورة الثامنة**: ذكر العلامة السيد محسن الأمين الحوار التالي بين رسول الله ﷺ وبين علي عليه السلام وذلك نقلاً عن التفسير الكبير للفخر الرازي: (**قال الرازي في تفسيره أنه ﷺ قال لعلي بعد قتله لعمرو بن عبد ود: كيف وجدت نفسك معه يا علي؟ قال وجدتها لو كان أهل المدينة كلهم في جانب وأنا في جانب لقدرت عليهم**)[١].

وقد روي عن حذيفة بن اليمان أنه حين أراد الإمام علي عليه السلام الخروج لعمرو ألبسه رسول الله ﷺ درعه ذات الفضول، وأعطاه سيفه ذا الفقار، وعممه عمامة السحاب على رأسه، ولفّها تسعة أكوار، ثم قال له: **تقدَّم**. ولما ذهب الإمام إلى المبارزة دعا له النبي قائلاً: **اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوق رأسه، ومن تحت قدميه**)[٢].

وعن الإمام محمد الباقر عن آبائه عليهم السلام أنه قال: (**قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: اللهم إنك أخذت مني عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبدالمطلب يوم أحد، وهذا أخي علي بن أبي طالب، رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين**)[٣].

ولبيان قيمة هذا النصر العظيم، صدرت عن النبي ﷺ عدة كلمات رواها المؤرخون والمحدثون، منها ما رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك، والفخر الرازي في تفسيره الكبير، والموفق الخوارزمي في المناقب عن النبي ﷺ أنه قال: (**لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة**).

وفي ينابيع المودة عن النبي ﷺ: (**أبشر يا علي، فلو وُزن عملك اليوم بعمل أمتي لرجح عملك بعملهم**).

وروى الإربلي في «كشف الغمة» وابن أبي الحديد في «شرح النهج» وآخرون: (**أن رسول الله ﷺ حين برز علي إلى عمرو بن عبد ود قال حينئذ: برز الإسلام كله إلى الشرك كله**)[٤].

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٢٦٠.
(٢) المرعشي: شرح إحقاق الحق، ج٣١، ص ٢٣٤.
(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٠، ص ٢١٥.
(٤) للاطلاع على المصادر راجع المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٩، ص ٥١.

وقد أثار هذا الثناء الكبير من النبي ﷺ على الإمام علي عليه السلام حفيظة البعض على مرّ الزمان، والخبر التالي يبيّن واحدة من المواقف ذات العلاقة، فعن ربيعة السعدي قال: (**أتيت حذيفة ابن اليمان فقلت له: يا أبا عبدالله، إننا لنتحدث عن علي عليه السلام ومناقبه، فيقول لنا أهل البصرة:إنكم تفرطون في علي، فهل أنت محدثي بحديث فيه؟ فقال حذيفة: يا ربيعة، وما تسألني عن علي عليه السلام؟ والذي نفسي بيده، لو وضع جميع أعمال أصحاب محمد في كفة الميزان، منذ بعث الله محمداً إلى يوم القيامة، ووضع عمل علي في الكفة الأخرى، لرجح عمل علي على جميع أعمالهم. فقال ربيعة: هذا الذي لا يقام له ولا يقعد. فقال حذيفة: يا لكع، وكيف لا يحمل؟! وأين كان أبو بكر وعمر وحذيفة وجميع أصحاب محمد يوم عمرو بن عبد ود وقد دعا إلى المبارزة!؟ فأحجم الناس كلهم ما خلا علياً عليه السلام فإنه برز إليه فقتله الله على يديه، والذي نفس حذيفة بيده، لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أصحاب محمد إلى يوم القيامة**)[١].

وفي خبر آخر أن حذيفة بن اليمان قال: (**لو قُسِّمت فضيلة علي عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم**)[٢].

وعن الحسن البصري: (**أن علياً عليه السلام لما قتل عمراً احتز رأسه وحمله فألقاه بين يدي رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر فقبّلا رأسه، ووجهُ رسول الله ﷺ يتهلل، فقال: هذا النصر! أو قال: هذا أول النصر**)[٣].

وروي الحلبي في سيرته النبوية أنه لما سمع النبي ﷺ التكبير: (**عرف أن علياً «كرم الله وجهه» قتل عَمْراً «لعنه الله»، وذكر بعضهم أن النبي ﷺ عند ذلك قال: قَتْلُ عليٍّ لعمرو بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين**)[٤].

وعن جابر الأنصاري: (**فما شبَّهتُ قتل علي عمْراً إلا بما قصَّ الله عزوجل من قصة داود وجالوت حيث يقول: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾**)[٥].

وفي خبر آخر أنه ﷺ قال يوم قتل عمرو: (**ذهبَت ريحُهم، ولا يغزوننا بعد اليوم، ونحن نغزوهم إن شاء الله**)[٦].

وكعادته، قام ابن تيمية بالتشكيك في بطولة الإمام وفي النصوص الواردة في مدحه، قال الحلبي في سيرته: (**قال الإمام أبو العباس ابن تيمية: وهذا من الأحاديث الموضوعة التي لم ترد في شيء من الكتب التي يعتمد عليها، ولا بسند ضعيف، وكيف يكون قَتْل كافر أفضل من عبادة الثقلين الإنس والجن ومنهم الأنبياء ؟ قال: بل إن عمرو ابن عبد ود هذا لم يُعرف له ذكر إلا في هذه الغزوة**).

و ردَّ عليه الحلبي قائلاً: (**أقول: و يردّ قوله إن عمرو بن عبد ود هذا لم يُعرف له ذكر إلا في هذه الغزوة، قول**

---

(١) المفيد: الإرشاد، ج١، ص١٠٣.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص ٢٨٤.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص ٦٢.
(٤) الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص٤٢٨.
(٥) المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٥٦. والآية من سورة البقرة: ٢٥١.
(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص٦٢.

الأصل[١] وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلماً، أي جعل له علامة يعرف بها ليرى مكانه. ويردّه أيضاً ما تقدم من أنه نذر أن لا يمس رأسَه دهناً حتى يقتل محمداً ﷺ. واستدلاله بقوله وكيف يكون إلى آخره، فيه نظر، لأن قتل هذا كان فيه نصرة للدين وخذلان للكافرين)[٢].

وهكذا كتب أحد المعاصرين في إحدى منتديات الإنترنت تحت مسمى وهمي: **(القنبلة المدوية والمفاجأة الرهيبة للراوي الشيعي، باني البطولات الخرافية والضلال بالكذب) وسطّر ملاحظتين على أنهما مدعاة لتكذيب بطولة الإمام علي عليه السلام في قتله لعمرو بن عبد ود، وهي كالتالي:**

١- عمر بن عبد ود أصيب فى معركة بدر إصابة جسيمة جداً سنة ٢ هـ أقعدته ومنعته من المشاركة فى غزوة أحد ٣ هـ، وبعد أن شُفي اشترك فى غزوة الخندق ٥ هـ .

٢- عمر الإمام علي في غزوة الخندق ٢٧ . ٣٠ سنة عمر الفتوة والشباب، أما البطل الرهيب المرعب عمرو بن عبد ود فكان عمره فى غزوة الخندق ٨٠ سنة بحسب كتاب الأعلام للزركلى. البطل الرهيب الخطير والمرعب الجسور الذى يخافه الجميع ولا يخرجون له عجوز كهل عمرة ٨٠ سنة).

ثم قال: (الحكاية كلها كذب وملفقة من الراوي الشيعي ابن اسحاق، كذب فى كذب، فلم يناد عمرو بن ود من وراء الخندق بالأشعار، ولم يعاير الصحابة بخوفهم وعدم إيمانهم بالشهادة فى سبيل الله، ولم يمنع رسول الله الإمام علي من الخروج لمبارزة عمرو بن ود ٣ مرات، ولا حتى مرة واحدة)[٣].

ويمكن الرد على ذلك بالتساؤلات التالية:

لماذا عبَر عمرو بن عبد ود العجوز، وخاف أبوسفيان وسائر القادة الذين معه فلم يعبروا منتظرين نتيجة المبارزة؟

ولماذا تحدى عمرو بن عبد ود المسلمين فلم يخرج إليه أحد منهم إلا علي عليه السلام إن كان عجوزاً ضعيفاً؟

ولماذا قال النبي ﷺ ما قال فيه؟

ولماذا نغفل عن كل مصادر أهل السنة التي روت الخبر بطرق مختلفة بغض النظر عن رواية ابن إسحق؟

• **نهاية الغزوة:** نعود من جديد إلى مجريات أحداث الغزوة، فقد سعى النبي ﷺ إلى تفكيك التحالف القائم بين الأحزاب وتمزيق وحدة صفهم لتخفيف الضغط القائم بالحصار المستمر على المدينة المنورة. وكانت محاولته الأولى حين أرسل إلى بعض قادة الأعراب عارضاً عليهم ثلث تمر المدينة بشرط رجوع رجالهم وتخذيل الآخرين. وبعد موافقتهما، تم الاجتماع بين اثني عشر من قادة الأعراب وبين النبي بحضور جمع من الصحابة، إلا أن الأمر

---

(١) لما كان الحلبي الشافعي قد ألف هذه السيرة اعتماداً على كتابين أحدهما كتاب «عيون الأثر» لمؤلفه ابن سيد الناس، فإنه كلما قال (قول الأصل) أو (قال في الأصل) فإنه يشير إلى هذا الكتاب.

(٢) الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص٤٢٨.

(٣) www.dd-sunnah.net

لم يتم، حيث تدخل بعض سادة الأنصار وأبدوا عدم ارتياحهم لهذه الخطوة وجاء في كلامهم: **إن كان هذا أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمَر فيه ولك فيه هوىً فامض لما كان لك فيه هوىً، فسمعاً وطاعةً، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف.**

قدّم النبي تبريره لهذه المحاولة، قائلاً: **إني رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم.**

فقالا: **يا رسول الله، إن كانوا ليأكلون العلهز** [١] **في الجاهلية من الجَهد ما طمعوا بهذا منا قط، أن يأخذوا تمرةً إلا بِشرى أو قِرى** [٢]. **فحين أتانا الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك نُعطي الدنية؟! لا نعطيهم أبداً إلا السيف.**

وهكذا قرر النبي التراجع عن المحاولة، إلا أن الموقف ترك أثره في أولئك الأعراب، فهز قناعتهم بالاستمرار في الحرب، لاسيما وقد شاهدوا حماسة المسلمين وإصرارهم على المواجهة. ثم أقدم النبي على محاولة ثانية لتفكيك التحالف، ولكن هذه المرة بين بني قريظة وقريش، وذلك عن طريق رجل من قبيلة أشجع الغطفانية، واسمه نُعيم بن مسعود كان موادِعاً النبي قبل الغزوة دون علم قبيلته، وكان يحب نقل الكلام هنا وهناك، فعمد النبي إلى الاستفادة من هذه الصفة لديه، ووظّفه باتجاه تشكيك قريش وبني قريظة في نوايا كل طرف منهما.. وتم للنبي ما أراد.

وقد روى جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي دعا على أولئك الأحزاب حيث يُقام مسجد الأحزاب في هذا الزمان على جبل سلع وذلك في أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء. قال جابر: **فعرفنا السرور في وجهه. فما نزل بي أمرٌ غائظٌ مهمٌّ إلا تحيَّنت تلك الساعة من ذلك اليوم، فأدعو الله فأعرف الإجابة.** وروي عنه أيضاً في وصف كيفية ذلك الدعاء: **قام رسول الله** ﷺ **على الجبل الذي عليه المسجد، فدعا في إزارٍ ورفع يديه مداً، ثم جاءه مرةً أخرى فصلى ودعا.**

وروى الواقدي أنه ﷺ صلى في تلك المساجد كلها التي حول المسجد الذي فوق الجبل[٣]... وأنه كان إذا اشتدّ الأمر عليه، أكثر الصلاة [٤]. وروى سعيد بن المسيب بعض ما جاء في دعاء النبي ﷺ حيث قال: (**حُصِر النبي** ﷺ **وأصحابُه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكَرْب، وحتى قال النبي** ﷺ: **اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إنك إن تشأ لا تُعبَد**)[٥]. وعن عبدالله بن أبي أوفى أن النبي قال في دعائه: (**اللهمَّ مُنزلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**)[٦]. وعن أبي هريرة: (**أن رسول الله** ﷺ **كان يقول: لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شئ بعده**)[٧]. واستجاب الله لنبيه، فلما كان ليلة السبت، بعث الله الريح فقَلعت خيامهم، وأزالت أمتعتهم، وهربت دوابهم. وكانت من الشدة بحيث ما يكاد أحدهم

---

(١) العلهز: طعام يتخذونه فى سني المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه، وقيل كانوا يخلطون فيه القردان.

(٢) أي أن يشتروا منا أو نضيّفهم.

(٣) تُعرف بمجموعها في هذال الزمان بالمساجد السبعة، وقد أزيل بعضها مؤخراً.

(٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٣-١٩٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح١٦٤٠.

(٦) المقريء: معجم مشايخ أبي علي الحداد، ح٤٤.

(٧) البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح٣٨٣٠.

يهتدي لموضع رحله[١]. وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخبراً عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٢].

قرر النبي ﷺ بعد ذلك أن يستطلع قرار المشركين، فأرسل حذيفة بن اليمان سراً ليندس في وسطهم، فعاد حاملاً كلمات أبي سفيان القائل: (**إنكم والله لستم بدار مقام؛ لقد هلك الخف والكراع، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، وقد لقينا من الريح ما ترون. والله، ما يثبت لنا بناءٌ ولا تطمئن لنا قِدْر، فارتحلوا فإني مرتحل**)[٣]، وموقف غطفان التي لم تنتظر أبا سفيان بل شدّت الرحال لوحدها وغادرت، لينتهي الحصار الذي دام ما بين «١٥ ـ ٢٥ يوماً» على اختلاف الروايات، الأمر الذي دفع المقاتلين المسلمين للعودة في الصباح الباكر إلى بيوتهم، وهو ما أقلق النبي خوفاً من الخطوة التي قد يُقدِم عليها اليهود القرظيون، لذا أمر ﷺ بالنداء في المسلمين للعودة إلى مواقعهم، ومحاصرة بني قريظة لخيانتهم، وإنزال العقوبة بهم.

غزوة بني قريظة:

وهكذا، سار إليهم النبي ﷺ والمسلمون، ودعا علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ فدفع إليه اللواء، وكان اللواء على حاله لم يُحَل من مرجعه من الخندق، ولما وصل المسلمون إلى منازل بني قريظة المحصَّنة، غرز عليٌّ الرايةَ عند أصل الحصن، وصدر الأمر من النبي برميهم بالنبل بكثافة فارتعبوا، وقد روي عن سعد بن أبي وقاص وهو أحد الرماة وصف تلك الساعة، قال: **قال لي رسول الله ﷺ: يا سعد، تقدم فارمهم. فتقدمت حيث تبلغهم نبلي، ومعي نيف على الخمسين، فرميناهم ساعة وكأن نبلنا مثل جراد، فانجحروا فلم يطلع منهم أحد. وأشفقنا على نبلنا أن يذهب، فجعلنا نرمي بعضها ونمسك البعض**)[٤].

وقبيل فجر اليوم الثاني، قدّم رسول الله ﷺ الرماة من جديد، وعبأ أصحابه فأحاطوا بحصونهم من كل ناحية، فجعل المسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضهم بعضاً، فما برح رسول الله يراميهم حتى أيقنوا بالهلكة، وقد استمر الرمي إلى الليل.

لما أيقن اليهود أن لا مفر لهم وأن الحصار شديد، صاروا يتلاومون فيما بينهم، وأشاروا إلى حيي بن أخطب باعتباره أساس الشؤم الذي لحق بهم، ونادوا بالنبي طلباً للتفاوض، فوافق، وجرت المفاوضات أكثر من مرة ولكنها فشلت، وعاد بعض اليهود يفكرون في القتال والحيلة، إلا أنهم بسبب ما لحقهم من جَهد الحصار، ولتفرق آرائهم، وشدة ما دخلهم من خوف، خلصوا إلى ضرورة النزول عند حكم النبي. فخرج مقاتلوهم ـ وهم قرابة الأربعين ـ أسرى بيد المسلمين، وأمر رسول الله بهم فكُتّفوا رباطاً، ونُحّوا ناحية، وأُخرجت النساء والذرية وباقي الرجال من الحصون، فكانوا ناحية، وأمر رسول الله بجمع أمتعتهم وما وُجد في حصونهم من السلاح والأثاث والثياب، فكانت غنيمة كبيرة.

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٣- ١٩٤.
(٢) سورة الأحزاب:٦.
(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٤.
(٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص١٩٨.

وحاول بعض الأوسيين ـ حلفاء بني قريظة فيما مضى ـ التدخل لصالحهم، وألحّوا على النبي ﷺ أن يجعلهم الحكام فيهم دون الخزرجيين، فوافق النبي على أن يكون الحكم فيهم أحد سادتهم، وهو سعد بن معاذ، وسعد يومئذ في المسجد يتداوى فيها من الجرح الذي أصاب يده في المواجهة مع الأحزاب، وسيكون سبباً لوفاته لاحقاً.

وبدأ الأوسيون بالضغط على سعد لاتخاذ قرار هيّن في حق حلفاء الأمس، إلا أنه لم يتأثر بذلك، وأصدر حكمه بإعدام المقاتلين منهم، وسبي الآخرين، وتقسيم الغنائم. وقد تحدث القرآن الكريم عن هزيمة بني قريظة وما جرى لهم حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1].

۞ غزوة المُرَيْسِيع «بني المصطلق»:

وتعود أحداثها إلى شهر شعبان من العام الخامس الهجري حين بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق من خزاعة يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ... فلما سمع رسول الله بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له «المريسيع» من ناحية «قُدَيْد» إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقُتل من قُتل منهم، ونفل رسول الله أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفاءهم عليه.

(١) سورة الأحزاب: ٢٦-٢٧.

وفي الإرشاد: (**كان من بلاء علي عليه السلام ببني المصطلق ما اشتهر عند العلماء... فقتل أمير المؤمنين عليه السلام رجلين من القوم وهما مالك وابنه، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله منهم سبياً كثيراً، وكان ممن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وكان الذي سبى جويرية أمير المؤمنين عليه السلام، فجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وآله فأعتقها وتزوجها**)[1].

غزوة خيبر:

تقع مدينة خيبر والقرى التابعة لها في أرض بركانية «حَرّة». مما يعطيها تحصيناً طبيعياً إذ تكون بذلك من أمنع الأمكنة لعجز الغزاة عن التوغل فيها واضطرار من يريد الوصول إلى المناطق المأهولة فيها لسلوك طرق خاصة لا يعرفها إلا الأدلاء من أخل الخبرة في طرق السفر والنقل، وللمدينة المنورة التي تبعد عنها ١٦٨كم تقريباً تحصين طبيعي مشابه لما لخيبر. كانت خيبر ولا تزال منذ أقدم العصور واحة واسعة ذات تربة خصبة معطاءة وذات عيون ومياه غزيرة، واشتهرت بزراعة الحبوب والفواكهة على اختلاف انواعها. كما اعتبرت خيبر من المواقع الاستراتيجية المهمة عسكرياً، وكانت مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية: وفي كل منطقة عدة حصون منيعة.

وكانت المعدات الحربية عند غزوها من قبل المسلمين مكدَّسة فيها، ففي الخبر أنه حين حوصرت قلاع خيبر أتى النبيَّ رجلٌ في الليلة السادسة وأخبره أن: (**في حصن الصَّعب، وهو من حصون**[2] **النطاة، وفي بيت فيه تحت الأرض**

(١) المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ١١٨.

(٢). كانت حصون خيبر السبعة الرئيسة وهي (النطاة ـ الشق ـ الكتيبة ـ ناعم ـ القموص ـ الوطيح ـ السُّلالم) تنقسم داخلياً إلى عدة قلاع وحصون فرعية، فحصن الصعب من حصون النطاة، وحصن الزبير من حصون الشق.

منجنيقاً، ودبّابات، ودروعاً، وسيوفاً)[١]. وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مشيراً إلى كثرة غنائم خيبر: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[٢].

• **الأوضاع قبل الغزوة**: ودَّع المسلمون السنة السادسة للهجرة بمجموعة من الإنجازات على رأسها: صلح الحديبية، وغزوة بني المصطلق، وإقبال بعض القرشيين على الإسلام وهجرتهم إلى المدينة المنورة. قال الزُّهري: (**لم يكن في الإسلام فتح قبل فتح الحديبية أعظم منه، وإنما كان الكفر حيث القتال، فلما أمن الناس كلهم كلَّم بعضهم بعضاً وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر**). وعلق على ذلك ابن هشام صاحب السيرة بقوله: (**ويدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف**)[٣].

ومن أهم نتائج صلح الحديبية وبعض السرايا أنها أمّنت بنسبة كبيرة المنطقة الجنوبية للمدينة المنورة، فسمح ذلك للنبي أن يتفرغ لتأمين المنطقة الشمالية حيث الأخطار المحدقة من الجهة الشمالية والمتمثلة في اليهود في خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى، علاوة على إمبراطوريتي الفرس والروم وحلفائهما من العرب، لاسيما وأن اليهود بدأوا يتحركون بشكل مشبوه في اتجاه العدوان على المدينة طالبين المساعدة من الروم لتحقيق هذا الغرض. على إثر ذلك قرر النبي القضاء على قوة اليهود المتآمرين ضده قبل أن ينجحوا في مسعاهم.

واتفق المؤرخون على أنها كانت في العام السابع الموافق ٦٢٨م، وقد بلغ التكتل اليهودي أوجَه في خيبر من حيث العدة والسلاح والتحصينات والعدد، خاصة بعد طرد يهود بني قينقاع وبني النضير من المدينة، كما أنهم عقدوا تحالفات مع بعض القبائل العربية القريبة من خيبر، وكانوا لا يظنّون أنّ رسول الله ﷺ يغزوهم لمَنَعَتهم في حصونهم وسلاحهم وعددهم، في الوقت الذي ظهرت فيه بوادر استعداد اليهود لعمل عدائي جديد ضد المسلمين، وقد قال قائلهم: (**نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر، فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء، وفدك، ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعَت بكم العرب بعد أن شرطتم لهم تمر خيبر، نقضوا ذلك وخذلوكم وطلبوا من محمد بعض تمر الأوس والخزرج، وينصرفون عنه**[٤].. **ثم نسير إليه في عقر داره فنقاتل على وِتر**[٥] **حديث وقديم. فقالت اليهود: هذا الرأي. فقال كنانة: إني قد خبرت العرب فرأيتهم أشداء عليه، وحصوننا هذه ليست مثل ما هناك، ومحمد لا يسير إلينا أبداً لما يَعرف**)[٦].

---

(١) الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٣، ص ٤٠.
(٢) سورة الفتح: ١٨-٢٠.
(٣) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ٣٩١٩ .
(٤) يشير بذلك إلى غطفان.
(٥) وتر: ثأر.
(٦) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢١١.

• **الأوضاع قبل الغزوة:** مع حسم النبي ﷺ أمره بغزو خيبر، أمر أصحابه بالتهيؤ للغزو، واستدعى حلفاءه من الأعراب، فجاءه معهم أولئك الذين تخلفوا عن الالتحاق به في الحديبية وأطلقوا الإشاعات حينها، يريدون أن يخرجوا معه رجاء الغنيمة، فخيبر هي ريف الحجاز طعاماً وودكاً وأموالاً. رفض النبي مشاركتهم بغرض الغنيمة وقال لهم: **لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا.**

وبعث منادياً فنادى: **لا يخرجن معنا إلا راغبٌ في الجهاد، فأما الغنيمة فلا**[١].

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المشهد حيث قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[٢].

دفع النبي ﷺ الراية ـ عند تحرك القوات ـ إلى علي بن أبي طالب، وكانت بيضاء[٣]. ولما علم يهود خيبر بمسير النبي إليهم صاروا يقومون كل ليلة قبل الفجر فيتلبسون السلاح ويصفّون الكتائب وهم عشرة آلاف مقاتل[٤].

حين انتهى المسلمون إلى الصهباء اتخذ النبي خطوة مهمة تفضي إلى قطع الطريق بين خيبر وما قد يمدّها بالرجال وبما تحتاج إليه في الحصار المحتمل.

لذا فقد طلب النبي الأدلاء وقال لأحدهم: **امض أمامنا حتى تأخذنا صدور الأودية، حتى نأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان**[٥].

• **فتح الحصون:** وضَع النبي ﷺ خطته وفق معرفته بنفسية اليهود واستراتيجيتهم المفضلة في المواجهة وهي القتال من وراء الحصون: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**﴾[٦]. وقام النبي ﷺ بجمع أصحابه وحثّهم على الجهاد ورغّبهم في الثواب وبشّرهم أنّ من يثبت فإن له الغنيمة والظفر، ودخل اليهود حصونهم وعزموا على الحرب وأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن كتيبة، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم، وجمع المقاتلة وأهل الحرب في حصن نطاة.

وفي اليوم الأول من المواجهة عند أول حصن جعلت نبل اليهود تتساقط على معسكر المسلمين، فجُرح منهم خمسون، كما تجاوزت المعسكر كميات أخرى منها، فجعل المسلمون يلقطون نبلهم ثم يردونها عليهم[٧].

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٥.

(٢) سورة الفتح: ١١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٣٢٨. وذكرنا من قبل أن الراية هنا هي اللواء.

(٤) ولم تنفعهم خطتهم تلك لاحقاً كما سنعرف، حيث كان للعناية الإلهية يد في نصرة المسلمين، ففي تاريخ الخميس للدياربكري، ج٢، ص٥٥، أنه (استولى ليلتئذ نوم الغفلة على أهل خيبر، فلم يشعروا بقدوم رسول الله ﷺ مع أنهم كانوا قبل ذلك يبعثون كل ليلة من رجالهم ركبانا متسلحة للتجسس والاستخبار عن جيش الاسلام .. وفي تلك الليلة لم يتحرك أحد منهم حتى أن ديوكهم لم تصح ، ودوابهم لم تتحرك).

(٥) الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص١١٧ ـ ١١٨.

(٦) سورة الحشر:١٤.

(٧) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٩.

واعتمد النبي ﷺ أسلوباً ذكياً في المواجهة، حيث كلما ركز المسلمون هجومهم على حصن، بقيت قوات المسلمين الثانوية تشاغل الحصون الأخرى، كي تمنع قوات اليهود من التعاون فيما بينها، وتحرمها أيضاً من معرفة اتجاه الهجوم الرئيس للمسلمين. وفي المساء يتقهقر المسلمون إلى الموقع المقترح مسبقاً لمبيتهم بعيداً عن مرمى النبال.

كما سعي النبي لتفكيك التحالف بين غطفان واليهود، بالحيلة والتخويف وبإغراء الأعراب بحصة من تمر المدينة، وتم له ما أراد، وأصبح اليهود في خيبر بلا حلفاء.

وبعد عدة أيام من الحصار، سقط الحصن الأول بيد المسلمين، حيث دلهم أحد اليهود على منفذ سري إلى الحصن، مقابل أن يُعطى له ولأسرته الأمان، كما دلهم على مكان تجميع السلاح. أما الحصون الأخرى فقد اختلف المؤرخون في تفاصيل ما جرى لها وكيف تهاوت بين يدي المسلمين وننقل هنا صورة منها رواها ابن إسحق، قال: **(وتدنى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم... ثم القموص، حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهن صفية بنت حيي بن أخطب.. وفتح الله عَزَّوَجَلَّ حصن الصعب بن مُعاذ وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه.. ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنيهم الوطيح والسُّلالم وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة)**[1].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٣٠-٣٣٢.

• **أمير المؤمنين بطل خيبر**: كان لأمير المؤمنين عليه السلام الدور المساعد للنبي صلى الله عليه وآله في تحقيق النصر، وهو الدور التنفيذي لرجل لم يعرف للجبن معنى، ولم يهدأ حتى يحقق للنبي أهدافه العسكرية، ولذا جعله النبي على رأس الجيش.

روى ابن الأثير عن الضحاك الأنصاري: (**لما سار النبي صلى الله عليه وآله إلى خيبر جعل علياً في مقدمته فقال: مَن دخل النخل فهو آمن. فلما تكلم بها النبي صلى الله عليه وآله نادى بها علي، فنظر النبي صلى الله عليه وآله إلى جبريل فضحك، فقال: ما يضحكك؟ قال: إني أحبه. فقال النبي صلى الله عليه وآله لعلي: إن جبريل يقول إنه يحبك. قال: وبُلّغت أن يحبني جبريل؟ قال: نعم ومن هو خير من جبريل، الله عزوجل**)[١]. وأعطي الإمام الراية الكبرى للحرب، قال الحلبي في سيرته: (**ولواؤه أبيض دفعه إلى علي «كرم الله وجهه»، وفيه أن ذلك اللواء يقال له العقاب**)[٢].

وروى سلمة بن عمرو بن الأكوع قال: (**بعث رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته . وكانت بيضاء فيما قال ابن هشام . إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يك فتح، وقد جهد؛ ثم بعث الغد عمر بن الخطاب، فقاتل، ثم رجع ولم يكُ فتح، وقد جهد؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه، ليس بفرّار. قال : يقول سلمة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليا رضي الله عنه وهو أرمد، فتفل في عينه، ثم قال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك. قال: يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح**[٣] **يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. قال: يقول اليهودي: علوتم، وما أُنزِل على موسى، أو كما قال. قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه**)[٤].

وفي رواية أخرى عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (**خرجنا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله برايته؛ فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول علي عليه السلام باباً كان عند الحصن فترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نَجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه**)[٥].

وفي رواية عن عبد الله بن بريدة في «تهذيب الخصائص» قال: (**سمعت أبي، بريدة يقول: حاصرنا خيبر، فأخذ الراية أبو بكر ولم يفتح له، فأخذها من الغد عمر، فانصرف ولم يفتح له، وأصاب الناس شدة وجهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله صلى الغداة، ثم جاء قائماً، ورمى اللواء، والناس على أقصافهم**[٦]

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٢، ص ٤٢٧.

(٢) الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص ٥٢.

(٣) يأنح: يعلو نفَسُه.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٦) قال السيد الأمين في أعيان الشيعة، ج١، ص ٣٩٩: (كذا في النسخة المطبوعة بمصر ولا أضمن صحتها فإن صحت فلعل الأقصاف جمع قصف وهو الازدحام أو جمع قصفة وهي التدافع والتزاحم ولعل الصواب على مصافهم بدل اقصافهم والله أعلم).

فما منّا إنسان له منزلة عند الرسول ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء ، فدعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أرمد ، فتفل ومسح في عينيه فدفع إليه اللواء وفتح الله عليه)[١] .

وفي رواية ابن سعد عن أبي هريرة قال: (**قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ويفتح عليه. قال: قال عمر: فما أحببت الإمارة قبل يومئذ، فتطاولت لها واستشرفت رجاء أن يدفعها إلي، فلما كان الغد دعا علياً فدفعها إليه فقال: قاتل ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فسار قريباً ثم نادى: يا رسول الله، عَلاَمَ أقاتل؟ قال: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله**)[٢]. وفي الصحيحين تتمة: (**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**)[٣].

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن جابر بن عبد الله قال : (**لما كان يوم خيبر ، بعث رسول الله ﷺ رجلاً فجَبُن، فجاء محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، لم أر كاليوم قط، قُتل محمود بن مسلمة، فقال رسول الله ﷺ: لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون معهم، وإذا لقيتموهم فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت، ثم الأرض جلوساً، فإذا غشوكم فانهضوا**

(١) النسائي: تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص ٢١-٢٢.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١١٠.
(٣) البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح ٣٩٧٣.

وكبروا، ثم قال رسول الله ﷺ: لأبعثن غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه، لا يولّي الدبُر، يفتح الله على يديه. فتشرّف لها الناس، وعلي يومئذ أرمد، فقال له رسول الله ﷺ: سر. فقال: يا رسول الله، على ما أقاتلهم؟ فقال: على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك، فقد حقنوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عَزَّوَجَلَّ، قال: فلقيهم ففتح الله عليه)[١].

وفي رواية الواقدي أنه انتهى رسول الله ﷺ إلى حصن ناعم ومعه المسلمون، وحصون ناعم عدة، فرمت اليهود يومئذ بالنبل، وترس أصحاب رسول الله عن رسول الله، وعلى رسول الله يومئذ درعان ومغفر وبيضة، وهو على فرس يقال له الظَّرِب، في يده قناة وترس، وأصحابه محدقون به، وقد كان دفع لواءه إلى رجل من أصحابه من المهاجرين[٢] فرجع ولم يصنع شيئاً، ثم دفعه إلى آخر[٣] فرجع ولم يصنع شيئاً، ودفع رسول الله ﷺ لواء الأنصار إلى رجل منهم[٤]، فخرج ورجع ولم يعمل شيئاً، فحث رسول الله ﷺ المسلمين، وسالت كتائب اليهود، أمامهم الحارث أبو زينب يقدم اليهود يهد الأرض هدّاً، فأقبل صاحب راية الأنصار فلم يزل يسوقهم حتى انتهوا إلى الحصن فدخلوه، وخرج أسير اليهودي يقدم أصحابه معه عاديته وكشف راية أصحاب الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في موقفه، ووجد رسول الله في نفسه حِدّة شديدة، وقد ذكر لهم الذي وعدهم الله. فأمسى رسول الله مهموماً، وقد كان سعد بن عبادة[٥] رجع مجروحاً وجعل يستبطىء أصحابه، وجعل صاحب راية المهاجرين يستبطىء أصحابه ويقول: أنتم، وأنتم.

فقال رسول الله ﷺ: **إن اليهود جاءهم الشيطان فقال لهم: إن محمداً يقاتلكم على أموالكم. نادوهم: قولوا لا إله إلا الله، ثم قد أحرزتم بذلك أموالكم ودماءكم، وحسابكم على الله.**

فنادوهم بذلك فنادت اليهود: **إنا لا نفعل ولا نترك عهد موسى والتوراة بيننا.**

فقال رسول الله ﷺ: **لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار. أبشِر يا محمد بن مسلمة، غداً. إن شاء الله. يُقتل قاتل أخيك**[٦] **وتولّي عادية اليهود.**

فلما أصبح أرسل إلى علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أرمد، فقال: **ما أبصر سهلاً ولا جبلاً.**

فذهب إليه فقال: **افتح عينيك.**

ففتحهما فتفل فيهما. قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **فما رمدت حتى الساعة**[٧].

---

(١) النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٤٣٩٩.

(٢) تم حذف الاسم من كتاب المغازي، فهل فعل الواقدي ذلك أم من نسخ كتابه؟

(٣) تم حذف الاسم أيضاً.

(٤) تم حذف الاسم هنا أيضاً، ولكن سيظهر بعد أسطر.

(٥) بعد أن حاول أحدهم التغطية على هوية القائد الأنصاري الذي لم ينجح في المهمة، سقط عنه سهواً فذكره هنا. ومن المستبعد أن يكون الواقدي هو من حذف الأسماء الثلاثة، خاصة وأنه عاد وذكر اسم سعد بن عبادة بعد قليل، وهذه فضيحة لمؤرخ مثل الواقدي أن يرتكب خطئاً في غضون سطر واحد، وأستقرب أنه من عمل النساخ.

(٦) أخوه محمود بن مسلمة الذي استشهد في خيبر.

(٧) أي لم تُصب عيناه بالرمد بعد ذلك.

ثم دفع إليه اللواء ودعا له ومن معه من أصحابه بالنصر، فكان أول من خرج إليهم الحارث أخو مرحب في عاديته، فانكشف المسلمون وثبت علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فاضطربا ضربات فقتله علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن فدخلوه وأغلقوا عليهم، فرجع المسلمون إلى موضعهم، وخرج مرحب وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرّبُ

أَضْرِبُ أَحْيَانًا وَحِينًا أُضْرَبُ

فحمل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقطره على الباب وفتح الباب. وكان للحصن بابان[١].

• **محاولات لتزوير التاريخ**: وللأسف، فإن الحقيقة التاريخية التي ثبتت لأمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من غزوة خيبر، ونصّت عليها الصحاح وكتب الحديث والتاريخ والتراجم وتعاهدها المؤرخون شاهدت محاولات لتحريفها.

المحاولة الأولى ما في الخبر التالي: عن عمرو بن أبي عمرو، قال: نزلت بأريحا زمن سليمان بن عبد الملك فإذا حيٌّ من اليهود، وإذا رجل يهدج[٢] من الكبر. فقال: **ممن أنتم؟**

فقلنا: **من الحجاز.**

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٤.

(٢) يهدج: يمشي رويداً بسبب كبر سنه وضعفه.

فقال اليهودي: **واشوقاه إلى الحجاز! أنا ابن الحارث اليهودي فارس خيابر، قتله يوم خيبر رجلٌ من أصحاب محمد يقال له أبو دجانة يوم نزل محمد خيبر، وكنا ممن أجلى عمر بن الخطاب إلى الشام.**

فقلت: **ألا تُسلِم؟**

قال: **أما إنه خيرٌ لي لو فعلت، ولكن أُعيَّر، تعيرني اليهود، تقول: أبوك ابن سيد اليهود لم يترك اليهودية، قتل عليها أبوك وتخالفه؟**[١].

المحاولة الثانية ما جاء في «الويكيبيديا» تحت عنوان «محافظة خيبر» دون تحديد المصدر: لما حاصرهم المسلمون خرج مرحب يتبختر بسيفه طالبا المبارزة ... فبرز له عامر بن سنان الأكوع وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي عامِرُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُغامِرُ

فاختلفا ضربتين بينهما فوقع سيف مرحب في ترس عامر كما يقول الراوي.

المحاولة الثالثة ما في المغازي قال: ويقال[٢]: إن مرحب برز وهو كالفحل الصؤول يرتجز وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرّبُ

أَضْرِبُ أَحْيَانًا وَحِينًا أُضْرَبُ

يدعو للبراز. فقال محمد بن مسلمة: **يا رسول الله أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس فائذن لي في قتال مرحب وهو قاتل أخي.**

فأذن له رسول الله في مبارزته، ودعا له بدعوات، وأعطاه سيفه، فخرج محمد فصاح: **يا مرحب، هل لك في البراز؟**

فقال: **نعم.**

فبرز إليه مرحب وهو يرتجز: «**قد علمت خيبر أني مرحب**». وخرج محمد بن مسلمة وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي ماضِ حُلْوٌ إذا شِئْتُ وسَمٌّ قاضِ

ويقال: إنه جعل يومئذٍ يرتجز ويقول:

يا نَفْسُ إلا تُقْتَلي تَمُوتي لا صَبْرَ لي بَعْدَ أبي النبيتِ

وكان أخوه محمود يكنى بأبي النبيت. قال: وبرز كل واحد منهما إلى صاحبه. قال: فحال بينهما عُشَرات[٣] أصلها كمثل أصل الفحل من النخل، وأفنانٌ- أغصان- منكرة، فكلما ضرب شجر العُشَر أحدهما صاحبه استتر بالعشر حتى قطعا كل ساقٍ لها، وبقي أصلها قائماً كأنه الرجل القائم. وأفضى كل واحد منهما إلى صاحبه، وبدر مرحب محمداً،

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٥.
(٢) في استعمال «يقال» تضعيف للخبر.
(٣) عشرات: نوع من الشجر الكبير المعمر يصل طوله إلى ٣ أمتار.

فيرفع السيف ليضربه، فاتقاه محمد بالدرقة فلحج سيفه [١] وعلى مرحب درعٌ مشمرة، فيضرب محمد ساقي مرحب فقطعهما. ويقال: لما اتقى محمدٌ بالدرقة وشمرت الدرع عن ساقي مرحب حين رفع يديه بالسيف، فطأطأ محمد بالسيف فقطع رجليه ووقع مرحب، فقال مرحب: **أجهز يا محمد.**

قال محمد: **ذق الموت كما ذاقه أخي محمود.** وجاوزه ومرَّ به عليٌّ فضرب عنقه وأخذ سلبه، فاختصما إلى رسول الله في سلبه، فقال محمد بن مسلمة: **يا رسول الله، والله ما قطعت رجليه ثم تركته إلا ليذوق مُرّ السلاح وشدة الموت كما ذاق أخي؛ مكث ثلاثاً يموت، وما منعني من الإجهاز عليه شيء، قد كنت قادراً بعد أن قطعت رجليه أن أجهز عليه.**

فقال علي عليه السلام: **صدق، ضربت عنقه بعد أن قطع رجليه.**

فأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله محمد بن مسلمة سيفه، فيه كتاب لا يُدرى ما هو حتى قرأه يهوديٌّ من يهود تيماء فإذا فيه: هذا سيف مرحب ... من يذقه يعطب[٢].

ولتكتمل الصورة نقرأ النص التالي الذي رواه ابن أبي الحديد قال: وذكر شيخنا أبو جعفر الأسكافي رحمه الله: أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: **أن انظروا مَن قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته.** ففعلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكَثُر ذلك في كل مِصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا.. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب الا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله. فقُرئت كتبُه على الناس، فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعَلة لا حقيقة لها، و جدَّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى، حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله[٣].

ونعود من جديد إلى ما كتبه محرر مقالة «محافظة خيبر» في «الويكيبيديا» إذ قال: وأما الفريق الآخر يرى أن علي بن أبي طالب هو الذي قتل مرحب وهذا هو الأصح، لأن الحصن فُتح على يده بعد المبارزة التي حدثت بينهم فلما قتله علي انهار اليهود ووقعت معنوياتهم وهربوا إلى الحصون الأخرى وتم فتح حصن ناعم. فقال مرحب أثناء المبارزة:

---

(١) لحج: علق ولم يستطع فكه.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٥.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١١، ص٤٤-٤٥.

قَـد عَـلِـمَـت خَـيـبرُ أنّي مَـرحَـبْ ... شَـاكِـي الـسِّـلاحِ بَـطَـلٌ مُجَـرَّبْ
إذا الـلـيُـوثُ أقْـبَـلَـتْ تَـلـهَـبْ ... أحْـجَـمَـت عَـن صَـولَـةِ المُغـلـبْ

فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أنَـا الـذي سَـمَّـتْـنِـي أمِّـي حَـيْـدَرَه ... كَـلَـيْـثِ غَـابَـاتٍ شَـدِيـدِ الـقَـسْـوَرَه

أكيلكم بالصاع كيل السندره

فلما بدأت المبارزة ضرب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرحب على رأسه فقدَّ الحجر والمِغفر ووقع السيف في الأضراس.

انتهى النقل من الويكيبيديا.. وأما برواية البيهقي فإن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء النبي برأس مرحب. وروى البرزنجي في كتاب «مقاصد الطالب» أن مرحباً كان قد تدرّع بدرعين وسيفين ومغفر وعمامتين وحجر مثقوب كالقلنسوة على رأسه.

وقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: (**أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ بقوله له، خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله، خلَّفتني مع النساء والصبيان، فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فتطاولنا لها، فقال: ادعوا لي علياً، فأتي به أرمد، فبصق في عينه، ودفع الراية إليه. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾[1]، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: اللهم هؤلاء أهلي**)[2].

ونلاحظ في النص التالي في «كنز العمال» أدب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في تعبيره عن النصر الذي تحقق، ونسبة ذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ففي رواية أنه قال: **فبرز مرحب يرتجز، وبرزت له أرتجز، كما يرتجز، حتى التقينا، فقتله الله بيدي، وانهزم أصحابه، فتحصنوا وأغلقوا الباب، فلم أزل أعالجه، حتى فتحه الله**[3].

وفي «بحار الأنوار» أن خزيمة بن ثابت استأذن النبي في أن يقول في وصف الحال، فأذن له فقال[4]:

وكَـانَ عَـلِـيٌّ أرْمَـدَ الـعَـينِ يَبتَغِي ... دَواءً فَـلَـمّـا لَم يَـحِـسْ مُـداوِيـا
شَـفَـاهُ رَسُـولُ الله مِـنـهُ بِـتَـفـلَـةٍ ... فَـبُـورِك مُـرقِـيـاً وَبُـورِكَ رَاقِـيـا
وقَـالَ سَـأعطِي الـرايَـةَ الـيَـومَ صَـارِماً ... حَـمِـيـاً مُجِـيـبـاً لـلـرَّسُـولِ مُـوالِـيـا
يُـحِـبُّ إلـهِـي والإلـهُ يُـحِـبُّـهُ ... بِـهِ يَـفـتَـحُ اللهُ الحُـصُـونَ الأوابِـيـا

---

(١) سورة آل عمران: ٦١.
(٢) مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٤٠٤.
(٣) المتقي الهندي: كنز العمال، ج١٠، ص ٤٦٢.
(٤) المجلسي: بحار الأنوار، ج٣٧، ص ٨٧.

فَأصفا بِها دُونَ البرِيَّةِ كُلِّها عَلياً وَسَمَّاه الوَزيرَ المواخِيا

• **مناقشة روايات التترس بالباب:** روى أحمد بن حنبل عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: (**خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطرح ترسه من يده، فتناول علي بابا كان عند الحصن، فترّس به نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر معي سبعة . أنا ثامنهم . نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه**)[١].

وروى السيوطي عن جابر بن عبد الله أنه قال: (**حمل علي الباب على ظهره يوم خيبر، حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وإنهم جروه بعد ذلك، فلم يحمله إلا أربعون رجلاً**)[٢].

وروى العلامة الحلي في عن علي عليه السلام أنه قال: (**ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية، ولكن بقوة ربانية**)[٣].

كما روى الشيخ المفيد عن علي عليه السلام قوله: (**لما عالجتُ باب خيبر، جعلته مجنّاً لي، فقاتلتهم به، فلما أخزاهم الله وضعت الباب على حصنهم طريقاً، ثم رميت به في خندقهم. وتساءل رجل عن ثقل ذلك الباب عليه، أجاب: ما كان إلا مثل جُنّتي التي في يدي في غير ذلك المقام**)[٤].

أما الراوندي فقد قدَّم تفاصيل أخرى حيث قال: (**كان الباب حجراً منقوراً في صخر والباب من الحجر في ذلك الصخر المنقور كأنه حجر رحى، وفي وسطه ثقب لطيف، فرمى أمير المؤمنين عليه السلام بقوسه من يده اليسرى وجعل يده اليسرى في ذلك الثقب الذي في وسط الحجر دون اليمنى لأن السيف كان في يده اليمنى، ثم جذبه إليه فانهار الصخر المنقور وصار الباب في يده اليسرى، فحملت عليه اليهود فجعل ذلك ترساً له وحمل عليهم**)[٥]. وذكر اليعقوبي في تاريخه أن ذلك الباب كان من الصخر وبطول أربعة أذرع وعرض ذراعين.

واعتبر العلامة السيد محسن الأمين أن هذا يدلنا على أن مرحباً كان قد خرج من الحصن ومعه جماعة ليقاتل، وإذا كان الحصن حوله خندق كما مر فلا بد أن يكون مرحب ومن معه عبروا على جسر خشبي صغير عند باب الحصن فوق الخندق ، كما هو الشأن في الخنادق التي حول الحصون والمدن، فلما قتل مرحب وعاد من معه هاربين إلى الحصن عبروا على ذلك الجسر، فيمكن أن يكونوا رفعوه لما دخلوا الحصن فأعاده علي ومن معه وعبروا عليه، ويمكن أن يكون علي قد أعجلهم عن رفعه فعبر عليه هو ومن معه، ومثل هذا الجسر يكون عادة صغيراً لا يكفي إلا لعبور النفر القليل في دفعة واحدة ، فلذلك لما قلع باب الحصن جعله جسراً على الخندق ليعبر عليه أكثر مَن معه الذين كانوا خارج الخندق، ولم يعبر معه منهم إلا القليل لضيق الطريق.

---

(١) ابن حنبل: المسند، ح ٢٣٢٢٧.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٦٧.
(٣) الحلي: كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، ص ١٤١.
(٤) المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٢٤.
(٥) الراوندي: الخرائج والجرائح، ج١، ص ١٦٠.

وسعى الأمين إلى بيان سبب التنافي بين الروايات من حيث عدد الذين عجزوا عن حمل الباب كرواية البيهقي جابر الأنصاري أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً، وفي رواية أخري للبيهقي أيضاً أن علياً لما انتهى إلى الحصن المسمى القموص اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض فاجتمع عليه بعده سبعون رجلاً، فكان جهدهم أن أعادوا الباب مكانه، حيث اعتبر أن الأربعين عالجوا حمله فما قدروا فتكاملوا سبعين فحملوه، ونقل عن الحافظ ابن حجر أنه جمع بين الرواية السابقة: لقد رأيتني في سبعة نفر إلخ، وبين رواية الأربعين، أن السبعة عالجوا قلبه والأربعين عالجوا حمله، وأن الفرق بين الحالتين ظاهر. ثم قال الأمين: ولكن رواية السبعة واردة في الباب الترس، والأربعين في باب الحصن فلا حاجة إلى الجمع.

وأضاف لاحقاً أنه يمكن القول أن الإمام عليه السلام قد قلع بابين، الأول هو الذي تترس به، ولم يتمكن ثمانية نفر من حمله، وكان من الحجر، والآخر أكبر منه جعله جسراً للعبور، وهو ما جاء في بعض الأخبار أنه لم يتمكن أربعون أو سبعون نفراً من حمله، ويبدو أنه كان من الحديد، أو مزيجاً من الخشب والحديد[١].

قال ابن أبي الحديد المعتزلي[٢] في عينيته المكونة من ٨٠ بيتاً في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

يَا هَازِمَ الأحزابِ لا يُثنيه عَن ... خَوضِ الحِمامِ مُدجَّجٌ ومُدرَّعُ
يا قَالِعَ البابَ الذي عَن هَزِّها ... عَجَزَتْ أكُفٌّ أربَعونَ وأربَعُ

وقال «طلائع بن رُزيك» وزير الفاطميين «ت٥٥٦ هـ»[٣]:

والبابُ لَمَّا دَحاهُ وهُوَ في سَغَبٍ ... مِنَ الصِّيامِ ومَا يَخفَى تَعَبُّدُه
وَقَلْقَلَ الحِصنَ فارتاعَ اليَهودُ لَه ... وَكَانَ أكبَرُهُم عَمداً يُفَنِّدُه
نَادَى بأعلَى العُلى جِبريلُ مُمتدِحاً ... هَذا الوَصِيُّ وهَذا الطُّهرُ أحمَدُه

وقد روى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أنه قال لعلي، وكان يسير معه: **إن الناس قد أنكروا منك شيئاً. تخرج في البرد في الملاءتين، وتخرج في الحر في الخشن والثوب الغليظ!**

فقال: لم تكن معنا في خيبر.

الابن محمد هو مفتي الكوفة وقاضيها في زمانه، ولد سنة نيف وسبعين. قالوا: وكان نظيراً للإمام أبي حنيفة في الفقه. وأما الأب عبدالرحمن فوصف بالإمام العلامة الحافظ الفقيه. قرأ القرآن على الإمام علي.

قال: بلى[٤]، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر، وعقد له لواء، فرجع، وبعث عمر، وعقد له لواء فرجع، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لأعطين الراية رجلاً يحب الله

(١) الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٤٠٠.
(٢) ابن أبي الحديد: روضة المختارة: شرح القصائد العلويات السبع، ص ٥٨.
(٣) السماوي: الطليعة من شعراء الشيعة: ج ١، ص ١٠٨.
(٤) أي بلى لم أكن معكم.. لأنه ولد بعد وفاة النبي أو قبل ذلك بقليل.

ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرّار، فأرسل إليّ، وأنا أرمد، فتفل في عيني، فقال: اللهم أكفه أذى الحر والبرد. قال: ما وجدت حراً بعد ذلك، ولا برداً[١].

وقد ذكر العلامة السيد محسن الأمين مجموعة من الامتيازات للإمام علي عليه السلام والتي لم يشاركه فيها غيره واستخلصها من بطولته في هذه الغزوة، ورتّبها وفق النقاط التالية:

١ ـ أنه كان صاحب الراية[٢] فيها كسائر الغزوات، وإنما أخذها غيره لما كان أرمد، فلما عادوا منهزمين واحد بعد واحد وشفاه الله عزوجل من الرمد ببركة الرسول صلى الله عليه وآله كان هو صاحبها.

٢ ـ قول النبي صلى الله عليه وآله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كراراً غير فرار يفتح الله على يديه.

٣ ـ أنه به كشفت الشدة والهم والجهد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن المسلمين لما انكشفت الأنصار حتى انتهوا إليه في موقفه، فاشتد ذلك عليه وأمسى مهموماً وأصاب الناس شدة وجهد، ثم طابت أنفسهم أن الفتح غداً.

٤ ـ أنه لما خرج بالراية لم يمش الهوينا بل أسرع وهرول هرولة فعل الشجاع الباسل الذي لا يبالي بشئ، فجعلوا يقولون له ارفق فلم يقف حتى ركز الراية في أصل الحصن.

٥ ـ شدة خوف اليهود وإيقانهم بأنهم مغلوبون لما سمعوا باسمه.

٦ ـ قَتْلُه مرحباً بضربة سمع العسكر صوتها.

٧ ـ قتله مرحباً وفتحه الحصن قبل أن يتتام لحاق الناس به، فإنه ما تتام آخر الناس معه حتى فتح الله لأولهم.

٨ ـ أن النبي ألبسه درعه وعممه بيده وألبسه ثيابه وشد ذا الفقار في وسطه بيده وأركبه بغلته.

٩ ـ قَتْلُه الحارث أخا مرحب وكان معروفاً بالشجاعة.

١٠ ـ ثباته حين خروج الحارث وانهزام المسلمين.

١١ ـ إنه لما بلغه قول النبي صلى الله عليه وآله لأعطين الراية، قال: (**اللهم لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت**). فلم يتطاول ولم يتصادر ولم يتساور ولم يستشرف ولم يظهر حب الإمارة.

١٢ ـ أمر النبي له أن يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله وقوله له: (**لئن يهدي الله بك....**).

١٣ ـ دعاء النبي صلى الله عليه وآله له أن يكفيه الحر والبرد فاستجاب الله له ذلك.

١٤ ـ تترّسه بباب لم يستطع قلبه ثمانية نفر.

١٥ ـ قلعه باب الحصن وإلقاؤه على الأرض ووضعه جسراً على الخندق واجتماع سبعين حتى أعادوه[٣].

• **نهاية الحرب**: على إثر تهاوى بعض الحصون الرئيسة، انتقل المقاتلون اليهود إلى حصن فرعي يقال له قلعة الزبير، فزحف رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم والمسلمون معه، فحاصروهم وغلّقوا عليهم حصنهم ـ وكان منيعاً ـ إذ كان في

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١١، ص ٢٨٠.
(٢) المراد هنا الراية الكبرى أي اللواء.
(٣) الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٤٠٦.

رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه، فأمر النبي المسلمين بتحويل معسكرهم من «الرجيع» حيث كانوا يبيتون بعيداً عن مرمى النبال والرماح، إلى موقعهم الأول القريب من الحصون، إذ أمِن ما كان يخاف منه في بداية المواجهات. ثم أقام رسول الله على محاصرة الذين في قلعة الزبير ثلاثة أيام، وقع القتال بين الطرفين بعدها، وانتصر المسلمون، فتحوّل رسول الله ﷺ إلى أهل حصن الشق المكوّن من عدة حصون فرعية.

ووقعت عدة مبارزات فردية بين الطرفين، انتصر فيها المسلمون، وفُتحت تلك الحصون الفرعية الواحدة تلو الأخرى، وكان آخرها حصن النزار. وسبى المسلمون قرابة الألفين من النساء والذرية الذين كانوا في هذا الحصن، ومن بينهم صفية بنت حُيي بن أخطب، وابنة عم لها، حيث كان يهود خيبر قد فرّغوا حصن النطاة للمقاتلة، وأخرجوا النساء والذرية إلى حصن النزار، فكان السبي فيه.

ثم تحول رسول الله ﷺ إلى حصون الكتيبة والوطيح وسُلالم التي تحصَّن فيها أهلها أشد التحصن، وانضمّ إليهم كل مَن هرب من الحصون التي تساقطت من قبل، فتحصّنوا معهم. وجعلوا لا يطلعون من حصونهم مغلّقين عليهم، حتى همَّ رسول الله ﷺ أن يرميهم بالمنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة بالحصار الذي دام أربعة عشر يوماً طالبوا بالصلح، فوافق النبي، ونزل بعض من تبقّى من سادة اليهود، وتم الأمر وفق البنود التالية:

١) حقن دماء مَن في حصونهم من المقاتلة

٢) ترك الذرية لهم

٣) يخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم

٤) يخلّون بين رسول الله وبين ما كان لهم من مالٍ أو أرضٍ، وعلى الدنانير والدراهم والكراع والحلقة، وعلى البَز، إلا ثوباً على ظهر إنسان.

٥) أن لا يكتموا شيئاً من الغنائم

وبالتالي، انتهت المواجهات، وتحقق النصر للمسلمين، وغنم المسلمون شيئاً كثيراً، وعرض اليهود على النبي ﷺ أن يبقيهم في ديارهم على أن يعملوا في زراعتها، وللمسلمين نصف ثمارها، فأبقاهم وأقرَّهم على ذلك.

محيصة بن مسعود الأنصاري الأوسي الحارثي، شهد أُحداً والخندق وما بعدهما من المشاهد كلها.

• **فدك وأم القرى وتيماء:** لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها، بعث محيصة بن مسعود إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خيبر ويحل بساحتهم. ولكنهم ركنوا إلى قوة وكثرة أهل خيبر وحصانة قلاعها، فامتنعوا عن الإجابة، حتى جاءهم خبر قتل أهل حصن ناعم، فذهب أحد سادتهم يقال له «نون بن يوشع» في نفرٍ من اليهود، وصالحوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم وأن يكون لهم نصف الأرض بتربتها، ولرسول الله نصفها، فقبل رسول الله ذلك.

وهكذا أصبح فدك فيئاً خالصاً للنبي حيث قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ

مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١].

وقد كان النبي ﷺ يُطعم أهلَه من هذا الفيء، وما زاد يوزعه على المحتاجين. وبعد وفاة رسول الله استأثر الخليفة أبوبكر بفدك، فطالبته السيدة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ بحقها، فعن أم المؤمنين عائشة: (**أن فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ بنت النبي ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر. فقال أبوبكر: إن رسول الله ﷺ قال: لا نورِّث. ما تركنا صدقة. إنما يأكل آل محمد في هذا المال. وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله ﷺ ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً. فوجدت**[٢] **فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت. وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها**)[٣].

بل في شرح نهج البلاغة ومصادر أخرى أن النبي وهبَها فدكاً في حياته، قال ابن أبي الحديد المعتزلي: (**لما كلمت فاطمة أبا بكر بكى، ثم قال: يا بنت رسول الله، والله ما ورَّث أبوك ديناراً ولا درهماً وإنه قال: إن الأنبياء**

(١) سورة الحشر: ٦-٧.
(٢) الوجد: الغضب.
(٣) البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر «صحيح البخاري»، ح ٣٩٩٨.

لا يورِّثون، فقالت: إن فدك وهبها لي رسول الله ﷺ. قال فمن يشهد بذلك؟ فجاء علي بن أبي طالب عليه السلام فشهد، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله ﷺ كان يقسمها. قال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله ﷺ، وصدق علي، وصدقت أم أيمن وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أن مالك لأبيك. كان رسول الله ﷺ يأخذ من فدك قوتكم، ويقسم الباقي، ويحمل منه في سبيل الله، فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما يصنع بها أبي. قال: فلك على الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوك. قالت: الله لتفعلن! قال: والله لأفعلن. قالت: اللهم اشهد. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي)[١].

وفي شرح نهج البلاغة أيضاً أنها قالت: (**ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**[٢]. **إيهاً معاشر المسلمين، أبتز إرث أبي! أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً! فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك**)[٣].

وفي السيرة النبوية للحلبي: (**وفي كلام سبط ابن الجوزي رحمه الله أنه رضي الله عنه كتب لها بفدك ودخل عليه عمر رضي الله عنه فقال: ما هذا؟ فقال: كتابٌ كتبته لفاطمه بميراثها من أبيها. فقال: مماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى؟ ثم أخذ عمر الكتاب فشقَّه**)[٤].

وفي نهج البلاغة عن علي عليه السلام أنه قال: (**بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، و سخَت عنها نفوس آخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غدٍ جدث**)[٥].

وجاء في كتب الحديث والتاريخ أن الخليفة عثمان بن عفان أقطع مروان فدكاً [٦]. وفي فتوح البلدان للبلاذري عن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز: (**ثم ولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك فصارت لي وللوليد وسليمان. فلما ولي الوليد سألته حصته منها فوهبها لي، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لي، فاستجمعتُها. وما كان لي من مال أحب إليّ منها فاشهدوا أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه**)[٧].

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي: (**فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضي الله عنها فكانت في أيديهم في أيام عمر بن عبد العزيز، فلما ولي يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل في أيدي بني أمية**)[٨].

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص ٢١٦.
(٢) سورة المائدة:٥٠.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص ٢١٢.
(٤) الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٣، ص ٥١٣.
(٥) الشريف الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٢٨٣.
(٦) الشوكاني: نيل الأوطار، حاشية المسألة ٢٤٠٧.
(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ح ٩٨.
(٨) الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٢٣٩.

وفي شرح نهج البلاغة: (**فكتب إليه والي المدينة: أن فاطمة قد ولدت في آل عثمان**[١] **وآل فلان وفلان فعلى من أرد منهم؟ فكتب إليه: أما بعد، فإني لو كتبت إليك آمرك أن تذبح شاة لكتبت إليَّ: أجمّاء**[٢] **أم قرناء؟ أو كتبت إليك أن تذبح بقرة لسألتني: ما لونها؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من علي عليه السلام والسلام. قال أبو المقدام: فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه وقالوا له: هجنت فعل الشيخين**[٣]**. وخرج إليه عمر بن قيس في جماعه من أهل الكوفة فلما عاتبوه على فعله قال: إنكم جهلتم وعلمت، ونسيتم وذكرت. إن أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم حدثني عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فاطمة بضعة مني، يسخطها ما يسخطني ويرضيني ما أرضاها. وإن فدك كان صافية على عهد أبي بكر وعمر، ثم صار أمرها إلى مروان فوهبها لعبدالعزيز أبي، فورثتها أنا وإخوتي عنه، فسألتهم أن يبيعوني حصتهم منها فمن بائع وواهب حتى استجمعت لي، فرأيت أن أردها على ولد فاطمة. قالوا: فإن أبيت إلا هذا فأمسك الأصل وأقسم الغلَّة. ففعل**)[٤].

وفي العهد العباسي دفعها أبوالعباس السفاح إلى عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فكان هو القيّم عليها يفرقها في بني علي بن أبي طالب، فلما ولي المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم، فلما ولي المهدي بن المنصور الخلافة أعادها عليهم ثم قبضها موسى الهادي ومَن بعده إلى أيام المأمون فجاءه رسول بني علي بن أبي طالب فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها. فكُتب السجل وقُرئ على المأمون، فقام دعبل الشاعر وأنشد[٥]:

أصبَحَ وَجهُ الزَّمانِ قَد ضَحِكا ... بِرَدِّ مَأمُون هَاشِم فَدَكا

وأما بخصوص وادي القرى ومن بها من اليهود، فقد أكمل النبي صلى الله عليه وآله ما بدأ به مع يهود خيبر وفدك بالتوجه إلى وادي القرى حيث يستوطن بعضهم هناك، فعبّأ أصحابه للقتال وصفَّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، ورايةً إلى الحباب بن المنذر، ورايةً إلى سهل بن حنيف، ورايةً إلى عباد بن بشر. ثم دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله.

فبرز رجلٌ منهم وبرز إليه الزبير بن العوام فقتله؛ ثم برز آخر فبرز إليه الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز له علي عليه السلام فقتله؛ ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله؛ حتى قُتِل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قُتِل رجلٌ منهم دعا النبي من بقي إلى الإسلام. ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذٍ فيصلي رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وعاد إليهم صبيحة اليوم التالي، فلم تمضِ سوى سويعات قلائل حتى استسلموا، وغنمه الله أموالهم، وأصاب المسلمون أثاثاً ومتاعاً كثيراً. وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله بوادي القرى

---

(١) كانت فاطمة بنت الإمام الحسين قد تزوجت ابن عمها الحسن المثنى، فتوفي عنها عام ٩٧ هـ، فتزوجها عبد الله الأكبر بن عمرو بن عثمان بن عفان.

(٢) جماء: ليس لها قرن.

(٣) أي أدخلت فيه ما ليس منه.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص ١٠٣.

(٥) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص ١٠٣.

أربعة أيام، وقسَّم ما أصاب من غنيمة على أصحابه، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها. ولما بلغ يهود تيماء ما وطىء به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله على الجزية.

غزوة ذات السلاسل[٦]:

في العام الثامن للهجرة[٧] علم النبي ﷺ من بعض مصادره السرية بأن آلافاً من أبناء القبائل العربية قد تحالفوا بينهم في منطقة تدعى وادي اليابس، وقرروا القضاء على النبي ودولته. ولذا عمد النبي لإخبار أصحابه وندبهم للحرب، فخرج جماعة منهم للقتال، فتوجهوا نحو الهدف المنشود، وواجهوا قبيلة بني سليم التي كانت إحدى القبائل المتحالفة ضد المسلمين، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن كثرة عدد الأعداء دعت المسلمين للانسحاب والعودة إلى المدينة المنورة. وهناك... قرر النبي إرسال قوة عسكرية أخرى، ولكنها لم تحقق أهدافها، فعادت فأرسل ثالثةً فعادت كسابقتيها دون تحقيق نتائج إيجابية.

انزعج رسول الله ﷺ من هذه النتائج المخيبة، فاختار مجموعة جديدة من المقاتلين، وأمّر عليهم علياً عليه السلام، وأعطاه الراية ليتوجه إلى بني سليم من فوره فيعود بالنصر المظفر. دخل الإمام عليه السلام على زوجته فاطمة عليها السلام، وطلب منها أن تأتي له بالعصابة التي كان يشدّها على جبينه في اللحظات العصيبة، فترقرقت عيناها بالدموع، إذ كانت تلك هي عصابة الموت التي إذا تعصّب بها زوجها، فإما النصر وإما الشهادة! وانحنى رسول الله ﷺ على ابنته يكفكف دموعها.

شيّع النبي المقاتلين إلى أن بلغوا مسجد الأحزاب، وعليٌّ في مقدمتهم يمتطي فرساً أبلق، وقد لبس بردين يمانيين، وبيده رمح هندي، وقد قال النبي في شأنه ذلك اليوم: أرسلته كراراً غير فرار. وهكذا تقدم الإمام برجاله، ولكنه سلك طريقاً أخرى غير تلك التي سلكها القادة الذين سبقوه، وكان يسير بهم ليلاً ويستريح نهاراً، إمعاناً في مفاجأة العدو.

ولما وصل الإمام فم الوادي، أمر أصحابه بالترجّل والاستراحة ليلتهم تلك، فلما كان الفجر صلى بهم، ثم صعد على قمة التلة، وهجم وأصحابه على الأعداء وهم نيام، فقتلوا منهم جماعة، وأسروا آخرين، وولى الآخرون فراراً.

عاد الإمام علي عليه السلام ظافراً، واستقبله النبي وصحبه، وما أن رأى الإمام النبي ترجل من فرسه احتراماً، فقال له رسول الله وهو يربت على كتفه: اركب، فإن الله ورسوله عنك راضيان. اغرورقت عينا علي استبشاراً بهذا القول، فخاطبه النبي قائلاً: **يا علي، لولا أني أشفق أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح، لقلتُ فيك اليوم مقالاً لا تمر بملأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك**[٨].

قال السيد الحميري في ذكر هذه السرية:

وفي ذاتِ السَّلاسِلِ مِن سُلَيْمٍ ... غَداةَ أتَاهُمُ الموتُ المبِيرُ

---

(٦) قيل أنها سميت بذلك نسبة إلى وادي يعرف باسم السلسل، أو لماء هناك اسمه السلسل ، أو لأن الرمل كان بعضه على بعض كالسلسلة ، وقيل لأن أسرى المشركين ربطوا بالسلاسل. كما أسموها سرية وادي الرمل

(٧) وقيل في العام التاسع الهجري.

(٨) المفيد: الإرشاد ـ ص ٨٤. وجحاجحة: سادة.

وقَـد هَـزمـوا أبـا حفص وعَـمْـراً ... وصـاحِـبَـه مِـــراراً فـاسـتـطـيرُوا
وقَـد قَـتـلـوا مِـن الأنـصَـارِ رَهـطـاً ... فَـحـلَّ الـنـذرُ أو وَجَـبَـت نـذُورُ
أزارَ المـوتَ مَـشـيـخـةً ضِـخـامـاً ... جَـحـاجِـحَـةً تُـسـدَّ بـهـا الـثُّـغـورُ

هذا وقد روي أن الآيات الأول من سورة العاديات قد نزلت في شأن هذه الغزوة، حيث قال الله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾[1].

فتح مكة:

قبل الحديث عن فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، لابد من العودة إلى الوراء لسنتين لمعرفة المعادلة الحاكمة بين المسلمين ومشركي مكة عام ٦ هـ، حيث قصد النبي ﷺ مكة المكرمة بغرض أداء مناسك العمرة، وقد مر عام تقريباً على غزوة الخندق التي هُزم فيها الأحزاب بقيادة قريش، ثم انتصارهم على بني قريظة، علاوة على عدة سرايا في أماكن متفرقة من الجزيرة العربية، ومن بينها سرية الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بني سعد بأرض فدك في شعبان، حين بلغ النبي أن لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر.

• **صلح الحديبية:** في هذه الأجواء وبعد استراحة من السرايا في شهري رمضان وشوال، خرج النبي في الأول من ذي القعدة من العام السادس الهجري لأداء العمرة. جاء القرار بعد الرؤيا الصادقة التي أشار إليها القرآن الكريم في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2].

استنفر النبي أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهيأ للخروج، وخرج أصحابه معه وبغير سلاح إلا السيوف في القِرَب، وكان عدد مَن خرج معه ألفاً وستمائة، كما استنفر النبي الأعراب في طريقه فأبوا الخروج معه، وقد تحدث القرآن الكريم عن موقفهم المتخاذل وما جرى بعد ذلك معهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا. قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3].

---

(١) سورة العاديات: ١-٥.
(٢) سورة الفتح: ٢٧.
(٣) سورة الفتح: ١١-١٦.

وإذ علمت قريش بنية النبي ﷺ بالتوجه إلى مكة المكرمة، استنفرت رجالاتها ورجالات ثقيف وبعض الأعراب لمواجهة هذا الجمع غير المرحّب به. وفي عُسفان[١] ترصّد المشركون للنبي وأصحابه، ومنعوهم من التقدم، وحذّروهم من الإصرار على أداء العمرة. على إثر ذلك، اتخذ النبي ﷺ قراره بتغيير طريقه، فاتّجه غرباً نحو الحديبية[٢] واستقر فيها بانتظار ما تصل إليه المفاوضات مع قريش.

وفي الحديبية تحت الشجرة، جمع النبي ﷺ أصحابه إذ بلغته أنباء كاذبة مفادها قَتْل عثمان بن عفان مبعوثه إلى قريش، وشكَّ في نية أعدائه، فعرض على المسلمين مبايعته من جديد على النصرة في هذا الظرف العصيب والوضع المقلق، فمن المحتمل أن تَغير عليهم قريش وهم في العراء وبلا استعدادات عسكرية، فجاءت بيعة الرضوان في هذا الإطار، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٣].

وعادت قريش بالخبر اليقين، فهي مستعدة للمصالحة وفق شروط معينة، عُرضت على النبي فقَبِلَها، وتم تعيين سهيل بن عمرو عن طرف المشركين. وعند كتابة الصلح قال النبي ﷺ لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **اكتب يا عليّ: بسم اللّه الرحمن الرحيم.**

فقال سهيل بن عمرو: **هذا كتاب بيننا وبينك يا محمّد، فافتتحه بما نعرفه، واكتب: باسمك اللّهم.**

فقال رسول اللّه لأمير المؤمنين: **امح ما كتبت واكتب: باسمك اللّهمّ.**

فقال له أمير المؤمنين: **لولا طاعتك يا رسول الله لما محوت بسم الله الرّحمن الرّحيم.**

ثمّ محاها وكتب «باسمك اللهمّ». فقال له النبي: **اكتب: هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو.**

فقال سهيل: **لو أجبتك في الكتاب الذي بيننا إلى هذا، لأقررت لك بالنبوّة! فسواء شهدت على نفسي بالرضا بذلك أو أطلقته من لساني، امح هذا الاسم واكتب: هذا ما قاضى عليه محمّد بن عبد الله.**

فقال له أمير المؤمنين: **إنّه والله لرسول اللّه على رغم أنفك.**

فقال سهيل: **اكتب اسمه يمضي الشرط.**

فقال له أمير المؤمنين: **ويلك يا سهيل، كفّ عن عنادك.**

سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود القرشي العامري «ت ١٨هـ»، يكنى أبا يزيد، خطيب قريش وفصيحهم، ومن أشرافهم. أسر في معركة بدر، واقترح الخليفة عمر أن ينتزع بعض أسنانه الأمامية كي لا يستطيع الخطابة بعد ذلك ضد النبي والإسلام، فنهاه عن ذلك النبي نهياً قاطعاً وقال: (لا أمثّل بأحد، فيمثّل الله بي، وإن كنت نبياً).

---

(١) على بعد ٨٠ كم تقريباً من مكة.

(٢) الحديبية: أدنى الحل من الحرم المكي وتبعد ٢٢ كم تقريباً، وتعرف اليوم باسم ميقات الشميسي.

(٣) سورة الفتح: ١٨.

فقال له النبي: **امحها يا عليّ.**

فقال: **يا رسول اللّه، إنّ يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوّة.**

قال له: **فضع يدي عليها.**

فمحاها رسول اللّه ﷺ بيده، وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: **ستُدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض.**

ثمّ تمّ أمير المؤمنين الكتاب[1].

وجاء نص الوثيقة كالتالي: **(هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهم الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً، أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله. ومن قدم المدينة من قريش، مجتازاً**

(١) المفيد: الإرشاد، ج١، ص١٢١. وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٣، ص٢٢٠، في الأحداث اللاحقة لمعركة صفين: (وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتب القضية بحضوره، فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين. فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وأما أميرنا فلا. فقال الأحنف: لا تمح اسم إمارة المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً، لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً. فأبى ذلك علي ملياً من النهار، ثم إن الأشعث ابن قيس قال: امح هذا الاسم، فمحي، فقال علي: الله أكبر! سنة بسنة. والله إني لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية فكتبت: محمد رسول الله، وقالوا: لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله ﷺ بمحوه، فقلت: لا أستطيع. فقال: أرنيه، فاريته، فمحاه بيده وقال: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب. فقال عمرو: سبحان الله! أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون! فقال علي: يا ابن النابغة ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمؤمنين عدواً؟ فقال عمرو: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد هذا اليوم أبداً. فقال علي: إني لأرجو أن يطهر الله مجلسي منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان..).

إلى مصر، أو إلى الشام، فهو آمن على دمه وماله. وإن بيننا عَيبة مكفولة[١] وإنه لا إسلال، ولا إغلال[٢]، وإنه مَن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه. ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه)[٣].

ثم جاءت خزاعة فتحالفت مع النبي، وصار بنو بكر في تحالف مع قريش، ونزلت سورة الفتح وأولها: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾[٤] مبيّنة أهمية هذا الحدث المتمثل في عقد الصلح الذي سيفتح أبواباً من الخير للمسلمين، وسيمثل منعطفاً مهماً وحاسماً في مسيرة الدعوة الإسلامية، ثم فصّلت الحديث عن اتلك الآثار الإيجابية ووصف الظروف المحيطة بالحدث حيث قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[٥].

وبعد مرور عام على الصلح خرج النبي ﷺ في ذي القعدة في نفس الشهر الذي صدّه فيه المشركون، معتمراً عمرة القضاء، مكان عمرته التي صدّوه عنها، وبقي في مكة ثلاثة أيام، خلّى فيها المشركون بينه وبين المسجد الحرام.

• **نقض العهد:** ولكن بعد هزيمة المسلمين في مؤتة[٦] شجّع بعض رجالات قريش بني بكر من كنانة على الاعتداء على خزاعة، وقاتل بعض قريش إلى جانبهم، ورفدتهم بالسلاح. ولربما كان ذلك من باب جس النبض لمعرفة مدى قوة واستعداد المسلمين للقتال من جديد بعد هزيمتهم في بلاد الشام.

وعلى إثر هذا الاعتداء، خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم وكيف حضر صفوان بن أمية في رجال من قريش متنكرين فقتلوا بأيديهم رجالاً من خزاعة، ورسول الله جالس في المسجد في أصحابه. ثم استأذن عمرو بن سالم النبي أن ينشد أبياتاً من الشعر، فأذن له. وفي رواية أنه أخذ يكرر: (**قُتلنا وقد أسلمنا. فقال رسول الله: نُصرت يا عمرو بن سالم. وقام يجر طرف ردائه وهو يقول: لا نُصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي**)[٧].

---

(١) أو مكفوفة: كناية عن المحافظة على العهد.

(٢) أي لا غش ولا خداع ولا مكيدة.

(٣) الطبرسي: مجمع البيان، ج٩، ص ١٩٨.

(٤) سورة الفتح: ١.

(٥) سورة الفتح: ١٨-٢٥.

(٦) وجّه النبي جيشاً باتجاه الشام كردة فعل على قتل مبعوثه إليها، فتواجه الجيش مع الروم وحلفائهم من العرب، واستشهد القادة المسلمون: جعفر بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعبدالله بن رواحة، وعاد جيش المسلين منسحباً بقيادة خالد بن ال،ليد.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٤. وبنو كعب من بطون خزاعة.

وأرسلت خزاعة وفداً آخر على رأسهم بُديل بن ورقاء لنفس الهدف. فقال رسول الله: (**ينقضون العهد لأمر يريده الله** عَزَّوَجَلَّ **بهم. فقيل: خير أو شر يا رسول الله؟ قال : خير**)[١].

أحسَّت بعض الأطراف في قريش خطورةَ ما أقدم عليه بعض رجالاتها، وأخذوا يلقون باللوم على من اشترك في قتال خزاعة من رجالهم. وقرر أبو سفيان أن يفد المدينة ليقابل النبي ويتفاهم معه، فخرج ومعه مولى له على راحلتين، فأسرع السير. وفي الطريق عند عُسفان التقى أبوسفيان ببديل بن ورقاء العائد من المدينة مع أصحابه بعد أن شكى للنبي فعلة قريش. وحاول أبوسفيان اكتشاف سبب وجودهم بهذه المنطقة وما إذا كانوا قد اشتكوا للنبي فقال: (**من أين أقبلت يا بديل؟.. قال: تسيّرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا. فلما راح بديل إلى مكة قال أبوسفيان: لئن جاء بُديل المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففتّه، فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بُديلٌ محمداً**)[٢].

وأقبل أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على النبي ﷺ فقال: **يا محمد، إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة.**

فقال رسول الله: **هل كان قِبَلكم حدثٌ؟**

قال: **معاذ الله!**

فقال رسول الله: **فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغيّر ولا نبدل.**

ثم قام من عنده فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته دونه، فقال: **أرغبت بهذا الفراش عني أو بي عنه؟**

قالت: **بل هو فراش رسول الله وأنت امرؤٌ نجسٌ مشرك!**

قال: **يا بنيّة، لقد أصابك بعلمك شرٌّ!**

قالت: **هداني الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟**

قال: **يا عجباه، وهذا منك أيضاً؟ أأترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمدٍ؟**

ثم قام من عندها فلقي أبا بكر فكلمه وقال: **تكلم محمداً وتجير أنت بين الناس؟**

فقال أبو بكر: **جواري في جوار رسول الله** ﷺ.

ثم لقي عمر فكلمه بمثل ما كلم به أبو بكر، فقال عمر: **والله، لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم!**

قال أبو سفيان: **جزيت من ذي رحمٍ شراً.**

---

(١) الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٥، ص٢٠١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٩٥.

ثم دخل على عثمان بن عفان فقال: **إنه ليس في القوم أحدٌ أقرب بي رحماً منك، فزد في الهدنة وجدد العهد؛ فإن صاحبك لن يرده عليك أبداً؛ والله ما رأيت رجلاً قط أكثر إكراماً لصاحبٍ من محمدٍ لأصحابه!**

قال عثمان: **جواري في جوار رسول الله**[١].

وروى الواقدي أيضاً أنه دخل بعد ذلك على الزهراء عليها السلام، فقال: **أجيري بين الناس!**

فقالت: **إنما أنا امرأة.**

قال: **إن جوارك جائزٌ، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع، فأجاز ذلك محمدٌ.**

قالت فاطمة: **ذلك إلى رسول الله** صلى الله عليه وآله.

وأبت ذلك عليه. فقال: **مري أحد ابنيك يجير بين الناس!**

قالت: **إنهما صبيّان، وليس مثلهما يجير.**

فلما أبت عليه أتى علياً فقال: **يا أبا الحسن، أجر بين الناس وكلم محمداً يزيد في المدة.**

قال علي: **ويحك يا أبا سفيان! إن رسول الله قد عزم ألا يفعل، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلم رسول في شيءٍ يكرهه.**

قال أبو سفيان: **فما الرأي؟ يسِّر لي أمري فإنه قد ضاق علي، فمر لي بأمرٍ ترى أنه نافعي.**

فقال علي: **ما أجد لك شيئاً أمثَلَ من أن تقوم فتجير بين الناس، فإنك سيد كنانة.**

قال: **ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟**

قال علي: **لا أظن ذلك والله، ولكني لا أجد لك غيره.**

فقام بين ظهري الناس فصاح: **ألا إني قد أجرت بين الناس، ولا أظن محمداً يخفرني**[٢].

ثم دخل على النبي فقال: **يا محمد، ما أظن أن ترد جواري.**

فقال رسول الله: **أنت تقول ذلك يا أبا سفيان؟!**[٣].

ركب أبوسفيان راحلته وانطلق إلى مكة، وكان قد تأخر وطالت غيبته، وظنت قريش أنه أسلم سراً،

فلما دخل على زوجته هندٍ ليلاً قالت: **لقد حبست حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجحٍ فأنت الرجل! ما صنعت؟**

فأخبرها الخبر وقال: **لم أجد إلا ما قال لي عليٌّ.**

فضربت برجليها في صدره، وقالت: **قُبِّحت من رسول قوم.**

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢١.

(٢) يخفرني: يحميني.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٢.

فلما أصبح حلق رأسه عند الصنمين، إساف ونائلة، وذبح لهما، وجعل يمسح بالدم رءوسهما، ويقول: **لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي! إبراءً لقريش مما اتهموه به.**

وقالت له قريش: **ما وراءك؟ هل جئتنا بكتاب من محمد، أو زيادة في مدة؟ ما نأمن أن يغزونا!**

فقال: **والله لقد أبى عَلَيّ**. وأخذ يخبرهم بما جرى مع الإمام علي عليه السلام فقالوا له: **ما زاد على أن تلعّب بك تلعّباً!**

قال: **والله ما وجدت غير ذلك**[١].

• **الاستعداد للخروج**: أمر النبي ﷺ أصحابه بالاستعداد للقتال، وأرسل من يخبر القبائل الحليفة بالاستعداد أيضاً، دون أن يُعلم أحداً بغاية مسيره، ولا بالعدو الذي سيلاقيه. وأرسل النبي سرية بقيادة أبي قتادة الأنصاري إلى «بطن إضَم»[٢] ليزيد من إبهام حركته. واتخذ النبي إجراء احترازياً آخر، حيث أمر بإغلاق جميع منافذ الطرق والمداخل المؤدية إلى المدينة أمام الغرباء، وأمام الخارجين منها وخاصة من كانت وجهته إلى مكة.

حاطب بن أبي بلتعة القحطاني اللخمي «ت ٣٠ هـ». كان حليفاً لبني أسد بن عبدالعزى في مكة، أسلم وهاجر إلى المدينة، ثم شهد بدراً وما بعدها، بعثه رسول النبي في عام ٦هـ برسالة إلى المقوقس عظيم مصر يدعوه فيها إلى الإسلام، فبعث معه المقوقس مارية وأختها سيرين كهدية.

قدرة النبي على إخفاء الأمر وهو يجهز عشرة آلاف مقاتل أمام أجواء ضاغطة يعدّ إنجازاً عسكرياً مهماً ويكشف عن حسن تدبير وحكمة في التصرف، وقد احتمل الصحابي حاطب بن أبي بلتعة أن يكون مقصد النبي هو مكة، فكتب لثلاثة من قريش يحذّرهم، صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل: (**إن رسول الله ﷺ قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يدٌ بكتابي إليكم**)[٣].

ودفع الكتاب إلى امرأة من مزينة من أهل العرج يقال لها كنود ـ وقيل سارة وقيل غير ذلك ـ وجعل لها ديناراً على أن تبلّغ الكتاب ـ وفي نص آخر عشرة دنانير ـ وقال: (**أخفيه ما استطعت، ولا تمرّي على الطريق فإن عليها محرساً. فسلكت على غير نقب**[٤] **عن يسار المحجة في الفلوق**[٥] **حتى لقيت الطريق بالعقيق**)[٦].

وفي رواية أخرى أنها جعلت الرسالة في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، فخرجت. وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والزبير فقال: **أدركا امرأةً من مزينة، قد كتب معها حاطب كتاباً يحذر قريشاً.**

فخرجا فأدركاها بالخليفة، فاستنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجدا شيئاً. فقال لها الإمام علي: **إني أحلف بالله**

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٢.
(٢) وهي على بعد ٢٠ كم تقريباً من المدينة المنورة.
(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٣. وروي في بعض المصادر أنه كتب إلى بعض أهله في مكة.
(٤) نقب: طريق.
(٥) الفلوق: الشقوق بين الحرّات.
(٦) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٢.

ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك.

فلما رأت الجد منه قالت: **أعرِض.**

فأعرض فحلَّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه. فأتى به رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله حاطباً فقال: **يا حاطب ما حملك على هذا؟**

فقال: **يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكنني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم.**

فقال عمر بن الخطاب: **يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق.**

فقال رسول الله ﷺ: **و ما يدريك يا عمر؟ لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**[١].

لا أدري مدى صحة نسبة هذا الكلام للنبي، وهو يتضمن امتيازاً غريباً لأصحاب بدر يمتد عبر الزمن مهما فعلوا من معاص، فالله سيغفرها، وفي ذلك تشجيع على المعصية. وإذا قيل أن الله علم مسبقاً أنهم لن يرتكبوا ما من شأنه أن يغفر لهم، فهذه هي العصمة بذاتها، فهل يمكن إثبات ذلك لأصحاب بدر؟ ثم إن فعلة حاطب في هذه الحادثة وحدها تنقض الفرض السابق، فقد ارتكب جريمة كبرى.. فأين العصمة؟ أو أن يقال أن الله علم مسبقاً أنهم إن ارتكبوا معصية ما فسيتوبون لاحقاً، وسيغفر الله لهم ذلك. وعلى كل حال فإن التصريح به من دواعي التشجيع على ارتكاب المعصية.

• **إلى مكة:** بعد ذلك، خرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر، وخرج المسلمون، ولم يتخلف منهم أحد.. فكانوا عشرة آلاف. ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران شمال الحديبية، فانضمت إليه قبيلة سليم وكانوا سبعمائة، وقيل بل ألف مقاتل، ثم انضمّت إليه مزينة بألف ثانية[٢].

وفي الجحفة التقى العباس بن عبدالمطلب بابن أخيه النبي الأكرم ﷺ، مهاجراً بعياله.

والنصوص قاصرة عن بيان ما جرى حين لقي العباس النبي ﷺ في الطريق، ومن المحتمل أن وفوده عليه تم بطلب منه ﷺ:

١. ليكون لعمه دور في الفتح دون إراقة الدماء

٢. أو لينقل له صورة الأوضاع الداخلية بمكة

٣. أو لتجنيبه أي ضرر قد يلحق به نتيجة المواجهات العسكرية المحتملة

٤. أو استشرافاً من العباس لما ستؤول إليه الأمور

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٥٣٦.

(٢) وقيل أن المجموع مع أفراد القبيلتين ١٠ آلاف مقاتل.

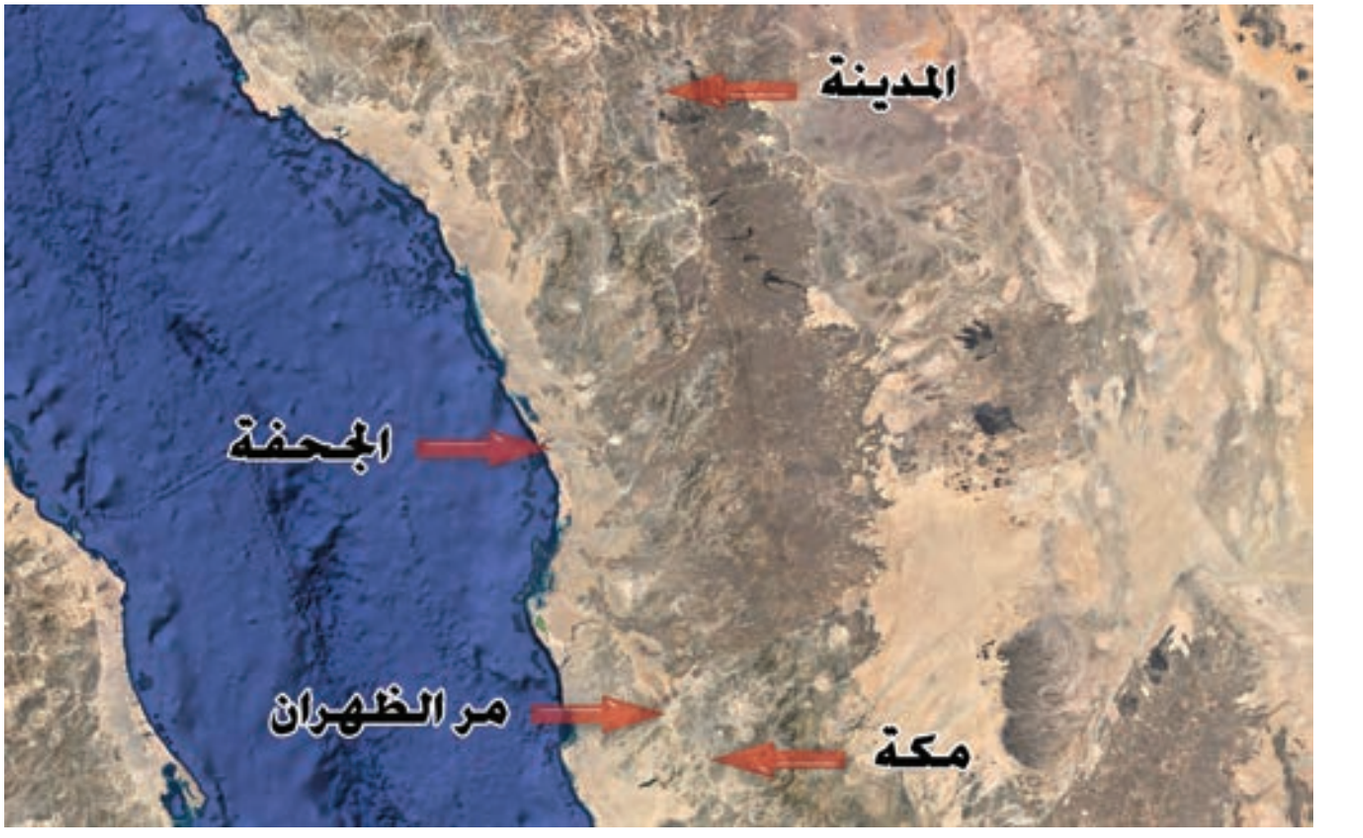

وبالقرب من الجحفة في «نِيق العُقاب» بالتحديد، وفد أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مع ابنه جعفر على رسول الله والتمس الدخول عليه ليُسلِم. فدخلا مُعْتَمّين، فلما انتهيا إليه قالا: **السلام عليك يا رسول الله.**

فقال رسول الله: **أسفِروا تعُرفوا.**

فانتَسبوا له وكشفوا عن وجوههم، وقالوا: **نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.**

فقال رسول الله: **أي مَطْرَد طردتني يا أبا سفيان؟**

قال: **لا تثريب يا رسول الله.**

قال: **لا تثريب يا أبا سفيان.** ثم قال لعلي بن أبي طالب: **بصّر ابن عمك الوضوء والسنّة ورُح به إليّ.**

فراح به إلى رسول الله، فصلى معه، فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فنادى في الناس: **ألا إن الله ورسوله قد رضيا عن أبي سفيان، فارضوا عنه**[1].

أبوسفيان، واسمه المغيرة بن الحارث بن عبدالمطلب، أخو النبي في الرضاعة حيث أرضعته حليمة السعدية، وكان يقاربه من حيث السن، ويلازمه قبل النبوة. ثم تحولت المحبة إلى عداء شديد بعد البعثة، فصار يهجوه، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال النبي. كان من التسعة الذين ثبتوا مع رسول الله يوم حنين، وتوفي عام ٢٠هـ .

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح ٤٦٥٢.

ثم بلغ رسول الله ﷺ «مر الظهران» عشاءً، وبذا يكون قد اقترب من مكة كثيراً، وأمر أصحابه أن يوقدوا النيران، فأوقدوا عشرة آلاف شعلة.. وللقاريء أن يتخيل المنظر حيث يُضاء ليل تلك المنطقة فيصبح كالنهار، وليبلغ نبأ هذا الجيش الإسلامي الكبير الذي يوازي في تعداده جيش الأحزاب الرهيب في غزوة الخندق. وفي تلك الأيام كانت قريش تترصّد حركة النبي، ولا تدري إلى أين هو قاصد، ولا يدرون ما هو فاعل. ثم أجمعَت على أن تبعث أبا سفيان بن حرب ليتحسّب الأخبار، وقالوا: (**إن لقيت محمداً فخُذ لنا منه جِواراً، إلا أن ترى رقةً من أصحابه فآذنه بالحرب**)[١].

في الأثناء، صادف أن ركب العباس بن عبد المطلب بغلة رسول الله «الدلدل» وصار يبحث لعله يجد رجلاً من قريش يخبره أن رسول الله داخلٌ عليهم مع عشرة آلاف[٢].. فسمع العباس صوت أبي سفيان الذي كان قد اقترب من معسكر المسلمين وبمعيته رجلان، فقال: **أبا حنظلة!**

فقال أبو سفيان: **يا لبيك، أبو الفضل؟**

قال العباس: **نعم. قال أبو سفيان: فما وراءك؟**

قال العباس: **هذا رسول الله في عشرة آلاف من المسلمين، فأسلِم، ثكلتك أمُّك وعشيرتُك.**

وعرض العباس الأمر كذلك على الرجلين، فقالوا بأجمعهم: **فنحن معك.**

فخرج بهم العباس حتى أتى رسول الله ﷺ فدخل عليه واستأذن لهم، فأذن النبي، فدخلوا عليه، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ويدعوهم إلى الإسلام، قال: **تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله!**

استجاب الرجلان، بينما تلكّأ أبو سفيان فشهد أن لا إله إلا الله، فلما قال النبي: **وأني رسول الله.**

قال: **والله يا محمد، إن في النفس من هذا لشيئاً يسيراً بعد، فأرجئها.**

ثم قال النبي للعباس: **قد أجَرناهم، اذهب بهم إلى منزلك.**

فلما أذّن الصبح أذّن العسكر كلهم، ففزع أبو سفيان من أذانهم وقال: **ما يصنعون؟**

قال العباس: فقلت: **الصلاة.**

قال أبو سفيان: **كم يصلون في اليوم والليلة؟**

قال العباس: **يصلون خمس صلوات.**

قال أبوسفيان: **كثيرٌ والله!**

قال: ثم رآهم يبتدرون وضوء النبي، فقال: **ما رأيت يا أبا الفضل ملكاً هكذا قط، لا ملك كسرى، ولا ملك بني الأصفر!**

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٣٠.

(٢) يبدو أن ذلك تم بأمر النبي أو بإذن منه، ويمكن أن يقال أن ركوبه بغلة النبي مؤشر على أن التصرف كان بإذن منه أو بأمره.

فقال العباس: **ويحك، آمِن.**

قال: **أدخِلني عليه يا أبا الفضل.**

فأدخله العباس عليه وقال: **يا محمد، استنصرتُ إلهي واستنصرتَ إلهك، فلا والله ما لقيتك من مرةٍ إلا ظفرت عليّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً غلبتُك!**

فتشهد أبو سفيان أن محمداً رسول الله. ولم تسترح نفس أبي سفيان في تلك اللحظات دون أن يطعن في أصحاب النبي ﷺ كما كانت عادة قريش من قبل، فقال: **يا محمد، جئتَ بأوباش الناس، من يُعرف ومن لا يُعرف، إلى عشيرتك وأصلك.**

فقال رسول الله: **أنت أظلم وأفجر، غدرتم بعهد الحديبية وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه!**

فقال أبو سفيان: **ويحك يا رسول الله! لو كنت جعلت حدتك ومكيدتك بهوازن، فهم أبعد رحماً وأشد لك عداوةً.**

فقال رسول الله: **إني لأرجو من ربي أن يجمع ذلك لي كله بفتح مكة، وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن! وأن يغنمني الله أموالهم وذراريهم، فإني راغبٌ إلى الله** عَزَّوَجَلَّ **في ذلك**[١].

ثم طلب العباس من النبي ﷺ أن يُرضي أبا سفيان بشيء بعد أن تشهد بالشهادتين، قال: **يا رسول الله، إنك عرفت أبا سفيان وحبه الشرف والفخر، اجعل له شيئاً!**

قال: **نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ، ومن أغلق داره فهو آمنٌ.**

ثم قال رسول الله للعباس بعد ما خرج: **احبِسه بمضيق الوادي إلى خَطْم الجبل**[٢] **حتى تمرّ به جنود الله فيراها.**

عدل العباس به في مضيق الوادي إلى خطم الجبل، فلما رأى أبوسفيان أنه قد ضُيِّق عليه قال: **غدراً بني هاشم؟**

فقال العباس: **إن أهل النبوة لا يغدرون، ولكن لي إليك حاجةٌ.**

فقال أبو سفيان: **فهلا بدأت بها أولاً، فقلت: إن لي إليك حاجةً فكان أفرخ**[٣] **لروعي.**

قال العباس: **لم أكن أراك تذهب هذا المذهب.**

وعبّأ رسول الله أصحابه، ومرَّت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها، وحامل راية كل كتيبة يكبر ثلاث تكبيرات ويكرر أصحابه من ورائه!

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٣٠.

(٢) أي الموضع الذي يضيق من الجبل، وقيل حطم الجبل بنفس المعنى أو بمعنى المكان المثلوم من الجبل.

(٣) أفرخ: أذهب.

فلما حان دور أشجع من غطفان قال أبوسفيان: **هؤلاء كانوا أشد العرب على محمدٍ.**

فقال العباس: **أدخَل الله الإسلام في قلوبهم، فهذا من فضل الله «عز وجل».**

فسكت ثم قال: **ما مضى بعدُ محمد؟**

قال العباس: **لم يمض بعد، لو رأيتَ الكتيبة التي فيها محمد رأيتَ الحديد والخيل والرجال، وما ليس لأحدٍ به طاقة.**

قال: **أظن والله يا أبا الفضل؛ ومن له بهؤلاء طاقة، سوادٌ وغبرةٌ من سنابك الخيل. وجعل الناس يمرّون، كل ذلك يقول: ما مرّ محمد؟!**

فيقول العباس: **لا.**

حتى مر يسير على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير وهو يحدثهما، فقال العباس: **هذا رسول الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، فيها الرايات والألوية، مع كل بطنٍ من الأنصار راية ولواء، في الحديد لا يُرى منهم إلا الحدق، ولعمر بن الخطاب فيها زجلٌ. وعليه الحديد. بصوتٍ عالٍ وهو يزعجها.**

فقال أبو سفيان: **يا أبا الفضل، من هذا المتكلم؟**

قال: **عمر بن الخطاب.**

قال: **لقد أمِرَ [١] أمْرُ بني عَدي بعد ـ والله ـ قلةٍ وذلةٍ!**

فقال العباس: **يا أبا سفيان، إن الله يرفع من يشاء بما يشاء، وإن عمر ممن رفعه الإسلام.**

أعطى رسول الله رايته سعد بن عبادة وهو أمام الكتيبة، فلما مر سعد براية النبي نادى: **يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة! اليوم تُستحَل الحُرمة. اليوم أذل الله قريشاً.**

امتلأ قلب أبي سفيان رعباً حين سمع كلمات سعد بن عبادة فأقبل رسول الله حتى إذا حاذى أبا سفيان اشتكى للنبي من قولة سعد وقال: **وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبرّ الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس.**

وقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان: **يا رسول الله، ما نأمن سعداً أن يكون منه في قُرى صولة.** فقال رسول الله: **اليوم يوم المرحمة. اليوم أعز الله فيه قريشاً.**

وأرسَل رسول الله إلى سعدٍ فعزله، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد، ورأى رسول الله أن اللواء لم يخرج من سعدٍ حين صار لابنه. فأبى سعدٌ أن يسلم اللواء إلا بأمارةٍ [٢] من النبي، فأرسل رسول الله بعمامته، فعرفها سعدٌ فدفع اللواء إلى ابنه قيس[٣].

إلا أن الشيخ المفيد روى الخبر بشكل مغاير، قال: (**إن العباس قال للنبي: أما تسمع يا رسول الله ما يقول سعد**

---

(١) يعني كبر شأنه.

(٢) أمارة: علامة ودلالة.

(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣١-٣٣٣.

بن عبادة؟ إني لا آمن أن يكون له في قريش صولة. فقال النبي لأمير المؤمنين: أدرِك يا علي سعداً فَخُذ الراية منه، وكن أنت الذي يدخل بها مكة. فأدركه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخذها منه، ولم يمتنع عليه سعد من دفعها)[١].

وأكّد ابن هشام انتقال الراية لعلي، قال: **(فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها)**[٢]. أما الواقدي فقال: **(ويقال أن رسول الله ﷺ أمر علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ اللواء فذهب علي بها حتى دخل مكة فغرزها عند الركن)**[٣].

وعلّق المفيد على الخبر قائلاً: **(فكان تلافي الفارط من سعد في هذا الأمر بأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم ير رسول الله أحداً من المهاجرين والأنصار يصلح لأخذ الراية من سيد الأنصار سوى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلم أنه لو رام ذلك غيره لامتنع سعد عليه، فكان في امتناعه فساد التدبير واختلاف الكلمة بين الأنصار والمهاجرين، ولما لم يكن سعد يخفض جناحه لأحد من المسلمين وكافة الناس سوى النبي ﷺ ولم يكن وجه الرأي تولي رسول الله ﷺ أخذ الراية منه بنفسه، ولّى ذلك مَن يقوم مقامه ولا يتميز عنه)**[٤]. وإذا اعتمدنا أن اللواء يختلف عن الراية كما ذكرنا مسبقاً، فسيكون اللواء بيد علي، والراية التي كانت بيد سعد بن عبادة قد انتقلت لابنه قيساً.

وعاد أبوسفيان للحديث مع العباس، فقال حين رأى الكتيبة الخضراء التي كان فيها النبي ﷺ: **ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط، ولا خبّرنيه مخبر! سبحان الله، ما لأحدٍ بهذه طاقةٌ ولا يدان! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!**

قال العباس: **ويحك يا أبا سفيان، ليس بملكٍ ولكنها نبوةٌ.**

قال: **نعم.**

قال له العباس: **فانجُ ويحك فأدرِك قومك قبل أن يدخل عليهم.**

فخرج أبو سفيان فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كُداءٍ[٥] وهو يقول: **من أغلق بابه فهو آمن!**

حتى انتهى إلى هند بنت عتبة، فأخذت برأسه فقالت: **ما وراءك؟**

قال: **هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد، وقد جعل لي: مَن دخل داري فهو آمن، ومَن أغلق بابه فهو آمنٌ، ومَن طرح السلاح فهو آمنٌ.**

قالت: **قبحك الله رسول قوم. اقتلوا وافدكم هذا، قبحك الله وافد قوم.**

وجعل يصرخ بمكة: **يا معشر قريش، ويحكم! إنه قد جاء ما لا قبل لكم به! هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد، فأسلِموا!**

---

(١) المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٣٥.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٤٠٧.
(٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٣.
(٤) المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٣٥.
(٥) يعرف كداء اليوم باسم «ريع الحجون»، يدخل طريقه بين مقبرتي المعلاة ، ويفضي من الجهة الأخرى إلى حي العتيبية وجرول .

قالوا: **قبحك الله وافد قوم!**

قال أبو سفيان: **ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم! رأيت ما لم تروا! رأيت الرجال والكراع والسلاح، فلا لأحدٍ بهذا طاقة**[١].

وقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: **اقتلوا الدسم الأحمش**[٢] **قُبّح من طليعة قوم!**

قال: **ويحكم لا تغرّنّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان؛ فهو آمن.**

قالوا: **ويلك وما تغني دارك؟!**

قال: **ومن أغلق بابه؛ فهو آمن، ومن دخل المسجد، فهو آمن.**

فتفرّق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد[٣].

• **المسلمون في مكة:** فرَّق رسول الله جيشه من ذي طوى إلى أربع فرق، كل فرقة تدخل من ناحية من نواحي مكة. فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من «كُدي»، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من «كَداء»،

(١). الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٣.
(٢). الدسم: الأسود. والأحمش: القليل اللحم. أي: الأسود الدنيء؛ قالته له في معرض الذم.
(٣). الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج٧، ص ١٠٢٩.

وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من «اللِّيط» أسفل مكة، وأمر أبوعبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبّ لمكة بين يدي رسول الله، فدخل رسول الله من «أذاخر» حتى نزل بأعلى مكة، وضربت له هناك قُبة.

وأكد المؤرِّخون أن النبي نهى عن القتال في مكة عند فتحها ضمن هذه الظروف وحرص على أن يكون الدخول سلمياً ومن دون إراقة دماء، إلا أنه قد عهد في نفر سمّاهم أمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة[١]. وعلى الرغم من ذلك فقد أصر بعض دعاة الحرب من قريش على قتال المسلمين، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسُهيل بن عمرو قد دعوا إلى قتال رسول الله، وضوى إليهم ناس من قريش وناس من بني بكر وهُذيل، وهم يُقسمون بالله ألا يسمحوا للنبي أن يدخلها عنوة أبداً.

فلما دخل خالد بن الوليد وجد هذا الجمع أمامه، فمنعوه الدخول وشهروا السلاح ورموا بالنبل، فصاح خالد في أصحابه وقاتلهم فقُتل منهم أربعة وعشرين رجلاً من قريش ، وأربعة من هذيل، وانهزموا أقبح الانهزام حتى قُتلوا بالحَزْوَرة[٢] وهم مولّون في كل وجه. وانطلقت طائفة منهم فوق رءوس الجبال واتّبعهم المسلمون فجعل أبوسفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان: **يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ مَن دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن.** فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقون عليهم ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذها المسلمون.

ولما ظهر رسول الله على ثنية أذاخر نظر فقال: **ما هذه البارقة[٣]؟ ألم أَنْهَ عن القتال؟** قيل: **يا رسول الله خالد بن الوليد قوتل، ولو لم يُقاتَل ما قاتل.** فقال رسول الله: **قضى الله خيراً.**

ولم يُقتل من المسلمين أحد إلا رجلان أخطئا طريقهما فسلكا غيرها فقُتلا. وقد أمر النبي باستثناء بعض الأشخاص، وحكم بقتلهم ولو تحت أستار الكعبة كما ذكرنا سابقاً، ولكن اختلف المؤرخون في عددهم وأسمائهم، ومن بينهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صبابة الليثي، وعبدالله بن هلال بن خطل الأدرمي، وأوصل بعض المؤرخين عددهم إلى ما يزيد على العشرين رجلاً وامرأة، وبعضهم قد ارتكب جرائم كالقتل في المدينة أو بحق بعض المسلمين، وهرب لاجئاً إلى مكة عن ردّة وكفر.

دخل النبي مكة وهو راكب ناقته، في تواضع حامداً شاكراً الله، وهو يقرأ سورة الفتح، ثم ضُربت له قبة من أدم بالحجون. وقد تجنب النبي أن يعطي أي انطباع عن أن فتح مكة يمثل حالة من الاحتلال والتعالي على المهزوم، على خلاف ما يصنعه المنتصرون في المعارك والفاتحون للبلاد، ولربما يكون ذلك لمزيد من تهيئة النفوس للدخول في الإسلام، حتى أنه أبى أن ينزل في بيت بمكة، ويرى البعض أن امتناع النبي اتخاذ بيت ثابت مقراً له واستقراره في الخيمة طوال مدة بقائه في مكة المكرمة إشارة بليغة إلى الأنصار أنه لا ينوي العودة للسكنى في مكة المكرمة، إذ أن الأنصار كانوا في قلق عميق من هذه المسألة، وقد عالج النبي قلقهم هذا حين علم بالأمر فقال: **يا معشر الأنصار،**

---

(١). ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٠٩.

(٢) الحزورة هي الربوة التي تقابل منتصف المسعى من الشرق، وكان فيها بيت السيدة خديجة أم المؤمنين، ومولد السيدة فاطمة الزهراء.

(٣) البارقة: لمعان السيوف.

قلتم: أمّا الرجل فأدركته رغبته في قريته، ورأفته بعشيرته، كلا. فما اسمي إذاً؟ [١] **كلا. إني عبد الله ورسوله، المحيا محياكم، والممات مماتكم.**

فأقبلوا يبكون وقالوا: **يا رسول الله، والله ما قلنا إلا لضَنٌّ بالله وبرسوله**[٢].

فقال رسول الله: **إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم.**

وروي أنه ما منهم من أحد إلا مَن بلَّ نحره بالدموع من عينيه[٣].

• **مع أم هانيء:** كانت أم هانيء بنت أبي طالب زوجة هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، وفي يوم الفتح دخل عليها حموان لها، عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، والحارث بن هشام، فاستجارا بها[٤] فإذا بأخيها عليٌّ عليه السلام فارساً، وقد غطى الحديد وجهه، فلم تعرفه فقالت له: **أنا بنت عم رسول الله.**

فأسفر الإمام عن وجهه، فإذا علي. فقالت: **أخي؟**

فاعتنقتْه وسلّمت عليه، ونظر الإمام إلى الرجلين فشَهر السيف عليهما.

فقالت: **أخي من بين الناس يصنع بي هذا؟**

وألقت عليهما ثوباً للدلالة على أنهما في جوارها وتحت حمايتها، فقال: **تُجيرين المشركين؟**

فقالت وقد وقفت أمامهما: **والله لتبدأن بي قبلهما.**

فخرج الإمام فبادرت إلى إغلاق الباب، ثم ذهبت إلى خباء رسول الله فلم تجده، ووجدت فيه فاطمة عليها السلام فقالت لها وهي تشتكي: **ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ أجرتُ حموين لي من المشركين فتفلّت عليهما ليقتلهما.**

لم تختلف ردة فعل الزهراء عليها السلام عن زوجها تجاه الرجلين فقالت: **تجيرين المشركين؟**

وفي الأثناء طلع رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه آثار الغبار فقال: **مرحباً بفاختة أم هانئ.**

فقالت: **ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ ما كدت أنفلت منه، أجرْتُ حموين لي من المشركين فتفلّت عليهما ليقتلهما.**

فقال رسول الله: **ما كان ذاك، قد أمّنّا من أمّنتِ، وأجرنا من أجرتِ**[٥].

---

(١) أي أن اسمه «محمد» ومشتق من «الحمد»، أو أن المقصود دلالة العبارة اللاحقة: «إني عبدالله ورسوله»، وأن قراراته تدور مدار هذين العناوين، لا مدار العناوين القبلية والعشائرية. ولم ترد هذه العبارة في نص آخر، بل جاءت هكذا: «يا معشر الأنصار. قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته. قالوا: قد كان ذاك. قال: كلا إني عبدالله ورسوله هاجرتُ إلى الله وإليكم».

(٢) الضن: الحرص على الشيء .

(٣) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج٤، ص ١٧٤.

(٤) قيل أنهما من المهدورة دماؤهم أو لعلهم من الذين أصروا على القتال ولم يصمدا.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٦.

وجاء في الإرشاد أن فاطمة عَلَيْهَاالسَّلَامُ قالت لها: **إنما جئت يا أم هانئ تشكين علياً في أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله؟!**

فقال رسول الله: **لقد شكر الله لعلي سعيه، وأجرتُ من أجارت أم هانئ لمكانها من علي بن أبي طالب**[١].

• **ختام الفتح**: ثم إن رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ دعا براحلته القصواء فأُدنيت إلى باب قبته ودعا للبس السلاح والمِغفر على رأسه وقد صف له الناس، فركب براحلته والخيل تمعج بين الخندمة إلى الحجون، ولما انتهى إلى الكعبة ورآها تقدم راكباً فاستلم الركن، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، فرجّعوا التكبير حتى ارتجّت مكة تكبيراً، فأخذ رسول الله يشير إليهم أن اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون.

ثم طاف رسول الله بالبيت على راحلته آخذاً بزمامها محمد بن مسلمة، وحول الكعبة ٣٦٠ صنماً مثبّتة بالرصاص، وكان هُبل[٢] أكبرها، وهو وجاه الكعبة على بابها، فجعل رسول الله كلما مر بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**. وتم تحطيم الأصنام.

وفي رواية الشيخ المفيد أنه: لما دخل رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ المسجد وجد فيه ثلثمائة وستين صنماً، فقال لعلي عَلَيْهِالسَّلَامُ: **اعطني يا علي كفاً من الحصى.**

فناوله فرماها به وهو يقول: **قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.**

فما بقي منها صنم إلا خرَّ لوجهه. ثم أمر بها فأخرجت من المسجد فطُرحت وكُسرت .

ثم صعد أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ على منكبي رسول الله، واعتلى الكعبة المشرفة وأسقط صنم قريش الأكبر، وكان مصنوعاً من النحاس، وتعالت صيحات التكبير ونداء: **قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.**

وعلق الشيخ المفيد قائلاً: (**وفيما ذكرناه من أعمال أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ في قتل من قتل من أعداء الله بمكة، وإخافة من أخاف، ومعونة رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ على تطهير المسجد من الأصنام، وشدة بأسه في الله، وقطع الأرحام في طاعة الله، أدل دليل على تخصصه من الفضل بما لم يكن لأحد منهم سهم فيه**)[٣].

طاف رسول الله سبعاً على راحلته يستلم الركن الأسود بمحجنه في كل طواف، فلما فرغ من سبعة أشواط نزل عن راحلته، وانتهى إلى مقام إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ ـ وهو يومئذ لاصق بالكعبة ـ والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه فصلى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم فاطّلع فيها، وقال: **لولا أن يُغلب بنو عبدالمطلب لنزعت منها دلواً**[٤]، فنزع له العباس بن عبد المطلب دلوا فشرب منه.

دخل النبي جوف الكعبة المشرفة لبرهة ثم خرج فوقف على الباب وأخذ بعضادتيه، فأشرف على الناس وبيده

---

(١) المفيد: الإرشاد، ج١، ص١٣٨.

(٢) كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان.

(٣) المفيد: الإرشاد، ج١، ص١٣٨.

(٤) لعل قصد النبي أنه لو نزع الدلو بنفسه فإن الناس سيعتبرون ذلك إشارة إلى نزع السقاية من العباس بحيث يكون لكل أحد السقاية، وهذا ما كان يتحاشاه النبي في كثير مما نقرؤه في طريقة تعامله الحساسة مع امتيازات القرشيين وممتلكاتهم وغير ذلك.

المفتاح ثم جعله في كمه، وجلس الناس حول الكعبة، فقال: **الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ماذا تقولون وماذا تظنون؟**

قالوا: **نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قَدَرْت.**

فقال رسول الله ﷺ: **فإني أقول كما قال أخي يوسف ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**[١] **ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج... إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبّرها بآبائها، كلّكم من آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم. ألا إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد كائن بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من النهار ـ يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا ـ لا ينفر صيدها ولا يعضد عضاهها**[٢] **ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يُختلَى خلاها.**

فقال العباس: **إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه، إنه للقبر وطهور البيوت**[٣] .

قال فسكت رسول الله ساعة ثم قال: إلا الإذخر فإنه حلال.... إلخ الخطبة[٤].

فخرج الناس كأنما نُشروا من القبور، وقدمت أفواج من أهل مكة، الصغار والكبار والرجال والنساء، لتبايع النبي على الإسلام، وقد جلس عند قرن مسفلة[٥].

دخل الناس في الإسلام بأعداد هائلة بعد فتح مكة، بينما كانوا قبل ذلك يدخلون بأعداد محدودة جداً.. بالطبع فإن هذا لا يعني دخول كل أهل مكة في الإسلام، بل في العفو العام الذي أطلقه النبي، حيث أنه بقيت أعداد منهم على الشرك إلى أن ذابوا تدريجيا في المحيط العام بالموت أو الدخول في الإسلام أو غير ذلك. وقد لحق فتح مكة وغزوة حنين والطائف التي سنتحدث عنها بعد قليل دخول العرب في دين الله أفواجاً، وسُمّي العام التاسع للهجرة عام الوفود. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[٦].

والنتيجة الأخرى المهمة لفتح مكة أنه كانت لقريش المشركة السيادة على كثير من العرب بحكم مكانة مكة والكعبة في نفوسهم، وكان لها الثقل الأكبر في مجريات الأحداث التي واجهها المسلمون، وكانت القبائل العربية الأخرى تتابع نتائج هذا الصراع، وما دامت قريش قوية فهذا يعني أن ساحة الصراع غير محسومة لطرف، وأن قريشاً قد تحقق انتصارات لاحقة في المعارك، أو قد تقضي تماماً على الإسلام ونبيه. ولكن فتح مكة أنهى ذلك كله وحسم الأمر لصالح الإسلام، وانتهت بذلك سيادة قريش وزعامتها.

---

(١) سورة يوسف:٩٢. و ذكر ابن إسحق أن النبي قال بعد ذلك: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

(٢) العضاه نوع من الشجر، والعضد القطع.

(٣) الإذْخِرُ حشيش طيب الريح، واحدتها إذْخِرَةٌ.

(٤) كل مانزل عن المسجد الحرام جنوباً يسمونه أهل مكة بالمسفلة، وما ارتفع عنه شمال شرق يسمونه بالمعلاة.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٩.

(٦) سورة النصر:١-٣.

۞ حُنين والطائف:

يمكن اعتبار هذه الغزوة في الواقع ثلاث غزوات متتالية ومترابطة، وقعت في العام الثامن للهجرة، وهي حنين وأوطاس والطائف، وإن كانت الأولى هي الأبرز بينها بلحاظ أحداثها ونتائجها وتخليدها بالنص القرآني كما سنلاحظ ذلك لاحقاً.

وهذه الغزوات مليئة بالأحداث، كثيرة العبر، وبعض من الشخصيات الوارد ذكرها في الأحداث سيكون لهم دور حساس بعد رحيل رسول الله ﷺ.

ففي العشرين من شهر رمضان عام ٨ هـ تم فتح مكة المكرمة، ومكث النبي ﷺ بها خمسة عشر يوماً عمل خلالها على تنظيم أمورها الدعوية والإدارية، ثم غادرها باتجاه وادي حنين في الخامس أو السادس من شوال، وبما أن الطريق استغرق ثلاث مراحل على ما ذكره المؤرخون، فلابد من القول بأن أحداث المعركة وقعت ما بين التاسع والعاشر من شهر شوال من العام الهجري الثامن.

يقع وادي حنين على بُعد ٢٦ كم شرق مكة، ويعرف اليوم باسم «الشرائع»، وقد شكّل المعسكر المعادي للمسلمين تحالفاً من عدة قبائل على رأسها قبيلتان كبيرتان:

١. قبيلة هوازن، وتنقسم إلى قسمين، قسم حجازي يسمى «عَجز هوازن»، وموطنهم في الطائف وما حولها. وقسم نجدي يُعرفون ببني عامر بن صعصعة، وهو يشمل قبائل مثل بني عقيل وبني نمير.

٢. قبيلة ثَقيف، وهم في الأصل بطن من هوازن نفسها، ويُنسبون إلى أب لُقِّب بهذا الاسم، وقيل أن اسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوازن، وموطنهم مدينة الطائف.

أما المعسكر الآخر فقد ضم عدة أطراف:

١. المهاجرون والأنصار وقوامهم عشرة آلاف مقاتل جاءوا لفتح مكة.

٢. المكيون من الطلقاء المشركين، وممن أسلم منهم حديثاً على إثر فتح مكة، وقوامهم ألفا مقاتل.

٣. قبيلة بني سليم التي صاحبت النبي لفتح مكة، في ألف مقاتل.

٤. قبيلة مزينة: التي صاحبت النبي لفتح مكة، في ألف مقاتل[١].

- **أسباب الغزوة:** بالرجوع إلى المصادر التاريخية نجد أنفسنا أمام احتمالين:

الاحتمال الأول: أن المعسكر المعادي للمسلمين هم البادؤون بالحرب، وذلك بهدف القضاء على شوكة الإسلام بعد أن عجزت قريش عن تحقيق ذلك، وتم الفتح بكل يسر ودون مقاومة تُذكر.

الاحتمال الثاني: أن النبي ﷺ حينما خرج من المدينة نحو مكة لفتحها، أظهر بايحاءات معينة أنه كان يريد أن

(١) هناك رأي آخر بأن أفراد قبيلتي بني سليم ومزينة كانوا ضمن العشرة آلاف مقاتل ممن شاركوا في فتح مكة، فيرتد العدد ليكون١٢ ألفاً.

يغزو ديار هوازن تأديباً لها لمشاركتها في التحالفات السابقة مع قريش كما حصل في غزوة الخندق ولعدائها المستمر للمسلمين وإيذائها لهم بصور شتّى... فبلغهم ذلك، فأعدوا العُدّة لقتاله قبل أن يباغتهم، فلما فتح النبي مكة تحركت هوازن وثقيف ومن والاها بنيّة المبادرة بالغزو.

• **خروج متقابل:** اتخذ النبي ﷺ عدة اجراءات قبيل الحركة نحو ديار هوازن من بينها جمع القوات والترغيب في الجهاد والوعد بالنصر والمغانم الكثيرة، ثم عقد اللواء الأكبر ودفعه إلى أميرالمؤمنين علي عليه السلام، وكل من دخل مكة براية حين فتحها أمره أن يحملها.

خرجت هوازن وثقيف بمعيّة ما تملكه من الأنعام والأموال والنساء والذراري، وكان ذلك تدبيراً من القائد الشاب مالك بن عوف، يهدف من ورائه إيجاد الدافع لقواته للقتال حتى الرمق الأخير، فإن لم يكن صمودهم في القتال لأجل العقيدة والولاء للقبيلة، فليكن لأجل الممتلكات والأهل والولد.

ولما وصل الجمع أرضاً تعرف بـ «أوطاس» لمس دُريد بن الصمّة الأرض بيده فقال: **في أي واد أنتم؟**

مالك بن عوف بن سعد بن يربوع ، يرتفع نسبه إلى نصر بن معاوية بكر بن هوازن، ويلقب بأبي علي النصري. كان فارساً وشاعراً. توفي ٢٠ هـ تقريباً.

دريد بن الصمة ـ واسمه معاوية الأصغر ـ بن الحارث بن معاوية الأكبر الجشمي، وجشم من هوازن. كان سيد بني جشم وفارساً شهيراً ومن شعراء الجاهلية. شهد حُنين وقُتل فيها.

قالوا: **بوادي أوطاس.**

قال: **نعم مجال خيل، لا حزَن ضرس ولا سهل دهس**[١].

ثم أبدى انزعاجه من اصطحاب الأموال والنساء والذراري فقال: **يا مالك، إنك أصبحت رئيس قوم وإنك تقاتل رجلاً كريماً، ولم تصنع في تقدمة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ويحك وهل يلوي المنهزم على شيء؟ اردد بيضة هوازن إلى عُليا بلادهم وممتَنع محالهم، والقَ الرجال على متون الخيل، فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه وفرسه، فإن كانت لك، لحق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك لا تكون قد فُضحت في أهلك وعيالك**[٢].

فقال له مالك: **إنك قد كَبُرت وكَبُر علمُك.**

فلم يقبل من دريد[٣].

• **الإعجاب بالقوة:** حكى القرآن الكريم شعور بعض المسلمين بالزهو نتيجة الكثرة العددية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[٤].

---

(١) أي أن الأرض ليست مرتفعة وعرة، ولا سهلية ولينة تغوص فيها الأقدام والحوافر.

(٢) أي من خلال سبيهم من قبل المسلمين.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٤٦-١٤٧.

(٤) سورة التوبة: ٢٥.

قال الشامي: (**عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل ـ ولفظ البزار: فقال غلام من الأنصار ـ يوم حنين: لن نُغلَب اليوم من قلة... وروى محمد بن عمر عن ابن شهاب الزُّهْري، قال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: لو لقينا بني شيبان ما بالينا، ولا يغلبنا اليوم أحَد من قلّة. قال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل مكة: أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ورأى كثرة مَن معه من جنود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لن نُغلَب اليوم من قلة. كذا في هذه الرواية. والصحيح أن قائل ذلك غير النبي ﷺ كما سبق. قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها. وروى محمد بن عمر عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله، لن نُغلَب اليوم من قِلّة. كذا في هذه الرواية، وبذلك جزم ابن عبد البر**)[١].

وصلت هوازن وثقيف أولاً إلى وادي حُنين، واتخذت عدة إجراءات عسكرية أهمها:

١. احتلال الهضاب والجبال المشرفة على وادي حنين.

٢. الاستعداد لمباغتة جيش المسلمين بكميات هائلة من النبال من كل جانب لإرباكهم.

٣. إعداد المقاتلين الميدانيين للهجوم بمجرد اختلال صفوف جيش المسلمين وإلحاق الهزيمة به.

وخطب مالك بن عوف قائلاً: (**ليصيّر كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره، واكسروا جفون سيوفكم، واكمنوا في شعاب هذا الوادي، وهذا الوادي، وفي الشجر، فإذا كان في غبش الصبح[٢] فاحملوا حملة رجل واحد، وهدّوا القوم، فإن محمداً لم يلقَ أحداً يُحسن الحرب**)[٣].

أما المسلمون، فقد صلى النبي ﷺ بهم صلاة الفجر قبل دخول الوادي، ثم تحركت القوات، وكانت في المقدمة قبيلة بني سليم وأمامهم خالد بن الوليد، وما هي إلا لحظات حتى انهمرت النبال من كل ناحية كالمطر، ونجح عاملا المباغتة والظلام في إحداث ارتباك كبير في صفوف الكتيبة الأولى التي سرعان ما ارتدت على أعقابها وهي محصورة بين جبلين، تلاحقها قوات هوازن وثقيف التي بادرت إلى الهجوم من الأمام. وقد أحدث هذا الارتداد حالة من الفوضى والتصادم بين صفوف قوات المسلمين، ولجأ كثير منهم إلى الهروب في كل ناحية، لاسيما مع جهلهم لحقيقة ما جرى في الوادي، والمفاجآت التي ربما يكون العدو قد أعدّها لهم.

ويصف الصحابي جابر بن عبدالله الأنصاري تلك اللحظات قائلاً: (**لما استقبلْنا وادي حُنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حَطوط[٤]، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال : وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيّئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحدٌ على أحد. وانحاز**

(١) الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٥، ص ٣١٧.

(٢) أي ظلمة الصبح قبل أن يسفر النور.

(٣) الطبرسي: مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٤.

(٤) حطوط: منحدر.

رسول الله ذات اليمين، ثم قال : أين أيها الناس؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله. قال: فلا شيء[١]. حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس)[٢].

• **ثبات علي وآخرون:** لم يبق أحد إلا انهزم، وبقي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقاتلهم في نفر قليل، أنهاهم كثيرٌ من أهل السير إلى عشرة، تسعة من بني هاشم وعاشرهم أيمن ابن أم أيمن. قال الشيخ المفيد في تحديد أسماء التسعة الهاشميين: (**ومن ثبت معه من بني هاشم يومئذ وهم ثمانية، أمير المؤمنين تاسعهم: العباس بن عبد المطلب عن يمين رسول الله، والفضل بن العباس بن عبد المطلب عن يساره، وأبو سفيان بن الحارث ممسك بسرجه عند ثفر بغلته[٣]، وأمير المؤمنين عليه السلام بين يديه يضرب بالسيف، ونوفل بن الحارث، وربيعة بن الحارث، و عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب حوله. وقد ولت الكافة مدبرين سوى من ذكرناه**)[٤].

التفت العباس يومئذ وقد أقشع الناس عن بكرة أبيهم، فلم ير علياً فيمن ثبت، فقال: **شوهة وبوهة[٥]! أوَ في مثل هذه الحال يرغب ابنُ أبي طالب بنفسه عن رسول الله؟ وهو صاحبه فيما هو صاحبه؟[٦]**

قال الفضل بن العباس: **نقّص قولك لابن أخيك، أما تراه في الرّهج[٧]؟**

قال العباس: **أشعِرْه لي يا بنيّ.**

قال الفضل: **ذو كذا، ذو كذا، ذو البردة.**

قال العباس: **فما تلك البرقة؟**

قال الفضل: **سيفه يرفل به بين الأقران.**

فقال العباس: **برّ ابن برّ، فداه عم وخال.**

فضرب عليّ عليه السلام ـ بشهادة الفضل بن العباس ـ يومئذ أربعين مبارِزاً، وكانت ضرباته[٨] منكَرة[٩].

وفي الأثناء أخذ النبي صلى الله عليه وآله يحفّز قواته على العودة إلى ساحة المعركة، وصار ينادي فيهم ويأمر عمه العباس بالنداء فيهم بنداءات مختلفة، منها: **يا معشر الأنصار إلى أين؟ أنا رسول الله، يا أنصار الله وأنصار رسوله**

---

(١) أي لم يستجب أحد لنداء النبي.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٤٢.
(٣) ثفر البغلة: السير الذي في مؤخر السرج.
(٤) المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ١٤١.
(٥) أي ما أقبح هذا الفعل.
(٦) أي في المواطن المشهودة له.
(٧) الرهج: الغبار.
(٨) وفي بحار الأنوار للمجلسي، ج ٢١، ص ١٧٩: (وكانت ضرباته مبتَكرة) أي يقتل بضربة واحدة لا يثنّيها.
(٩) المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ٢، ص ١١-١٢.

أنا عبدالله ورسوله، أنا النبي لا كَذب ، أنا ابن عبدالمطلب. ثم أمر عمه العباس أن يصعد على مرتفع وينادي: **يا معشر الأنصار، يا معشر السَّمُرة[١]. يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة، يا أصحاب سورة البقرة[٢].**

ولما رأى رسول الله ﷺ شدة الموقف رفع يده فقال: **اللهم لك الحمد إليك المشتكى وأنت المستعان. فنزل جبرئيل فقال: يا رسول الله، دعوت بما دعا به موسى حيث فلق له البحر، ونجاه من فرعون.** ثم قال لأبي سفيان بن الحارث: **ناولني كفاً من حصى.** فناوله فرماه في وجوه المشركين ثم قال: **شاهت الوجوه.** ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: **اللهم إن تُهلك هذه العصابة لم تُعبد، وإن شئت أن لا تُعبد لا تُعبد[٣].**

لم يجد البعض كأبي سفيان بن حرب فرصة للشماتة بالنبي ﷺ والمسلمين أفضل من هذه اللحظات، فقال مستهزئاً: **لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.**

وصرخ كَلَدة بن الحنبل: **بطل سحر ابن أَبي كبشة اليوم!**

فقال له صفوان بن أمية: **اسكت، فَضَّ الله فاك! والله لأَن يَرُبَّني ربٌ من قريش أحب إليّ من أَن يَرُبّني ربٌ من هَوَازن.**

• **بطولة أخرى لعلي:** أقبل رجل من هوازن على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء وهويرتجز:

أنا أبو جَرولَ لا بَراح

حتّى نُبيحَ القومَ أونُباح

فصمد له أميرالمؤمنين علي فضرب عجُزَ بعيره فصرعه، ثمّ ضربه فقطّره[٤]، وكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جرول، قال الطبرسي: (**ولمّا قتله وضع المسلمون سيوفهم فيهم وأمير المؤمنين يقدمهم، حتّى قتل أربعين رجلاً من القوم، ثمّ كانت الهزيمة والأسر حينئذ**)[٥].

كَلَدة بن الحنبل، اختُلف في نسبه، وكان أَسود من سُودان مكة، وكان يخدم صفوان بن أَمية، ولا يفارقه في سَفَرٍ ولا حَضَر. ولم يزل على دين قريش حتى كان يوم فتح مكة، وقد خرج مع صفوان حين خرج مع رسول الله إلى حُنَيْن، وهما على الشّرك بعد. أسلم بعد إسلام صفوان، وبقي في مكة إلى وفاته.

قال ابن منظور في «لسان العرب» في بيان سبب إطلاق هذا الاسم على النبي: (أصله أن أبا كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعبَدَ «الشِّعرى العبور») اسم نجمة (فسَمَّى المشركون سيدنا رسول الله ﷺ ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تشبيهاً به، كما خالفهم أبو كبشة إلى عبادة الشعرى... وقال آخرون: أبو كبشة كنية وهب بن عبدمناف جد سيدنا رسول الله فمن قِبَل أمه، فنُسب إليه، لأنه كان نزع إليه في الشَّبَه، وقيل: إنما قيل له ابن أبي كبشة، لأن أبا كبشة كان زوج المرأة التي أرضعته).

(١) إشارة إلى بيعة الشجرة في الحديبية.

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٢، ص ١٣٣. وأصحاب سورة البقرة نداء للمسلمين، ولعل اختصاصهم بسورة البقرة لأنها الأطول.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٤٩-١٥٠.

(٤) قطّره: صرعه صرعة شديدة.

(٥) الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ٣٨٧.

مع نداءات النبي المتكررة وبطولات المدافعين عنه، اجتمع حوله ﷺ في بداية الأمر نحو مائة من المقاتلين ثم تزايد عددهم تدريجياً، فقاموا بهجوم مضاد هُزم على إثره المشركون وفرّ مقاتلوهم في اتجاهين، تاركين النساء والأطفال والممتلكات غنائم في يد المسلمين.

غالبية ثقيف انسحبت نحو الطائف ومعهم مالك النصري، والبقية الباقية من المقاتلين هربت في البرّية تجاه وادي أوطاس ونخلة، فأعلن النبي ﷺ أن مَن قَتل مشركاً ضِمن عملية المطاردة فله سلبُه[١]، وقد شجع هذا الأمر الكثيرَ من المسلمين على المطاردة الجادة، فأوقعوا في الفارّين خسائر فادحة، وأسروا عدداً كبيراً منهم، واستشهد قائد سرية المسلمين أبوعامر الأشعري، واختير بدلاً منه ابن عمه أبو موسى الأشعري.

أما مَن فرَّ نحو الطائف فقد أرسل النبي نحوهم قوة بقيادة أبي سفيان، فحاصر المدينة المحصَّنة، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، فعاد إلى النبي شاكياً فشله.

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: (**سبا رسول الله ﷺ يوم حنين أربعة آلاف رأس واثني عشر ألف ناقة، سوى ما لا يُعلم من الغنائم**)[٢]. وعن الزهري أنها كانت ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن البهائم ما لا يُحصى ولا يُدرى. قال الله سبحانه وتعالى واصفاً ما جرى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٣].

وإذ رجع أبوسفيان إلى النبي ﷺ يشكو إليه فشله قائلاً: **بعثتني مع قوم لا يُرفع بهم الدلاء من هذيل والأعراب، فما أغنوا عني شيئاً**[٤]، سار ﷺ بنفسه إلى الطائف فحاصرهم. فما كان من ثقيف إلا أن سدَّدت نبالها نحو المسلمين الذين كانوا قريبين من الحصون، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر، فقرر النبي الانسحاب بعيداً والاستقرار في مكان أمين. ثم أنفذ أمير المؤمنين علياً عليه السلام في خيل، وأمره أن يكسر كل صنم وجده، فخرج حتى لقيته خثعم في جمع كثير، فبرز لهم رجل من القوم يقال له «شهاب» في غبش الصبح فقال: **هل من مبارز؟**

فلم يقم أحد، فقام إليه علي عليه السلام فوثب أبوالعاص بن الربيع زوج بنت النبي ﷺ فقال: **تُكفاه أيها الأمير.**

فقال: **لا، ولكن إن قُتلت فأنت على الناس.**

فبرز إليه علي عليه السلام وهو يقول:

إنَّ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ حَقّا ... أن تُروَى الصَّعدَةُ أو تَندقّا

---

(١) أي سيغنم كل ما معه دون أن يشترك معه أحد في ذلك، ولن يدخل فيه خمس المغنم.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٨٣.

(٣) سورة التوبة: ٢٥-٢٧.

(٤) الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٢٧٥.

ثم ضربه فقتله، ومضى حتى كسر الأصنام، وانصرف إلى رسول الله ﷺ وهو بعدُ محاصِر لأهل الطائف ينتظره، فلما رآه كبَّر وأخذ بيده وخلا به[١].

استمر الحصار قرابة الشهر جرت خلاله بعض الأحداث، فارتأى النبي ﷺ أن لا فائدة أكثر تُرتجى منه، لاسيما وقد أخبره العبيد الفارون أن المؤونة في المدينة كثيرة، كما أن أهل الطائف طلبوا من النبي أن يبرح عنهم ليقدم عليه وفدهم لاحقاً فيشترط له ويشترطون لأنفسهم ليصلوا إلى اتفاق يفرضي الطرفين.

وهكذا، حين عاد النبي لاحقاً إلى مكة قَدِم عليه نفر منهم يخبرونه بإسلام قومهم، ولكنهم اشترطوا عليه ألّا يصلّوا ولا يُزكّوا، فرفض، وأصرَّ على إسلامهم دون هذا الشرط، فنزلوا عند رأيه.

• **ياعلي.. اقطع لسانه**: عندما شرع النبي ﷺ في تقسيم الغنائم، أعطى المؤلفة قلوبهم من خمس الغنيمة[٢]، بالإضافة إلى حصتهم من باقي الغنيمة، فأخذ أبوسفيان ١٠٠ من الإبل، وأربعين أوقية من الفضة، وطلب مثلها لابنه معاوية ولابنه الآخر يزيد أيضاً.

قال الطبري: (**فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى النضير بن الحارث بن كلدة بن علقمة أخا بني عبدالدار مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي حليف بني زهرة مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبدالعزى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى عيينة بن حصن مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف النصري مائة بعير**[٣]**، فهؤلاء أصحاب المئين، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل بن أهيب الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، لا يحفظ عدة ما أعطاهم**)[٤].

غضب قوم من الأنصار مما جرى، وبلغ رسول الله قولهم: **لقي الرجل أهله وبني عمه، ونحن أصحاب كل كريهة**)[٥]. وفي رواية عن زرارة بن أعين عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: فغَضِبَت الأنصار، واجتمعت إلى سعد بن عبادة، فانطلق بهم إلى رسول الله ﷺ بالجِعرانة[٦]، فقال: **يا رسول الله، أتأذن لي في الكلام؟**

فقال: **نعم.**

فقال: **إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التي قسمت بين قومك شيئاً أنزله الله، رضينا، وإن كان غير ذلك لم**

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٦٩.

(٢) قال ابن سعد في الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١٤١: (وأعطى ذلك كله من الخمس، وهو أثبت الأقاويل عندنا).

(٣) سنذكر لاحقاً كيف دخل مالك بن عوف وهو قائد المعسكر المعادي في حنين ضمن هذه التقسيمة.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٧٥.

(٥) الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ٢٣٨.

(٦) قال الحموي في معجم البلدان، ج٢، ص ١٤٢: (بكسر أوّله إجماعاً، ثم إن أصحاب الحديث يكسرون عينه ويشدّدون راءه، وأهل الإتقان والأدب يخطئونهم ويسكنون العين، ويخففون الراء).

نرض، قال زرارة: وسمعْتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر الأنصار، أكلكم على قول سيدكم؟ فقالوا: سيدنا الله ورسوله، ثم قالوا في الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه. قال زرارة: فسمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: فحَطَّ الله نورهم....[١].

فنادى النبي فيهم فاجتمعوا وقال لهم: **اجلسوا، ولا يقعد معكم أحدٌ من غيركم.**

فلما قعدوا جاء النبي صلى الله عليه وآله يتَّبعه أمير المؤمنين حتى جلس وسطهم وقال لهم: **إني سائلكم عن أمر فأجيبوني عنه.**

فقالوا: **قل: يا رسول الله، قال: ألستم كنتم ضالين فهداكم الله بي؟**

فقالوا: **بلى، فلله المنَّة ولرسوله.**

قال: **ألم تكونوا على شفا حُفرة من النار فأنقذكم الله بي؟**

قالوا: **بلى، فلله المنَّة ولرسوله.** قال: **ألم تكونوا قليلاً فكثَّركم الله بي؟**

قالوا: **بلى، فلله المنّة ولرسوله.**

قال: **ألم تكونوا أعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟**

قالوا: **بلى فلله المنة ولرسوله.**

ثم سكت النبي صلى الله عليه وآله هنيئة ثم قال: **ألا تجيبوني بما عندكم؟**

قالوا: **بم نجيبك فداؤك آباؤنا وأمهاتنا؟ قد أجبناك بأنَّ لك الفضل والمن والطَّوْل**[٢] **علينا.**

قال: **أما لو شئتم لقلتم: وأنت قد كنت جئتنا طريداً فآويناك، وجئتنا خائفاً فآمناك، وجئتنا مكذباً فصدّقناك.**

فارتفعت أصواتهم بالبكاء، وقام شيوخهم وساداتهم إليه فقبّلوا يديه ورجليه ثم قالوا: **رضينا بالله وعنه، وبرسوله وعنه، وهذه أموالنا بين يديك، فإن شئت فاقسمها على قومك، وإنما قال مَن قال منّا على غير وغَر صدر**[٣] **وغلّ في قلب، ولكنهم ظنّوا سخطاً عليهم، وتقصيراً لهم**[٤]**، وقد استغفروا الله من ذنوبهم فاستغفر لهم يا رسول الله.**

فقال النبي صلى الله عليه وآله: **اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار، و لأبناء أبناء الأنصار، يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنَّعم، وترجعون أنتم وفي سهمكم رسول الله؟**

قالوا: **بلى رضينا.**

قال النبي صلى الله عليه وآله حنيئذ: **الأنصار كَرشي وعيبتي**[٥]**، لو سلك الناس وادياً وسلَكَت الأنصار شِعْباً لسلكْتُ شِعب الأنصار، اللهم اغفر للأنصار)**[٦].

---

(١) الكليني: الكافي، ج٢، ص ٤١١.

(٢) الطول: التفضّل والإنعام.

(٣) الوغر: الحقد والضغن والعداوة .

(٤) أي ظن الأنصار ما ظنوه عند التقسيم تصوراً منهم أن النبي ساخط عليهم وأنهم مقصّرون، ولذا لم ينالوا ما ناله أولئك القوم.

(٥) كرشي: جماعتي وأصحابي. عيبتي: خاصتي وموضع سرّي.

(٦) المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٥٩-١٦٠.

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: (**فلما كان في قابل، جاءوا بضِعف الذي أخذوا ، وأسلم ناس كثير، قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وآله خطيباً فقال: هذا خير أم الذي قلتم؟ قد جاؤا من الإبل بكذا وكذا ضعف ما أعطيتهم، وقد أسلم لله عالَم وناسٌ كثير، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن عندي ما أعطي كل إنسان ديَتَه على أن يُسلِم لله رب العالمين**)[١].

وكما احتج بعض الأنصار احتجَّ عباس بن مرداس إذ أعطاه النبي أربعاً من الإبل فقط، فسخِطها وأنشأ يقول:

أتَجعَلُ نَهبِي وَنَهْبَ العَبيدِ
بَـــينَ عُـيَـيـنَـةَ والأقـــرَعِ
فمَا كَانَ حِصنٌ ولا حَابِسٌ
يَـفـوقـانِ شَـيـخِـي في المجْمَعِ
ومَـا كنتُ دُونَ امـرِئٍ مِنهُما
ومَـن تَـضـع الـيـومَ لَم يُـرفَـعِ

وهو بذلك يقارن بينه وبين عُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فبلغ النبي قولَه فاستحضَرَه وقال له: **أنت القائل: أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟**

فقال له أبوبكر: **بأبي أنت وأمي، لستَ بشاعر.**

فقال: **وكيف؟**

قال: **قال: بين عيينة والأقرع**[٢].

فقال رسول الله لعلي: **قُم يا علي واقطع لسانه**[٣].

فقال العباس: **أتقطع لساني؟**

قال: **إني ممضٍ فيك قول رسول الله صلى الله عليه وآله.**

فما زال علي معه حتى أدخله الحظاير[٤] وقال: **خذ ما بين أربع إلى مائة.**

عباس بن مرداس بن أبي عامر السُّلَمي، شاعر مخضرم وسيد بني سُليم، كان أبوه صديقاً لوالد أبي سفيان، وقُتلا معاً. كان عباس بدوياً لم يسكن مكة ولا المدينة، وكان ممن ذم الخمر وحرّمها في الجاهية. أسلم قبل فتح مكة، وأحرق صنم قومه. توفي سنة ١٨هـ.

عيينة ـ واسمه الحقيقي حذيفة وليس عيينة وسمي عيينة لأنه أصابته لقوة وهو مرض وشلل يصيب الوجه فجحظت عيناه ـ بن حصن الفزاري، وفزارة من غطفان. كان من الأعراب الجفاة المحاربين لله ورسوله، وفي حنين كان من المؤلفة قلوبهم. ارتد بعد وفاة النبي وانضم إلى طليحة الأسدي، ثم أسِر وعاد إلى الإسلام.

الأقرع بن حابس بن عقال التميمي المجاشعي الدرامي، سيد قبيلة خندف، أحد الذين يُتحاكَم إليهم في الجاهلية، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن الأقرع أبصر النبي يُقبّل الحسن، فقال: (إنَّ لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ واحداً منهم، فقال رسول الله: إنه من لا يَرحم لا يُرحم). استشهد عام ٣١هـ بجوزجان «حالياً في أفغانستان».

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٧٧.

(٢) يبدو لي أن النبي تعمّد أن لا يأتي بالبيت كما هو كي يتجنب قول الشعر، واعتقد الخليفة أبوبكر أن النبي أخطأ النقل لأنه ليس بشاعر.

(٣) قال العباس لاحقاً: (فوالله لهذه الكلمة كانت أشد علي من يوم خَثْعَم حين أتونا في ديارنا، فانطلقَ بي وإني لأودُّ أن أخلص منه).

(٤) حيث يتم حبس الأنعام.

فقال العباس: **بأبي أنت وأمي، ما أكرمكم وأحلمكم وأعلمكم!**

فقال علي: **إن رسول الله ﷺ أعطاك أربعاً وجعلك مع المهاجرين، فإن شئتَ فخذها، وإن شئت فخذ المائة وكن مع أهل المائة.**

فقال العباس: **أشِر عليَّ.**

قال: **إني آمرك أن تأخذ ما أعطاك وترضى.**

فقال العباس: **فإني أفعل**[١].

• **مع ذي الخويصرة:** لما قسم رسول الله ﷺ غنائم حُنين، أقبل رجل طويل آدم[٢] أحنى، بين عينيه أثر السجود، فسلَّم ولم يخص النبي ثم قال: **قد رأيتُك وما صنعت في هذه الغنائم.**

قال: **وكيف رأيت؟**

قال: **لم أرك عدلت.**

فغضب رسول الله وقال: **ويلك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟**

فقال المسلمون: **ألا نقتله؟**

قال: **دعوه فإنه سيكون له أتباع يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية، يقتلهم الله على يد أحب الخلق إليه من بعدي.**

فقتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيمن قتل يوم النهروان من الخوارج[٣].

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: (**بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يُقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة. وهو رجل من بني تميم. فقال: يا رسول الله، اعدل. فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعْه، فإنَّ له أصحاباً يُحقّر أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم، وصيامَه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين**[٤] **كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رُصافه**[٥] **فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه. وهو قِدْحه**[٦] **. فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه**[٧] **فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتُهم رجلٌ أسود إحدى عَضُديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البِضعة تُدَردر**[٨]**، ويخرجون على حين فُرقة من**

---

(١) الإربلي: كشف الغمة، ج١، ص ٢٢٥.

(٢) آدم: أسمر.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٦١.

(٤) يمرقون من الدين أي يجوزونه.

(٥) الرُّصافةُ: عَقَبة تشدّ على مدخل سِنخ النصل.

(٦) النضي من السهم: ما بين الريش والنصل، و لذا قال «وهو قِدحه» لأن القدح عبارة عن العصا الخشبية التي تكون بمثابة جسم النبل.

(٧) القذذ: ريش السهم ، واحدتها قُذّة.

(٨) البِضعة «بالكسر»: قطعة اللحم، والبُضعة «بالضم»: فرج الرجل. تدردر: ترجرج ، تجئ وتذهب.

الناس. قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتَلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتُمس، فأتيَ به حتى نظرتُ إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته)[١].

نخرج هنا عن السياق قليلاً لنطّلع على ما جرى لذي الخويصرة ومن تبعه من الخوارج يوم النهروان سنة ٣٨هـ كما أشار إلى ذلك الخبر السابق، فعندما تلاقى جيش الإمام علي عليه السلام بالخوارج عند النهروان حاججهم أكثر من مرة، فأعلن الآلاف منهم التوبة، جاء في الخبر: **(ثم صاح القوم من كل ناحية وقالوا: التوبة! التوبة! يا أمير المؤمنين. فاستأمن إليه منهم ثمانية آلاف، وبقي على حربه أربعة آلاف)**[٢].

ثم بدأت المبارزة الفردية بين الطرفين، فلم يزل يخرج رجل بعد رجل، من أشدِّ فُرسان علي، حتى قُتل منهم جماعة، وهم ثمانية. وأقبل التاسع، واسمه حبيب بن عاصم الأزدي، فقال: **يا أمير المؤمنين، هؤلاء الذين نقاتلهم أكفارٌ هم؟**

فقال علي: **من الكفر هربوا، وفيه وقعوا.**

قال: **أفمنافقون؟**

قال: **إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً.**

قال: **فما هم يا أمير المؤمنين، حتى أقاتلهم على بصيرة ويقين؟**

فقال علي: **هم قوم مرقوا من دين الإسلام كما مَرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن، فلا يجاوز تراقيهم، فطوبى لمن قتَلهم.**

فعندها تقدم حبيب بن عاصم هذا نحو الشراة ـ وهو التاسع من أصحاب علي ـ فقاتل حتى قُتل. واشتبك الحرب بين الفريقين. فاقتتلوا قتالاً شديداً. ولم يُقتل من أصحاب علي إلا أولئك التسعة[٣].

وتقدم رجل من الخوارج يقال له الأخنس العيزار الطائي فحمل على معسكر الإمام علي، فشق الصفوف وقصده علي فالتقيا بضربتين فضربه علي فقتله. وحمل ذو الثدية على علي ليضربه بسيفه، وسبقه علي فضربه على بيضته[٤] فهتكها، وحمل به فرسُه حتى رمى بها بعيداً على شط النهروان.

وخرج من بعده ابن عم له يقال له مالك بن الوضاح فحمل على أصحاب الامام، وحمل على علي عليه السلام فضربه ضربة فقتله، وتقدم عبد الله بن وهب الراسبي[٥] ثم صاح: **يا بن أبي طالب والله لا تبرح هذه المعركة أو تأتي على أنفسنا أو نأتي على نفسك، فابرز إليّ وأبرز إليك وذر الناس جانباً.**

فلما سمع علي عليه السلام كلامه تبسم وقال: **قاتَله الله مِن رجلٍ ما أقل حياءه، أما إنه ليعلم أني حليف السيف و**

---

(١) البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح ٣٤١٤.
(٢) ابن أعثم: الفتوح، ج٤، ص ٢٧٠.
(٣) ابن أعثم: الفتوح، ج٤، ص ٢٧٢.
(٤) البيضة: ما يشبه الخوذة العسكرية.
(٥) وهو من قادتهم.

خَدِين الرمح[١] **ولكنه قد أيس من الحياة، أو أنه ليطمع طمعاً كاذباً**[٢]. ثم حمل على علي عليه السلام فحمل عليه علي وضربه ضربة قتله وألحقه بأصحابه القتلى.

اختلط القوم فلم تكن إلا ساعة حتى قُتلوا، فما فلت منهم إلا تسعة نفر، وغنم أصحاب علي في ذلك اليوم غنائم كثيرة. فقال علي: اطلبوا ذا الثدية.

فطلبوه فلم يجدوه. فقال: **ما كَذبت ولا كُذّبت، اطلبوه.**

فطلبوه فوجدوه في وهدة من الأرض عليه ناس من القتلى، فإذا رجل على يده سبلات السنّور[٣]. فكبّر علي والناس وأعجبه ذلك[٤].

وفي سنن أبي داود: (**قال أبو الوضيء: فكأني أنظر إليه حبشي عليه قريطق**[٥]**، له إحدى يدين مثل ثدي المرأة، عليها شعيرات مثل شعيرات التي تكون على ذنب اليربوع**[٦].

ومن طريق أبي مريم قال: (**إن كان وذلك المخدج لمعنا في المسجد، وكان فقيراً قد كسوته بُرنساً لي ورأيته يشهد طعام عليٍّ، وكان يُسمّى نافعاً ذا الثدية**[٧] **وكان في يده مثل ثدي المرأة على رأسه حلمة مثل حلمة الثدي، عليه شعيرات مثل سبلات السنور**[٨].

• **إطلاق السبي**: نعود مجدداً إلى العهد النبوي وتوزيع غنائم حنين، وكان في من وقع في السبي «شيماء» أخت النبي بالرضاعة، وهي بنت حليمة السعدية، فقامت على رأسه وكلمته على انفراد وقالت: **يا محمد، أختك شيماء بنت حليمة.**

فنزع رسول الله صلى الله عليه وآله بُرْدَه فبسطه لها فأجلسها عليه، ثمّ أكبّ عليها يسائلها، وهي التي كانت تحضنه إذ كانت أمّها ترضعه. ثم كلّمته عن السبي ـ وقد تم تقسيم عدد كبير منهن ـ فقال: **أمّا نصيبي ونصيب بني عبد المطلب فهو لك، وأمّا ما كان للمسلمين فاستشفعي**[٩] **بي عليهم**[١٠].

وفي أثناء ذلك كان وفد هوازن قد جاء عند رسول الله صلى الله عليه وآله بالجعرانة وقد أسلموا أملاً في أن يعيد إليهم نساءهم وذراريهم، وقالوا: **يا رسول الله، لنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخْف عليك، فامنن علينا منّ الله عليك.**

---

(١) يريد بذلك أنه قد ألِفَ السيف والرمح وصارا كالأصحاب والأخلاء.

(٢) الهاشمي: وقعة النهروان، ص٦٣.

(٣) سبلات: شعر مقدم اللحية. والسنور: القط.

(٤) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث ٦٩٣٤.

(٥) القريطق: القباء وهو نوع من اللباس.

(٦) العباد: شرح سنن أبي داود، ج٢٢، ص ٥٤٢.

(٧) وفي نص آخر أن اسمه حرقوص بن زهير السعدي التميمي .

(٨) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث ٦٥٣٤.

(٩) أي اطلبي ذلك مني أمامهم واجعليني شفيعاً بينك وبينهم ليقبلوا ويتنازلوا عن حصصهم.

(١٠) الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ٢٣٩-٢٤٠.

وقام خطيبهم زهير بن صُرَد فقال: **يا رسول الله، إنّا لو ملحنا** [١] **الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر، ثمّ ولي منّا مثل الذي وليت لعاد علينا بفضله وعطفه وأنت خير المكفولين، وإنّما في الحظائر خالاتك وبنات خالاتك وحواضنك وبنات حواضنك اللاتي أرضعنك، ولسنا نسألك مالاً، إنّما نسألكهنّ.**

فلمّا صلّوا الظهر، قامت أخته فتكلّمت وتكلّم الوفد، فوهب لها الناس أجمعون إلاّ الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فإنّهما أبيا أن يهبا وقالوا: **يا رسول الله، إنّ هؤلاء قوم قد أصابوا من نسائنا، فنحن نصيب من نسائهم مثل ما أصابوا.**

فأقرع رسول الله ﷺ بينهم ثمّ قال: **اللهمّ توّه سهميهما.**

فأصاب أحدهما خادماً لبني عقيل، وأصاب الآخر خادماً لبني نمير[٢]، فلمّا رأيا ذلك وهبا ما منعا. ثم كلمته أخته «شيماء» في مالك بن عوف النصري فقال: **إنْ جاءني فهو آمن**[٣].

كما وعد بأن يردّ عليه ماله وأهله مع مائة من الإبل، فأتاه فأوفى له النبي ما وعده. وهكذا انتهت أحداث الغزوات الثلاث بكل تبعاتها، ودخل كثير من الناس في الإسلام، وعاد الأسرى إلى أهليهم، ثم خرج رسول الله من الجعرانة في ذي القعدة إلى مكة فأدّى العمرة، ثم توجه إلى المدينة المنورة.

• **الإمام يصف المشهد:** وقد وصف أمير المؤمنين علي عليه السلام أحداث الحصار في شعب أبي طالب بالاضافة إلى غزوة حنين في كتاب بعثه إلى معاوية بن أبي سفيان، وقد ورد هذا النص بألفاظ فيها اختلافات بسيطة وشيء من الزيادة والنقصان، واللفظ التالي كما جاء في كتاب «بحار الأنوار» للمجلسي: (**إن محمداً ﷺ لما دعا إلى الايمان بالله والتوحيد له، كنا أهل البيت أول من آمن به وصدقه فيما جاء به، فلبثنا أحوالاً كاملة مجرَّمة**[٤] **تامة، وما يَعبد الله في ربعٍ**[٥] **ساكنٌ من العرب غيرنا. فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا وهمّوا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل ومنعونا الميرة وأمسكوا عنا العذب وأحلسونا الخوف**[٦]**، وجعلوا علينا الأرصاد والعيون واضطرونا إلى جبل وعرٍ، وأوقدوا لنا نار الحرب وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلوننا ولا يشاربوننا ولا يناكحوننا ولا يبايعوننا ولا نأمن فيهم حتى ندفع إليهم محمداً ﷺ فيقتلوه ويمثلوا به. فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم**[٧]**. أكبر ذلك أبوك وأنت. فعزم الله لنا على منعه والذب عن حوزته والرمياء من وراء حرمته والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار، فمؤمننا يرجو بذلك الثواب وكافرُنا يحامي به عن الأصل. وأما من أسلم من قريش بعدُ فإنهم مما نحن فيه أخلياء، فمنهم الحليف المنوع،**

---

(١) ملحنا: أرضعنا.

(٢) الأقرع وعيينة كلاهما من بني تميم، وكانت لهما علاقات مع بني نمير وبني عقيل، حتى أن بني نمير استنجدوا بالتميميين على أعدائهم ذات مرة.

(٣) الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص٢٤٠.

(٤) جَرَّمَ السَّنَة : أتمّها.

(٥) الربع: المقام والمنزل.

(٦) الميرة: المؤونة الغذائية. والعَذْبُ : السَّائغُ من الطعام والشراب وغيرهما. واستحْلَسَتِ الشيءُ فلانًا: لزِمَه. يقال: استحلسه الخوفُ .

(٧) يقصد موسم الحج حيث الأشهر الحرُم.

ومنهم ذو العشيرة التي تدافع عنه، فلا يبغيه أحد مثل ما بغانا به قومُنا من التلف. فهم من القتل بمكان نجوة وأمن. فكان ذلك ما شاء الله أن يكون. ثم أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسولَه بالهجرة، وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين فكان إذا احمر البأس ودُعيَت نزال[١] أقامَ أهلَ بيته فاستُقدموا، فوقى أصحابَه بهم حدّ الأسنة والسيوف، فقُتل عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وجعفر وزيد يوم مؤتة. وأراد مَن لو شئت ذكرتُ اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النبي ﷺ غير مرة إلا أن آجالهم عُجِّلت ومنيّته أخِّرت[٢].....)[٣].

وفي نص «تمام نهج البلاغة» تتمة: (وقد أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه يوم حنين إذ أسلم الناس نبيهم غير العباس عمه وأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عمه فقال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤] وإنما عنانا بذلك دون غيرنا...)[٥].

وقد تغنّى الشعراء ببطولات علي في حنين ومن ذلك قول خطيب منبج[٦]:

وقَد ضَاقَت فِجاجُ الأرضِ جَمعاً ... عَليهِم ثُمَّ ولُّوا مُدبِرينا
ولَيسَ دُونَ النَّبيِّ سِوى عَليّ ... يُقارِعُ دُونَهُ المُتَحارِبِينَا
وعَبّاسٌ يَصيحُ بِهِم أثيبُوا ... لِيُثبِتَهُم وهُم لا يَثبُتُونا
فَأومَى جِبرئيلُ إلى عَلي ... وَقَد صَارَ الثَّرى بِالنَّقعِ طِينا
فَقالَ هُوَ الوَفِيُّ فَهل رَأيتُم ... وَفِيّاً مِثلَهُ في العَالَمِينَا

وقال المرزكي[٧]:

ويَومَ حُنَين إذ ولُّوا هَزيماً ... وقَد نُشِرَت مِن الشِّركِ البُنُودُ
فغَادَرهُم لَدى الفَلواتِ صَرعَى ... ولَم تُغنِ المَغافِرُ والحَدِيدُ
فكَم مِن غَادرٍ ألقَاه شَلواً ... عَفيرَ التّربِ يَلثِمُه العَبِيدُ
هُم بَخِلوا بِأنفُسِهِم ووَلّوا ... وحَيدرةُ بِمُهجَتِهِ يَجُودُ

نحو أرض طيء:

في ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على

---

(١) دعيت نزال: تنادوا وقالوا «نزال» إعلاناً عن بدء القتال والحرب.
(٢) يريد بذلك نفسه.
(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج٣٣، ص١١١-١١٣.
(٤) سورة التوبة: ٢٦.
(٥) صادق الموسوي: تمام نهج البلاغة، ج ٧، ص ١٦١.
(٦) خطيب منبج أو الخطيب المنبجي، من شعراء أهل البيت المنسيين، ولا يعرف اسمه ولا اسم ابيه. ذكره ابن شهر اشوب في المعالم، والسيد محسن الأمين في أعيان الشيعة. يعتبر من شعراء القرن الخامس الهجري.
(٧) زيد بن سهل الموصلي النحوي يعرف بـ مرزكة:توفي بالموصل حدود ٤٥٠ . قال الصفدي: كان نحويا شاعراً اديباً رافضياً.

مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى صنم الفلس[١] يهدمه، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي مع الفجر، فهدموا الفلس وخربوه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام، ووجد في خزانة الفلس ثلاثة أسياف رسوب والمخذم واليماني[٢] وثلاثة أدرع، فلما نزلوا ركك[٣] اقتسموا الغنائم، وعزل للنبي ﷺ ـ صفياً[٤] ـ رسوب والمخذم، ثم صار له بعد السيف الآخر، وعزل الخُمس وعزل آل حاتم فلم يقسموا حتى قدم بهم المدينة.

أما سفانة بنت حاتم الطائي وهي أخت عدي بن حاتم التي كانت في السبي، فقد عطف عليها علي عليه السلام وأشار إليها بأن تكلم رسول الله ﷺ، فكلمته فعفا عنها وأكرمها بسبب إشارة علي إليها بذلك.

وذكر العلامة السيد محسن الأمين أن خبرها من الأخبار الطريفة الدالة على نبلها وكمال عقلها وفصاحة لسانها، ويمكن للمرء أن يستفيد منه فوائد ويتعلم منه رأياً وأخلاقاً وأفعالاً كريمة، فلا بأس بأن نذكره هنا... قال ابن هشام في سيرته فيما حكاه عن ابن إسحاق: فقدم بابنة حاتم على رسول الله ﷺ في سبايا من طئ، وقد بلغه هرب عدي بن حاتم إلى الشام، فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها، فمر بها رسول الله ﷺ، فقامت إليه وكانت امرأة جزلة ـ أي ذات وقار وعقل ـ فقالت: **يا رسول الله، هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي، منَّ الله عليك.**

قال: **ومن وافدك ؟**

قالت: **عدي بن حاتم.**

قال: **الفار من الله ورسوله ؟**

قالت: ثم مضى وتركني حتى إذا كان من الغد مرّ بي فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي وقد يئست منه، فأشار إلي رجل من خلفه أن قومي فكلميه، فقمت إليه وقلت له مثل ذلك، فقال: **قد فعلت، فلا تعجلي حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك فآذنيني**[٥].

وسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن أكلمه فقيل: هو علي بن أبي طالب. فأقمت حتى قدم رهط من طئ، وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فأخبرته أن لي فيهم ثقة وبلاغاً فكساني وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت حتى قدمت الشام على أخي. وكان أخوها بدومة الجندل الجوف.

وفي السيرة الحلبية في رواية أنها قالت: **يا محمد، إن رأيت أن تُخلي عنا ولاتشمت بنا أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويقري الضيف ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طئ.**

---

(١) الفلس صنم في بلاد طئ ، وهي بلاد نجد ، وفيها جبلا طئ أجا وسلمى .

(٢) رسوب والمخذم سيفان معروفان عند العرب أهداهما الحارث بن أبي شمر إلى الطائيين ، والحارث هذا كان غسانياً من نصارى الشام ، وكانت طئ على النصرانية فلذلك أهدى السيفين إليهم، ولذلك هرب عدي إليهم لأنهم على دينه .

(٣) ركك: محلة من محلات سلمى أحد جبلي طئ بنجد.

(٤) الصفي: ما يصطفيه الرئيس من الغنائم.

(٥) آذنيني: أعلميني وأخبريني.

فقال لها: **يا جارية، هذه صفة المؤمن حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.**

وقالت: **شكرَتْك يدٌ افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يدٌ استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ببرِّك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولاسلب نعمة من كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه...**

وأسلمت سفانة وحسن إسلامها وقدمت على أخيها عدي بدومة الجندل.

قال عدي بن حاتم: فأقامت عندي فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ : **ما ذا ترين في أمر هذا الرجل؟**

قالت: **أرى والله أن تلحق به سريعاً فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن، وأنت أنت.**

فقلت: **والله إن هذا لهو الرأي.**

فقدم عدي على النبي ﷺ بالمدينة وأسلم وحسن إسلامه، وكان من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وشهد معه مشاهده كلها[1].

غزوة تبوك:

تتمثل أهمية هذه الغزوة في أنها آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، فقد وقعت في السنة التاسعة للهجرة، كما أنها بلغت أقصى موضع بلغه النبي في غزوة بنفسه، كما أنها حظيت باهتمام القرآن الكريم في سورة التوبة بشكل كبير في الحديث عن مقدماتها وأحداثها وتبعاتها، وأعادت نشاط المنافقين إلى الواجهة وفضحت مشاريعهم، وكسرت الرهبة النفسية عند المقاتلين المسلمين في مواجهة القوى العظمى بشكل أكبر بعد أن تم ذلك جزئياً في غزوة مؤتة.

وإن كان أمير المؤمنين علي عليه السلام لم يشارك فيها كما سيتضح من تفاصيلها، إلا أنه ألقيت على عاتقه مهمة خطيرة جداً استدعت بقاءه في المدينة. وقبل توضيح ذلك فلنُلقِ نظرة علي ظروف الغزوة وتفاصيلها بشكل إجمالي.

فقد شهد المسلمون انتصارات متتالية في السنوات الأخيرة، أهمها: فتح مكة في العام الهجري الثامن، ثم الانتصار على هوازن وثقيف في غزوة حنين والطائف في نفس العام، يليهما توافد بعض القبائل العربية لإعلان الدخول في دين الله، مع إرسال السرايا لهدم الأصنام في الجزيرة العربية في العام الهجري التاسع، بالإضافة إلى فتح أرض طيء شمال نجد في نفس العام. ولا يمكن قراءة أسباب هذه الغزوة بعيداً عن المعطيات السابقة، بالإضافة إلى غزوة مؤتة التي واجه فيها جيش المسلمين ـ دون حضور النبي ـ جيش الروم والغساسنة وسائر حلفاء الروم من العرب. إذ تذكر بعض الأخبار أن أنباءً بلغت النبي ﷺ تتضمن تهيؤ الروم وحلفائهم لغزو الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وأنها كانت أكاذيب بثّها الروم أنفسهم لتخويف المسلمين وتحذيرهم من القيام بأي عمل عسكري انتقاماً لمؤتة، أو رغبةً في التوسع، لاسيما بعد أن ازدادت قوة المسلمين وكثر عددهم، واتسعت مساحة الأرض التي غدت تحت حكم النبي أو دخل أهلها في الإسلام، أو هي مرشّحة لذلك في القريب، لتشمل كثيراً من أنحاء شبه الجزيرة العربية.

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة ـ ج ١ ـ ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

قال الواقدي: (**كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة مَن يقدم عليهم من الأنباط بجلب الزيت للمدينة، فقدمت قادمةٌ فذكروا أن الروم جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رَزق أصحابَه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة، وزحفوا وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها، وتخلّف هرقل بحمص. ولم يكن ذلك، وإنما ذلك شئ قيل لهم فقالوه، ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم، من العدد والعُدة والكراع**)[١].

ولكن، ما الذي يجعل هذه الأخبار محتملة الصحة بالنسبة إلى النبي ﷺ بحيث قد تدفع الروم لغزو الجزيرة العربية؟

١. رغبة الروم في حماية الحركة التجارية التي تمر من خلال الجزيرة العربية.

٢. حماية النصرانية في مقابل امتداد الإسلام، بالإضافة إلى العرب المتنصرين على الحدود وفي الشام.

ولم تكن تلك الأنباء وحدها سبباً محتملاً للغزوة، بل يمكن أن نضيف إليها رغبة النبي في العمل على تهيئة الأرضية المناسبة لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، وتقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم والتي بدأت تتقبَّل الإسلام على الرغم من جهود الروم للمنع من ذلك. ولربما أراد النبي ﷺ أيضاً أن يمحو الأثر السلبي الذي تركته غزوة مؤتة نفسياً على المسلمين، واستطلاع قوة دولة الروم وحلفائها في بلاد الشام تمهيداً لمعارك لاحقة.

على خلاف الأعم الأغلب من الغزوات السابقة، لم يُخْفِ النبي وجهته في هذه المرة، فقد كان سفراً بعيداً، ولذا جلا للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبة عدوهم، وأخبرهم بالوجه الذي يريد، وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل، وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوّهم[٢].

• **نشاط المنافقين**: ونشط المنافقون والذين في قلوبهم مرض في بث روح الهزيمة والخوف من مواجهة قوة عظمى وحلفائها، لاسيما مع استرجاع ذكرى غزوة مؤتة، وأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾[٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٤].

وتخلّف عبدالله بن أبيّ بن أبي سلول عن رسول الله فيمن تخلف من المنافقين، وأرجف لإشاعة الخوف في قلوب المسلمين فقال: **يغزو محمد بنى الأصفر، مع جَهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به؟! يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟!**

ونافق معه مَن هو على مثل رأيه، ثم قال ابن أبيّ: **والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرَّنين في الحبال**[٥].

وساعد على ذلك التخوّف المسبق لدى بعض المسلمين من الروم وحلفائها، واعتمد المنافقون على عدة أساليب لتحقيق هدفهم الشيطاني، حتى عندما قررت مجموعة منهم المضي مع الجيش، لا للمشاركة الحقيقية في القتال، بل

---

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩٨.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص ٢٠.

(٣) سورة التوبة: ٤٩.

(٤) سورة التوبة: ٨١-٨٢.

(٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠٠.

من أجل إفساد الأمور على النبي والمسلمين كما كانت عادتهم في غزوات سابقة، أو من أجل الغنائم كما جاء في كتاب المغازي[١]. ومن بين أساليبهم تلك، بالإضافة إلى ما ذكرناه من التخذيل بالتهويل والتخويف:

١. استخدام أسلوب السخرية المثبّطة للعزائم: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

ومن أمثلة ذلك ما روي أن رهطاً من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُخشّن[٣] بن حُميّر، و الجلاس بن سويد، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: **أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنكم غداً مقرّنين في الحبال**[٤].

فقال وديعة بن ثابت: **ما لي أرى قرّاءنا هؤلاء أوعبَنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء؟**

وقال الجلاس بن سويد: **هؤلاء ساداتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟ والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير. والله، لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجلٍ منا مائة جلدة وأنا ننفلت من أن ينزل فينا القرآن بمقالتكم**[٥].

وقد أخبر القرآن الكريم عن تخوّف المنافقين من نزول شيء فيهم على الرغم من استمرارهم في شيطنتهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ، وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ، لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٦].

وذُكر أن ناقة رسول الله ﷺ ضلّت، فذهبوا في طلبها، فقال رسول الله لعمارة بن حزم الأنصاري، وكان عنده: إن **رجلاً قال: محمدٌ يخبركم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.**

ثم علّق النبي على كلام الرجل فقال: **وإني والله لا أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي قد حبَسَتْها شجرة بزمامها.**

فانطلقوا فجاءوا بها، فرجع عمارة إلى رحله، فحدّثهم عما جرى، فقيل له: **إنما قال ذلك زيد بن اللصيت.**

عمارة بن حزم بن زيد الأنصاري الخزرجي، كان من السبعين الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية، شهد بدراً وما بعدها، استشهد يوم اليمامة في قتال المرتدين.

من يهود بني قينقاع، أسلم فنافق، وكان يستخدم مكر اليهود وخبثهم في محاربته للنبي، وكان مظاهراً للمنافقين من أهل المدينة.

(١) قال الواقدي في المغازي، ج١، ص ٤٠١: (فخرج معه ناس من المنافقين كثير لم يخرجوا إلا رجاء الغنيمة).
(٢). سورة التوبة: ٧٩.
(٣) وفي نص آخر أن اسمه مخشّى.
(٤). ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج٢، ص٢٥٧-٢٥٨.
(٥) المغازي: الواقدي، ج١، ص ٤٠٣.
(٦) سورة التوبة: ٦٤-٦٦.

وكان زيد متواجداً في رحل عمارة قبل أن يأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: **إنَّ في رَحلي لداهية وأنا لا أدري، اخرج عني يا عدو الله فلا تصحبني.**

فقال بعض الناس: **إن زيداً تاب، وقال بعضهم: لم يزل مصراً حتى هلك**[١].

وفي مورد آخر، لما ارتحل النبي ﷺ والمسلمون عن منطقة الحِجر، أصبح ولا ماء معه ولا مع أصحابه، ونزلوا على غير ماء، فشكوا إليه العطش، فاستقبل القبلة ودعا، ولم تكن في السماء سحابة، فما زال يدعو حتى اجتمعت السحائب من كل ناحية، فما برح من مقامه حتى سحت بالرواء، فانكشفت السحابة من ساعتها فسقي الناس وارتووا و ملاؤا الأسقية، قال بعض الصحابة: **قلت لرجل من المنافقين: ويلك أبعد هذا شيء؟**

فقال: **سحابة مارّة!**[٢].

وذكر المقريزي أن الصحابي هو عبدالله بن أبي حدرد، والمنافق إما زيد بن اللصيت أو أوس بن قيظي.

٢. عقد التجمعات المريبة: حيث اتخذوا بيت أحد اليهود مركزاً للاجتماع للتخطيط ضد النبي ﷺ، وقد ذكر ابن كثير أنه بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند جاسوم[٣]، يثبّطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك[٤].

٣. الانسحاب قبل المواجهة مع العدو : وهو الأسلوب الذي اعتمده المنافقون من قبلُ. ذكر الواقدي في مغازيه أنه جاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله ﷺ من غير علة، فأذن لهم، وكان المنافقون الذين استأذنوا بضعه وثمانين. وجاء المعذّرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله عَزَّوَجَلَّ، هم نفر من بني غفار، منهم خفاف بن إيماء بن رحضة، اثنان وثمانون رجلاً. وأقبل عبد الله بن أُبيّ بعسكره، فضربه على ثنية الوداع بحذاء ذُباب[٥]، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجتمع إليه، فكان يقال: ليس عسكر ابن أُبيّ بأقل العسكرين. فلما سار رسول الله تخلف ابن أُبيّ عنه فيمن تخلف من المنافقين. ولما مضى رسول الله ﷺ من ثنية الوداع سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجال فيقولون: **يا رسول الله، تخلف فلان!**

فيقول: **دعوه، فإن يكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه**[٦].

٤. اتخاذ مسجد ضرار: والذي جاء وصفه في القرآن بأنه بُني ضراراً لا لغرض المنفعة، فعُرف بهذا العنوان. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾[٧].

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤، ص ١٦-١٧.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٣) منطقة في المدينة يسكن فيها بعض اليهود.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص ٧.

(٥) ذباب اسم جبل يقع شرق جبل سلع حيث حفر الخندق. ويسمى اليوم جبل الراية، ويبعد عن المسجد النبوي ١,٥ كم.

(٦) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠٠.

(٧) سورة التوبة: ١٠٧.

• **بمنزلة هارون:** كل هذه الأنشطة المريبة للمنافقين دفعت النبي ﷺ لأن يأمر علياً عليه السلام بالبقاء في المدينة حفاظاً عليها من مؤامرات المنافقين المحتملة، الأمر الذي أثار حفيظتهم، فارتأوا أن يرجفوا قائلين: **ما خلّفه إلا استثقالا له، وتخفُّفاً منه.** أملاً في أن يرفض الإمام البقاء ويخرج من المدينة ليُخلي لهم الساحة، ويُفّقون في تنفيذ مؤامرتهم.

انزعج الإمام من كلمات المنافقين التي باتت تواجهه حيثما حل، فأخذ سلاحَه، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرف[١]، فقال: **يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنك إنما خلّفتني أنك استثقلتني وتخفَّفْتَ منّي.**

فقال: **كذبوا ، ولكنني خلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي.** فرجع علي إلى المدينة؛ ومضى رسول الله على سفره[٢].

لم يرتض البعض بأن تكون لعلي هذه الفضيلة، خاصة لارتباطها بقول النبي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) ولذا سعوا إلى خلط الأوراق وادعاء أن النبي خلّف شخصاً آخر على المدينة! ففي السيرة النبوية لابن هشام أن النبي استعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وروى عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن أبيه: أن رسول الله استعمل على المدينة . مخرجه إلى تبوك . سبّاع بن عرفطة، وروى أنه خلَّف علي بن أبي طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم! وقال غير ابن هشام أنه عيّن أبا رهم الغفاري على المدينة! وفي كتاب «التنبيه والإشراف» للمسعودي: (والأشهر أن رسول الله ﷺ استخلف علياً على المدينة، ليكون مع مَن ذكرنا من المتخلّفين، وقد ذكرنا السبب الذي له ومن أجله خَلَّفه، وسبب تخلّف عبد الله بن أبيّ فيما ذكرنا في كتاب «الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار». وللأسف فإن الكتاب مفقود، فلا يمكننا أن نعرف الأسباب التي ذكرها فيه.

والمسألة المحورية في الاستخلاف على المدينة وليس على أهله فقط ـ مع ما عُرف عن علي عليه السلام من أنه الشخصية الأبرز والحاسمة في مغازي النبي ﷺ ـ هو ما أشار إليه المسعودي بقوله (**ليكون مع مَن ذكرنا من المتخلفين**)[٣] لاسيما بلحاظ قول النبي (**أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟**) والذي يعتبر مفتاح الحل في القضية وذلك بالرجوع إلى الآيات القرآنية التي تحدَّثت عن قضية موسى وهارون عليهما السلام لنعرف حجم الخطر المحدق، وهاجس النبي ودور الإمام علي المتوقع في مواجهة ذلك الخطر.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ إلى أن قال: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ**﴾ إلى أن قال: ﴿**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**﴾[٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ**

(١) الجرف موضع يقع شمال غرب المدينة المنورة.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٥١٩-٥٢٠.
(٣) ابن مسعود: التنبيه والإشراف، ج١، ص ١٠٠.
(٤) سورة الأعراف: ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠.

إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ، فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[١].

إذاً فقد كان النبي يخشى مؤامرة كبرى من المنافقين شعر ببوادرها قبل الغزوة، وتجلّت في حالات التخلف العديدة والمواقف المهزوزة والبطء في التعامل مع الأمر بالخروج وحالات التثبيط وغير ذلك من الشواهد والدلالات التي أقلقت النبي ﷺ والتي يبدو أنها لم تكن لتنتهي وفق المخطط بأقل من القضاء على النبي، والانقلاب على كل الوضع القائم في المدينة المنورة.

ولعل كثرة الآيات القرآنية التي تحدثت في سورة التوبة عن دور المنافقين والتشديد في التعامل معهم وتهديدهم بردود الفعل العنيفة إنما جاءت لخطورة الأوضاع والأهداف التي رسموها لمخططهم. ولربما إلى هذا أيضاً أشار النبي بقوله تتمَّةً لحديث المنزلة: (**إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك**)[٢].

وفي التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام رواية عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال: (**ولقد اتخذ المنافقون من أمة محمد ﷺ بعد موت سعد بن معاذ وبعد انطلاق محمد ﷺ إلى تبوك أبا عامر الراهب أميراً ورئيساً، وبايعوا له وتواطؤوا على إنهاب المدينة وسبي ذراري رسول الله ﷺ وسائر أهله وصحابته، ودبّروا التبييت على محمد ليقتلوه في طريقه إلى تبوك، فأحسن الله الدفاع عن محمد ﷺ وفضَح المنافقين وأخزاهم**)[٣].

وكان يراد للإمام علي عليه السلام أن يؤدي دوراً أهم وأكثر حساسية من مشاركته في الغزوة، وهو نفس الدور الذي أريد للنبي هارون عليه السلام أن يؤديه حينما تركه النبي موسى عليه السلام مع قومه في أرض سيناء وذهب لميقات ربه. ويبدو أن المنافقين أدركوا هدف استخلاف النبي لعلي، ولذا حاولوا أن يُثيروا الأجواء ضد الإمام بالسخرية والهمز واللمز، كي تُثار حميته فيترك المدينة إصراراً على المشاركة في الغزوة، ويقع النبي تحت طائلة ضغط وإلحاح الإمام، لاسيما حين وصفوا وضعه بأنه مُستخلَف مع النساء والصبيان، أي مع الضعفاء. ففطنة النبي واستجابة الإمام علي فوّتا الفرصة على المنافقين وأفسدتا عليهم مخططاتهم والتي سعوا لتنفيذ بعض عناصرها في مراحل قادمة، من قبيل محاولة اغتيال النبي، والتي سنستعرضها لاحقاً بإذن الله.

ولربما يقال بأن النبي هارون عليه السلام لم ينجح في المهمة الموكلة إليه وحدث الانقلاب في مجتمع بني إسرائيل بعبادة العجل، فهل أريد للإمام علي أن يعيش نفس التجربة؟ والجواب عن ذلك أننا قلنا أن النبي أراد له أن يقوم بذات الدور، لا أن النتيجة ستكون في الحالتين واحدة.

وقد حاول البعض التشكيك في صدور حديث المَنزلة، وقد أشار إلى ذلك السائل في المراجعة ٣٠ من كتاب «المراجعات» فقال: حديث المنزلة صحيح مستفيض، لكن المدقق الآمدي ـ وهو فحل الفحول في علم الأصول ـ شك

---

(١) سورة طه: ٨٣-٨٦ ، ٩٠.

(٢) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٣٣٤٧.

(٣) الإمام العسكري: تفسير القرآن، ح ٣٠٩.

في أسانيده، وارتاب في طرقه، وربما تشبث برأيه خصومكم، فبماذا تستظهرون عليهم ؟. فرد عليه المؤلف العلامة السيد شرف الدين بالنقاط التالية:

١. ظلَم الآمدي بهذا التشكيك نفسَه، فإن حديث المنزلة من أصح السنن وأثبت الآثار.

٢. لم يختلج في صحة سنده ريب، ولا سنح في خواطر أحد أن يناقش في ثبوته ببنت شفة، حتى أن الذهبي على تعنّته صرح في تلخيص المستدرك بصحته، وابن حجر الهيثمي على محاربته بصواعقه ذكر الحديث في الشبهة الثانية عشرة من الصواعق، فنقل القول بصحته عن أئمة الحديث الذين لا معوّل فيه إلا عليهم، فراجع.

ولولا أن الحديث بمثابة من الثبوت، ما أخرجه البخاري في كتابه، فإن الرجل يغتصب نفسه عند خصائص علي وفضائل أهل البيت اغتصاباً. ومعاوية كان إمام الفئة الباغية، ناصَبَ أمير المؤمنين وحاربه، ولعنه على منابر المسلمين، وأمرهم بلعنه..... لم يجحد حديث المنزلة، ولا كابر فيه سعد بن أبي وقاص حين قال له فيما أخرجه مسلم: **(ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبّه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حُمر النَّعَم. سمعت رسول الله يقول له، خلَّفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي)**[١]. فأبلس معاوية، وكف عن تكليف سعد.

ثم إن معاوية نفسه حدّث بحديث المنزلة ، قال ابن حجر في صواعقه: **(أخرج أحمد أن رجلاً سأل معاوية عن مسألة، فقال: سل عنها علياً فهو أعلم. قال: جوابك فيها أحب إليَّ من جواب علي. قال: بئس ما قلت. لقد كرهت رجلاً كان رسول الله يغره بالعلم غراً، ولقد قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وكان عمر إذا أشكل عليه شيء أخذ منه...)**[٢] إلى آخر كلامه .

وأضاف السيد شرف الدين: وبالجملة فإن حديث المنزلة مما لا ريب في ثبوته بإجماع المسلمين على اختلافهم في المذاهب والمشارب.... وأورده ابن عبد البر في أحوال علي من «الاستيعاب» ثم قال ما هذا نصه: **(وهو أثبت الآثار وأصحها، رواه عن النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص، وطريق حديث سعد فيه كثيرة جداً، قد ذكرها ابن أبي خثيمة وغيره، ورواه ابن عباس وأبوسعيد الخدري وأم سلمة وأم أسامة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبدالله وجماعةٌ يطول ذكرهم)**[٣].

فلا عبرة بتشكيك الآمدي في سنده فإنه ليس من علم الحديث في شيء، وحكمه في معرفة الأسانيد والطرق حكم العوام لا يفقهون حديثاً، وتبحره في علم الأصول هو الذي أوقعه في هذه الورطة، حيث رآه بمقتضى الأصول نصاً صريحاً لا يمكن التخلص منه إلا بالتشكيك في سنده، ظناً منه أن هذا من الممكن. وهيهات هيهات ذلك[٤].

---

(١) مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٤٠٤.

(٢) ذكر شرف الدين أن كلام ابن حجر جاء (أثناء المقصد الخامس من المقاصد التي أوردها في الآية الرابعة عشر من الباب ١١ ص١٠٧ من الصواعق). ويمكن أن تجد الرواية في تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٥٩، ص ٧٤.

(٣) ابن عبدالبر: الاستيعاب، ج٣، ص ١٠٩٠.

(٤) شرف الدين: المراجعات، المراجعة ٢٨.

كما وحاول البعض التشكيك في قيمة حديث المنزلة بعد أن صعب عليهم التشكيك في أصل صدوره، واستعرض صاحب المراجعات مع محاوِره جانباً من ذلك، قال المحاور: وقد بلغني أن غير الآمدي من خصومكم، يزعم أن لا عموم في حديث المنزلة وأنه خاص بمورده، واستدل بسياق الحديث، وسببه لأنه إنما قاله لعلي حين استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، فقال له الإمام رضي الله عنه: **أتخلفني في النساء والصبيان؟** فقال ﷺ: **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي**. وكأنه ﷺ أراد كونه منه بمنزلة هارون من موسى حيث استخلفه في قومه عند توجهه إلى الطور، فيكون المقصود أنت مني أيام غزوة تبوك بمنزلة هارون من موسى أيام غيبته في مناجاة ربه.

وأضاف المحاور: ربما قالوا: إن الحديث غير حجة وإن كان عاماً لكونه مخصوصاً، والعام المخصوص غير حجة في الباقي.

وأجاب السيد شرف الدين رداً على الشبهة: نحن نوكل الجواب عن قولهم بعدم عموم الحديث إلى أهل اللسان والعُرف العربيين، وأنت حُجّة العرب لا تُدافَع، ولا تُنازَع، فهل ترى أمتك ـ أهل الضاد ـ يرتابون في عموم المنزلة من هذا الحديث. كلا وحاشا مثلك أن يرتاب في عموم اسم الجنس المضاف وشموله لجميع مصاديقه، فلو قلت: منحتكم إنصافي مثلاً، أيكون إنصافك هذا خاصاً ببعض الأمور دون بعض، أم عاماً شاملاً لجميع مصاديقه؟ معاذ الله أن تراه غير عام، أو يتبادر منه إلا الاستغراق.

ولو قال خليفة المسلمين لأحد أوليائه: جعلت لك ولايتي على الناس، أو منزلتي منهم، أو منصبي فيهم، أو مُلكي، فهل يتبادر إلى الذهن غير العموم؟ وهل يكون مدَّعي التخصيص ببعض الشؤون دون بعض إلا مخالفاً مجازفاً؟

ولو قال لأحد وزرائه: لك في أيامي منزلة عمر في أيام أبي بكر إلا أنك لست بصحابي، أكان هذا بنظر العرف خاصاً ببعض المنازل أم عاماً؟...

أما قول الخصم بأن الحديث خاص بمورده فمردود من وجهين. الوجه الأول: أن الحديث في نفسه عام كما علمت، فمورده ـ لو سلمنا كونه خاصاً ـ لا يُخرجه عن العموم، لأن المورد لا يخصص الوارد كما هو مقرر في محله. ألا ترى لو رأيت الجُنُب يمس آية الكرسي مثلاً، فقلت له: لا يمسّنّ آيات القرآن مُحدِث، أيكون هذا خاصاً بمورده، أم عاماً شاملاً لجميع آيات القرآن ولكل مُحدِث؟ ما أظن أحداً يفهم كونه خاصاً بمس الجُنُب بخصوصه لآية الكرسي بالخصوص... الوجه الثاني: أن الحديث لم تنحصر موارده باستخلاف علي على المدينة في غزوة تبوك ليتشبث الخصم بتخصيصه به، وصحاحنا المتواترة عن أئمة العترة الطاهرة تثبت وروده في موارد أخر فليراجعها الباحثون، وسنن أهل السنة تشهد بذلك كما يعلمه المتتبعون، فقول المعترض بأن سياق الحديث دال على تخصيصه بغزوة تبوك مما لا وجه له إذن، كما لا يخفى. أما قولهم بأن العام المخصوص ليس بحجة في الباقي، فغلط واضح، وخطأ فاضح، وهل يقول به في مثل حديثنا إلا من يعتنف الأمور، فيكون منها على غماء، كراكب عشواء، في ليلة ظلماء، نعوذ بالله من الجهل، والحمد لله على العافية.

إن تخصيص العام لا يخرجه عن الحجية في الباقي إذا لم يكن المخصص مجملاً، ولا سيما إذا كان متصلاً كما

في حديثنا، فإن المولى إذا قال لعبده: أكرم اليوم كل من زارني إلا زيداً، ثم ترك العبد إكرام غير زيد ممن زار مولاه يعد في العرف عاصياً، ويلومه العقلاء، ويحكمون عليه باستحقاق الذم، والعقوبة على قدر ما تستوجبه هذه المعصية عقلاً أو شرعاً، ولا يُصغي أحد من أهل العرف إلى عذره لو اعتذر بتخصيص هذا العام، بل يكون عذره أقبح عندهم من ذنبه، وهذا ليس إلا لظهور العام ـ بعد تخصيصه ـ في الباقي، كما لا يخفى..[١].

ويمكن أن أضيف إلى ردّ العالمة شرف الدين أنه يكفي أن يكون صحابي كسعد بن أبي وقاص قد أدرك ما في الحديث من مضمون ـ وهو الشاهد على صدوره من النبي ـ حتى قال كما في صحيح مسلم لما أمره معاوية أن يسب علياً فرفض فاستفهم منه معاوية السبب: (**لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حُمر النَّعَم**)[٢].

وقد تحدث الشيخ المفيد عن قيمة الخبر مبيّناً أنه تضمّن نصاً على إمامة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإبانته عن الكافة بالخلافة، ودل به على فضل، لم يشركه فيه سواه، وأوجب له به عَلَيْهِ السَّلَامُ جميع منازل هارون من موسى، إلا ما خصه العرف من الأخوة واستثناه هو[٣] عَلَيْهِ السَّلَامُ من النبوة. ألا ترى أنه ﷺ جعل له كافة منازل هارون من موسى، إلا المستثنى منها لفظاً أو عقلاً؟ وقد علم كل من تأمل معاني القرآن، وتصفح الروايات والأخبار، أن هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أخا موسى لأبيه وأمه وشريكه في أمره، ووزيره على نبوته وتبليغه رسالات ربه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ شدَّ به أزره، وأنه كان خليفته على قومه، وكان له من الإمامة عليهم وفرض الطاعة كإمامته وفرض طاعته، وأنه كان أحب قومه إليه وأفضلهم لديه. قال الله «عز وجل» حاكياً عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾[٤]. فأجاب الله عَزَّوَجَلَّ مسألته وأعطاه سؤله في ذلك وأمنيته ، حيث يقول:﴿**قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾[٥]. وقال حاكياً عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[٦] فلما جعل النبي ﷺ علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ منه بمنزلة هارون من موسى، أوجب له بذلك جميع ما عددناه، إلا ما خصَّه العرف من الأخوة واستثناه من النبوة لفظاً. وهذه فضيلة لم يشرك فيها أحد من الخلق أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا ساواه في معناها ولا قاربه فيها على حال، ولو علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن بنبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الغزاة حاجة إلى الحرب والأنصار، لما أذن له في تخليف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عنه حسب ما قدمناه، بل علم أن المصلحة في استخلافه، وأن إقامته في دار هجرته مقامه أفضل الأعمال، فدبر الخلق والدين بما قضاه في ذلك وأمضاه ...[٧].

- **حركة الجيش نحو تبوك:** صحب النبي ثلاثون ألف مقاتل، من بينهم عشرة آلاف فارس، وقسّم الرايات، وانطلق شمالاً، وبعد رحلة شاقة وصل المسلمون إلى تبوك، فلم يجدوا جيش الروم أو العرب المتحالفين معهم.. فقد

(١) شرف الدين: المراجعات، المراجعتان ٢٩-٣٠.
(٢) مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٤٠٤.
(٣) أي رسول الله.
(٤) سورة طه: ٢٥-٣٢.
(٥) سورة طه: ٣٦.
(٦) سورة الأعراف: ١٤٢.
(٧) المفيد: الإرشاد، ص ٧٤.

كان خبر تحرك جيش الروم وحلفائهم من أساسه باطلاً كما أسلفنا، وقيل بل إن قوات الروم وحلفاءها تحركت فعلاً في اتجاه الجزيرة العربية، إلا أنها آثرت الانسحاب بعد وصول الأنباء بتحرك قوات المسلمين.

أقام رسول الله ﷺ في تبوك عشرين ليلة، وبعث السرايا والرسل إلى الجهات المختلفة القريبة من تبوك، حيث أراد أن يؤمّن الحدود الشمالية من الجزيرة العربية، فصالحه «أكيدر بن عبد الملك» في «دومة الجندل»، وصالحه ملك أيلة «يحنة بن رؤبة»، كما كتب لأهل «جرباء» و«أذرح» و«مقنا» كتاباً تصالحوا عليه.

- **محاولة اغتيال النبي:** استغرقت الغزوة كلها ٦٠ يوماً تقريباً ذهاباً وإياباً ومكثاً في تبوك على ما قدّره بعض المؤرخين، ولم تخل رحلة النبي ﷺ في طريق عودته إلى المدينة المنورة من أحداث مهمة بل وبعضها خطير، وله علاقة بمؤامرة المنافقين التي أجهضت ببقاء علي عليه السلام في المدينة.

وسنكتفي هنا بقضية واحدة وهي محاولة اغتيال النبي. فقد روى أغلب المحدثين والمؤرخين والمفسرين محاولة الاغتيال هذه، إلا أن نصوص هذه المحاولة ابتليت بالتحريف والتوجيه المتعمد ضد أشخاص ومحاولات طمس حقيقة ما جرى.

وسنستعرض بدءً رواية الواقدي، وفيها أنه لما كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق مكَر به أناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه من عقبةً في الطريق. فلما بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأخبِر رسول الله ﷺ خبرهم، فقال للناس: اسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع. فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله ﷺ العقبة،

تعد دومة الجندل إحدى أهم المدن القديمة في شمال الجزيرة العربية. يعود تاريخها المدوَّن إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أما الأدلة الآثارية فتشير إلى مرحلة مبكرة من عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة. وفي العصر الجاهلي أصبحت دومة الجندل من أهم مدن شمال الجزيرة العربية ومركزاً للقبائل العربية الشمالية، وكانت سوقها التجارية والأدبية من الأسواق المهمة في الجزيرة العربية. دومة الجندل حالياً إحدى محافظات منطقة الجوف الواقعة شمال المملكة العربية السعودية.

تقع أيلة «العقبة» في رأس خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر في الركن الشمالي الشرقي. وقد قال بعض المفسرين أن الآية القرآنية: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ تخص أيلة هذه. كانت ملتقى للحاج من مصر والمغرب والشام إلى الأراضي المقدسة في الحجاز. أما اسم العقبة فبرز في العصر المملوكي، حيث كانت المدينة تعرف باسم أيلة أو عقبة أيلة حتى غلب اسم العقبة عليها في ذلك العصر. أسس الصهاينة عام ١٩٥١ ميناء إيلات على أرض فلسطين المحتلة بالقرب من العقبة الأردنية. وأما جرباء «الجربا» فبلدة تبعد عن العقبة بضعة كيلومترات. وأذرح قرية أردنية ضمن قضاء أذرح، في محافظة معان جنوب عمّان. وتقع مقنا في السعودية منتصف خليج العقبة. ويقع في وسطها عين جارية تنبع من الأرض ويفور الماء العذب من خلال التربة طوال العام تسمى : عين موسى.

وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن اليمان يسوق من خلفه. فبينا رسول الله يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غَشَوه، فغضب رسول الله وأمر حذيفة أن يردّهم، فرجّع حذيفة رواحلهم بمحجن في يده، وظن القوم أن رسول الله ﷺ قد أطلع على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله فساق به. فلما خرج رسول الله من العقبة نزل الناس، وسأله النبي إن كان قد عرف أحداً من الركب الذين ردّهم، فقال: **يا رسول الله، عرفت راحلة فلان وفلان، وكان القوم متلثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل.**

وكانوا قد أنفروا بالنبي ﷺ فسقط بعض متاع رحله. فلما أصبح قال له أسيد بن الحضير: **يا رسول الله، ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من العقبة؟** قال: **يا أبا يحيى، أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما اهتموا به؟ قالوا: نتبعه في العقبة، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني من راحلتي.**

فقال أُسَيد: **يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمُرْ كل بطن أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت، والذي بعثك بالحق، فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيكم برؤسهم، وإن كانوا في النبيت** [1] **فكفيتكهم، وأمرت سيد الخزرج فكفاك مَن في ناحيته، فإن مثل هؤلاء يتركون يا رسول الله؟ حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم في القلة والذلة، وضرب الإسلام بجرانه، فما يستبقي من هؤلاء؟**

(١) النبيت: جبل يبعد قرابة ٤٥ كم عن المدينة.

فقال رسول الله ﷺ لأسيد: **إني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه.**

فقال: **يا رسول الله، فهؤلاء ليسوا بأصحاب.**

قال رسول الله: **أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟**

قال: **بلى، ولا شهادة لهم.**

قال: **أليس يظهرون أني رسول الله؟**

قال: **بلى، ولا شهادة لهم.**

قال: **فقد نهيت عن قتل أولئك.**

ثم روى الواقدي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: **كان أهل العقبة الذين أرادوا بالنبي ﷺ ثلاثة عشر رجلاً** [١]، **قد سماهم رسول الله ﷺ لحذيفة وعمار «رحمهما الله»**[٢].

وقد حاول البعض توظيف هذا الخبر في ما يصب لمصلحته، ونلحظ ذلك ـ مثلاً ـ في التركيز على كونهم من الأنصار كما في الخبر التالي: (**لم يُخبِر رسول الله ﷺ بأسماء المنافقين الذين نخسوه ليلة العقبة بتبوك غير حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهم إثنا عشر رجلاً ليس فيهم قرشي، وكلهم من الأنصار ومن حلفائهم**)[٣].

بينما نجد في روايات أخرى أنهم كانوا خليطاً، فعن موسى بن بكر أنه قال: (**قال بعض أصحابنا لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَلِمَ رسول الله ﷺ أسماء المنافقين؟ فقال: لا، ولكن رسول الله ﷺ لما كان في غزوة تبوك كان يسير على ناقته والناس أمامه، فلما انتهى إلى العقبة وقد جلس عليها أربعة عشر رجلاً، ستة من قريش، وثمانية من أفناء الناس ـ أو على عكس هذا** [٤] **ـ فأتاه جبرئيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: إن فلاناً وفلاناً وفلاناً قد قعدوا لك على العقبة لينفروا ناقتك، فناداهم رسول الله ﷺ: يا فلان ويا فلان ويا فلان، أنتم القعود لتنفروا ناقتي؟ وكان حذيفة خلفه فلحق بهم، فقال: يا حذيفة سمعت؟ قال : نعم. قال: اكتم**)[٥].

وهكذا قامت بعض الروايات بإقحام بعض الأسماء مع غيابها وتخلفها عن الغزوة، فذُكر من بينهم عبدالله بن أبيّ، والجلاس بن سويد، وأبوعامر الراهب، وسعد بن أبي سرح. وقد يكون ذلك رغبة في تضييع أسماء بعض المشاركين الحقيقيين، أو جهلاً من الوضّاعين والقصاصين. ويصعب الاعتماد على هذه المرويات في كتب السنة والشيعة لاسيما مع نصهم على أن الأمر كان سراً بين النبي وحذيفة ـ وعمار أيضاً حسب بعض الروايات ـ وأن النبي ائتمنه على ذلك كما مر بنا، وكما جاء أيضاً في مغازي الواقدي أن النبي قال له: (**إني مُسِرٌّ إليك أمراً فلا تذكرنّه، إني نُهيت**

---

(١) في روايات أخرى أنهم كانوا ١٢ وروي ١٥.
(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤١٩-٤٢٠.
(٣) السيوطي: الدر المنثور، ج٧، ص ٤٥٠.
(٤) الترديد من الراوي.
(٥) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٣٣.

أن أصلي على فلان وفلان وفلان رهط ذوي عدد من المنافقين)[١]. والقدر المتفق عليه في الروايات أن النبي ﷺ كشفهم لحذيفة حتى صار يُعرف بلقب «حافظ ـ أو صاحب ـ سر رسول الله». قال الواقدي: **(فلما توفي رسول الله ﷺ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إذا مات رجل ممن يظن أنه من أولئك الرهط، أخذ بيد حذيفة فقاده إلى الصلاة عليه فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر، وإن انتزع يده وأبى أن يمشي انصرف معه)**[٢].

ولكن لماذا لم يكشفهم النبي ﷺ واكتفى بذكرهم لحذيفة؟ قال الأحمدي الميانجي في كتابه «مكاتيب الرسول»: **(وذكر أسمائهم كان يورث مفاسد اجتماعية من تفريق وحدة المسلمين أو الفتّ في عضدهم أو جرأة الأعداء عليهم)**[٣].

وكما تعرَّضت القصة في تفاصيلها السابقة إلى التشويش والتوظيف، فإنها تعرضت إلى ذلك أيضاً في تحديد الموضع الذي تمت فيه محاولة الاغتيال، فترددت بين طريق العودة من تبوك إلى المدينة؛ وبين طريق العودة من حجة الوداع إلى المدينة في منطقة تُعرف باسم عَقَبة هَرشَى وثنية هرشى، بعد بيعة الغدير مباشرة.. وبالتالي اختلف معنا تحديد زمان وقوع محاولة الاغتيال أيضاً كما هو واضح. ثم إن بين أيدينا رواية تتحدث عن اسم آخر للعقبة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **(ما زال القرآن ينزل بكلام المنافقين حتى تركوا الكلام، واقتصروا بالحواجب يغمزون ، فقال بعضهم: تأمنون أن تُسمَّوا في القرآن فتفتضحوا أنتم وعقبكم؟ هذه عقبة بين أيدينا لو رمينا به منها ينقطع، فقعدوا على العقبة ويقال لها: عقبة ذي فتق**[٤] **وقال حذيفة: كان رسول الله، إذا أراد النوم على ناقته اقتصَدت في السير**[٥]**، فقال حذيفة: قلت ليلة من الليالي: لا والله لا أفارق رسول الله ﷺ. قال: فجعلت أحبس ناقتي عليه، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: هذا فلان وفلان وفلان ـ حتى عدَّهم ـ قد قعدوا ينفرون بك، فقال رسول الله: يا فلان يا فلان يا فلان، يا أعداء الله، حتى سماهم بأسمائهم كلهم. ثم نظر فإذا حذيفة، فقال: عرفتهم؟ قلت: نعم برواحلهم وهم متلثمون، فقال: لا تخبر بهم أحداً. قلت: يا رسول الله، أفلا تقتلهم؟ قال: إني أكره أن يقول الناس: قاتَل بهم حتى ظفر فقتلهم. فكانوا من قريش)**[٦].

تقع عقبة هرشى ـ وتكتب «هرشا» أيضاً ـ ضمن منطقة الجحفة وتبعد قرابة ١٥ كم عن الأبواء، وهي طرف من الحرَّة، يقطع طريق الحجاج الساحلي قديماً، وهو ليس بعريض لكنه مزعج للإبل في طلوع ونزول لحجارته الضخمة، ووصفت في بعض الكتب أنها عقبة صعبة المنحدر سهلة المصعد، والطريق من جانبيها. وعند هرشى يقع منتصف الطريق بين مكة والمدينة. ووفق هذا التحديد المكاني لا يصح أن تكون محاولة الاغتيال قد تمت في طريق العودة من تبوك، فإما أن نقول بأنها لم تكن محاولة واحدة للاغتيال بل اثنتين، أو بأن تكون إحداهما غير صحيحة.

(١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٢٠.
(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٢٠.
(٣) الميانجي: مكاتب الرسول، ج١، ص ٦٠١.
(٤) قيل أن الصحيح «ذي فيق» كما في نص آخر، ولكن لا يصح هذا لأن «عقبة فيق» تقع عند نهر طبرية.
(٥) أي مشت بشكل بطيء.
(٦) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٤٢-٢٤٣.

ونلاحظ هنا كيف جاءت الرواية على خلاف رواية سابقة تنفي تماماً أن يكون أحد منهم من قريش.. وتبقى المسألة غامضة، والله أعلم بحقيقة ما جرى.

سَرِيَّة اليمن:

بعث النبي ﷺ علياً عليه السلام إلى اليمن في شهر رمضان سنة عشر من الهجرة، ليخمِّس ركازها[١]، ويقبض ما وقع عليه الصلح مع وفد نجران من الحلل والعين وغير ذلك، وليدعو مذحج وزبيد[٢]، وعقد له اللواء وعممه بيده وقال: **امض ولاتلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، وادعهم إلى قول لا إله إلا الله، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة، فإن أجابوا فلا تبغ منهم غير ذلك، والله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت.**

خرج الإمام في ثلثمائة فارس، ففرّق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك، وجعل على الغنائم بريدة بن الحصيب الأسلمي، فجمع إليه ما أصابوا ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة، فصفَّ أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان السلمي ثم حمل عليهم علي بأصحابه، فقتل منهم عشرين رجلاً فتفرقوا وانهزموا، فكف عن طلبهم، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا : **نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخُذ منها حق الله.**

---

(١) الركاز : الذهب والفضة.

(٢) من قبائل اليمن.

وجمع علي عليه السلام الغنائم فجزأها على خمسة أجزاء، فكتب في سهم منها الله وأقرع فخرج أول السهام سهم الخمس وقسم علي على أصحابه بقية المغنم.

وسار علي عليه السلام حتى لقي بني زبيد ـ وهم من مذحج ـ بواد يقال له كثير، فلما رآه بني زبيد قالوا لعمرو بن معديكرب: **كيف أنت يا أبا ثور إذا لقيك هذا الغلام القرشي فأخذ منك الأتاوة ؟**

قال: **سيعلم إن لقيني.**

وخرج عمرو فقال: **من يبارز ؟**

فنهض إليه أمير المؤمنين وقام إليه خالد بن سعيد وقال له: **دعني يا أبا الحسن بأبي أنت وأمي أبارزه.**

فقال له أمير المؤمنين: **إن كنت ترى أن لي عليك طاعة فقف في مكانك.**

ثم برز إليه أمير المؤمنين فصاح به صيحة فانهزم عمرو، وقتل أخاه وابن أخيه وأخذت امرأته ركانة بنت سلامة وسبي منهم نسوان، وانصرف أمير المؤمنين عليه السلام وخلّف على بني زبيد خالد بن سعيد لقبض صدقاتهم ويؤمّن من عاد إليه من الهاربين مسلماً.

في كتاب «مجمع الزوائد» للهيثمي وفي كتب أخرى كصحيح البخاري والمستدرك على الصحيحين وسنن الترمذي واللفظ للأول عن بريدة بن الحصيب قال: (**أبغضتُ علياً بغضاً لم أبغضه أحداً قطّ! قال: وأحببت رجلاً من قريش**[١] **لم أحبه إلا على بغضه علياً** رضي الله عنه، **قال: فبُعث ذلك الرجل على جيش فصحبتُه، ما صحبتُه إلا ببغضه علياً** رضي الله عنه. **قال: فأصبنا سبايا، فكَتَب**[٢] **إلى رسول الله** صلى الله عليه وآله: **ابعث إلينا مَن يُخمّسه. قال: فبعث علياً** رضي الله عنه). ووقع اختلاف بين ذلك القائد وبين الإمام علي حين اختار الخمس من الغنيمة واتخذ لنفسه وصيفة: (**قال: فكتب الرجل إلى نبي الله** صلى الله عليه وآله، **فقلت: ابعثني مصدِّقاً**[٣]. **قال: فجعلت أقرأ الكتاب وأقول: صدَق! قال: فأمسك يدي والكتاب، وقال: أتبغض علياً؟! قال : قلت نعم. قال: فلا تبغضه: وإن كنت تحبه فازدد له حباً، فوالذي نفس محمد بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة**).

وفي رواية الهيثمي الأخرى: (**فرأيت الغضب في وجه رسول الله** صلى الله عليه وآله **فقلت: يا رسول الله هذا مكان العائذ، بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه، ففعلت ما أرسلت به. فقال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **لا تقَع في علي، فإنه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي**). قال بريدة بعد ذلك: (**فما كان أحد من الناس بعد قول رسول الله** صلى الله عليه وآله **أحب إلي من علي**)[٤].

ثم رجع الإمام عليه السلام بعد هذه الحادثة فوافى النبي صلى الله عليه وآله بمكة وقد قدمها للحج سنة عشر، وهي حجة الوداع، وبعدها كان إعلان إمامته عليه السلام وولايته في غدير خم، ثم ارتحال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى بارئه في نهايات شهر صفر من العام الهجري الحادي عشر.

---

(١) تذكر بعض المصادر أنه خالد بن الوليد.

(٢) أي هذا القائد العسكري .

(٣) أي شاهداً على صدق كلامك.

(٤) الهيثمي: مجمع الزوائد، ح ١٤٧٣١.

بطولاته
في عهد ما بعد النبي

بطولاته في عهد ما بعد النبي

۞ مقدمة :

عاش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد رسول الله ثلاثين سنة تقريباً، ومُنع من حقه في الحكم، وهو الحق الذي بيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله في أكثر من مورد، ولا سيما في حديث الغدير، كما ودلّت عليه آيات القرآن الكريم.

ومضت تلك السنون دون أن يشارك في أية حرب خاضها المسلمون، وإن بادر بالنصيحة وأشار إذا استشير من قبل الخلفاء، وسعى لدرء الفتن من حين لآخر.

فحيث توفي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، واجتمع قوم من الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة، وتمت البيعة فيها لأبي بكر من قبل أكثر الحاضرين، وبغياب الإمام علي وبني هاشم ورهط من كبار صحابة رسول الله، جاء العباس بن عبدالمطلب وأبوسفيان معه، يطالبان الإمام بأن يمدّ يده ليبايعاه على الخلافة.

وجد الإمام عليه السلام أن في هذا التصرف باباً للفتنة وشقاً لصفوف المسلمين، فتكلم قائلاً: **أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الفتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ المُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ المُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ، مَاءٌ آجِنٌ[١]، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا، وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا[٢]، كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ. فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى المُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ المَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي[٣]! وَاللهِ لاَبْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ[٤] عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاَضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ[٥] البَعِيدَةِ[٦].**

قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة: تخلصوا عن الفتنة وانجوا منها بالمتاركة والمسالمة والعدول عن المنافرة والمفاخرة. **أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ**، أي مات، شبّه الميت المفارق للدنيا بطائر نهض عن الأرض بجناحه. ويحتمل أن يريد بذلك: أفلح من اعتزل هذا العالم، وساح في الأرض منقطعاً عن تكاليف الدنيا. ويحتمل أيضاً أن يريد: أفلح من نهض في طلب الرياسة بناصر ينصره، وأعوان يجاهدون بين يديه، وعلى التقادير كلها تنطبق اللفظة الثانية، وهي قوله: **أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ**، أي أراح نفسه باستسلامه. ثم قال: الإمرة على الناس وخيمة العاقبة، ذات مشقة في العاجلة،

(١) آجن: متغير وفاسد.
(٢) الإيناع : إدراك الثمرة.
(٣) اللتيا : تصغير التي ، كما أن اللذيا تصغير الذي.
(٤) اندمجت : انطويت.
(٥) الأرشية جمع رشاء : الحبل . الطوي : البئر المطوية بالحجارة.
(٦) الشريف الرضي : نهج البلاغة ـ الخطبة ٥.

فهي في عاجلها كالماء الآجن يجد شاربه مشقة، وفي آجلها كاللقمة التي تحدث عند أكلها الغصة... ويجوز ألا يكون عنى الإمرة المطلقة، بل هي الإمرة المخصوصة، يعنى بيعة السقيفة. ثم أخذ في الاعتذار عن الإمساك وترك المنازعة، فقال: مُجْتَني الثمرة قبل أن تدرك لا ينتفع بما اجتناه، كمن زرع في غير أرضه، ولا ينتفع بذلك الزرع، يريد أنه ليس هذا الوقت هو الوقت الذي يسوغ لي فيه طلب الأمر وأنه لم يأن بعد.

ثم قال: قد حصلتُ بين حالين، إن قلت، قال الناس حرص على الملك، وإن لم أقل، قالوا جزع من الموت. قال: **هَيْهَاتَ**، استبعاداً لظنهم فيه الجزع. ثم قال: **بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي**، أي أبعد اللتيا والتي أجزع؟! أبعد أن قاسيت الأهوال الكبار والصغار، ومنيت بكل داهية عظيمة وصغيرة ؟ فاللتيا الصغيرة والتي الكبيرة.

ذَكَر أنَّ أُنسَه بالموت كأُنس الطفل بثدي أمه، وأنه انطوى على علم هو ممتنع لموجبه من المنازعة، وأن ذلك العلم لا يُباح به، ولو باح به لاضطرب سامعوه كاضطراب الأرشية، وهي الحبال في البئر البعيدة القعر، وهذا إشارة إلى الوصية التي خص بها عليه السلام، أنه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع في مبدأ الاختلاف عليه[١].

ثم تحمّل الإمام عليه السلام في أجواء حروب الردة مسؤوليته بكل شجاعة وصبر على الرغم من أنه لم يكن راضياً ـ بل ومعارضاً ـ لما اتجهت إليه أوضاع الحكم وخلافة النبي. فقد قال كما في كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها: (**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ وَمُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَلَمَّا مَضَى عليه السلام تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلى الله عليه وآله عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله [٢] فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ**)[٣].

والعبارة الأخيرة الواردة في هذه الرسالة لا تعني أنه شارك في قتال المرتدين مثلاً، حيث لم أجد ما يدل على ذلك إلا وفق رواية سيف بن عمر التميمي، ولا عبرة بمروياته، ولربما كان يشير إلى قبوله بيعة أبي بكر بعد توسّط عثمان بن عفّان في هذا الإطار، ولربما تشجيع المقاتلين على الخروج وتقديم المشورة العسكرية. روى البلاذري: (**أن علياً قعد عن بيعة أبي**

سيف بن عمر التميمي «ت٢٠٠ هـ أو قبلها». أصله من الكوفة وعاش ببغداد وبها توفي. مؤرخ كتب كتاباً في الردة والفتح الإسلامية، وكتاباً في معركة الجمل.، وملأهما بالأساطير على مستوى الأحداث وتفاصيلها والشخصيات والأمكنة. طعن علماء الرجال من السنة والشيعة في رواياته، فبعضهم وصفه بالكذب وقيل فيه: (فلس خير منه)، وبعضهم اتهمه بالزندقة. تغلغلت رواياته إلى الموسوعات التاريخية والأدبية والمعجمية، ومن بينها تاريخ الطبري وابن كثير.

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١. ص ٢١٣ – ٢١٥.
(٢) يريد بذلك الردة التي وقعت من بعض القبائل.
(٣) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٦٢.

بكر ... لما ارتدت العرب، مشى عثمان إلى عليّ. فقال: يا بن عم، إنه لا يخرج أحد إليّ. فقال: هذا العدو، وأنت لم تبايع[١]. فلم يزل به حتى مشى إلى أبي بكر. فقام أبو بكر إليه، فاعتنقا، وبكى كل واحد إلى صاحبه. فبايعه فسرّ المسلمون، وجدّ الناس في القتال، وقطعت البعوث)[٢].

أما لماذا لم يشارك في تلك الحروب وهو سيد المحاربين المسلمين وبطل حروبهم، فقد يكون مردّه إلى أن تلك المواجهات العسكرية لم تكن بذلك الحجم الذي يستدعي خروج سادات الإسلام وكبار رجالاتها الذين عُرفوا بدورهم في حروب النبي ومغازيه، على خلاف التصور التقليدي الذي تُقدَّم من خلاله حروب الردة عادة، وهو تصوّر مستقى من مرويات سيف بن عمر التميمي، ولا ينسجم مع القراءة الدقيقة في المصادر الأخرى. بالطبع هذا لا يعني عدم خطورة تلك الردة في حد ذاتها، وهو ما أشار إليه الإمام، لأن شعارهم كان محق الإسلام والقضاء عليه، بل يعني أن المعطيات العسكرية والأمنية لم تكن تستدعي النفير العام.

أو لأن المدينة المنورة وهي عاصمة الدولة الإسلامية حينئذ كانت بحاجة إلى وجود هؤلاء الأكابر، ومن بينهم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ليحموها من أي احتمال لغزو أو مغامرة قد يقوم بها المرتدون ومن قد يعينهم من المنافقين المتواجدين في المدينة، وقد عرضنا دورهم الشطاني ضمن أحداث غزوة تبوك.

وعليه فيكون معنى الفقرة الأخيرة من رسالة الإمام إشارة إلى دوره في حماية الجبهة الداخلية في المدينة المنورة والاستعداد للدفاع عن حاضرة الإسلام ومركز الحكم.

وهكذا كان للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ دور في توجيه الخلافة في المهّات من الأمور، ومن بينها الفتوحات، وإن لم يشترك فيها، من قبيل مشورته الواردة في نهج البلاغة، وقد شاوره الخليفة عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزوالروم، فقال بكل حيادية ومسؤولية: **(وَقَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لاَهْلِ هَذا الدِّينِ بِإعْزَازِ الْحَوْزَةِ[٣]، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ، وَالَّذي نَصَرَهُمْ وَهُمْ قَليلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَليلٌ لاَ يَمتَنِعُونَ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ. إنَّكَ مَتَى تَسِرْ إلَى هذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ بِشَخْصِكَ فَتُنْكَبْ، لاَ تَكُنْ لِلْمُسْلِمينَ كَانِفَةٌ[٤] دُونَ أَقْصَى بِلاَدِهِمْ، وَلَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إلَيْهِ، فَابْعَثْ إلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَاحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاَءِ[٥] وَالنَّصيحَةِ، فَإنْ أَظْهَرَ اللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإنْ تَكُنِ الاُخْرَى، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمينَ[٦])[٧].**

وفي كلمة أخرى في نهج البلاغة أن الخليفة عمر بن الخطاب استشاره في الشخوص لقتال الفرس بنفسه، فقال له الإمام: **(إنَّ هذَا الاَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلاَ خِذْلاَنُهُ بِكَثْرَةٍ وَلاَ بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذي أَعَدَّهُ**

---

(١) من الواضح أن في العبارة خللاً، ولعل العبارة الصحيحة كالتالي: (يا بن عم، إنه لا يخرج أحد إلى هذا العدو، وأنت لم تبايع).

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٢٥٣.

(٣) أي كفل لهم حماية مُلكهم من تغلّب الأعداء.

(٤) كانفة: ملجأ.

(٥) أي أهل المهارة في الحرب مع الصدق في القصد والجراءة في الاقدام. والبَلاء: هو الاجادة في العمل وإحسانه.

(٦) أي المرجع والملجأ لهم.

(٧) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٣٤.

وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُود منَ الله، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّم بالأَمْر مَكَانُ النِّظَام منَ الْخَرَز[١] يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِن انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيره[٢] أَبَداً. وَالْعَرَبُ الْيَومَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بَالاسْلَام، عَزِيزُونَ بَالاجْتِمَاع! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَا بِالْعَرَب، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْب، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ[٣] منْ هذه الأَرْض انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ منْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ منَ الْعَوْرَات أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ. إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هذا أَصْلُ الْعَرَب، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذلكَ أَشَدَّ لكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ منْ مَسِير الْقَوْم إِلَى قِتَال الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ منْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِير مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ منْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَة، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْر وَالْمَعُونَة)[٤].

وإبان الفتنة التي وقعت على عهد الخليفة عثمان بن عفان، حاول الإمام إصلاح الأمور، وتدخّل مناصحاً للخليفة ومواجهاً بعض بؤر الفساد ممن أحاطوا به، وساعياً لتحقيق مطالب الثائرين واسترجاع حقوقهم بالحوار والوسائل السلمية، وطلب من ابنيه الحسن والحسين أن يساهما في منع الناس من قتل الخليفة، إلا أن الأمور لم تأت بالصورة التي أرادها الإمام، وانفرطت الأوضاع، ولم يمكن لأحد التحكم في تدهورها السريع الذي أدّى إلى قتل الخليفة في تفاصيل لا تمت إلى بحثنا هذا بصلة مباشرة، ولذا نتجاوزها لننتقل إلى المشهد اللاحق والذي يتضمّن إقبال الناس على الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره الوحيد القادر على تولي مسئولية الحكم في تلك الظروف العصيبة، وإنقاذ الأمة من خطر الانقسام وتبعات الأوضاع السلبية التي نخرت في جسد دولة الإسلام.

وإذ توجهت الجماهير إليه تطالبه بقبول تولي المسؤولية، لم يجد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بُداً من الاستجابة، وعبّر عن ذلك بكلمات رائعة قال فيها: **(فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَالنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْف الضَّبُع[٥]، يَنْثَالُونَ[٦] عَلَيَّ منْ كُلِّ جَانب، حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَان، وَشُقَّ عِطْفَايَ[٧]، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَة الْغَنَم[٨]. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْر نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى[٩]، وَفَسَقَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٠]، بَلَى! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا[١١]! أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِر، وَقِيَامُ الْحُجَّة بِوُجُود النَّاصِر، وَمَا أَخَذَ اللهُ**

(١) أي مَثَل القائم بالأمر ـ وهو الحاكم ـ كمثَل السِّلْك الذي ينظم فيه الخرز ليشكّل المسباح أو العُقد مثلاً.

(٢) بحذافيره: بأصله، والحذافير: جمع حِذْفار، وهو أعلى الشيء ونواحيه.

(٣) شخصت: خرجت وبرزت.

(٤) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٤٦.

(٥) عُرْفُ الضَّبُع: ماكثر على عنقها من الشعر، وهو ثخين يُضرب به المثل في الكثرة والازدحام.

(٦) يَنْثَالون: يتتابعون مزدحمين.

(٧) شُقّ عطفاه: خُدِش جانباه من الاصطكاك.

(٨) رَبيضَةُ الغنم: الطائفة الرابضة من الغنم.

(٩) مَرَقَتْ: خَرَجَتْ.

(١٠) سورة القصص: ٨٣.

(١١) الزِبْرِجُ: الزينة من وَشْي أو جوهر.

عَلَى العُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّواعَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ[١]، وَلا سَغَبِ[٢] مَظْلُومٍ، لأَلقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا[٣]، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ[٤])[٥].

۞ الإمام حاكماً:

وهكذا استلم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الحكم في قرابة آخر خمس سنوات من عمره المبارك، وخاض خلالها ثلاثة حروب طاحنة، كما أنبأه بذلك رسول الله ﷺ، وقد مرّ ذلك بنا في أكثر من موقع في الكتاب[٦]. وسنستعرض في هذا الفصل ما يتعلق بشجاعته وبطولاته في هذا العهد الجديد، وما تخلله من حروب وأحداث مؤسفة، وتحليلٍ لأسباب تلك الحروب، وذِكرٍ لمجريات أحداثها، ومن ثم تبعات تلك الحروب إلى أن استشهد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ففي المدينة وبعد يوم واحد من تحمّله مسؤولية الحكم بضغط من جمهور المسلمين وأهل الحل والعقد فيها، وقف الإمام خطيباً راسماً معالم سياسته الإدارية والمالية التي أخذها عن القرآن وسنة رسول الله ﷺ، وتتحقق من خلالها العدالة التي نشدها الناس في ثورتهم على الأوضاع، وبما يعيد الحقوق إلى أصحابها بما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال ابن أبي الحديد بعد أن جاء بمقع من خطبة الإمام كما أورها الشريف الرضي في نهج البلاغة برقم ١٥ من قسم الخطب: القطائع ما يقطعه الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج و يسقط عنه خراجه و يجعل عليه ضريبة يسيرة عوضاً عن الخراج، وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بني أمية وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة، وقد كان عمر أقطع قطائع ولكن لأرباب الغناء في الحرب والآثار المشهورة في الجهاد، فعل ذلك ثمناً عما بذلوه من مهجهم في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، و عثمان أقطع القطائع صلة لرحمه وميلاً إلى أصحابه عن غير عناء في الحرب و لا أثر.

وهذه الخطبة ذكرها الكلبي مروية مرفوعة إلى أبي صالح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عليا عَلَيْهِ السَّلَامُ خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال: (**أَلَا إِنَّ كُلَّ قَطِيعَةٍ أَقْطَعَهَا عُثمانُ وَ كُلَّ مَالٍ أعطاه من مَالِ الله فَهُوَ مَرْدُودٌ في بَيتِ المالِ فَإِنَّ الحَقَّ القَدِيمَ لا يُبطِلُهُ شَيءٌ وَلَوْ وَجَدْتُهُ وقَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وفُرِّقَ في البُلدان، لَرَدَدْتُهُ إلى حَالِهِ، فَإِنَّ في العَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَنهُ العَدْلُ، فَالجَوْرُ عَلَيْهِ أَضيَقُ**)[٧].

و تفسير هذا الكلام أن الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في العدل فهي في الجور أضيق عليه لأن الجائر في مظنة أن يمنع و يصد عن جوره . قال الكلبي ثم أمر عَلَيْهِ السَّلَامُ بكل سلاح وجد لعثمان في داره مما تقوّى به على المسلمين

---

(١) ألاّ يُقَارّوا: ألاّ يوافقوا مُقرّين. والكِظّةُ: ما يعتري الاكل من الثّقَلِ والكَرْب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استئثار الظالم بالحقوق.

(٢) السَغَب: شدة الجوع، والمراد منه هضم حقوقه.

(٣) الغارب: الكاهلُ، والكلام تمثيلٌ للترك وإرسال الامر.

(٤) عَفْطَة العَنْز: ما تنثره من أنفها. وأكثر ما يستعمل ذلك في النعجة وإن كان الاشهر في الاستعمال «النّفْطَة» بالنون.

(٥) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٣٤.

(٦) انظر فصلي: (قالوا في شجاعته) و (نفاثة الجاحظ).

(٧) ورد النص في نهج البلاغة باختلاف يسير برقم ١٥ من قسم الخطب.

فقُبض، وأمر بقبض نجائب[١] كانت في داره من إبل الصدقة، فقُبضت، وأمر بقبض سيفه و درعه، وأمر ألا يعرض لسلاح وُجِد له لم يقاتل به المسلمون، وبالكف عن جميع أمواله التي وُجِدَت في داره و في غير داره، وأمر أن تُرتَجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها.

فبلغ ذلك عمرو بن العاص و كان بأيلة[٢] من أرض الشام ـ أتاها حيث وثب الناس على عثمان فنزلها ـ فكتب إلى معاوية: **ما كنتَ صانعاً فاصنع إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مالٍ تملكه كما تُقشَر عن العصا لحاها**[٣].

ومثل ابن العاص، فقد صار لبعض الولاة السابقين ممن تولّوا الأمور على عهد الخليفة عثمان بن عفان دور أساسي في جر الأوضاع إلى الفتنة والحرب، إذ اعتبروا أن ما تحت أيديهم من سلطان إنما هو ملكٌ خالص لهم يتصرفون فيه كيفما شاؤوا، وأن الرعية بمثابة العبيد عندهم، يسوسونهم بمزاجية الحاكم المستكبر، وبتعبير والي الكوفة سعيد بن العاص الأموي: (**إنما هذا السواد**[٤] **بستان قريش. فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟ وتكلم القوم معه**)[٥]، وهو ما مثّل انقلاباً على مفهوم الحكم وفق سيرة النبي الأكرم ﷺ، وتابَعَه على ذلك الخليفتان أبوبكر وعمر، إذ كان الحاكم في موقع الخدمة للأمة لا الاستعلاء والاستغلال.

سعيد بن العاص الأموي المولود سنة ٢ هـ، ولي الكوفة على عهد الخليفة عثمان قرابة ٥ سنوات، ولما وقعت الفتنة بين الإمام علي ومعاوية اعتزل بمكة، ثم ولاه معاوية سنة ٤٢ هـ المدينة لأكثر من مرة، مناوبةً بينه وبين مروان بن الحكم. قيل بأنه كفَّ عن سب الإمام علي على المنابر.

ولم يكتف أولئك الولاة وأتباعُهم من الإداريين بذلك، فقد اتخذوا سياسات تعسفية تجاه الرعية، وبدأت بعض مظاهر الفساد الأخلاقي والجهر بالمعاصي تتفشى علناً في المجتمعات الإسلامية، مما أثار حفيظة الغيارى من الصحابة والتابعين، ودفعتهم للتصدي لبعض تلك المظاهر. قال ابن الأثير: (**وفي هذه السنة سَيَّر عثمان نفراً من أهل الكوفة إلى الشام. وكان السبب في ذلك أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة حين شهد على الوليد بشرب الخمر أمره أن يسيِّر الوليد إليه، فقدم سعيد الكوفة وسيَّر الوليد، وغسل المنبر، فنهاه رجالٌ من بني أمية كانوا قد خرجوا معه عن ذلك، فلم يجبهم**)[٦]. وقد روى مسلم في صحيحه عن حُضَين بن المنذر أبو ساسان أنه قال: (**شَهِدْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَأُتِيَ بِالْوَلِيدِ قَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ؟! فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا حُمْرَانُ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ وَشَهِدَ آخَرُ أَنَّهُ رَآهُ يَتَقَيَّأُ ، فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّأْ حَتَّى شَرِبَهَا، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ قُمْ فَاجْلِدْهُ....**)[٧].

(١) نجائب الإبل: خيارها وأفضل أفرادها.
(٢) أقيمت عليها حالياً مدينة العقبة الأردنية .
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص ٢٧٠.
(٤) أي أرض جنوب العراق، والعرب يطلقون على اللون الأخضر: السواد. وجنوب العراق عُرف بالنخيل والزراعة.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢.
(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢.
(٧) مسلم: المسند الصحيح «صحيح مسلم»، ح ٣٢٢٦.

ولذا جاءت قرارات عزل الولاة في مقدمة القرارات الإصلاحية الحاسمة التي اتخذها الإمام، ولم يسمح لنفسه ولا للآخرين أن يداهنوا في هذا الأمر، انطلاقاً من إيمانه بأصل مبدأ الإصلاح واجتثاث الفساد من جذوره، ومراعاةً للشعور الشعبي العام وتوافقاً مع النقمة العارمة التي احتقنت في صدور الناس حين ذاقوا الأمرّين من جراء السياسات اللامسؤولة التي سار بها أولئك الولاة.

وقد روى الطبري في تاريخه عن ابن عباس أنه قدم المدينة من مكة بعد قتل عثمان بخمسة أيام، فجاء ليدخل على الإمام علي عليه السلام فقيل له أن المغيرة بن شعبة عنده، فجلس ابن عباس بالباب ساعة، حتى إذا خرج المغيرة دخل ابن عباس فسلم، ودار بينهما حديث ، فقال ابن عباس: **يا أمير المؤمنين، أخبرني عن شأن المغيرة، ولم خلا بك؟**

قال: **جاءني بعد مقتل عثمان بيومين فقال لي: أخلني. ففعلت، فقال: إن النصح رخيص، وأنت بقية الناس، وإني لك ناصح، وإني أشير عليك برد عمّال عثمان عامك هذا، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم، فإذا بايعوا لك، واطمأن الأمر لك عزلت مَن أحببت، وأقررت من أحببت! فقلتُ: والله لا أدهن في ديني، ولا أعطي الدني في أمري. قال: فإن كنتَ قد أبيتَ عليَّ، فانزع مَن شئت واترك معاوية، فإن لمعاوية جرأة، وهو في أهل الشام يُسمع منه، ولك حجة في إثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها. فقلت: لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً. فخرج من عندي على ما أشار به، ثم عاد، فقال لي: إني أشرت عليك بما أشرت به فأبيت عَليَّ، ثم نظرتُ في الأمر فإذا أنت مصيب، لا ينبغي لك أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون في أمرك دلسة.**

فقال ابن عباس: أما أول ما أشار به عليك فقد نصحَك، وأما الآخر فغشَّك، وأنا أشير عليك بأن تُثبت معاوية، فإنْ بايع لك فعليَّ أن أقلعَه مِن منزله.

قال علي عليه السلام: لا والله لا أعطيه إلا السيف.

ثم تمثل الإمام بهذا البيت:

مَـا مـيـتـةٌ إنْ مِـتُّـهـا غـيـرَ عَـاجـزٍ ... بِـعـارٍ إذا مَـا غَـالَـت الـنَّـفـسُ غَـولَـهـا

قال ابن عباس: **يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع ، لست بأرب بالحرب[٨]، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الحرب خدعة»؟**

قال علي عليه السلام : **بلى.**

فقال ابن عباس: **أما والله لئن أطعتني لأصدرن بهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور، لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا إثم لك.**

فقال علي: **يا بن عباس، لست من هنيئاتك وهنيئات معاوية في شيء. تشير عليَّ وأرى، فإذا عصيتك فأطعني.**

قال ابن عباس : **أفعل إن أيسر ما لك عندي الطاعة[٩].**

---

(٨) أرُب الرَّجلُ : كان ذا دهاء وفطنة.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ح ١٤٦٦.

وهكذا كان الإمام دقيقاً في اختيار الولاة الذين سيحلّون محلّ المعزولين، حريصاً على أن يكونوا من الزاهدين في الدنيا، والمخلصين في خدمة الناس، لا يغرّهم المنصب ولا يبيعون آخرتهم بدنياهم. ولذا فإنه حين ولّى طلحة اليمن، والزبير اليمامة والبحرين، ودفع إليهما عهديهما، قالا له: **وصلَتْك رحم.**

قال: **وإنما وصلتكما بولاية أمور المسلمين**[١].

وبادر باسترداد العهدين منهما، فعتبا من ذلك، وقالا: **آثَرْتَ علينا؟!**

فقال: **ولولا ما ظهر من حرصكما فقد كان لي فيكما رأي**[٢].

وفي مجال العطايا حاول البعض أن يُوجّه الإمام لانتهاج نفس الأسلوب الذي درج عليه الناس منذ أواسط عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حيث عمد إلى تفضيل البعض على غيرهم في العطاء، لما في ذلك برأيهم من تأثير في ولاء كبار الشخصيات، مما سيؤدّي إلى متابعة الناس لهم، وبالتالي يضمن الإمام ولاء الأغلبية، ولا يثير عليه الأجواء.

ولكن الإمام رفض ذلك بشدة، وقد روي أن طائفة من أصحاب علي عليه السلام مشوا إليه فقالوا: **يا أمير المؤمنين، اعطِ هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستَمِل مَن تخاف خلافَه من الناس وفراره.**

وإنما قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع في المال فقال لهم: **أ تأمرونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله لا أفعل ما طَلَعت شمس وما لاحَ في السماء نجم**[٣]. **والله لو كان المال لي لواسيت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم؟**

ثم سكت طويلاً واجماً ثم قال: **الأمر أسرع من ذلك.** قالها ثلاثاً[٤].

قال ابن أبي الحديد في ج٨، ص١١٢ من شرحه لنهج البلاغة: و اعلم أن هذه مسألة فقهية و رأي علي عليه السلام وأبي بكر فيها واحد، و هو التسوية بين المسلمين في قسمة الفيء و الصدقات، و إلى هذا ذهب الشافعي رحمه الله. و أما عمر فإنه لما ولي الخلافة فضّل بعض الناس على بعض، ففضل السابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضّل العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولى. وقد كان أشار على أبي بكر أيام خلافته بذلك فلم يقبل وقال إن الله لم يفضل أحداً على أحد ولكنه قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ ولم يخص قوماً دون قوم. فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار به أوّلاً. و قد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله، والمسألة محل اجتهاد، و للإمام أن يعمل بما يؤديه إليه اجتهاده، و إن كان اتباع علي عليه السلام عندنا أولى، لا سيما إذا عضده موافقة أبي بكر على المسألة، وإن صح الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله سوّى، فقد صارت المسألة منصوصاً عليها، لأن فعله عليه السلام كقوله.

---

(١) أي لم ألحظ القرابة في تعييني لكما.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٥٥.

(٣) أي لا أقاربه أبداً.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٠٤.

وفي نهج البلاغة تتمة حيث قال: **أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الاخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ، وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاَّ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلأَمُ خَدِينٍ**[١]!

وروى ابن أبي الحديد عن فضيل بن الجعد أن آكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْرُ المال، فإنه لم يكن يفضّل شريفاً على مشروف، و لا عربياً على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه، وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية، فشكا علي عليه السلام إلى الأشتر تخاذل أصحابه وفرار بعضهم إلى معاوية فقال الأشتر: **يا أمير المؤمنين، إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ورأي الناس واحد**[٢]**، وقد اختلفوا بعْدُ، وتعادوا وضعفت النية وقلَّ العدد، وأنت تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق، وتُنصف الوضيع من الشريف. فليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجَّت طائفة ممن معك من الحق إذ عُمُّوا به، و اغتَمُّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف، فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقلَّ مَن ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يجتوي الحق ويشتري الباطل ويؤثر الدنيا. فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجال، وتَصْفُ نصيحتُهم لك، وتستخلص ودَّهم، صنع الله لك يا أمير المؤمنين، وكبَتَ أعداءَك وفضَّ جمعهم وأوهَنَ كيدَهم و شَتَّت أمورَهم، إنه بما يعملون خبير.**

فقال علي عليه السلام : **أما ما ذكرتَ من عملنا و سيرتنا بالعدل، فإن الله عزوجل يقول ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾**[٣] **و أنا من أن أكون مقصّراً فيما ذكرت أخوف. وأما ما ذكرتَ من أنَّ الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جَور ولا لجئوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم، كأنْ قد فارقوها**[٤]**، وليسألن يوم القيامة أ للدنيا أرادوا أم لله عملوا؟ وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال، فإنه لا يسعنا أن نؤتي امرأ من الفيء أكثر من حقه وقد قال الله سبحانه وتعالى و قوله الحق: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[٥] **و قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وحده فكثّره بعد القلة، وأعز فئته بعد الذلة. وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذلّل لنا صعبه ويسهّل لنا حزنه، وأنا قابلٌ من رأيك ما كان لله عزوجل رضا وأنت من آمن الناس عندي وأنصحهم لي وأوثقهم في نفسي إن شاء الله**[٦].

وإذا أردنا تلخيص معالم الإصلاح العَلَوي في المجال السياسي والإداري والمالي والثقافي والديني والإعلامي، والإجراءات التي اتخذها بكل قوة وشجاعة وصلابة وتصبّر على تبعاتها، على الرغم من التيار القوي الرافض أو المعارض أو غير المتماهي معها، فيمكننا أن نعرضها كالتالي:

---

(١) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.
(٢) أي كانوا على وفاق.
(٣) سورة فصلت: ٤٦.
(٤) أي زوالها وارتحالها عنهم قريب.
(٥) سورة البقرة: ٢٤٩.
(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٨٩-١٩٩.

١ـ عدم المداهنة ورفض أية محسوبية في العملية الإصلاحية حتى مع أقرب الناس إليه، وقضية أخيه عقيل بن أبي طالب بعد أن أصيب بالعمى وكبر سنّه وزاد عدد من يعيلهم قضية مشهورة ذكرها المؤرخون في أكثر من مصدر، وأشار إليها الإمام في إحدى خطبه كما في نهج البلاغة حيث قال: (وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً[١]، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً[٢]، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا[٣]، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى[٤] حُلُولُهَا؟! وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ[٥] حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ[٦] صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ[٧] الشُّعُورِ، غُبْرَ[٨] الْأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ[٩]، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ[١٠] مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ[١١] مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا[١٢]، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ[١٣]، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظًى ؟! وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ[١٤] فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا[١٥]، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ[١٦]، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ[١٧]! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ[١٨]؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ[١٩] مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ

(١) الحَسَك: الشوك. والسَعْدان: نبت ترعاه الأبل له شوك تشبه به حلمة الثدي. المُسَهّد: من سهّده إذا أسهره.

(٢) المصفّد: المقيّد.

(٣) قُفولها: رجوعها.

(٤) الثرى: التراب.

(٥) أَمْلَقَ: افتقر أشدّ الفقر.

(٦) استماحني: استعطاني.

(٧) شُعْث: جمع أشْعث، وهو من الشعر المتلبد بالوسخ.

(٨) الغُبْر ـ بضم الغين، جمع أغبر ـ : متغير اللون شاحبه.

(٩) العِظْلِم ـ كزِبْرج ـ : سواد يصبغ به، قيل هو النيلج أي النيلة.

(١٠) القياد: ما يُقادُ به كالزمام.

(١١) الدَنَف ـ بالتحريك ـ : المرض.

(١٢) الميسَم ـ بكسر الميم وفتح السين ـ : المكْواة.

(١٣) ثَكِلَ ـ كفرح ـ : أصاب ثُكْلاً ـ بالضم ـ وهو فقدان الحبيب أو خاص بالولد. والثواكل: النساء.

(١٤) الملفوفة: نوع من الحلواء أهداها الأشعث بن قيس إلى عليّ.

(١٥) شَنِئْتها: أي كرهتها.

(١٦) الصلة: العطية.

(١٧) هَبِلَتْكَ ـ بكسر الباء ـ : ثكلتك؛ والهَبُول ـ بفتح الهاء ـ : المرأة لا يعيش لها ولد.

(١٨) أمُخْتَبِطٌ في رأسك: أمختلّ نظام إدراكك؟ .. ذوجِنّة: مجنون... تهجر: تهذي.

(١٩) جلب الشعيرة: قشرتها. وأصل الجلْب غطاء الرحل فتجوّز في إطلاقه على غطاء الحبة.

دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا، مَا لِعَلِيّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ)[١].

٢. تعيين المراقبين العامّين، فقد تعددت ـ في مصادر التاريخ ـ رسائل الإمام عليه السلام التي كان يبعثها إلى ولاته وعمّاله ويذكر فيها أنه أحيط علماً بسلوك غير مرضيٍّ عنه قد سلكه الوالي أو أحد موظفيه، وهو ما يعكس حقيقة أنه كان قد عيّن مراقبين مأمونين يقدّمون له التقارير المستمرة حول الأداء الوظيفي للولاة ومن يتبعهم، ففي نهج البلاغة أنه كتب إلى أحد عمّاله: **(أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ)**[٢].

٣. اجتثاث الفساد من جذوره، فأنصاف الحلول لم تكن لتُصلح الأوضاع، ولذا كان يصرّ على عزل بعض الولاة وإجراء القوانين بحذافيرها وإن أغضبت أقواماً وألّبت عليه آخرين، وقد ذكرت بعض الأخبار والكلمات التي تؤيد هذه الفكرة وتدعمها.

٤. عدم التساهل في إنزال العقوبة بمن يستغل منصبه لأهدافه الشخصية، ولذا وجّه كتاباً إلى زياد بن أبيه وكان نائباً لعبدالله بن عباس، وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى الأهواز وفارس وكرمان، وفي الكتاب: **(وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ[٣]، ثَقِيلَ الظَّهْرِ[٤]، ضَئِيلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ)**[٥].

٥. تقديم أسس العمل الإداري والسياسي لموظفيه، وقد حفظ لنا التاريخ مجموعة من النصوص المدوّنة بعضها يخص الولاة، وبعضها يخص جباة الصدقات، وبعضها أمراء الجيوش والأجناد. وأوسع وثيقة في هذا الصدد كتابه إلى واليه على مصر مالك الأشتر والكتاب طويل ويمكن الاطلاع عليه في قسم الكتب من نهج البلاغة برقم ٥٣.

٦. فتح باب الحرية السياسية المسئولة، بحيث يحق لكل أحد أن يعبر عن رأيه وموقفه السياسي مادام كان منطلقه المصلحة العامة، وأن يناقش الإمام عليه السلام في قراراته، كما لم يحارب أحداً لمجرد كونه معارضاً، بل إنه أعطى معارضيه الحرية في أن يسألوا وأن يعارضوا، ولكن عندما كانوا يسيئون إلى النظام ويعتدون على الأبرياء فإنه كان يتدخّل.

وقد قال رجل من الخوارج بحقه: **قاتله الله كافراً ما أفقهه.**

فوثب القوم ليقتلوه. فقال عليه السلام: **رُوَيْداً، إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ**[٦]!

---

(١) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٤٠.

(٣) الوفر: المال.

(٤) ثقيل الظهر: أي مسكين لا تقدر على مؤونة عيالك.

(٥) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٢٠.

(٦) الرضي: نهج البلاغة، الحكمة ٤١٠.

حرب الجمل:

• **أسباب المعركة:** تداخلت العوامل المختلفة بين الأحقاد القديمة، والطموح للحكم، وفقدان الامتيازات، وصرامة الإمام في خطواته الإصلاحية، واجتثاث منابع الفساد الإداري والمالي والسياسي، وهو ما لم يُرضِ البعض، ومنهم مَن هو من علية القوم وسادات المسلمين وأصحاب التاريخ في الإسلام، أو من ذوي الشرف في قومه، أو التأثير في المشهد العام.

حدث كل هذا على الرغم من أن الإمام قد حذّرهم عند وفودهم عليه ليبايعوه على الخلافة، بأنهم لن يستقيموا على الجادة التي سيسلكها إن هم أصرّوا على أن يحكم، وقال لهم: (**دَعُوني وَالْتَمِسُوا غَيْرِي، فإنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ**[1] **قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً**)[2].

فقد قرأ الإمام عقولهم، وخبر نفسياتهم، وأدرك أنهم لن يتقبّلوا سياسته الصارمة في الإصلاحات، ولكنهم أصرّوا، ووجد أن الحجة قد قامت عليه ليتحمّل المسؤولية وأن لا مناص من ذلك. بالطبع، فإن الصورة سرعان ما اتضحت وتطابقت مع التصور المسبق الذي بناه الإمام في ذهنه وأشار إليه في بعض كلماته، فشبت الفتنة الداخلية بين المسلمين ـ من جديد ـ ولكنها اتخذت مجرى آخر مخالف لمجرى الفتنة على عهد الخليفة عثمان.

حيث قام البعض باتهام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بتحمل مسئولية ما جرى، على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها لتفادي وقوع الفتنة ومقتل الخليفة. وبدأ الذين اتهموه بذلك بتحريض الناس عليه والتمرد على حكومته، ونكث بيعته، أملاً في انتزاع الحكم منه، أو دفعه نحو تقديم بعض التنازلات بما يخدم مصالحَهم.

ومما ساعد على استجابة البعض لهذا التحريض ما ذكرناه من اتباع الإمام عليه السلام سياسة صارمة في تولية الإمارات ومحاسبة الولاة وعزل مَن ثبتت عليهم التهم من مناصبهم. وقد تناولنا جانباً من موقف الإمام من تسليم بعض المسؤوليات لطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام، وكان طموحهما في الواقع أكبر من ذلك، فكلٌّ منهما كان يريد الخلافة لنفسه، ولكن إقبال الناس على الإمام علي آيسهم من ذلك، واضطرا أن يبادرا إلى بيعته قبل غيرهما ليمنّا بذلك عليه، ويكون لهما السهم الأوفر في عهده، غير أنه لم يميز بينهما وبين الآخرين من أفراد المسلمين، فخاب فألهما، وضاع أملهما، وصارا يراجعانه في ما كانا يبغيان من الحظوة بالإمرة، ولو على مستوى أدنى من طموحهما.

قال اليعقوبي: أتاه طلحة والزبير، فقالا: **إنه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة فأشركنا في أمرك.**

فقال: **أنتما شريكاي في القوة والاستقامة، وعَوْناي على العجز والأود**[3].

---

(١) المحجة: الطريق الواضحة.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٧٩-١٨٠.

وفي الطبري: وسأل طلحةُ والزبيرُ أن يؤمّرهما على الكوفة والبصرة. فقال: **تكونان عندي فأتجمل بكما، فإني وَحِشٌ لفراقكما** [١].

وقد أورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة تفصيل ما دار بينهما وبين الإمام، وكيف تلقّيا مساواته بين المسلمين في العطاء عندما وزع ما في بيت المال على المسلمين، فأعطى لكل واحد منهم ثلاثة دنانير، سواء أكان من الموالي أو العرب، خلافاً لما كان عليه الأمر في عهد الخليفة عمر فما بعد، ونقل ابن أبي الحديد أيضاً ما دار من كلام واحتجاج حول ذلك.

قال: بويع وصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البيعة، وهو يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة بقين من ذي الحجة... وذكر ابن أبي الحديد جانباً من الخطبة التي ذكرت جانباً منها آنفاً، وجاء فيها أيضاً بحسب رواية ابن أبي الحديد: **وإني حاملكم على منهج نبيكم ﷺ، ومنفذ فيكم ما أُمرت به، إن استقمتم لي وبالله المستعان. ألا إن موضعي من رسول الله ﷺ بعد وفاته كموضعي منه أيام حياته، فامضوا لما تؤمرون به، وقفوا عندما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى نبينه لكم، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذرا، ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أنى كنت كارها للولاية على أمة محمد، حتى اجتمع رأيكم على ذلك، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما وال ولى الامر من بعدي، أقيم على حد الصراط، ونشرت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلا أنجاه الله بعدله، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله، ثم يهوى إلى النار، فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحر وجهه»، ولكني لما اجتمع رأيكم لم يسعني تركككم.**

ثم التفت عليه السلام يميناً وشمالاً، فقال: **ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمَرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الرَّوقة**[٢]**، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك، ويستنكرون ويقولون: حرَمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النير غدا عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار. وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا، فإن عندنا مالاً نُقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلا حضر، إذا كان مسلماً حراً. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.** ثم نزل.

بعد نقله لهذه الخطبة روى ابن أبي الحديد عن شيخه أبي جعفر محمد بن عبدالله الإسكافي قوله: وكان هذا أول ما أنكروه من كلامه عليه السلام وأورثهم الضغن عليه، وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٦٩٧.

(٢) الروقة: الحسان.

فلما كان من الغد، غدا وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: **ابدأ بالمهاجرين فنادهم، واعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم ثَنِّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلهم، الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.**

فقال سهل بن حنيف: **يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقته اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك.**

كان رافع عبداً للعباس بن عبدالمطلب، فوهبه للنبي، فغدا مولى رسول الله. أصله من قبط مصر. اختلف في اسمه بين إبراهيم وأسلم. أعتقه النبي وشهد شهد غزوتي أحد والخندق. وكان ذا علم وفضل. وكان ولده عبيدالله من التابعين من أصحاب الإمام علي وكاتبه. شهد حروب الإمام، وكان أوّل من ألّف كتاباً في الرجال في تاريخ الإسلام.

فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضّل أحداً على أحد، وتخلّف عن هذا القَسَم يومئذ طلحة، والزبير، وعبد الله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها. قال: وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبد الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: **ما خفي علينا أمس من كلام علي ما يريد.**

فقال سعيد بن العاص، والتفت إلى زيد بن ثابت: **إياك أعني واسمعي يا جارة.**

فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله بن الزبير: **إن الله يقول في كتابه:** ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[١].

ثم إن عبيد الله بن أبي رافع أخبر علياً عليه السلام بذلك، فقال: **والله إن بقيت وسلمت لهم لأقيمنهم على المحجة البيضاء، والطريق الواضح، قاتل الله ابن العاص[٢]! لقد عرف من كلامي ونظري إليه أمس أني أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هلك.**

قال: فبينا الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة، فجلسا ناحية عن علي عليه السلام، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير، فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش، فانضموا إليهم، فتحدثوا نجياً ساعة، ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فجاء إلى علي عليه السلام، فقال: **يا أبا الحسن، إنك قد وترتنا جميعا، أما أنا فقتلت أبى يوم بدر صبراً، وخذلت أخي[٣] يوم الدار بالأمس، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب - وكان ثور قريش[٤] - وأما مروان فسخفت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه، ونحن إخوتك ونظراؤك من بنى عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتَلَتَه، وإنا إن خفناك تركناك، فالتحقنا بالشام.**

فقال: **أما ما ذكرتم من وتري إياكم فالحق وتركم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله**

---

(١) الزخرف: ٧٨.

(٢) أي سعيد بن العاص.

(٣) أي الخليفة عثمان

(٤) هذا ثناء منه عليه وليس ذماً له، فالثور عندهم رمز القوة والخصوبة والفحولة، حتى أننا نجد بعض آلهة الأمم تصور على هيئة الثور.

عنكم ولا عن غيركم، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم أمس، ولكن لكم على إن خفتموني أن أؤمنكم وإن خفتكم أن أسيركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف، فلما ظهر ذلك من أمرهم، قال عمار بن ياسر لأصحابه: **قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم، فإنه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف، والطعن على إمامهم....**

فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم، فدخلوا على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالوا: **يا أمير المؤمنين، انظر في أمرك، وعاتب قومك، هذا الحي من قريش فإنهم قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، وقد دعونا في السر إلى رفضك، هداك الله لرشدك! وذاك لأنهم كرهوا الأسوة، وفقدوا الأثرة ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوك وعظموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة وتألفاً لأهل الضلالة. فرأيك!**

ثم وصف ابن أبي الحديد كيف خرج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فدخل المسجد، وصعد المنبر وكان فيما قال خطيباً: **أنا أبو الحسن** ــ وكان يقولها إذا غضب ــ ثم قال: **ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتم تمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له، فلا تغرنكم فقد حذرتموها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله، والذل لحكمه، جل ثناؤه، فأما هذا الفئ فليس لأحد على أحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه.**

ثم نزل عن المنبر، فصلى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبد الرحمن بن حنبل القرشي إلى طلحة والزبير، وهما في ناحية المسجد فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال لهما: **نشدتكما الله، هل جئتماني طائعين للبيعة، ودعوتماني إليها، وأنا كاره لها؟**

قالا: **نعم.**

فقال: **غير مجبرين ولا مقسورين، فأسلمت ما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما؟**

قالا: **نعم.**

قال: **فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى؟**

قالا: **أعطيناك بيعتنا على ألا تقضى الأمور لا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبد بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.**

فقال: **لقد نقمتما يسيراً، وأرجأتما كثيراً، فاستغفرا الله يغفر لكما. ألا تخبرانني، أدفعتكما عن حق وجب لكما فظلمتكما إياه؟**

قالا: **معاذ الله!**

قال: **فهل استأثرت من هذا المال لنفسي بشئ؟**

قالا: **معاذ الله!**

قال: **أفوقع حكم أو حق لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟**

قالا: **معاذ الله!**

قال: **فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟**

قالا: **خلافك عمر بن الخطاب في القسم، أنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجَفْنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الاسلام إلا كرهاً.**

فقال: **فأما ما ذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فخفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إلى نظرت في كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلاني عليه وأتبعته، ولم أحتج إلى آرائكما فيه، ولا رأى غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه، وأما القسم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء! قد وجدت أنا وأنتما رسول الله** ﷺ **يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وأما قولكما: جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا، سواء بيننا وبين غيرنا، فقديما سبق إلى الاسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضلهم رسول الله** ﷺ **في القسم، ولا آثرهم بالسبق، والله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغير كما ألا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر.** ثم قال: **رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، ورأي جوراً فردَّه، وكان عوناً للحق على من خالفه**[1].

وهكذا سارت الأمور نحو التصعيد الخطير، وقد ذكر الطبري أن طلحة والزبير أيسا منه بعد بضعة أشهر وبلغهما موقف أم المؤمنين عائشة من مجريات الأحداث، والذي يمكن تلخيصه في المشهد التالي حيث روى عبيد بن عمرو القرشي قال: خرجت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعثمان محصور، فقدم عليها مكة رجل يقال له أخضر، فقالت: **ما صنع الناس؟**

فقال: **قَتلَ عثمانُ المصريين.**

قالت: **إنا لله وإنا إليه راجعون، أيَقتلُ قوماً جاؤوا يطلبون الحق وينكرون الظلم؟ والله لا نرضى بهذا.**

ثم قَدم آخر فقالت: **ما صنع الناس؟**

قال: **قتل المصريون عثمان.**

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٧، ص٣٦-٤٢.

قالت: **العجب لأخضر ! زعم أن المقتول هو القاتل.**

فكان يُضرب به المثل «أكذب من أخضر»[١].

وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي في كتابه أن عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة أقبلت مسرعة و هي تقول: **إيه ذا الإصبع[٢] لله أبوك، أما إنهم وجدوا طلحة لها كفواً.**

فلما انتهت إلى شراف[٣] استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي فقالت له: **ما عندك؟**

قال: **قُتِل عثمان.**

قالت: **ثم ماذا؟**

قال: **ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار، بايعوا علياً.**

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٧.

(٢) أي ابن عمها طلحة، فقد أصيبت يده في أحد، فشلت أصابعه.

(٣) روى الحموي عن نصر أن شراف ماء بنجد، ونقل ابن منظور في لسان العرب عن التهذيب : وشراف ماء لبني أسد. وهذا لا يتناسب مع وجود أم المؤمنين في مكة ونيتها العودة إلى المدينة، ولذا فلربما كان الأصح (سَرِف) بدلاً من (شراف)، وتعرف حاليًا باسم النوارية، وهي موضع يقع بين التنعيم ووادي فاطمة شمال غرب مكة المكرمة على بعد ١٢ كم منها، ويعد أحد أحياء ضواحي مكة المكرمة الشمالية الغربية. أصبحت لهذا الوادي أهمية تاريخية فقد تزوج النبي بميمونة بنت الحارث فيه، وهناك بنى بها، وبه توفيت ودفنت، وقبرها معروف مشهور، إذ يقع على يمين القادم إلى مكة المكرمة. تكثر في هذا الوادي مصانع النورة, وأفران حرق الآجر.

فقالت: **لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إنْ تمَّ هذا. ويحك انظر ما تقول.**

قال: **هو ما قلت لك يا أم المؤمنين.**

فولولت فقال لها: **ما شأنك يا أم المؤمنين؟ والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ولا أحق ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته، فلما ذا تكرهين ولايته؟**

قال[١]: فما ردت عليه جواباً[٢].

وهكذا قررت أم المؤمنين القفول إلى مكة راجعة، وبلغ طلحة والزبير ذلك، فعزما على الخروج من المدينة والالتحاق بها، فأتيا علياً، واستأذناه في العمرة، فقال: **ما العمرة تريدان.**

فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: **ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة.**

فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعة يريدان، وما رأيهما غير العمرة.

قال لهما: **فأعيدا البيعة لي ثانية.**

فأعاداها بأشد ما يكون من الايمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: **والله لا ترونهما إلا في فتنة يقتتلان فيها.**

قالوا: **يا أمير المؤمنين، فمُر بردِّهما عليك.**

قال: **ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.**

ولما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكة لم يلقيا أحداً إلا وقالا له: **ليس لعلي في أعناقنا بيعة، وإنما بايعناه مكرَهين**[٣].

وفي مكة التحق الصحابيان بأم المؤمنين، كما التحق بركبها بنو أمية، واجتمع نحو ألف من أهل مكة وغيرها مع القافلة المتجهة نحو البصرة، وانضم إليهم نحو ألفين من أهل القرى والبوادي الواقعة في الطريق، وكان خروجهم تحت شعار الأخذ بثأر الخليفة عثمان.

أما في المدينة المنورة فقد جمع الإمام عليه السلام وجوه الناس وخطب فيهم، مبيّناً حقائق الأمور، وعزمه على ردّ الناكثين لبيعته، فخرج مسرعاً في سبعمائة ممن اجتمع إليه، وهو يرجو أن يدركهم فيردّهم قبل وصولهم إلى البصرة، وكان ذلك في آخر ربيع الأول سنة ٣٦ هـ، ولما بلغ الربذة أتاه الخبر بأنهم سبقوه، ولم يعد بالإمكان اللحاق بهم، فأرسل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة وكتب إليهم يستنهضهم للقتال، كما يبدو أنه أرسل لاحقاً بعد دخوله العراق كلاً من ابنه الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر لذات الأمر.

---

(١) أي قال أبو مخنف.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٦، ص ٢١٦.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص ٢٣٢.

• **في ذي قار**: أكمل الإمام علي عليه السلام ومَن معه مسيرهم باتجاه العراق، واختار أن يستقر في ذي قار التي تقع شمال غرب البصرة، ولعل ذلك لموقعها ما بين الكوفة والبصرة انتظاراً لقدوم إمدادات القوات إليه.

وصل المبعوثان إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى ذي قار بأنباء لا تسر، حيث أتيا والي الكوفة أبا موسى الأشعري بكتاب الإمام، فلم يجدا منه استجابة، بل أخذ يثبِّط الناس عن الخروج، فغضبا وأغلظا له الكلام دون أن يؤثر ذلك في قراره.

وعلى إثر ذلك أرسل الإمام إلى الكوفة ابنَه الحسن ومعه عمار بن ياسر ليستنهضا أهلها ويغيِّرا من موقف أبي موسى واليها، فلم يُجْدِ الأمر نفعاً، فأردفهم الإمام بمالك الأشتر الذي جعل لا يمر بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم ليتبعوه إلى قصر الإمارة، وتم عزْل أبي موسى عن الولاية، ونفَرَ معه تسعة آلاف، أخذ في البر ستة آلاف ومائتان وأخذ في الماء ألفان وثمان مائة.

ومن الصور المروية عما جرى في الكوفة أنه لما بلغ الصحابي حذيفة بن اليمان أن علياً عليه السلام قد وصل ذي قار و أنه قد استنفر الناس، دعا أصحابه فوعظهم وذكرهم الله وزهدهم في الدنيا، ورغّبهم في الآخرة، وقال لهم: **الحقوا بأمير المؤمنين ووصي سيد المرسلين، فإن من الحق أن تنصروه، وهذا الحسن ابنه وعمار، قد قدما الكوفة يستنفران الناس، فانفروا.** فنفر أصحاب حذيفة إلى علي، ومكث بعد ذلك خمس عشرة ليلة، وتوفي رضي الله عنه.

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ابن أخ سعد. لُقِّب بالمرقال لأنه كان يمشي سريعاً شبه العدو في المعركة لشجاعته. كان ضخم الجثة، فقد عينه في معركة اليرموك. عُرف بولائه للإمام علي واستشهد في صفين.

وذكر المؤرخ أبو مخنف لوط بن يحيى أن هاشم بن عتبة المرقال، نظم أبياتاً من الشعر يذكر فيها نفورهم إلى علي عليه السلام، قال[1]:

وسرنا إلى خير البرية كلِّها ... على علمنا أنَّا إلى الله نرجعُ
نُوقّره في فضْله ونُجلّهُ ... وفي الله ما نرجُو وما نتوقّعُ
ونخصفُ أخفافَ المطيّ على الوَجا ... وفي الله ما نُزجي وفي الله نُوضعُ
دَلَفْنا بجمعٍ آثروا الحقَّ والهُدى ... إلى ذي تُقىً في نَصْره نَتَسرَّعُ
نُكافحُ عَنهُ والسُّيوفُ شَهيرةٌ ... تُصافحُ أعناقَ الرِّجالِ فتقطَعُ

نعود مرة أخرى إلى ذي قار، حيث روى أبو مخنف أنه دار حوار بين الإمام وبين ابن عباس، ونقله كالتالي عن لسان ابن عباس قال: لما نزلنا مع علي عليه السلام ذي قار، قلت: **يا أمير المؤمنين، ما أقل من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظن!**

فقال: **والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً، لا يزيدون ولا ينقصون.**

قال ابن عباس: **فدخلني والله من ذلك شك شديد في قوله، وقلت في نفسي: والله إن قدموا لأعدَنَّهم.**

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٨٨. الوجا: أن يشتكي البعير باطن خفه، والفرس باطن حافره. نزجي: ندفع برفق.

قال أبو مخنف: فحدّث ابن إسحاق، عن عمه عبد الرحمن بن يسار، قال: نفر إلى علي عليه السلام إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبر ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً. أقام علي بذي قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيح البغال حوله. قال أبومخنف: فلما سار بهم منقلة[١]، قال ابن عباس: **والله لأعدَنَّهم، فإن كانوا كما قال، وإلا أتممتهم من غيرهم، فإن الناس قد كانوا سمعوا قوله.**

قال: فعرضتهم، فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً، ولا ينقصون رجلاً، فقلت: **الله أكبر! صدق الله ورسوله**[٢]!

وقال أبو مخنف: فلما قدم أهل الكوفة على علي عليه السلام سلموا عليه، وقالوا: **الحمد لله يا أمير المؤمنين، الذي اختصّنا بموازرتك، وأكرمنا بنصرتك، قد أجبناك طائعين غير مكرهين، فمُرنا بأمرك.**

قال: فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال: **مرحباً بأهل الكوفة، بيوتات العرب ووجوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشد العرب مودة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولأهل بيته، ولذلك بعثت إليكم واستصرختكم عند نقض طلحة والزبير بيعتي، عن غير جورٍ مني ولا حدث، ولعمري لو لم تنصروني بأهل الكوفة، لرجوت أن يكفيني الله غوغاء الناس، وطغام**[٣] **أهل البصرة، مع أن عامة من بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها، ورغبوا عنها.**

فقام رؤوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر[٤].

كما روي أنه لما وصلت جموع المقاتلين ذي قار تلقاهم علي عليه السلام فرحَّب بهم وقال: **يا أهل الكوفة، أنتم قاتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم، فمنعتم حوزتكم وأعنتم الناس على عدوهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريد، وإن يلجّوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بظلم، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله**[٥].

وروى الشريف الرضي[٦] الخبر التالي الذي يبيّن من خلاله الإمام أن خروجه ليس للدنيا، وأن ما سيُقدمون عليه ليس طمعاً في الحصول على شيء من زُخرفها، بل طاعةً لله: قال عبد الله بن العباس: دخلت على أمير المؤمنين بذي قار وهو يخصف نعله[٧]، فقال لي: **ما قيمة هذا النعل؟**

فقلت: **لا قيمة لها.**

فقال عليه السلام: **والله لهي أحب إلي من إمرتكم، إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً.**

---

(١) منقلة: مرحلة سفر.

(٢) لعله عنى بذلك صدقهما في كون علي مع الحق والحق معه. ثم إن من الواضح أن هذا العدد أقل من الرواية السابقة التي قالت أنه خرج من الكوفة لنصرته تسعة آلاف، وفي رواية ثالثة أن عددهم كان اثنا عشر ألفاً. ومن المحتمل أن قسماً منهم جاءوا لاحقاً وانضموا إلى المجموع، والله أعلم.

(٣) طغام: أراذل.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٨٧-١٨٨.

(٥) المقريزي: إمتاع الأسماع. ج ١٣. ص ٢٣٩.

(٦) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

(٧) وروى آخرون أن ذلك كان في الربذة. خصف النعل: خياطته.

ثم خرج فخطب الناس فقال: إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً[١] وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ [٢] وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ[٣] وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ[٤]. أَمَا وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا مَا عَجَزْتُ وَلَا جَبُنْتُ[٥] وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا فَلَأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ[٦]. مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ وَاللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ[٧]:

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ صَابِحاً ... وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا

وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ ... عَلِيّاً وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا

وروى الشريف الرضي جانباً من هذه الخطبة برواية أخرى فيها شئ من الاختلاف، وهي كما يلي: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ «سُبْحَانَهُ» بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلَا وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ[٨]، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ[٩]، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ، حَتَّى أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ. وَايْمُ اللهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا[١٠]، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا[١١]، مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جَبُنْتُ، وَلَا خُنْتُ، وَلَا وَهَنْتُ، وَأَيْمُ اللهِ، لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ[١٢] حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!

لاحظ كل هذه القوة والعنفوان والصلابة والشجاعة والعزم القوي لدى الإمام على مواجهة الباطل، في الوقت الذي قد يتراخى فيه البعض ويقدّم الأعذار تلو الأعذار لإيجاد مخرج من هذا الوضع الحرج. وسنجد هذه الصورة

(١) لعل المقصود هنا الكتب السماوية على وجه الخصوص بقرينة باقي الكلام، والمقصود أنه لم ينزل الله كتاباً سماوياً في تلك الفترة.

(٢) بوأهم محلتهم: أسكنهم منزلهم، أي دعا الناس إلى الإسلام حتى أوصلهم إليه.

(٣) فاستقامت قناتهم: استقاموا على الإسلام، أي كانت قناتهم معوجة فأقامها.

(٤) اطمأنت صفاتهم: كانت متقلقلة متزلزلة، فاطمأنت واستقرت.

(٥) شبه الإمام أمر الجاهلية، إما بعجاجة ثائرة، أو بكتيبة مقبلة للحرب، فقال: إني طردتها فولت بين يدي، ولم أزل في ساقتها أنا أطردها وهي تنطرد أمامي، حتى تولت بأسرها ولم يبق منها شئ، ما عجزت عنها، ولا جبنت منها.

(٦) فلأنقبن الباطل: كأنه جعل الباطل كشئ قد اشتمل على الحق، واحتوى عليه، وصار الحق في داخله، كالشئ الكامن المستتر فيه، فأقسم لينقبن ذلك الباطل إلى أن يُخرج الحق من جنبه.

(٧) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة. المقشرة: التمرة التي أخرج منها نواتها. والبجرة: سرة البطن، ولعله يقصد أن التمر تم إخراج نواتها من بطنها. الجرد: الأرض الخالية من النبات. السمر: نوع من الشجر، أي جعلناك تملك الأرض الجرداء منها والمزروعة

(٨) الحسير: الكليل الذي به إعياء وتعب شديد. وهذا الكلام من باب الاستعارة والمجاز، يقول كان النبي لحرصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين، ورأفته بهم، يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده، أو عرضت له شبهة، أو حدث عنده ريب، ولا يزال يوضح له ويرشده حتى يزيل ما خامر سره من وساوس الشيطان، ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين.

(٩) الكَسير: المكسور، وهو هنا الذي ضعف اعتقاده أوكلّتْ عزيمته فتراخى في السير على سبيل المؤمنين.

(١٠) جعل الجاهلية مثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه، حتى فرت وأدبرت، واتبعها يسوقها سوقاً، وهي مولية بين يديه. حتى أدبرت بحذافيرها، أي كلها عن آخرها.

(١١) استوسقت في قيادها: اجتمعت في ملة الإسلام. أو بمعنى: ولت بحذافيرها واجتمعت كلها تحت ذل المقادة.

(١٢) لأبقُرَنّ الباطلَ: من البَقْر. وهو الشق. والمراد: لأشُقّن جَوْفَ الباطل بقهر أهله، فأنتزع الحق من أيدي المبطلين.

تتكرر في مواقف أمير المؤمنين حتى في أشد المواقف غموضاً لدى الناس، وفي أحلك الظروف التي قد يجد فيها القائد أنه لم يعد يملك أية خيارات للمواجهة.

ثم علق الرضي على الخطبة السباقة قائلاً: وقد تقدم مختار هذه الخطبة، إلا أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانية[١].

وما زلنا مع علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذي قار، وفيها وفد والي البصرة الصحابي عثمان بن حنيف الأنصاري[٢] في حالة يرثى لها، إذ نُتفت لحيته وشعر وجهه، وطُرد من البصرة، بعد أن حاول تهدئة الأجواء فيها بمعونة أبي الأسود الدؤلي، وإرجاء حسم الأمور إلى حين وصول الإمام للدخول في مفاوضات معه، فلم يفلح، بل واعتُدي عليه غدراً بعد أن أعطوه مواثيقهم وكتبوا كتاباً فيما بينهم أن لا يُحدِثوا شيئاً وينتظروا قدوم علي ليروا رأيهم ويقرروا ماذا يفعلون.

وقد روى بعض المؤرخين أن ابن حنيف لما لاقى الإمام علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذي قار توجه إليه بالخطاب ـ وقلبه يتفطَّر من ألم ما حلَّ به ـ فقال: **يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وقد جئتك أمرد.**

فقال الإمام: **أصبتَ أجراً وخيراً. فقال: أصبت أجراً وخيراً، إن الناس وَلِيَهم قَبلُ رجلان فعملا بالكتاب والسنة، ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا، ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير، ثم نكثا بيعتي وألَّبا الناس علي، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما علي، والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممن تقدم، اللهم فاحلل ما عقدا ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما وأرهما المساءة فيما قد عملا**[٣].

ولما وجد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الغاية من البقاء في ذي قار قد تحققت، قرر المسير نحو البصرة، فأخذ البيعة على من حضره، وتكلم فأكثر من الحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثم قال: **قد جرت أمور صبرنا فيها - وفي أعيننا القذى - تسليما لأمر الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **فيما امتحننا به رجاء الثواب على ذلك، وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرق المسلمون وتسفك دماؤهم. نحن أهل بيت النبوة، وأحق الخلق بسلطان الرسالة، ومعدن الكرامة التي ابتدأ الله بها هذه الأمة. وهذا طلحة والزبير ليسا من أهل النبوة، ولا من ذرية الرسول، حين رأيا أن الله قد رد علينا حقنا بعد أعصر، فلم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما، ليذهبا بحقي ويفرقا جماعة المسلمين عني**[٤].

رحَّب الكوفيون بكلام الإمام وعزمه، فشكر لهم ذلك، وسار الإمام من ذي قار ومعه الناس حتى نزل على بني عبدالقيس فانضموا إليه وسار من هناك فنزل الزاوية وسار من الزاوية يريد البصرة.

- **كلاب الحوأب**[٥]: ننتقل الآن إلى وصف مجريات الأمور ـ مع الاختصار ـ في المعسكر الآخر، فقبل وصول قافلة

(١) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

(٢) وقيل: أتاه بالربذة.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٣٧.

(٤) المفيد الإرشاد، ج١، ص ٢٤٩.

(٥) الحوأب: ماء كانت ترده القوافل المسافرة إلى البصرة، وهو من ديار بني عامر بن صعصعة.

أم المؤمنين ومن معها إلى البصرة، نزلت على ماء يُعرَف باسم الحوأب، فسمعت نباح الكلاب فتنبّهت إلى أمر لطالما كانت قلقة من أن تكون هي المعنيّة به، لاسيما مع كلمات أم المؤمنين أم سلمة الذي وجهته إليها حين عزمت على الخروج حيث كتبت لها[١]: **إنك جُنَّة[٢] بين رسول الله ﷺ وبين أمته، وإن الحجاب دونك لمضروب على حرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه[٣]، وسكّن عقيراك فلا تُصحريها[٤]، لو أذكرتك قوله من رسول الله ﷺ تعرفينها لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة[٥]. ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو لقيك ناصّة قلوص[٦]، قعودك من منهل إلى منهل[٧]، قد تركت عهيداه[٨]، وهتكت ستره؟ إن عمود الدين لا يُقوَّم بالنساء، وصدعه لا يُرأب بهن. حماديّات النساء[٩] خفض الأصوات وخفر الأعراض[١٠]. اجعلي قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه وأنت على ذلك.**

فقالت عائشة: **ما أعرفني بنصحك وأقبلني لوعظك، وليس الأمر حيث تذهبين، ما أنا بعميَّة عن رأيك، فإن أقم ففي غير حرَج، وإن أخرج ففي إصلاح بين فئتين من المسلمين.**

أضاف ابن أبي الحديد: و قد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه المصنف في غريب الحديث في باب أم سلمة على ما أورده عليك، قال: لما أرادت عائشة الخروج إلى البصرة أتتها أم سلمة فقالت لها: **إنك سدة بين محمد رسول الله ﷺ وبين أمته، وحجابك مضروب على حرمته، قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكّن عقيراك فلا تصحريها. الله من وراء هذه الأمة، لو أراد رسول الله ﷺ أن يعهد إليك عهداً[١١]. علتْ علْت[١٢]، بل قد نهاك عن الفرطة في البلاد[١٣]. إن عمود الإسلام لا يُثأب بالنساء إن مال[١٤]، ولا يُرأب بهن إن صدع[١٥]. حماديات النساء غض الأطراف وخفر الأعراض وقصر الوهازة[١٦]. ما كنتِ قائلة لو أن رسول الله ﷺ**

---

(١) قال ابن أبي الحديد: (و من الكلام المشهور الذي قيل إن أم سلمة رحمها الله كتبت به إلى عائشة) ثم روى الكتاب.

(٢) جنَّة: درع وحاجب.

(٣) إشارة إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ سورة الأحزاب: ٣٣. والندح : الفتح وتريد بذلك التوسعة بالحركة والخروج.

(٤) عقر الدار: وسطه، والإصحار: الخروج إلى الصحراء.

(٥) أي لعضك ونهشك ما سأذكره لك وأذكّرك به، كما تنهشك أفعى رقشاء أي منقطة الظهر. وهي تشير بذلك إلى خبر نباح كلاب الحوأب.

(٦) ناصة: النص: الرفع. القلوص: من النوق الشابة، وهي بمنزلة الفتاة من النساء. وتريد بذلك: راكبةً قلوصاً.

(٧) المنهل: الماء تردُه الإبل.

(٨) العهيد: تصغير العهد.

(٩) حماديات النساء: جهدهن وغايتهن.

(١٠) الخفر: الحياء. الأعراض: جمع عِرض: وهو الجسد.

(١١) الجواب محذوف وتقديره: لفعل ولعهد.

(١٢) أي جرت بخروجك هذا وعدلت عن الصواب.

(١٣) أي عن السفر، من الفَرْط وهو السبق والتقدم.

(١٤) أي لا يُردّ بهن إن مالَ واعوجّ.

(١٥) أي لا يُسد بهن الصدع والشق ولا يُجمَع.

(١٦) الوهازة: الخطوة.

عارضك بعد الفلوات ناصة قلوصاً من منهل إلى آخر؟ إنَّ بعين الله مهواك[١]، وعلى رسوله تردين، وقد وجّهت سدافته[٢]ـ و يروى سجافته ـ وتركت عُهيداه. لو سرتُ مسيرَك هذا ثم قيل لي ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً ﷺ هاتكةً حجاباً وقد ضربه عَليّ. اجعلي حصنك بيتك، ووقاعة الستر[٣] قبرك، حتى تلقينه وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله بالرقبة، وأنصر ما تكون للدين ما حلت عنه. لو ذكرتك قولاً تعرفينه لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة.

فقالت عائشة: **ما أقبلني لوعظك، وليس الأمر كما تظنين، ولنعم المسير مسير فزعَت فيه إليَّ فئتان متناجزتان** ـ أو قالت متناحرتان ـ **إن أقعُدْ ففي غير حرج، وإن أخرج فإلى ما لا بد لي من الازدياد منه[٤]**.

نعود إلى ما جرى في الطريق حيث سمعت أم المؤمنين نباح الكلاب فسألت: **أي ماء هذا؟**

فقالوا : **الحوأب.**

فقالت: **إنا لله وإنا إليه راجعون إني لهيه، قد سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: ليت شعري، أيتكن تنبحها كلاب الحوأب؟[٥]**

وقد أثيرت بعض الشبهات حول هذا الحديث، وأورِد هنا السؤال الموجَّه إلى الشيخ محمد صالح المنجد المشرف على موقع «الإسلام سؤال وجواب»، وهو من أوائل المواقع الإسلامية، وقد تتلمذ على يد الشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ ناصر الدين الألباني، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ صالح بن فوزان آل فوزان وآخرين.

والسؤال[٦] كالتالي: ما صحة هذا الحديث، والمراد منه؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لنسَائِه: (**لَيْتَ شِعْرِي أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الأَدْبَبِ تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلابُ حَوْأَبٍ، فَيُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَ مَا كَادَتْ**).

الجواب: الحمد لله. روى الإمام أحمد «٢٤٦٥٤»، وابن حبان «٦٧٣٢» والحاكم «٤٦١٣»، وابن أبي شيبة «٧/ ٥٣٦» ـ واللفظ له ـ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: (**لَمَّا بَلَغَتْ عَائِشَةُ بَعْضَ مِيَاهِ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَتِ الْكِلَابُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا؟ قَالُوا: مَاءُ الْحَوْأَبِ، فَوَقَفَتْ فَقَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً، فَقَالَ لَهَا طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ: مَهْلًا رَحِمَكِ اللهُ، بَلْ تَقْدَمِينَ، فَيَرَاكَ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللهُ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: «كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ»**). والحديث : صححه ابن كثير في «البداية والنهاية» «٦/٢١٢» على شرط الشيخين، وكذا صححه محققو المسند، والألباني في «الصحيحة» «٤٧٤» على شرط الشيخين. وصححه الذهبي في «السير» «٣/٤٥٣»، والحافظ ابن حجر في «الفتح» «١٣/٥٥» وقال: «وسنده على شرط الصحيح» وقال الهيثمي

(١) أي إن الله سيرى مسيرك وحركتك.

(٢) وجهت: أي غيّرت جهتها إلى حيث لا يجب أن تكون. والسدافة: الحجاب والستر. والسجافة بمعنى السدافة.

(٣) وقاعة الستر: موقعه على الأرض إذا أرسل.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٦، ص ٢٢٠-٢٢٢.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٨.

(٦) موقع الإسلام سؤال وجواب على شبكة الإنترنت، السؤال رقم ٢٤٠٣٥٩.

في «المجمع» «٧/ ٢٣٤»: «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو يَعْلَى، وَالْبَزَّارُ، وَرِجَالُ أَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ». ورواه الضياء في «المختارة» «١٧٩»، والبزار، كما في «البداية والنهاية» «٦/٢١٢» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ وهو عند أزواجه: **(لَيْتَ شعْرِي، أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الْأَدْبَبِ، تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلَابُ حَوْأَبٍ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَمَا كَادَتْ)**. وقال الحافظ في «الفتح» «١٣/ ٥٥»: «رجاله ثقات»، وكذا قال الهيثمي في «المجمع» «٧/ ٢٣٤»، وصححه الألباني في «الصحيحة» «١/ ٨٥٣». والحَوْأَب: قال ابن الأثير رحمه الله: «مَنْزِل بَيْنَ مَكَّةَ والبَصْرة، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَتْهُ عَائِشَةُ لَمَّا جَاءَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي وقْعَة الجَمل» انتهى من «النهاية» «١/ ٤٥٦».

والجَمَل الأَدْبَب: أَراد الأَدَبَّ، فأَظْهَر التَّضْعيفَ، والأَدَبَّ: هُوَ الْكَثِيرُ الوَبر؛ وَقِيلَ: الكثيرُ وَبَر الوجه، لِيُوازِن بِهِ الحَوْأَب. قَالَ ابْنُ الأَعرابي: جَمَلٌ أَدَبُّ: كثيرُ الدَّبَب. «لسان العرب» «١/ ٣٧٣». والحاصل: أنه لما وقعت الفتنة بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختلف الناس، خرجت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للإصلاح بينهم، فلما وصلت إلى هذا المكان الذي يسمى «الحوأب» نبحتها الكلاب، فلما سألت عن اسم المكان، فأخبروها: تذكرت حديث رسول الله ﷺ الذي يخبر فيه عن إحدى زوجاته، أنها تنبحها كلاب الحوأب وأنه يُقتل حولها قتلى كثير، وتنجو هي بعد أن كادت ألا تنجو، وفي هذا خبر عن حصول الفتنة، ووقوع المقتلة بين المسلمين. فعزَمت على الرجوع؛ إذ لا يحسن بها أن تكون طرفاً في الفتنة، أو سببا في المقتلة، من قريب أو بعيد، فألحّوا عليها في مواصلة السير؛ عسى الله أن يُصلح بها بين الناس، فكان ما كان. وقد ثبت عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد ذلك أنها ندمت على هذا الخروج. قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: **(روى إِسْمَاعِيلُ بنُ أَبِي خَالد، عَنْ قَيْس قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا أَنْ تُدْفَنَ فِي بَيْتِهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي أَحْدَثْتُ بَعْدَ رَسُوْلِ الله ﷺ حَدَثًا، ادْفِنُوْنِي مَعَ أَزْوَاجِه فَدُفِنَتْ بِالبَقِيْعِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. **قُلْتُ: تَعْنِي بِالحَدَث: مَسِيْرَهَا يَوْمَ الجَمَل؛ فَإِنَّهَا نَدِمَتْ نَدَامَةً كُلِّيَّةً وَتَابَتْ مِنْ ذَلِكَ، عَلَى أَنَّهَا مَا فَعَلَتْ ذَلِكَ إِلَّا مُتَأَوِّلَةً قَاصِدَةً لِلْخَيْرِ، كَمَا اجْتَهَدَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ الله وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام وَجَمَاعَةٌ مِنَ الكِبَارِ رَضِيَ الله عَنِ الجَمِيْعِ)**. انتهى من «سير أعلام النبلاء» «٣/ ٤٦٢».

وقال الزيلعي رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ عَلِيًّا كَانَ مُصِيبًا فِي قِتَالِ أَهْلِ الْجَمَلِ، وَهُمْ طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَائِشَةُ، وَمَنْ مَعَهُمْ، وَأَهْلُ صِفِّينَ، وَهُمْ مُعَاوِيَةُ، وَعَسْكَرُهُ، وَقَدْ أَظْهَرَتْ عَائِشَةُ النَّدَمَ، كَمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الِاسْتِيعَابِ عَنِ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ لِابْنِ عُمَرَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَنْهَانِي عَنْ مَسِيرِي؟! قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا غَلَبَ عَلَيْكِ - يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ- فَقَالَتْ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ نَهَيْتَنِي مَا خَرَجْتُ)**. انتهى من «نصب الراية» «٤/ ٦٩».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَهَا: «تُقَاتِلِينَ عَلِيًّا وَأَنْتِ ظَالِمَةٌ لَهُ» فَهَذَا لَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَلَا لَهُ إسْنَادٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ بِالْمَوْضُوعَاتِ الْمَكْذُوبَاتِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ قَطْعًا، فَإِنَّ عَائِشَةَ لَمْ تُقَاتِلْ وَلَمْ تَخْرُجْ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا خَرَجَتْ لِقَصْدِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَظَنَّتْ أَنَّ فِي خُرُوجِهَا مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهَا فِيمَا بَعْدُ أَنَّ تَرْكَ الْخُرُوجِ كَانَ أَوْلَى، فَكَانَتْ إذَا ذَكَرَتْ خُرُوجَهَا تَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ خِمَارَهَا. وَهَكَذَا عَامَّةُ السَّابِقِينَ نَدِمُوا عَلَى مَا دَخَلُوا فِيهِ مِنَ الْقِتَالِ، فَنَدِمَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَلِيٌّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **أَجْمَعِينَ، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَ الْجَمَلِ لِهَؤُلَاءِ قَصْدٌ فِي الِاقْتِتَالِ، وَلَكِنْ وَقَعَ الِاقْتِتَالُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ، فَإِنَّهُ لَمَّا**

تَرَاسَلَ عَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَقَصَدُوا الاتِّفَاقَ عَلَى الْمَصْلَحَة، وَأَنَّهُمْ إِذَا تَمَكَّنُوا طَلَبُوا قَتَلَةَ عُثْمَانَ أَهْلَ الْفِتْنَة، وَكَانَ عَلِيٌّ غَيْرَ رَاضٍ بِقَتْلِ عُثْمَانَ وَلَا مُعِينًا عَلَيْه، كَمَا كَانَ يَحْلِفُ فَيَقُولُ: وَاللهِ مَا قَتَلْتُ عُثْمَانَ وَلَا مَالَأْتُ عَلَى قَتْلِه، وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ فِي يَمِينِه، فَخَشِيَ الْقَتَلَةُ أَنْ يَتَّفِقَ عَلِيٌّ مَعَهُمْ عَلَى إِمْسَاكِ الْقَتَلَة ، فَحَمَلُوا عَلَى عَسْكَرِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْر، فَظَنَّ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَنَّ عَلِيًّا حَمَلَ عَلَيْهِمْ ، فَحَمَلُوا دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَظَنَّ عَلِيٌّ أَنَّهُمْ حَمَلُوا عَلَيْه ، فَحَمَلَ دَفْعًا عَنْ نَفْسِه ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ ، وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رَاكِبَةٌ: لَا قَاتَلَتْ، وَلَا أُمِرَتْ بِالْقِتَال، هَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْأَخْبَار). انتهى من «منهاج السنة» «٤/٣١٦-٣١٧». واللّٰه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم.

تعليق: يأتي كلام ابن تيمية هذا كعادته انفعالاً بعيداً عن التحقيق العلمي، كما صدر مثله عن بعض علماء أهل السنة وكتّابهم، وهو ما بيّنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» حيث قال بعد أن جاء ببعض ألفاظ خبر الحوأب: وعلى هذا فالحديث من أصح الأحاديث، ولذلك تتابع الأئمة على تصحيحه قديماً وحديثاً. ثم بدأ يذكر أسماء بعض أئمة الحديث الذين رووا الخبر ثم قال: إلا أن العلامة القاضي أبا بكر بن العربي[1] رَحِمَهُ اللهُ جاء في كتابه «العواصم من القواصم» كلام قد يدل ظاهره أنه يذهب إلى إنكار هذا الحديث، ويبالغ في ذلك أشد المبالغة.

وبعد أن جاء الألباني بكلامه وعلّق عليه قال: ولعل عذره في ذلك أنه حين قال ذلك لم يكن مستحضراً للحديث أنه وارد في شيء من المصادر ، بل لعله لم يكن قد اطلع عليها أصلاً ، فقد ثبت عن غير واحد من العلماء المغاربة أنه لم يكن عندهم علم ببعض الأصول الهامة من تأليف المشارقة... ولكن إذا كان ما ذكرته من العذر محتملاً بالنسبة إلى أبي بكر بن العربي فما هو عذر الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب الذي علق على كلمة ابن العربي في «العاصمة»[2] بقوله: (**... وأن الكلام الذي نسبوه إلى النبي ﷺ وزعموا أن عائشة ذكرته عند وصولهم إلى ذلك الماء ليس له موضع في دواوين السنة المعتبرة ...**) ! كذا قال: وكأنه عفى اللّٰه عنّا وعنه، لم يُتعب نفسه في البحث عن الحديث في دواوين السنة المعتبرة، بل وفي بعض كتب التاريخ المعتمدة مثل «البداية» لابن كثير، لو أنه فعل هذا على الأقل، لعرف موضع الحديث في تلك الدواوين المعتبرة أو بعضها على الأقل، ولكنه أخذ يُحسن الظن بابن العربي ويقلده، فوقع في إنكار هذا الحديث الصحيح، وذلك من شؤم التقليد بغير حجة ولا برهان. بيد أن هذا مع بعده عن الصواب والإنحراف عن التحقيق العلمي الصحيح، فإنه هيّن بجانب قول صديقنا الأستاذ سعيد الأفغاني في تعليقه على قول الحافظ الذهبي المتقدم في «سير النبلاء»: (**هذا حديث صحيح الإسناد**).

والذي قاله سعيد الأفغاني واستنكره الألباني كالتالي، قال: في النفس من صحة هذا الحديث شيء، ولأمرٍ ما أهمله أصحاب الصحاح، وفي «معجم البلدان» مادة «حوءب» أن صاحبة الخطاب سلمى بنت مالك الفزارية وكانت سبيّة وُهبت لعائشة، وهي المقصودة بخطاب الرسول الذي زعموه، وقد ارتدت مع طلحة، وقُتلت في حروب الردة، ومن العجيب أن يَصرف بعض الناس هذه القصة إلى السيدة عائشة إرضاءً لبعض الأهواء العصبية.

وردّ عليه الألباني بعدة مؤاخذات ومن بينها: وثوقه بما جاء في «معجم البلدان» بدون إسناد، ومؤلفه ليس من أهل

---

(١) له موقف من ثورة الإمام الحسين معتبراً أن الإمام قُتل بسيف جده، وهذا يوضح لنا النفسية والعقلية التي انطلق من خلالها في كتابة ما كتب.

(٢) أي في نفس الكتاب السابق العواصم من القواصم.

العلم بالحديث، وعدم وثوقه بمسند الإمام أحمد، وقد ساق الحديث بالسند الصحيح، ولا بتصحيح الحافظ النقاد الذهبي له!! الرابعة: جزمُه أن صاحبة الخطاب سلمى بنت مالك بدون حجة ولا برهان، سوى الثقة العمياء بمؤلف «المعجم»، وقد أشرنا إلى حاله في هذا الميدان، وبمثل هذه الثقة لا يجوز أن يقال قال رسول الله ﷺ لسلمى بنت مالك كذا وكذا !! الخامسة: إن الخبر الذي ذكره ووثق به لا يصح من قبل إسناده، بل واهٍ جداً، فقد قال الأستاذ الخطيب بعد الذي نقلناه عنه آنفاً من الكلام على هذا الحديث، (**ولو كنا نستجيز نقل الأخبار الواهية لنقلنا في معارضة هذا الخبر خبراً آخر نقله ياقوت في «معجم البلدان» «مادة حوأب» عن سيف بن عمر التميمي أن المنبوحة من كلاب الحوأب هي أم زِمْل سلمى... وهذا الخبر ضعيف، والخبر الذي أوردوه عن عائشة أوهى منه**). كذا قال!

ثم ألحق الألباني تعجبه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾[١].

وقال الألباني بعد عدة تعليقات: وجملة القول أن الحديث صحيح الإسناد، ولا إشكال في متنه، خلافاً لظن الأستاذ الأفغاني، فإن غاية ما فيه أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما علمت بالحوأب كان عليها أن ترجع، والحديث يدل أنها لم ترجع! وهذا مما لا يليق أن يُنسب لأم المؤمنين. وجوابنا على ذلك أنه ليس كل ما يقع من الكمل يكون لائقاً بهم، إذ لا عصمة إلا لله وحده. والسنّي لا ينبغي له أن يغالي فيمن يحترمه حتى يرفعه إلى مصاف الأئمة الشيعة المعصومين! ولا نشك أن خروج أم المؤمنين كان خطأ من أصله، ولذلك همَّت بالرجوع حين علمت بتحقق نبؤة النبي ﷺ عند الحوأب، ولكن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقنعها بترك الرجوع بقوله: (**عسى الله أن يصلح بك بين الناس**) ولا نشك أنه كان مخطئاً في ذلك أيضاً. والعقل يقطع بأنه لا مناص من القول بتخطئة إحدى الطائفتين المتقاتلتين اللتين وقع فيهما مئات القتلى، ولا شك أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المخطئة لأسباب كثيرة وأدلة واضحة، ومنها ندمها على خروجها، وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدل على أن خطأها من الخطأ المغفور بل المأجور[٢].

نعود مجدداً إلى سير الأحداث فقد روى أبو مخنف أنه لما انتهت أم المؤمنين عائشة في مسيرها إلى الحوأب نبحتها الكلاب حتى نفرت صعاب إبلها فقال قائل من أصحابها: **أ لا ترون ما أكثر كلاب الحوأب و ما أشد نباحها؟!**

فأمسكت زمام بعيرها وقالت: **وإنها لكلاب الحوأب؟! ردوني ردوني فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول**..... وذكرت الخبر، فقال لها قائل: **مهلاً ـ يرحمك الله ـ فقد جزنا ماء الحوأب.**

فقالت: **فهل من شاهد؟**

فلفقوا لها خمسين أعرابياً جعلوا لهم جعلاً فحلفوا لها أن هذا ليس بماء الحوأب، فسارت لوجهها[٣]. وهكذا، أكمل القوم مسيرهم نحو البصرة، وجرى لهم ما جرى مع واليها عثمان بن حنيف،

---

(١) سورة التوبة: ١٠٢.

(٢) الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص٨٤٦-٨٥٥.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٦، ص ٢٦٦.

• **وضوح الأمر عند الإمام:** واجه الإمام عليه السلام فتنة عصيبة في ظروف حرب الجمل، وتعود لعدة أسباب، من بينها:

١ ـ طبيعة الشخصيات التي قادت الحرب عليه، فالزبير بن العوام هو ابن عمة النبي صفية بنت عبدالمطلب، وكان من السابقين إلى الإسلام، وله مآثر عدة، وكان سيفاً مصلتاً على أعداء الدين، ولطالما ذبَّ عن النبي صلى الله عليه وآله، وأبلى بلاءً حسناً، وله امتداد في عاصمة الدولة الإسلامية وخارجها من حيث الأتباع والموالين.

ومن جهة أخرى فإن طلحة بن عبيد الله التيمي لا يقل عن صاحبه تاريخاً وامتداداً في المجتمع، ولقد شُلَّت أصابع يده في معركة أُحُد، وكان مقرباً من الخليفتين أبي بكر وعمر، ولا سيما من أبي بكر.

وأما أم المؤمنين عائشة فكان لها صيت واسع، فهي زوج النبي وأكثرهن تفاعلاً مع أحداث المجتمع الإسلامي، وقد جعل لها الخليفة عمر بن الخطاب امتيازاً على سائر نساء النبي، إذ كان عطاؤها من بيت المال أكثر منهن، وفي الدار التي عاشت فيها دُفن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد روت في علاقة النبي بها وحبه لها أحاديث كثيرة، لسنا بصدد تصحيحها أو التشكيك فيها.

٢ ـ عدم وضوح الأمور عند الناس على حقيقتها على أثر الثورة على الخليفة عثمان بن عفان ومن ثَمَّ اغتياله، إذ أن طلحة والزبير وأم المؤمنين حمّلوا علياً عليه السلام مسئولية جانب مهم من الأحداث المأساوية التي وقعت، على الرغم من براءة الإمام منها، ومحاولاته الحثيثة لوأد الفتنة، بل ولطالما نصح الخليفة عثمان بالأخذ بعين الاعتبار مطالبات الثائرين بتصحيح الأوضاع الإدارية والاقتصادية في الأمصار، وتحمَّل تهديدات واتهامات بعض الثائرين بممالأته للخليفة ومحاباته له، كما قدّم ابنيه الحسن والحسين لمنع الناس من قتل الخليفة. وقد رد الإمام عليه السلام على هذه التهمة في خطبة ـ سيتم ذكرها بالتفصيل لاحقاً ـ حيث قال فيها: وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه ، ودماً هم سفكوه.

٣ ـ تداخل المصالح وتشابكها في تشكيلة القوات التي قادها الصحابيان طلحة والزبير، فقد كانا يطمحان في نصيب من الإمارة على عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقد ذكرت بعض الشواهد على هذا من قبل. ومن جهة ثانية فإن الذين خسروا الامتيازات التي حصلوا عليها على عهد الخليفة عثمان، أرادوا بخروجهم الحصول عليها مجدداً من خلال الإطاحة بحكم الإمام.

روى الطبري عن الزهري أن طلحة والزبير ظهرا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر، وابنُ عامر بها يجرُّ الدنيا، وقدم يعلى بن أمية معه بمال كثير وزيادة على أربعمائة بعير، فاجتمعوا في بيت أم المؤمنين عائشة فأرادوا الرأي فقالوا: **نسير إلى علي فنقاتله.**

فقال بعضهم: **ليس لكم طاقة بأهل المدينة، ولكنا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة، ولطلحة بالكوفة شيعة وهوى، وللزبير بالبصرة هوى ومعونة.**

عبد الله بن عامر بن كُرَيز القرشي، وهو ابن خال الخليفة عثمان. ولد بعد الهجرة بأربع سنين، وتوفي سنة ٥٧هـ. كان واليًا على البصرة إلى أن قتل عثمان، فلما سمع ابن عامر بقتله حَمَل ما في بيت المال وسار إلى مكة فوافى بها طلحة والزبير وعائشة وهم يريدون الشام، فشجعهم على أن يذهبوا إلى البصرة.

فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة وإلى الكوفة، فأعطاهم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً وإبلاً فخرجوا في سبعمائة رجل من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس حتى كانوا ثلاثة آلاف رجل[١].

وهكذا اجتمعت الأطراف، وقررت إعلان الحرب على علي، الذي حاول بدوره أن يثنيهم عن عزمهم إلا أنهم لم يستجيبوا لمحاولاته. وفي النص التالي نجد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يحاول أن يوضح للناس ما أثير من شبهات، والتي بدت وقد استحكمت في العقول وأخذت بالنفوس، حتى بات من العسير التعامل معها بمنطق العقل والحجة، فراح يبين حقيقة ما جرى قبيل بيعته وما بعدها، إتماماً للحجة ومحاولة لنزع فتيل الحرب الضروس.

وكان فيما قال: **أَلاَ وإنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ، وإنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي. مَا لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِي، وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ[٢]. وَأَيْمُ اللهِ لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ[٣]! لاَ يَصْدِرُونَ عَنْهُ[٤]، وَلاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ[٥].**

وقد روى الشريف الرضي نصاً آخر تحت عنوان: ومن كلام له عَلَيْهِ السَّلَامُ في شأن طلحة والزبير: **وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً[٦]، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ[٧] إِلاَّ قِبَلَهُمْ، وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي، مَا لَبَّسْتُ وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ، وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ[٨] وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ[٩]، وَإِنَّ الأَمْرَ لَوَاضِحٌ، وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ[١٠]، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغَبِهِ[١١]. وَأَيْمُ اللهِ لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ[١٢]، لاَ يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلاَ يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ[١٣]! فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ[١٤] عَلَى أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا. اللهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ، فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلاَ وَعَمِلاَ، وَلَقَدْ**

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٩.

(٢) ما لَبّسْتُ على نفسي: ما أوقعتها في اللّبس والابهام.

(٣) أفْرَطَ الحوْضَ: ملاه حتى فاض. والماتحُ: المُستَقي.

(٤) يُصْدِرون عنه: يعودون بعد الاستقاء.

(٥) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٠.

(٦) النِّصْف ـ بكسر النون ـ: الإنصاف.

(٧) الطَّلِبة ـ بفتح الطاء وكسر اللام ـ: ما يطالب به من الثأر.

(٨) المراد بالحَمَأ هنا مطلق القريب والنسيب، وهو كناية عن الزبير، فانه من قرابة النبي ابن عمته. والحُمَة ـ بضم ففتح ـ: أصلها الحية أوإبرة اللاسعة من الهوام.

(٩) أغْدَفَت المرأة قناعها: أرسلته على وجهها، وأغدف الليل: أرخى سدوله. يعني: أن شبهة الطلب بدم عثمان شبهة ساترة للحق.

(١٠) زَاح يزيحُ زَيْحاً وزَيحاناً: بَعُدَ وذهب، كانزاح. والنصاب: الاصل. أي: قد انقلع الباطل عن مَغْرِسه.

(١١) الشَّغَب ـ بالفتح ـ: تهييج الشرّ.

(١٢) أفرطَ الحوضَ: ملاه حتى فاض، والمراد حوض المنية. وماتِحُهُ: أي نازع مائه لأسقيهم.

(١٣) عبّ: شرب بلا تنفّس. والحَسْيُ ـ بفتح الحاء وتكسر ـ: سهل من الارض يستنقع فيه الماء.

(١٤) العُوذ ـ بضم العين ـ: جمع عائذة وهي النِّتاج من الظباء والابل، أوكل أُنثى. والمطَافيل: جمع مُطْفِل ـ بضم الميم وكسر الفاء ـ: ذات الطفل من الإنس والوحش.

اسْتَتَبْتُهُمَا[١] قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ[٢]، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ[٣]، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ[٤].

وقال الإمام علي عليه السلام في بيان حال طلحة وموقفه منه، ومدى شرعية مطالبته بدم الخليفة عثمان: قد كنتُ وما أُهدَّد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب، وأنا على ما وعدني ربي من النصر. والله ما استعجَل متجرداً للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يطالَب بدمه ، لأنه مظنَّته ، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه ، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلتبس الأمر، ويقع الشك. ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث: لئن كان ابن عفان ظالماً ـ كما كان يزعم ـ لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه، وأن ينابذ ناصريه. ولئن كان مظلوماً، لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه ، المعذرين فيه. ولئن كان في شك من الخصلتين، لقد كان ينبغي له أن يعتزله، ويركد جانباً، ويدع الناس معه. فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمرٍ لم يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره[٥].

• **قبيل المعركة:** سار طلحة والزبير وأشياعهم نحو جيش الإمام، فالتقوا عند موضع أقاموا فيه ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ[٦]. وحاول الإمام عليه السلام خلالها ثنيهم عن إشعال الحرب، فبعث إليهم عدة كتب ورسل تنبههم إلى مخاطر ما هم مقدمون عليه، والنتائج الرهيبة التي قد تسفر عنها المعركة فيما لو وقعت، وذكّرهم بالآخرة، وحذرهم من الوقوع في الفتنة، إلا أن القوم أبوا إلا الاستمرار، وفسَّروا تلك المحاولات على أنها إحساس بالضعف، وأن الإمام قد جبن عن ملاقاتهم، فأعلنوا الحرب التي لا رجعة فيها.

و قد روى مسافر بن عفيف بن أبي الأخنس ما جرى في تلك اللحظات حيث قال: لما رجعَت رسُل علي عليه السلام من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنونه بالحرب، قام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله، ثم قال: **أيها الناس، إني قد راقبتُ[٧] هؤلاء القوم كي يرعووا أو يرجعوا، ووبختهم بنكثهم، وعرّفتهم بغيّهم فلم يستحيوا، وقد بعثوا إليّ أن: ابرز للطعان، واصبر للجلاد، وإنما تُمنّيك نفسُك أماني الباطل، وتعدك الغرور !**

ألا هبلَتهم الهبول، لقد كنتُ وما أهَدَّد بالحرب ولا أُرهب بالضرب ! ولقد أنصف القارة من راماها[٨]، فليرعدوا وليبرقوا، فقد رأوني قديماً، وعرفوا نكايتي، فكيف رأوني ؟! أنا أبو الحسن، الذي فللتُ حدَّ المشركين،

---

(١) اسْتَتَبْتُهُما: من ثاب، إذا رجع، أي استرجعتهما. وطلبت اليهما الرجوع للبيعة.

(٢) أي قبيل المواقعة بالحرب.

(٣) غَمَطَ النعمة: جَحَدَها.

(٤) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٣٧.

(٥) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٣-٤.

(٦) وقيل أن بدء المعركة كان يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى.

(٧) راقبت: أمهلت.

(٨) قد أنصف القارة من راماها ، مثل ، والقارة : قوم رماة من العرب ، والنسبة إليهم قاري ، وزعموا أن رجلين التقيا ، أحدهما قاري والآخر أسدي، فقال القاري : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القاري : لقد أنصفتني ، وأنشد :

قد أنصف القارة من راماها ... إنا إذا ما فئة نلقاها
نرد أولاها على أخراها ... انتزع له سهما فشك فؤادها

وفرَّقت جماعتهم، وبذلك القلب ألقى عدوّي اليوم، وإني لعلى ما وعدني ربى من النصر والتأييد، وعلى يقين من أمري، وفي غير شبهة من ديني. أيها الناس، إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص، مَن لم يُقتل مات. إن أفضل الموت القتل، والذي نفس علي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش. اللهم إن طلحة نكث بيعتي، وألّب على عثمان حتى قتله، ثم عضهني[١] به ورماني. اللهم فلا تُمهله. اللهم إن الزبير قطع رحمي، ونكث بيعتي، وظاهَر على عدوي، فاكفنيه اليوم بما شئت. ثم نزل[٢].

وقد روى الشريف الرضي نصاً آخر قريب المعنى واللفظ منه، واعتبره القطب الراوندي صاحب الشرح على نهج البلاغة من خطب الإمام التي ألقاها في صفين وليس في الجمل، وجاء فيها: **أَلاَ وإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ**[٣]، **وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ**[٤]، **لِيَعُودَ الجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِه، وَيَرْجِعَ الباطلُ إِلَى نِصَابِه**[٥]، **وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيه فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي، فَمَا التَّبِعَةُ إِلاَّ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ**[٦]، **وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ. يا خَيْبَةَ الدَّاعِي**[٧]**! مَنْ دَعَا! وَإِلاَمَ أُجِيبَ؟!**[٨] **وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِه فِيهِمْ. فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ، وَكَفَى بِه شَافِياً مِنَ البَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ! وَمِنَ العَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلاَدِ! هَبِلَتْهُمُ الهَبُولُ**[٩]**! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالحَرْبِ، وَلاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي**[١٠].

• **قيم ومبادئ:** وخطب عليه السلام لما تواجه الجمعان خطبةً اشتملت على مجموعة من التوجيهات الحافلة بالمبادئ والقيم الراقية، في أجواء الحرب التي من المفترض أن لا يرحم فيها الخصم خصمه، وأن ينتهزها ليشفي فيها غيظه منه بكل طريقة. قال عليه السلام: لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم حُجَّة أخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تُجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تُتبعوا مدبراً ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيِّجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن

---

(١) عضهه : قال فيه ما لم يكن.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١ ـ ص ٣٠٦.

(٣) ذمر: حضّ وحث.

(٤) الجلب: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه ، أي جمع قوماً كالسحاب الذي فرغ ماؤه فلا نفع فيه.

(٥) وروى : «ليعود الجور إلى قطابه»، والقطاب : مزاج الخمر بالماء ، أي ليعود الجور ممتزجاً بالعدل كما كان . ويجوز أن يعنى بالقطاب قطاب الجيب، وهو مدخل الرأس فيه ، أي ليعود الجور إلى لباسه وثوبه .

(٦) يرتضعون أماً قد فطمت: يقول : يطلبون الشئ بعد فواته ، لأن الأم إذا فطمت ولدها فقد انقضى إرضاعها.

(٧) يا خيبة الداعي: يا خيبة احضري ، فهذا أوانك.

(٨) على سبيل الاستصغار لهم والاستحقار : «من دعا ! وإلى ما ذا أجيب ؟» أي أحقر بقوم دعاهم هذا الداعي ! وأقبح بالأمر الذي أجابوه إليه ، فما أفحشه وأرذله !

(٩) هَبِلَتْهُمْ: ثَكِلَتْهُمْ. والهَبُول ـ بفتح الهاء ـ: المرأة التي لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت.

(١٠) الشريف الرضي : نهج البلاغة ـ الخطبة ٢٢.

ضعاف القول والأنفس والعقول[١]. لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وأنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيُعيَّر بها وعَقِبُه من بعده[٢].

• في أجواء حرب الجمل: لما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرسٍ عليه السلاح، فقيل لعلي: **هذا الزبير.**

فقال: **أما إنه أحرى الرجلين إن ذكّر الله أن يذكر.**

وخرج طلحة فخرج إليهما علي فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم، فقال علي: **لعَمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً. ألم أكن أخاكما في دينكما تحرّمان دمي وأحرِّم دماءكما ؟! فهل من حدث أحل لكما دمي ؟!**

قال طلحة: **ألَّبت الناس على عثمان.**

قال علي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[٣]، **يا طلحة تطلب بدم عثمان ؟ فلعن الله قتلة عثمان. يا طلحة جئت بعرس[٤] رسول الله** ﷺ **تقاتل بها ، وخبّأت عرسك ؟! أما بايعتني ؟**

قال: **بايعتُك والسيفُ على عنقي.**

وقال علي للزبير: **أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلته؟ سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره، يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله** ﷺ **في بني غنم، فنظر إلي فضحك وضحكت إليه، فقلتَ: لا يدع ابن أبي طالب زهوه. فقال لك: صه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم؟**

فقال: **اللهم نعم، ولو ذكرتُ، ما سرتُ مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً.**

فانصرف عليٌّ إلى أصحابه فقال: **أما الزبير فقد أعطى الله عهداً أن لا يقاتلكم.**

ورجع الزبير إلى أم المؤمنين عائشة فقال لها: **ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا.**

قالت: **فما تريد أن تصنع ؟**

قال: **أريد أن أدعهم وأذهب.**

فقال له ابنه عبد الله: **جمعتَ بين هذين العسكرين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب ؟! لكنك خشيت رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد، وأن تحتها الموت الأحمر فجبنت !**

---

(١) يشير الإمام بذلك إلى تغلب عاطفة المرأة مما يؤثر على قراراتها .

(٢) الأمين : أعيان الشيعة ـ ج ١ ـ ص ٤٥٦.

(٣) سورة النور: ٢٥.

(٤) عرسه: زوجته.

فأحفظه ذلك[١] وقال: **إني حلفت أن لا أقاتله.**

قال: **كفِّر عن يمينك وقاتِله.**

فأعتق الزبير غلامه مكحولاً تكفيراً عن اليمين! ثم إن الزبير أنصلَ سنانَ رمحه[٢]، وحمل على عسكر علي برمح لا سنان له، فقال علي: **أفرجوا له فإنه مُحرَج.**

ثم عاد إلى أصحابه، ثم حمل ثانية ثم ثالثة ثم قال لابنه: **أجُبناً ويلك ترى ؟**

فقال: **لقد أعذرت.**

ترك الزبير الحرب وتوجه من فوره إلى وادي السباع قاصداً المدينة ومعه غلام له يدعى عطية، فتبعه عمرو بن جرموز، فلما حضرت الصلاة، قال ابن جرموز: **الصلاة.**

فقال الزبير: **الصلاة .**

فنزلا واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه فقتله.

• **في ساحة المعركة:** رمى أصحاب الجمل عسكر علي عليه السلام بالنبل رمياً شديداً متتابعاً، فضج إليه أصحابه وقالوا: **عقَرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين .**

وجئ إليه برجل فقيل له: **هذا فلان قد قُتل.**

فقال: **اللهم اشهد.**

ثم قال: **أعذروا إلى القوم**[٣].

فأُتِي برجل آخر، فقيل: **وهذا قد قُتل.**

فقال: **اللهم اشهد، أعذروا إلى القوم.**

ثم أقبل عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل أخاه عبد الرحمن قد أصابه سهم فقتله، فقال: **يا أمير المؤمنين هذا أخي قد قُتل.**

فاسترجع عليٌّ ودعا بدرع رسول الله ذات الفضول فلبسها فتدلت على بطنه فرفعها بيده وقال لبعض أهله فحزم وسطه بعمامة وتقلّد ذا الفقار، ودفع إلى ابنه محمد راية رسول الله السوداء وتُعرف بالعقاب، وقال للحسن والحسين: إنما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وآله.

طاف علي على أصحابه وهو يقرأ: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ**

---

(١) فأحفظه ذلك: أثار حفيظته.

(٢) أنصل: أزال سنان الرمح.

(٣) رغبة في عدم القتال وإفساح المجال لأي احتمال لوقف الحرب.

﴿الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[١]. ثم قال: **أفرغ الله علينا وعليكم الصبر وأعز لنا ولكم النصر وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر.**

ثم رفع الإمام مصحفاً بيده فقال: **من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه وله الجنة؟**

فقام غلام شاب اسمه مسلم عليه قباء أبيض[٢]، فقال: **أنا آخذه .**

فنظر إليه علي وقال: **يا فتى ، إن أخذته فإنَّ يدَك اليمنى تُقطع، فتأخذه بيدك اليسرى فتُقطع، ثم تُضرب بالسيف حتى تُقتل !**

فقال الغلام: **لا صبر لي على ذلك.**

فنادى علي ثانية، فقام الغلام وأعاد عليه القول، وأعاد الغلام القول مراراً حتى قال الغلام: **أنا آخذه وهذا الذي ذكرت في الله قليل.**

فأخذه وانطلق، فلما خالطهم ناداهم: **هذا كتاب الله بيننا وبينكم.**

فضربه رجل فقطع يده اليمنى، فتناوله باليسرى، فضربه أخرى قطع اليسرى، فاحتضنه وضربوه بأسيافهم حتى قُتل.

ثم استحرَّ القتل إلى صدر النهار، وقيل إلى الزوال، حتى بانت الهزيمة في معسكر أصحاب الجمل، وأصيب طلحة بن عبيدالله بسهم لا يُدري راميه على التحديد، وقد روى ابن الأثير أن الذي رمى طلحة هو مروان بن الحكم[٣]، وكان ذلك منه أخذاً بثأر الخليفة عثمان، لما ذكرناه مسبقاً من أن طلحة كان على رأس الثائرين عليه. انسحب طلحة من أرض المعركة وهو يقول: **اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى.**

فلما امتلأ خفه دماً وثَقُل قال لغلامه: **اردفني وأمسكني وأبلغني مكاناً أنزل فيه لا أُعرَف فيه، فلم أر كاليوم شيخاً أضيع دماً مني.** فدخل البصرة فأنزله في دارٍ خربة، فمات فيها. اشتد القتال حتى قال أحدهم: **لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيت، وتطاعنّا بالرماح حتى تشبكت في صدورنا وصدورهم.**

وقال آخر: **لقد رأيتنا يوم الجمل ندافعهم بأسنّتنا، ونتكي على أزجّتنا**[٤]**، وهم مثل ذلك، حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم**[٥].

تناول عبد الله بن أبزي خطام الجمل وكان يقاتل قتالاً مستميتاً، ثم شدَّ على عسكر علي فقال:

أضـــربُـهُـم ولا أرَى أبَـــا حسَـن هَـــا إنَّ هَـــذا حَـــزن مِـــن الحَـــزن

فشد عليه أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح فطعنه فقتله وقال: **قد رأيت أبا حسن فكيف رأيته ؟ وترك الرمح فيه.**

---

(١) سورة البقرة: ٢١٤.

(٢) قباء: نوع من الثياب.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ. ج ٣. ص ٢٤٤.

(٤) الزج: نصل الرمح.

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك. ج ٣. ص ٥٣٨.

ثم خرج عبد الله بن خلف الخزاعي وهو رئيس البصرة وأكثر أهلها مالاً وضياعاً، وطلب المبارزة وسأل أن لا يخرج إليه إلا عليٌّ، وارتجز عليه فقال:

يَـا أبَـا تُـرابٍ ادنُ مِـنّـي فِـتْـرا فـإنَّـنـي دَانٍ إلـيـكَ شِـبـرا

وإنَّ في صَدري عَليكَ غَمْرا[١]

فخرج إليه علي عليه السلام فلم يمهله أن ضربه ففلق هامته. واستدار الجمل كما تدور الرحى وتكاثفت الرجال حوله واشتد رغاؤه واشتد زحام الناس عليه، وقصد المقاتلون من معسكر الإمام علي عليه السلام ذلك الجملَ، والرجال من حوله كالجبال، كلما خف قوم جاء أضعافهم، فنادى أمير المؤمنين علي: **ويحكم ارشقوا الجمل بالنبل، اعقروه !**

فرُشق بالسهام، فلم يبقَ فيه موضع إلا أصابه النبل، فتعلقت السهام به فصار كالقنفذ. ونادت الأزد وضبَّة: **يا لثارات عثمان ! فأخذوها شعاراً.**

ونادى أصحاب علي: **يا محمد ! فأخذوها شعاراً.**

واختلط الفريقان ونادى علي بشعار رسول الله عليه السلام: **يا منصورُ أمِتْ !**

تقاتل الفريقان في اليوم الثاني والقتل فاش في المعسكرين، إلا أنه في معسكر خصوم الإمام علي أكثر، وإمارات النصر لائحة لمعسكر الإمام، إلا أن الأمور لم تُحسم.

• **موقف لمحمد بن الحنفية:** دفع الإمام علي عليه السلام في اليوم الثالث رايته إلى ابنه محمد، وقد استوت الصفوف، وقال له: **تَزُولُ الْجِبَالُ وَلاَ تَزُلْ! عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ. أَعِرِ اللهَ جُمجُمَتَكَ، تِدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ**[٢]**، إِرْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ**[٣]**، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٤].

ثم قال له: **احمل.**

فتوقف قليلاً، فقال له: **احمل.**

فقال: يا أمير المؤمنين، **أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر**[٥]**؟!**

فدفع في صدره، فقال: **أدركك عِرقٌ من أمك**[٦].

---

(١) الغمر: الحقد.

(٢) أي إن زالت الجبال فلا تزل أنت، والمراد المبالغة. الناجذ: أقصى الأضراس. أعر الله جمجمتك: أي ابذلها في طاعة الله. تد: أمر من وتد قدمه في الأرض، أي أثبتها فيها كالوتد.

(٣) لا تناقض بين قوله: «ارم ببصرك» وقوله: «غض بصرك»، وذلك لأنه في الأولى أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه، ويحدق إلى أقاصي القوم ببصره، كالشجاع المقدام غير المكترث ولا المبالي، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه، ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف. وفي الثانية أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلا يبرق بصره ويدهش ويستشعر خوفاً.

(٤) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١١.

(٥) شآبيب المطر: دفعات المطر، ومفردها شؤبوب.

(٦) إشارة إلى أن تردد ابنه في ذلك الموقف لم يكن بسبب صفة ورثها منه بل من جهة أمه.

ثم أخذ الإمام الراية فهزَّها، ثم قال:

اطعَن بِها طَعْنَ أبيكَ تُحمَدْ ... لا خَيرَ في الحَربِ إذا لَم تُوقَد

بالمشرفيِّ والقَنا المسَدَّد[١]

ثم حمل، وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة. ولما عاد دفع الراية إلى ابنه محمد، وقال: **امحُ الأولى بالأخرى، وهذه الأنصار معك.**

قال ابن أبي الحديد: ثم أدركَت علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ رقة على ولده، فتناول الراية منه بيده اليسرى، وذو الفقار مشهور في يمنى يديه، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل، ثم رجع وقد انحنى سيفه، فأقامه بركبته. فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار: **نحن نكفيك يا أمير المؤمنين.**

فلم يُجب أحداً منهم ولا ردّ إليهم بصره، وظل ينحط[٢] ويزأر زئير الأسد، حتى فرَّق من حوله، وتبادروه وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة[٣]، لا يبصر مَن حوله، ولا يرد حواراً، ثم دفع الراية إلى ابنه محمد، ثم حمل حملة ثانية وحدَه، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدماً قدماً، والرجال تفر من بين يديه وتنحاز عنه يمنة ويسرة، حتى خضب الأرض بدماء القتلى، ثم رجع وقد انحنى سيفه، فأقامه بركبته، فاعصوصب به أصحابه[٤]، وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام، وقالوا: **إنك إن تُصَب يذهب الدين، فأمسِك ونحن نكفيك.**

فقال: **والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة.**

ثم قال لمحمد ابنه: **هكذا تصنع يا بن الحنفية.**

فقال الناس: **مَن الذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين**[٥]؟!.

ضم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ابنه خزيمة بن ثابت، في جمع من الأنصار، كثيرٌ منهم من أهل بدر، فحمل حملات كثيرة، أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً. فقال خزيمة بن ثابت لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أما إنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح، ولئن كنتَ خفتَ عليه الجبن وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه، وإن كنتَ أردتَ أن تعلِّمه الطعان فطالما علَّمتَه الرجال.**

خزيمة بن ثابت الأنصاري الأوسي. شهد بدراً وما بعدها، اشترى النبي فرساً من رجل فأنكر الرجل ذلك لاحقاً، فشهد خزيمة بن ثابت للنبي، فقال له رسول الله: ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً؟ قال: صدّقتك بما جئت به، وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً، فقال رسول الله: مَن شهد له خزيمة أو عليه فحسبه. فعرف بذي الشهادتين، أي أن شهادته بديلة عن شهادة رجلين. استشهد بصفِّين.

---

(١) المشرفي: السيف.

(٢) ينحط: يزفر.

(٣) طمح بصره إليه: امتد ورفع.

(٤) اعصوصبوا به: استجمعوا والتفوا حوله.

(٥) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١. ص ٢٥٧ – ٢٥٨.

وقالت الأنصار: **يا أمير المؤمنين، لولا ما جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للحسن والحسين لما قدَّمنا على محمد أحداً من العرب.**

فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أين النجم من الشمس والقمر؟! أما إنه قد أغنى وأبلى، وله فضله، ولا ينقص فضل صاحبيه عليه، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليه.**

فقالوا: **يا أمير المؤمنين، إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين، ولا نظلمهما له، ولا نظلمه. لفضلهما عليه. حقه.**

فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أين يقع ابني من ابنَيْ بنت رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فقال خزيمة بن ثابت فيه[١]:

مُحمَّد ما في عَودكَ اليومَ وَصْمةٌ ... ولا كُنتَ في الحَرب الضَّروس مُعردا
أبوكَ الذي لَم يَركبْ الخيلَ مثلُه ... عَليٌّ، وسَمَّاكَ النبيُّ مُحمَّدا
فلو كانَ حَقاً من أبيكَ خَليفَةً ... لَكُنتَ، ولَكن ذاكَ ما لا يُرى بُدّا
وأنتَ بحمد الله أطولُ غَالبٍ ... لساناً، وأندَاها بمَا مَلكْتَ يَدا
وأقربُها من كُل خَير تريدُه ... قُريشٌ وأوفاها بما قالَ مَوعدا
وأطعَنُهم صَدر الكَميِّ برمحه ... وأكساهُم للهَام عَضْباً مُهنَّدا
سوَى أخَويكَ السَّيِّدين، كلاهُما ... إمامُ الوَرَى والدَّاعيان إلى الهُدى
أبَى اللهُ أن يُعطَى عَدوُّك مَقعَداً ... من الأرضِ أو في الأوجِ مَرقَى ومَصعَدا

وروى ابن أبي الحديد أن محمد بن الحنفية كان إذا ذكر تلك الحادثة يبكي، ويقول: **لكأني أجد ريح نفسه في قفاي، والله لا أنسى ذلك أبداً.**

وقيل لمحمد: **لِمَ يغرُر بك أبوك في الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين ؟**

فقال: **إنهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه.**

كان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يقذف بمحمد في مهالك الحرب، ويكفّ حسناً وحسيناً عنها. ومن كلامه في يوم صفين: **أملكوا عنى هذين الفتيين، أخاف أن ينقطع بهما نسل رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[٢].

• **نهاية المعركة:** زحف علي عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد، ولقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والأيدي تطيح من المعاصم، وأقتاب البطن تتدلق من الأجواف، وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل، ونادى علي: **اعقروا الجمل، فإنه إن عُقر تفرقوا عنه.**

ثم قال: **اعقروه وإلا فنيت العرب.**

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١. ص ٢٤٥ - ٢٤٦. معرد : منهزم. غالب: ذرية غالب بن فهر بن مالك.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ١. ص ٢٤٤.

ولا يزال السيف قائماً وراكعاً حتى وضع الإمام سيفه على عاتقه وعطف نحوه، وأمر أصحابه بذلك، والخطام مع بني ضبَّة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتل من بني ضبة مقتلة عظيمة، وخلص علي في جماعة من النخع وهمدان إلى الجمل، فقال لرجل من النخع اسمه بجير: **دونك الجمل يا بجير.**

فضرب عَجَزَ الجمل بسيفه، فوقع لجنبه وضرب بجرانه الأرض. فلما سقط الجمل كانت الهزيمة، وفرَّت الرجال عنه كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب.

تقدم محمد بن أبي بكر ومعه عمار بن ياسر فقطعا الأنساع[١] عن الهودج واحتملاه ، وأمر الإمام عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ محمدَ بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة[٢]، فلما كان الليل أدخلها البصرة فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي وهي أعظم دار بالبصرة، ثم أمر الإمام منادياً فنادى: **ألاّ تتّبعوا مدبراً ولا تُجهزوا على جريح ولاتدخلوا الدور ولا ترزأوا سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.**

وهكذا أُسدل الستار على هذه المعركة التي خلفت وراءها من القتلى خمسة عشر ألفاً[٣]، ودخل عَلَيْهِ السَّلَامُ البصرة يوم الإثنين بعد الوقعة بثلاث، فانتهى إلى المسجد فصلى فيه ثم أتاه الناس، فخطب فيهم فكان فيما قال: **قد عفوتُ عنكم، فإياكم والفتنة، فإنكم أول الرعية نكث البيعة وشق عصا هذه الأمة.**

ثم جلس للناس فبايعوه، بما فيهم الجرحى والذين شاركوا في المعركة من معسكر الناكثين. وجهَّز الإمام علي أمَّ المؤمنين عائشة بكل شئ ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحبَّ المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وأرسل معها أخاها محمداً، وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ هـ نحو المدينة المنورة.

حرب صفين:

بعد انتهاء حرب الجمل قرر الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ التوجه نحو الكوفة لاتخاذها عاصمة له، إذ أن أوضاع المدينة المنورة لم تكن مهيئة لإدارة الحكم من خلالها، لوجود عدد من التيارات السياسية التي كانت ترى لنفسها الحق في إدارة الدولة، والتدخل في القرارات، بما قد يؤدي إلى عرقلة حركة الإصلاحات التي أراد الإمام القيام بها، علاوة على قلة الناصرين له فيها. وبوصوله إلى الكوفة قرر الإمام اتخاذ الإجراء المناسب بحق معاوية الذي استأثر بولاية الشام معلناً التمرد على الخلافة، وأراد الإمام أن يبعث إلى معاوية رسولاً فاقترح عليه جرير بن عبد الله البجلي أن يقوم هو بالمهمة لما تربطه بمعاوية من علاقة سابقة، فبعثه وقال له: **إن حولي من أصحاب رسول الله ﷺ من**

جرير بن عبد الله البجلي، وبجيلة من اليمن. أسلم وقومه في السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة. أرسله النبي في بعض المهام في اليمن. توفى في سنة ٥١هـ في قرقيسيا قرب مدينة دير الزور شرق سوريا.

(١) النسع: حبل يضفر وتشد به الرحال ، والجمع أنساع ونسوع ونسع.
(٢) أي ينصبا خيمة لأم المؤمنين.
(٣) وقيل عشرة آلاف نصفهم من جيش علي .

أهل الدين والرأي مَن قد رأيت، وقد اخترتك عليهم. ائت معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه وأعلمه أني لا أرضى به أميراً.

انطلق جرير حتى أتى الشام ودخل على معاوية فقال: **أما بعد يا معاوية، فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين وأهل الحجاز واليمن ومصر وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليمامة، ولم يبق إلا هذه الحصون التي أنت بها، لو سال عليها سيل من أوديته غرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل.**

ودفع إليه كتاب علي بن أبي طالب وفيه: **بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن بيعتي لزِمَتْك بالمدينة وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يك للشاهد أن يختار وللغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إماماً كان ذلك لله رضا، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إليَّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرَّضت له قاتلتُك واستعنتُ الله عليك. وقد أكثرتَ في قتَلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكِم القوم إليَّ أحملُك وإياهم على كتاب الله. فأما تلك التي تريدها، فخدعة الصبي عن اللبن[1]، ولعمري لئن نظرتَ بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك وإلى مَن قِبَلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الايمان والهجرة، فبايع ولا قوة إلا بالله.**

وانتهز جرير الفرصة فقام خطيباً مؤكداً على ما جاء في الرسالة، فقال معاوية: **أنظر وتنظر وأستطلع رأي أهل الشام.**

وأمر معاوية منادياً فنادى الصلاة جامعة، فصعد المنبر وقال: **الحمد لله الذي جعل الدعائم للاسلام أركاناً والشرائع للإيمان برهاناً، يتوقد قابسه في الأرض المقدسة التي جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلَّها أهل الشام ورضيهم لها ورضيها لهم لما سبق من مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقوَّام بأمره والذابِّين عن دينه وحرماته، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً وفي سبيل الخيرات أعلاماً، يردع الله بهم الناكثين ويجمع بهم أُلفة المؤمنين، والله نستعين على ما تشعَّب من أمر المسلمين بعد الالتئام وتباعد بعد القرب. اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ويخيفون آمننا ويريدون هراقة دمائنا وإخافة سبلنا، وقد يعلم الله أنَّا لم نرد بهم عقاباً ولا نهتك لهم حجاباً ولا نوطئهم زلقاً، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جاوب الصدى وسقط الندى وعرف الهدى، حملهم على خلافنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم. أيها الناس، قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأني خليفة**

(١) خدعة تصرف بها الأم ابنها عن اللبن أول فطامه، كأن تضع المر على ثديها.

عثمان بن عفان عليكم، وإني لم أقم رجلاً منكم على خزاية قط، وأني وليُّ عثمان، وقد قُتل مظلوماً، والله يقول﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[١]. وأنا أحب أن تُعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان.

فقام أهل الشام بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان وبايعوه على ذلك، وأوثقوا له على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم ويدركوا ثأره أو يفني الله أرواحهم. وفي الغد قدم جرير على معاوية يستحثه بالبيعة، فقال: **يا جرير، إنها ليست بخلسة وإنه أمرٌ له ما بعدَه، فأبلِغني ريقي حتى انظر.**

طلب معاوية عمرو بن العاص ودعا ثقاته، فقال له عتبة بن أبي سفيان: **استعن على هذا الأمر بعمرو بن العاص، وأثمِن له بدينه، فإنه مَن قد عرفت، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته، وهو لأمرِك أشدُّ اعتزالاً، إلا أن يرى فرصة.**

فكتب معاوية إلى عمرو وهو بفلسطين، كان ذهب إليها لما حوصر عثمان، وكان له منزل بها: **أما بعد، فإنه كان من أمرِ علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني. أقبِل أذاكرُك أمراً.**

فاستشار عمرو ابنيه عبد الله ومحمداً، فقال عبد الله: **قُتل عثمان وأنت عنه غائب، فَقِرْ في منزلك فلستَ مجعولاً خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشك أن تهلك فتشقى فيها.**

وقال محمد: **إنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وإنْ تصرَّم هذا الأمر وأنت فيه خاملٌ تصاغَر أمرُك**[٢]**، فالحقْ بجماعة أهل الشام فكن يداً من أيديها واطلب بدم عثمان.**

فقال عمرو: **أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خيرٌ لي في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خيرٌ لي في دنياي، وأنا ناظر فيه.**

قرر عمرو المسير إلى معاوية، فقدِم عليه ونال منه وعداً بمُلْك مصر، فبدأ على أثر ذلك يخطط لمواجهة الإمام من خلال جمع الأنصار وتأليب الناس وتحميل الإمام مسئولية قتل الخليفة عثمان.

وفي أثناء تلك الجهود دخل معاوية على جرير في منزله واقترح عليه أن يكتب إلى علي عليه السلام أن يجعل له الشام ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي، وسيسلِّم له هذا الأمر ويقرُّ له بالخلافة.

وافق جرير فكتب، وجاءه الرد من الإمام: **أما بعد فإنما أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب، وأراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام**[٣]**. وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليَّ أن أستعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة، فأبيتُ ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عَضُداً. فإن بايعك الرجل وإلا فأقبِل.**

---

(١) سورة الإسراء: ٣٣.

(٢) أي إن انتهى هذا الأمر دون أن تشارك فيه، فسيقل شأنك ومقامك عند الناس.

(٣) أي يستمزج آراءهم.

فلما بايع معاوية أهل الشام وعرف مزاجهم قال: **يا جرير، الحق بصاحبك.**

وكتب إلى الإمام بالحرب. وجرت بينهما مراسلات انتهت دون أن تثني أحداً منهما عن عزمه، ومن بينها المراسلة التالية: كتب معاوية بن أبي سفيان كتاباً إلى الإمام علي عليه السلام، هذا نصه: **من معاوية بن أبي سفيان، إلى علي بن أبي طالب: أما بعد، فإنّا . بني عبد مناف . لم نزل ننزع من قليب واحد، ونجري في حلبة واحدة، ليس لبعضنا على بعض فضل، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر، كلمتنا مؤتلفة وألفتنا جامعة، ودارنا واحدة، يجمعنا كرم العِرق، ويحوينا شرف النجار[1]، ويحنو قوينا على ضعيفنا، ويواسي غنينا فقيرنا، قد خلصت قلوبنا من وغل الحسد، وطهرت أنفسنا من خبث النية. فلم نزل كذلك حتى كان منك ما كان من الادّهان في أمر ابن عمك[2]، والحسد له، ونصرة الناس عليه، حتى قُتل بمشهد منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يد. فليتك أظهرتَ نَصْره حيث أسررت خبره، فكنتَ كالمتعلق بين الناس بعذر وإن ضعف، والمتبرئ من دمه بدفع وإن وهن. ولكنك جلستَ في دارك تدسُّ إليه الدواهي، وتُرسل إليه الأفاعي، حتى إذا قضيتَ وطَرك منه، أظهرت شماتة وأبديت طلاقة، وحسرت للأمر عن ساعدك، وشمَّرت عن ساقك، ودعوت الناس إلى نفسك، وأكرهتَ أعيان المسلمين على بيعتك، ثم كان منك بعد ما كان، من قتلك شيخي المسلمين أبى محمد طلحة وأبى عبد الله الزبير، وهما من الموعودين بالجنة، والمبشّر قاتل أحدهما بالنار في الآخرة، هذا إلى تشريدك بأم المؤمنين عائشة وإحلالها محل الهون، متبذلة بين أيدي الأعراب وفسقة أهل الكوفة، فمن بين مشهِّر لها، وبين شامت بها، وبين ساخر منها. ترى ابنَ عمك كان بهذه لو رآه راضياً ؟ أم كان يكون عليك ساخطاً ولك عنه زاجراً ؟! أن تؤذي أهله وتشرِّد بحليلته، وتسفك دماء أهل ملته. ثم تركُكَ دار الهجرة التي قال رسول الله صلى الله عليه وآله عنها: «إن المدينة لتنفي خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد». فلعمري لقد صحَّ وعدُه وصدق قولُه، ولقد نفت خبثها، وطردت عنها من ليس بأهلٍ أن يستوطنها، فأقمتَ بين المِصرين، وبعُدتَ عن بَركة الحرمين، ورضيت بالكوفة بدلاً من المدينة وبمجاورة الخورنق والحيرة عوضاً من مجاورة خاتم النبوة. ومن قبل ذلك ما عبت خليفتي رسول الله صلى الله عليه وآله أيام حياتهما، فقعدت عنهما وألّبت عليهما، وامتنعت من بيعتهما، ورُمْتَ أمراً لم يرك الله تبارك وتعالى له أهلاً، ورقيت سلَّماً وعراً، وحاولت مقاماً دحضاً، وادّعيت ما لم تجد عليه ناصراً، ولعمري لو وليتها حينئذ لما ازدادت إلا فساداً واضطراباً، ولا أعقبت ولايتكها إلا انتشاراً وارتداداً، لأنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيل على الناس بلسانه ويده. وها أنا سائر إليك في جمع من المهاجرين والأنصار، تحفّهم سيوف شامية، ورماح قحطانية، حتى يحاكموك إلى الله. فانظر لنفسك وللمسلمين، وادفع إليَّ قتلة عثمان، فإنهم خاصتك وخلصاؤك والمحدقون بك، فإن أبَيْتَ إلا سلوك سبيل اللجاج، والإصرار على الغي والضلال، فاعلم أن هذه الآية إنما نزلت فيك وفي أهل العراق معك ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[3].**

---

(١) النجار: الأصل والحسب.

(٢) أي الخليفة عثمان بن عفان.

(٣) سورة النحل: ١١٢. ومصدر الرسالة : ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج ١٧ . ص ٢٥١ – ٢٥٣.

وكتب الإمام علي عليه السلام رداً على هذا الكتاب، أكّد فيه أنّ ليس من حق معاوية التطرق إلى مثل هذه الأمور والحديث عنها وهو من الطلقاء، وهذا نصه: **أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلاَّ كَرْهاً، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الإِسْلاَمِ**[1] **كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله حرباً. وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ! وَذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ، فَلاَ عَلَيْكَ، وَلاَ الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ**[2]**. وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ**[3]**، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ! وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ:**

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ ... بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدِيَ السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّكَ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ الأَغْلَفُ الْقَلْبِ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ، وَالأَوْلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ: إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لاَ لَكَ، لأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلاَ فِي مَعْدِنِهِ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ!! وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ، وَتَمَنِّي الْبَاطِلِ، عَلَى الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً، بِوَقْعِ سُيُوفٍ مَا خَلاَ مِنْهَا الْوَغَى، وَلَمْ تُمَاشِهَا الْهُوَيْنَى. وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ، فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ. وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ، وَالسَّلاَمُ لأَهْلِهِ)[4].

• **المسير نحو صفين:** قرر الإمام المسير للقاء القوم، فدعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار، وكان معه من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً، منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان تسعمائة، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة.

فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: **أما بعد، فإنكم ميامين الرأي مراجيح الحلم مقاويل بالحق مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم.**

فقام بعض أنصاره فخطبوا وأحسنوا الكلام وأظهروا بصيرتهم في الأمر، وأعلنوا استعدادهم للتضحية في سبيل نصرة إمامهم، فكان منهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وسهل بن حنيف الأنصاري، وكلهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) كان أنف الإسلام كله لرسول الله : أي في أول الاسلام ، يقال : كان ذلك في أنف دولة بنى فلان ، أي في أولها.

(٢) أجابه عن قوله «قتلت طلحة والزبير ، وشردت بعائشة ، ونزلت بين المصرين» بكلام مختصر أعرض فيه عنه هواناً به ، فقال هذا أمر غبت عنه، فليس عليك كان العدوان الذي تزعم ، ولا العذر إليك لو وجب علي العذر عنه .

(٣) تعريضاً بيزيد بن أبي سفيان الذي أسر يوم فتح مكة بباب الخندمة ، وكان خرج في نفر من قريش يحاربون ويمنعون من دخول مكة فقتل منهم قوم وأسر يزيد بن أبي سفيان ، أسره خالد بن الوليد ، فخلصه أبو سفيان منه ، وأدخله داره ، فآمن لأن رسول الله قال يومئذ : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». والإمام يقصد بكلامه أن من معك ليسوا من المهاجرين ، بل من الطلقاء ، وقد قال النبي : «لا هجرة بعد الفتح» .

(٤) الرضي : نهج البلاغة ـ الكتاب ٦٤ ـ

ثم انقسم أهل الكوفة بين مؤيد ومعارض حتى استتب الأمر بعد إصرار أنصار الإمام على قطع دابر أهل الشام، والحجج التي ساقوها لتأييد موقفه، وكتب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عماله في الآفاق يأمرهم بالمسير إليه، وحث الناس على الجهاد معه، ثم عسكر بالنخيلة[١]، ولم يبرحها حتى قدم عليه ابن عباس بأهل البصرة.

تحرك الإمام من النخيلة لخمس مضين من شوال يوم الأربعاء سنة ٣٦ هـ ، حتى إذا وصل إلى الرقة شمال الشام، ونهر الفرات على ضفّتها قال لأهلها: **أجسِروا لي جسراً لكي أعبر من هذا المكان إلى الشام.**

فأبوا، وقد كانوا ضمّوا السفن عندهم، فنهض ليعبر على جسر منبج، وخلّف عليهم الأشتر فناداهم: **إني أقسم بالله، لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجرّدنّ فيكم السيف، ولأقتلنّ مقاتلتكم، ولأخربنّ أرضكم ولآخذنّ أموالكم.**

فلقي بعضهم بعضاً فقالوا: **إن الأشتر يفي بما يقول، وإن علياً خلَّفه علينا ليأتينا منه الشر.**

فبعثوا إليه: **إنا ناصبون لكم جسراً فأقبِلوا.**

فأرسل الأشتر إلى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاء وعبر، وعبرت القوات معه.

• **النزاع على الماء:** لما وصل الإمام إلى موقع المعركة، طلب موضعاً لمعسكره، وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم، ولكنهم وجدوا أبا الأعور السلمي صاحب مقدّمة جيش معاوية قد سبق إلى سهول الأرض وسعة المنزل وشريعة الماء، فأتاه الأشتر صاحب مقدمة جيش علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في أربعة آلاف فأزالوا أبا الأعور عن معسكره، فأقبل معاوية في جميع الفيلق، فلما رأى ذلك الأشتر انحاز إلى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وغلب معاوية على الماء وحال بين معسكر علي وبينه. ذهب بعضٌ من معسكر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وغلمانهم يستقون، فمُنعوا من قبل معسكر معاوية، وفزعوا إلى أمير المؤمنين علي فأخبروه، فدعا صعصعة بن صوحان فقال: **ائت معاوية فقل: إنا سِرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قد قدِمت بخيلك تقاتلنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال ونحن مِن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتجّ عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها حُلتم بين الناس وبين الماء، فخلّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم، وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعَلْنا.**

استشار معاوية بعض أنصاره، فأشاروا عليه بالاستمرار في المنع، وعارضهم عمرو بن العاص فقال: **خلّ بينهم وبين الماء، فإنّ علياً لم يكن ليظمأ وأنت ريان وفي يده أعنَّة الخيل وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت، وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز، وقد سمعته أنا وأنت وهو يقول: لو استمكنت من أربعين رجلاً، فذكَر أمراً**[٢].

فرح أهل الشام بالغلبة على الماء، فقال معاوية: **يا أهل الشام هذا والله الظفر، لاسقاني الله ولا سقى أبا سفيان**

---

(١) النخيلة موضع شمال الكوفة يعرف باسم الكفل، وبه مسجد النخيلة. كان معسكراً لتجمع القوات.

(٢) لعله يقصد الأربعين الذين أراد الاستعانة بهم على أثر مجريات أحداث سقيفة بني ساعدة بعد وفاة النبي .

إن شربوا منه أبداً حتى يُقتلوا بأجمعهم عليه.

بقي أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يوماً وليلة بغير ماء، واغتمّوا لذلك، فخرج نحو رايات مذحج وإذا رجل ينادي:

أيَمنَعُنا القَومُ ماءَ الفُرات	وفينا السُّيوفُ وفينا الحُجُف
وفِينا عَليٌّ لَهُ صَولةٌ	إذا خَوّفوهُ الرَّدَى لَم يَخَف
فنحنُ الذينَ غَداةَ الزُّبَير	وَطلحةَ خُضنا غِمارَ التَّلَف
فمَا بَالُنا أمس أُسْدُ العَرين	ومَا بَالُنا اليومَ شَاءَ النّجف
فإمَّا تَحُلّوا بِشَطّ الفُرات	ومِنّا ومِنهم عَليهِ الجِيَف
وإمّا تَمُوتوا عَلى طَاعَة	تَحلّ الجِنانُ وتُحبّوا الشّرف

نهض مالك الأشتر مستأذناً الإمام للقتال طلباً للماء، فأذن له، فنادى مالك في الناس: **من كان يريد الموت أو الماء فميعاده الصبح، فإني ناهض إلى الماء.**

فأتاه من ليلته إثنا عشر ألف رجل، فلما أصبح وقع القتال بين الطرفين، وكان للأشتر الدور الأبرز حتى قهر عسكر الشام، وولوا هاربين، وأقحم مالك وجنده الخيل حتى وضعت سنابكها في الفرات. قال المؤرخون: **فلما غلب علي على الماء، بعث إلى معاوية: إنّا لا نكافيك بصُنعك، هلمَّ إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء.**

فأخذ كل منهما بالشريعة مما يليه، وقال علي لأصحابه: **إن الخَطْب أعظم من منع الماء.**

وقال معاوية: **لله درّ عمرو، ما عصيتُه في أمر إلا أخطأتُ الرأيَ فيه.**

- **في أجواء حرب صفين:** مكث الإمام أياماً لا يرسل إلى معاوية، ولا يأتيه من عند معاوية أحد، واستبطأ أنصار الإمام الإذن في القتال.

فصاروا يتشكّون من التأخر في القتال والملل من الانتظار وإبداء الحماسة للقال وقالوا: **يا أمير المؤمنين، خلّفنا ذرارينا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لنتخذها وطناً ! ائذن لنا في القتال، فإن الناس قد قالوا.**

قال لهم عليه السلام: **ما قالوا؟**

فقال منهم قائل: **إن الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهيةً للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شك من قتال أهل الشام**[١].

فقال عليه السلام: **ومتى كنت كارهاً للحرب قط؟! إن من العجب حبّي لها غلاماً ويفعاً**[٢]**، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاد العمر وقرب الوقت! وأما شكّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة، والله لقد ضربتُ**

(١) أي أنك غير متيقن من شرعية قتالك لمعاوية.
(٢) يافع: شاب.

هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلا القتال أو أن أعصي الله ورسوله، ولكني أستأني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله ﷺ قال لي يوم خيبر: لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس[١].

وقال عليه السلام: **أمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذلكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَاللهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَى المَوْتِ أَوْ خَرَجَ المَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي**[٢]**، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا**[٣].

• **الإمام يدعو إلى المبارزة:** ثم جرت قبيل المعركة وأثناءها مكاتبات عديدة بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية ابن أبي سفيان، ذكَرها إجمالاً نصر بن مزاحم المنقري في كتابه صفين، وسطّر بعضها الشريف الرضي في نهج البلاغة.

وقد أشار ابن أبي الحديد إلى أن الشريف الرضي لربما ضم كتاباً إلى آخر ـ وهذه عادته ـ لأن غرضه التقاط الفصيح والبليغ من كلامه. ومن هذه الكتب: **وكيف أنت صانعٌ إذا تكشّفَت عنك جلابيبُ ما أنت فيه من دنيا قد تبهّجت بزينتها، وخدعت بلذتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرَتْك فأطعتها ؟ وإنه يوشك أن يقفك**

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٤. ص ١٣ – ١٤.

(٢) تعشو إلى ضوئي: تستدل إلى هدايتي ببصر ضعيف ، في إشارة إلى أن بصائر أهل الشام ضعيفة ، لا يرون الحق بوضوح .

(٣) الرضي : نهج البلاغة. الخطبة ٥٥. ص ٩١ . تبوء: ترجع.

واقفٌ على ما لا ينجيك منه منج. فاقعس عن هذا الأمر[١]، وخذ أهبة الحساب، وشمّر لما قد نزل بك[٢]، ولا تمكّن الغواة من سمعك[٣]، وإلا تفعل أُعلمك ما أغفلت من نفسك، فإنك مترفٌ قد أخذ الشيطان منك مأخذه[٤]، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم. ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية، وولاه أمر الأمة، بغير قدم سابق، ولا شرف باسق[٥]، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء. وأحذرك أن تكون متمادياً في غرّة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة. وقد دعوتَ إلى الحرب فدع الناس جانباً، واخرج إليَّ، واعف الفريقين من القتال، لتعلم أيّنا المرين على قلبه[٦]، والمغطَّى على بصره ! فأنا أبو حسن، قاتل جدك وأخيك وخالك شدخاً يوم بدر[٧]، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي، ما استبدلت ديناً، ولا استحدثت نبياً، وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين، ودخلتم فيه مكرَهين. وزعمتَ أنك جئت ثائراً بدم عثمان! ولقد علمتَ حيث وقع دم عثمان، فاطلبه من هناك إن كنت طالباً، فكأني قد رأيتك تضج من الحرب إذا عضتك ضجيج الجمال بالأثقال، وكأني بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع، والقضاء الواقع، ومَصارع بعد مَصارع، إلى كتاب الله، وهي كافرة جاحدة، أو مبايعة حائدة.

قال ابن أبي الحديد: وقوله: **قد علمت حيث وقع دم عثمان فاطلبه من هناك**، يريد به إن كنت تطلب ثأرك من عند مَن أجلب وحاصر... فاطلب ثأرك من بني تيم ومن بني أسد بن عبد العزى، وإن كنت تطلبه ممن خذل، فاطلبه من نفسك فإنك خذلته، وكنتَ قادراً على أن ترفده وتمدّه بالرجال، فخذلته وقعدت عنه بعد أن استنجدك واستغاث بك....

واعلم أن قوله: **وكأني بجماعتك يدعونني جزعاً** من السيف إلى كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إما أن يكون فراسة نبوية صادقة، وهذا عظيم، وإما أن يكون إخباراً عن غيب مفصل، وهو أعظم وأعجب. وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجب.

وقد رأيت له ذكر هذا المعنى في كتاب غير هذا، وهو: **أما بعد، فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلمني بمنزلتك التي أنت إليها صائر، ونحوها سائر، وليس إبطائي عنك إلا لوقت أنا به مصدق ، وأنت به مكذب ، وكأني أراك وأنت تضج من الحرب، وإخوانك يدعونني خوفاً من السيف إلى كتاب هم به كافرون، وله جاحدون....**

ووقفتُ له عَلَيْهِ السَّلَامُ على كتاب آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوله: ... **فأنا ابن عبد المطلب صاحب السيف، وإن قائمه لفي يدي، وقد علمتَ من قتلتُ به من صناديد بني عبد شمس، وفراعنة بني سهم وجمح وبني**

---

(١) اقعس عن هذا الأمر: تأخر عنه.

(٢) شمر لما قد نزل بك: جد واجتهد وخف ، ومنه رجل شمري بفتح الشين وتكسر.

(٣) الغواة ، جمع غاو : الضال.

(٤) المترف : الذي قد أترفته النعمة أي أطغته . وأخذ الشيطان منك مأخذه: تناول الشيطان منك عقلك.

(٥) بغير قدم سابق: سابقة وأثرة حسنة . ولا شرف باسق: عال.

(٦) الرين : الصدأ . وإنما قال الإمام ذلك لأن معاوية كان قد كتب للإمام كتاباً جاء فيه : فإنك المطبوع على قلبك ، المغطى على بصرك ، الشر من شيمتك ، والعتو من خليقتك ، فشمر للحرب ، واصبر للضرب فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت ، والعاقبة للمتقين !

(٧) الشدخ: كسر الشئ الأجوف . وهؤلاء الثلاثة هم : حنظلة بن أبي سفيان ، والوليد بن عتبة ، وأبوه عتبة ابن ربيعة ، فحنظلة أخوه ، والوليد خاله، وعتبة جده .

مخزوم، وأيتمت أبناءهم، وأيّمت نساءهم[١]، وأذكّرك ما لست له ناسياً، يوم قتلتُ أخاك حنظلة، وجررت برجله إلى القليب، وأسرتُ أخاك عَمْراً، فجعلت عنقه بين ساقيه رباطاً، وطلبتُك ففررتَ ولك حصاص[٢]، فلولا أني لا أتبع فارّاً، لجعلتك ثالثهما. وأنا أولي لك بالله ألية بَرَّة غير فاجرة[٣]، لئن جمعتني وإياك جوامع الأقدار، لأتركنك مثَلاً يتمثل به الناس أبداً، ولأجعجعن بك في مناخك حتى يحكم الله بيني وبينك، وهو خير الحاكمين.

ولئن أنسأ الله في أجلي[٤] قليلاً، لأغزينّك سرايا المسلمين، ولأنهدن إليك في جحفل من المهاجرين والأنصار، ثم لا أقبل لك معذرة ولا شفاعة، ولا أجيبك إلى طلب وسؤال، ولترجعن إلى تحيّرك وترددك وتلددك[٥]، فقد شاهدت وأبصرت ورأيت سحب الموت كيف هطلت عليك بصيبها[٦]، حتى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أول من كفر وكذب بنزوله.

ولقد كنت تفرّستها، وآذنتك أنك فاعلها، وقد مضى منها ما مضى، وانقضى من كيدك فيها ما انقضى، وأنا سائر نحوك على أثر هذا الكتاب، فاختر لنفسك، وانظر لها، وتداركها فإنك إن فطرت واستمررت على غيِّك وغلوائك حتى ينهد إليك عباد الله[٧]، ارتجّت عليك الأمور، ومُنعت أمراً هو اليوم منك مقبول.

يا بن حرب، إن لجاجك في منازعة الأمر أهله من سفاه الرأي، فلا يطمعنَّك أهل الضلال، ولا يوبقنَّك سفه رأي الجهال، فوالذي نفس عليٍّ بيده لئن برقت في وجهك بارقة من ذي الفقار لتصعقنَّ صعقة لا تفيق منها حتى ينفخ في الصور النفخة التي يئسْتَ منها ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[٨].

وهل استجاب معاوية لطلب الإمام بالمبارزة في صفين ؟

قال نصر بن مزاحم: ثم قام علي بين الصفَّين ثم نادى: **يا معاوية !** ـ يكررها ـ

فقال معاوية: **اسألوه، ما شأنه ؟**

قال: **أحبُّ أن يظهر لي فأكلمُه كلمة واحدة.**

فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قارباه لم يلتفت إلى عمرو، وقال لمعاوية: **ويحك، علام يقتتل الناس بيني وبينك، ويضرب بعضهم بعضاً؟! ابرز إليّ فأيّنا قتل صاحبه فالأمر له.**

---

(١) أيمت نساءهم: تركتهن بلا أزواج.

(٢) الحصاص : شدة العدو والركض.

(٣) أولي: أُقسم.

(٤) أنسأ الله في أجلي: أخره.

(٥) تلدد: تلفت يميناً ويساراً تحيراً.

(٦) الصيّب: المطر المنصب.

(٧) الغلواء الكبر.

(٨) سورة الممتحنة: ١٣ . والمصدر: ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١٥ ـ ص ٧٩ – ٩١.

فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: **ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا، أبارزه ؟**

فقال عمرو: **لقد أنصفك الرجل، واعلم أنه إن نكَلْتَ عنه لم تزل سُبَّة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي.**

فقال معاوية: **يا عمرو بن العاص، ليس مثلي يُخدع عن نفسه. والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه.**

ثم انصرف راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه، فلما رأى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك ضحك وعاد إلى موقفه[١].

• **شوق الإمام لقتال العدو:** روى نصر بن مزاحم في كتابه أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ خطب في قواته يوم صفين حين بدأ الزحف على الأعداء فقال وهو يحث أصحابه على القتال: **إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد دلكم على تجارة تنجيكم من العذاب، وتشفي بكم على الخير: إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيله. وجعل ثوابه مغفرة الذنوب، ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر، فأخبَركم بالذي يحب فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٢]، فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص[٣]، فقدِّموا الدارع، وأخِّروا الحاسر[٤]، وعضّوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام[٥]. والتووا في أطراف الرماح، فإنه أمْوَر للأسنّة[٦]، وغُضّوا الأبصار، فإنه أربط للجأش، وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات، فإنه أطرد للفشل[٧]. ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، والمانعين الذّمَار منكم[٨]، فإن الصابرين على نزول الحقائق هم الذين يحفون برياتهم[٩]، ويكتنفونها حفافيها[١٠]، ووراءها وأمامها، لا يتأخرون عنها فيسلموها، ولا يتقدمون عليها فيفردوها[١١]. أجزأ امرؤ قِرنه[١٢]، وآسى أخاه بنفسه[١٣]، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه[١٤]. وأيم الله، لئن فررتم من سيف العاجلة، لا تسلموا من سيف الآخرة.**

---

(١) نصر بن مزاحم : وقعة صفين. ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

(٢) ذكر الرضي في نهج البلاغة جانباً من هذه الخطبة مع اختلاف يسير ، وقد اخترت لفظه ابتداءً من المقطع التالي .

(٣) سورة الصف: ٤.

(٤) الدارع : لابس الدرع . والحاسر : الذي لا درع عليه و لا مغفر . أمرهم بتقديم الدارع على غيره لأن شدة الحرب تلقى وتصادف الأول فالأول فواجب أن يكون أول القوم دارعاً .

(٥) نبا السيف: لم يقطع . قيل أن هذا التعبير على نحو الحقيقة ، باعتبار أن العض على الأضراس يصلّب الأعصاب والعضلات المتصلة بالدماغ . وقيل أنه على نحو المجاز فالإمام يأمر بتسكين القلب وعدم الاضطراب ، لكي لا يتعرض المقاتل إلى إصابة .

(٦) أمور: يتحرك عن موضع الطعنة فيخرق وينفذ في جسم الخصم .

(٧) الفشل: الجبن والخوف . وأمرهم بالصمت لأن الجبان يرعد ويبرق ، والشجاع صامت .

(٨) الذمار: ما وراء الرجل مما يحق عليه أن يحميه.

(٩) الحقائق ، جمع حاقة : الأمر الصعب الشديد ، ومنه قول الله: ﴿الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ﴾.

(١٠) يكتنفونها: يحيطون بها . وحفافيها : جانباها.

(١١) يفردوها: يتركوها لوحدها.

(١٢) فليقاتل كل منكم كفؤه فيقتله.

(١٣) أي جعله أسوة نفسه.

(١٤) لم يترك خصمه إلى أخيه ، فيجتمع على أخيه خصمان فيقتلانه ، ثم يتوجهان إليه فيغلبانه.

وأنتم لهاميم العرب[١]، والسنام الأعظم[٢]، إن في الفرار موجدة الله[٣]، والذل اللازم، والعار الباقي. وإن الفار لَغيرَ مزيدٍ في عُمره، ولا محجوز بينه وبين يومه.

مَن رائحٌ إلى الله كالظمآن يرد الماء ؟ الجنة تحت أطراف العوالي[٤]، اليوم تُبلى الأخبار[٥]. والله لأنا أشوق إلى لقائهم منهم إلى ديارهم[٦].

اللهم فإن ردّوا الحق فافضض جماعتهم، وشتّت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم[٧]، إنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك، يخرج منه النسيم[٨]، وضرب يفلق الهام[٩]، ويطيح العظام، ويندر السواعد والأقدام[١٠]، وحتى يرموا بالمناسر تتبعها المناسر[١١]، ويرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب[١٢]، وحتى يجر ببلادهم الخميس يتلوه الخميس[١٣]، وحتى تدعق الخيول في نواحر أرضهم[١٤]، وبأعنان مساربهم[١٥] ومسارحهم[١٦].

ثم إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ عقد الألوية وأمّر الأمراء وكتّب الكتائب، وكانت علامة أنصار الإمام بصِفِّين الصوف الأبيض قد جعلوه في رؤوسهم وعلى أكتافهم، وشعارهم: يا الله يا أحد يا صمد يا رب محمد يا رحمن يا رحيم، وكانت علامة عسكر معاوية خرقاً بيضاً قد جعلوها على رؤوسهم وأكتافهم وكان شعارهم: نحن عباد الله حقاً حقاً، يالثارات عثمان. وكانت رايات أنصار الإمام سوداً وحمراً ودكناً وبيضاً ومعصفرة وصفراً ومورّدة، والألوية مضروبة دكن وسود.

• **بدء المعركة:** بدأ القتال يوم الأربعاء أول يوم من صفر سنة ٣٧ هـ، وعلى مَن خرج من معسكر الإمام مالكاً الأشتر، وعلى عسكر معاوية حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا قتالاً شديداً جل النهار، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض.

---

(١) اللهاميم ، جمع لهموم: السادات الأجواد من الناس.

(٢) السنام الأعظم كناية عن أنهم أهل الشرف ومعالي الأمور ، لأن السنام أعلى أعضاء البعير.

(٣) موجدة: غضب وسخط.

(٤) العوالي: السيوف.

(٥) تبلى: تختبر ، فتنكشف حقائق الأمور وأحوال الناس.

(٦) أي أشوق منهم إلى ديارهم.

(٧) أبسلت فلاناً: أسلمته إلى الهلكة.

(٨) دراك: متتابع . يخرج منه النسيم لسعة الجرح وعظمه.

(٩) يفلق: يشق . الهام: الرأس.

(١٠) يندر: يسقط.

(١١) مناسر ، جمع منسِر: فرقة تكون في مقدمة الجيش.

(١٢) الحلائب : الأنصار.

(١٣) الخميس: الجيش.

(١٤) تدعق: تدق . نواحر أرضهم: الأرض المتقابلة.

(١٥) أعنان: جوانب . المسارح والمسارب: الأرض التي يتواجدون فيها.

(١٦) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ـ ص ٢٣٥ – ٢٣٦ . والرضي : نهج البلاغة ـ الخطبة ١٢٤ ـ

ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجَّالة، وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، ثم انصرفوا وقد صمد القوم بعضهم لبعض.

وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر وخرج عمرو بن العاص فاقتتل الناس كأشد القتال، وجعل عمار يقول: **يا أهل الاسلام، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين، فلما أراد الله أن يُظهر دينه وينصر رسوله أتى النبي ﷺ فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقَبض اللهُ رسولَه ﷺ، وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم ؟ ألا وإنه معاوية.**

وشد عمار في الرجّالة فأزال عمرو بن العاص عن موقفه، ورجع الناس يومهم ذاك، فلما كان من الغد خرج محمد بن علي بن أبي طالب، خرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمين فاقتتلوا كأشد القتال، ثم إن عبيدالله بن عمر أرسل إلى محمد بن الحنفية أن اخرج إليَّ أبارزك، ثم خرج إليه يمشي، فبصر به علي فقال: **من هذان المتبارزان ؟**

فقيل له: **ابن الحنفية وابن عمر.**

فحرَّك علي دابته ثم دعا محمداً فوقف له وقال: **أمسك دابتي.**

فأمسكها ثم مشى إليه علي فقال: **أنا أبارزك.**

قال: **ليس لي في مبارزتك حاجة.**

وأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه: **منعتني من مبارزته، لو تركتني لرجوت أن أقتله.**

قال: **يا بني، لو بارزتُه أنا لقتلته، ولو بارزتَه أنت لرجوت أن تقتله، وما كنت آمن أن يقتلك.**

فلما كان اليوم الخامس خرج عبد الله بن العباس والوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودنا ابن عباس من الوليد فأخذ الوليد يسب بني عبد المطلب، فأرسل إليه ابن عباس أن ابرز إلي، فأبى. وقاتل ابن عباس يومئذ قتالاً شديداً، ثم انصرفوا عند الظهر، وكلٌّ غير غالب وذلك يوم الأحد.

ثم قام الإمام في الناس عشية الثلاثاء ليلة الأربعاء بعد العصر فخطبهم، وقال في آخر خطبته: **ألا إنكم لاقو العدو غداً إن شاء الله، فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن واسألوا الصبر والنصر، والقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين.**

ثم انصرف ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها، فلما كان الليل خرج علي فعبّأ الناس ليلته كلها حتى أصبح، فزحف بالناس وخرج إليه معاوية وأهل الشام فاقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كله وانصرفوا عند المساء، وكلٌّ غير غالب. فلما كان غداة الخميس خرج الإمام بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم، فإذا رأوه وقد زحف استقبلوه بزحوفهم، فدعا بدعاء قال في آخره: **إن أظهرتنا على عدونا فجنّبنا البغي، وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصم بقية أصحابي من الفتنة.**

بدأ القتال، وجعل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يحرِّض أصحابه ويوصيهم وصايا مهمة في الحرب، ثم قال: **من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم فيدعوهم إلى ما فيه ؟**

فأقبل فتى اسمه سعيد بن قيس فقال: **أنا صاحبه.**

ثم أعادها، فسكت الناس وقال الفتى: **أنا صاحبه.**

فقال: **دونك.**

وأتى معسكر معاوية فقرأه عليهم ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه!

وروى نصر بن مزاحم في حديثه عن هذا اليوم عن زيد بن وهب، قال: لقد مرّ علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يومئذ ومعه بنوه نحو الميسرة ومعه ربيعة وحدها، وإني لأرى النبل يمرّ بين عاتقه ومنكبيه، وما من بنيه إلا من يقيه بنفسه، فيكره علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك، فيتقدم عليه، ويحول بينه وبين أهل الشام ويأخذه بيده إذا فعل ذلك، فيلقيه من ورائه.

ويُبصر به أحمر مولى بنى أمية، وكان شجاعاً، وقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **ورب الكعبة، قتلني الله إن لم أقتلك !**

فأقبل نحوه، فخرج إليه كيسان مولى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاختلفا ضربتين[١]، فقتله أحمر، وخالط علياً ليضربه بالسيف، وينتهزه علي فتقع يده في جيب درعه[٢]، فجذبه عن فرسه فحمله على عاتقه، فوالله لكأني أنظر إلى رِجلي أحمر تختلفان على عنق علي[٣]، ثم ضرب به الأرض، فكسر منكبه وعضديه.

وشدّ ابنا علي، حسين ومحمد، فضرباه بأسيافهما حتى برد[٤]، فكأني أنظر إلى علي قائماً، وشبلاه يضربان الرجُل حتى إذا أتيا عليه[٥]، أقبلا على أبيهما والحسن قائم معه، فقال له علي: **يا بنى، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك ؟**

فقال: **كفياني يا أمير المؤمنين.**

قال: ثم إن أهل الشام دنوا منه يريدونه، والله ما يزيده قربهم منه ودنوّهم إليه سرعة في مشيته، فقال له الحسن: **ما ضرّك لو أسرعت حتى تنتهي إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك ؟**

قال: ــ يعنى ربيعة الميسرة ــ فقال علي: **يا بني، إن لأبيك يوماً لن يعدوه ولا يبطئ به عند السعي، ولا يقربه إليه الوقوف. إن أباك لا يُبالي، إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه**[٦].

وفي كتاب الأخبار الطوال للدينوري: كان فارس معاوية الذي يبتهي به حريثٌ مولاه[٧]، وكان يلبس بَزَّة معاوية،

---

(١) اختلفا: تبادلا.

(٢) ينتهز : يبادر.

(٣) تختلفان: تترددان.

(٤) برد: قطع.

(٥) أتيا عليه: أجهزا عليه.

(٦) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٥. ص ١٩٨ – ١٩٩.

(٧) ابتهيت به : أنست به وأحببت قربه.

ويستلئم سلاحه، ويركب فرسه، ويحمل متشبهاً بمعاوية، فإذا حمل قال الناس: **هذا معاوية.**

وقد كان معاوية نهاه عن علي، وقال: **اجتنبه، وضع رمحك حيث شئت.**

فخلا به عمرو، وقال: **ما يمنعك من مبارزة علي، وأنت له كفء ؟**

قال: **نهاني مولاي عنه.**

قال: **وإني والله لأرجو إن بارزته أن تقتله، فتذهب بشرف ذلك.**

فلم يزل يزيِّن له ذلك حتى وقع في قلب حريث. فلما أصبحوا خرج حريث حتى قام بين الصفين، وقال: **يا أبا الحسن، ابرز إلي ! أنا حريث.**

فخرج إليه علي عليه السلام فضربه، فقتله[1].

وروى صعصعة بن صوحان: إن علي بن أبي طالب صاف أهل الشام، حتى برز رجل من حمير من آل ذي يزن، اسمه كريب بن الصباح، ليس في أهل الشام يومئذ رجل أشهر شدة بالبأس منه، ثم نادى: **من يبارز؟**

فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي، فقتل المرتفع. ثم نادى: **من يبارز ؟**

فبرز إليه الحارث بن الجلاح، فقتل. ثم نادى: **من يبارز ؟**

الصحابي صعصعة بن صوحان العبدي، نسبة إلى بني عبدالقيس. ولد في (دارين) قرب القطيف سنة ٢٤ قبل الهجرة، وتميز بفصاحته في الكلام وبلاغة لسانه وخطابته. كان والده صعصعة سيداً مطاعاً في قومه، وروي عن أم المؤمنين عائشة قولها فيه أنه كان رأسا في الجاهلية وسيداً في الإسلام. ولصعصعة إخوان وهما: زيد وسيحان، استشهدا في معركة الجمل، أما صعصعة فقد نفاه معاوية إلى جزيرة (أوال: البحرين حالياً) وفيها توفي سنة ٦٠ هـ.

فبرز إليه عائذ بن مسروق الهمداني، فقتل عائذاً. ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض، ثم قام عليها بغياً واعتداء. ثم نادى: **هل بقي من مبارز ؟**

فبرز إليه علي ثم ناداه: **ويحك يا كريب ! إني أحذرك الله وبأسه ونقمته، وأدعوك إلى سنة الله وسنة رسوله، ويحك ! لا يدخلنَّك ابن آكلة الأكباد النار.**

فكان جوابه أن قال: **ما أكثر ما قد سمعنا هذه المقالة منك، فلا حاجة لنا فيها. أقدِم إذا شئت، مَن يشتري سيفي، وهذا أثره ؟**

فقال علي عليه السلام: **لا حول ولا قوة إلا بالله.**

ثم مشى إليه، فلم يمهله أن ضربه ضربة خرَّ منها قتيلاً يتشحط في دمه، ثم نادى: **من يبارز ؟**

فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري، فقتل الحارث. ثم نادى: **من يبارز ؟**

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ـ ص ١٧٦.

فبرز إليه المطاع بن المطلب القيني، فقتل مطاعاً. ثم نادى: **من يبارز ؟**

فلم يبرز إليه أحد . ثم إن علياً نادى: **يا معشر المسلمين** ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[١] **ويحك يا معاوية هلم إليّ فبارزني، ولا يقتلن الناس فيما بيننا !**

فقال عمرو: **اغتنمه منتهزاً، قد قتل ثلاثة من أبطال العرب، وإني أطمع أن يظفرك الله به.**

فقال معاوية: **ويحك يا عمرو ! والله إن تريد إلا أن أُقتل فتصيب الخلافة ، اذهب إليك، فليس مثلي يُخدع**[٢].

وفي كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي: خرج رجل من أصحاب معاوية يقال له المخارق بن عبد الرحمن ـ وكان فارساً بطلاً ـ حتى وقف بين الجمعين، ثم سأل النزال، فخرج إليه المؤمل بن عبيد المرادي، فقتله الشامي، ثم نزل إليه فاحتز رأسه وحك وجهه الأرض وكب الرأس على وجهه، ثم دنا منه فكشف عورته ونادى: **هل من مبارز؟**

فخرج إليه مسلم بن عبد ربه الأزدي، فقتله الشامي ثم فعل به كما فعل بالأول، ثم نادي: **هل من مبارز؟**

فلم يزل كذلك حتى قتل أربعة نفر واحتز رؤوسهم وكشف عوراتهم. قال: فتحاماه الناس خوفاً منه. قال: ونظر إليه علي رضي الله عنه وقد فعل ما فعل فخرج إليه متنكراً، وحمل عليه الشامي وهو لم يعرفه، فبدره عليٌّ بضربة على حبل عاتقه فرمى بشقه، ثم نزل إليه فاحتز رأسه، وقلب وجهه إلى السماء، ولم يكشف عورته. ثم نادى: **هل من مبارز؟**

فخرج إليه آخر، فقتله علي رضي الله عنه، وفعل به كما فعل بالأول. فلم يزل كذلك حتى قتل منهم سبعة أم ثمانية وهو يفعل بهم كما يفعل بالأول، ولا يكشف عوراتهم. فأحجم الناس عنه وتحامته الأبطال من أصحاب معاوية، وردها عن معاوية عبدٌ له يقال له حرب، فكان فارساً لا يُصطلى بناره.

فقال له معاوية: **ويحك يا حرب، اخرج إلى هذا الفارس فاكفني أمره، فإنه قد قتل من أصحابي من قد علمت!**

قال: فقال حرب: **جعلت فداك إني والله أرى مقام فارس بطل لو برز إليه أهل عسكرك لأفناهم عن آخرهم، فإن شئتَ برزتُ إليه وأنا أعلم أنه قاتلي، وإن شئتَ فأبقني لغيره.**

فقال معاوية : **لا والله، ما أحب أن تُقتَل، فقف مكانك حتى يخرج إليه غيرك.**

قال: وجعل يناديهم ولا يخرج إليه واحد منهم، فرفع المغفر عن رأسه ثم قال: **أنا أبو الحسن.**

ثم رجع إلى عسكره، فقال حرب لمعاوية: **جعلت فداك ألم أقل لك إني أعرف مقام الفارس البطل**[٣]**؟**

وروى ابن عبدربه الأندلسي: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول[٤]:

---

(١) سورة البقرة: ١٩٤.

(٢) ابن مزاحم : وقعة صفين ـ ص ٣١٥ – ٣١٦.

(٣) ابن أعثم الكوفي : الفتوح ـ ج ٣ ـ ص ١١١ – ١١٢.

(٤) ابن عبدربه : العقد الفريد ـ ج ١ ـ ص ٢٩.

أيُّ يَـومـي مِـن المـوتَ أفِـر ... يَـومَ لا يُـقـدّر أم يَـومَ قُـدر
يَـومَ لا يُـقـدّر لا أرهَـبـه ... ومِـن المـقـدُور لا يُـنـجِـى الحَـذر

ومما يدل على شجاعته وأن الحرب لم تكن لتزعزعه وتربكه، ما رواه العلامة الشيخ إبراهيم البيهقي في «المحاسن والمساوىء» حيث قال: قيل: ولما كان في حرب صفين والناس في أشد ما يكون من الحرب قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **ألا ماء فأشتريه**[١]؟!

فأتاه شاب من بني هاشم بشربةٍ من عسل فتناوله وقال: **يا فتى، عسلك هذا طائفي**[٢].

قال: **سبحان الله، في هذا الوقت تعرف الطائفي من غيره !**

فقال: **إنه لم يملأ صدر ابن عمك شي قط**[٣].

ومن شدة القتال ما روي من أنه خرج نحو من خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب علي على رؤوسهم البيض[٤]، وهم غائصون في الحديد لا يُرى منهم إلا الحدق[٥]، وخرج إليهم من أنصار معاوية نحوهم في العدد، فاقتتلوا بين الصفَّين قتالاً ضارياً والناس تحت راياتهم، فلم يرجع من الطرفين مُخبِر، فقد قُتلوا جميعاً بين الصفين.

واستمر القتال في الأيام التالية على أشدّه، وقُتل من معسكر معاوية الكثير، كما استشهد جمع من المخلصين من أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ كهاشم بن عتبة المرقال، وعمار بن ياسر، ولم تحسم المعركة لأي من الطرفين، حتى كانت وقعة الخميس.

• **وقعة الخميس**: روى ابن أعثم تفاصيل تلك الوقعة التي لم يكن بصفين أشد منها، كما روى صِفَةَ ليلة الهرير، حيث قال أنه أصبح الناس وطلعت الشمس وذلك في يوم الخميس، ودعا علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بدرع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فلبسه، وبسيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فتقلده، وبعمامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فاعتجر بها، ثم دعا بفرس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فاستوى عليه[٦]، وجعل يقول: **أيها الناس! من يبع نفسه يربح هذا اليوم، فإنه يوم له ما بعده من الأيام، أما والله، أن لولا أن تعطل الحدود وتبطل الحقوق ويظهر الظالمون وتفوز كلمة الشيطان ما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. ألا إن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير عواقب الأمور، ألا إنها إحَنٌ بدرية**[٧]، **و ضغائن**

---

(١) لعل الصحيح (فأشربه) بدلاً من (فأشتريه).
(٢) طائفي: نسبة إلى الطائف.
(٣) البيهقي : المحاسن والمساوئ. ص ٤١٣ . والبيهقي هو إبراهيم بن محمد البيهقي المولود عام ٢٩٥ هـ ، ونبغ على عهد الخليفة المقتدر العباسي.
(٤) البيضة: ما يشبه الخوذة العسكرية.
(٥) أي حدق العين.
(٦) قيل : اسمه «المرتجز»، وقيل إنه ركب بغلة رسول الله «الشهباء»، ولعل الصحيح أن الفرس أو البغلة كانت من نسل فرس النبي أو بغلته ، لأنها لو عمرت كل هذا العمر فلن تكون صالحة لأن تُركب في القتال.
(٧) إحن: جمع إحنة ، أي حقد.

أُحدية، وأحقاد جاهلية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليذكر بها ثارات بني عبد شمس: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[١].

فقالت المهاجرون والأنصار: **يا أمير المؤمنين! إننا كنا نقاتل معك إلى الساعة على بصيرة ويقين أنك على الحق الواضح، والآن فقد ازددنا بصيرة ويقيناً بعد إذ قُتل بين يديك مثل عمار بن يا سر، فتقدم أمامنا وها نحن من ورائك.**

فتقدم علي ومعه نيف على عشرة آلاف من بني مذحج ممن يريد الموت، قد وضعوا أسيافهم على عواتقهم ما يبين منهم إلا الحدق، وعلي عليه السلام يقدمهم وهو يقول:

دُبّـوا دَبيبَ النَّملِ لا تَفوتوا ... وأصبِحُوا في حَربِكم وبِيتُوا
كي مَا تَنالُوا الدِّينَ أو تَموتُوا ... أوَ لا فإنّي طالَ ما عُصيتُ
قَد قُلتُم لَو جِئتَنا فجِئتُ ... لَيسَ لَكم مَا شِئتُم فَشِئتُ

بَل مَا يُريدُ المحيِي المميتُ

وتبعه عدي بن حاتم الطائي وهو يقول:

أبَعْدَ عَمّارٍ وبَعدَ هَاشِم ... وابنَ بُديلٍ فَارِسَ المَلاحِم
تَرجُو البَقا مِن بَعدُ يا بنَ حَاتم ... فَقد عَضَضنا أمسُ بِالأبَاهِم
فَاليومَ لا يُقرَعُ سِنُّ نَادِم ... لا بُدَّ أنْ يُحمى حِمَى المَحَارِم

ليسَ امرءٌ مِن يَومِهِ بِسالم

وتبعه مالك الأشتر وهو يقول:

حَربٌ بِأطرَافِ القَنا تَأجّجُ ... يَهلكُ فِيها البَطَلُ المُدَجّجُ
يَقدمُها هَمْذَانُها ومَذحَجُ ... قَومٌ إذا مَا حَسَموها انضَجوا
سِيرُوا لِبرّ الله لا تَعرُجُوا ... دِينٌ قَويمٌ وسَبيلٌ مَنهَجُ

ثم حمل علي عليه السلام في هؤلاء العشرة آلاف حملة رجل واحد، فما بقي لأهل الشام صف إلا انتقض، وهمدت الناس واحمرّت حوافر الخيل بالدماء. قال: والتفت معاوية إلى عمرو بن العاص فقال: **أبا عبد الله اليوم صبراً وغداً فخراً.**

فقال عمرو: **صدقت يا معاوية! ولكن اليوم حق والحياة باطل، وإنْ حمَل عليٌّ في أصحابه حملة أخرى فهو البراز.**

والتفت الأشتر إلى بني عمه فجعل يحرضهم وهو يقول: **يا لمذحج! عضضتم بصم الجندل**[٢]**، فما أرضيتم ربكم**

(١) سورة التوبة: ١٢.
(٢) أي عضضتم الحجارة الصلبة، والعبارة كناية عن الخيبة.

ولا نكبتم له في عدوِّكم، وأنتم أبناء العرب، وأصحاب الغارات، وفتيان الصياح، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران، ومذحج الطعان.

ثم حمل وحملت معه قبائل العرب مع مذحج، فتحيرت أهل الشام من فعالهم، والأشتر يومئذ على فرس له أدهم ذَنوب[١]، في يده صفيحة له يمانية[٢]، إذا طأطأها خِلْت فيها لهيباً، وإذا رفعها يغشى البصر من شعاعها، فهو يضرب بها قدماً قدماً، فلا يصمد لكتيبة إلا كشفها وهو يقول:

أهلي فداكُم قَاتلوا عَن دينكم ... فالجُبنُ عَن أعدَائكم يَشينَكم
واللهِ إنْ نَاصَحتُم يُعينُكُم ... فَاحمُوا حِماكُم وامنَعُوا قَطينَكم

ثم حمل فطاعن حتى كسر رمحه على قربوص سرجه[٣] ووقف وهو يقول:

الغَمَرَاتُ ثُمَّ تَنجَلينا ... نَحنُ بنو الحَربِ بِها غذِّينا

فقال رجل من أصحاب علي: **لله در هذا الرجل لو كانت له نية، ولكن أظن أنه إنما يقاتل هذا القتال رياء وسمعة، ولا أظنه يريد بفعاله هذا ما عند الله.**

فبلغ كلامه الأشتر، فغضب من ذلك ثم أنشأ يقول[٤]:

أيُّها الجَاهلُ المسئُ بيَ الظَّن ... لَيسَ مِثلي يَجُوزُ فيه الظّنون
لستُ ممَّن باعَ الهُدَى بِهَواه ... إنَّ مَن بَاعَ دِينَه مَغبُون
إنَّما يَطلبُ المتاعَ مِن النَّاس ... سَفيهٌ في رأيه مَفتُون
حَسبِيَ اللهُ في الحَوادث والرّمْحُ ... وسَيفٌ مُهنَّدٌ مَسنُون
و دُلاص مِثل الإضاءِ وطَرف ... أعْوَجِيّ كَأنَّهُ مَجنُون
وهَوايَ الذي يَقربُه العَينُ ... وبِالحقِّ قَد تَقرُّ العُيون
إنَّ مَثلي مِن الرِّجالِ قَليل ... حِينَ يَبدُو مِن النِّساء البرين
هَكذا كُنتُ يا فَوارِسَ لُخَم ... وكَذا في الذي يَكونُ أكُون

فندم اللخمي على ما قال في الأشتر، ثم أنشأ يقول:

أصَابَت ظُنُوني في رجَالٍ كَثيرةٍ ... وأخطَأتُ في ظَنّي بِأشترَ مَالِكْ

---

(١) أدهم: أسود . ذنوب: طويل الذنب أو كثيف شعره.

(٢) صفيحة: سيف.

(٣) هكذا ورد في المصدر بالصاد ، وما في المعاجم أنه بالسين (قربوس) أي حنو السرج .

(٤) دلاص: اللين البرّاق ، والمقصود هنا الدرع إذ يقال : درع دلاص.

و ما كانَ فيما قُلتُ إثمٌ وإنَّما ... تَرضيتُه أنْ لا أعودَ لِذَلِكْ
ظَننتُ بِهِ ظَنّي بِعَمرو فَإنّه ... وصَاحِبَه رامَا عَظيمَ المَهَالِكْ

وزالت الشمس وذهب وقت الصلاة والحرب قائمة على ساق، قال: و صاح علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمهاجرين والأنصار فقال: **إن الفرار عن الحرب في مثل هذا اليوم إرداد عن الحق ورغبة عن دين الإسلام ، أما سمعتم الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **يقول:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1] **فما انتظاركم إن كنتم تريدون الجنة؟!**

فكان أول من تقدم أبو الهيثم بن التيّهان، وجعل يرتجز ويقول:

أحمَدُ رَبّي وهُوَ الحَميد ... ذاكَ الذي يَفعَلُ ما يُريد
ذاك الذي عَذابُه شَديد ... مَن ينجُ مِنهُ فَهو السَّعيد
هذا عَليٌّ مَا لَه نَديد ... دِينٌ قَويمٌ وهُو الرَّشيد

ثم حمل فقاتل حتى قُتل رَحِمَهُ اللَّهُ فرثته امرأة من الأنصار فأنشأت تقول شعراً. ثم تقدم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، فجعل يرتجز ويقول:

قَد مَرَّ يَومان وهَذا الثَّالث ... هذا الذي يَبحثُ فيه البَاحث
هذا الذي يَلهثُ فيه اللاهث ... يَومٌ عَبوسٌ والعبوسُ كارث
كَم ذا يُرجَى أن يَعيشَ الماكث ... والنَّاسُ موروثٌ وفيهم وَارث

هَذا عَليٌّ مَن عَصاهُ نَاكث

ثم حمل فقاتل حتى قُتل رَحِمَهُ اللَّهُ ورثته ابنته «منيعة» بأبيات، ثم تقدم خالد وخلدة ابنا أبي خالد الأنصاري[2]، فجعل خالد يرتجز و يقول:

هَذا عَليٌّ والهُدى يَقودُه ... مِن خَيرِ عِيدانِ قُريشٍ عُودُه
لا يَسأمُ الطَّعنَ ولا يَؤودُه ... لَكِنَّه يُلهِبُها وقُودُه

و كُلُّ مَن يُقرَن بِهِ يَسودُه

وجعل خلدة يرتجز ويقول:

هَذا عَليٌّ والهُدَى أمَامَه ... هَذا لِوا نَبيِّنا قُدَّامَه

---

(١) سورة محمد: ٣١.

(٢) اسم أبي خالد : الحارث بن قيس بن خلدة الخزرجي الزرقي، بايع بيعة العقبة الثانية وشهد معركة بدر.

يُقحِمُه عندَ الوغَى إقدامُه ... لا عَيبَهُ يُخشَى ولا أثامُه
لا يَكرهُ الطَّعنَ ولا يَسامُه ... منهُ غَداهُ وبِه إدامُه

ثم حملا فقاتلا حتى قُتلا جميعاً رَحِمَهُمَاٱللَّهُ. ثم تقدم جندب بن زهير[١] وارتجز، ثم حمل فقاتل حتى قُتل رَحِمَهُٱللَّهُ. وبكى الأشتر، فقال له علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **ما يبكيك ؟ لا أبكى الله عينيك !**

فقال: **أبكي يا أمير المؤمنين لأني أرى الناس يُقتلون بين يديك وأنا لا أرزق الشهادة فأفوز بها.**

فقال له علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **أبشر بالخير يا مالك** . ثم تمثّل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بهذا البيت:

أيّ يَومَيكَ مِن الموتِ تَفِر ... يَومٌ لا يُقدر أو يَومٌ قُدِر

ونظر أصحاب علي إلى قوم من أصحاب معاوية قد وقفوا على تل عظيم، فحملوا عليهم حتى خالطوهم، ثم ضاربوهم حتى أزالوهم عن ذلك التل، و قتلوا منهم جماعة[٢].

وفي وصف هذا اليوم قال ابن شهراشوب: وزحف الناس بعضهم إلى بعض وارتموا بالنبل حتى فنيت ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت، ثم تضاربوا بالسيوف وعمد الحديد واشتد القتال حتى جرت الدماء جرّي الماء، وانهزم عرب اليمن، وكان وقع الحديد على الحديد أشد هولاً من الصواعق والجبال حين تنهدم، وانكسفت الشمس وثار القتام[٣]، وضلت الألوية والرايات ووصلوا النهار بالليل وهي ليلة الهرير، وأصبح أهل العراق والمعركة خلف ظهورهم وافترقوا عن سبعين ألف قتيل[٤].

- **ليلة الهَرير**: وتبع وقعة الخميس أحداث ليلة الهرير، وقد وصف ابن أعثم أحداثها كما يلي: قامت الفرسان في الركب فاصطفقوا بالسيوف وارتفع الرهج وثار القتام، وتضعضعت الرايات وحطت الألوية، وغابت الشمس، وذهبت مواقيت الصلاة حتى ما كان في الفريقين أحد يصلي ذلك اليوم ولا سجد لله سجدة، ولا كانت الصلاة إلا بالتكبير والإيماء نحو القبلة.

وهجم عليهم الليل واشتدت الحرب، وهذه ليلة

قال الشيخ الطوسي: صلاة شدة الخوف وهي حالة المساءفة والتحام القتال، يصلي بحسب الإمكان إيماء وغير ذلك من الأنحاء قائماً أو قاعداً أو ماشياً مستقبل القبلة أو غير مستقبل القبلة، ولا تجب عليه الإعادة، وبه قال الشافعي إلا أنه قال: إن ضارب فيها أو طاعن بطلت صلاته، ويمضي فيها، ويعيدها هذا منصوص قوله. وقال أبو العباس: يمضي فيها ولا يعيد كما قلناه، وقال أبو حنيفة: يصلي كما قلنا إيماء وسائر أحواله إلا أنه لم يُجز الصلاة ماشياً.

(١) جندب بن زهير الأزدي الغامدي، يقال أنه صحابي ، وهو الذي قتل الساحر اليهودي الذي كان يمارس السحر أمام والي الكوفة الوليد بن عقبة . عينه الإمام علي أميراً على أزد اليمن في حرب صفين.

(٢) ابن أعثم : الفتوح. ج ٣. ص ١٧٤ – ١٨٠ . مع الاختصار

(٣) القتام: الغبار المتصاعد من شدة المجاولة خلال المعركة.

(٤) ابن شهراشوب : المناقب. ص ٢٤٩.

الهرير، فجعل بعضهم يهر على بعض[١]، ويعتنق بعضهم بعضاً، ويكرم بعضهم بعضاً[٢]. وجعل علي عليه السلام يقف ساعة بعد ساعة ويرفع رأسه إلى السماء و هو يقول: **اللهم إليك نقلت الأقدام وإليك أفضت القلوب ورفعت الأيدي ومدت الأعناق وطلبت الحوائج وشخصت الأبصار، اللهم افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.**

ثم إنه حمل في سواد الليل وحملت الناس معه، فكلما قتل بيده رجلاً من أهل الشام كبّر تكبيرة حتى أحصى له كذا كذا تكبيرة. وكان إذا علا قدّ، وإذا وسط قط[٣]. وجعلت المشايخ من أهل الشام ينادون في تلك الغمرات: **يا قوم، الله الله في البقية ! الله الله في الحُرَم والذرّية !**

والناس يقتتلون ليلتهم تلك حتى أصبحوا، وقد قتل من القوم تلك الليلة ستة وثلاثون ألفاً من جحاجحة العرب[٤]، وليس فيهم أحد يكيع[٥] عن صاحبه. فطلعت الشمس وتعالى النهار وذلك في يوم الجمعة والسيوف تأخذ هام الرجال[٦].

- **ليلة الهَرير**: قال ابن أعثم بعد الحديث عن ليلة الهرير: فقال معاوية لعمرو بن العاص: **ويحك أبا عبد الله، أين حيلك التي كنت أعرفها منك ؟**

فقال عمرو: **تريد ماذا ؟**

قال: **أريد أن تسكن هذه الحروب، فقد أبيد أهل الشام، وإني لأعلم إن دام هذا الحرب يومنا هذا لم يبق بأرض الشام أحد يحمل سلاحنا.**

فقال عمرو: **إن أحببت ذلك فأْمُر بالمصاحف أن تُرفع على رؤوس الرماح ثم ادعهم إليها، فإنك إن فعلت ذلك لم يقاتل أحدٌ أحداً، فهذه حيلتي ومكيدتي التي لم أزل أدّخرها لك، فعجّل برفع المصاحف.**

قال: فلما سمعت أهل الشام ذلك قال بعضهم لبعض: **صدق عمرو، وهذه حيلة ما سبقه إليها أحد.**

قال: فأمر معاوية بالمصاحف فرُفعت على رؤوس الرماح، وصاح أهل الشام: **ياعلي، يا علي، اتق الله، اتق الله أنت وأصحابك في هذه البقية، هذا كتاب الله بيننا وبينكم.**

ثم أتوا بالمصاحف وبالمصحف الأعظم وهو مصحف عثمان بن عفان، فربطوه على أربعة أرماح ثم رفعوه ونادوا: **يا أهل العراق ! هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فالله الله في البقية والحرم والذرية الصغار !**

وثب الأشعث بن قيس الكندي إلى علي فقال: **يا أمير المؤمنين! أجب القوم إلى كتاب الله، وإلا والله لم يرم معك يمانيٌّ بسهم، ولم يضرب معك بسيف، ولم يطعن معك برمح.**

---

(١) كناية عن الهجوم والقتال الشديدين .
(٢) لعله تصحيف (يكزم) : أي يعض . وفي مروج الذهب : وكان يعتنق الفارس ويقعان جميعاً على الأرض عن فرسيهما.
(٣) إذا جاءت ضربته من الأعلى قد. والقد: القطع طولاً . وإذا جاءت ضربته من الوسط قط. والقط: القطع عرضاً.
(٤) الجحجح: السيد السمح.
(٥) يكيع: يجبن.
(٦) ابن أعثم : كتاب الفتوح ـ ج ٣ ـ ص ١٨٠ - ١٨١.

فقال علي عليه السلام: **ويحك، والله ما رفعوا لكم هذه المصاحف إلا خديعة و مكيدة !**

فقال الأشعث: **لا والله ما نأبى ذلك أبداً، فإن شئت فأذن لي أن آتي معاوية فأسأله عن هذه المصاحف لماذا رفعت؟**

فقال علي عليه السلام: **ذاك إليك.**

فأقبل الأشعث حتى وقف قريباً من معاوية، ثم قال: **يا معاوية! لماذا رفعتم هذه المصاحف؟**

فقال: **رفعناها لكي نتفق نحن وأنتم عليها.**

فرجع الأشعث إلى علي فأخبره بذلك. قال: ثم تقدم رجل من أهل الشام على فرس له أبلق ، وفي يده مصحف قد فتحه، ثم وقف بين الجمعين وجعل يقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[١] وقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٢]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣]. فماجت الناس في عسكر علي، فقالت جماعة: **قد أكلتنا هذه الحروب وقلّت الرجال.**

وقال قوم: **نقاتل اليوم على ما قاتلنا أمس وإن لم يبق منا إلا القليل.**

ثم وثب شقيق بن ثور البكري[٤] فقال: **يا أهل العراق! إنكم تعلمون أننا كنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله عز وجل، فإن رددناه عليهم حلّ لهم منا ما حلّ لنا منهم، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله، وإن علياً ليس بالراجع ولا بالناكص ولا الشاك الواقف في أمره، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلتنا هذه الحروب، ولسنا نرى إلا البقاء في الموادعة، والسلام.**

ثم وثب هانىء أو كردوس بن هانىء البكري فقال: **أيها الناس ! إننا ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه، ولا برئنا من علي منذ توليناه، وقد علمنا أن قتلانا شهداء وأحياءنا أبرار، وأن علياً لعلى بينة من ربه وما أحب إلا الإنصاف، وكل محقّ منصف، فمن سالمه نجا، ومن خالفه هلك.**

ثم وثب خالد بن معمر السدوسي فقال: **يا أمير المؤمنين ! إننا ما أخرنا هذه المقالة إلا أن يكون أحد أولى بهذا الكلام منا، غير أننا جعلناه ذخراً لنا، وقلنا أحب الأمور إلينا ما كفينا مؤنته، فأما إذ سبقنا إلى الكلام فإننا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم، فإن رأيت ذلك فأجبهم إليه وإن لم تر ذلك فرأيك أفضل.**

ثم وثب الحضين بن المنذر وكان أصغر القوم سناً فقال: **أيها الناس ! إنما بُني هذا الدين على التسليم فلا**

---

(١) سورة آل عمران: ٢٣.
(٢) سورة النور: ٤٨.
(٣) سورة النور: ٤٩-٥١.
(٤) وقيل سفيان بن ثور.

تعملوا فيه بالقياس، ولا تهدموه بالشبهة، و أمير المؤمنين فهو المصدَّق بما قال، والمأمون على ما فعل، فإن قال: لا، قلنا: لا، وإن قال: نعم، قلنا: نعم.

فوثب رفاعة بن شداد البجلي وكان من أفاضل أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: **أيها الناس ! إنه لا يفوتنا شيء من حقنا وقد دعونا القوم إلى ما دعوناهم إليه في أول أمرنا، فإن يتم الأمر على ما نحب وحكم بالقرآن على ما فيه من الحق فبعد بلاء شديد وقتل ذريع، وإن تكن الأخرى أثرناها عجاجة، فهذه سيوفنا في رقابنا وأرماحنا في أكفّنا.**

ثم وثب إلى علي يومئذ زهاء عشرين ألفاً مقنّعين في الحديد شائلين سيوفهم على عواتقهم قد اسودّت خيولهم من كثرة الغبار، ومعهم عصابة من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج، فقال له رجل منهم: **يا علي! أجب القوم إلى ما دعوك إليه من كتاب الله فقد أنصفوك، وإلا والله دفعناك إليهم برغمك، أو قتلناك.**

فنظر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ساعة ثم قال: **يا هؤلاء ! إني أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه، ولا يحل لنا إلا الإجابة إليه، غير أني كنت أمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً فأصبحت منهياً، وأراكم قد أحببتم البقاء وكرهتم الحرب، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون.**

قالوا: **فابعث إذاً إلى الأشتر فادعه إليك فإنه ما يفتر عن الحرب.**

وكان الأشتر أشرف على دخول عسكر معاوية فأرسل إليه الإمام علي رسولاً أن ارجع، فقال الأشتر للرسول: **قل لأمير المؤمنين: ليس هذا وقت ينبغي لك أن تزيلني فيه عن موقفي.**

فارتفع الرهج وعلت الأصوات من ناحية الأشتر، فقال القوم: **إننا إنما سألناك أن ترد الأشتر ولم نسألك أن تأمره بالحرب.**

فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **وكيف علمتم أني أمرته بالحرب؟ هل رأيتموني وأنا أسار الرسول؟ ألم أكلمه وأنتم تسمعون؟**

قالوا: **فابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك.**

فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لرجل من أصحابه: **اذهب إليه فقل له: ويحك ! أقبِل فإن الفتنة قد وقعت.**

فجاءه الرسول بالرسالة من عند علي، فقال الأشتر: **لعل أمير المؤمنين إنما يدعوني لأجل هذه المصاحف التي رُفعت؟**

قال الرسول: **نعم فارجع.**

فقال الأشتر: **أما والله لقد علمت حين رُفعت أنها ستلقي اختلافاً وفرقة. وأنها مشورة ابن النابغة عمرو بن العاص. ويحك ! أمهلني ساعة فإني قد تقاربت من الفتح.**

فقال له الرسول: **أفتحب أن تظفر وأمير المؤمنين بمكانه ذلك ؟**

فقال الأشتر: **سبحان الله ! لا والله ما أحب ذلك.**

قال: **فارجع فإن القراء قد قالوا له: ابعث إلى الأشتر فليأتك وإلا قتلناك كما قتلنا عثمان.**

فانصرف الأشتر مغضباً وهو يقول: **يا أهل العراق، يا أهل الرهن والوهن، ويلكم الآن حين علوتموهم بالطعن والضرب وعلموا أنكم قاهرون رفعوا لكم هذه المصاحف خديعة ومكراً، ثم دعوكم إليها !**

فقال الأشعث بن قيس: **يا هذا، إننا قاتلناهم لله** عَزَّوَجَلَّ، **وندع الساعة قتالهم لله** عَزَّوَجَلَّ.

قال: فقال الأشتر: **ويحكم ! فأمهلوني ساعة فلقد أحسست بالفتح وأيقنت بالظفر.**

فقالوا: لا.

قال: **فأمهلوني عدوة فرسي، فإني قد طمعت في النصر.**

فقالوا: **إذاً ندخل معك في خطيئتك، فإنهم قد دعونا إلى كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ.

فقال الأشتر: **إنه قد قتل أماثلكم**[1] **وبقي أراذلكم، وقد كنتم إلى الساعة محقين، فإن تركتم قتالكم تكونوا مبطلين ؟!**

فصاحت به القراء وغيرهم من الناس وقالوا: **دعنا منك يا أشتر، فإننا لانطيعك ولن نطيع صاحبك ونحن نرى المصاحف على رؤوس الرماح نُدعى إليها.**

فقال الأشتر: **لا والله ولكن خدعتم فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم.**

ثم أقبل على أولئك القراء فقال: **يا أصحاب الجباه السود ! كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وتشوقاً في الآخرة، وأنا والله فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا، فقبحاً لكم وبُعداً كما بعد القوم الظالمون.**

فسبّوه وسبّهم، وضربوا بسياطهم وجه فرسه، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، وهمّوا به وهمّ بهم، وأعانه بنو عمه، وكادت الفتنة أن تقع بين القوم حتى سكّنهم علي وقال: **كفّوا عنه، ما لكم وله ؟!**

فتكلم رجل من أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: **يا هذا ! إن أمير المؤمنين قد قبل الحق ورضي بحكم القرآن ولم يسعه إلا ذلك فلا تقتل نفسك.**

فقال الأشتر: **إن كان أمير المؤمنين قد رضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين.**

فكان معاوية بعد ذلك يقول: **والله لقد رجع عني الأشتر يوم رفع المصاحف ، وأنا أريد أن أسأله أن يأخذ لي الأمان من علي، وقد هممتُ ذلك اليوم بالهرب ولكن ذكرت قول عمرو بن الأطنابة حيث يقول**[2]:

أبَـــتْ لي عِـفَّـتـي وأبَـــى بَـلائِـي ... وأخْـــذِي الحـمـدَ بـالـثَّـمـنِ الـرَّبـيـحِ

---

(١) أماثلكم: خياركم.

(٢) المشيح: أشاح الرجل إشاحة فهو مشيح ، أي حاذر من الأمر. جشأت وجاشت: نهضت نفسه إليه ذو شطب: السيف.

وإعـطَـائـي عَـلـى المـكـرُوه مَـالي ... وضَـربـي هَـامـةَ الـبَـطـلِ المشيـحِ
وقَـولي كُـلَّـمـا جَـشـأتُ وجَـاشَـت ... مَـكـانَـكِ تُحـمَـدي أو تَـستَريحي
لأدفَـعَ عَـن مَـآثـرِ صـالحَـاتٍ ... وأحـمـي بَـعـدُ عَـن عـرضٍ صَحيحِ
بِـذي شَـطـبٍ كَـلـوْنِ الملـحِ صَـافٍ ... ونَـفـسٌ مـا تُـقِـرُّ عَـلـى القَـبـيحِ

فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أيها الناس! إنه ليس مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر، و لا مع حكمه حكم، هذا كتاب الله قد دعانا القوم إليه، وأنا أحب أن أحيي ما أحيى القرآن وأميت ما أمات القرآن، وقد علمتم أننا كنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في يوم الحديبية فأردنا أن نقاتل إنكاراً للصلح حتى نهانا عن ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فإن أهل الشام إنما دعونا إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ اضطراراً ونجيبهم إعذاراً، واسكنوا حتى ننظر ما الذي يريدون أن يصنعوا.**

فوثب حريب بن جابر البكري فقال: **أيها الناس! إنكم قد سمعتم كلام أمير المؤمنين فاسمعوا كلامي، إن أمير المؤمنين لو كان خلْواً من هذا الأمر لكان المفزع إليه**[1]**، فكيف وهو قائده وسائقه؟! إنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا الأمر الذي دعاهم إليه أمس، ولو رده عليهم لكنتم عليه أعتب، فلا يلحد في هذا الأمر إلا ورجع على عقبيه أو يستدرج الذين تعرضوا بيننا وبين من طعن على أمير المؤمنين بعد هذا الأمر إلا بالسيف.**

ثم وثب جماعة من بني بكر بن وائل، منهم حريث بن جابر وخالد بن معمر وشقيق بن ثور وكردوس بن عبد الله إلى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالوا: **ما ترى يا أمير المؤمنين ؟ إن أجبتَ القوم أجبنا وإن أبيتَ أبينا، وها نحن بين يديك.**

فقال علي: **أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة والضحاك بن قيس وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، لأني قد رأيتهم صغاراً وصحبتهم كباراً، وكانوا شر أطفال وشر رجال، وقد علمتُ أن رفع هذه المصاحف إنما هو وهن وخديعة و مكيدة، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فآبى أن أقبله، لأني إنما قاتلتهم ليدينونا بحكم القرآن، لأنهم قد كانوا عصوا الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فلم ينتهوا ونقضوا عهده ونبذوا كتابه، غير أني أراكم قد اجتمعتم على أمر لا أرى فيه مخالفتكم.**

عمرو بن سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي، حليف أبي سفيان. شهد حنيناً كافراً ثم أسلم بعدُ، ثم صار من أصحاب معاوية وخاصّته، وشهد معه صفين، وكان أشد من عنده على الإمام علي.

فجزاه القوم خيراً، وبينا الناس كذلك إذ أقبل أبو الأعور السلمي من عند معاوية على برذون له أشهب[2]، والمصحف على رأسه حتى وقف قريباً من عسكر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم نادى بأعلى صوته: **لن يعطي واحد منا للآخر الطاعة، وقد قتل فيما بيننا بشر كثير، وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه وإننا نتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى،**

(١) أي لو لم يكن طرفاً في الحرب للجأنا إليه أخذا بحكمه وكلامه ، فكيف وهو أحد طرفي القتال ؟!
(٢) البرذون من الخيل ماليس بعربي . أشهب: أبيض يصدعه سواد في خلاله.

وإننا سنحاسَب ونُسأل عن هذا الموطن، ولا يحاسَب بما نحن فيه غيرنا وغيركم، وقد جئتكم في أمر لنا ولكم فيه حياة وعذر وصلاح وحقن الدماء وألفة الدين وذهاب الفتن، أن نجعل القرآن بيننا وبينكم حكماً، ويحكم بيننا حكمان مرضيان: أحدهما من أصحابنا والآخر من أصحابكم، يحكمان بما في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فإنه خير لنا ولكم، ونقطع هذه الفتن، فاتق الله يا علي فيما دُعيت إليه، وارضَ بحكم القرآن إن كنت من أهله، والسلام.

فصاحت به الناس: **إننا قد رضينا بحكم القرآن.**

فقال أبو الأعور: **فالحمد لله على ذلك، ووفقنا وإياكم لصالح الأمور.**

ثم انصرف إلى العسكر، فأنشأ عبد الله بن حجر في ذلك يقول:

دَعَانَا عَلِيٌّ إلَى خطَّة ... فَكُنّا لَه خَيرَ أنصَارِها
رَضِينا بِإيرادِهَا في الوُرود ... وبَعدَ الوُرودِ بِإصدَارِها
عَلَى كُلِّ حالٍ رَضِينَا بِها ... بِإظهارِ آمرٍ وإضمَارِها
وَلَسنَا نُرِيدُ بِها غَيرَها ... ولَسنَا نَكونُ مِن أشرَارِها
فمَن ألحَدَ اليومَ في رَأيِه ... رَمتهُ المَنَايا بِأقدَارِها
دعاهُ ابنُ هِندٍ إلى خطّة ... أقَرَّ بِها بَعدَ إنكارِها
وأظهَرَ فيها رِضىً بِالقرآن ... وَلَيسَ لَه غَيرَ إظهَارِها
وفِيها بَقاءٌ إلى مُدَّة ... ووَضعُ الحُروبِ لأوزارِها
إنَّا قَد رَضِينَا بِحكمِ القُرآن ... فَإنْ قُلت لا قُلت لا مِثلها
وما النَاسُ إلا رِجالُ العِراق ... وبالشَّامِ مَرعَى لأعيارِها
وبالشامِ أعدادُ أهلِ العِراق ... ولَيسَ لَها مِثلُ أخيارِها
و ما العيشُ إلا بأحقَافِها ... وما الكفُّ إلا بأظفارِها

فغمد الناس أسيافَهم ووضعوا أسلحتهم وعزموا على الحكم. فقال عمرو لمعاوية: **كيف رأيتَ رأيي ؟ لقد كنتَ غرقتَ في بحر العراق وأنقذتُك !**

فقال معاوية: **صدقت أبا عبد الله ولمثلها كنت أرجوك** [1].

• **ما بعد الخديعة:** وهكذا انطلت الحيلة على عدد كبير ممن كانوا يشكلون جيش علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يكن بد من النزول عند إصرار الأغلبية على وقف القتال، فجَرت مكاتبات بين الإمام ومعاوية، وبينه وبين عمرو بن العاص، وتبعتها بعض الأحداث التي نتوقف عن ذكرها رغبة في الاختصار.

---

(١) ابن أعثم : الفتوح ـ ج ٣ ـ ص ١٨١ ـ ١٩٣.

ثم اجتمع قرّاء القرآن من المعسكرين في وسط ساحة المعركة ومعهم المصحف، واتفقوا على أن يكون بين الطرفين حكمان، وجعلوا المدة فيما بين ذلك إلى سنة كاملة. واختار أهل الشام عمرو بن العاص، بينما اتجه جماعة من معسكر الإمام علي على رأسهم الأشعث بن قيس والذين صاروا خوارج بعد ذلك لاختيار أبي موسى الأشعري، بذريعة أنه كان وافد رسول الله ﷺ إلى اليمن، وصاحب مقاسم أبي بكر وعامل عمر بن الخطاب.

أما الإمام علي عليه السلام فإنه لم يوافقهم الرأي، فقال الأشعث بن قيس وزيد بن حصن ومسعر بن فدكي وعبد الله بن الكواء: **فإننا لا نرضى إلا به، لأنه قد كان حذَّرنا ما وقعنا فيه.**

فقال علي عليه السلام: **فإنه ليس لي برضاً، وقد كان فارقني وخذّل الناس عني، ثم هرب حتى آمنته بعد أشهر، ولكن هذا عبد الله بن عباس قد جعلته حكماً لي.**

فقال القوم: **والله لا نبالي أنت كنت أو ابن عباس، إلا أننا لا نريد رجلاً هو منك وأنت منه.**

فعرض الإمام عليهم مالكاً الأشتر، فقال الأشعث: **وهل سعّر الأرض علينا إلا الأشتر؟! حكمُه أن يضرب الناس بعضهم بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد.**

فقال له الأشتر: **أنت إنما تقول هذا القول لأن أمير المؤمنين عزلك عن الرئاسة ولم يرك أهلاً لها.**

فقال الأشعث: **والله ما فرحت بتلك الرئاسة ولا حزنت لذلك العزل.**

فقال علي عليه السلام: **ويحكم! إن معاوية لم يكن ليختار لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره إلا عمرو بن العاص، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله، وهذا عبد الله ابن عباس فارموه به، فإن عمْراً لا يعقد عقدة إلا حلّها، ولا يبرم أمراً إلا نقضه، ولاينقض أمراً إلا أبرمه.**

فقال الأشعث ومن معه: **لا والله لا يحكم فينا مُضريان أبداً حتى تقوم الساعة ! ولكن يكون رجل من مضر ورجل من اليمن.**

فقال علي عليه السلام: **إني أخاف أن يخدع يمانيكم، فإن عمرو بن العاص ليس من الله في شيء.**

فقال الأشعث: **والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من اليمن أحب إلينا من أن يكون ما نحب وهما مضريان.**

فقال علي عليه السلام: **وقد أبيتم إلا أبا موسى ؟**

قالوا: **نعم.**

قال: **فاصنعوا ما أردتم. اللهم إني أبرأ إليك من صنيعهم.**

وهكذا وضع الناس السلاح، والتقوا بين العسكرين، ودعوا عبيدالله بن أبي رافع وهو كاتب الإمام علي ليكتب عهد الصلح بينهم، ولندع ابن أعثم ينقل لنا ما جرى لحظة إملاء النص حيث قال: فقال علي رضي الله عنه لكاتبه: **اكتب**

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضي عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان».

فقال معاوية: فإن كنتَ أمير المؤمنين كما زعمت فعلام أقاتلك ؟

فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الله أكبر ! كنت مع رسول الله ﷺ في يوم الحديبية حين صده المشركون عن مكة، ثم اتفق أمره وأمرهم على الصلح بعد ذلك فدعاني لأكتب، فقلت: ما أكتب يا رسول الله ؟ فقال: اكتب «هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله وأهل مكة». فقال أبو هذا، أبو سفيان بن حرب: يا محمد، إني لو أقررت أنك رسول الله لما قاتلتك، ولكن اكتب لنا صحيفتك باسمك واسم أبيك. فكتبت ذلك بأمر رسول الله ﷺ. فقال: يا علي، إن لك يوماً مثل هذا، أنا أكتبها للآباء وتكتبها للأبناء. وإني الآن أكتبه لمعاوية كما كتب النبي ﷺ لأبي سفيان.

قال: فقال عمرو بن العاص: يا سبحان الله! ونقاس نحن إلى الكفار ونحن مؤمنون؟!

فصاح به علي صيحة وقال: يا بن النابغة! لو لم تكن للمشركين ولياً وللمؤمنين عدواً لم تكن في الضلالة رأساً وفي الإسلام ذنباً ، أو لست ممن قاتل محمداً ﷺ وفتن أمته من بعده ؟ أو لست الأبتر ابن الأبتر[1] عدو الله وعدو رسوله؟ قم من ههنا يا عدو الله فليس هذا بموضع يحضره مثلك.

قال: فوثب عمرو ساكتاً لا ينطق بشيء حتى قعد ناحية[2].

تحمس المخلصون من أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم يسمعون هذه الكلمات من إمامهم وأخذوا يعرضون عليه استعدادهم للعودة إلى القتال إن شاء ذلك، فشكر لهم موقفهم، إلا أنه استمر في إملاء نص الصلح، فقال لعبيدالله بن أبي رافع: اكتب «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان».

فقال أبو الأعور السلمي: نبدأ بمعاوية ثم علي.

فقال له الأشتر: لا ولا كرامة لك ولا لمعاوية، بل نبدأ بعلي قبل معاوية، ونقدّمه عليه وعلى غيره لأنه أسبق الناس إيماناً وهجرة وأدنى إلى العلية.

فقال معاوية: يا أشتر ! قدّم مَن شئت وأخِّر مَن شئت.

فكتب الكاتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وأهل الحجاز وأهل العراق من شيعة علي وأهل الشام من شيعة معاوية، أنهم ينزلون على حكم كتاب الله، وأن كتاب الله بين علي ومعاوية من فاتحته إلى خاتمته. وأن يحيوا ما أحيى القرآن ويميتوا ما أمات القرآن، والحكمان عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، وأن علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان قد أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بما أنزل الله في كتابه، فإن لم يجدا في كتاب الله فبالسنة والجماعة غير المتفرقة، وأن عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص قد أمّنا من الجندين جميعاً على دمائهما وأموالهما، وأن الأمة لهما أنصار على ما تقاضيا عليه، والعهد والميثاق على الفريقين جميعاً أن

(١) جاء في أسباب نزول سورة الكوثر أن العاص بن وائل السهمي أبا عمرو هذا هو الذي شنأ النبي فنزلت السورة رداً عليه.
(٢) ابن أعثم : الفتوح ـ ج ٤ ـ ص ٢٠١ – ٢٠٢.

يرضوا بما في هذه الصحيفة، وأن يرجع أهل العراق إلى عراقهم وأهل الشام إلى شامهم، وأن يكون المجتمع للحكم بدومة الجندل، والمدة بين علي ومعاوية سنة كاملة، والسلام»[١].

- **أحداث لها علاقة بصفين:**

١. خبر الإمام مع عمرو بن العاص: روى الشريف الرضي كلاماً للإمام عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص، وفيه تعريض شديد به، قال: **عَجَباً لابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لاَهْلِ الشَّامِ أَنِّ فِيَّ دُعَابَةً[٢]، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ[٣]: أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ[٤]! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً. أَمَا ـ وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ[٥]، وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الاِلَّ[٦]، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سُبَّتَهُ[٧]. أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً[٨]، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً[٩]**.

(١) ابن أعثم: الفتوح ـ ج ٤ ـ ص ٢٠٤ – ٢٠٥.
(٢) الدُّعابة: المزاح واللعب.
(٣) تِلعابة: كثير اللعب.
(٤) أُعافس: أعالج الناس وأُضاربهم مِزاحاً، ويقال: المعافسة: معالجة النساء بالمغازلة والممارسة كالمُعافَسة.
(٥) يُلْحِف: يلح.
(٦) الإل: القرابة، والمراد من قطع الالّ أن يقطع الرحم.
(٧) السّبّة: الأست.
(٨) الأتيّة: العطيّة.
(٩) الرضي: نهج البلاغة ـ الخطبة ٨٤ ـ ص ١١٥ . ورَضَخَ له رَضيخةً: أعطاه قليلاً.

وما جرى في صفين من قبل عمرو بن العاص مشهور، ورد في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان الذي يروي الخبر عن الشعبي[١]، ورواه ابن قتيبة الدينوري في كتابه عيون الأخبار[٢]، وابن عبدربه الأندلسي في العقد الفريد[٣]، والحلبي في السيرة الحلبية[٤]، الذي قال: **ووقع لسيدنا علي «كرم الله وجهه» مثل ذلك في يوم صفين مرتين، الأولى: حمل على نصر بن أرطأة[٥]، فلما رأى أنه مقتول: كشف عن عورته فانصرف عنه، والثانية حمل على عمرو بن العاص فلما رأى أنه مقتول كشف عن عورته فانصرف عنه «كرم الله وجهه».**

وقد ذكر ابن الكلبي والمدائني قول الحارث بن نصر الجشيمي[٦]:

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ لَيسَ يَنتَهي	وعَورَتُهُ وَسطَ العَجاجَةِ بادِيَه
يَكُفّ لَها عَنه عَليٌّ سِنانَه	ويَضحَكُ منها في الخَلاءِ مُعاوِيَه
بَدَت أمسُ مِن عَمروٍ فقَنَّعَ رَأسَه	وعَورةُ بُسرٍ مِثلُها حَذوَ حاذِيَه
فَقُولا لِعَمروٍ ثُمّ بُسرٍ ألا انظُرا	سَبيلَكُما لا تَلقَيا اللَّيثَ ثانِيَه
ولا تَحمَدا إلا الحَيَا و	هُما كانَتا واللهِ لِلنَّفسِ واقِيَه
وَلولاهُما لم تَنجُوا مِن سِنانِه	وتِلكَ بما فيها عَنِ العَوْدِ ناهِيَه

٢. خبر الإمام مع بسر بن أرطاة: روى نصر بن مزاحم في كتابه «وقعة صفين» خبر مبارزة الإمام علي عليه السلام لبسر بن أبي أرطأة حيث قال: وبرز يومئذ عروة بن داود الدمشقي فقال: **إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلم إليَّ.**

فتقدم إليه علي فقال له أصحابه: **ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر.**

فقال: **والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه، دعوني وإياه.**

ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين، سقطت إحداهما يمنة والأخرى يسرة، فارتج العسكران لهول الضربة، ثم قال: **اذهب يا عروة فأخبر قومك، أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار وأصبحت من النادمين.**

وقال ابنُ عم لعروة: **واسوء صباحاه، قبَّح الله البقاء بعد أبي داود.**

ثم قال أبياتاً في رثائه، وحمل بعدها على علي عليه السلام فطعنه فضرب الرمح فبراه، ثم قنعه ضربة فألحقه بأبي

---

(١) أبوحيان: الإمتاع والمؤانسة. مجلد ١. ج ٣. ص ١٨٣.

(٢) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار. ج ١. ص ١٦٤.

(٣) ابن عبدربه الأندلسي: العقد الفريد. ج ٢. ص ٢٨٧.

(٤) الحلبي: السيرة الحلبية. ج ٢. ص ٢٢٣.

(٥) الصحيح (بسر بن أبي أرطأة أو ابن أرطأة أو ابن أرطاة) وليس (نصر بن أرطأة)

(٦) آثرنا حذف الكلمة في البيت الخامس تعففاً، ومن أراد فليراجع المصدر. محسن الأمين: أعيان الشيعة. ج ١٨. ص ٣٧٦. والحارث الجشيمي كان من أصحاب الإمام علي.

داود، ومعاوية واقف على التل يبصر ويشاهد، فقال: **تباً لهذه الرجال وقبحاً، أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة، أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع ؟**

فقال الوليد بن عقبة: **ابرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته.**

فقال: **والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش، وإني والله لا أبرز إليه، ما جُعل العسكر بين يدي الرئيس إلا وقايةً له.**

فقال عتبة بن أبي سفيان: **إلهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه، فقد علمتم أنه قتل حريثاً وفضح عَمْراً، ولا أرى أحداً يتحكك به إلا قتله.**

فقال معاوية لبسر: **أتقوم لمبارزته ؟**

فقال: **ما أحدٌ أحقُّ بها منك، وإذا أبيتموه فأنا له.**

فقال له معاوية: **أما إنك ستلقاه في العجاجة غداً في أول الخيل.**

وكان عند بسر ابن عم له قد قدم من الحجاز يخطب ابنته، فأتى بسراً فقال له: **إني سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز علياً؟ أما تعلم أن الوالي من بعد معاوية عتبة، ثم بعده محمد أخوه، وكل من هؤلاء قرن لعلي، فما يدعوك إلى ما أرى؟**

قال: **الحياء، خرج مني كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه.**

فضحك الغلام وقال في ذلك:

تُنازِلُه يا بُسرُ إنْ كُنتَ مِثلَه ... وإلا فَإنَّ اللَّيثَ لِلضَّبعِ آكِل
كأنَّكَ يا بُسرَ بنُ أرطاةَ جاهِل ... بِآثارِه في الحَربِ أو مُتَجاهِل
مُعاويةُ الوالي وصِنواهُ بَعدَه ... ولَيسَ سَواءٌ مُستعارٌ وثَاكِل
أولئكَ هُم أولَى بِهِ مِنكَ إنَّه ... عَلِيٌّ فلا تَقرَبهُ، أمُّك هابِل
متَى تلقَه فالموتُ في رأسِ رُمحِه ... وفي سَيفِه شُغلٌ لِنَفسِكَ شاغِل
وما بَعدَه في آخِرِ الحَربِ عَاطِف ... ولا قَبلَهُ في أوَّلِ الخَيلِ حَامِل

فقال بسر: **هل هو إلا الموت، لا بد والله من لقاء الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فغدا علي عَلَيْهِ السَّلَامُ منقطعاً من خيله ومعه الأشتر، وهو يريد التل وهو يقول[1]:

إنِّي عَلِيٌّ فَاسألُوا لِتُخبَروا ... ثم ابرزُوا إلى الوَغَى أو ادبرُوا

(١) مجحر: مضطر.

سَيفي حُسامٌ وسناني أزهَر ... مَنّا النَّبيُّ الطَّيبُ المطهَّرُ
وحَمزةُ الخَير ومِنَّا جَعفَر ... لَهُ جَناحٌ في الجِنانِ أخضَرُ
ذا أسَدُ اللهِ وفيهِ مَفخَر ... هَذا وهَذا وابنُ هندٍ مَجحَرُ

مُذَبذبٌ مُطّرِدٌ مُؤَخَّرُ

فاستقبله بسر قريباً من التل وهو مقنّع في الحديد لا يُعرف، فناداه: **ابرز إلي أباحسن.**

فانحدر إليه علي تؤدة غير مكترث، حتى إذا قاربه طعنه وهو دارع، فألقاه على الأرض، ومنع الدرع السنان أن يصل إليه، فاتقاه بسر بعورته، وقصد أن يكشفها يستدفع بأسه، فانصرف عنه علي عليه السلام مستدبراً له، فعرفه الأشتر حين سقط فقال: **يا أمير المؤمنين، هذا بسر بن أرطاة، عدو الله وعدوك.**

فقال: **دعه عليه لعنة الله، أبَعدَ أن فعلها.**

فحمل ابنُ عمٍّ لبسر شابٌّ على علي عليه السلام وهو يقول:

أردَيتَ بُسراً والغُلامُ ثائِرُه ... أرديتَ شَيخاً غَاب عَنه ناصِرُه

وكُلُّنا حَامٍ لبسرٍ واتِرُه

فحمل عليه الأشتر وهو يقول[1]:

أكُلّ يومٍ رَجلٌ شيخٌ شاغِرَه ... وعَورةٌ وسَطَ العَجاجِ ظاهِرَه
تُبرِزُها طَعنةُ كَفٍّ واتِره ... عَمرو وبسرٌ رُميا بِالفاقِرَه

فطعنه الأشتر فكسر صلبه، وقام بسر من طعنة علي مولياً، وولّت خيله، وناده علي: **يا بسر، معاوية كان أحق بهذا منك.**

فرجع بسر إلى معاوية، فقال له معاوية: **ارفع طرفك قد أدال الله عمراً منك.**

فكان بسر بعد ذلك إذا لقى الخيل التي فيها علي تنحى ناحية، وتحامى فرسانُ أهل الشام علياً[2].

٣. إحصائيات متعلقة بصفين: ذكر العلامة السيد محسن الأمين مجموعة من الإحصائيات ذات العلاقة بمعركة صفين، ونقل عن المسعودي وآخرين، وقدم بعض الاستنتاجات، قال نقلاً عن المسعودي: اختُلف في مقدار ما كان مع علي من الجيش وما كان مع معاوية، فمُكثر ومُقِل، والمتفق عليه من قول الجميع أنه كان مع علي تسعون ألفاً ومع معاوية خمسة وثمانون ألفاً.

---

(١) فاقرة: الأمر العظيم الذي يكسر فقرات الظهر.
(٢) ابن مزاحم: وقعة صفين. ص ٤٥٨ – ٤٦٢. مع الاختصار.

وبخصوص تاريخ الأحداث وتوقيتها قال المسعودي: الذي ذكره جماعة من المؤرخين أنها كانت من ابتداء ذي الحجة سنة ٣٦هـ وانتهت في ١٣ صفر سنة ٣٧.

ففي جمادي الآخرة سنة ٣٦ كانت وقعة الجمل كما مر، وفي ١٢ رجب منها سار أمير المؤمنين عليه السلام من البصرة إلى الكوفة، والمسافة بينهما نحو عشرة أيام فيكون وصوله إليها في نحو ٢٢ منه.

ثم خرج إلى النخيلة معسكر الكوفة في أواخر شهر رمضان أو أول شوال منها، وفي ٥ أو ٦ من شوال سار من النخيلة إلى صفين.

أما وصوله إلى صفين فلا يحضرني الآن تعيينه ويظهر من الطبري أن وصولهم إلى صفين كان في أواسط ذي القعدة سنة ٣٦، فإنه بعد ما ذكر القتال على الماء عند وصولهم قال: فمكث عليٌّ يومين لا يراسل معاوية ثم راسله أول ذي الحجة. فيكون مقامهم في الطريق بين الكوفة وصفين نحو شهر وعشرين يوماً، والمسافة بينهما وإن كان يمكن قطعها بأقل من نصف هذه المدة، إلا أن مسير جيش فيه تسعون ألفاً أو أكثر بأثقالها لا يمكن إلا أن يكون في قليل من كل يوم غدوة وعصراً، لا سيما إن كان يجمع العساكر في طريقه من المدائن وغيرها، وأن أهل الرقة منعوه من العبور وقطعوا الجسر، ومضت مدة حتى أعادوه وجرت خطوب استغرقت زمناً طويلاً.

وقال المسعودي وغيره أن مقامهم بصفين كان مائة يوم وعشرة أيام، كان فيها نحو تسعين أو سبعين وقعة، وهو يقارب ما ذكره الطبري بأن يكون وصولهم إلى صفين في العشرين من ذي القعدة، فإذا ضمت العشرين الباقية منه إلى ذي الحجة والمحرم وصفر الذي كتبت الصحيفة لأيام بقيت منه لعلها لا تتجاوز الثلاثة فهذه نحو مائة يوم، وإلى أن أمضيت الصحيفة واستعدوا للسفر مضى نحو ثلاثة عشر يوماً، فهذه مائة يوم وعشرة أيام.

والحاصل أنه في جمادي الآخرة سنة ٣٦ كانت وقعة الجمل، وفي ١٢ رجب منها سار أمير المؤمنين عليه السلام من البصرة إلى الكوفة، وفي آخر رمضان أو أول شوال خرج من الكوفة إلى النخيلة.

وفي ٥ أو ٦ من شوال سار من النخيلة إلى صفين، فوصلها في ذي القعدة، وابتدأ الحرب في أول ذي الحجة سنة ٣٦، واستمر إلى آخره وتركوا الحرب في المحرم سنة ٣٧، واستؤنف واشتد في أول صفر إلى ١٣ منه فوقع الصلح.

وفي مروج الذهب: كان الصلح لأيام بقين من صفر سنة ٣٧، وقيل بعد هذا الشهر منها.

وفيه في موضع آخر: وكُتبت صحيفة الصلح لأيام بقين منه.

وهناك آراء أخرى في البين نقلها العلامة الأمين لم نوردها للاختصار [1].

• **التحكيم:** في الموعد المحدد للصلح، وذلك في رمضان من سنة ٣٧ هـ، التقى الناس من الطرفين بدومة الجندل، وأقبل أبوموسى، فلما رآه عمرو استقبله، فسلّم عليه أبو موسى، ومدّ أبو موسى يده إلى عمرو فصافحه وحياه وضمه إلى صدره، ثم قال: **يا أخاه ! طال عهدي بك، فقبّح الله أمراً فرّق بيننا !**

(١) الأمين: أعيان الشيعة ـ ج ١ ـ ص ٤٦٥ – ٤٦٦.

ثم أقعده عمرو على فراشه وأقبل عليه يحدّثه ساعة، ثم دعا عمرو بالطعام فأكلا جميعاً، وانصرف أبو موسى إلى رحله. ثم لم يزالا يجتمعان في كل يوم فيتحدثان وينصرفان، واستمرا على ذلك أياماً كثيرة، حتى ارتابت الناس وغمّهم ذلك، وأصروا على عقد اللقاء العلني سريعاً. التقى عمرو بالأشعري قبيل بدء اللقاء، وعرض عليه أن يخلع علياً ليخلع هو معاوية ويجعلا الأمر بيد عبدالله بن عمر بن الخطاب الذي كان قد اعتزل الفريقين، واتفقا على أن يكون اللقاء العلني يوم الأثنين ليعلنا فيه نتيجة المباحثات.

وفي الغد أقبل عمرو بن العاص إلى أبي موسى ومعه شهود قد أعدهم للذي يريد أن يصنع، فقال عمرو بمحضر من الناس: **أبا موسى ! أنشدك الله من أحق بهذا الأمر ؟ مَن وفى أو مَن غدر ؟**

فقال أبو موسى: **لا بل مَن وفى.**

قال: **فما تقول في عثمان أقُتل ظالماً أو مظلوماً ؟**

فقال أبو موسى: **بل مظلوماً.**

قال: **فما تقول في قاتله أيُقتل به أم لا ؟**

فقال أبو موسى: **بل يُقتل به.**

قال عمرو: **فمن يقتله ؟**

قال: **يقتله أولياء عثمان، لأن الله** عَزَّوَجَلَّ **قال:** ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾[1].

قال عمرو: **فهل تعلم أن معاوية من أولياء عثمان ؟**

فقال أبو موسى: **نعم، هو من أولياء عثمان.**

قال عمرو: **أيها الناس! اشهدوا على مقالة أبي موسى.**

قال أبو موسى: **نعم، فاشهدوا، ثم اشهدوا على ما أقول، إن معاوية من أولياء عثمان، قم يا عمرو فاخلع صاحبك، فإننا على ما كنا عليه أمس.**

فقال عمرو: **سبحان الله ! أقوم أنا من قبلك وقد قدَّمك الله عليَّ في الإيمان والهجرة ؟! لا بل قم أنت فتكلم بما أحببت، وأقوم أنا من بعدك.**

وثب أبو موسى قائماً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **أيها الناس، إن خير الناس خيرهم لنفسه، وإن شر الناس شرهم لنفسه، وقد علمتم ما كان من الحروب التي لم تُبقِ على برٍّ ولا تقي ولا محق ولا مُبطل، ألا وإني قد رأيت أن نخلع علياً ومعاوية، ونجعل هذا الأمر في عبد الله بن عمر بن الخطاب، فإنه رجل لم يبسط في هذه الحروب لساناً ولا يداً، ألا وإني قد خلعت علياً من الخلافة كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي، والسلام.**

---

(١) سورة الإسراء : ٣٣.

وقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال: **أيها الناس، هذا عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري، وافد رسول الله ﷺ، وعامل عمر بن الخطاب، وحكم أهل العراق، وقد خلع صاحبه علياً من الخلافة كما زعم أنه خلع خاتمه من أصبعه، ألا وإني قد أثبتُّ معاوية في الخلافة كما أثبت خاتمي هذا في أصبعي.**

ثم قعد. فقال أبو موسى: **عليك غضب الله، فو الله ما أنت إلا كما قال الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿**كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾[١].

أطلق كل من الطرفين الشتائم بحق بعضهما البعض، وضج الناس رافضين ما جرى، ودعا بعضهم للعودة إلى الحرب، واضطر عمرو للنكوص، وبلغ ذلك علياً، فقال: **أما أنا قد أخبرتكم الأمر قبل أن يكون، وقد جهدنا أن يكون الحكم غير أبي موسى فأبيتم عليّ وجئتموني به مبرنساً**[٢]**، وقلتم: قد رضينا به فاتبعتُ رأيكم، والآن فلا سبيل إلى حرب القوم إلى انقضاء المدة التي كانت بيننا وبينهم.**

ومع هذا القرار الحاسم رجع أهل العراق إلى عراقهم وهم عازمون على معاودة الحرب إذا انقضت المدة، ورجع أهل الشام إلى شامهم وهم على ذلك من أهل العراق. وصار أبو موسى الأشعري إلى مكة، فأقام بها حياءً من الإمام.

وهكذا بقي الأمر غير محسوم لأحد من الطرفين، وعمد معاوية لسلسلة من التدابير الحربية يريد بها زعزعة الأمن في المناطق الخاضعة لحكم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ تمهيداً لتحقيق ما فشل في تحقيقه من خلال مجريات دومة الجندل. ولم يقبل الإمام علي بنتيجة التحكيم لأنها كانت مخالفة لشرط أساس في الاتفاقية، والتي كانت تنص على أن يكون التحكيم بناء على حكم القرآن، لأن الحرب توقفت بمبرر تحكيم كتاب الله.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى أَنِ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا**[٣] **عِنْدَ الْقُرْآنِ، ولاَ يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِه، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالاعْوِجَاجُ دَأْبَهُمَا، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا، وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لاَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ**[٤].

۞ بعد التحكيم:

كان لنهاية صفين بالصورة التي انتهت بها دون حسم، ثم لمآلات التحكيم نتائج سلبية عديدة امتدت إلى استشهاد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي لثلاث سنوات تقريباً.

فبعد دفن الشهداء في صفين، أمر الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من ينادي بالرحيل، قال عمارة بن ربيعة واصفاً حال معسكر الإمام: **ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله، ويتشاتمون ويضطربون بالسياط. يقول الخوارج: يا أعداء الله**

---

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) مبرنساً: لابساً البرنس، والبرنس، قلنسوة طويلة أو جبة كان النساك يلبسونها في صدر الإسلام.

(٣) يجعجعا عند القرآن: يقيما عنده كناية عن الاحتكام والرجوع إليه.

(٤) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٧٧.

أدهنتم في أمر الله عَزَّوَجَلَّ وحكّمتم، وقال الآخرون: فارقتم إمامَنا وفرّقتم جماعتنا، فلما دخل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الكوفة لم يدخلوا معه، حتى أتوا حروراء[١].

وروى المسعودي في مروج الذهب: **تباغض القوم جميعاً، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض، يتبرأ الأخ من أخيه، والأب من ابنه، وأمر علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرحيل لعلمه باختلاف الكلمة وتفاوت الرأي وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم... وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف، وتسابّوا ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه، وسار علي يؤم الكوفة**[٢].

قال ابن كثير حول ما جرى لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد صفين: **ذهب إلى الكوفة، فلما دخلها انعزل عنه طائفة من جيشه، قيل: ستة عشر ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وقيل: أقل من ذلك، فباينوه وخرجوا عليه، وأنكروا أشياء. فبعث إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم فيها ورد عليهم ما توهموه شبهة، ولم يكن له حقيقة في نفس الأمر، فرجع بعضهم واستمر بعضهم على ضلالهم**[٣].

وفي الكوفة كان الإمام يحاول أن يستشف آراء الناس بعيداً عن المجاملات أو الخوف، ففي تاريخ الطبري أن الإمام التقى بعبد الله بن وديعة الأنصاري، وكانت له صحبة، فدنا منه وسأله فقال: **ما سمعت الناس يقولون في أمرنا هذا؟**

قال: **منهم المعجب به، ومنهم الكاره له. والناس كما قال الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾[٤].

فقال له: **فما يقول ذوو الرأى؟**

قال: يقولون: **إن علياً كان له جمع عظيم ففرّقه، وحصن حصين فهدمه، فحتى متى يبني مثل ما قد هدّم؟ وحتى متى يجمع مثل ما قد فرق؟ فلو أنه كان مضى بمن أطاعه إذا عصاه مَن عصاه، فقاتَل حتى يُظهره الله أو يهلك، إذن كان ذلك هو الحزم.**

فقال علي: **أنا هدَمت أم هم هدموا؟ أم أنا فرقت أم هم فرقوا؟**[٥]

وفي قسم الحكم من نهج البلاغة تحت عنوان: «ومن كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ للسائل لما سأله: أ كان مسيرنا إلى الشام بقضاء من اللّه و قدر؟ بعد كلام طويل هذا مختاره»[٦] ذكر الشريف الرضي مقطعاً من حوار جرى بين الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين شيخ من أهل الكوفة، يتبيّن من خلاله حصول خلل واهتزاز عقدي نتيجة مجريات الأحداث. وقد ذكر الكليني تمام الخبر، وهو كالتالي: كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخ فجثا بين يديه، ثم قال له: **يا أمير المؤمنين أخبِرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أ بقضاء من الله وقدر؟**

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٠٨. وحروراء على مسافة ٦ كم تقريباً من الكوفة.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٣٣٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٣١٠.

(٤) سورة هود: ١١٨.

(٥) ابن مزاحم: وقعة صفين، ص ٥٢٩-٥٣٠.

(٦) الرضي: نهج البلاغة، الحكمة ٧٣.

فقال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أجل يا شيخ، ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن واد إلا بقضاء من الله وقدر.**

فقال له الشيخ: **عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين!**[١]

فقال له: **مه يا شيخ! فوالله لقد عظم الله الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شئ من حالاتكم مكرَهين، ولا إليه مضطرين.**

فقال له الشيخ: **وكيف لم نكن في شئ من حالاتنا مكرهين ولا إليه مضطرين، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟ فقال له: وتظن أنه كان قضاء حتماً وقدراً لازماً؟**[٢] **إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي والزجر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب، ولا محمدة للمحسن، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان وقدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كلف تخييراً ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُطَعْ مكرهاً، ولم يملك مفوَّضاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.**

فأنشأ الشيخ يقول:

أنتَ الإمامُ الذي نَرجُو بطاعته	يومَ النَّجاة مِن الرَّحمنِ غُفرانَا
أوْضَحْتَ مِن أمرِنا ما كَانَ مُلتَبِساً	جزاكَ ربُّك بالإحسَانِ إحسَانَا

هذه المشاهد المؤلمة تساعدنا على فهم الوضع الذي سيكون في الكوفة في الفترة اللاحقة والتي تضاعفت مع ظهور نتيجة التحكيم، وكيف أن قرار الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ باستئناف القتال مع معاوية والإعداد لذلك قد تم تأجيله لعدم مواءمة الظروف الداخلية، بل إن الأحداث سارت في اتجاه أخطر وأشد تعقيداً، إذ واجه الإمام لاحقاً تمرداً في جهتين، في حروراء وفي النخيلة، حيث تجمع آلاف الخوارج فيهما، ولم ينته هذا التمرد في الأشهر الخمسة اللاحقة إلا بوقوع حرب النهروان في صفر من عام ٣٨ هـ.

أما في الشام، فإن معاوية اتخذ عدة خطوات للاستفادة من كل التعقيدات التي واجهها الإمام بعد صفين والتحكيم، ويمكن تلخيصها في ما يلي:

١. التعامل مع الناس على أنه الخليفة الشرعي، وأن الطرف الآخر المتمثل في علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه هم المتمرّدون على الشرعية حين لم تأت نتيجة التحكيم لصالحهم! وتم تسويق هذه المقولة لتصبح وكأنها من المسلمات.

٢. شن الغارات المفاجئة والسريعة على المدن والقرى والنواحي التي كانت تحت سلطة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، سواء

---

(١) وكأن الشيخ فهم من الإمام أن لا قيمة للأعمال الصادرة منهم ما دامت مقدرة ومقضية، فبيّن له الإمام بعدها أن القضاء والقدر لا يعني الإكراه والإجبار والتسيير، بل يبقى الإنسان مخيراً وبالتالي مثاباً أو معاقباً على أفعاله.

(٢) أي على نحو التسيير والجبر .

في العراق أو مصر أو الحجاز أو اليمن، وذلك لمد نفوذه من جهة، ولزعزعة الأمن الداخلي في المناطق الواقعة تحت سلطة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من جهة أخرى.

٣. السعي لشراء ولاءات المسؤولين التابعين لسلطة الإمام علي، وكبار الشخصيات، والقبائل، ورجال الحرب حيثما كانوا، سواء بالمال أو بالإغراء بالمناصب والإقطاعات.

- **في مصر:** محطتنا الأولى مصر، حيث كان الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ قد بعث أول خلافته قيس بن سعد بن عبادة والياً عليها، وكانت بعض الأنحاء من مصر عثمانية الهوى وتوالي الأمويين، وتم رفع شعار المطالبة بالقصاص لدم عثمان. حاول قيس تعديل الموقف، بينما حاول معاوية من خلال رجاله أن يشتري ذمة قيس، ففشل، ومع هذا نجح في أن يشيع بين الناس أن قيساً غدا من شيعته !

ارتاب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من موقف قيس، فبالإضافة إلى الإشاعة التي راجت، لم يعمل قيس وفق التوجيهات التي قدّمها له الإمام قبل تكليفه وبعد ذلك، ومن بينها الحزم في التصدي للأوضاع المختلة أمنياً وسياسياً، الأمر الذي جرَّ إلى مجموعة مراسلات بين الطرفين انتهت بعرض قيس على الإمام أن يعزله، فعزله. ولما عاد قيس إلى المدينة لم يشارك في معركة الجمل، ولكنه عاد وانضم إلى المناصرين للإمام في صفين، فكان أحد قادته المهمين.

بعث الإمام ـ مضطراً ـ ربيبه الشاب محمد بن أبي بكر إلى مصر والياً عليها، حيث كان بحاجة إلى أهل الخبرة معه في حربه بصفين، واستقامت له الأمور نسبياً إلى أن انتهت الحرب، ولم يُحسم الأمر لصالح الإمام، ونجح معاوية من خلال رجاله في مصر في تأليب الأوضاع وإحداث الفتن الداخلية المستمرة التي كانت أكبر من قدرات محمد والإمكانات التي بيده.

وفي مواجهة تلك التطورات، عمل الإمام ـ بعد صفين ـ على إرسال مالك الأشتر ليسعف ابن أبي بكر، ولكن معاوية بادر باغتياله قبل وصوله إلى حيث يريد في مصر، وذلك عن طريق المسؤول على الخراج في «القلزم»[1] والذي قَبِل رشوة معاوية، فدس السم في عسلٍ قدّمه لمالك، فتوفي مسموماً.

وكان الإمام قد زوّد مالكاً بكتاب لأهل مصر،

تربى محمد بن أبي بكر على يد الإمام علي بعد وفاة أبيه، وزواجه من أمه، فأمه هي أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، وقد أنجبت منه عبدالله في الحبشة، ثم استشهد جعفر الطيار في معركة مؤتة، فخلف عليها الخليفة أبوبكر فأولدها محمداً. قال ابن أبي الحديد: (وكان محمد ربيبه وخريجه، وجارياً عنده مجرى أولاده، رضع الولاء والتشيع مذ زمن الصبا فنشأ عليه، فلم يكن يعرف له أباً غير علي، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتى قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: محمد ابني من صلب أبي بكر... ومن وُلْد محمد: القاسم بن محمد بن أبي بكر فقيه الحجاز وفاضلها، ومن وُلد القاسم: عبدالرحمن بن القاسم بن محمد، كان من فضلاء قريش ويكنى أبا محمد، ومن وُلد القاسم أيضاً: أم فروة، تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن علي، فأولدها الصادق أباعبد الله جعفر بن محمد) .

(١) مدينة مصرية كانت تعرف في بعض المصادر باسم كليسما، وتقوم على أنقاضها الآن مدينة السويس.

رواه الشريف الرضي كالتالي: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ نَذيراً لِلْعَالَمِينَ، وَمُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ. فلمَّا مَضى ﷺ تنازَعَ الْمُسْلِمُونَ الاَمْرَ مِنْ بَعْدِه، فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي[١]، وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هذَا الاَمْرَ مِنْ بَعْدِه ﷺ عَنْ أَهْلِ بَيْتِه، وَلاَ أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِه! فَمَا رَاعَنِي[٢] إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ[٣] عَلَى فُلاَنٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي[٤] حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الاِسْلاَمِ[٥]، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الاِسْلاَمَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً[٦] أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلاَئِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الاَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ[٧] الْبَاطِلُ وَزَهَقَ[٨]، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ[٩]. إِنِّي وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَهُمْ طِلاَعُ[١٠] الأَرْضِ كُلِّهَا مَا

(١) الرُّوع: القلب، أو موضع الرَّوْع منه ـ بفتح الراء ـ أي الفَزَع.
(٢) راعَني: أَفْزَعَني.
(٣) انثيال الناس: انصبابهم.
(٤) أَمْسَكْت يدي: كففتها عن العمل وتركت الناس وشأنهم.
(٥) يشير بذلك إلى أحداث الردة بعد وفاة النبي.
(٦) ثَلْماً: خرقاً.
(٧) زاح: ذهب.
(٨) زَهَقَ: خرجت روحه ومات، مجاز عن الزوال التام.
(٩) تَنَهْنَهَ: أي كَفّ.
(١٠) الطِلاع: مِلْء الشيء.

بَالَيْتُ وَلاَ اسْتَوْحَشْتُ، وَإِنِّي مِنْ ضَلاَلِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَعَلى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي. وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ، وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ، وَلَكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هذه الأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً وَعِبَادَهُ خَوَلاً[١]، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً، فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ، وَجُلِدَ حَدّاً فِي الاْسْلاَمِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الاْسْلاَمِ الرَّضَائِخُ[٢]، فَلَوْلاَ ذلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ[٣].

أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ[٤]، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تُزْوَى[٥]، وَإِلَى بِلاَدِكُمْ تُغْزَى! انْفِرُوا «رَحِمَكُمُ اللهُ» إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَلاَ تَثَّاقَلُوا إِلَى الأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِالْخَسْفِ وَتَبُوؤُوا بِالذُّلِّ[٦]، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ الاْخَسَّ، وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الأَرِقُ[٧]، وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ، وَالسَّلاَمُ[٨].

أما معاوية فقد وقف خطيباً على إثر اغتيال مالك وقال: **أما بعد فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان، قُطعت إحداهما يوم صفين ـ يعني عمار بن ياسر ـ وقُطعت الأخرى اليوم ـ يعني الأشتر ـ**[٩].

حاول الإمام أن يستنهض الناس لإنقاذ الوضع بمصر دون جدوى، بينما جهّز معاوية جيشاً بقيادة عمرو بن العاص ووجهه نحو مصر، واستنجد محمد بالإمام ليرسل له المدد، فنهض الإمام وخطب في الناس، وحثهم على الخروج لنجدة محمد، إلا أنهم خذلوه ولم يجتمع إلا نفر قليل أرسلهم الإمام بقيادة مالك بن كعب الذي سار فيهم خمس ليال حتى بلغه الخبر بانتهاء القتال بمصر، بغلبة عمرو وأسر محمد بن أبي بكر، فأمر عمرو بقتله، فضُربت عنقه ووُضعت جثته في جوف حمار ميت، ثم أحرقت! وبذا أصبحت مصر في يد معاوية وتحت حكمه وسلطانه.

كان وقع نبأ استشهاد محمد أليماً جداً على الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى رئي ذلك فيه، وتبين في وجهه، وقد قيل له: **لقد جزعت على محمد بن أبي بكر يا أمير المؤمنين!**

فقال: **وما يمنعني؟! إنه كان لي ربيباً، وكان لِبَنِيَّ أخاً، وكنتُ له والداً، أعدُّه ولداً. ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد** رَحِمَهُ اللهُ **وعند الله نحتسبه. أما والله لقد كان ما علمت ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحب سمت المؤمن. إني والله لا ألوم نفسي على تقصير ولا عجز، وإني بمقاساة الحرب لجدّ بصير، إني لأقدم على الحرب، وأعرف وجه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرخكم معلناً، وأناديكم مستغيثاً، فلا تسمعون لي**

---

(١) دُوَلاً: جمع دُولَة ـ بالضم ـ أي: شيئاً يتداولونه بينهم. الخَوَل ـ محركة ـ: العبيد.

(٢) الرَضَائخ: جمع رضيخة، وهي شيء قليل يعطاه الانسان يُصانع به عن شيء يطلب منه كالاجر، ورضخت له: أعطيت له.

(٣) ونيتم: ضَعُفْتم وفَتَرْتُم.

(٤) أطْرَاف البلاد: جوانبها. انتقصت: حصل فيها النقص باستيلاء العدو عليها.

(٥) تُزْوَى: تُقْبَضُ، وهي من زوَاه إذا قبضه عنه.

(٦) تُقِرّوا: تعترفوا. الخَسْف: أي الضيم. تَبُوؤوا: أي تعودوا بالذل.

(٧) الأرق: الساهر الذي لا ينام.

(٨) الرضي: نهج البلاغة، الرسالة ٦٢.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٢٧.

قولاً ولا تطيعون لي أمراً، حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة. وأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر، ولا تنقض بكم الأوتار، دعَوْتُكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة، فجرجرتم عليّ جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد، ولا رأي له في الاكتساب للأجر، ثم خرج إليَّ منكم جنيد متذائب ضعيف، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. فأف لكم[١].

وكتب الإمام كتاباً إلى ابن عباس يخبره بما جرى ويبدي مدى أسفه إلى ما آلت إليه أوضاع جنده، وفيه: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَد افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْر** [٢] **قَد اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ، وَلَداً نَاصِحاً، وَعَاملاً كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دَافِعاً. وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِه، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِه قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلاً. أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً، فَوَاللهِ لَوْلاَ طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ، لأَحْبَبْتُ أَلاَّ أَبْقَى مَعَ هؤُلاَءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلاَ أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً**)[٢].

ثم كتب إليه عبد الله بن عباس: **لعبد الله علي أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أما بعد. فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر وهلاك**[٤] **محمد بن أبي بكر، وأنك سألت الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التي ابتليت بها فرجاً ومخرجاً، وأنا أسأل الله أن يعلي كلمتك، وأن يغشيك بالملائكة عاجلاً. واعلم أن الله صانع لك، ومعز دعوتك، وكابت عدوك. وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تباطؤوا ثم نشطوا، فارفق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومنِّهم، واستعن بالله عليهم. كفاك الله الهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.**

وقدم عبد الله بن عباس من البصرة على الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فعزاه عن محمد بن أبي بكر، فقال الإمام: **رحم الله محمداً كان غلاماً حدَثاً، لقد كنت أردت أن أولّي المرقال هاشم بن عتبة مصر، فإنه والله لو وليها لما خلى لابن العاص وأعوانه العرَصة**[٥]**، ولا قُتل إلا سيفه في يده، بلا ذمٍّ لمحمد، فلقد أجهد نفسه فقضى ما عليه**[٦].

ولابن أبي الحديد تعليق على هذا الكتاب إعجاباً ببلاغته، قال: انظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها وتملكه زمامها، واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه، سلسة سهلة، تتدفق من غير تعسف ولا تكلف، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال: يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً. وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة، جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قسرها

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٩٢.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٢٧.

(٣) الرضي: نهج البلاغة، الرسالة ٣٥.

(٤) ليست لكلمة (هلاك) في ذلك الزمان دلالة سلبية، بل هي بمعنى الموت. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ سورة غافر: ٣٤.

(٥) العرصة: الأرض.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٩٣.

بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثر بيّن، وعلامة واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر[١]، قال: **انظر إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة، الأولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب أصلاً، ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما.**

ثم إن فواصل كل واحد منهما تنساق سياقه بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعة التكلفية. ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل، كيف قال :ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، لو قال: ولداً كادحاً وعاملاً ناصحاً، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً.

فسبحان مَن منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة ! أن يكون غلام من أبناء عرب مكة، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من أفلاطون وأرسطو ! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية، لأن قريش لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط ! ولم يربَّ بين الشجعان[٢]، لأن أهل مكة كانوا ذوي تجارة، ولم يكونوا ذوي حرب، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض.

قيل لخلف الأحمر[٣]: **أيما أشجع عنبسة وبسطام أم علي بن أبي طالب ؟**

فقال: **إنما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة.**

فقيل له: **فعلى كل حال؟**

قال: **والله لو صاح في وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما.**

وخرج أفصح من سحبان و قس[٤]، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جرهم وإن لم تكن لهم نباهة. وخرج أزهد الناس في الدنيا، وأعفّهم، مع أن قريشاً ذوو حرص ومحبة للدنيا، ولاغرو فيمن كان محمد ﷺ مربيه ومخرجه، والعناية الإلهية تمده وترفده أن يكون منه ما كان[٥].

سحبان بن زفر الوائلي من باهلة، خطيب وفصيح يضرب به المثل في البيان، وكان إذا خطب لا يعيد كلمة ولا يتوقف، ولا يقعد حتى ينتهي. اشتهر في الجاهلية وأدرك الإسلام. وقس هو قس بن ساعدة الأيادي أحد حكماء العرب ومن خطبائهم في الجاهلية.

- **في الحجاز:** كانت الحجاز بما فيها المدينة ومكة تحت سلطة الإمام، وسعى معاوية إلى تغيير هذا الواقع بالقوة،

(١) عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) من أئمة اللغة، واعتبر أنه واضع أصول البلاغة.

(٢) لربما يقصد أنه لم يرب بين من مارسوا الحروب، ولذا لم تظهر شجاعتهم في المعارك عملياً على أرض الواقع ،وإلا فإن شجاعة بني هاشم وآخرين مشهود لها .

(٣) أبو محرز خلف بن حيان مولى أبي موسى الأشعري وقيل أن أصله من خراسان .

(٤) أبو محرز خلف بن حيان مولى أبي موسى الأشعري وقيل أن أصله من خراسان .

(٥) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١٦ ـ ص ١٤٥ – ١٤٧.

لذا بعث عبدالله الفزاري في ١٧٠٠ فارس، وأمره أن يقصد المدينة ومكة، فبادر الإمام بإرسال المسيب بن نجبة الفزاري، وقال له: **يا مسيب، إنك ممن أثق بصلاحه وبأسه ونصيحته، فتوجه إلى هؤلاء القوم وأثر فيهم وإن كانوا قومَك. فقال: يا أمير المؤمنين، إن من سعادتي أن كنتُ من ثقاتك.**

خرج المسيب في ألفين، ووقع القتال بين الطرفين، وانهزم الغزاة، وتحصنوا بحصن تيماء، والتمس قائدهم الرحمة متعذراً بالرَّحِم، فهما من قبيلة واحدة، فتراخى معه المسيب حتى إذا طلع الصباح تفاجأ بهروب الغزاة، ولما عاد تألم الإمام وقال له: **يا مسيب، كنتَ من نصاحي، ثم فعلت ما فعلت!**

لم يتوقف معاوية عند هذا الحد، بل أرسل أحد سادات الشاميين واسمه «يزيد الرهاوي» باتجاه مكة لينتزع إقامة الحج من الوالي المعين من قبل الإمام «قثم بن العباس» ولينفيه ويأخذ البيعة لمعاوية. فخرج الرهاوي في ثلاثة آلاف فارس، وأرسل الإمام رسالة إلى قثم قال فيها: (**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ**[١] **كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى المَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُمِّ الأَسْمَاعِ الْكُمْهِ الأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا**[٢] **بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلاَّ عَامِلُهُ، وَلاَ يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلاَّ فَاعِلُهُ. فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ**[٣] **وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلاَ تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً، وَلاَ عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً، وَالسَّلاَمُ**)[٤]. ونلاحظ هنا تخوّف الإمام من ضعف ردة فعل القثم ـ وهو ابن عمه ـ وتراخيه في التعامل مع الغزاة.

جس قثم نبض أهل مكة فوجدهم مخالفين له، فخرج منها منتظراً المدد من علي، الذي استنهض أصحابه، وأرسل معقل بن قيس مع ١٧٠٠ فارس، فخرجوا أول ذي الحجة. وحيث لم يصل المدد قبل أو مع وصول الغزاة، لذا اضطر قثم إلى التصالح مع الرهاوي، وتم تعيين شخصية محايدة لتؤم الحج، وهذا في حد ذاته وهن ومقدمة لانتزاع إمارة الحج من عند الإمام علي عليه السلام. أما القوة العسكرية المرسلة فما وصلت إلا بعد أن انتهى الموسم، ولم تحدث أية مواجهة بين الطرفين

• **في اليمن:** كان لشيعة الأمويين حضور، ولكنهم ما كانوا يملكون القوة والامتداد، فلما وجدوا معاوية قد شن الغارات في الاتجاهات المختلفة، وأن الأمور بدأت تنتقض على الإمام علي، تمرَّدوا على الوالي عبيدالله بن العباس، وأظهروا البراءة من علي عليه السلام.

أرسل الإمام من يثيبهم إلى رشدهم فازدادوا تمرداً ووقاحة وقالوا له: **اذهب إلى علي فليبعث إلينا من شاء، فإنا على بيعة أمير المؤمنين عثمان بن عفان.**

وكتبوا إلى معاوية: **العجل العجل وجّه إلينا من قبلك لنبايعك.**

---

(١) غرب العراق.

(٢) درّها: لبنها، ويريد خيراتها.

(٣) الصليب: الشديد.

(٤) الرضي: نهج البلاغة، الرسالة ٣٣.

أرسل معاوية بُسر بن أبي أرطأة الفهري نحو اليمن وقال له: **انظر أن تجعل طريقك على مكة والمدينة، فلا تنزلن بلداً أهلُه في طاعة علي إلا بسطت لسانك عليهم حتى يظنوا أنك محيط بهم، وأنه لا نجاة لهم منك، ثم اصفح عنهم، وادعهم إلى البيعة، فمن أبى عليك فاستعمل السيف، واقتل كل من نابذك حتى تدخل أرض اليمن.**

لما بلغ بسر المدينة المنورة خوّف أهلها، وصاح بهم، وأمر بحرق بعض بيوت الأنصار وتدميرها، فوهن أهلها، وبايعوا معاوية. ثم سار إلى مكة، وهدَّد الناس وشتمهم، وأمر بذبح ابني والي صنعاء عبيدالله بن العباس، وأقام فيها أياماً ثم أعلن الصفح عنهم وهددهم بالاستئصال والنهب.

وهكذا توجه إلى الطائف فاستقبله المغيرة بن شعبة، فلم يفعل شيئاً، وتوجه إلى نجران، وقتل وهدد، ثم سار إلى اليمن، وقتل في عدة مواضع منها الكثير من الناس.

هرب والي صنعاء عبيدالله بن العباس، وجاء إلى الكوفة بمعية وال آخر من ولاة اليمن، فصعد الإمام المنبر متألماً للأخبار المفجعة التي بلغته فقال: (**مَا هِيَ إِلاَّ الكُوفَةُ، أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلاَّ أَنْت، تَهُبُّ أَعَاصِيرُك، فَقَبَّحَك اللهُ**[1]**!... أُنْبِئْتُ بُسْراً قَد اطَّلَعَ اليَمنَ، وَإِنِّي وَاللهِ لأَظُنُّ هؤُلاء القَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي البَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاحِهِمْ فِي بِلادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَو ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِه. اللهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، اللهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ المِلْحُ فِي المَاءِ**)[2].

وقال في موضع آخر: **ذهب والله أولي النهى والفضل والتقى.... وبقيت في حثالة قوم لا ينتفعون بموعظة ولا يفكرون بعاقبة**[3]. وبذا تكون اليمن والحجاز قد سقطتا بيد معاوية، إن لم يكن إدارياً وبشكل كامل، فعلى الأقل من الناحية الأمنية.

استجاب جارية بن قدامة للإمام وخرج في ألفين، ولكنه لم يستطع أن يلحق بالغزاة.

- **في العراق:** شُنَّت الغارات التي وجّهها معاوية نحو العراق بعد التحكيم مباشرة.

الغارة الأولى كانت بإمرة الضحاك بن قيس الفهري والذي قال له معاوية: **سر حتى تمر بناحية الكوفة، وترتفع منها ما استطعت، فمن وجدته من**

جارية بن قدامة التميمي السعدي، اختلف في كونه صحابياً أم لا. كان من أصحاب علي وشهد معه حروبه، وفي خبر أنه لما رجع من مسيره، بعد استشهاد الإمام، دخل على الإمام الحسن، فضرب على يده، وعزاه، وقال: ما يجلسك؟ سر، يرحمك الله، إلى عدوك، قبل أن يسار إليك. فقال الحسن: لو كان الناس كلهم مثلك سرت إليهم.

(١) يذم الإمام أهل الكوفة لخذلانهم، فقد أصبحوا بلا قرار ولا تأثير في الأحداث.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٢٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٤، ص٢٣٧.

الأعراب في طاعة علي فأغر عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليها. وإذا أصبحت في بلدة فأمسِ في أخرى، ولا تقيمن لخيل بلغك أنها قد سُرِّحت إليك لتلقاها فتقاتلها[١].

كان تكتيك الهجوم المباغت والنهب والترويع والقتل وتجنّب المواجهة العسكرية المباشرة مع قوات الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هو المعتمد من قبل القادة العسكريين الذين وجههم معاوية في الاتجاهات المختلفة، بهدف تحقيق ما أمكن من نتائج وتقليل الخسائر، وإسقاط المناطق المختلفة معنوياً قبل إسقاطها فعلياً.

وهكذا، انطلق الغزاة الذين كانوا ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف، وارتكبوا ما شاءوا من مجازر ونهب، وأغاروا على الحجيج في الثعلبية[٢]، وأخذوا أمتعتهم، ثم أقبل الضحاك بن قيس فلقي عمرو بن عميس بن مسعود الذهلي، وهو ابن أخي عبدالله بن مسعود، صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقتله في طريق الحاج عند القُطقطانة[٣]، وقتل معه ناساً من أصحابه.

ولما علم الإمام بما جرى، اعتلى المنبر وخطب قائلاً: **يا أهل الكوفة، اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس، وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طرف، اخرجوا فقاتلوا عدوكم، وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين.**

فرد عليه أهل الكوفة رداً ضعيفاً، ورأى منهم فشلاً، فقال: **والله لوددت أن لي بكل ثمانية منكم رجلاً منهم! ويحكم اخرجوا معي، ثم فرّوا عني ما بدا لكم، فوالله ما أكره لقاء ربي على نيتي وبصيرتي، وفي ذلك رَوْح لي عظيم، وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم.**

ثم نزل، فخرج يمشي حتى بلغ الغريَّين[٤]، ثم دعا حُجر بن عدي الكندي، فعقد له على أربعة آلاف، وسيّره نحو المعتدين، وتلاقى الجيشان عند تدمر[٥]، فاقتتلا وبدت الغلبة لحجر وأصحابه، فلما جنّ الليل هرب الضحاك بمن معه.

وكتب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين بلغه نبأ غارة الضحاك وخذلان أهل الكوفة: **لعبد الله علي أمير المؤمنين** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **من عقيل بن أبي طالب. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإن الله حارسك من كل سوء، وعاصمك من كل مكروه، وعلى كل حال، إني قد خرجت إلى مكة معتمراً، فلقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء، فعرفت المنكر في وجوههم، فقلت: إلى أين يا أبناء الشانئين؟! أبمعاوية تلحقون؟! عداوةٌ ـ والله ـ منكم قديماً غير مستنكرة، تريدون بها إطفاء نور الله، وتبديل أمره. فأسمعني القوم وأسمعتهم، فلما قدمت مكة، سمعت أهلها يتحدثون أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء، ثم انكفأ راجعاً سالماً. فأفّ لحياة في دهر جرأ عليك الضحاك! وما**

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١١٦.

(٢) الثعلبية: من منازل طريق الكوفة إلى مكة.

(٣) القطقطانة: موضع بالقرب من الكوفة.

(٤) الغريان: موضع في النجف الأشرف.

(٥) مدينة مشهورة في سوريا.

الضحاك؟! فقع بقرقر[١]! وقد توهمت حيث بلغني ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إليَّ يا بن أمي برأيك، فإن كنتَ الموت تريد، تحمّلتُ إليك ببني أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت، ومتنا معك إذا مت، فوالله ما أحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً[٢]. وأقسم بالأعز الاجل، إن عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هنئ ولا مرئ ولانجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: من عبد الله علي أمير المؤمنين: إلى عقيل بن أبي طالب، سلام الله عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. كلأنا الله وإياك كلاءة من يخشاه بالغيب، إنه حميد مجيد، قد وصل إليَّ كتابُك مع عبد الرحمن ابن عبيد الأزدي، تذكر فيه أنك لقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح مقبلاً من قديد[٣]، في نحو من أربعين فارساً من أبناء الطلقاء، متوجهين إلى جهة الغرب، وإن ابن أبي سرح طالما كاد الله ورسوله وكتابه، وصدَّ عن سبيله وبغاها عوجاً، فدع ابن أبي سرح، ودع عنك قريشاً، وخلِّهم وتركاضهم في الضلال، وتجوالهم في الشقاق. ألا وإن العرب قد أجمعت على حرب أخيك اليوم إجماعها على حرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قبل اليوم، فأصبحوا قد جهلوا حقه، وجحدوا فضله، وبادروه العداوة، ونصبوا له الحرب، وجهدوا عليه كل الجهد، وجروا إليه جيش الأحزاب.

اللهم فاجزِ قريشاً عني الجوازي ! فقد قطعَت رحمي، وتظاهرت عليّ[٤]، ودفعتني عن حقي، وسلبتني سلطان ابن أمي، وسلمت ذلك إلى من ليس مثلي في قرابتي من الرسول، وسابقتي في الإسلام ! إلا أن يدعي مدعٍ ما لا أعرفه، ولا أظن الله يعرفه، والحمد لله على كل حال. فأما ما ذكرته من غارة الضحاك على أهل الحيرة، فهو أقل وأزل من أن يلم بها أو يدنو منها، ولكنه قد كان أقبل في جريدة خيل، على السماوة، حتى مرَّ بواقصة وشراف والقطقطانة[٥]، مما والى ذلك الصقع، فوجهت إليه جنداً كثيفاً من المسلمين، فلما بلغه ذلك فرَّ هارباً، فاتبعوه فلحقوه ببعض الطريق وقد أمعن، وكان ذلك حين طفلت الشمس للإياب[٦]، فتناوشوا القتال قليلاً كلا ولا[٧]، فلم يصبر لوقع المشرفية[٨]، وولى هارباً، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلاً، ونجا جريضاً[٩] بعد ما أخذ منه بالمخنق[١٠]، فلأياً بلأى ما نجا .

---

(١) الفقع : ضرب من أردأ الكمأة . والقرقر: المستوية ، يقال للرجل الذليل : هو فقع قرقر ، لأن الدواب تنجله بأرجلها .

(٢) الفواق: المدة الزمنية ما بين حلبتين ، لأن الناقة تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب . وتقال للمدة الزمنية القصيرة .

(٣) قديد : اسم موضع قرب مكة.

(٤) تظاهرت: اجتمعت.

(٥) مواقع في العراق.

(٦) أي مالت إلى الغروب.

(٧) العرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل قالوا : كان فعله كلا ، وربما كرروا فقالوا : كلا ولا .

(٨) المشرفية: السيف.

(٩) جريضاً : مجهوداً يكاد يقضي عليه . والمخنق: الرقبة حيث يختنق الإنسان.

(١٠) أي نجا بعد بطء وشدة.

فأما ما سألتني أن أكتب لك برأيي فيما أنا فيه، فإن رأيي جهاد المحلِّين[١] حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس معي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، لأنني محق، والله مع المحق. ووالله ما أكره الموت على الحق، وما الخير كله إلا بعد الموت لمن كان محقاً.

وأما ما عرضت به من مسيرك إليَّ ببنيك وبنى أبيك فلا حاجة لي في ذلك، فأقم راشداً محموداً، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت، ولا تحسبن ابن أمك. ولو أسلمه الناس. متخشعاً ولا متضرعاً، إنه لكما قال أخو بني سليم[٢]:

فَإنْ تَسألِيني كَيفَ أنتَ فإنَّني ... صَبُورٌ علَى رَيبِ الزَّمانِ صَليبُ
يعُزُّ عليَّ أن تَري بِي كآبةً ... فيَشمُتَ عَادٍ أو يُساءَ حَبيبُ

وفي نهج البلاغة خطبة عنونها الشريف الرضي كالتالي: «بعد غارة الضحاك بن قيس صاحب معاوية على الحاجّ بعد قصة الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث في الأطراف» وفيها: (أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلامُكُم يُوهِي[٣] الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ[٤] مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلاَ اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ[٥] دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ[٦] لاَ يَمنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ! وَلاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَ بِالْجِدِّ! أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الأَخيَبِ[٧] وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ[٨] أَصْبَحْتُ وَاللهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلاَ أُوعِدُ العَدُوَّ بِكُم. مَا بَالُكُم؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ القَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ، أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ! وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ! وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ؟!)[٩].

۞ معركة النهروان:

قال العلامة السيد محسن الأمين: وقعة النهروان مع الخوارج سنة ٣٧ وقيل سنة ٣٨. الخوارج هم الذين أنكروا التحكيم الذي وقع يوم صفين وقالوا لا حكم إلا لله... ويقال لهم الحرورية أيضاً لأنهم في أول أمرهم اجتمعوا بمكان يقال له حروراء، وقاتلهم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وقتلهم بمكان يسمى النهروان، وهو موضع بين بغداد و حلوان، فسميت الوقعة به.

(١) المحلين: الخارجين من البيعة والميثاق وهم البغاة.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ١١٩-١٢٠. والشاعر هو صخر بن الشريد السلمي.
(٣) يوهي: يضعف ويفتت .
(٤) كلمة تقال عند تمنّي الهروب وتجنب المواجهة.
(٥) أي تتحججون بالأباطيل.
(٦) أي تماطلون مماطلة من عليه دين.
(٧) أي السهم الذي لا حظّ له.
(٨) أي مكسور النصل.
(٩) أي السهم الذي لا حظّ له.

وأساس عقيدتهم تولّي الشيخين والبراءة من الصهرين، فيتولون عثمان إلى حين وقوع الأحداث، ويتولّون علياً إلى حين وقوع التحكيم، وهم القراء الذين كانوا في صفّين وقد اسودت جباههم من طول السجود، وقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام إنها حيلة فلم يقبلوا، وأجبروه على التحكيم ثم أنكروه، ثم كانت لهم وقائع مشهورة مذكورة في كتب التواريخ في زمان ملوك بني أمية وبني العباس، ولا يزال منهم طائفة إلى اليوم في زنجبار والمغرب وشمال إفريقية وغيرها[١].

• **النبي يخبر عنهم**: استفاضت الروايات بشأن إخبار النبي عن ظهور فرقة الخوارج في مستقبل الأيام، وبيّن للمسلمين بعض خصوصياتهم وأوصافهم، واعتنى المحدثون والمؤرخون بذكر هذه الروايات في كتبهم، وذلك من قبيل ما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدري قال: **بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقسم قسماً**[٢]، **إذا أتاه ذوالخويصرة وهو رجل من بنى تميم فقال: يا رسول الله، إعدل.**

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ويلك، من يعدل إذا لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل.**

فقال عمر: **يا رسول الله، ائذن لي فيه أضرب عنقه.**

فقال: **دعه، فإن له أصحاباً يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شئ، ثم ينظر إلى**

(١) الأمين : أعيان الشيعة. ج ١. ص ٥٢١.
(٢) أي تقسيم الغنائم.

رصافه فلا يوجد فيه شئ ، ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شئ ، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شئ[١]، قد سبق الفرث والدم. آيتُهم رجل أسود أحد عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر[٢]، ويخرجون على خير فرقة من الناس.

قال أبو سعيد: **فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن على بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل، فالتُمس فوُجد، فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته.**

وعن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: **إن الحرورية لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب فقالوا لا حكم الا لله.**

فقال علي: **كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله . وصف ناساً إنى لأعرف صفتهم في هؤلاء، يقولون الحق بألسنتهم لا يجاوز هذا منهم . وأشار إلى حلقه . من أبغض خلق الله إليه، منهم أسود إحدى يديه كظبي شاة أو حلمة ثدي.**

فلما قتلهم علي بن أبي طالب قال: **انظروا، انظروا.**

فلم يجدوا شيئاً.

فقال: **ارجعوا فوالله ما كذَبت ولا كُذِّبت. مرتين أو ثلاثاً . ثم وجدوه في خربة، فأتوا به حتى وضعوه بين يديه.**

قال عبيد الله: **أنا حاضر ذلك من أمورهم وقول علي فيهم[٣].**

- **ممارسات منحرفة:** كانت للخوارج ممارسات تدل على ضحالة فهمهم للدين وقلة عقولهم، وتجرؤهم على حرم الله وتسرعهم في إصدار الأحكام بالتكفير وإراقة الدماء دون مبرر شرعي، فقد نقل لنا التاريخ صوراً بشعة ومستهجنة لممارساتهم مع ضحاياهم، وارتكبوا الجرائم كلما حلّوا في بلدة أو قابلوا مسلماً لا يتبع هواهم.

وقد روى المبرد في الكامل والطبري في تاريخه وغيرهما بعض تلك الصور، من بينها أنهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر لأنه على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني وقالوا: **احفظوا ذمَّة نبيكم.**

ونحو ذلك أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فأحس بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرفقة: **إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم وكانوا قد أشرفوا على العطب[٤].**

واصل بن عطاء الغزال (٨٠ هـ ـ ١٣١ هـ) رأس المعتزلة في زمانه. كان تلميذاً للحسن البصري، ومؤسس فرقة المعتزلة الإسلامية. حصل الخلاف بينه وبين الحسن في حكم مرتكب الكبيرة، فاعتزل حلقته، فقال الحسن «اعتزلنا واصل» فتسمت فرقته بالمعتزلة.

(١) الرصف: عقب يلوى على مدخل نصل السهم. نضي السهم: نصله أو قدحه. القذة: ريش السهم.

(٢) تدردر : تتدردر: تضطرب وتذهب وتجئ.

(٣) الإمام مالك : المدونة الكبرى ـ ج ٢ ـ ص ٤٨ – ٤٩.

(٤) العطب: الموت والهلاك.

فقالوا: **شأنك.**

فخرج إليهم فقالوا: **ما أنت وأصحابك ؟**

قال: **قوم مشركون مستجيرون بكم ليسمعوا كلام الله ويفهموا حدوده.**

قالوا: **قد أجرناكم.**

قال: **فعلِّمونا.**

فجعلوا يعلمونهم أحكامهم. ويقول واصل: **قد قبلت أنا ومن معي.**

قالوا: **فامضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.**

فقال: **بل تبلغوننا مأمنا لأن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **يقول:** ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[١].

قال: فينظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: **ذاك لكم.**

فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن!

ومما نُقل من غريب تصرفاتهم وأحكامهم أنه لقيهم عبد الله ابن الصحابي خباب بن الأرت، وفي عنقه مصحف، وهو راكب على حمار، ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له: **إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك.**

فوثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعاً. وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: **هذا فساد في الأرض.**

قال الطبري: فأتى صاحب الخنزير فأرضاه. فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: **لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليّ منكم بأس، إني لمسلم، ما أحدثتُ في الإسلام حدثاً، ولقد آمنتموني، قلتم: لا روْع عليك.**

وكانوا قالوا له ذلك لما لقيهم، قال المبرَّد: فقالوا له: **ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟**

قال: **إن علياً أعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة.**

قالوا: **إنك لست تتبع الهدى، إنما تتبع الرجال على أسمائهم.**

قال الطبري: قالوا: **والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً.**

فأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم[٢]، فاضجعوه فذبحوه وسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: **إني إنما أنا امرأة، ألا تتقون الله ؟**

---

(١) سورة التوبة: ٦.

(٢) متم: أتمت أشهر الحمل.

فبقروا بطنه، وقتلوا ثلاث نسوة من طئ، وقتلوا أم سنان الصيداوية!

قال المبرَّد: وساوموا رجلاً نصرانياً بنخلة له فقال: **هي لكم.**

فقالوا: **ما كنا نأخذها إلا بثمن.**

فقال: **واعجباه، أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون جنا نخلة إلا بثمن**[١]؟!

• **محاولات لم تنجح:** حاول الإمام علي عليه السلام جهده أن يثنيهم عن عزمهم في التمرد عليه، وألقى عليهم الحجج تلو الحجج، دون أن يلقى منهم أية استجابة، وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب نصوصاً كثيرة تتضمن خطب الإمام وكتبه في هذا المضمار، منها قوله: (**فإنْ أَبَيْتُمْ إلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البَرَاءَةِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ.**

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الاِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ. ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ[٢]!

وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الاَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّةَ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ، فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الاِجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الاِفْتِرَاقُ عَنْهُ، فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا.

فَلَمْ آتِ ـ لاَأَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً[٣]**، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا ـ فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ**[٤] **لِلْحَقِّ ـ سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا**[٥]**.**

ولم تقتصر جهود الإمام على محاورتهم، بل أرسل إليهم الرسل في محاولات عديدة دون أن تؤثر فيهم، وعقدوا العزم على المضي قدماً نحو التمرد وإثارة الفتنة.

---

(١) الأمين: أعيان الشيعة ـ ج ١ ـ ص ٥٢٢ – ٥٢٣.

(٢) ضرَبَ به تيهَهُ: سلك به في بادية ضلالته.

(٣) البُجر: الشر والأمر العظيم.

(٤) الصمد: القصد.

(٥) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٥.

• **إلى النهروان:** توجه الخوارج نحو حروراء، فنزلوا بها وكان عددهم اثنا عشر ألفاً، ونادى مناديهم: أميرُ القتال شبث بن ربعي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عَزَّوَجَلَّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما الإمام ـ فمن جهته ـ أعد العدة للخروج لقتال أهل الشام وليس الخوارج، بل وسعى في محاولة جديدة لاحتوائهم من خلال تذكيرهم بالعدو المشترك، وبيّن مبررات ذلك حين نهض في الكوفة خطيباً فقال: **الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدثان الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ أما بعد، فإن المعصية تورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري، ونحلتكم رأيي، لو كان لقصير أمر! ولكن أبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:**

أمـرتُـهـم أمـــرِي بِمُـنـعَـرجِ الـلِّـوى ... فلَم يَستبينُوا الرُّشدَ إلا ضُحَى الغَدِ

إلا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدىً من الله، فحكما بغير حجة بينة، ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشأم، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين.

ثم نزل. وكتب إلى الخوارج بالنهر: **بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن مَعهما من الناس. أما بعد، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله، واتبعا أهواءهما بغير هدىً من الله، فلم يعملا بالسنة، ولم ينفذا للقرآن حكماً، فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون! فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه. والسلام.**

فكتبوا إليه: **إنك لم تغضب لربك إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين**[1]!

أيس الإمام منهم، ورأى أن يدعهم ويمضي بالناس لقتال أهل الشام، وكتب إلى عبد الله بن عباس أمير البصرة يأمره بإشخاص أهلها إليه، فقرأ عليهم الكتاب وأمرهم بالشخوص مع الأحنف فشخص معه منهم ألف وخمسمائة، فاستقلهم ابن عباس فخطبهم، وقال: **لم يشخص منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألفاً، ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي.**

وتهدد ابن عباس من يتأخر، وأمر أبا الأسود بحشرهم، فاجتمع إلى جارية ألف وسبعمائة فقدموا على الإمام بالنخيلة. كما جمع الإمام رؤساء أهل الكوفة وقال: **أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق وصحابتي على جهاد عدوي المحلين، بكم أضرب المدبر وأرجو تمام طاعة المقبل.**

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١١٦.

وطلب إليهم أن يكتب له كل رئيس ما في عشيرته، فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال: **يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة وودا ونصيحة، أنا أول الناس جاء بما سألت.**

وقام معقل بن قيس الرياحي فقال له نحواً من ذلك، وقام عدي بن حاتم وزياد بن خصفة وحجر بن عدي وأشراف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك، فرفعوا إليه خمسة وستين ألفاً، فكانوا مع أهل البصرة ثمانية وستين ألفاً ومائتين، وبلغه أن الناس يرغبون في حرب الخوارج، فخطبهم وقال: **إن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم، فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً ويتخذوا عباد الله خولاً.**

فتنادوا من كل جانب: **سِر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت.**

سار الإمام بمن معه ونزل على الأنبار، والتأمت إليه العساكر من البصرة وغيرها.

قال الطبري: فبلغ علياً قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس فبعث إليهم الحارث بن مرة العبدي لينظر فيما بلغه عنهم، فقتلوه، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام فقال له الناس: **علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا ؟ سر بنا إليهم، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام.**

هكذا كانت الأمور تسير نحو حرب هؤلاء القوم، وكان لابد من توجيه ضربة موجعة إليهم لئلا يستمروا في غيِّهم، ولذا أمر الإمام بالتحرك نحو النهروان، حتى إذا كان على بعد فرسخين منها[١]، أرسل غلامه فقال له: **اركب إلى هؤلاء القوم وقل لهم عني: ما الذي حملكم على الخروج عليّ؟ ألم أقصد في حكمكم؟ ألم أعدل في قسمكم؟ ألم أقسم فيكم فيئكم؟ ألم أرحم صغيركم؟ ألم أوقّر كبيركم؟ ألم تعلموا أني لم أتخذكم خولاً، ولم أجعل مالكم نفلاً؟ وانظر ماذا يردون عليك! وإن شتموك فاحتمل، وإياك أن ترد على أحد منهم شيئاً.**

أقبل غلام علي حتى أشرف على القوم بالنهروان، فقال لهم ما أمره به، فقالت له الخوارج: **ارجع إلى صاحبك فلسنا نجيبه إلى شيء يريده أبداً، وإنا نخاف أن يردنا بكلامه الحسن كما رد إخواننا بحروراء عبد الله بن الكواء وأصحابه**[٢]، **والله** تَبَارَكَ وَتَعَالَ **يقول:** ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٣]، **ومولاك علي منهم، فارجع إليه وخبره بأن اجتماعنا ههنا لجهاده ومحاربته لا لغير ذلك.**

رجع الغلام إلى علي وأخبره بما سمع من القوم، فكتب إليهم الإمام: **بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله وابن عبده أمير المؤمنين وأجير المسلمين أخي رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ **وابن عمه، إلى عبد الله بن وهب وحرقوص بن زهير المارقين من دين الإسلام! أما بعد. فقد بلغني خروجكما واجتماعكما هنالك بغير حق كان لكما ولأبويكما من قبلكما، وجمعكما لهذه الجموع الذين لم يتفقهوا في الدين، ولم يعطوا في الله اليقين، والزما الحق فإن الحق**

---

(١) أي ١١ كم تقريباً.

(٢) كان الإمام علي قد ناظر الخوارج بعد خروجهم واستطاع إقناع كثيرين أن يعودوا إلى إخوانهم، وكان منهم عبد الله بن الكواء، وقد قال لعلي يومئذ: إننا لا ننكر أننا قد فتنا ، وقد رجعوا وانصرفوا مع علي إلى الكوفة .

(٣) سورة الزخرف: ٥٨.

يلزمكما منزلة الحق ثم لا يقضى إلا بالحق، ولا تزيغا فيزيغ من معكما من أخباركما فيكون مثلكما ومثلهم كمثل غنم نفشت في أرض ذات عشب، فرعت وسمنت، وإنما حتفها في سمنها.

وقد علمنا بأن الدنيا كعروتين سفلاً وعلواً، فمن تعلق بالعلو نجا، ومن استمسك بالسفل هلك، والسعيد من سعدت به رعيّته والشقي من شقيت به رعيّته، وخير الناس خيرهم لنفسه وشرُّهم شرُّهم لنفسه، وليس بين الله وبين أحد قرابة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[١].

والكلام كثير وإنما نريد منه اليسير، فمن لم ينتفع باليسير ضرّه الكثير، وقد جعلتموني في حالة من ضل وغوى وعن طريق الحق هوى، خرجتم عليَّ مخالفين بعد أن بايعتموني طائعين غير مكرهين، فنقضتم عهودكم ونكثتم أيمانكم، ثم لم يكفكم ما أنتم فيه من العمى وشق العصا، حتى وثبتم على عبد الله بن خباب فقتلتموه وقتلتم أهله وولده بغير ترة كانت منه إليكم ولا دخل[٢]، وهو ابن صاحب رسول الله ﷺ، ولن يغني القعود عن الطلب بدمه، فادفعوا إلينا مَن قتله وقتل أهله وولده وشرك في دمائهم، ولا تقتلوا أنفسكم على عمى وجهل، فتكونوا حديثاً لمن بعدكم.

وبالله أقسم قسماً صادقاً لئن لم تدفعوا إلينا قاتل صاحبنا عبد الله بن خباب لم نصرف عنكم دون أن أقضي فيكم إربي، وبالله أستعين وعليه أتوكل، والسلام والرحمة من الواحد الخلاق على النبيين وعلى عباده الصالحين.

طوى الإمام الكتاب وختمه ودفعه إلى عبد الله بن أبي عقب وأرسله، فأقبل به عبد الله بن أبي عقب إلى الخوارج، حتى إذا صار إلى النهروان تقدم إلى عبد الله بن وهب الراسبي وهو جالس على شاطىء النهروان محتبٍ بحمائل سيفه، وحرقوص بن زهير إلى جانبه ورؤساء الخوارج جلوس حولهم.

سلَّم عبد الله بن أبي عقب ودفع الكتاب إلى عبد الله بن وهب، فأخذه وفضَّه وقرأه عن آخره، ثم ألقاه إلى حرقوص فقرأه، ثم رفع رأسه إلى ابن أبي عقب فقال له: **لولا أنك رسول لألقيت منك أكثرك شَعراً**[٣]، **فمن أنت ؟**

قال: **رجل من الموالي.**

قال: **من أي الموالي أنت ؟**

قال: **من موالي بني هاشم.**

قال: **إني أظنك من هذا الرجل بسبب**[٤] **ـ يعني علي بن أبي طالب ـ .**

فقال: **أنا رجل من أصحابه.**

---

(١) سورة المدثر: ٣٨.

(٢) ترة: تبعة. دخل: بدعة.

(٣) أي لقطعت رأسك.

(٤) أي تربطك به رابطة ما.

قال: أفحلال أنت أم لا ؟

قال: لا بل حرام دمي في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

فقال: ما أراك تعرف كتاب الله.

قال: بلى ، إني لأعرف منه الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني والسفري والحضري.

قال: وتعرف الله حق معرفته؟

فقال: نعم، إني لأعرفه ولا أنكره، أؤمن به ولا أكفره.

قال: وبماذا عرفته؟

قال: برسوله وكتابه المنزل.

قال: صدقت. فأصدقني ما تكون من علي بن أبي طالب ؟

قال: أنا أخوه في الإسلام.

قال عبد الله بن وهب: أو مسلم أنت؟

قال: أنا مسلم والحمد لله.

قال: وما الإسلام؟

قال له ابن أبي عقب: إن الإسلام عشرة أسهم، خاب من لا سهم له فيها، شهادة أن لا إله إلا الله وهي الملة، والصلاة وهي الفطرة، والزكاة وهي الطهر، والصوم وهو الجنة، والحج وهو الشريعة، والجهاد وهو الغزو، والأمر بالمعروف وهو الوفاق، والنهي عن المنكر وهو الحجة، والطاعة وهي العصمة، والجماعة وهي الألفة.

قال: صدقت، فخبرني ما الإيمان ؟

فقال: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون، والرضاء بما جاء من عند الله من سخط أو رضى، والجنة حق، والنار حق، وأن الله يبعث من في القبور...

وهكذا استرسل الطرفان في السؤال والجواب حتى تعجبوا من كلام ابن أبي عقب وعلمه، ثم كتب عبد الله بن وهب جواباً إلى علي بن أبي طالب جاء فيه: وردَ عليّ كتابك مع رسولك، فقرأته وفهمت ما فيه، وأما قولك تأمرني أن ألزم الحق يوم لا يقضي بالحق، فقد صدقت وأنا لازم الحق جهدي وطاقتي، وأما قولك لا أزيغ فيزيغ من معي، فأنت معدن الزيغ وأهله، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]. وأما قولك إن السعيد من سعدت به رعيَّتُه، والشقي من شقيت به رعيَّتُه، فقد صدقتَ وما أعلم سعيداً سَعِدَت به رعيته بعد رسول الله ﷺ غير أبي بكر ومن بعده عمر، ولا أعلم شقياً شقيت به رعيته بعد رسول الله ﷺ غيرك

(١) سورة الصف: ٥.

وغير عثمان بن عفان، والقول كما قلت كثير والتفسير يسير، فمن شاء هذر ونثر، ومن شاء قال بقدَر، وأما قولك أن ادفع إلينا قاتل عبد الله بن خباب فكلنا قتله، وأما ذكرك المسير إلينا لقتالنا، فإذا شئت فاقدم فإنا عازمون على حربك، والسلام[1].

استلم الإمام الكتاب فقرأه ثم نادى في أصحابه وأمرهم بالمسير إلى النهروان، فرحل ورحل الناس معه، حتى إذا صار قريباً من النهروان فإذا برجل قد أقبل مسرعاً على فرس له، فصاح به الإمام: **إليّ !**

فجاء إليه، فقال له علي: **ما وراءك؟**

فقال: **إن القوم لما علموا أنك تقاربت منهم عبروا النهروان هاربين.**

فقال له: **أنت رأيتهم حين عبروا؟**

قال: **نعم.**

قال علي: **كلا والذي بعث بالحق نبياً لا يعبرون ولا يبلغون إلى قصر بوران بنت كسرى حتى يقتل الله مقاتلهم على يدي، فلا يبقى منهم إلا أقل من عشرة، ولا يُقتل من أصحابي إلا أقل من عشرة، ذلك عهد معهود وقضاء مقضي.**

نهض الإمام علي عليه السلام فركب حتى وافى القوم، وإذا هم قد مدُّوا الرماح في وجهه وأصحابه وهم يقولون: **لا حكم إلا لله.**

فقال علي: **لا أنتظر فيكم إلا حكم الله.**

• **بدء المعركة**: عبّأ الإمام أصحابه ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، ثم دعا بعبد الله بن عباس فقال له: **تقدم إلى هؤلاء واحتج عليهم وانظر ماذا يقولون !**

فقال له ابن عباس: **يا أمير المؤمنين أفألقي عني حلتي هذه وألبس درعي ؟ فإني أخاف القوم على نفسي.**

فقال له الإمام: **إني لا أخافهم عليك، فتقدم فها أنا ذا من ورائك.**

تقدم عبد الله بن عباس حتى واجه القوم محاولاً زعزعة قناعاتهم دون جدوى، فالتفت نحو علي فقال: **يا أمير المؤمنين ! إنك قد سمعت الكلام فأنت أحق بالجواب.**

تقدم الإمام حتى إذا واجه القوم سلَّم عليهم، فردوا عليه السلام، ثم قال: **أيها الناس ! أنا علي بن أبي طالب ، فتكلموا بما نقمتم به عليّ !**

فقالوا: **إن أول ما نقمنا به عليك أنا قاتلنا يوم البصرة بين يديك، فلما أظفرك الله بهم أبحتنا ما كان في عسكرهم ومنعتنا النساء والذرية، وكنت تستحل ما كان في العسكر ولا تستحل النساء والذرية.**

فقال لهم علي: **يا هؤلاء ! إن أهل البصرة قاتلونا وبدأوا بقتالنا، فلما أظفرني الله بهم قسمت بينكم سلب من**

---

(١) ابن أعثم : الفتوح. ج ٤. ص ٢٦١ - ٢٦٧.

قاتلكم، ومنعتكم النساء والذرية، لأن النساء لم يقاتلن، والذريَّة ولدوا على فطرة الإسلام، فمنعتُكم الذرية والنساء لأجل ذلك. وقد رأيت رسول الله ﷺ منَّ على أهل مكة يوم فتحها فلم يسب نساءهم ولاذريتهم، وإذا كان النبي منَّ على المشركين فلا تعجبوا منِّي إذا مننت على المسلمين، فلم أسبِ نساءهم ولا ذريتهم.

قالوا: فإنا نقمنا عليك غير هذا، نقمنا عليك يوم صفين في وقت الكتاب الذي كتبته بينك وبين معاوية أنك قلت لكاتبك: اكتب «هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان»، فأبى معاوية أن يقبل أنك أمير المؤمنين، فمحوت اسمك من الخلافة وقلت لكاتبك: اكتب «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان»، فإن لم تكن أمير المؤمنين فأنت أمير الكافرين ونحن مؤمنون، ولا يجب أن تكون أميراً علينا.

فقال علي: يا هؤلاء، إنكم قد تكلمتم فاسمعوا الجواب. أنا كنت كاتب النبي ﷺ يوم الحديبية فقال لي النبي ﷺ: اكتب «هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله وأهل مكة»، فقال أبوسفيان[1]: إني لو علمت يا محمد أنك رسول الله لما قاتلتك، ولكن اكتب صحيفتك باسمك واسم أبيك، فأمرني النبي ﷺ، فمحوت الرسالة من الكتاب وكتبت: «هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأهل مكة»، وإنما محوت اسمي من الخلافة كما محا النبي اسمه من الرسالة، فكانت لي به أسوة.

قالوا: فإنا نقمنا عليك غير هذا، أنك قلت للحكمين: «انظرا في كتاب الله، فإن كنت أفضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة، وإن كان معاوية أفضل مني فأثبتاه في الخلافة»، فإن كنت شاكاً في نفسك أن معاوية أفضل منك فنحن فيك أعظم شكاً.

فقال لهم علي: إنما أردت بذلك النَّصفة لمعاوية، لأني لو قلت للحكمين: احكما لي وذرا معاوية، كان معاوية لا يرضى بذلك، وإنما كان النبي ﷺ لو قال للنصارى لما قدموا عليه من نجران: تعالوا حتى نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم، كانوا لا يرضون بذلك، ولكنه أنصفهم فقال: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[2]، فأنصفهم من نفسه، وكذلك أنصفت أنا معاوية، ولم أعلم لما أراد عمرو بن العاص من خديعة صاحبي.

قالوا: فإنا نقمنا عليك غير هذا، إنك حكّمت حكماً في حق هو لك.

فقال: إن رسول الله ﷺ قد حكّم سعد بن معاذ في بني قريظة ولو شاء لم يفعل، فحكّم فيهم سعد بقتل النساء والرجال وسبي الذرية والأموال، وإنما أقمت حكماً كما أقام النبي ﷺ لنفسه حَكَماً، فهل عندكم شيء غير هذا تحتجون به علي؟

سكت القوم وجعل بعضهم يقول لبعض: صدق فيما قال، ولقد دحض جميع ما احتججنا عليه.

ثم صاح القوم من كل ناحية وقالوا: التوبة، التوبة يا أمير المؤمنين.

---

(١) كذا ورد في كتاب الفتوح لابن أعثم ، وهو خطأ ، والصواب «سهيل بن عمرو».

(٢) سورة آل عمران: ٦١.

فاستأمن إليه منهم ثمانية آلاف، وبقي على حربه أربعة آلاف. ثم دعا الإمام برجل من أصحابه يقال له رُوَيبة بن وبر البجلي، فدفع إليه اللواء وأمره بالتقدم إلى القوم، فتقدم وهو يقول:

لقد عقدَ الإمامُ لنا لواء ... وقدَّمنا أمامَ المؤمنينا
بأيدينا مَثقفةٌ طوالٌ ... وبيضُ المرهفاتِ إذا حَلّينا
نَكرُّ على الأعادي كلَّ يومٍ ... ونَشهدُ حربَهُم مُتوارينا
ونَضرب في العَجاجِ رُؤوسَ قومٍ ... تَراهُم جَاحِدينَ وعَابدينا

فحمل فجعل يقاتل حتى استشهد. وتقدم من بعده عبد الله بن حماد الحميري فقاتل فاستشهد. وتقدم من بعده رفاعة بن وائل الأرحبي فقاتل واستشهد. ثم تقدم من بعده كيسوم بن سلمة الجهني فقاتل فاستشهد. وتقدم من بعده عبد بن عبيد الخولاني فقاتل فاستشهد.

فلم يزل يخرج رجل بعد رجل من أشد فرسان علي حتى قُتل منهم جماعة وهم ثمانية، وأقبل التاسع واسمه حبيب بن عاصم الأزدي فقال: **يا أمير المؤمنين، هؤلاء الذين نقاتلهم أكفارٌ هم ؟**

فقال علي: **من الكفر هربوا وفيه وقعوا.**

قال: **أفمنافقون ؟**

فقال علي: **إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً.**

قال: **فما هم يا أمير المؤمنين حتى أقاتلهم على بصيرة ويقين ؟**

فقال علي: **هم قوم مرقوا من دين الإسلام كما مرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم، فطوبى لمن قتلهم أو قتلوه.**

فعندها تقدم حبيب بن عاصم نحو الشراة وهو التاسع من أصحاب علي فقاتل و استشهد، فاشتبك الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً، ولم يُقتل من أصحاب علي إلا أولئك التسعة.

إشارة إلى ما روي عن النبي أنه قال: يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية... وقد وردت في الخوارج أحاديث عديدة من طرق عديدة في كتب الفريقين نقلها العلامة المجلسي في البحار، ومسلم في صحيحه، وابن كثير في البداية والنهاية، والبيهقي في الدلائل وغيرها.

تقدم رجل من الخوارج يقال له الأخنس العيزار الطائي فحمل على معكسر الإمام علي، فشق الصفوف وقصده علي عليه السلام، فالتقيا بضربتين، فضربه علي فقتله. وحمل ذو الثدية على علي ليضربه بسيفه، وسبقه علي فضربه على بيضته فهتكها، وحمل به فرسه حتى رمى به بعيداً على شط النهروان. وخرج من بعده ابن عم له يقال له مالك بن الوضاح، فحمل على أصحاب الإمام، وحمل الإمام عليه فضربه ضربة ألحقته بأصحابه.

وتقدم عبد الله بن وهب الراسبي حتى وقف بين الجمعين ثم نادى بأعلى صوته: **يا بن أبي طالب، حتى متى يكون هذه المطاولة بيننا وبينك ! والله لا نبرح هذه العرَصة أبداً أو تأبى على نفسك، فابرز إليَّ حتى أبرز إليك وذر الناس جانباً.**

تبسم الإمام ثم قال: **قاتله الله من رجل ما أقل حياءه ! أما إنه ليعلم أني حليف السيف وجديل الرمي، ولكنه أيس من الحياة أو لعله يطمع طمعاً كاذباً.**

ثم حمل الراسبي فضربه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ضربة قاتلة. اختلط القوم فلم تكن إلا ساعة حتى قُتلوا، وقد كانوا أربعة آلاف، فما فلت منهم إلا تسعة نفر، وغنم أصحاب علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك اليوم غنائم كثيرة.

- **بعد النهروان:**

بعد أن فرغ الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من حرب الخوارج في النهروان قام فخطب، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: **أما بعد، فإن الله قد أحسن نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام.**

فقاموا إليه، فقالوا: **يا أمير المؤمنين، نفدت نبالنا، وكلَّت سيوفنا، وانصلتت أسنة رماحنا**[١]**، وعاد أكثرها قصداً**[٢]**. ارجع بنا إلى مصرنا، نستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منا، فإنه أقوى لنا على عدونا.**

فكان جوابه: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾[٣].

فتلكأوا عليه، وقالوا: **إن البرد شديد.**

فقال: **إنهم يجدون البرد كما تجدون.**

فتلكأوا وأبوا. فقال: **أف لكم ! إنها سنة جرت.**

ثم تلا قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**﴾[٤].

فقام منهم ناس فقالوا: **يا أمير المؤمنين، الجراح فاش في الناس** ـ وكان أهل النهروان قد أكثروا الجراح في عسكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ **فارجع إلى الكوفة، فأقم بها أياماً ثم اخرج، خار الله لك !**

فرجع إلى الكوفة عن غير رضاً. ثم إنه لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعة النهروان، أقبل بهم أمير المؤمنين، فأنزلهم النخيلة، وأمر الناس أن يلزموا معسكرهم، ويوطِّنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلّوا زيارة النساء

---

(١) نصلتت : انجردت.

(٢) قصد: جمع قصدة ، وهي الكرة من القناة أو الرمح.

(٣) سورة المائدة: ٢١.

(٤) سورة المائدة: ٢٢.

وأبنائهم، حتى يسير بهم إلى عدوهم، وكان ذلك هو الرأي لو فعلوه، لكنهم لم يفعلوا، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة، فتركوه عَلَيْهِ السَّلَامُ وما معه من الناس إلا رجال من وجوههم قليل ، وبقي المعسكر خالياً، فلا مَن دخل الكوفة خرج إليه، ولا مَن أقام معه صبر. فلما رأى ذلك دخل الكوفة.

فخطب الناس، وهي أول خطبة خطبها بعد قدومه من حرب الخوارج، فقال: **أيها الناس استعدّوا لقتال عدوٍ في جهادهم القربة إلى الله** عَزَّوَجَلَّ، **ودرك الوسيلة عنده، قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه، موزعين**[١] **بالجور والظلم لا يعدلون به، جفاة عن الكتاب، نكَبٌ عن الدين**[٢]**، يعمهون في الطغيان**[٣] **ويتسكعون في غمرة الضلال، فأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً.**

فلم ينفروا، فتركهم أياماً، ثم خطبهم بالخطبة التي ذكرها الشريف الرضي في نهج البلاغة تحت عنوان في استنفار الناس إلى أهل الشام، حيث قال فيها: **أفٍّ لكم، لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذل من العز خلفاً؟! إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم**[٤]**، كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة، يرتج**[٥] **عليكم حواري فتعمهون، فكأن قلوبكم مألوسة**[٦]**، فأنتم لاتعقلون.**

ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي[٧]**، وما أنتم بركن يُمال بكم، ولا زوافر عز يفتقر إليكم**[٨]**. ما أنتم إلا كإبل ضل رعاتها، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر. لبئس ـ لعمر الله ـ سُعُر نار الحرب أنتم**[٩]**! تُكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون، لا يُنام عنكم، وأنتم في غفلة ساهون. غلب والله المتخاذلون! وأيم الله، إني لأظن بكم أنْ لو حمس الوغى**[١٠]**، واستحرّ الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس**[١١]**.**

والله إن امرأ يمكّن عدوَّه من نفسه، يعرق لحمه، ويهشم عظمه، ويفري جلده، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره. أنت فكن ذاك إن شئت[١٢]**، فأما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية، تطير منه فراش الهام**[١٣]**، وتطيح السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء.**

---

(١) أوزعه بالشئ ، إذا أغراه به.

(٢) نكب عن الدين: عدل عنه ولم يأخذ به.

(٣) يعمهون: يتحيرون ويترددون.

(٤) مأخوذة من قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾. سورة الأحزاب: ١٩.

(٥) يرتج: يغلق.

(٦) قلوبكم مألوسة ، من الألس ، بسكون اللام ، وهو الجنون واختلاط العقل.

(٧) سجيس الليالي: أي أبداً.

(٨) زوافر ، جمع زافرة ، وزافرة الرجل: أنصاره وعشيرته والمراد أنه لا يُعتمد عليكم.

(٩) سعر نار الحرب: مشعلوها.

(١٠) حمس الوغى : اشتد القتال.

(١١) أي كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يمنة ونصفه يسرة.

(١٢) روي أن المخاطب هنا هو قيس بن الأشعث الذي أشار على الإمام أن يسلك مسلك الخليفة عثمان بن عفان .

(١٣) فراش الهام : العظام الخفيفة تلي القحف ، والقحف هو عظم الجمجمة.

أيها الناس، إن لي عليكم حقاً، ولكم عليَّ حق، فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقي عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم[١].

قال ابن أبي الحديد: وروى عمرو بن شمر الجعفي، عن جابر، عن رفيع بن فرقد البجلي، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: **يا أهل الكوفة لقد ضربتكم بالدرة التي أعظ بها السفهاء فما أراكم تنتهون ! ولقد ضربتكم بالسياط التي أقيم بها الحدود، فما أراكم ترعوون ! فلم يبق إلا أن أضربكم بسيفي، وإني لأعلم ما يقوّمكم، ولكني لاأحب أن إلي ذلك منكم.**

واعجباً لكم ولأهل الشام ! أميرهم يعصي الله وهم يطيعونه، وأميركم يطيع الله وأنتم تعصونه ! والله لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو سقت الدنيا بحذافيرها إلى الكافر لما أحبني، وذلك أنه قضي ما قضي على لسان النبي الأمي أنه لا يبغضني مؤمن، ولا يحبني كافر، وقد خاب من حمل ظلماً.

والله لتصبرن يا أهل الكوفة على قتال عدوكم أو ليسلطن الله عليكم قوماً أنتم أولى بالحق منهم، فليعذبنكم! أفمن قتْلةٍ بالسيف تحيدون إلى موتة على الفراش! والله لموتة على الفراش أشد من ضربة ألف سيف[٢].

ولعلك تسأل كيف يمدح الإمام عليه السلام أهل الكوفة عندما استنهضهم لحرب الجمل ثم صفين، وهاهو يذمهم ويصفهم بأسوأ الصفات؟ أجاب ابن أبي الحديد على هذا التساؤل حيث قال: قلت: ما أحسن قول أبي العيناء، وقد قال له المتوكل: **إلى متى تمدح الناس وتهجوهم؟!**

فقال: **ما أحسنوا وأساءوا.**

وهذا أمير المؤمنين عليه السلام، وهو سيد البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يمدح الكوفة وأهلها عقيب الانتصار على أصحاب الجمل، بما قد ذكرنا بعضه، وسنذكر باقيه، مدحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر. ويقول للكوفة عند نظره إليها : **أهلاً بك وبأهلك، ما أرادك جبار بكيد إلا قصمه الله.**

ويثني عليها وعلى أهلها حسب ذمِّه للبصرة وعيبه لها ودعائه عليها وعلى أهلها، فلما خذله أهل الكوفة يوم التحكيم، وتقاعدوا عن نصره على أهل الشام، وخرج منهم الخوارج، ومرق منهم المرّاق، ثم استنفرهم بعدُ فلم ينفروا، واستصرخهم فلم يصرخوا[٣]، ورأى منهم دلائل الوهن، وإمارات الفشل، انقلب ذلك المدح ذماً، وذلك الثناء استزاده تقريعاً وتهجيناً.

وهذا أمر مركوز في طبيعة البشر، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك، والقرآن العزيز أيضاً كذلك، أثنى على الأنصار لما نهضوا، وذمَّهم لما قعدوا في غزاة تبوك، فقال: ﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا**

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٢. ص ١٨٩ - ١٩٥.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٢. ص ١٩٥-١٩٦.

(٣) لم يصرخوا: لم يغيثوا.

﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[١] الآيات إلى أن رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي عن رسول الله ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ....﴾[٢] الآية)[٣].

۞ استمرار الغارات:

استمر معاوية على الأسلوب الذي ذكرناه في الغارات، فأرسل لاحقاً النعمان بن بشير الأنصاري، وانتدب الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الناس فتباطأوا، فصعد المنبر متألماً من الوضع، ونزل فما استجاب له إلا عدي بن حاتم، فشكره الإمام، وخرج بمعية ألف من طيء.

ثم أرسل معاويةُ سفيانَ بن عوف الغامدي، الذي أغار على أطراف «هَيت» شمال الأنبار، كما وأغار على الأنبار، وقتل جماعة ومن بينهم عاملها «حسان البكري» وارتكبوا بها ما شاءوا من نهب وجرائم. وقد روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب «الغارات» عن أبي الكنود، قال: حدثني سفيان بن عوف الغامدي، قال: دعاني معاوية، فقال: **إني باعثك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل في المدائن . ثم أقبِل إليّ، واتّق أن تقرب الكوفة. واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة. إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب.**

قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاوية في الناس فخطبهم، فقال: **أيها الناس، انتدبوا مع سفيان بن عوف، فإنه وجهٌ عظيم فيه أجر، سريعة فيه أوبتكم إن شاء الله .**

ثم نزل. قال: فوالذي لا إله غيره ما مرت ثالثة[٤] حتى خرجتُ في ستة آلاف، ثم لزمت شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أني قد غشيتهم فقطعوا الفرات فمررت بها وما بها عريب[٥]، كأنها لم تُحلَل قط[٦]، فوطئتها حتى أمر بصندوداء[٧]، ففروا فلم ألق بها أحداً، فأمضيت حتى أفتتح الأنبار، وقد نُذروا بي[٨]، فخرج

---

(١) سورة التوبة: ٨١.

(٢) سورة التوبة: ١١٨.

(٣) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٢. ص ١٩٦ – ١٩٧.

(٤) أي يوم ثالث.

(٥) أي أحد.

(٦) أي لم تسكن قط.

(٧) صندوداء: قرية كانت في غربي الفرات فوق الأنبار.

(٨) نذروا بي: انتبهوا أو تم تحذيرهم من قدومي.

صاحب المسلحة إلي[١]، فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية، فقلت لهم: **أخبروني، كم بالأنبار من أصحاب علي ؟**

قالوا: **عدة رجال المسلحة خمسمائة، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفة، ولاندري الذي يكون فيها، قد يكون مائتي رجل.**

فنزلتُ فكتَّبت أصحابي كتائب ، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبة بعد كتيبة، فيقاتلهم والله ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها الرجال تمشي، لم يكن شيء حتى تفرقوا وقتل صاحبهم في نحو من ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال، ثم انصرفت، فوالله ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسرّ للنفوس منها. وبلغني ـ والله ـ أنها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاوية، حدثته الحديث على وجهه[٢]، فقال: كنتَ عند ظني بك، لا تنزل في بلد من بلداني إلا قضيت فيه مثل ما يقضي فيه أميره، وإن أحببتَ توليَته ولّيتك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دوني.

قال: فوالله ما لبثنا إلا يسيراً، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الإبل هراباً من عسكر علي.

وروي أنه كان اسم عامل علي عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس[٣] بن حسان البكري. وروي عن حبيب بن عفيف

---

(١) المسحلة: الثغر ومركز المراقبة ، وصاحبها هنا هو حسان بن حسان البكري.

(٢) على وجهه : كما جرت الأمور.

(٣) لعل هذا لقبه.

أنه قال: كنت مع أشرس بن حسان البكري بالأنبار على مسلحتها، إذ صبَّحنا سفيان بن عوف في كتائب تلمع الأبصار منها، فهالونا والله، وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا، وأيم الله لقد قاتلناهم فأحسنَّا قتالهم، حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا وهو يتلو قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[١]. ثم قال لنا: **من كان لا يريد لقاء الله، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية ما دمنا نقاتلهم، فإن قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار.**

ثم نزل في ثلاثين رجلاً، فهممت بالنزول معه، ثم أبت نفسي واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قُتلوا رحمهم الله، وانصرفنا نحن منهزمين.

وقدم علج[٢] من أهل الأنبار على علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخبره الخبر، فصعد المنبر فخطب الناس، وقال: **إن أخاكم البكري قد أصيب بالأنبار، وهو معتز لا يخاف ما كان، واختار ما عند الله على الدنيا، فانتدِبوا إليهم حتى تلاقوهم، فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم[٣] عن العراق أبداً ما بقوا.**

ثم سكتَ عنهم رجاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينبس أحد منهم بكلمة، فلما رأى صمتهم نزل، وخرج يمشي راجلاً حتى أتى النخيلة، والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: **ارجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك.**

فقال: **ما تكفونني ولا تكفون أنفسكم.**

فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو واجم كئيب، ودعا سعيد بن قيس الهمداني، فبعثه من النخيلة في ثمانية آلاف، وذلك أنه أخبر أن القوم جاءوا في جمع كثيف.

فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفرات في طلب سفيان بن عوف، حتى إذا بلغ عانات[٤]، سرَّح أمامه هانئ بن الخطاب الهمداني، فاتبع آثارهم حتى دخل أداني أرض قنِّسرين[٥] وقد فاتوه، فانصرف.

ولبث علي عَلَيْهِ السَّلَامُ تُرى فيه الكآبة والحزن حتى قدم عليه سعيد بن قيس، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ تلك الأيام عليلاً، فلم يقو على القيام في الناس بما يريده من القول، فجلس بباب السدة[٦] التي تصل إلى المسجد، ومعه إبناه حسن وحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وعبدالله بن جعفر، ودعا سعداً مولاه، فدفع إليه الكتاب، وأمره أن يقرأه على الناس، فقام سعد بحيث يستمع علي عَلَيْهِ السَّلَامُ صوته، ويسمع ما يرد الناس عليه، ثم قرأ الخطبة التالية وهي من مشاهير خطبه، قد ذكرها كثير من

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٢) العلج: الرجل من كفار العرب.

(٣) أنكله: جعله يجبن ويهرب.

(٤) عانات: بلد بين الرقة وهيت قريبة من الأنبار.

(٥) تقع قنسرين بالقرب من حلب.

(٦) السدة: فناء الدار.

الناس، وهي كالتالي بحسب رواية الشريف الرضي: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ[١] الوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ البَلاَءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالقَمَاءَةِ[٢]، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ[٣]، وَأُدِيلَ الحَقُّ مِنْهُ[٤] بِتَضْيِيعِ الجِهَادِ، وَسِيمَ الخَسْفَ[٥]، وَمُنِعَ النَّصَفَ[٦].

أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هؤُلاَءِ القَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاَناً، وَقُلْتُ لَكُمُ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ[٧] إِلاَّ ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ.

وَهذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ البَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا. وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ، وَالأُخْرَى المُعَاهَدَةِ[٨]، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلاَئِدَهَا وَرِعَاثَهَا[٩]، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالاسْتِرْجَاعِ[١٠] وَالاسْتِرْحَامِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ[١١]، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً.

فَيَا عَجَباً! عَجَباً. وَاللهِ. يُمِيتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِنِ اجْتِمَاعِ هؤُلاَءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً[١٢]، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى[١٣]: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ! فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الحَرِّ قُلْتُمْ: هذِهِ حَمَارَّةُ القَيْظِ[١٤] أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الحَرُّ[١٥]، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هذِهِ صَبَارَّةُ القُرِّ[١٦]، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا البَرْدُ، كُلُّ هذَا فِرَاراً مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!

(١) جُنّتهُ: وقايته، والجُنّة: كل ما استترت به.

(٢) دُيّثَ ـ مبني للمجهول من دَيّثَهُ ـ أي: ذلّلَهُ.. القَماءة: الصّغار والذل، والفعل منه قَمُؤَ من باب كَرُمَ.

(٣) الإسهاب: ذهاب العقل أوكثرة الكلام، أي حيل بينه وبين الخير بكثرة الكلام بلا فائدة.

(٤) أُديل الحقّ منه، أي: صارت الدولة للحق بَدَلَهُ.

(٥) سيم الخسف أي: أُولي الخسف، وكلّفه، والخسف: الذّل والمشقّة أيضاً.

(٦) النَّصَف: العدل، ومُنع مجهول، أي حُرِمَ العدلَ: بأن يسلط الله عليه من يغلبه على أمره فيظلمه.

(٧) عُقْر الدار : وسطها وأصلها.

(٨) المعاهَدَة: الذميّة.

(٩) الحِجْل : الخلخال. القُلُب ـ بضمتين ـ: جمع قُلْب ـ بالضم فسكون ـ: السوار المُصْمَت. الرعاث ـ جمع رَعثة ـ وهو: ضرب من الخرز.

(١٠) الاسترجاع: ترديد الصوت بالبكاء مع القول: إنّا لله وإنا اليه راجعون،والاسترحام: أن تناشده الرحمة.

(١١) الكلم: الجرح.

(١٢) ترحاً: هماً وحزناً.

(١٣) الغرض: ما ينصب ليرمى بالسهام ونحوها، فقد صاروا بمنزلة الهدف يرميهم الرامون.

(١٤) حَمَارّة القيظ : شدة الحر.

(١٥) التسبيخ: التخفيف.

(١٦) صَبَارّة الشتاء: شدة برده، والقُر: البرد، وقيل هو بردالشتاء خاصة.

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الحِجَالِ[١]، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً. وَاللهِ. جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعقَبَتْ سَدَماً[٢].

قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً[٣]، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالعِصْيَانِ وَالخِذْلاَنِ، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلَكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالحَرْبِ. للهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ العِشْرِينَ، وها أناذا قَدْ ذَرَّفْتُ[٤] عَلَى السِّتِّينَ! وَلكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ[٥]!

وروى المبرد بعدها: فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال: **يا أمير المؤمنين إني وأخي هذا، كما قال الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾[٦]، فمُرْنا بأمرك فوالله لننتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضا وشوك القتاد.**

فدعا لهما بخير وقال: **وأين تقعان مما أريد ؟**

ثم نزل[٧].

وذكر إبراهيم الثقفي أن القائم إليه، العارض نفسه عليه جندب بن عفيف الأزدي، هو وابن أخ له يقال له: عبدالرحمن بن عبد الله بن عفيف. قال إبراهيم: ثم أمر الحارث الأعور الهمداني، فنادى في الناس: **أين من يشتري نفسه لربه ويبيع دنياه بآخرته ؟ أصبحوا غداً بالرحبة[٨] إن شاء الله، ولا يحضر إلا صادق النية في السير معنا، والجهاد لعدونا.**

فأصبح وليس بالرحبة إلا دون ثلاثمائة، فلما عرضهم قال: **لو كانوا ألفاً كان لي فيهم رأي.**

وأتاه قوم يعتذرون، **فقال: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾[٩]، وتخلف المكذِّبون.**

ومكث أياماً بادياً حزنه شديد الكآبة، ثم جمع الناس فخطبهم فقال: **أما بعد، أيها الناس، فوالله لأهل مصركم في الأمصار أكثر من الأنصار في العرب، وما كانوا يوم أعطوا رسول الله** ﷺ **أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين، قريباً مولدهما، ما هما بأقدم العرب ميلاداً، ولا بأكثرهم عدداً.**

---

(١) حِجال: جمع حَجَلة وهي القبة، وموضع يزين بالستور، وربات الحجال: النساء.

(٢) السَّدَم ـ محرّكة ـ: الهم مع أسف أوغيظ، وفعله كفرح.

(٣) النُغب: جمع نُغْبَة كجرعة وجُرَع لفظاً ومعنى. التّهْمَام : الهم. أنفاساً: أي جرعةً بعد جرعة، والمراد أن أنفاسه أمست هماً يتجرّعه.

(٤) ذَرَّفْتُ على الستين: زدتُ عليها، وروى المبرد «نَيّفت»، وهو بمعناه.

(٥) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

(٦) سورة المائدة: ٢٥.

(٧) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ٢ ـ ص ٧٥ – ٨٠ نقلاً عن الكامل للمبرد ـ ج ١ ـ ص ١٠٤ – ١٠٧.

(٨) الرحبة: ساحة كانت بجوار جامع الكوفة.

(٩) إشارة إلى ما جاء في سورة التوبة / ٩٠: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فلما آووا النبي ﷺ وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم القبائل قبيلة بعد قبيلة، فتجردوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين اليهود من الحلف، ونصبوا لأهل نجد وتهامة وأهل مكة واليمامة، وأهل الحزن والسهل، وأقاموا قناة الدين، وصبروا تحت حماس الجلاد، حتى دانت لرسول الله ﷺ العرب، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إليه، وأنتم اليوم في الناس أكثر من أولئك ذلك الزمان في العرب.

فقام إليه رجل آدم طوال ، فقال: **ما أنت بمحمد، ولا نحن بأولئك الذين ذكرت.**

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أحسن سمعاً تحسن إجابة، ثكلتكم الثواكل، ما تزيدونني إلا غماً، هل أخبرتكم أني محمد، وأنكم الأنصار ؟! إنما ضربتُ لكم مثلاً، وإنما أرجو أن تتأسوا بهم.**

ثم قام رجل آخر، فقال: **ما أحوج أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النهروان.**

ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغطوا، وقام رجل منهم فقال بأعلى صوته: **استبان فقدُ الأشتر على أهل العراق**[١]**! أشهد لو كان حياً لقل اللغط، ولعلم كل امرئ ما يقول.**

فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: **هبلتكم الهوابل ! أنا أوْجَب عليكم حقاً من الأشتر، وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم؟!**

فقام حِجر بن عدي الكندي وسعيد بن قيس الهمداني، فقالا: **لا يسوءك الله يا أمير المؤمنين، مرنا بأمرك نتبعه، فوالله ما نعظم جزعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنا إن قُتلت في طاعتك.**

فقال: **تجهزوا للمسير إلى عدونا.**

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: **أشيروا عليَّ برجل صليب ناصح، يحشر الناس من السواد**[٢]**.**

فقال له سعيد بن قيس: **يا أمير المؤمنين، أشيرُ عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب معقل بن قيس التميمي.**

قال: **نعم.**

ثم دعاه فوجَّهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.[٣]

ويناسب هنا أن أنقل كلاماً لابن أبي الحديد في بيان القيمة اللغوية لهذه الخطبة الرائعة لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: واعلم أن التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثروا وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمن جيد ذلك ما قاله ابن نُباتة الخطيب[٤]: **أيها الناس، إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون؟!**

---

(١) أي وضح أثر موته عليهم إذ كان يقودهم في المعارك فيطيعونه.

(٢) السواد، أرض السواد : جنوب العراق ، سمي بذلك لكثرة النخيل به ، والعرب تسمي الأخضر أسوداً.

(٣) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٢. ص ٨٥ – ٩٠ .

(٤) عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي، كان خطيب حلب، وبها اجتمع مع أبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة.

وإلى كم تقرعون بالزجر فلا تقلعون ؟! كأن أسماعكم تمج ودائع الوعظ، وكأن قلوبكم بها استكبار عن الحفظ، وعدوكم يعمل في دياركم عملَه، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه، وهذه البهائم تناضل عن ذمارها، وهذه الطير تموت حمية دون أوكارها، بلا كتاب أنزل عليها، ولا رسول أرسل إليها.

وأنتم أهل العقول والأفهام، وأهل الشرائع والأحكام، تندون من عدوكم نديد الإبل[١]، وتدرعون له مدارع العجز والفشل، وأنتم والله أولى بالغزو إليهم، وأحرى بالمغار عليهم لأنكم أمناء الله على كتابه، والمصدقون بعقابه وثوابه، خصَّكم الله بالنجدة والبأس، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس، فأين حمية الإيمان؟ وأين بصيرة الإيقان؟ وأين الإشفاق من لهب النيران؟ وأين الثقة بضمان الرحمن؟ فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾[٢]، فاشترط عليكم التقوى والصبر، وضمن لكم المعونة والنصر، أفتتهمونه في ضمانه ؟ أم تشكون في عدله وإحسانه ؟

فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نقية، ونفوس أبية، وأعمال رضية، ووجوه مضية، وخذوا بعزائم التشمير، واكشفوا عن رؤوسكم عار التقصير، وهبوا نفوسكم لمن هو أملك بها منكم، ولا تركنوا إلى الجزع فإنه لا يدفع الموت عنكم، ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[٣].

فالجهاد الجهاد أيها الموقنون، والظفر الظفر أيها الصابرون ! والجنة الجنة أيها الراغبون ! والنار النار أيها الراهبون ! فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان.

وإن من ناصح الله لبين منزلتين مرغوب فيهما، مجمع على تفضيلهما: إما السعادة بالظفر في العاجل، وإما الفوز بالشهادة في الآجل، وأكره المنزلتين إليكم أعظمهما نعمة عليكم، فانصروا الله فإن نصره حرز من الهلكات حريز ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٤].

هذا آخر خطبة ابن نباتة، فانظر إليها وإلى خطبته عَلَيْهِ السَّلَامُ بعين الإنصاف، تجدها بالنسبة إليها....[٥] أو كسيف من رصاص بالإضافة إلى سيف من حديد، وانظر ما عليها من أثر التوليد وشين التكلف وفجاجة كثير من الألفاظ ، ألا ترى إلى فجاجة قوله: كأن أسماعكم تمج ودائع الوعظ وكأن قلوبكم بها استكبار عن الحفظ ! وكذلك ليس يخفى نزول قوله: تندون من عدوكم نديد الإبل، وتدرعون له مدارع العجز والفشل.

وفيها كثير من هذا الجنس، إذا تأمله الخبير عرفه، ومع هذا فهي مسروقة من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ألا

---

(١) تندون: تشردون.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٥.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٦.

(٤) سورة الحج: ٤٠.

(٥) حذفنا العبارة تعففاً ، ومن أراد فليراجع المصدر.

ترى أن قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة**، قد سرقه ابن نباتة، فقال: **فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان !**

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **من اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرقكم عن حقكم**، سرقه أيضاً، فقال: **صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه.**

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم** ... إلى آخره، سرقه أيضاً، فقال: **كم تسمعون الذكر فلا تعون، وتقرعون بالزجر فلا تقلعون ؟**

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان**، سرقه أيضاً، وقال: **وعدوكم يعمل في دياركم عمله، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله.**

وأما باقي خطبة ابن نباتة فمسروق من خطب لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أُخَر، سيأتي ذكرها[١]. واعلم أني أضرب لك مثلاً تتخذه دستوراً في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلام الكتاب والخطباء بعده كابن نباتة والصابئ وغيرهما، انظر نسبة شعر أبي تمام والبحتري وأبي نؤاس ومسلم، إلى شعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى، هل إذا تأملت أشعار هؤلاء وأشعار هؤلاء، تجد نفسك حاكمة بتساوي القبيلين أو بتفضيل أبي نؤاس وأصحابه عليهم ؟ ما أظن أن ذلك مما تقوله أنت ولا قاله غيرك، ولا يقوله إلا من لا يعرف علم البيان، وماهية الفصاحة، وكُنه البلاغة، وفضيلة المطبوع على المصنوع، ومزية المتقدم على المتأخر.

فإذا أقررت من نفسك بالفرق والفضل، وعرفت فضل الفاضل ونقص الناقص، فاعلم أن نسبة كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هؤلاء هذه النسبة، بل أظهر، لأنك تجد في شعر امرئ القيس وأصحابه من التعجرف والكلام الحوشي[٢]، واللفظ الغريب المستكره شيئاً كثيراً، ولا تجد من ذلك في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ شيئاً، وأكثر فساد الكلام ونزوله إنما هو باستعمال ذلك.

فإن شئت أن تزداد استبصاراً، فانظر القرآن العزيز ـ واعلم أن الناس قد اتفقوا على أنه في أعلى طبقات الفصاحة ـ وتأمله تأملاً شافياً، وانظر إلى ما خص به من مزية الفصاحة والبعد عن التقعير والتقعيب[٣] والكلام الوحشي الغريب ، وانظر كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنك تجده مشتقاً من ألفاظه، ومقتضباً من معانيه ومذاهبه، ومحذواً به حذوه، ومسلوكاً به في منهاجه، فهو وإن لم يكن نظيراً ولا نداً، يصلح أن يقال إنه ليس بعده كلام أفصح منه ولا أجزل، ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل، إلا أن يكون كلام ابن عمه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا أمر لا يعلمه إلا من ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر، بل ولا لانتقاد الذهب، ولكل صناعة أهل، ولكل عمل رجال[٤].

---

(١) ولكننا لن نذكرها في هذا الكتاب .

(٢) الحوشي : القاسي .

(٣) التقعير: التقعيب: التشدق.

(٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة. ج ٢ . ص ٨٠ - ٨٣

ولأمير المؤمنين عليه السلام كلمة أخرى تعليقاً على ما ورد إليه من نبأ بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء حرب النهروان، حيث جمع الناس، وحضّهم على الجهاد، فسكتوا ملياً، فقال عليه السلام: **ما بالكم ؟! أمخرسون أنتم ؟**

فقال قوم منهم: **يا أمير المؤمنين، إن سرْت سرنا معك.**

فقال عليه السلام: **مَا بَالُكُمْ! لاَ سُدِّدْتُمْ لِرُشْد! وَلاَ هُديتُمْ لِقَصْد! أَفِي مِثْل هذَا يَنْبَغي لي أَنْ أَخْرُجَ؟ إِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْل هذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلاَ يَنْبَغي لي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ، وَالْمِصْرَ، وَبَيْتَ الْمَالِ، وَجِبَايَةَ الأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ[١]، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ[٢] مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا[٣]. هذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ. وَاللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ. وَلَوْ قَدْ حُمَّ[٤] لِي لِقَاؤُهُ. لَقَرَّبْتُ رِكَابِي[٥] ثُمَّ شَخَصْتُ[٦] عَنْكُمْ، فَلاَ أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ.**

طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ. إِنَّهُ لاَ غَنَاءَ[٧] فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ. لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ[٨]، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ)[٩].

۞ المشهد الإداري:

كان ما سبق وصفاً عاماً للمشهد الأمني في نواحي سلطة الإمام علي عليه السلام بعد التحكيم ثم النهروان، وأما المشهد الإداري بعد التحكيم فقد شهد حالة من الفوضى، نهباً لبيت المال، أو إنفاقاً في غير ما يرضي الله، أو بيعاً للولاءات وغير ذلك مما أدمى قلب الإمام، لا سيما وأن بعض الذين خالفوا المواثيق وخانوا الأمانة كانوا ممن أحسن الإمام بهم ظناً، لسابقتهم، أو لقربهم منه ونهوضهم معه في الملمّات.

وفي نهج البلاغة نماذج كثيرة من الرسائل والخطب التي توضّح هذه الصورة، وهي خارجة عن هدف كتابنا هذا، ولذا فلن نتعرّض لها، ومن أحب فليراجع قسم الخطب من نهج البلاغة ليرى فيها العدد الكبير من الكلمات التي يتحدّث فيها الإمام عن حب الدنيا، والتذكير بالموت، وأمثال ذلك مما كان يمثّل معالجات لمشكلة إيمانية وأخلاقية عمّت الناس، وخصّت بعض المقرّبين. كما وأن قسم الكتب من نهج البلاغة يشتمل على العديد من الرسائل التي

---

(١) القِدْح: السهم قبل أن يُرَاشَ وَيُنْصَلَ. الجَفِير: الكنانة توضع فيها السهام.

(٢) اسْتَحَارَ: تَرَدّدَ واضطرب.

(٣) الثِّفال : جلد يُبْسَطُ ويوضع الرّحا فوقه فيطحن باليد ليسقط عليه الدقيق.

(٤) حُمّ: قُدّر.

(٥) قَرّبت ركابي: حزمت إبلي وأحضرتها للركوب.

(٦) شَخَصْتُ: بعدتُ عنكم و تخليت عن أمر الخلافة.

(٧) الغَنَاء: النفع.

(٨) الهالك ـ هنا ـ: الذي حُتّم هلاكه لتمكن الفساد من طبعه وجبلّته.

(٩) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١١٨.

وجهها الإمام لولاته وعمّاله تحذيراً أو تنبيهاً أو تهديداً أو عزلاً بسبب ما صدر أو احتمل صدوره من مخالفات من قبل أولئك المسؤولين، ومن بينها الكتاب الثالث لقاضي الكوفة شريح، والخامس للأشعث بن قيس، والتاسع عشر والعشرون لزياد بن أبيه، والأربعون وهو موجه إلى أحد عماله، والحادي والأربعون لعبدالله بن عباس، والخامس والأربعون لعثمان بن حنيف، والحادي والخمسون إلى عماله على الخراج، والحادي والسبعون إلى المنذر بن الجارود العبدي وغيرها من الكتب.

ولابد أن ننتبه إلى أن بعض تلك الصور هي نتاج تحريك وإغواء من معاوية، أو نتيجة توسع نطاق حكمه على حساب الأمصار التي كانت تحت ولاية الإمام عليه السلام.

لذا فقد وجد الإمام عليه السلام أنه لابد من الخروج لمواجهة معاوية في حرب جديدة كي ينهي هذا الاضطراب الحاصل، ويعيد الأمور إلى نصابها، فما دامت الأوضاع مضطربة، والكفة راجحة لصالح معاوية، فإن الناس على استعداد للتخلي عن قيمهم ومبادئهم.

استشهاد الإمام:

ومن هنا وقف قبل أسبوع من استشهاده تقريباً وخطب، فكان فيما قال بعد أن وعظ وطرح مجموعة من القيم والمباديء الإيمانية: (**أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُوالشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ؟**

قال: ثمّ ضرب عليه السلام **بيده إلى لحيته، فأطال البكاء، ثمّ قال: أَوْه عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوا. ثمّ نادى بأعلى صوته: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ! أَلاَ وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذَا، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ**)[1].

وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الانصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين بعد انتهاء شهر رمضان من سنة ٤٠. فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم، فتراجعت العساكر، فكان الناس كأغنام فقدت راعيها، تختطفها الذئاب من كل مكان.

قال الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل: كان سبب قتله عليه السلام أن عبدالرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصريمي واسمه الحجاج وعمرو بن أبي بكر التميمي السعدي، وهم من الخوارج، اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس وعابوا الولاة ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم[2]، وقالوا: **ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فلو شرينا أنفسنا لله وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم البلاد.**

فقال ابن ملجم: **أنا أكفيكم علياً.**

---

(١) الرضي: نهج البلاغة برقم ١٨٢.

(٢) أي الخوارج الذين قتلوا في حرب النهروان.

وقال البرك بن عبد الله: **أنا أكفيكم معاوية.**

وقال عمرو بن بكر: **أنا أكفيكم عمرو بن العاص.**

فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، وجعلوا موعدهم التاسع عشر أو السابع عشر من شهر رمضان، فأتى ابن ملجم الكوفة فلقي أصحابه بها، وكتمهم أمره، ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب ومعهم امرأة منهم اسمها قطام بنت الأخضر التيمية قُتل أبوها وأخوها في النهروان، وكانت فائقة الجمال، فخطبها، فقالت: **لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف وعبدٍ وقينةٍ**[1] **وقَتْلِ علي.**

فقال: **أما قتل علي فما أراك ذكرته وأنت تريدينني.**

قالت: **بل التمس غرته فإن أصبته شفيت نفسك ونفسي ونفعك العيش معي، وإن قُتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها !**

قال: **والله ما جاء بي إلا قَتْل علي، فلكِ ما سألتِ.**

قالت: **سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك.**

بعثت قطام إلى رجل من قومها اسمه وردان فأجابها، وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع اسمه شبيب بن بجرة، فقال: **هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟**

قال: **وما ذاك؟**

قال: **قتل علي بن أبي طالب.**

قال شبيب: **ثكلتك أمك ! لقد جئت شيئاً إدّاً . كيف تقدر على قتله ؟**

قال: **اكمن له في المسجد، فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه.**

قال: **ويحك لو كان غير علي كان أهون، قد عرفت سابقته وفضله وبلاءه في الإسلام، وما أجدني أنشرح لقتله .**

قال: **أما تعلمه قتَل أهل النهر العباد الصالحين ؟**

قال: **بلى.**

قال: **فلنقتله بمن قتل من أصحابنا.**

فأجابه، فلما كان ليلة الجمعة[2]، وهي الليلة التي واعد ابن ملجم فيها أصحابه على قتل علي ومعاوية وعمرو،

---

(١) قينة: أمَة.

(٢) هكذا في تاريخ الطبري وكامل ابن الأثير ، وأما ما ورد عن أبي مخنف فينص على أنه ضُرب ليلة الأربعاء وقُبض ليلة الجمعة ولعل وقع اشتباه بين ليلة الضرب وليلة الوفاة .

جاءوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة فدعت لهم بالحرير وعصبتهم به. جلس المتآمرون مما يلي السدة التي كان يخرج منها أمير المؤمنين عليه السلام إلى الصلاة، فلما خرج نادى: **الصلاة الصلاة.**

فضربه شبيب بالسيف، فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطلق[1]، وضربه ابن ملجم على قرنه بالسيف، وقال: **الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك.**

وقال أبو الفرج الأصفهاني: فضربه ابن ملجم فأثبت الضربة في وسط رأسه.

وقال ابن عبد البر: فقال علي: **فزت ورب الكعبة، لا يفوتنّكم الرجل.**

وروى أبو الفرج بسنده عن عبد الله بن محمد الأزدي قال: إني لأصلي في تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر كانوا يصلون في ذلك الشهر من أوله إلى آخره، إذ نظرت إلى رجال يصلون قريباً من السدَّة، إذ خرج علي بن أبي طالب عليه السلام لصلاة الفجر، فأقبل ينادي: **الصلاة الصلاة.**

فما أدري أنادَى أم رأيت بريق السيوف، وقائلاً يقول: **الحكم لله يا علي، لا لك ولا لأصحابك**، وسمعت علياً يقول: **لا يفوتنكم الرجل**[2].

هرب القوم نحو أبواب المسجد وتبادر الناس لأخذهم، فأما شبيب فأخذه رجل فصرعه، وجلس على صدره وأخذ السيف ليقتله به، فرأى الناس يقصدون نحوه فخشي أن يعجلوا عليه ولم يسمعوا منه، فوثب عن صدره وخلاه وطرح السيف من يده، ومضى شبيب هارباً حتى دخل منزله، ودخل عليه ابن عم له فرآه يحل الحرير عن صدره، فقال له: **ما هذا؟ لعلك قتلت أمير المؤمنين؟**

فأراد أن يقول له «لا»، فقال: **نعم.**

فمضى ابن عمه واشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله.

وأما ابن ملجم فلحقه رجل من همدان فطرح عليه قطيفة ثم صرعه وأخذ السيف من يده، وجاء به أمير المؤمنين عليه السلام، وأفلت الثالث وانسلّ بين الناس.

قدَّم الإمام علي عليه السلام جعدة بن هبيرة وهو ابن أخته أم هانيء يصلي بالناس الغداة، وخرج الحسن والحسين عليهما السلام وأخذا ابن ملجم وأوثقاه، واحتُمل أمير المؤمنين عليه السلام فأُدخل داره، فقعدت لبابة عند رأسه وجلست أم كلثوم عند رجليه، ففتح عينيه فنظر إليهما فقال: **الرفيق الأعلى خير مستقراً وأحسن مقيلاً.**

ثم عرق ثم أغمي عليه ثم أفاق، فقال: **رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يأمرني بالرواح إليه عشاءً ثلاث مرات.**

وأُدخل ابن ملجم على أمير المؤمنين وهو مكتوف، فقال: **أي عدو الله، ألم أُحسِن إليك؟**

قال: **بلى.**

---

(١) الطلق: حبل مفتول شديد الفتل.

(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين. ص ٢١.

قال: **فما حملك على هذا؟**

قال: **شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه!**

قال علي: **لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله.**

ثم قال: **النفس بالنفس، إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيتُ فيه رأيي. يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قُتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلنّ إلا قاتلي، انظر يا حسن، إذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثلن بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.**

وأما البرك بن عبد الله فإنه في تلك الليلة قعد لمعاوية، فلما خرج ليصلي الغداة شدّ عليه بسيفه، فوقع في إليته، فأُخِذ، فقال: **إن عندي خبراً أسرك به، فان أخبرتك فنافعي ذلك عندك ؟**

قال: **نعم.**

قال: **إن أخاً لي قَتل علياً في مثل هذه الليلة.**

قال: **لعله لم يقدر على ذلك ؟**

قال: **بلى، إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه.**

فأمر به معاوية فقُتل.

جُمع لعلي عليه السلام أطباء الكوفة يوم جُرح فلم يكن أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هاني السكوني، وكان أبصرهم بالطب، وكان متطبباً يعالج الجراحات، فلما نظر إلى الجرح أخذ رئة شاة حارة فتتبع عرقاً منها فاستخرجه وأدخله في الجرح، ثم نفخ العرق فاستخرجه فإذا عليه بياض الدماغ، فقال: يا أمير المؤمنين إعهد عهدك، فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك.

• **اللحظات الأخيرة من حياته:** وقد أوصى الإمام عليه السلام مَن حوله عدة وصايا من بينها قوله: **وصيتي لكم ألا تشركوا بالله شيئاً، ومحمد ﷺ، فلا تضيِّعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخلاكم ذم ! أنا بالأمس صاحبكم، واليوم عبرة لكم، وغداً مفارقكم، إن أبقَ فأنا وليُّ دمي، وإن أفنَ فالفناء ميعادي، وإن أعفُ فالعفو لي قربة، وهو لكم حسنة، فاعفوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾[١] والله ما فجأني من الموت وارد كرهته، ولا طالع أنكرته، وما كنت إلا كقارب ورَد، وطالب وجَد، ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[٢].**

وفي وصية له لابنيه الحسن والحسين: (**أُوصيكُمَا بِتَقْوَى الله، وَأَنْ لاَ تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا[٣]، وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ[٤] عَنْكُمَا، وَقُولاَ بِالْحَقِّ، وَاعْمَلاَ لِلأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً. أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي**

(١) سورة النور: ٢٢.

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ـ ج ١٥ ـ ص ١٤٣ – ١٤٥ . والآية من سورة آل عمران: ١٩٨.

(٣) لاتَبْغِيا الدنيا وإن بَغَتْكُما: لاتطلباها وإن طلبتكما.

(٤) زُوِيَ: أي قُبِض ونحي عنكما.

وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا ﷺ يَقُولُ: «صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاَةِ الصِّيَامِ». اللهَ اللهَ فِي الأَيْتَامِ، فَلاَ تُغِبُّوا[١] أَفْوَاهَهُمْ، وَلاَ يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ، لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلاَةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لاَ تُخْلُوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا[٢]. وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لاَ تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ).

ثم قال: **(يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلاَ لاَ تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي. انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلاَ يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ[٣]، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»)[٤].**

وأخذ السم مأخذه في جسد الإمام عليه السلام، فأوصى ابنه الحسن وآل بيته، وأسلم قلبه إلى السكينة وهدوء البال، ينفرد بأشواقه، في انتظار لحظة القضاء، فلقد عهد عهده، وأدى ما عليه، وجالد الدنيا لينقّي الأنفس، وينشر النور، وإن هي إلا لحظات ثم يكون لقاؤه بأحب الخلق إليه... رسول الله.

وفي تلك اللحظات التي بدت وكأنها قرون من الزمن، كانت عيون آل علي ومحبيه تترقب كل حركة وسكنة لعلها تشهد بارقة أمل تنفرج بها هذه الغمة، وآذانهم تصغي إلى تمتمات ذلك اللسان الذي طالما لهج بذكر الله، وما زال يكرر أحلى ذكرٍ إلى قلبه... لا إله إلا الله... ولكنها بدأت تتناغم مع دقات القلب الطاهر، في تباطؤ قاتل، ويخبو معها ذلك الصوت العلوي شيئاً فشيئاً، حتى جاء أمر الله الذي لا يفوته فائت، وأسلم الإمام روحه الزكية، مطمئناً راضياً مرضياً.

ارتفعت الصيحة في الدار، فعلم أهل الكوفة أن أمير المؤمنين عليه السلام قد قُبض، وأقبل الرجال والنساء يهرعون أفواجاً أفواجاً، وصاحوا صيحة عظيمة، فارتجت الكوفة بأهلها، وكثر البكاء والنحيب، وكثر الضجيج بها وقبائلها ودورها وجميع أقطارها، ولم ير قط باكياً كذلك اليوم ـ عدا يوم وفاة حبيبه رسول الله ـ فدهم البشرية كلها بداهمة قصماء، أصمّت النُّبل والشرف والمثُل الرفيعة التي تُعز الإنسان، وأحرقت الأمة بنار الحزن الذي لا يطفئ لهبه بكاء...

فالسلام عليك يا أبا الحسن يا أمير المؤمنين، طبت حياً وطبت شهيداً، السلام عليكم وعلى آلك الطاهرين الذين حملوا راية الإسلام من بعدك، وقدموا في سبيله كل ما يملكون، وخطُّوا بدمائهم وأنفسهم وتضحياتهم كلمات الحق من نهج الحق الذي مثّله علي عليه السلام بعقله وروحه وبدنه الزاكي.

---

(١) اغبّ القوم: جاءهم يوماً وترك يوماً، أي صِلوا أفواههم بالاطعام ولا تقطعوه عنها.

(٢) لم تُنَاظَرُوا: لم ينظر اليكم بالكرامة، لا من الله، ولا من الناس، لاهمالكم فرض دينكم.

(٣) وَلاَ يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ: لا تمثلوا به، من التمثيل، وهو التشويه بعد القتل أو قبله بقطع الأطراف مثلاً.

(٤) الشريف الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٤٧.

مصادر
الكتـــــاب

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم
٢. الأخبار الطوال: أحمد بن داود الدينوري
٣. الاختصاص: محمد بن محمد النعمان المفيد
٤. الإرشاد: محمد بن محمد بن نعمان المفيد
٥. أروع ما قيل في الشجاعة: سعيد اللحام
٦. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبدالبر يوسف بن أحمد القرطبي
٧. أسد الغابة: ابن الأثير علي بن محمد الشيباني
٨. الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني
٩. أطلس القرآن: شوقي أبوخليل
١٠. أطلس تاريخ الإسلام: حسين مؤنس
١١. الأعلام: خير الدين الزركلي
١٢. أعيان الشيعة: محسن الأمين
١٣. الأمالي: محمد بن علي الصدوق
١٤. الإمام علي بن أبي طالب: عبدالفتاح عبدالمقصود
١٥. إمتاع الأسماع: أحمد بن علي المقريزي
١٦. الإمتاع والمؤانسة: أبوحيان علي بن محمد التوحيدي
١٧. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ناصر مكام الشيرازي
١٨. أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى البلاذري
١٩. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي
٢٠. تاج العروس: مرتضى الزبيدي
٢١. تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات
٢٢. تاريخ الإسلام: محمد بن أحمد الذهبي
٢٣. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري
٢٤. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم: محمد طاهر الكردي
٢٥. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي
٢٦. تاريخ دمشق: ابن عساكر علي بن الحسن الشافعي
٢٧. التفسير الكبير: محمد بن عمر الفخر الرازي
٢٨. تهذيب خصائص أمير المؤمنين: أحمد بن علي النسائي
٢٩. التوحيد: محمد بن علي الصدوق
٣٠. الجرأة والشجاعة عند العرب: محمد عبدالرحيم
٣١. الخرائج والجرائح: قطب الدين سعيد بن عبدالله الراوندي
٣٢. خصائص الأئمة: محمد بن الحسين الشريف الرضي
٣٣. الخصال: محمد بن علي الصدوق

٣٤. خلفاء الرسول: خالد محمد خالد
٣٥. ديوان أبي تمام: حبيب بن أوس المعروف بأبي تمام
٣٦. ديوان أبي فراس الحمداني: الحارث بن سعيد الحمداني
٣٧. ديوان السيد الحميري: السيد إسماعيل بن محمد الحميري
٣٨. ديوان المتنبي: أبوالطيب أحمد بن الحسين المتنبي
٣٩. ديوان النابغة الذبياني: زياد بن معاوية النابغة الذبياني
٤٠. ديوان الهذليين
٤١. ديوان طرفة بن العبد: طرفة بن العبد الوائلي
٤٢. ذخائر العقبى: أحمد بن عبدالله الطبري
٤٣. رسائل المرتضى: علي بن الحسين الشريف المرتضى
٤٤. روائع نهج البلاغة: جورج جرداق
٤٥. الروضة من الكافي: محمد بن يعقوب الكليني
٤٦. سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي
٤٧. السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي
٤٨. سيد المرسلين: جعفر السبحاني
٤٩. سيرة الإمام البطل علي بن أبي طالب: محمد عبدالحافظ
٥٠ السيرة الحلبية: علي الحلبي
٥١. السيرة النبوية: عبدالملك بن هشام الحميري
٥٢. شجرة طوبى: محمد مهدي الحائري
٥٣. شرح إحقاق الحق: شهاب الدين المرعشي النجفي
٥٤. شرح أصول الكافي: محمد صالح المازندراني
٥٥. شرح صحيح مسلم: يحيى بن شرف النووي
٥٦. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد عبدالحميد بن هبة الله
٥٧. شيخ البطحاء: حسين الشاكري
٥٨. الصراط المستقيم: علي بن محمد العاملي
٥٩. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد
٦٠. العشرة المبشرون بالجنة: طه عبدالله العفيفي
٦١. العقد الفريد: أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسي
٦٢. علل الشرائع: محمد بن علي الصدوق
٦٣. علي في الكتاب والسنة والأدب: حسين الشاكري
٦٤. عيون الأخبار: ابن قتيبة محمد بن مسلم الدينوري
٦٥. عيون الحكم والمواعظ: علي بن محمد الواسطي
٦٦. الغدير: عبدالحسين أحمد الأميني
٦٧. الفتوح: ابن أعثم الكوفي
٦٨. الفصول المختارة: علي بن الحسين الشريف المرتضى
٦٩. الفصول المهمة: ابن الصباغ المالكي
٧٠. في إنقاذ التاريخ الإسلامي: حسن بن فرحان المالكي

٧١. في خطى علي: نصري سلهب
٧٢. في رحاب أهل البيت: محمد حسين فضل الله
٧٣. في رحاب علي: خالد محمد خالد
٧٤. الكامل في التاريخ: ابن الأصير علي بن محمد الشيباني
٧٥. كحل البصر في سيرة سيد البشر: عباس القمي
٧٦. كشف الغطاء: جعفر كاشف الغطاء
٧٧. كشف الغمة في معرفة الأئمة: علي بن عيسى الإربلي
٧٨. كنز العمال: علي بن حسام الدين المتقي الهندي
٧٩. كنز الفوائد: محمد بن علي الكراجكي
٨٠. لسان العرب: ابن منظور محمد بن مكرم المصري
٨١. لسان الميزان: ابن حجر بن علي العسقلاني
٨٢. مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي
٨٣. المحاسن والأضداد: عمرو بن بحر الجاحظ
٨٤. المحاسن والمساويء: إبراهيم بن محمد البيهقي
٨٥. محاضرات الأدباء: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني
٨٦. المخصص: علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده
٨٧. المدونة الكبرى: مالك بن أنس
٨٨. المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري
٨٩. مستند الشيعة: أحمد بن محمد مهدي النراقي
٩٠. مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل
٩١. المصنف: عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي
٩٢. معجم البلدان: ياقوت الحموي
٩٣. المعيار والموازنة: محمد بن عبدالله الإسكافي
٩٤. المغازي: محمد بن عمر الواقدي
٩٥. مقاتل الطالبيين: أبوالفرج الأصفهاني
٩٦. مقاصد الطالب: أحمد البرزنجي الشافعي
٩٧. من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله
٩٨. المناقب: الموفق بن أحمد بن محمد الخوارزمي
٩٩. مناقب آل أبي طالب: محمد بن علي بن شهراشوب
١٠٠. ميزان الحكمة: محمد المحمدي الريشهري
١٠١. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي
١٠٢. نهج البلاغة: محمد بن الحسين الشريف الرضي
١٠٣. نهج السعادة: محمد باقر المحمودي
١٠٤. وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي
١٠٥. وسيلة المآل: أحمد بن المفضل بن باكثير الحضرمي
١٠٦. وسيلة النجاة: المولوي محمد مبين الهندي
١٠٧. وقعة صفين: نصر بن مزاحم المنقري